فرانتز كافكا

الأعمال القصصية الكاملة

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمة
د. رمضان مهلهل

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

فرانتز كافكا

الأعمال القصصية الكاملة..

ترجمة: د. رمضان مُهلهْل

عن الكتاب.. والكاتب..

في عام 2003 اجري استطلاع للرأي في النرويج لأهم مئة كتاب أدبي في التاريخ التي تصلح لكل الأزمنة وتساعد في تشكل الوعي الإنساني، وشارك في هذا الاستبيان كتاب عالميين، وأعلنت نتائجه في معهد نوبل وكان فرانتز كافكا هو الكاتب الوحيد الذي اختيرت جميع كتبه من بين المئة كتاب. أثر كافكا بالعديد من الكتاب العالميين منهم الكاتب الالماني المعاصر مارتن فالرز الذي كان موضوع أطروحته للدكتوراه "الشكل القصصي عند فرانتز كافكا"، وكانت محاولاته القصصية في تلك المرحلة متأثرة بشكل كبير بأسلوب كافكا ويقول صراحة عن ذلك أن "مصيري الأدبي قد تقرر بقراءته آثار كافكا". وقد أعجب ساراماغو الحائز على جائزة نوبل بكافكا وقال انه كاتبه الخاص وانه من أعظم الكتاب في تاريخ الادب فيما يشير الكاتب الياباني وكتاباته المستقبلية.

ولم يقتصر تأثير كافكا على الكتاب بل شمل هذا التأثير مبدعين كثر في مجالات عديدة، فقد تم تبني أعماله في المسرح والسينما والتلفزيون والإذاعة والموسيقى والرسم وعرضها بأساليب متنوعة ومتجددة عن طريق هذه الفنون.

المُترجِم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

في عام 2003 أُجريَّ استطلاع للرأي في النرويج، لأهم مئة كتاب أدبي في التاريخ، التي تصلح لكل الأزمنة وتساعد في تشكيل الوعي الإنساني، وشارك في هذا الاستبيان كتاب عالميين، وأُعلِنت نتائجه في معهد نوبل، وكان فرانتز كافكا هو الكاتب الوحيد الذي أُختيرت جميع كتبه من بين المئة كتاب.

أثر كافكا بالعديد من الكتاب العالميين، منهم الكاتب الألماني المعاصر، مارتن فالرز، الذي كان موضوع اطروحته للدكتوراه «الشكل القصصي عند فرانتز كافكا»، وكانت محاولاته القصصية في تلك المرحلة متأثرة بشكل كبير بأسلوب كافكا، ويقول صراحة عن ذلك إن «مصيري الأدبي قد تقرر بقراءة آثار كافكا»، وقد أُعجب ساراماغو الحائز على جائزة نوبل بكافكا وقال إنه كاتبه الخاص وإنه من أعظم الكتاب في تاريخ الأدب، فيما يشير الكاتب الياباني الشهير، هاروكي موراكامي، إلى أن كتابات كافكا شكلت صدمة كبيرة له، وأثرت في كتاباته المستقبلية.

ولم يقتصر تأثير كافكا على الكتاب بل شمل هذا التأثير مبدعين كُثر في مجالات عديدة، فقد تم تبني أعماله في المسرح والسينما والتلفزيون والإذاعة والموسيقى والرسم وعرضها بأساليب متنوعة ومتجددة عن طريق هذه الفنون .

وعلى الرغم من مواصلة كافكا الكتابة حتى أيامه الأخيرة، إلا أنه لم يكن مقتنعًا بنتاجه الأدبي، ما دعاه لترك وصية توجه بضرورة تدمير كتاباته غير المنشورة، ومن حسن الحظ، أن صديقه ومنفذ وصيته، ماكس برود، لم يأخذ بهذه التعليمات.

عاش كافكا أربعين عامًا، وأمضى طيلة حياته العملية موظفًا، ولم يتح له التفرغ للكتابة، فقد كان يكتب في أوقات فراغه وأيام العطل وفي الليالي وأبدع جميع آثاره في فترات متقطعة خلال أحد عشر عامًا ونصف العام، بين أيلول 1912 وآذار 1924.

نشر رائد «الكتابة الكابوسية» خلال حياته المجموعة القصصيّة «تأمل» 1904، والأخرى «طبيب ريفي» 1916، و«المسخ» 1912، ونُشرت 1915، وبعد رحيله عمد صديقه ماكس على نشر كل «المحاكمة» عام 1925، تبعتها «القلعة» عام 1926، و«أمريكا» عام 1927 و«سور الصين العظيم»، وهي مختارات من قصصه القصيرة، عام 1931، والحقيقة أن أعمال كافكا خلال حياته لم تحظ بالإقبال كما حظيت به بعد وفاته، فلقد أقدم الألمان في عهد هتلر على حرق أعماله بالإضافة الى 20 ألف كتابٍ آخر في ميدان برلين بحجة أنها تفتقد إلى الروح الألمانية، أما الآن تُعد مخطوطات كافكا من أغلى مخطوطات الكتاب الألمان، ففي عام 1988 ابتاعت ألمانيا في المزاد العلني في لندن، مخطوطة رواية «المحاكمة» بمبلغ (1,1) مليون جنيه إسترليني، أي ما يعادل (3,5) مليون مارك ألماني، وقد اشتركت ثلاث هيئات ألمانية في دفع هذا المبلغ، وهي (الحكومة الإتحادية، وحكومة

مقاطعة بادن فيرتمبرغ، والمؤسسة الثقافية التابعة لمجلس القطاعات) وكانت هذه الهيئات قد رصدن مبلغ (2,3) مليون جنيه أسترليني لشراء المخطوطة. وهذا يثبت أهمية ما تركه كافكا وما تفتخر ألمانيا بكونه أحد مخرجاتها وانجازاتها الحضارية.

ولد كافكا في أجواء معقدة ومضطربة، في عام 1883، في براغ، التي كانت حينها جزءًا من الإمبراطورية النمساوية، لعائلة ألمانية يهودية، ليعاني لاحقًا من هويته الألمانية من النمساويين، ومن هويته اليهودية من الألمان، ولم تقتصر معاناة كافكا على أزمة هويته وظروف بلاده السياسية، فقد كانت نشأته وطفولته الخاضعة لسلطة والده وطبيعته القاسية سببًا في تشكل النزعة الكابوسية والسوداوية في أدب كافكا، وكان أشد ما كشف من طبيعة هذه العلاقة ما كتبه في «رسالة إلى الوالد» التي لم يرسلها إليه أبداً، وفي كتابه (المحاكمة) حيث يقبل الشاب حكم الموت الذي أصدره عليه والده ويغرق، وفي رواية (أمريكا) التي تحكي عن صبي يُدعى كارل روسمان والذي ترسله عائلته إلى أمريكا، حيث يتم استغلال براءته وبساطته في كل مكان يسافر فيه. وكانت أمريكا بمثابة (الأب الجائر)، وحتى في نهاية حياته كانت صورة والده تتجلى في يومياته حيث كتب في المشفى: هاتان ليلتان متواليتان وأنا أبصق الدم. بوسعي القول إني مزقت نفسي بنفسي، فالتهديد العنيف العبثي الذي قد اعتاد والدي على النطق به «سأُقطعك كما أقطع سمكة.. هذا التهديد يتحقق بصورة مستقلة عني».

أما عن حياة كافكا العاطفية فلقد مر بثلاث تجارب للخطوبة ولكنه مع ذلك ظل عازفًا عن الزواج. ويلقي بذلك اللوم على والده فقد جاء في رسائله إليه «تظل أبواب الزواج موصدة أمامي لكون الزواج مجالك الخاص بك. وأحياناً أتصور خريطة العالم مفتوحة وأنت ممدد فوقها بالعرض. ومن ثم يبدو لي أنه بالنسبة لحياتي لا يدخل في الحسبان سوى المناطق التي لا تغطيها أو التي لا تقع في نطاقك». وكانت من أبرز علاقاته النسائية، علاقته مع ميلينا التي كان لها الحظ الأوفر من رسائله التي بدأها معها عام 1920، ويبدو كافكا في رسائله الى ميلينا «متخليًا عن صرامته الفنية وقوانين كتاباته الكابوسية لصالح بث هواجسه الإنسانية العميقة والمؤثرة، من خوف وأمل وبعد وقطيعة وحرمان وأحلام، فالرسائل هي الطوق الذي استنجد به كافكا ليعالج صراعاته واضطراب شخصيته الهشة»، ونُشرت الرسائل باللغة الألمانية في عام 1952، بعنوان «رسائل إلى ميلينيا»، وفي عام 1953، كان أوّل إصدار لها باللغة الإنجليزية، وصدرت عن دار الرافدين، بترجمة، علي سعد، عام 2018.

التحق كافكا بجامعة شارلز-فيردناند الألمانية في براغ، وبدأ بدراسة الكيمياء، ولكنه تحول إلى دراسة القانون بعد أسبوعين فقط من التحاقه بالجامعة. وكان يأخذ إلى جانب ذلك فصول في تاريخ الفن والدراسات الألمانية، وقام بالانضمام إلى نادي طلابي عُرف باسم (قاعة قراءة)، مع نهاية العام الأول في الدراسة كان كافكا قد التقى بماكس برود، زميله بدراسة القانون الذي أصبح بعد ذلك أعز أصدقائه المقربين حتى نهاية حياته.

بعد دراسة القانون في جامعة براغ، عمل كافكا في مجال التأمين وكتب في الجرائد المسائية، وخلال هذه الفترة كتب قصته القصيرة الأكثر شعبية والأكثر مبيعًا (المسخ) وأنهاها عام 1912 ونُشِرت عام 1915. ثم ألَّف مجموعة من القصص القصيرة في عام 1913، ثم قصة أمام القانون وهي حكاية رمزية قد ضُمِنَت فيما بعد، في رواية المحاكمة والتي كُتِبَت بين عامي 1914 و1915.

في عام 1927، نشر رواية «أمريكا» التي عبر فيها كافكا عن حبه لكتب السفر وشوقه لرؤية العالم. وفي عام 1931، نشر برود القصة القصيرة «سور الصين العظيم» التي كتبها كافكا قبل 14 عامًا.

ولأن فن كافكا بأكمله يكمن في إجبار القارئ على إعادة قراءته، كما يقول البير كامو، لذا عمدت دار الرافدين على إصدار «الأعمال القصصية الكاملة» لفرانتز كافكا، بترجمة د. رمضان مهلهل سدخان، وتشمل مجموعة من قصصه الطوال، تليها قصص قصار، ومقطوعات قصيرة، التي نشرها كافكا خلال حياته والمواد التي اختارها ماكس برود للنشر بعد وفاة كافكا.

اختار كافكا عناوين القصص بالنسبة للمواد التي نشرها هو بنفسه. أما جميع الحكايات الأخرى فقد عنونها ماكس برود، باستثناء «وصف النضال»، و«مدير مدرسة القرية»، و«راكب الدلو»، و«سور الصين العظيم»، و«الهجين»، و«مشكلة قوانيننا»، حيث خطّت عناوينها بيد كافكا.

ولم تُدرج «المسخ»، لأنها تُعد رواية قصيرة (وقد صدرت منفصلة عن هذه الأعمال بترجمة نبيل حفار، بالتعاون مع دار تكوين 2018)، كذلك لم تدرج قصة «الوقّاد»، رغم أن كافكا نشرها بوصفها قصة منفصلة، فلم تُدرَج هنا؛ إذ إن مكانها الصحيح هو الفصل الأول من رواية «أمريكا». كذلك ثمة حواران مقتضبان هما، «حوار مع المتوسلين» و«حوار مع السكارى»، أيضاً نشرهما كافكا، لكنهما حُذِفا من هذه المجموعة؛ وظهرا في سياقهما الصحيح في قصة «وصف النضال». ولم تُدرج قصة «أمام القانون»، التي ظهرت في رواية «المحاكمة»؛ وقصة «رسالة إمبراطورية»، التي كان مكانها في قصة «سور الصين العظيم».

في تموز 1924 بعد وفاة كافكا بشهر كتب ماكس برود: «من أُتيح له أن يستمع إلى كافكا وهو يتلو من آثاره، في حلقة صغيرة، بحماس يأخذ النفس إيقاع لن يبلغ مثل حيويته قط، كان يحس بشكل مباشر رغبة الإبداع الحقيقية الجامحة والولع الذي كان يقف وراء هذه الآثار».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فرانتز كافكا

ولد فرانتز كافكا في براغ عام 1883، وهو ابن تاجر تشيكي يهودي ثري. درس القانون وعمل في شركة تأمين في براغ. عكف على تدوين مذكراته التي حلّل فيها بلا هوادة حياته الداخلية. في العام 1912 التقى بشابة من برلين، هي فليسي (فليس) باور، وارتبط بها مرتين لفترة قصيرة. إن شؤون حبّه غير المقنعة، وعلاقته بوالده، واستقامته الفكرية المتعنتة وحساسيته السايكوباثية في الأغلب، تضافرت في تدهور صحته وفي العام 1917 اكتشف بأنه يعاني من السل. استقال من وظيفته لفترة قصيرة فيما بعد وبقي في مصحات مختلفة. في العام 1920 قابل ميلينا جيسينسكا ـ بولاك، التي أخذ يتراسل معها فيما بعد. وفي العام 1939 قابل دورا ديامانت وعاش معها لبعض الوقت في برلين. إلاّ أن تفاقم مرضه جعله يعود أدراجه إلى براغ قبل أن يدخل مصحّة بالقرب من فينا. توفي سنة 1924.

نشر كافكا أعمالاً قليلة في حياته وترك توجيهات تفيد بضرورة تدمير كتاباته غير المنشورة. إلاّ أن هذه التعليمات لم يأبه بها صديقه ومنفّذ وصيته ماكس برود. وهكذا ظهرت «المحاكمة» عام 1925، تبعتها «القلعة» عام 1926، و«أمريكا» عام 1927 و«سور الصين العظيم»، وهي مختارات من قصصه القصيرة، عام 1931.

ووصف أحد النقّاد كافكا بأنه «علامة عصره ونتاجه، وهو يصوّر بدقة مرعبة مأزق الإنسان العصري بحثاً عن الروح».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصص الطوال

تقرير إلى الأكاديمية

أعضاء الأكاديمية المبجلون!

لقد شرّفتموني بدعوتي إلى إعطاء الأكاديمية تقريراً عن الحياة التي عشتها سابقاً كقرد.

يؤسفني بأنني لا أستطيع الامتثال لطلبكم إلى الحد الذي تريدونه. لقد مضى الآن ما يقرب من خمس سنوات مذ كنتُ قرداً، وهي مدة قصيرة من الزمن، ربما، وفقاً للتقويم، لكنها تعدّ وقتاً طويلاً بلا حدود إذ يُقضى بالجري بأقصى سرعة، مثلما فعلت، يرافقني تقريباً مرشدون رائعون، ونصيحة جيدة، وتصفيق، وموسيقى أوركسترالية، ومع ذلك فأنا وحدي، لأن جميع حرّاسي، لأضعكم في الصورة، بقوا بعيدين تماماً. ولما تمكنتُ أبداً من تحقيق ما قمتُ به لو كنتُ تشبثتُ بعنادٍ بأصولي، أي بذكريات شبابي. في الحقيقة، إن التخلي عن العناد كان أمراً سامياً اضطلعتُ به؛ إذ عندما كنتُ قرداً طليقاً، اسلمتُ نفسي إلى هذا النير. وانتقاماً لذلك، على أي حال، فإن ذكرى الأيام الماضية قد أوصدت الباب في وجهي أكثر وأكثر. كان بإمكاني أن أعود في البداية، لو سمحتْ بذلك الكائنات البشرية، من خلال ممر واسع سعة امتداد السماء على الأرض، ولكن بينما دفعتُ نفسي إلى الاستمرار في حياتي المهنية القسرية، ضاقتْ خلفي الفسحة وتقلّصتْ؛ شعرتُ براحة أكثر في عالم البشر وتماهيتُ معه بشكل أفضل؛ فالرياح العاتية التي كانت تهبّ بعدي من الماضي الذي عشته بدأتْ تهدأ؛ واليوم ليست هناك سوى نفخة لطيفة من الهواء تداعب كعبيّ؛ والفسحة في المسافة، التي من خلالها يأتي {الهواء} ومن خلالها جئتُ ذات مرة، قد اصبحت صغيرة جداً بحيث، حتى لو كانت قوتي وإرادتي تكفيان للعودة بي مرة أخرى إليها، لابد أن يحتك جلدي ذاته حتى أزحف من خلالها. ولتوضيح ذلك، تماماً بقدر ما أحب التعبير عن نفسي في الصور، ولتوضيح ذلك أقول: إن حياتكم كالقرود، أيها السادة، طالما يقبع خلفكم شيء ما من ذلك النوع، لا يمكن انتزاعها منكم أكثر من انتزاعها مني. مع ذلك يشعر الجميع على الأرض بدغدغة عند كعوبهم؛ الشمبانزي الصغير والأخيل العظيم على حد سواء.

لكن على أقل تقدير يمكنني أن ألبّي طلبكم، وبالفعل أنا أفعل ذلك بسعادة غامرة. كان أول شيء تعلمته هو المصافحة؛ فالمصافحة ترمز إلى الصراحة؛ حسناً، اليوم، بينما أقف الآن في ذروة حياتي المهنية نفسها، يحدوني أمل بإضافة صراحةِ الكلمات إلى صراحةِ المصافحة الأولى تلك. ما يجب أن أقوله إلى الأكاديمية لا يسهم بأي شيء جديد أساساً، وسوف يقبع بعيداً وراء ما سألتموني عنه وما لا أستطيع أن أنقله مهما امتلكتُ أفضل إرادة في العالم ـ مع ذلك، فإنه ينبغي الإشارة إلى الخط الذي تحتّم على القرد في وقت سابق أن يتبعه في الدخول وترسيخ نفسه في عالم البشر. رغم ذلك فإنني لم أتمكن من المخاطرة في وصف حتى مثل هذه المعلومات التافهة التي سوف أعطيكم إياها لو لم أكن متأكداً تماماً من نفسي، ولو لم يكن موقفي من جميع مراحل التنوع الكبيرة في العالم المتحضر قد أصبح منيعاً تماماً.

أنا أنتمي إلى ساحل الذهب. ومن أجل قصة أسري يجب أن أعتمد على شهادة الآخرين. وهكذا فإن بعثة تفتيش أرسلتْها شركة هاجنبيك ـ بالمناسبة، لقد احتسيتُ العديد من زجاجات النبيذ الأحمر الجيدة منذ ذلك الحين مع زعيم تلك البعثة ـ كانت قد أخذتْ موقعها في الأدغال بجانب الشاطئ عندما نزلتُ للشرب مساءً بين مجموعة من القرود. أطلقوا النار علينا؛ وكنتُ الوحيد الذي أصيب؛ حيث أصبتُ في موضعين.

واحدة في الخد؛ وهو جرح طفيف؛ لكنه ترك ندبة حمراء كبيرة واضحة أكسبتْني اسم بطرس الأحمر، وهو اسم فظيع، غير مناسب تماماً، لا يمكن ان تفكر فيه سوى بعض القردة، كما لو أن الفرق الوحيد بيني وبين القرد بطرس، الذي توفي منذ وقت ليس ببعيد، والذي حظي بشيء من سمعة محلية صغيرة، كان يكمن في العلامة الحمراء على خدي. هذا على سبيل التوضيح.

أما الإطلاقة الثانية فقد أصابتني تحت الورك. أحدثتْ جرحاً بليغاً، وهو السبب في أنني أضلع قليلاً في مشيتي حتى هذا اليوم. قرأتُ مقالاً مؤخراً بقلم واحد من عشرة آلاف ثرثار نفّسوا عما بداخلهم فيما يتعلق بي في الصحف، قائلاً: إن طبيعتي القردية ليست حتى الآن تحت السيطرة تماماً؛ والدليل على ذلك أنه عندما يأتي الزوار لرؤيتي، يكون لدي ميل لإنزال بنطلوني لأريهم مكان اختراق الإطلاقة. إن اليد التي كتبت ذلك ينبغي أن تقذف أصابعها الواحد تلو الآخر. بالنسبة لي، يمكنني أن أنزل بنطلوني أمام أي شخص عندما يروق لي ذلك؛ ولن تجد شيئاً سوى فراء مرتّب بشكل جيد والندبة التي صنعتْها ـ اسمح لي أن أكون دقيقاً في اختيار كلمةٍ لهذا الغرض بالذات، لتجنب سوء الفهم ـ إطلاقة طائشة. كل شيء واضح وصريح؛ لا شيء أُخفيه؛ عندما تكون الحقيقة الناصعة قيد الدرس، فإن عقولاً جبارة تتجاهل دقة التعبير. ولكن لو قيّض لكاتب المقالة إنزال بنطلونه أمام أحد الزوار، لكانت تلك قصة أخرى، ومن جانبي سأجعلها تضاف إلى رصيده بأنه لا يفعل ذلك. في المقابل، فلْيتركني وشأني متفضلاً!

بعد هاتين الإطلاقتين ثبتُ إلى رشدي ـ وهذا هو المكان الذي تبدأ فيه ذكرياتي تدريجياً ـ بين الدكات في الباخرة هاجنبيك، داخل قفص. لم يكن قفصاً ذا أربعة جوانب مزودة بقضبان؛ بل كان مجرد قفص ذي ثلاثة جوانب مثبّت بمسامير إلى خزانة؛ هذه الخزانة هي التي صنعت جانبه الرابع. كان البناء كلّه منخفضاً جداً بالنسبة لي بحيث لا يمكنني الوقوف فيه وكان ضيقاً جداً بحيث لا أستطيع الجلوس فيه. لذلك كان عليّ أن أجلس القرفصاء مع بقاء ركبتيّ مثنيتين وترتجفان طوال الوقت، وأيضاً، ربما لأنه لفترة من الوقت كنتُ أتمنى أن لا أرى أيّ أحد، وأبقى في الظلام، حوّلت وجهي نحو الخزانة بينما قضبان القفص تحزّ بجسدي من الخلف. من المفترض أن يكون لهذه الطريقة في تقييد الوحوش البرية مزاياها أثناء الأيام الأولى من الأسر، ومن خلال تجربتي لا أستطيع أن أنكر بأنه من وجهة النظر البشرية هذه هي الحال بالفعل.

لكن ذلك لم يحدث لي بعد ذلك. إذ لأول مرة في حياتي لم أتمكن من رؤية أيّ مخرج؛ على الأقل ليست هناك أي وسيلة مباشرة للخروج؛ حيث كانت أمامي

مباشرة خزانة، اللوح مثبت بالقرب من اللوح. صحيح أن هناك فجوة تمرّ مباشرة من خلال الألواح التي فرحتُ بها بصرخة جهل سعيدة عندما اكتشفتها لأول مرة، إلاّ أن الثقب لم يكن واسعاً بما يكفي ليمرّ الذيل من خلاله وليس بمقدور كل قوى قردٍ أن يوسّعه.

من المفترض أنني أصدرتُ ضوضاء قليلة غير اعتيادية، كما أبلغوني في وقت لاحق، حيث استنتجوا منها بأنني إما أن أموت قريباً أو إذا تمكنتُ من النجاة من الفترة الحرجة الأولى فسأكون قابلاً جداً للتدريب. وفعلاً نجوتُ من هذه الفترة. إذ كنتُ أنتحب بلا أمل، وأفتّش بألم عن البراغيث، وألعق جوز الهند بلا مبالاة، وأضرب جمجمتي بالخزانة، وأخرج لساني بوجه أي شخص كان يقترب مني ـ هكذا كنتُ أشغل وقتي في البداية في حياتي الجديدة. ولكن فضلاً عن ذلك كله لا ينتابني سوى شعور واحد وهو: ليس هناك مخرج. بالطبع إن ما شعرتُ به حينها بوصفي قرداً لا أستطيع تمثله الآن إلاّ بعبارات بشرية، ومن ثم فأنا أسيء تمثيل ذلك الشعور، لكن على الرغم من أنني لا يمكن أن أعود إلى الوراء إلى حقيقة حياة القرد القديمة، فإنه ليس هناك شك في أن تلك الحقيقة تقبع في مكان ما في الاتجاه الذي أشرتُ إليه.

حتى ذلك الحين كانت أمامي الكثير من الطرق للخروج من كل شيء، والآن ليس لدي أيّ شيء. فأنا مقيّد. وحتى لو كنتُ مسمَّرا، لَما قلّتْ فرصتي في حرية الحركة. لماذا هكذا؟ خربشْ بدنك بين أصابع قدميك، لكنك لن تجد الإجابة. اضغط نفسك على القضيب الحديدي خلفك حتى يقطعك إلى قسمين تقريباً، ولن تجد الجواب. لم يكن لدي أي وسيلة للخروج ولكن كان على أن أبتكر وسيلة ما، لأنه من دونها لا يمكنني أن أعيش. طوال الوقت أنا بمواجهة هذه الخزانة ـ لابد أن أكون قد هلكتُ بالتأكيد. مع ذلك وبقدر تعلّق الأمر بالباخرة هاجنبيك، فإن المكان المخصص للقردة كان أمام الخزانة ـ حسناً إذن، يجب أن أتوقف عن كوني قرداً. ثمة سلسلة جميلة، واضحة من الأفكار، لابد أنني قد توصلتُ إليها ببطني، لأن القرود تفكر ببطونها.

أخشى بأنك ربما لا تفهم تماماً ما أعنيه بـ «المخرج». إنني أستخدم هذا التعبير بمعناه الأكمل والأكثر شعبية. وأنا بشكل عمدي لا أستخدم كلمة «الحرية.» إذ لا أقصد الشعور الواسع بالحرية من جميع الجوانب. بوصفي قرداً، ربما، كنتُ أعرف ذلك، وقد التقيتُ برجال ممن يتوقون إلى ذلك. لكن من جهتي فإنني لم أرغب في هذه الحرية لا سابقاً ولا الآن. وبشكل عابر: يمكنني أن أقول بأن الناس في كثير من الأحيان تخونهم كلمة الحرية. وكما تُحسب الحرية من بين أكثر المشاعر سمواً، من ثم أن خيبة الأمل المقابلة يمكن أن تكون سامية أيضاً. في مسارح متنوعة كنتُ غالباً ما أشاهدها، وقبل أن يأتي دوري، كان بهلوانيان يؤديان على أراجيح عالية في السقف. كانا يؤرجحان نفسيهما، ويذهبان جيئة وذهاباً، وينطّان في الهواء، ويتقلبان بين ذراعيّ بعضهما الآخر، أحدهما تدلّى بواسطة الشعر من أسنان الآخر. وفكرتُ، «وتلك أيضاً تمثّل حرية الإنسان، وهي حركة مسيطر عليها ذاتياً». يا لسخرية الطبيعة الأم المقدسة! وإذا قيّض للقردة رؤية مثل هذا المشهد، فلا يمكن أن تتحمّل جدران المسرح صدمة ضحكاتهما.

كلا، ليست الحرية منيتي. الحرية وسيلة للخروج ليس إلا؛ من اليمين أو من اليسار، أو في أيّ اتجاه؛ ليس لدي أيّ مطلب آخر؛ حتى لو كان المخرج وهماً؛ وكان المطلب صغيراً، فإن خيبة الأمل لا يمكن أن تكون أكبر. لابد من الخروج إلى مكان ما، لابد من الخروج! فقط من أجل عدم البقاء بلا حراك مستسلماً، ومنسحقاً في جدار خشبي.

اليوم أستطيع أن أراه بوضوح؛ فمن دون الهدوء الداخلي الأكثر عمقاً لا أستطيع قط أن أجد طريقي إلى الخارج. بل ربما أدين بكل ما حلّ بي إلى الهدوء الذي استقرّ داخلي بعد الأيام القليلة الأولى التي قضيتها في السفينة. ومرة أخرى لابد لي أن أشكر طاقم السفينة على ذلك الهدوء.

ثمة مخلوقات لطيفة، على الرغم من كل شيء. كما أنني أجد أنه من دواعي سروري أن أتذكر صوت وقع أقدامهم الثقيلة التي ما فتئ صداها يتردد في رأسي نصف الحالم. فقد كان من عادتهم القيام بكل شيء بأبطأ ما يمكن. وإذا ما أراد أحدهم فرك عينيه، فإنه يرفع إحدى يديه وكأنها ثقل يتدلى. دعاباتهم jests كانت فظة، لكنها ودودة. وضحكاتهم دائماً ما كانت نباحاً غليظاً بدا خطيراً لكنه خالٍ من المعنى. كان لديهم دائماً شيء ما في أفواههم يبصقونه ولم يهمهم أين {يبصقونه}. كانوا دائمي التذمر لأنه طالتْهم البراغيث مني؛ مع ذلك لم يكونوا غاضبين من ذلك؛ فهم عرفوا بأن فرائي كان يرعى البراغيث، وأن البراغيث تقفز؛ إذ إن هذه كانت مسألة بسيطة بالنسبة لهم. وعندما كانوا بلا عمل ففقد اعتاد بعضهم في الغالب على الجلوس على شكل نصف دائرة حولي؛ لم يتحدثوا ولكنهم يهمهمون فقط لبعضهم بعضا؛ يدخنون غلايينهم، ويمدّون أنفسهم على الخزانات؛ ويضربون ركبهم عند أقلّ حركة كنتُ أقوم بها؛ وبين الفينة والفينة يأخذ أحدُهم عصا ويدغدغني في المكان الذي أحبّ أن يدغدغني فيه. ولو دُعيتُ اليوم للقيام برحلة بحرية على ظهر تلك السفينة فإنني بالتأكيد أرفض الدعوة، ولكن الذكريات بالتأكيد التي أستطيع أن أتذكرها بين دكّاتها لن تكون كلها بغيضة.

إن الهدوء الذي اكتسبته بين هؤلاء الناس أبعدني قبل كل شيء من محاولة الهرب. وأنا أنظر إلى الوراء الآن، يبدو لي بأن عليّ أن أمتلك على الأقل فكرة من أجل ضرورة إيجاد وسيلة للخروج أو أموت، لكن طريق خروجي لا يمكن الوصول إليه من خلال الهرب. لا يمكنني أن أقول الآن ما إذا كان الهرب ممكناً، لكنني أعتقد بأنه لابد أن يكون كذلك؛ إذ بالنسبة للقرد يجب أن يكون ذلك ممكناً دائماً. فبأسناني كما هي عليه اليوم يجب أن أكون حذراً حتى في مسألة تكسير المكسرات، لكن في ذلك الوقت كنتُ أستطيع بالتأكيد أن أعضّ بالتدريج على قفل قفصي. لكنني لم أقم بذلك. إذ ما هو الشيء الجيد الذي يمكن أن أجنيه من فعلتي هذه؟ وحالما أخرجتُ رأسي فلابد أن يُمْسَك بي مرة أخرى وأوضع في قفص أسوأ من السابق؛ أو ربما أكون قد ضعتُ بين الحيوانات الأخرى من دون أن يلاحظني أحد، بين الثعابين، مثلاً، التي كانت قبالتي، وهكذا أسلم روحي بين احتضانها؛ أو لنفترض بأنني قد نجحت فعلاً في التسلل حتى سطح السفينة والقفز على متنها، عندها لابد أن أرتطم قليلاً في غياهب البحر ومن ثم أكون قد غرقتُ. وهذه علاجات يائسة. لم أكن افكّر فيها بهذه

الطريقة البشرية، ولكن تحت تأثير محيطي تصرفتَ كما لو كنتَ قد فكرتَ فيها ملياً.

لم أفكر في الأشياء ملياً؛ إلاّ أنني كنتُ أُلاحظ كل شيء بهدوء. شاهدتُ هؤلاء الرجال يروحون ويجيئون، الوجوه نفسها دائماً، الحركات نفسها، في كثير من الأحيان كان يبدو لي بأنه ليس هناك سوى الشخص نفسه. لذلك كان هذا الرجل أو هؤلاء الرجال يسيرون دونما عائق. ولاحَ أمامي الهدف النبيل. إذ لا أحد وعدني بأنه إذا ما أصبحتُ مثلهم فإن قضبان القفص سوف تُرفَع. ومثل هذه الوعود نظراً للحالات الطارئة المستحيلة لا يمكن إعطاؤها. لكن إذا ما حقّق المرءُ المستحيلَ، تظهر الوعود في وقت لاحق بأثر رجعي بالضبط حيث كان المرء قد بحث عبثاً عنها من قبل. الآن، هؤلاء الرجال بحد ذاتهم لم يكن لديهم أي جاذبية كبيرة بالنسبة لي. لو كنتُ قد كرستُ نفسي لفكرة الحرية المذكورة سابقاً، لكنتُ فضّلت بالتأكيد البحر العميق على المخرج الذي لاح في الوجوه الثقيلة لهؤلاء الرجال. على أي حال، كنتُ أشاهدهم لفترة طويلة قبل أن أفكر حتى في مثل هذه الأمور، في الحقيقة، وكان الكم الهائل لملاحظاتي هو الذي دفعني في الاتجاه الصحيح.

كان من السهل جداً تقليد هؤلاء الناس. تعلمتُ أن أبصق أثناء الأيام الأولى بالذات. لقد اعتدنا على أن نبصق في وجوه بعضنا بعضا؛ وكان الفرق الوحيد هو أن أنظف وجهي من البصاق بعد ذلك بينما هم لم يفعلوا ذلك. وسرعان ما كنتُ أستطيع أن أدخن غليوناً مثل خبير؛ وإذا ما ضغطتُ أيضاً بإبهامي على رأس الغليون، عمّ هدير ينمّ عن تثمين هذا الفعل بين أسطح السفينة؛ لكن استغرق مني وقتاً طويلاً جداً فهم الفرق بين الغليون الكامل والغليون الفارغ.

وجاءت أسوأ مشكلة لي من زجاجة المسكر. إذ اصابتني رائحتها بالتقزّز؛ وأجبرتُ نفسي عليها بأفضل ما أستطيع؛ لكن الأمر استغرق أسابيع للسيطرة على نفوري. هذا الصراع الداخلي، الغريب جداً، قد أخذه الطاقم على محمل الجد أكثر من أي شيء آخر عني. لا أستطيع تمييز الرجال عن بعضهم بعضا في ذاكرتي، لكن كان هناك أحدهم حيث يأتي مراراً وتكراراً، سواء وحده أم مع أصدقائه، نهاراً، وليلاً، وفي جميع الأوقات؛ كان يضع نفسه قبالتي مع الزجاجة ويعطيني التعليمات. لم يكن بوسعه أن يفهمني، كان يريد ان يحلّ لغزَ وجودي. وببطء فتح الزجاجة ومن ثم نظر إليّ ليرى إن كنتُ قد اتّبعْته؛ أنا أعترف بأنني كنتُ دائماً أراقبه بلهفة كبيرة، وبحرص شديد؛ مثل هذا الطالب من الجنس البشري لم يجده أي مدرس بشريّ على وجه البسيطة. بعد أن فُتِحت الزجاجة رفعها إلى فمه؛ وتابعتها بعينيّ حتى بلغت فكيّه تماماً؛ أومأ برأسه، وهو مسرور بي، ووضع الزجاجة على شفتيه. بينما أنا، المأخوذ بتفتّق ذهني التدريجي، اخذتُ ازعق واخربش جسمي بشكل كلي حيثما دعت الحاجة إلى الخربشة؛ انتشى، وأمالَ الزجاجة، واحتسى شربة؛ أنا، النافد الصبر والمستميت لمحاكاته، لوّثت نفسي في قفصي، حيث أعطاه هذا مرة أخرى رضا كبيراً؛ وبعد ذلك، بينما يحمل الزجاجة على طول ذراعه ويجلبها بتمايل، قام بإفراغها بجرعة واحدة، وهو يميل إلى الوراء في زاوية مبالغ فيها من أجل تعليمي بشكل أفضل. بالنسبة لي، بسبب إعيائي جراء بذل جهود كبيرة، لم أستطع متابعته

أكثر من ذلك وتعلقت بضعف على القضبان، في حين أنهى عرضه النظري بفرك بطنه وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

بعد النظرية جاء التطبيق. ألم أكن بالفعل منهكاً تماماً بتعليماتي النظرية؟ في الواقع كنتُ كذلك؛ منهك إلى أبعد حد. كان ذلك جزءً من مصيري. ومع ذلك وددتُ أن أمسك بالزجاجة قدر استطاعتي؛ وافتحها، وأنا أرتجف؛ هذا العمل الناجح يلهمني تدريجياً بطاقة جديدة؛ رفعتُ الزجاجة، محتذياً بنموذجي الأصلي بالضبط تقريباً؛ ووضعتها على شفتيّ و...

ومن ثم رميتها باشمئزاز، اشمئزاز مطلق، على الرغم من أنها كانت فارغة وتفوح منها فقط رائحة المشروب الروحي، رميتها على الأرض باشمئزاز. وسط حزن معلمي، ووسط الحزن الأكبر الذي اعتمل في نفسي؛ إذ لم يكن كلانا مرتاحاً حقاً بحقيقة أنني لم أنسَ، على الرغم من أنني قد ألقيت بالزجاجة، أن أفرك بطني بخيلاء وابتسم.

وفي كثير من الأحيان كان درسي ينتهي بتلك الطريقة. ومما يُحسب لأُستاذي، أنه لم يكن غاضباً؛ أحيانا في الواقع كان يحمل غليونه المشتعل نحو معطفي الفرو، حتى يأخذ يحترق في مكان ما لم أستطع الوصول إليه بسهولة، لكن بعد ذلك يبادر بنفسه إلى إطفائه بيده الحنونة، الهائلة؛ لم يغضب عليّ، فهو أدرك بأننا نقاتل على الجانب نفسه ضد طبيعة القرود وبأن لدي مهمة أصعب.

يا له من انتصار إذن سواء بالنسبة له أو بالنسبة لي، حينما ذات مساء وأمام دائرة كبيرة من المتفرجين ـ لربما كان هناك احتفال من نوع ما، حيث كان الغراموفون يصدح، وثمة ضابط كان يدور بين الطاقم ـ حينما في هذا المساء، تماماً في الوقت الذي لم يكن أحد ينظر، أمسكتُ بزجاجة المسكر التي كانت قد تُركت بلا مبالاة تنتصب أمام قفصي، وفتحتها بأفضل طريقة، في حين بدأ الجمع يلاحظني باهتمام متزايد، أدنيتها إلى شفتيّ من دون تردد، وبلا تجهم، مثل شارب خمر محترف، بعينين مسبلتين وفم مليء، شربتها عن آخرها حقاً وصدقاً؛ ثم رميتُ بالزجاجة بعيداً، ليس بيأس هذه المرة بل كمؤدٍّ بارع؛ ونسيتُ، في الواقع، أن أفرك بطني؛ لكن بدلاً من ذلك، لأنني لم أستطع القيام بذلك، لأن حواسّي كانت تضطرب، أطلقتُ كلمة «مرحباً!» مقتضبة ولا لبس فيها تحوّلت إلى كلام بشري، ومع هذا الاندفاع اقتحمتُ إلى المجتمع البشري، واستشعرتُ صداه: «اصغِ، أنه يتكلّم!» مثل مداعبة على كامل بدني الذي يقطر عرقاً.

أكرر: لم يكن هناك أي إغراء بالنسبة لي في تقليد البشر؛ كنتُ أقلّدهم لأنني بحاجة إلى مخرج، وليس لأي سبب آخر. وحتى انتصاري ذاك لم يحقق الكثير. إذ فقدتُ صوتي البشري مرة أخرى في الحال؛ حيث لم يعد طيلة أشهر؛ كما عاد نفوري لزجاجة المسكر مرة أخرى بقوة أعظم. لكن الخط الذي كنتُ أتبعه قد تقرر على أي حال، مرة وإلى الأبد.

عندما جرى تسليمي إلى مدربي الأول في هامبورغ سرعان ما أدركت بأن أمامي خيارين: إما حدائق الحيوان أو مسرح المنوعات. أنا لم أتردد. قلت في نفسي: أبذل

قصارى جهدك للوصول إلى مسرح المنوعات؛ إذ إن حدائق الحيوان تعني قفصاً جديداً ليس إلاّ؛ وإذا ما كنتَ هناك، فإنك هالك لا محالة.

وهكذا تعلمتُ الأشياء، أيها السادة. آه، يتعلم المرء عندما يضطر إلى ذلك؛ يتعلم المرء عندما يحتاج إلى مخرج؛ يتعلم المرء مهما كلّف الثمن. على المرء أن يضبط نفسه؛ المرء ينتقد نفسه عند أدنى معارضة. لقد هربتْ طبيعتي القردية مني، هرباً لا رجعة فيه، حتى إن أول معلم لي كان نفسه تقريباً قد تحول إلى قرد بسبب هذه الطبيعة القردية، وسرعان ما اضطر إلى التخلي عن التدريس ونُقِل إلى مستشفى الأمراض العقلية. لحسن الحظ أنه خرج عما قريب مرة أخرى.

لكنني استنفدتُ العديد من المعلمين، في الواقع، عدة معلمين في الحال. وبينما أصبحتُ أكثر ثقة في قدراتي، عندما أظهر الجمهور اهتماماً في تقدمي وبدأ مستقبلي يبدو مشرقاً، اتخذتُ معلمين لنفسي، ووضعتهم في خمس غرف متصلة، وأخذتُ الدروس منهم جميعاً في الحال بفضل القفز من غرفة إلى أخرى.

ذلك هو التقدم الذي حققته! كيف تسنى لأشعة المعرفة أن تتوغل من جميع الجوانب إلى داخل دماغي اليقِظ! أنا لا أنكر ذلك: لقد وجدت الأمر مبهجاً. لكن عليّ أيضاً أن أعترف: إنني لم أبالغ في تقديره، لا في ذلك الحين، ولا الآن. وبجهد حتى الآن لم يتكرر أبداً تمكنتُ من الوصول إلى المستوى الثقافي الذي يمتلكه رجل متوسط اوربي. بحد ذاته قد لا يكون ذلك شيئاً يستحق الحديث عنه، لكنه شيء ما بقدر ما ساعدني في الخروج من قفصي وفتح أمامي طريقاً خاصاً للخروج، ألا وهو طريق الإنسانية. هناك عبارة اصطلاحية رائعة: عليك أن تشق طريقك عبر الصعاب؛ وهذا ما قمتُ به، لقد خضتُ الصعاب. لم يكن هناك بدّ من القيام به، شريطة دائماً أن الحرية لا تكون خياري.

وبينما أنظر إلى التطور الذي حققته واستعرض ما أنجزتُه حتى الآن، فأنا لا أشكو، لكنني لستُ راضياً أيضاً. وإذ أضع يديّ في جيبَي بنطلوني، وزجاجة نبيذي على الطاولة، أكون نصف مضطجع ونصف جالس في الكرسي الهزاز وأحدق عبر النافذة: إذا يصل زائر، سأستقبله بكل لياقة. يجلس مديري في غرفة الانتظار؛ فعندما أدق الجرس، فهو يأتي ويستمع إلى ما يجب أن أقوله. تقريباً كل مساء أقدّم أداءً، ولدي نجاح لا يمكن أن يعلوه نجاح. وعندما أعود إلى البيت في وقت متأخر من الليل من مآدب الطعام، ومن حفلات الاستقبال العلمية، ومن التجمعات الاجتماعية، هناك يجلس في انتظاري شمبانزي صغيرة نصف مدرَّبة حيث استمد الراحة منها كما تفعل القرود. وبحلول النهار لا أستطيع تحمل رؤيتها؛ لأن في عينيها النظرة المجنونة لحيوان محيّر نصف محطّم؛ لا أحد غيري يرى ذلك، لكنني أراه، ولا أستطيع تحمله. عموماً، على أي حال، لقد حققتُ ما صبوتُ إلى تحقيقه. لكن لا تقل لي أن ذلك لم يكن يستحق العناء. مهما كان الأمر، فأنا لا ألتمس حكمَ أيّ شخص، أنا فقط أقوم بنقل المعرفة، أنا فقط أقدّم تقريراً ليس إلاّ. لكم أيضاً، يا أعضاء الأكاديمية الموقرين، قد قدمت تقريراً.

تقرير إلى الأكاديمية: وصلتان إضافيتان

نحن جميعاً نعرف روتبيتر، تماماً كما يعرفه نصف العالم. لكن عندما جاء إلى بلدتنا لتقديم عرض خاص، قررتُ أن أتعرف عليه شخصياً. إذ ليس من الصعب أن يتاح لي ذلك. ففي المدن الكبيرة حيث كل شخص ذو معرفة يروم مشاهدة المشاهير عن قرب، فإنه يمكن أن يواجه صعوبات جمّة؛ لكن في بلدتنا يكون المرء قانعاً بالاستمتاع بالأشياء الرائعة من خلال باحة المسرح. وهكذا كنت الشخص الوحيد فقط حتى الآن، الذي تُعلَن زيارته، كما قال لي خادم الفندق. استقبلني السيد بوسينيو، المتعهد، بحفاوة بالغة. لم أكن أتوقع أن ألتقي برجل متواضع جداً، بل خجول تقريباً. كان يجلس في غرفة الانتظار في شقة روتبيتر، يتناول العجة. على الرغم من أن الوقت كان صباحاً إلاّ أنه جلس هناك مرتدياً ملابس المساء التي يظهر فيها في العروض. كان بالكاد قد لمحني ـ أنا المغمور، الضيف غير المهم ـ عندما قفز عالياً، وهو صاحب الميداليات المتميزة جداً، وملك المدربين، والدكتور الفخري من جامعات كبرى، وصافحني بكلتا يديه، وحثني على الجلوس، ومسح ملعقته على شرشف المائدة، وقدّمها لي بلطف حتى يمكنني أن أنهي عجته. ما كان ليقبل رفضي المصحوب بالامتنان وحاول على الفور إطعامي. عانيتُ من بعض المتاعب في تهدئته وإبعاده، وكذلك إبعاد ملعقته وصحنه.

قال بنبرة أجنبية قوية: «هذا لطف كبير منك أنك أتيت. لطف كبير. كما أنك أتيتَ في الوقت المناسب، لأن روتبيتر لا يمكنه أن يستقبل دائماً. إذ إنه غالباً ما يبغض رؤية الناس؛ حيث في هذه المناسبات لا يُسمح لأي أحد، لا يهم مَن يكون هذا الشخص، بالدخول؛ ثم أنا، حتى أنا لا أتمكن من رؤيته إلاّ في العمل، إذا جاز التعبير، على المسرح. وعليّ أن أختفي مباشرة بعد العرض، فهو يذهب إلى المنزل وحيداً، ويحبس نفسه في غرفته، وعادة ما يبقى على هذه الحالة حتى المساء التالي. ودائماً ما كانت لديه سلة كبيرة من الفاكهة في غرفة نومه، وهذا هو ما يعتاش عليه في هذه الأوقات. لكنني، الذي بالطبع لا أجرؤ على أن أدعه يغيب عن بصري، كنت دائما ما استأجر الشقة المقابلة لشقته وأراقبه من وراء الستائر».

عندما أجلس قبالتك مثل هذه الجلسة، يا روتبيتر، وأستمع إليك وأنت تتحدث، وأشرب نخبك، فأنا حقاً وصدقاً أنسى ـ سواء تعدّ ذلك مجاملة أم لا، إنها الحقيقة ـ بأنك شمپانزي. تدريجياً فقط، عندما أجبرتُ نفسي على الخروج من أفكاري والعودة إلى الواقع، فإن عينيّ تخبراني مرة أخرى ضيف مَن أنا.

نعم.

تُرى، لماذا أنت صامت جداً على حين فجأة؟ قبل لحظة كنتَ تصدح بهذه الآراء الصحيحة بشكل مدهش حول بلدتنا، والآن أنت صامت صمت القبور.

صامت؟

هل هناك شيء ما خطأ؟ هل أستدعي المدرب؟ ربما من عادتك أن تتناول وجبة غذاء في هذه الساعة؟

لا، لا. كل شيء على ما يرام تماماً. بوسعي أن أخبرك بما كان يجري. أحياناً يتلبّسني مثل هذا النفور من البشر بحيث لا أتمكّن من الكفّ عن التجشؤ. هذا، بالطبع، ليس له علاقة بالكائن البشري، ولا ايضاً {له علاقة بـ} وجودك الساحر. فهو يتعلق بجميع البشر. إذ ليس هناك شيء ما غير اعتيادي حول هذا الأمر. لنفترض، على سبيل المثال، لو قيّض لك أن تعيش بشكل مستمر مع القرود، لربما كانت لديك هجمات مماثلة، مهما تمتعتَ بقدر كبير من ضبط النفس. في الواقع، ليست رائحة البشر هي التي تقززني repels كثيراً، بل أنها الرائحة البشرية التي أصبتُ بها والتي تختلط مع الرائحة المنبعثة من أرض أجدادي. شمْ بنفسك! هنا، على صدري! ضع أنفك عميقاً في الفراء! عميقاً، أقول لك!

أنا آسف، لكنني لا أستطيع أن أشمّ أي شيء مميز. مجرد رائحة عادية تنبعث من جسم مهندم، هذا كل ما في الأمر. إن أنف ساكن المدينة، بطبيعة الحال، لا يكون اختباراً عادلاً. فأنت، بلا شك، يمكنك أن تشمّ آلاف الأشياء التي تهرب منا.

ذات مرة، يا سيدي، ذات مرة. هذا كل شيء.

لأنك جلبتَ ذلك بنفسك، أجرؤ أن أسألك: كم من الوقت كنتَ في الواقع تعيش بيننا؟

خمس سنوات. في الخامس من نيسان سيكون خمس سنوات.

إنجاز رائع. أن تتخلص من قرديتك في ظرف خمس سنوات وتخوض عبر النشوء الكامل لبني البشر! بالتأكيد لا أحد قد فعل ذلك من قبل! ففي هذا المضمار ليس لديك أي منافس.

إنها صفقة كبيرة، أعلمُ ذلك، وأحياناً تتفوق حتى على فهمي. ففي لحظات وادعة، على أي حال، أشعر بأنني أقل اندفاعاً حول هذا الموضوع. هل تعرف كيف جرى إلقاء القبض عليّ؟

لقد قرأتُ كلّ ما تمّت طباعته عنك. لقد جرى إطلاق النار عليك ثم أُلقي القبض عليك.

نعم، أصبتُ مرتين، مرة هنا في الخد ـ وكان الجرح بالطبع أكبر من الندبة scar التي تراها ـ والمرة الثانية {أصبتُ} تحت الورك. سأنْزل بنطلوني حتى تتمكن من رؤية تلك الندبة، أيضاً. هنا إذن حيث دخلت الرصاصةَ؛ إذ كان هذا جرحاً حاداً، مؤثراً. سقطتُ من الشجرة وعندما صحوتُ وجدتُ نفسي في قفصٍ بين طوابق السفينة.

في قفص! بين الطوابق! إن قراءة قصتك شيء، وسماعك تسردها شيء آخر مختلف تماماً!

وأن تشهدها، فهذا شيء ما آخر، يا سيدي. حتى ذلك الحين لم أكن أعرف ما ذا يعني عدم وجود وسيلة للخروج. فهو لم يكن قفصاً منيعاً ذا أربعة جوانب، بل كانت له ثلاثة جوانب فقط مسمّر إلى خزانةٍ، وهذه الخزانة تشكّل الجانب الرابع. كان هذا الابتكار برمته منخفضاً جداً بحيث لم أستطع الوقوف منتصباً، وضيقاً جداً بحيث لم

أستطع حتى الجلوس. وكل الذي كان يمكنني القيام به هو القرفصاء هناك بركبتين مثنيتين. في سورة غضبي رفضتُ رؤية أيّ شخص، وهكذا بقيتُ مواجهاً الخزانة؛ لأيام وليالي كنتُ أجلس القرفصاء هناك بركبتين مرتجفتين بينما القضبان ورائي تقطّعُ أوصالي. هذه الطريقة في حبس الحيوانات البرية لها مزاياها أثناء الأيام الأولى من الحبس، ومن خلال خبرتي لا أستطيع أن أنكر ذلك من وجهة النظر البشرية، وهذه في الحقيقة هي الحال. لكن في ذلك الوقت لم أكن مهتماً بوجهة النظر البشرية. كانت عندي خزانة أمامي. اكسرْ الألواح، واعملْ حفرة فيها، واحشرْ نفسك عبر فتحة بالكاد تتيح لك أن ترى من خلالها، وعندما تكتشفها أولاً، رحّبْ بها بصرخة جهل سعيدة! أين تريد أن تذهب؟ فخلف الألواح تبدأ الغابة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلومفيلد.. الأعزب المسن

ذات مساء كان بلومفيلد، وهو أعزب طاعن في السن، يصعد إلى شقته ـ وهو عمل شاق، لأنه كان يعيش في الطابق السادس. وبينما كان يتسلق فكّر، كما هو ديدنه في كثير من الأحيان في الآونة الأخيرة، كم هي غير سارة حياة الوحدة تلك: فمن اجل الوصول إلى غرفه الخاوية كان عليه أن يصعد هذه الطوابق الستة تقريباً في السرّ، وهناك كان يرتدي ثوبه، ومرة أخرى تقريباً في سرية، ويشعل غليونه، ويقرأ شيئاً من المجلة الفرنسية التي كان مشتركاً فيها لسنوات، وفي الوقت نفسه يرتشف الكيرتش irsch {وهو شراب كحولي قويّ} محليّ الصنع، وأخيراً، بعد نصف ساعة، يذهب إلى الفراش، ولكن ليس قبل أعادة ترتيب أغطيته تماماً التي تصر الخادمة التي لا سبيل إلى تعلّمها على ترتيب تلك الأغطية على طريقتها الخاصة. ثمة رفيق، وهو شخص ما يشهد هذه الأنشطة، كان موضع ترحيب كبير لدى بلومفيلد. لقد كان يتساءل عما إذا كان ينبغي له اقتناء كلب صغير. فهذه الحيوانات جذلانة وقبل كل شيء شكورة وموالية؛ لدى أحد زملاء بلومفيلد كلب من هذا النوع؛ فهو لا يتبع أي أحد سوى سيده وعندما لم يره لبضع لحظات فأنه يرحّب به حالاً بنباح عالٍ، حيث عن طريق هذا النباح يكون واضحاً بأنه يحاول التعبير عن فرحه في العثور مرة أخرى على ذلك المربّي الاستثنائي، ألا وهو سيده. لكن الحقيقة أن للكلب عيوبه أيضاً. فمهما أبقيتَه بأحسن حال، لا بد أن يوسّخ الغرفة. وهذا فقط لا يمكن تجنبه؛ إذ إن المرء لا يمكنه أن يعطيه حماماً ساخناً في كل مرة قبل السماح له بدخول الغرفة؛ إلى جانب ذلك، فإن صحته لا يمكن أن تتحمّل ذلك. بلومفيلد، من ناحية أخرى، لا يمكن أن يطيق الأوساخ في غرفته. بالنسبة له النظافة أمر ضروري، وعدة مرات في الأسبوع يكون ملزماً بالحديث مع خادمته، التي مع الأسف لم تكن جادة كثيراً في هذا الصدد. ولأنها تعاني من صعوبة في السمع فإنه عادة ما يمسكها من ذراعها ليسحبها إلى تلك البقع الموجودة في الغرفة التي يجدها تفتقر إلى النظافة. عن طريق هذا الانضباط الصارم فقد حقق في غرفته نظافة تتناسب مع رغباته إلى حدّ ما. فبامتلاكه كلباً، مع ذلك، سوف يُدخل عمداً إلى غرفته الأوساخ التي كان حتى الآن حذراً جداً في تجنبها. وسوف تظهر البراغيث، الرفاق الدائمة للكلاب. وإذا ما حلّت البراغيث هناك، فإنه لن يمرّ وقت طويل حتى يتخلّى بلومفيلد عن غرفته المريحة إلى الكلب ويبحث عن واحدة أخرى. عدم النظافة، على أي حال، ليست سوى عيب من عيوب الكلاب. كما أن الكلاب تمرض أيضاً ولا أحد يفهم حقاً أمراض الكلاب. عندها يجلس هذا الحيوان في إحدى الزوايا أو يترنّح حول المكان، ويأنّ، ويسعل، ويختنق من ألم ما؛ لذلك لابد للمرء أن يلفّه بخرقة، ويدندن بأغنية قصيرة، ويقدّم الحليب له ـ باختصار، يمرّضه المرءُ على أمل أن يكون هذا، كما هو ممكن فعلاً، مرضاً عابراً في حين قد يكون مرضاً خطيراً، ومقززاً، ومعدياً. وحتى لو يبقى الكلب معافى، فهو سيهرم في يوم ما، وإزاء ذلك لن يمتلك المرءُ القلب للتخلص من هذا الحيوان الوفي بمرور الوقت، وبعد ذلك تأتي اللحظة عندما يبدو فيها التقدّم في السن من خلال عينيّ الكلب اللتين ترشحان. عندها على المرء أن يتعامل مع حيوان نصف أعمى، وضعيف الرئة

تماماً لا يقوى على الحركة بسبب الدهون، وبهذه الطريقة لابد أن يدفع الثمن غالياً للمباهج التي كان الكلب قد أعطاها ذات يوم. وبقدر ما يودّ بلومفيلد أن يمتلك كلباً في هذه اللحظة، فضّل الاستمرار بتسلق درجات السلّم لوحده مدة ثلاثين عاماً أخرى على أن يثقل كاهله فيما بعد بمثل هذا الكلب العجوز الذي، وهو يتنهّد بصوت أعلى من تنهداته هو، سيجرجر نفسه إلى أعلى، درجة درجة.

لذلك سوف يبقى بلومفيلد وحيداً، بعد كل هذا؛ فهو لا يشعر حقاً بحنينِ عانسٍ إلى أن يكون حولها مخلوق حيّ مسالم يمكنها حمايته، وتغدق عليه بالمودّة، وتستمر في خدمته ـ وهو غرض يمكن أن يفي به قط، أو كناري، أو حتى سمكة ذهبية ـ أو، إذا كان هذا لا يمكن الحصول عليه، البقاء مقتنعاً بالزهور على عتبة النافذة. لا يريد بلومفيلد سوى رفيق، حيوان لا يتطلّب منه أن يوليه اهتماماً كبيراً، لا يهتم لركلة عرضية، وفي حالات الطوارئ، يمكنه قضاء ليلته في الشارع، ولكن مع ذلك، عندما يشعر بلومفيلد بميل نحوه، يكون على الفور تحت تصرفه ينبح، ويقفز، ويلعق يديه. هذا هو ما يريده بلومفيلد، ولكن لأنه، كما يرى، لا يمكن أن يقتنيه بدون عوائق جدية، فهو يتخلى عن تلك الفكرة، ومع ذلك ـ وفقاً لمزاجه المتأصّل ـ تراوده ثانية هذه الفكرة من وقت إلى آخر، هذا المساء، على سبيل المثال.

وبينما يأخذ المفتاح من جيبه خارج غرفته، يتفاجأ بصوت قادم من الداخل. صوت طقطقة غريب، نشط جداً لكنه منتظم للغاية. ولأن بلومفيلد كان لتوّه يفكر في الكلاب، فهذا الصوت يذكّره بالأصوات التي تصدرها الكفوف التي تضرب أحدها الآخر على أرضية الغرفة. لكن الكفوف لا تطقطق، لذلك لا يمكن أن تكون كفوفاً. يفتح الباب بسرعة ويشعل الضوء. إنه غير مستعد لما يراه. لأن هذا هو السحر ـ كرتان من السيلولويد البيضاء الصغيرة ذات أشرطة زرقاء تتقافز صعوداً ونزولاً جنباً إلى جنب على الأرضية الخشبية للغرفة؛ فعندما تمس إحداها الأرضية تكون الأخرى في الهواء، وهي لعبة تستمران بلعبها بلا توقف. في المدرسة كان بلومفيلد في يوم من الأيام قد رأى بعض الكريات الصغيرة تقفز مثل هاتين الكرتين اثناء تجربة كهربائية معروفة، لكن هاتين هما كرتان كبيرتان نسبياً تقفزان بحرية في الغرفة ومن دون القيام بأية تجربة كهربائية. ينحني بلومفيلد لينظر إليهما جيداً. إنهما بلا شك كرتان عاديتان، ربما تحتويان على عدة كرات أصغر، وهذه هي التي تصدر صوت الطقطقة. ويأخذ بلومفيلد بتحسس الهواء لمعرفة ما إذا كانتا تتدليان من بعض الخيوط ـ لا، إنهما تتحركان تماماً من تلقاء نفسيهما. ومن المؤسف أن بلومفيلد ليس طفلاً صغيراً، بحيث تكون كرتان كهاتين بمثابة مفاجأة سعيدة بالنسبة له، في حين يُعطيه كل شيء الآن بدلاً من ذلك شعوراً غير سارّ. ليس من غير المُجدي تماماً رغم كل شيء أن تعيش في السرّ بوصفك عازباً لا يلاحظك أحد، لكن الآن شخص ما، بغض النظر عن هويته، قد هتك هذا السر وأرسل هاتين الكرتين الغريبتين.

يحاول أن يمسك بواحدة لكنهما تتراجعان أمامه، ومن ثم تغريانه بالمتابعة من خلال الغرفة. ويفكر بأن الأمر سخيف جداً حقاً، إذ يركض وراء الكرتين بهذا الشكل؛ فيقف ساكناً ويدرك بأنه في الوقت الذي يتخلى عن السعي ورائهما، فإنهما أيضاً

تظلان على البقعة نفسها. سوف أحاول أن أمسك بهما في آن واحد، هكذا يفكر مرة أخرى، ويقذ الخطى نحوهما. فتهربان على الفور، لكن بلومفيلد، وبساقين منفرجين، يحصرهما في زاوية من الغرفة، وهناك، أمام صندوق، تمكّن أن يمسك بإحداهما. إنها كرة باردة صغيرة، وتتحول في يده، وتتوق بشكل واضح إلى الانزلاق بعيداً. والكرة الأخرى، أيضاً، كما لو أنها علمت بضائقة رفيقتها، تقفز أعلى من ذي قبل، موسّعة القفزات حتى تلامس يد بلومفيلد. فتضرب يده، تضرب بقفزات أسرع من أي وقت مضى، وتغيّر زاوية هجومها، ثم، تغدو عاجزة أمام اليد التي تطبق على الكرة تماماً، وتثب أعلى من ذلك ربما تحاول الوصول إلى وجه بلومفيلد. استطاع بلومفيلد التقاط هذه الكرة أيضاً، وحبسهما معاً في مكان ما، ولكن في ذلك الوقت يجد من المهين جداً اتخاذ مثل هذه التدابير ضد كرتين صغيرتين. إلى جانب ذلك، إنه من دواعي المتعة امتلاك هاتين الكرتين، وما أسرع أن تتعبا، وتتدحرجا تحت الدولاب، وتهدآ. على الرغم من هذه المداولات، على أي حال، يقوم بلومفيلد، المستشيط غضباً، برمي الكرة على الأرض، وأنه لمعجزة عند قيامه بذلك، لم ينكسر غطاء السليلويد الرقيق والشفاف. ومن دون تردد تستأنف الكرتان قفزاتهما السابقة المنخفضة، المنسقة تنسيقا جيداً.

يقوم بلومفيلد بنزع ملابسه بهدوء، ويرتبها في خزانة الملابس التي دائما ما يتفقدها بعناية للتأكد من أن الخادمة قد وضعت كل شيء في مكانه الصحيح. ومرة أو مرتين يحدّق بحنق في الكرتين، اللتين، من دون أن يتبعهما، تبدوان تتبعانه؛ لقد تبعتاه وهما الآن تتقافزان وراءه. يرتدي بلومفيلد ثوب نومه وينطلق صوب الجدار المعاكس لجلب أحد الغلايين الذي كان معلقاً في الرف. وقبل أن يلتفت يقوم بشكل غريزي بضرب قدمه بعيداً إلى الوراء، لكن الكرتين تعرفان كيفية التملّص من الضربة والبقاء دون أن يمسهما. وبينما يمضي بلومفيلد لجلب الغليون تتبعه الكرتان حالاً وتصبحا على مقربة وراءه؛ فيمشي بتثاقل وهو يرتدي نعليه، متخذاً خطوات غير منتظمة، مع ذلك يتبع كلَّ خطوة تقريباً دون توقفٍ صوتُ الكرتين؛ فهما تماشيانه خطوة بخطوة. ولرؤية كيف أن الكرتين تستطيعان القيام بذلك، يستدير بلومفيلد فجأة حول نفسه. ولكن بالكاد قام بالاستدارة عندما ترسم الكرتان نصف دائرة وتصبحا وراءه مرة أخرى، وهذا ما تكررانه كل مرة يستدير فيها. ومثل الأصحاب الخاضعين، تحاولان تجنّب الظهور أمام بلومفيلد. وحتى الوقت الحاضر فقد تجرأتا بوضوح على القيام بذلك فقط من أجل التعريف بنفسيهما؛ والآن، على أي حال، يبدو بأنهما فعلاً دخلتا في نطاق خدمته.

حتى الآن، عندما يواجه مواقف لم يستطع السيطرة عليها، كان بلومفيلد دائماً ما يختار أن يتصرف كما لو أنه لم يلاحظ أي شيء. وقد ساعده هذا في كثير من الأحيان وعادة ما يتحسن الموقف. هذا هو، إذن، ما يفعله الآن؛ حيث ينتبذ له مكاناً أمام رف الغلايين، وبينما يزمّ شفتيه، يختار غليوناً، ويملئه بعناية فائقة من حقيبة التبغ التي هي على مقربة منه، ويسمح للكرتين بمواصلة القفز خلفه. لكنه يتردد في الاقتراب من الطاولة، لأن سماع صوت القفزات المتزامنة مع خطواته يؤلمه إلى حد ما. لذلك يقف هناك، وبينما يأخذ وقتاً طويلاً بلا داعٍ لملء غليونه يقيس المسافة

التي تفصله عن الطاولة. في النهاية، على أي حال، يتغلب على جبنه ويقطع المسافة مع وقع قدميه هذا بحيث إنه لا يمكنه سماع الكرتين. لكن في اللحظة التي يجلس فيها يستطيع ان يسمعهما تتقافزان صعوداً ونزولاً خلف كرسيه بشكل واضح كما من قبل.

فوق الطاولة، على مقربة منه، ثمة رف مسمّر إلى الجدار وُضعت عليه قنينة الكيرتش، تطوقها أقداح صغيرة. وبجانبه، في كومة، تقبع عدة نسخ من المجلة الفرنسية. (هذا اليوم بالذات وصل العدد الأخير ويقوم بلومفيلد بأخذه. وينسى الكيرتش تماماً؛ بل حتى انتابه الشعور بأنه اليوم يمضي قدماً بأنشطته المعتادة لمجرد ان يسلّي نفسه، لأنه لا يشعر بالرغبة الحقيقية في القراءة. وخلافاً لعادته التي درجَ عليها في تقليب المجلة صفحة تلو الأخرى بعناية، يفتح المجلة عشوائياً ويجد صورة كبيرة. ويُجبر نفسه على تفحّصها بالتفصيل. إنها تُظهر اجتماعاً بين قيصر روسيا ورئيس فرنسا. هذا الاجتماع يحدث على متن إحدى السفن. في كل مكان بقدر ما يمكن رؤيته ثمة العديد من السفن الأخرى، والدخان المتصاعد من مداخنها يتلاشى في السماء الساطعة. لقد اندفع كل من القيصر والرئيس نحو بعضهما البعض بخطوات طويلة وهما يمسكان بعضهما بعضا باليد. وخلف القيصر وكذلك خلف الرئيس يقف رجلان. وبالمقارنة مع الوجهين البشوشين لكل من القيصر والرئيس، فإن وجوه المرافقين صارمة جداً، وعيون كل مجموعة كانت تركّز على سيدها. إلى الأسفل – حيث يجري المشهد كما هو واضح على سطح السفينة العلوي – تقف خطوط طويلة من البحّارة المرحّبين يقطعهم هامش المجلة. وبشكل تدريجي يتأمل بلومفيلد الصورة بمزيد من الاهتمام، ثم يحملها أبعد قليلاً وينظر إليها بعينين تتقافزان. كانت لديه دائماً رغبة لمثل هذه المشاهد البارزة. الطريقة التي تُمسك فيها الشخصيات الرئيسية بيد بعضها بعضا بشكل طبيعي وودّي ولطيف جداً، ويجد هذا نابضاً بالحياة. ولذلك يكون مناسباً تماماً للمرافقين – وهم سادة رفيعو المستوى، بطبيعة الحال، مطبوعة أسماؤهم في الأسفل – أن يعبّروا في تصرّفهم عن صرامة اللحظة التاريخية.

وبدلاً من مساعدة نفسه على كل ما يحتاجه، يجلس بلومفيلد هناك متوتراً، يحدّق في رأس غليونه البارد غير المشتعل. إنه يتحيّن الفرص. فجأة، بشكل غير متوقع تماماً، يخفّ عنه الخدر وبهزة يستدير في كرسيه. لكن الكرتين، المنتبهتين على حدّ سواء، أو ربما تتبعان بشكل تلقائي القانون الذي يحكمهما، تغيّران موقعهما ايضاً في اللحظة التي يستدير فيها بلومفيلد، وتختبئان وراءه. يجلس بلومفيلد الآن وظهره إلى الطاولة، والغليون البارد في يده. والآن تتقافز الكرتان تحت الطاولة، وبما أن هناك بساطاً، فلا يسمع صوتهما أحد. وهذه تعدّ ميزة كبيرة: أن لا يسمع سوى اصوات خافتة، جوفاء، وعلى المرء ان يصيخ السمع جيداً لالتقاط صوتهما. بلومفيلد، من ناحيته، يولي اهتماماً كبيراً، وبهذا يسمعهما بشكل واضح. لكن هذه الحال هي الآن فقط، ففي غضون فترة قصيرة من الزمن ربما لن يسمعهما بعد ذلك. وحقيقة أنهما لا تستطيعان أن تجعلا نفسيهما مسموعتين أكثر على البساط تثير انتباه بلومفيلد بوصفها نقطة ضعف كبيرة من جانب الكرتين. لذلك ما على المرء سوى

وضع بساط أو بساطين تحتهما وهكذا تصبحان بلا قوة. والحق يقال بأن هذا لا يدوم إلاّ لفترة محددة من الوقت فقط، وما خلا ذلك، ينطوي وجودهما عن قوة معينة.

الآن يمكن لبلومفيلد أن يستفيد من الكلب، فحيوان صغير بري سرعان ما يتعامل مع هاتين الكرتين؛ ويتصور هذا الكلب وهو يحاول الإمساك بهما بكفوفه، ويطاردهما من مواقعهما، ويبحث عنهما في جميع أنحاء الغرفة، وأخيراً يمسك بهما بين أنيابه. من الممكن جداً بأن بلومفيلد سيقتني كلباً عما قريب.

في الوقت الحالي، مع ذلك، ليس للكرتين ما تخشيانه سوى بلومفيلد، وهو ليس لديه الرغبة في تدميرهما الآن، ربما يفتقر إلى التصميم اللازم. فهو يأتي إلى البيت في المساء متعباً من العمل وفقط عندما يكون بحاجة إلى بعض الراحة يواجه هذه المفاجأة. ولا يدرك مدى التعب الذي ألمّ به إلاّ الآن. وبلا شك أنه سوف يدمر الكرتين، وذلك سيحصل في المستقبل القريب، ولكن ليس الآن، ربما حتى يوم غد. عندما ينظر المرء إلى كل الأمر برمّته بعين غير متحيزة، فإن الكرتين تتصرفان باعتدال جداً. فمن وقت لآخر، على سبيل المثال، يمكن أن تقفزان إلى الواجهة، وتُظهران نفسيهما، ومن ثم تعودان مرة أخرى إلى مواقعهما، أو يمكن أن تقفزان عالياً بحيث تصطدمان بأعلى الطاولة من أجل تعويض نفسيهما عن التأثير الكاتم الذي يفرضه البساط. لكنهما لا تفعلان ذلك، إذ لا تريدان إزعاج بلومفيلد بلا مبرر، فهما حسبما يتضح تقيّدان نفسيهما بما هو ضروري بالتأكيد.

وحتى هذه الضرورة المحسوبة، على أي حال، تكفي تماماً لإفساد راحة بلومفيلد عند الطاولة. فقد كان يجلس هناك لبضع دقائق فقط ومن ثم يهمّ إلى الذهاب إلى الفراش. وأحد دوافعه في هذا هو أنه لا يستطيع أن يدخن هنا، لأنه ترك أعواد الثقاب على طاولته بجانب السرير. وهكذا كان عليه أن يجلب أعواد الثقاب هذه، لكن بمجرد وصوله إلى الطاولة بجانب السرير ربما يؤثِر البقاء أيضاً والاستلقاء هناك. لهذا لديه دافع خفي: فهو يظن بأن الكرتين، بهَوَسهما في البقاء وراءه، ستقفزان على السرير، وباستلقائه هناك، فإنه سوف يسحقهما، سواء عن قصد أم لا. كما أنه يرفض الاعتراض على أن ما سيبقى بعد ذلك من الكرتين يمكن أن يستمر في القفز. فحتى ما هو غير إعتيادي لابد أن تكون له حدوده. الكرتان الكاملتان تقفزان على أي حال، حتى لو لم يكن باستمرار، لكن أجزاء من الكرتين لم تقفزا أبداً، ومن ثم لن تقفزا في هذه الحالة أيضاً. «فوق!» يصرخ، بعد أن أصبح متهوراً تقريباً من هذا التفكير و، بينما لا تزال الكرتان وراءه، يقفز إلى السرير. ويبدو أن أمله قويّ، لأنه عندما يتخذ موقعاً بشكل عمدي تماماً بالقرب من السرير، تثب إحدى الكرتين على الفور على السرير. ثم، على أي حال، يحدث ما هو غير متوقع: تختفي الكرة الأخرى تحت السرير. إن إمكانية أن تقفز الكرتان تحت السرير أيضاً لم تخطر ببال بلومفيلد. ويُجَنّ جنونه بسبب إحدى الكرتين، برغم إدراكه بأن تصرفه هذا مجحف في هذا الجانب، لأنه عند القفز تحت السرير فإن الكرة تفي بواجبها ربما أفضل من الكرة التي على السرير. والآن يعتمد كل شيء على المكان الذي تقرر الكرتان اختياره، لأن بلومفيلد لا يعتقد بأنهما يمكنهما العمل بشكل منفصل لأية فترة من الزمن. ومن المؤكد تماماً بأنه بعد لحظة ستقوم الكرة على

الأرضية بالقفز أيضاً على السرير. الآن لقد حصلتَ عليهما، يعتقد بلومفيلد، وهو يطير من الفرح، ويمزّق ثوب نومه من جسده ليرمي نفسه في السرير. في تلك اللحظة، على أي حال، تقفز الكرة الصغيرة نفسها مرة أخرى تحت السرير. وبسبب خيبة أمله الكبيرة هذه، يكاد بلومفيلد ينهار. من المرجح جداً أن الكرة أخذت نظرة جيدة حول المكان هناك وقررت بأنها لا ترغب فيه. والآن تبعتْها الكرة الأخرى، أيضاً، وتبقى هناك بطبيعة الحال، لأنه من الأفضل أن تكون في الأسفل هناك. يفكّر بلومفيلد، وهو يزمّ شفتيه ويومئ برأسه، «الآن سوف يكون معي هذان الطبّالان طوال الليل».

فيشعر بالاكتئاب، من دون أن يعرف في الواقع ما هو الضرر الذي يمكن أن تسبّبه له الكرتان في الليل. هو لا يعاني من مشاكل في النوم، وسوف يكون قادراً بسهولة على تجاهل حتى أخفّ ضوضاء. ومن أجل أن يتأكّد تماماً من هذا وإدراكاً منه لخبرته الماضية، يضع بساطين على الأرضية. فيبدو الأمر وكأنه امتلك كلباً صغيراً يريد أن يعدّ له سريراً وثيراً. وكما لو أن الكرتين قد أصبحتا أيضا متعبتين وناعستين، فقد غدا قفزهما أخفض صوتاً وأبطأ من ذي قبل. وبينما يجثو بلومفيلد بجانب السرير، والمصباح في يده، يفكر للحظة بأن الكرتين قد تأخذان قسطاً من الراحة على البساط ــ فهما تسقطان بضعف شديد، وتتدحرجان ببطء كبير. ثم، على أي حال، تنهضان طائعِّتين مرة أخرى. مع ذلك فمن الممكن جداً بأنه في الصباح عندما ينظر بلومفيلد تحت السرير سوف يجد هناك كرتي أطفال هادئتين، غير مؤذيتين.

لكن يبدو بأنهما قد لا تكونان قادرتين على مواصلة قفزهما حتى الصباح، لأنه بمجرد أن يكون بلومفيلد في الفراش فهو لا يسمعهما ثانية. يرهف السمع، ويميل من السرير للاستماع ــ لكن ليس هناك أي صوت. إن تأثير البساطين لا يمكن أن يكون بمثل تلك القوة؛ فالتفسير الوحيد هو أن الكرتين لم تعدا تقفزان، إما لأنهما ليستا قادرتين على أن تثبا من البساط، وهما من ثم هجرتا القفز في الوقت الحاضر أو، وهذا هو الأكثر احتمالاً، لأنهما لن تقفزا مرة أخرى. كان بمقدور بلومفيلد أن ينهض ويرى ما يجري بالضبط، ولكن في غمرة شعوره بالارتياح في العثور على الطمأنينة أخيراً فإنه يفضّل البقاء حيث هو. لذلك آثر على عدم المخاطرة بإزعاج الكرتين الهادئتين ولو بعينيه. حتى التدخين يتركه برحابة صدر، وينقلب على جانبه، ويذهب من فوره إلى النوم.

لكنه لا يبقى من دون إزعاج؛ إذ كالمعتاد ينام دون أن يحلم، ولكن بشكل قلق جداً. فلمرات لا حصر لها اثناء الليل يجفل لأنه يتوهم بأن شخصاً ما يطرق بابه. وهو يعلم جيداً بأن لا أحد يطرق الباب؛ فمَن الذي يطرق ليلاً وعلى باب أعزب وحيد؟ مع ذلك برغم أنه يعرف هذا تمام المعرفة، فإنه يجفل مراراً وتكراراً وفي كل مرة يحدّق بشوق في الباب، وفمه مفتوح، وعيناه منبهرتان، وخصلة من الشعر ترتجف على جبينه الرطب. يحاول أن يحصي عدد المرات التي استيقظ فيها لكنه، بسبب شعوره بالدوار من الأعداد الضخمة التي يصل إليها، يعود إلى النوم مرة أخرى. ويعتقد بأنه يعرف من أين يأتي صوت الطرق؛ ليس من الباب، ولكن من مكان ما

مختلف تماماً؛ ولكون الكرى قد أثقل جفنيه، على أي حال، فهو لا يمكنه أن يتذكر تماماً على ماذا تستند شكوكه. فكل الذي يعرفه هو أن عدداً لا يحصى من الأصوات غير السارّة الخفيفة تتراكم قبل إصدار ذلك الطرق العنيف القوي. وسوف يعاني معاناة كبيرة من كل ما هو غير سارّ من الأصوات الخفيفة إذا تمكّن من التخلص من الطرق الحقيقي، ولكن لسبب ما يعدّ هذا متأخراً جداً؛ إذ إنه لا يستطيع أن يتدخل، فقد فات الأوان، وهو لا يمكنه حتى التحدث، حيث ينفتح فمه ولكن كل الذي يخرج من فيه هو تثاؤب صامت، ولغضبه من هذا الأمر يدسّ وجهه في الوسائد. وهكذا ينقضي الليل.

في الصباح يستيقظ على طَرْق الخادمة؛ وبتنهيدة ارتياح يرحّب بالطَرْق اللطيف على الباب الذي كان عدم إمكانية سماعه في الماضي دائماً احد مصادر تذمره. وهو على وشك أن يصيح «ادخلي!» عندما يسمع طَرْقاً آخر نشيطاً، خافتاً، ولكنه طرق شامل وعدواني. انهما الكرتان تحت السرير. هل استيقظتا؟ هل قامتا، على عكسه تماماً، بتجميع قوة جديدة لليلة البارحة؟ «لحظة فقط»، يصيح بلومفيلد إلى الخادمة، ويقفز من السرير، ومع شديد حرصه على إبقاء الكرتين وراءه، يُلقي نفسه على الأرضية، وظهره ما يزال نحوهما؛ ثم يلوي رأسه على كتفه، ويحدّق في الكرتين وعلى وشك أن يلعنهما. ومثل الأطفال الذين يدفعون بعيداً البطانيات التي تزعجهم في الليل، فقد قضت الكرتان على ما يبدو الليلة كلها في دفع البساطين، بحركات ضرب صغيرة، بعيداً جداً عن أسفل السرير لدرجة أنهما الآن مرة أخرى على الأرضية الخشبية، حيث يمكنهما مواصلة إصدار الضوضاء. «عودا إلى البساطين!» يقول بلومفيلد بوجه غاضب، وفقط عندما أصبحت الكرتان، وذلك بفضل البساطين، هادئتين مرة أخرى، يقوم بطلب الخادمة. بينما تقوم الخادمة ـ وهي امرأة بدينة، غبية، متصلبة الظهر ـ بوضع الإفطار على الطاولة وإنجاز بعض الأعمال الضرورية القليلة، يقف بلومفيلد بلا حراك مرتدياً ثوب نومه بجانب سريره وذلك لإبقاء الكرتين في مكانهما. وبنظراته يتابع الخادمة لمعرفة ما إذا كانت تلاحظ أي شيء. لكن هذا، بسبب صعوبة سمعها، يكون مستبعداً جداً، وحقيقة أن بلومفيلد يعتقد بأنه يرى الخادمة تتوقف هنا وهناك، وتُمسك ببعض الأثاث وتستمع بحاجبين مرفوعين، يكون مردّه إلى حالته المرهقة الناجمة عن نوم ليلة سيئة. وكم سيخفف عن كاهله لو استطاع إقناع الخادمة بأن تسرع في عملها، لكنها على عكس ذلك كانت أكثر بطئاً من المعتاد. فهي تثقل نفسها بشكل مرهق بملابس بلومفيلد وتمشي بخطى متثاقلة بتلك الملابس في الممر، وتبقى بعيداً لفترة طويلة، والضجيج الذي تصدره وهي تضرب الملابس يتردد صداه في أذنيه بارتطامات بطيئة، مملة. وأثناء كل هذا الوقت يتعيّن على بلومفيلد أن يبقى على السرير، ولا يمكنه أن يتحرك خشية أن يسحب الكرتين وراءه، وعليه أيضاً أن يترك القهوة ـ التي يحب أن يحتسيها ساخنة قدر المستطاع ـ تبرد، ولا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى التحديق في الستائر المُسدَلة التي يبدو النهار وراءها قاتماً. وأخيراً انتهت الخادمة، وصبّحتْ عليه بالخير، وهي على وشك المغادرة؛ ولكن قبل أن تذهب فعلاً فأنها تتردد عند الباب، وتزمّ شفتيها قليلاً، وتلقي نظرة طويلة على بلومفيلد. كان بلومفيلد على وشك أن يحتجّ عندما غادرت اخيراً. وكان يتوق إلى أن يفتح الباب على

مصراعيه ويصرخ وراءها بأنها امرأة عجوز غبية، بلهاء. على أي حال، عندما يتأمل بما يكنّه ضدها، فهو لا يفكّر إلاّ في المفارقة بأنها لم تلاحظ بوضوح أي شيء ومع ذلك تحاول إعطاء الانطباع بأنها لاحظت كل شيء. كم أصبحت أفكاره مشوشة الآن! وكل ذلك بسبب ليلة مزعجة. إن تفسير نومه السيء يجده في حقيقة أنه في الليلة الماضية انحرف عن عاداته التي درج عليها بعدم التدخين أو شرب أي مسكر. فعندما لا أدخن أو أتناول المسكر فإنني انام بشكل سيء ــ وهذ هي نتيجة تأملاته.

من الآن فصاعداً سوف يراعي صحته، ويبدأ بجلب بعض القطن الطبي من خزانة الأدوية التي تتدلى فوق الطاولة بجانب سريره ووضع لفافتين صغيرتين منه في أذنيه. ثم يقف ويأخذ خطوة تجريبية. وعلى الرغم من أن الكرتين تتبعانه إلاّ أنه بالكاد يمكن أن يسمعهما؛ إذ إن إضافة لفافة أخرى تجعلهما غير مسموعتين تماماً. ويأخذ بلومفيلد بضع خطوات أخرى؛ ولم يحدث أي شيء غير سار على وجه الخصوص. وبما إن كل طرف له شأن يغنيه، أي بلومفيلد وكذلك الكرتان، وبرغم أن الاثنين مرتبطان ببعضهما بعضا إلاّ أنهما لا يزعجان أحدهما الآخر. ماعدا مرة واحدة فقط، عندما كان بلومفيلد يستدير بشكل مفاجئ وتفشل إحدى الكرتين بالقيام بحركة عكسية سريعة بما فيه الكفاية، فإنه يلمسها بركبته. ولكن هذه هي الحادثة الوحيدة. وباستثناء ذلك فإن بلومفيلد يشرب قهوته بهدوء؛ وبرغم أنه يشعر بالجوع، وبدلاً من النوم الليلة الماضية، فقد كان قد ذهب في نزهة طويلة؛ ويغتسل في ماء بارد، ومنعش للغاية، ويرتدي ملابسه. وهو ما يزال لم يسحب الستائر بعدُ؛ إذ عوضاً عن ذلك، وكإجراء احترازي، فقد فضّل أن يبقى في حالة شبه الظلمة هذه؛ حيث ليست لديه أي رغبة في أن ترى عيونٌ أخرى هاتين الكرتين. لكن الآن طالما أنه على استعداد للذهاب فعليه بطريقة أو بأخرى أن يحتاط للكرتين في حالةِ تجرأتا ــ وليس يظن بأنهما ستتجرءان ــ أن تتبعانه في الشارع. ويفكّر بحل جيد، ويفتح خزانة الملابس الكبيرة، ويضع نفسه بحيث يكون ظهره إليها. وكما لو أن الكرتين تتبنان بنيته، فإنهما يتوجهان بعيداً عن داخل الخزانة، مستغلتَين كل شبر بين بلومفيلد وخزانة الملابس؛ وعندما لا يكون هناك بديل آخر فأنهما تقفزان إلى خزانة الملابس للحظة، ولكن حينما تواجهان الظلام تقفزان على الفور مرة أخرى. وبدلاً من أن يغريهما فوق الحافة في عمق خزانة الملابس، فإنهما تتجاهلان واجبهما وتبقيان بجانب بلومفيلد. لكن حيلهما الصغيرة لم تنفعهما في شيء، لأنه في الوقت الحالي يقوم بلومفيلد نفسه بالتسلق إلى الخلف في خزانة الملابس وعلى الكرتين أن تتبعانه. وبهذا الوضع فقد خُتِمَ مصيرهما، لأنه على أرضية الخزانة توجد مختلف الأشياء الصغيرة مثل الأحذية، والصناديق، والحقائب الصغيرة التي، على الرغم من ترتيبها بعناية ــ حيث يتأسّف بلومفيلد الآن على هذا ــ مع ذلك فهي تعيق إلى حد كبير حركة الكرتين. وعندما يقوم بلومفيلد، الذي يسحب الآن الباب تقريباً، بقفزة كبيرة خارج الخرانة حيث لم يقم بمثلها لسنوات، فإنه يوصد الباب بشدة، ويدير المفتاح، وتُسجَن الكرتان. «حسناً، لقد نجح ذلك»، يفكر بلومفيلد، وهو يمسح العرق من وجهه. ياله من ضجيج ذلك الذي تصدره الكرتان داخل الخزانة! يبدو كما لو أنهما أصيبتا باليأس. وبينما يكون بلومفيلد، من ناحية أخرى، مقتنعاً جداً، يغادر

الغرفة ويكون للممر المهجور تأثير مهدّئ عليه. ويُخرج القطن من أذنيه ويفتتن بالأصوات التي لا تعد ولا تحصى الصادرة من المنزل العاجّ بالحركة. لم يرَ إلاّ قلة قليلة من الناس، فالوقت ما يزال باكراً جداً.

في الطابق السفلي في الصالة أمام الباب المنخفض المؤدي إلى شقة الخادمة الأرضية يقف ابن تلك المرأة البالغ من العمر 10 أعوام. انه صورة من والدته، لم تُمحَ صفة واحدة من المرأة في وجه هذا الطفل. وبأرجل متقوسة، ويدين موضوعتين في جيبي بنطلونه، يقف هناك وصدره يئز، لأنه يعاني من تضخم الغدة الدرقية ولايمكنه أن يتنفس الاّ بصعوبة. ولكن بينما درجَ بلومفيلد على ان يُسرع بخطواته ليجنّب نفسه رؤية المشهد، كلما يعبر الصبي امامه، الاّ انه اليوم يشعر تقريباً وكأنه يريد التوقف للحظة. فحتى لو جيء بالصبي إلى هذا العالم عن طريق هذه المرأة ويُظهر كل علامة تدلّ على أصله، لكنه يبقى طفلاً مع ذلك، اذ ان أفكارَ الأطفال ما تزال تسكن في رأسه المشوّه، ولو قيّض لأحد أن يتكلم معه بشكل معقول ويسأله شيئاً ما، فمن المرجح جداً سيجيب بصوت مبتهج، بريء ومحترم، وبعد شيء من الصراع الداخلي لا يسع المرء إلى أن يربت على هذين الخدين. برغم أن هذا هو ما يفكر به بلومفيلد، الاّ انه مع ذلك يمرّ من امام هذا الصبي. في الشارع يدرك بأن الطقس أجمل مما كان يتوقعه من خلال غرفته. لقد انقشع ضباب الصباح وبانت بقع من السماء الزرقاء، حيث سرّحته رياح قوية. ولابد لبلومفيلد ان يشكر الكرتين في جعله يترك غرفته في وقت أبكر من المعتاد؛ فحتى الجريدة قد تركها دون قراءة على الطاولة؛ على اية حال لقد وفّر قدراً كبيراً من الوقت ويمكنه الآن المشي ببطء. ومن الرائع كم خفّ الآن قلقه بشأن الكرتين اللتين انفصل عنهما. اذ طالما كانتا تتبعانه، فيمكن النظر اليهما بوصفهما شيئاً ينتمي إليه، وهو شيء عند الحكم على شخص بلومفيلد، لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار. الآن، على اية حال، اصبحتا مجرد لعبتين في خزانة ملابسه في البيت. وخطر ببال بلومفيلد بأن أفضل طريقة في جعل الكرتين غير مؤذيتين سيكون بإرجاعهما إلى استخدامهما الأصلي. هناك في الصالة يقف الصبي؛ وسيقوم بلومفيلد بإعطائه الكرتين، وليس إقراضهما له، ولكن في الواقع يقدمهما هدية له، وهذا بالتأكيد بمثابة أمر بتدميرهما. وحتى لو بقيتا سليمتين فإن معناهما سيكون أقل في يديّ الصبي منه في خزانة الملابس، حيث إن المنزل كله سوف يشاهد الصبي يلعب بهما، وسوف ينضم اليه أطفال آخرون، والرأي العام بأن الكرتين هما شيئان للعب بهما وليستا بأية حال من الأحوال صاحبتَي بلومفيلد مدى الحياة سوف يترسّخ أكثر وبلا جدال. ويعود بلومفيلد ادراجه مرة اخرى إلى المنزل. لقد نزل الصبي لتوّه درجات القبو وهو على وشك ان يفتح الباب. لذلك يتعيّن على بلومفيلد ان يستدعي الصبي ويصيح باسمه، وهو اسم يبدو لبلومفيلد سخيفاً مثل اي شيء آخر مرتبط بالطفل. «ألفريد! ألفريد!» يصيح بلومفيلد. ويتردد الصبي لفترة طويلة. «تعال إلى هنا!» يصيح بلومفيلد، «لقد حصلتُ على شيء ما لك». تظهر بنتا البواب الصغيرتان من الباب المقابل و، حيث يأكلهما الفضول، تتخذانِ موقعيهما على جانبي بلومفيلد. وتفهمان الموقف بسرعة أكبر بكثير من الصبي ولا يمكنهما فهم السبب وراء عدم مجيئه في الحال. ومن دون ان ترفعا اعينهما عن بلومفيلد تشيران إلى الصبي، ولكن لا يمكنهما التكهّن

بنوع الهدية التي تنتظر ألفريد. وإذ يقضّ مضجعهما الفضول، تأخذان بالقفز من قدم إلى أخرى. ويضحك بلومفيلد عليهما وكذلك على الصبي. ويبدو أن الأخير قد استوعب كل شيء فيصعد بقوة، وبشكل أخرق فوق الدرجات. اذ حتى في مشيته لا يمكنه أن يخذل والدته، التي، شاءت الصدف، انها ظهرتْ في مدخل القبو. وللتأكد من أن الخادمة تفهم ايضاً، وعلى أمل أنها سوف تُشرف على تنفيذ تعليماته، إذا كان ذلك ضرورياً، يصرخ بلومفيلد بصوت عالٍ جداً. «هيا إلى غرفتي»، يقول بلومفيلد، «عندي لكما كرتان جميلتان. هل تريدان أن تحصلا عليهما؟» ومن دون ان يعرف كيف يتصرف، فإن الصبي ببساطة يزمّ فمه، ويستدير حول نفسه، وينظر بتساؤل إلى والدته. وتبدأ الفتاتان، على اي حال، على الفور بالقفز حول بلومفيلد وتسألانه عن الكرتين. «سوف يُسمح لكما باللعب بهما أيضاً»، هكذا يخبرهما بلومفيلد، لكنه ينتظر جواب الصبي. كان بوسعه طبعاً إعطاء الكرتين إلى الفتاتين، لكنهما ستصفانه بأنه لا يمكن الاعتماد عليه جداً ولهذا في الوقت الحاضر لديه ثقة أكثر بالصبي. وفي غضون ذلك، فإن هذا الأخير، من دون ان ينطق بكلمة واحدة، قد تشاور مع والدته وأومأ بموافقته على سؤال بلومفيلد المتكرر. «اذن اصغِ إليّ»، يقول بلومفيلد، الذي هو على استعداد تام لتلقي الرفض المؤدب لهديته. «لدى أمك مفتاح غرفتي، عليك أن تستعيره منها، ولكن هاك مفتاح خزانة ملابسي، حيث ستجد فيها الكرتين. احرص على إقفال الخزانة جيداً والغرفة ايضاً. لكنك بهاتين الكرتين يمكنك أن تفعل ما تشاء وأنت غير ملزم بإعادتهما ثانية. هل فهمتني؟»

لسوء الحظ، لم يفهم الصبي شيئاً. حاول بلومفيلد أن يوضّح كل شيء بشكل خاص لهذا المخلوق الغبي الميؤوس منه، ولكن لهذا السبب بالذات فقد كرر كل شيء بشكل ممل، كما ذكر بدوره كثيراً جداً المفاتيح، والغرفة، وخزانة الملابس، ونتيجة لذلك يحدّق الصبي في وجهه كما لو ان بلومفيلد كان مغوياً وليس محسناً. اما الفتاتان، من ناحية أخرى، فقد فهمتا كل شيء على الفور، وتضغطان على بلومفيلد، وتمدان أيديهما للمفتاح. «إنتظرا لحظة»، يقول بلومفيلد، الذي انزعج الآن منهم جميعاً. فالوقت، علاوة على ذلك، يمرّ، وبلومفيلد لا يمكنه تحمّل فترة اطول. لو كانت الأم فقط تقول بأنها فهمتْه وستأخذ هذه الأشياء بيدها للصبي! فبدلاً عن ذلك ما تزال تقف في الأسفل بجانب الباب، وتبتسم مع تصنّع سيماء الشخص الأصم الخجول، وربما هي واقعة تحت الانطباع بأن بلومفيلد في الأعلى هناك قد اقنع فجأة الصبي وهو يُسمعه دروسه. بينما بلومفيلد من ناحية أخرى لا يمكنه أن ينزل على نحو حسن إلى درجات القبو ويصرخ في أذن الخادمة لحثّ ابنها لوجه الله على تخليصه من الكرتين! لقد تطلّب الأمر منه ما يكفي من ضبط النفس من اجل ان يعهد بمفتاح خزانة ملابسه ليوم كامل إلى هذه العائلة. ومن المؤكد أن هذا ليس من أجل ان يخلّص نفسه من المتاعب اذ يسلّم المفتاح إلى الصبي بدلاً من ان يقود بنفسه الصبيَّ إلى أعلى وهناك يعطيه الكرتين. لكنه لا يستطيع تماماً ان يتخلّص اولاً من الكرتين ومن ثم يحرم الصبي منهما فوراً ـ كما من المقرر ان يحدث ـ عن طريق سحبهما بعده بوصفهما صاحبتاه. «اذن أنت لا تزال لا تفهمني؟» يسأل بلومفيلد بحزن تقريباً بعد أن بدأ جولة توضيح جديدة، على اية حال، حيث يقطعها في الحال لرؤيته التحديق الأبله للصبي. وهكذا فإن التحديق الأبله يجعل المرء عاجزاً. يمكن أن

يغري {هذا التحديق} المرءَ في ان يقول أكثر مما ينوي قوله، من اجل ملء البلاهة بشيء ذي معنى. اذ ذاك «سنقوم بجلب الكرتين له!» تصرخ الفتاتان. فهما فطنتان وقد أدركتا بأنه لا يمكنهما الحصول على الكرتين إلاّ من خلال استخدام الصبي كوسيط، ولكن ينبغي لهما أن يحققا هذه الوساطة. وتدق الساعة من غرفة البواب، محذرة بلومفيلد ان يُسرع. «حسناً، اذن، خذا المفتاح»، يقول بلومفيلد، وهكذا يختطفان المفتاح من يده أكثر مما هو يعطيه لهما. لقد كان من الممكن ان يسلّمه إلى الصبي بمزيد من الثقة العالية. «يجب عليكما الحصول على مفتاح الغرفة من المرأة»، يضيف بلومفيلد. «وعندما تعودان بالكرتين يجب أن تسلما كلا المفتاحين لها». «نعم، نعم!» تصرخ الفتاتان وتنزلان راكضتان إلى الأسفل. انهما تعرفان كل شيء، كل شيء على الاطلاق؛ وكما لو ان بلومفيلد قد اصيب بغباء الصبي، فهو غير قادر على فهم كيف تمكنتا من استيعاب كل شيء بسرعة من خلال شرحه.

الآن تقومان بجر تنورة الخادمة ولكن، برغم ان هذا يبدو مغرياً، لايمكن لبلومفيلد أن يتحمّل مشاهدتهما تؤديان مهمتهما، ليس فقط لأن الوقت متأخر، ولكن أيضاً لأنه لا يرغب في أن يكون حاضراً في تحرير الكرتين. فهو يفضّل في الواقع أن يكون بعيداً جداً عندما تفتح الفتاتان أولاً باب غرفته. برغم كل هذا، انّى له ان يعرف ماذا يجب أن يتوقع من هاتين الكرتين! وهكذا للمرة الثانية هذا الصباح يغادر المنزل. ويلقي نظرة أخيرة على الخادمة التي تدافع عن نفسها ضد الفتاتين، وعلى الصبي الذي يحرّك ساقيه المنحرفتين ليهرع إلى طلب المساعدة من والدته. انه خارج نطاق فهم بلومفيلد لماذا يتعيّن على مخلوق مثل هذه الخادمة أن تزدهر وتتكاثر في هذا العالم.

وبينما كان في طريقه إلى مصنع الكتان، حيث يعمل بلومفيلد، تأخذ الأفكار المتعلقة بعمله تدريجياً اليد الطولى من تفكيره. فيقذ الخطى، برغم التأخير الذي سبّبه الصبي، ويكون أول مَن يصل إلى مكتبه. وهو عبارة عن غرفة مغلفة بالزجاج تحتوي على طاولة للكتابة مخصص لبلومفيلد وطاولتين عموديتين مخصصتين لمساعدَين تابعَين له. وعلى الرغم من أن هذين المكتبين العموديين صغيران جداً وضيقان بما يوحي إلى أنهما مخصصان لتلاميذ المدارس، الاّ ان هذا المكتب مزدحم جداً ولا يمكن للمساعدَين ان يجلسا، لأنه لن يكون هناك متّسع لكرسي بلومفيلد. ونتيجة لذلك فانهما يقفان طوال اليوم، وينكبّان متراخيين على طاولتيهما. وبالنسبة لهما يكون هذا بالطبع غير مريح للغاية، ولكنه أيضاً يجعل من الصعب جداً على بلومفيلد مراقبتهما. لذلك فهما كثيراً ما يدفعان نفسيهما بلهفة إلى طاولتيهما ليس من أجل العمل بل من اجل التهامس لبعضهما البعض أو حتى لأخذ اغفاءة قصيرة. أنهما يسببان لبلومفيلد قدراً كبيراً من المشاكل؛ فهما لا يساعدانه بما فيه الكفاية بالكم الهائل من العمل الملقى على عاتقه. اذ ينطوي هذا العمل على الإشراف على التوزيع الكامل للأنسجة والنقود بين العاملات في المنازل اللاتي يعملن في المصنع لتصنيع بعض السلع الفاخرة. ومن أن اجل تقدير حجم هذه المهمة لابد من توفر معرفة حميمة بالظروف العامة. ولكن لأن مسؤول بلومفيلد المباشر قد توفي قبل بضع سنوات، لم يعد هناك من أحد يمتلك هذه المعرفة، وهذا هو أيضاً السبب

لماذا بلومفيلد لا يمكنه منح أي شخص الحق في إبداء الرأي حول عمله. فصاحب المصنع، السيد أوتومار، على سبيل المثال، يقلل بشكل واضح من قيمة عمل بلومفيلد؛ ولا شك في أنه يدرك بأنه في غضون عشرين سنة قد استحق بلومفيلد المصنع بجدارة، وهو يعترف بهذا ليس فقط لأنه ملزم بذلك، ولكن أيضاً لأنه يحترم بلومفيلد بوصفه شخصاً مخلصاً، جديراً بالثقة. ـ لكنه يقلل من شأن عمله، مع ذلك، لأنه يعتقد بأن العمل كان يمكن أن يجري بطرق أكثر بساطة، ومن ثم في كل الجوانب تكون أكثر ربحية من تلك التي يستخدمها بلومفيلد. ويقال، وربما هذا ليس غير صحيح، بأن اوتومار نادراً ما يُظهر نفسه في قسم بلومفيلد ببساطة ليجنّب نفسه الإنزعاج الذي تسببه رؤية أساليب العمل التي درج عليها بلومفيلد. وأنه بلا شك ليحزن بلومفيلد أن لا يجد مَن يقدّر جهده، ولكن ليس ثمة علاج، لأنه لا يمكنه تماماً أن يجبر أوتومار على قضاء، على سبيل، شهر كامل بلا انقطاع في قسم بلومفيلد من أجل دراسة مجموعة كبيرة ومتنوعة من العمل الذي يُنجَز هناك، ولتطبيق أساليبه التي يزعم بأنها أفضل، وللسماح لنفسه بأن يقتنع بحصافة بلومفيلد من إنهيار القسم ـ الذي سيكون نتيجة حتمية. وهكذا يواصل بلومفيلد عمله بلا تردد كما كان من قبل، ويبدأ بداية بسيطة كلما يظهر أوتومار بعد غياب طويل، ثم وبالشعور بالمسؤولية التي يحملها المرؤوس يقوم بجهد ضعيف ليشرح إلى اوتومار هذا الترتيب أو ذاك، الذي يتجاوزه الأخير بمجرد خفض عينيه وإعطاء إيماءة صامتة. ولكن ما يقلق بلومفيلد أكثر من قلة التقدير هذه هي الفكرة بأنه في يوم ما سوف يضطر إلى ترك وظيفته، والنتيجة المباشرة لذلك ستكون الضوضاء، والإرباك الذي لا أحد سوف يكون قادراً على تقييمه لأنه على حد علمه لا يوجد شخص واحد في المصنع قادر على تعويضه والاضطلاع بعمله بطريقة يمكن الاعتماد عليها للحيلولة دون أشهر من التوقفات الأكثر خطورة.

وغنيّ عن القول، عندما يقلل رب العمل من شأن الموظف فإن زملاء الأخير يحاولون قصارى جهدهم تجاوزه في هذا الصدد. ونتيجة لذلك فإن الجميع سوف يقلل من شأن عمل بلومفيلد؛ إذ لا أحد يرى أنه من الضروري قضاء أي وقت للتدريب في قسم بلومفيلد، وعندما يُعين موظفين جدد لا يُخصص أي منهم إلى بلومفيلد. وبالنتيجة يفتقر قسم بلومفيلد إلى جيل شاب لمواصلة العمل. وعندما يقوم بلومفيلد، الذي حتى ذلك الحين كان يدير القسم بأكمله بمساعدة موظف واحد فقط، بطلب مساعِد، فأنه يتمخض عن ذلك أسابيع من القتال المرير. وكان بلومفيلد يظهر تقريباً كل يوم في مكتب أوتومار ويشرح له بهدوء وبالتفصيل الممل سبب الحاجة إلى مساعد في قسمه. كان بحاجة إلى هذا المساعد ليس لأن بلومفيلد يرغب في ان يفرّغ نفسه، إذ لم تكن في نية بلومفيلد أن يفرّغ نفسه، فهو كان يفعل أكثر مما هو مطلوب منه من العمل، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تغيير هذا النمط، ولكن هل يتكرم السيد أوتومار ويأخذ بعين الإعتبار النظر كيف أنه بمرور الوقت قد ازدادت الأعمال التجارية، وكيف بالمقابل توسَّع كل قسم، باستثناء قسم بلومفيلد، الذي أصبح نسياً منسياً! ويا ليته يأخذ بعين الاعتبار أيضاً كيف أن العمل قد ازداد هناك! عندما دخل بلومفيلد الشركة، في وقت ربما لا يمكن أن يتذكره السيد اوتومار، كانوا قد استخدموا نحو عشر خياطات، اليوم تراوحَ العدد بين خمسين وستين خياطة. مثل

هذا العمل يتطلب طاقة كبيرة؛ واستطاع بلومفيلد أن يضمن بأنه على استعداد تماماً ليفني نفسه في هذا العمل، ولكن مسألة أنه سيواصل السيطرة عليه كلية فهذا ما لا يمكن من الآن فصاعداً أن يضمنه. صحيح بأن السيد أوتومار لم يرفض قط بشكل صريح طلبات بلومفيلد، فهذا شيء لا يستطيع القيام به لموظف قديم، ولكن الطريقة التي كان بالكاد يستمع فيها، والتي كان يتحدث فيها مع الآخرين حول أفكار بلومفيلد، أعطت وعوداً فاترة ونسيتْ كل شيء في غضون أيام قليلة ـ هذا السلوك كان مهيناً، على أقل تقدير. ليس هذا في الواقع بالنسبة لبلومفيلد، بلومفيلد ليس شخصاً خيالياً، لكنه شخص لطيف بقدر ما تمليه آداب الاحترام والتقدير، وبوسع بلومفيلد أن يعمل بمنأى عن هذه الوعود، وبرغم كل شيء فإنه سينكبّ على مكتبه طالما أمكنه ذلك، على أي حال يكون فيها على حق، وحتى إن استغرقَ ذلك طويلاً في بعض الأحيان، فإن الحق لابد أن يسود في النهاية. صحيح بأن بلومفيلد قد أعطي أخيراً مساعدَين اثنين، ولكن يا لهما من مساعدَين! ربما كان المرء قد فكّر بأن أوتومار قد أدرك بأنه يمكنه أن يعبّر عن ازدرائه للقسم بشكل أفضل عن طريق منحه هذين المساعدَين بدلاً عن رفض اعطائهما لهذا القسم. بل كان من الممكن أيضاً بأن أوتومار قد أبقى بلومفيلد ينتظر لفترة طويلة لأنه كان يبحث عن اثنين من المساعدين تماما كهؤلاء، و.....

كما قد يتبادر إلى الأذهان ـ استغرق ذلك وقتاً طويلاً للعثور عليهما. والآن بطبيعة الحال لم يعد بلومفيلد يتذمر؛ ولو تذمّر، فإن الإجابة يمكن أن تكون متوقعة بسهولة: بعد كل هذا، كان قد طلب مساعداً واحداً وأعطي مساعدان اثنان، وتلك كانت الطريقة التي رتّب فيها أوتومار الأمور بشكل ذكي. ولا حاجة للقول بأن بلومفيلد تذمَّر أيضاً، ولكن فقط لأن مأزقه تقريباً هو الذي أجبره على القيام بذلك، وليس لأنه ما زال يأمل في شيء من الإنصاف. كما أنه لم يتذمر بصرامة ولكن فقط عندما تدعو المناسبة لهذا. مع ذلك، سرعان ما انتشرت الشائعات بين زملائه الحاقدين بأن شخصاً ما قد سأل أوتومار ما إذا كان من الممكن حقاً بأن بلومفيلد، الذي برغم كل شيء قد أعطي مثل هذه المساعدة غير العادية، ما يزال يتذمر. وأجاب أوتومار على هذا التساؤل بأن هذا صحيح، إذ إن بلومفيلد ما يزال يتذمر، وهو هكذا بحق. لقد أدرك، أي أوتومار، هذا اخيراً وأنه اعتزم تدريجياً أن يعيّن لبلومفيلد مساعداً واحداً لكل خياطة، بعبارة أخرى أصبح عنده حوالي ستين مساعداً في مجموعهم.

في حال اثبتَ هذا العدد بأنه غير كافٍ، على أي حال، فإنه سمح له حتى بالمزيد وما كان ليتوقف حتى اكتمل مستشفى المجانين، وهذ الأمر قد تطوّر لسنوات في قسم بلومفيلد. الآن لا يمكن إنكار أنه في هذه الملاحظة جرى تقليد طريقة أوتومار في الكلام تقليداً ذكياً، لكن بلومفيلد لم تكن لديه أي شكوك مهما كان نوعها بأن أوتومار ما كان يحلم بالتحدث عنه {أي بلومفيلد} بمثل هذه الطريقة. كان الشيء برمته من تلفيق المتسكعين في المكاتب في الطابق الأول. بلومفيلد تجاهل ذلك ـ لو كان بمقدوره وبكل برود تجاهل وجود المساعدَين! لكنهما كانا يقفان هناك، ولا يمكن إبعادهما. هما مجرد طفلين شاحبين، ضعيفين. إذ وفقاً لمؤهلاتهما فإنهما قد تجاوزا سن المدرسة، ولكن في الحقيقة يصعب التثبّت من ذلك. في الواقع، إن مكانهما

الصحيح من الواضح جداً هو في حضن أمهاتهما بحيث بالكاد يجرؤ المرء على ان يعهد بهما إلى معلّم. فهما لم يتمكنا حتى من التحرك بشكل صحيح؛ وأن الوقوف لأية فترة من الزمن كانت ترهقهما بشكل غير عادي، وخصوصاً عندما وصلا لأول مرة. وعندما تُركا لوحدهما فإنهما تكوّرا على الفور بسبب ضعفهما، ووقفا محدودبَين وملتويَين في ركنهما. حاول بلومفيلد ان يوضّح لهما أنهما إذا ما مضيا في الإستسلام إلى كسلهما فإنهما سوف يصبحان مشلولَين مدى الحياة. وهكذا فإن الطلب من المساعدَين القيام بأدنى خطوة كان بمثابة مجازفة؛ مرة واحدة فقط عندما أمِرَ أحدهما بحمل شيء ما لمسافة قصيرة، كان قد ركض بلهفة كبيرة بحيث ضرب ركبته بالمكتب. كانت الغرفة مليئة بالخياطات، والمكاتب مغطاة بالبضائع، لكن بلومفيلد كان مضطراً إلى إهمال كل شيء واصطحاب المساعد الباكي إلى داخل المكتب وهناك ضمّد جرحه. مع ذلك فحتى هذا الحماس من جانب المساعد كان حماساً سطحياً؛ فمثل طفلين حقيقيين حاولا التفوق في أوقات نادرة جداً، ولكن كم من مرة ـ بالفعل دائماً تقريباً ـ حاولا حرف انتباه مسؤولهما وخداعه. ذات مرة، في وقت ذروة العمل، كان بلومفيلد قد مرّ مسرعاً من امامهما، يتصبب عرقاً، ولاحظهما يتبادلان الطوابع سراً بين بالات البضائع. لقد شعر وكأنه يضربهما على الرأس بقبضتيه، فهذه هي العقوبة الوحيدة الممكنة لمثل هذا السلوك، لكنهما كانا رغم كل شيء مجرد طفلين وبلومفيلد لا يمكنه أن يطرح طفلين ارضاً. وهكذا استمر بتحملهما. في الأصل كان يتصور بأن المساعدَين سيساعدانه في الأعمال الأساسية المرهقة التي في لحظة توزيع السلع كانت تتطلب جهداً ويقظة كبيرين.

لقد تصوّر نفسه يقف في المنتصف خلف مكتبه، وهو يراقب كل شيء، ويقوم بعمليات إدخال القيود في السجلات في حين كان المساعدان يركضان جيئة وذهاباً، وهما يوزعان كل شيء وفقاً لأوامره. إذ كان يتخيّل بأن إشرافه، مهما كان ثاقباً، لا يمكنه التعامل مع مثل هذا الحشد، وسيُكمله اهتمامُ المساعدَين؛ وكان يأمل بأن هذين المساعدَين سوف يكتسبان الخبرة تدريجياً، ويتوقفان عن الاعتماد على أوامره اعتماداً كلياً، وأخيراً يتعلمان التمييز من تلقاء نفسيهما بين الخياطات بالنسبة لجدارتهن واحتياجاتهن. وسرعان ما أدرك بلومفيلد بأن كل هذه الآمال كانت دون جدوى، وأنه لا يستطيع أن يسمح لهما حتى بالتحدث إلى الخياطات. منذ البداية كانا قد تجاهلا بعض الخياطات، إما خوفاً أو بغضاً؛ والأخريات اللاتي كانا يشعران بميل نحوهن فأنهما يهرعان أحياناً للقائهن عند الباب. بالنسبة لهن كان المساعدان يجلبان أي شيء كانت تريده تلك النساء، إذ يضغطان عليه بشكل سري تقريباً في أيديهما، برغم أن الخياطات كان يحقّ لهن أخذه تماماً، ويجمعان على رف فارغ مخصص لهذه الأشياء المفضلة مختلفَ قصاصات الأقشمة، وبقايا لا قيمة لها، ولكن أيضا هناك عدد قليل من الأشياء المتفرقة المفيدة، يلوحان بها بمنتهى السعادة إلى النساء من وراء ظهر بلومفيلد وفي المقابل يتناولان الحلويات التي تبرز في أفواههما. وسرعان ما وضع بلومفيلد بالطبع حداً لهذه المشكلة وفي اللحظة التي كانت تصل فيها الخياطات كان يأمر المساعدَين بالعودة إلى مقصوراتهما الزجاجية. ولكن لفترة طويلة كانا يعدّان ذلك ظلماً خطيراً، ويمتعضان، ويكسران اقلامهما عمداً، وأحياناً، وإن لم يجرؤا على رفع رأسيهما، حتى يضربان بصوت

عال على الألواح الزجاجية من أجل لفت انتباه الخياطات إلى سوء المعاملة التي برأيهما يعانيانها على يديّ بلومفيلد.

إن الأخطاء التي يرتكبانها بأنفسهما لا يمكن أن يعيها هذان المساعدان. على سبيل المثال، هما يصلان على الأعم الأغلب في وقت متأخر إلى الدائرة. في حين بلومفيلد، رئيسهما، الذي منذ شبابه رأى من الطبيعي أن يصل قبل نصف ساعة من افتتاح الدائرة ـ ليس بسبب طموح أو شعور مبالغ فيه بالواجب ولكن ببساطة بسبب شعور معين بالأدب ـ غالباً ما يضطر إلى انتظار مساعدَيه لأكثر من ساعة. وبينما يمضغ لفة إفطاره يقف وراء مكتبه، يتفحص الحسابات في السجلات الصغيرة للخياطات. وسرعان ما ينغمس في عمله ولا يفكر في أي شيء غيره عندما يتلقى فجأة مثل هذه الصدمة بأن قلمه ما يزال يرتعش في يده لبعض الوقت بعد ذلك.

اندفع أحد المساعدَين داخلاً بسرعة، يبدو كما لو أنه على وشك الانهيار؛ وهو يمسك بشيء بإحدى يديه بينما يضغط بيده الأخرى على صدره المنتفخ. كل هذا، على أي حال، يعني ببساطة أنه يختلق أعذاراً لكونه متأخراً، أعذار سخيفة جداً بحيث أن بلومفيلد يتجاهلها عمداً، لأنه إذا لم يتجاهلها فسوف يضطر إلى إعطاء الشاب علقة يستحقها. كما هو ديدنه، يرمقه فقط للحظة، ويشير بيد ممدودة إلى المقصورة، وينكبّ مرة أخرى على عمله. والآن ربما يتوقع المرء حقاً بأن هذا المساعد يقدّر عطف رئيسه ويسرع إلى محل عمله. لا، إنه لا يسرع، بل يبقى يتسكع، ويمشي على رؤوس أصابعه، إذ يضع ببطء إحدى قدميه أمام الأخرى. هل هو يحاول الاستخفاف برئيسه؟ لا. مرة أخرى أنه مجرد خليط من الخوف والرضا الذاتي الذي يكون المرء عاجزاً حياله. كيف يمكن تفسير حقيقة أنه حتى اليوم بلومفيلد، الذي وصل نفسه في وقت متأخر على غير عادته إلى المكتب والآن بعد طول انتظار ـ لا يشعر بأنه يدقق السجلات ـ يرى، من خلال غيوم من الغبار أثارها خادم غبي بمكنسته، {يرى} هذين المساعدَين يتسكعان بسلام على طول الشارع؟ وهما يسيران يداً بيد، يبدو أنهما يخبران بعضهما بعضا أموراً هامة، على اية حال، من المؤكد أنها لا تمتّ للدائرة سوى بِصِلات بعيدة جداً ومن المحتمل غير ذات صلة. وكلما اقتربا من الباب الزجاجي، أبطئا بسيرهما. ويمسك أحدهما بمقبض الباب لكنه يفشل في تدويره؛ ويستمران في الحديث، والاستماع، والضحك. «عجّلا وافتحا الباب أمام سيدينا!» يصرخ بلومفيلد في الخادم، وهو يحرّك يديه بسرعة. ولكن عندما دخل المساعدان، لم يعد بلومفيلد يشعر بأنه يتشاجر معهما، بل يتجاهل تحياتهما، ويمضي إلى مكتبه. ويبدأ في القيام بحساباته، ولكن بين الفينة والأخرى يرفع بصره حتى يرى ما إذا ينوي مساعداه القيام به. يبدو أحدهما متعباً جداً ويفرك عينيه. وعند تعليق معطفه يستغل هذه الفرصة ليتكئ على الحائط. بينما بدا في الشارع نشيطاً جداً، لكن قربه من العمل يتعبه. غير أن المساعد الآخر، على أي حال، حريص على العمل، ولكنه عمل من نوع معين. إذ لفترة طويلة كانت تحدوه رغبة في السماح له بالكنس. ولكن هذا العمل لا يحق له القيام به؛ فالكنس حصراً هو من وظيفة الخادم؛ بحد ذاته ليس لدى بلومفيلد أي شيء ضد قيام مساعده بالكنس، والسماح له بذلك، فهو لا يمكن أن يقوم بأسوأ مما يقوم به الخادم، لكن

عندما يريد المساعد أن يكنس إذن عليه أن يأتي مبكراً، قبل أن يبدأ الخادم بالكنس، ولا يضيّع على الكنس الوقتَ المخصص حصرياً لعمل الدائرة.

ولكن لأن هذا الشاب أصمّ تماماً لأي نقاش معقول، على الأقل الخادم ـ ذلك العجوز البسيط نصف الأعمى الذي لا يطيقه رئيسُه بالتأكيد في أي قسم إلاّ قسم بلومفيلد والذي ما يزال على قيد الحياة فقط بفضل الله ورئيسه ـ على الأقل الخادم قد يكون متعقلاً ويسلّم المكنسة للحظة إلى الشاب الذي، كونه أخرق، سوف يفقد قريباً متعته ويجري خلف الخادم بالمكنسة من أجل إقناعه بالمضي في الكنس. يبدو، على أي حال، بأن الخادم يشعر بشكل خاص بمسؤوليته عن الكنس؛ إذ يمكن للمرء أن يرى كيف أنه، في اللحظة التي يقترب فيها الشاب منه، يحاول الإمساك بالمكنسة بقوة كبيرة بيديه المرتجفتين؛ بل حتى أنه يقف ساكناً ويتوقف عن الكنس ليوجه اهتمامه الكامل إلى ملكية المكنسة. المساعد من جانبه في الواقع لا يردّ عليه بالكلمات، لأنه يخاف من بلومفيلد، الذي يتظاهر بأنه يجري الحسابات؛ وعلاوة على ذلك، يكون الكلام العادي لا طائل منه، لأن الخادم لا يمكنه أن يسمع إلاّ من خلال الصياح المفرط. لذلك في البداية يقوم المساعد بسحب الخادم من الأكمام. إن الخادم يعرف، بطبيعة الحال، ماهية الأمر، ويحدّق في المساعد، ويهز رأسه، ويسحب المكنسة ليجعلها أقرب إليه، تماماً حتى صدره. وعند ذلك يطوي المساعد يديه ويتوسّل. في الواقع، ليس لديه أمل في تحقيق أي شيء عن طريق التوسّل، لكن التوسّل يروق له ولذلك فهو يتوسّل. أما المساعد الآخر فيتابع هذه الأنشطة بضحك منخفض ويبدو أنه يفكّر، السماء وحدها تعرف السبب، بأن بلومفيلد لا يمكن سماعه. ولم يترك التوسل أدنى انطباع على الخادم، الذي يستدير ويعتقد بأنه يمكن ان يستخدم مكنسته بأمان مرة أخرى. على أي حال، لقد وثبَ المساعد وراءه على رؤوس الأصابع، وبينما يفرك يديه معاً بتوسل، يناشده الآن من جانب آخر. إن عمليات الاستدارة والوثب أخذت تتكرر منهما عدة مرات. وأخيراً يشعر الخادم بأنه منفصل من جميع الجوانب ويدرك شيئاً، لو كان أقل غباءً بقليل، ربما قد أدركه منذ البداية ـ وهو أنه سيصبح متعباً أمام المساعد. لذلك، وهو يبحث عن مساعدة في أي مكان آخر، يهزّ اصبعه بوجه المساعد ويشير إلى بلومفيلد، موحياً إلى أنه سيقدّم شكوى إذا رفض المساعد عن الكفّ عن ممارساته. أدرك المساعد بأنه إذا حصل على المكنسة مطلقاً يجب أن يعجّل، لذلك فهو يتشبث بها بكل صفاقة. إن صرخة لا إرادية من المساعد الآخر تنذر بالقرار الوشيك. يقوم الخادم بالاستحواذ save على المكنسة مرة أخرى عن طريق اتخاذ خطوة إلى الخلف وسحبها وراءه.

لكن المساعد يستشيط غضباً: بفم مفتوح وعينين لامعتين يقفز إلى الأمام، يحاول الخادم أن يهرب، إلاّ أن ساقيه العجوزين تترنحان بدلا من الركض، ويُمسك المساعد بالمكنسة وعلى الرغم من أنه لا يفلح في الحصول عليها لكنه مع ذلك جعلها تسقط وبهذه الطريقة خسر الخادم. كذلك على ما يبدو بالنسبة للمساعد بأنه، لحظة سقوط المكنسة، جميع هؤلاء الثلاثة، أي المساعدان والخادم، يصابون بالشلل، لأن بلومفيلد الآن لابد أن يكتشف كل شيء. ومن المؤكد جداً بأن بلومفيلد يحدّق من خلال ثقب صغير كما لو انه لم يستوعب الموقف إلاّ الآن. ويحدّق في كل

واحد منهم بنظرة صارمة وفاحصة، حتى المكنسة على الأرض لا تغيب عن ملاحظته. ربما استمر الصمت طويلاً جداً أو ربما لم يعد بوسع المساعد أن يقمع رغبته في الكنس، على أي حال أنه ينحني ـ ولو بعناية فائقة، كما لو أنه على وشك أن يقبض على حيوان وليس مكنسة ـ ويمسك بها، ويمررها فوق الأرضية، ولكن، عندما يقفز بلومفيلد ويخطو خارج مقصورته، يلقيها على الفور جانباً بفزع. «ليرجعْ كل منكما إلى العمل! ولا يصدر منكما أي صوت آخر!» يصرخ بلومفيلد، وبيد ممدودة يوجّه المساعدَين إلى مكاتبهما. ويطيعانه على الفور، ولكن بلا خجل أو برؤوس مطأطئة، وبدلاً عن ذلك ينكمشان بتصنع أمام بلومفيلد، ويرمقانه مباشرة في عينيه كما لو أنهما يحاولان بهذه الطريقة إيقافه عن ضربهما. مع ذلك ربما تعلّما من التجربة بأن بلومفيلد من حيث المبدأ لا يضرب أي شخص أبداً. لكنهما وجلان جداً، ودون أية كياسة يواصلان محاولتهما لحماية حقوقهما الحقيقية أو الخيالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحقيقات كلب

كم تغيرت حياتي، ومع ذلك كيف ظلت دون تغيير في الأساس! عندما أعود بتفكيري إلى الوراء وأتذكّر الوقت الذي كنتُ فيه ما أزال عضواً في مجتمع الكلاب، أتقاسم معه جميع اهتماماته، أي كلب بين كلاب، أجد عند النظر عن كثب بأنه منذ البداية احسستُ ببعض التناقض، شيء ما قليل من سوء التكيف، مما تسبّب في شعور طفيف من الانزعاج الذي لا يمكن أن تمحيه حتى أكثر الوظائف العامة احتراماً؛ أكثر الأوقات، بل أنه في بعض الأحيان، لا، ليس أحياناً، بل في كثير من الأحيان، إن مجرد نظرة من كلب زميل في حلقتي الخاصة بي كنتُ مولعاً به، مجرد نظرة منه، وكأنني أبصرتُ تلك النظرة أول وهلة، سوف تملأني بحرج يائس وخوف، بل حتى بيأس. حاولتُ أن أخفّف من وطأة مخاوفي على أفضل وجه ممكن؛ وقد ساعدني في ذلك الأصدقاء، الذين بحثتُ لهم؛ صحيح مرّت أوقات أكثر سلمية ـ أوقات، لا تنقصها هذه المفاجآت المباغتة، ولكن قُبِلت بمزيد من الفلسفة، واندمجتْ في حياتي بمزيد من الفلسفة، مما تسبّب ببعض الكآبة والخمول، ربما، ولكن مع ذلك أتاحت لي أن أمضي هادئاً نوعاً ما، ومتحفظاً، وخجولاً، ومحتسباً، إلاّ أن كل شيء يشير إلى كلب طبيعي بما فيه الكفاية. كيف أستطيع، فعلاً، من دون نوبات النقاهة هذه، أن أكون قد وصلتُ إلى السن التي أستمتع بها حالياً؛ كيف أستطيع أن أشقّ طريقي وصولاً إلى الصفاء الذي أتأمل فيه رعب الشباب وأتحمّل رعب العمر؛ كيف أستطيع أن أبلغ النقطة حيث أكون قادراً على استنتاج العواقب لتصرفي التعيس بلا شك، أو، لأصف الأمر بشكل أكثر اعتدالاً، تصرفي غير السعيد جداً، والعيش بشكل كامل تقريباً وفقاً لتلك العواقب؟ أي العيش منفرداً ومنسحباً، وليس ثمة ما يشغلني ماعدا تحقيقاتي الميؤوس منها لكن، بقدر تعلق الأمر بي، تحقيقاتي الصغيرة التي لا غنى لي عنها، بمعنى كيف أعيش؛ مع ذلك في عزلتي البعيدة لم أفقد التواصل مع ناسي، فالأخبار في كثير من الأحيان تتسرّب لي، وبين الفينة والأخرى حتى أسمح للأخبار المتعلقة بي أن تصل إليهم. الآخرون يعاملونني باحترام لكنهم لا يفقهون طريقتي في الحياة؛ برغم ذلك لا يحملون أية ضغينة تجاهي، وحتى الكلاب الصغيرة التي أراها أحياناً تمر في المكان، وهي جيل جديد لا أمتلك عن طفولتها سوى ذكريات غامضة، لا تحرمني من تحية تنم عن تبجيل.

ذلك لأنه لا ينبغي الافتراض، رغم جميع خصوصياتي، التي تكون واضحة حتى يومنا هذا، بأنني مختلف جداً عن بقية أبناء جنسي. بالفعل عندما أفكر ملياً في ذلك ـ ويكون لدي الوقت والمزاج والقدرة الكافية لذلك ـ أرى بأن عالم الكلاب يعدّ من جميع الجوانب هيئة رائعة. وبصرف النظر عنا معشر الكلاب هناك جميع أنواع المخلوقات في العالم، مخلوقات بائسة، ومحدودة، وبكماء لا تمتلك ناصية اللغة وإنما مجرد صيحات ميكانيكية؛ وكثير منا معشر الكلاب قمنا بدراستها، وأعطيناها أسماء، وحاولنا مساعدتها، وتثقيفها، ورفع شأنها، وهلم جرا. من جهتي فأنا غير مبالٍ تماماً بها إلاّ عندما تحاول إزعاجي، وأنا لا أميّز بين أحدها والآخر، لذلك

اتجاهلها. لكن ثمة شيء واحد واضح جداً لا يمكن أن يفوتني؛ وهو كيف أنها تميل قليلاً، بالمقارنة معنا نحن الكلاب، إلى الالتصاق ببعضها بعضا، وكيف تمرّ ببعضها الآخر بصمت وبشكل غير مألوف وبعدائية غريبة، وكيف أن أحقر المصالح يمكن أن تجمعها جنباً إلى جنب لفترة قصيرة باتحاد ظاهري، وكيف أن هذه المصالح ذاتها تثير الكراهية والصراع. أنعم النظر فينا نحن الكلاب، من ناحية أخرى! يمكن للمرء أن يقول باطمئنان بأننا جميعاً نعيش معاً في مجموعة حقيقية، كلّنا، برغم اختلافنا عن بعضنا بعضا على أساس التغيرات التي لا تعد ولا تحصى والعميقة التي نشأت على مرّ الزمن. جميعنا في مجموعة واحدة! فنحن منجذبون إلى بعضها بعضا ولا شيء يمكنه أن يمنعنا من تلبية ذلك الدافع المجتمعي؛ إذ إن كل قوانيننا ومؤسساتنا، القليل الذي ما زلت أعرفه عنها والكثير الذي نسيته عنها، تعود إلى هذا الشوق لأكبر نعمة نحن قادرون على صنعها، وهي الراحة الكبيرة من كوننا معاً. ولكن الآن أنظر إلى الجانب الآخر من الصورة. ليست هناك مخلوقات حسب علمي تعيش في مثل هذا التشتت الكبير كما نحن الكلاب، فلا مخلوقات لديها العديد من الفوارق في الطبقة، والنوع، والمهنة، فوارق كثيرة جداً يتعذّر استعراضها في عجالة؛ نحن، الذين تحدو كلاً منا الرغبة في البقاء معاً ـ ومراراً وتكراراً ننجح في لحظات التسامي على الرغم من كل شيء ـ نحن دون الآخرين نعيش منفصلين على نطاق واسع جداً عن بعضنا بعضا، منهمكين بمهام غريبة غالباً ما تكون غير مفهومة حتى بالنسبة لجيراننا الكلاب، ومتمسكين بقوةٍ بقوانين لا تتمّ إلى عالم الكلاب، بل هي في الواقع موجهة ضده. كم تكون محيّرة تلك المسائل، مسائل لا يرغب المرء في التطرّق إليها ـ أنا أفهم وجهة النظر تلك أيضاً، حتى أفضل من فهمي لوجهة نظري ـ ومع ذلك هذه هي المسائل التي استسلمتُ لها تماماً. لماذا لا أفعل مثل الآخرين: أي العيش في وئام مع ناسي والقبول بصمت لكلّ ما يعكّر ذلك الوئام، بتجاهله على أنه زلة صغيرة في ركام كبير، واضعاً دائماً نصب عيني الأشياء التي تربطنا معاً بسعادة، وليست الأشياء التي تُخرجنا المرّة تلو الأخرى، كما لو بالقوة المطلقة، من دائرتنا الاجتماعية؟

أستطيع أن أتذكّر حادثة وقعت في شبابي؛ كنت حينها في إحدى حالات التسامي العصية على التفسير والسعيدة التي لابد أن يكون كل شخص قد شهدها عندما كان طفلاً؛ كنتُ ما أزال جرواً صغيراً، وكان كل شيء يسرّني، وكان كل شيء محط اهتمامي. كنتُ أظن بأن أموراً عظيمة كانت تدور حولي كنتُ فيها الزعيم ولابد أن أمنح صوتي لها، أشياء لابد أن يُلقى بها بتعاسة جانباً إن لم أركض نحوها وأهزّ ذيلي لها ـ انها أوهام صبيانية تلاشت مع سني النضج. لكن في ذلك الحين كانت قوتها كبيرة جداً، كنت تماماً تحت سحرها، وعما قريب حدث شيء ما فعلاً، شيء ما غير عادي بحيث بدا مبرَّرا لتوقعاتي الجامحة. في حد ذاته لم يكن شيئاً غير عادي جداً، ذلك لأنني رأيتُ العديد من هذه الأشياء، بل المزيد من الأشياء اللافتة للنظر، أشياء كثيرة في الغالب حينها، لكن في ذلك الوقت صَعَقَتْني بكل ما يحمله الانطباع الأول من قوة، أحد تلكم الانطباعات التي لا يمكن أبداً محوها والمؤثرة على الكثير من سلوك المرء في وقت لاحق. باختصار، صادفتُ مجموعة صغيرة من الكلاب، أو بالأحرى انا لم أصادفها، فهي التي ظهرت قبلي. قبل ذلك كنتُ

أركض في الظلام لبعض الوقت، يملأني هاجس بوقوع أشياء عظيمة ـ هاجس قد يكون وهمياً، لأنني دائماً ما كنتُ أمرّ بذلك الشيء. كنتُ قد ركضتُ في الظلام لفترة طويلة، صعوداً ونزولاً، دون ان ألوي على شيء، لا يحرّكني شيء سوى رغبة غامضة، والآن توقّفت فجأة يتملكني الشعور بأنني كنت في المكان الصحيح، وبينما أنظر إلى الأعلى أبصرتُ بأنه كان يوماً مشرقاً، يكتنفه بعض الضباب، وفي كل مكان ثمة مزيج وخليط من أكثر الروائح روعة؛ لذلك استقبلتُ الصباح بنباح مضطرب، عندما ـ وكأنني قد استحضرتها من جحورها ـ فقز سبعة كلاب في الضوء، خارجة من مكان ما في الظلام، بمرافقة أصوات مرعبة لم أسمع مثلها من قبل. ولم أرَ بوضوح بأنها كلاب وأنها، نفسها التي أصدرت ذلك الصوت ـ برغم أنني لم أستطع التعرف على كيفية إصدارها لهذه الأصوات ـ لهربتُ مباشرة؛ لكنني بقيتُ عندما كان الأمر كذلك. في ذلك الوقت ما زلت لا أعرف أي شيء عن الهبة الإبداعية للموسيقى التي حُبَي بها جنس الكلاب وحده، والتي كانت تنقصني بشكل فطري تماماً إلاّ أنني ببطء طوَّرت قواي على الملاحظة؛ فعلى الرغم من أن الموسيقى قد أحاطت بي بوصفها عنصراً طبيعياً ولا غنى عنه تماماً للوجود مذ كنتُ رضيعاً، وهو عنصر لا شيء دفعني لتمييزه عن بقية الوجود، إلاّ أن مَن يكبرني سناً قد لفتوا انتباهي إليه فقط بهذه التلميحات كونها كانت مناسبة للفهم الطفولي؛ والأكثر إثارة للدهشة، إذن، والمدمر حقاً، كان أولئك الفنانين الموسيقيين العظام بالنسبة لي. لم يتكلموا، ولم يغنّوا، بل ظلوا صامتين عموماً، صامتين عن قصد على الأغلب؛ ولكن من الهواء الأجوف استحضروا الموسيقى. كان كل شيء موسيقى، رفع قوائمهم وإنزالها، وتمايلات رؤوسهم، وجَرْيهم ووجومهم، والأوضاع التي أتخذوها فيما يتعلق ببعضهم بعضا، والأنماط المتناظرة التي عملوها بوضع أحد الكلاب قدميه الأماميتين على ظهر الآخر فيما حذا البقية حذوهما حتى ينوء الأول بتحمّل وزن الستة الآخرين، أو باضطجاع الجميع مستوين على الأرض والقيام بحركات منسّقة معقدة؛ ولم يرتكب أي منهم حركة خاطئة، بل ولا حتى الكلب الأخير، برغم أنه كان غير واثق قليلاً، ولم يقم دائماً بتواصل مباشرة مع الآخرين، تردَّد في بعض الأحيان، إذا جاز التعبير، على ضبط إيقاعه، لكنه مع ذلك كان غير واثق فقط بالمقارنة مع الثقة الزائدة لدى الآخرين، وحتى لو كان لديه عدم ثقة كبيرة، عدم ثقة كبيرة تماماً فعلاً، لما كان قادراً على الإتيان بأي ضرر، حيث إن الآخرين، أساتذة كبار جميعهم، يحافظون على الإيقاع بثبات.

لكن الأمر أكبر مما ينبغي بحيث لا يمكن أن أقول بأنني رأيتهم، بأنني فعلاً رأيتهم. إذ كانوا يظهرون من مكان ما، كنتُ أحييهم بسرّي ككلاب، وبرغم أنني كنت مشوَّشاً جداً بالأصوات التي رافقتهم، مع ذلك كانوا كلاباً برغم كل شيء، كلاب مِثلي ومثلك؛ كنتُ أنظر إليهم بقوة العادة هكذا ببساطة على أنهم كلاب صادف أن أُقابلهم في طريقي، وتملّكتْني رغبة في الاقتراب منهم وتبادل التحايا معهم. لقد كانوا قريبين أشدّ القرب أيضاً، إنهم كلاب أكبر مني بكثير، بالتأكيد، وليسوا من فصيلتي الكثّة، طويلة الشعر، لكن مع ذلك ليسوا بغريبين جداً في حجمهم وشكلهم، في الواقع كانوا مألوفين جداً بالنسبة لي، ذلك بأنني كنتُ قد رأيت عما سبق العديد من هذه

الكلاب أو أشباهها. ولكن بينما كنت ما أزال منهمكاً في هذه التأملات أخذت الموسيقى تدريجياً اليد الطُولَى، بالضبط قطّعتْ أنفاسي وطوّحت بي بعيداً عن تلك الكلاب الصغيرة الحقيقية، وضد إرادتي تماماً، بينما أخذتُ أعوي وكأن ألماً ما أصابني، لم يتمكن ذهني من الانتباه إلى شيء سوى هذا الانفجار من الموسيقى التي بدت تأتي من جميع الجهات، من الأعالي، ومن الأعماق، ومن كل مكان، تحيط بالمستمع، وتغلبه، وتسحقه، وعلى بدنه الذاوي ما تزال الأبواق تصدح قريبة جداً بحيث إنها بسبب قربها الشديد بدت بعيدة وغير مسموعة تقريباً. ومن ثم جاء وقت الراحة، فالمرء قد شعر بالتعب الشديد، والإعياء، والوهن الكبير بحيث لا يقوى على الاستماع لفترة أطول؛ جاء وقت الراحة وأنا أبصر مرة أخرى الكلاب السبعة الصغيرة التي تقوم بحركاتها، وتواصل قفزاتها. كنتُ أتوق إلى الصراخ عليها على الرغم من بعدها، والتوسل إليها لتنويري، وسؤالها عما كانت تفعله ـ كنت صغيراً واعتقدتُ بأنني يمكن أن أسأل أي أحد عن أي شيء ـ لكنني لم أبدأ، ولم أشعر بعلاقات كلبية طيبة ومألوفة مع هؤلاء السبعة، عندما بدأت الموسيقى تصدح مرة أخرى، أَخْرَجَتْني عن طوري، وطوّحت بي في دواماتها كما لو أنني كنتُ بنفسي أحد الموسيقيين بدلاً من كوني ضحيتهم ليس إلاّ، وألقتْ بي هنا وهناك، بغض النظر كم توسلتُ طلباً للرحمة، وأنقذوني أخيراً من عنفها عن طريق دفعي إلى متاهة من القضبان الخشبية التي انتصبت حول ذلك المكان، برغم أنني لم ألاحظ ذلك من قبل، لكنها الآن قد أخذت بتلابيبي بقوة، وأبقتْ رأسي مضغوطاً على الأرض، وعلى الرغم من أن الموسيقى ما تزال تتردد في الفضاء المفتوح ورائي، أعطوني القليل من الوقت لالتقاط أنفاسي.

يجب أن أعترف بأنني كنتُ أقل دهشة بالمهارة الفنية لدى الكلاب السبعة ـ فقد كانت غير مفهومة بالنسبة لي، كما أنها بالتأكيد كانت وراء قدراتي ـ من دهشتي بشجاعتهم في مواجهتهم الصريحة للموسيقى التي هي من صنعهم، وقوتهم على تحملها بهدوء من دون انهيار. لكن الآن من جحري رأيتُ، عند النظر عن كثب، بأن الأمر لا ينطوي على الكثير من الهدوء مقارنة بالتوتر الأكثر حدّة الذي طبع أداءهم؛ فهذه الأطراف التي على ما يبدو واثقة في حركاتها كانت ترتعد عند كل خطوة بارتعاشة وجلة مستمرة؛ وكأنها تجمدت من اليأس أبقت الكلاب عيونها ثابتة على بعضها بعضا، وألسنتها، كلما خفّ التوتر للحظة، تدلّت بقلق من فكوكها. لا يمكن أن يكون الأمر يتعلق بالخوف من الفشل الذي حرّكها بعمق كبير؛ إذ إن الكلاب التي يمكن أن تتجرأ وتحقق مثل هذه الأشياء لم تكن بحاجة إلى الخوف من ذلك. إذن لماذا كانت خائفة؟ ثم مَن أجبرها على القيام بما كانت تقوم به؟ أنا لم أعد قادراً على كبح جماح نفسي، خاصة وأنها بدت الآن بطريقة ما غير مفهومة بحاجة إلى المساعدة، وهكذا من خلال كل الضجيج الذي تصدره الموسيقى صرختُ بأسئلتي بصوت عال وبتحدٍّ. لكنها ـ أمر لا يصدّق! لا يصدّق! ـ لم ترد أبداً، فقد تصرفت وكأنني لم أكن هناك. إن الكلاب التي لا تردّ على تحية الكلاب الأخرى لهي مذنبة بارتكاب جريمة ضد حسن الخلق الذي لم يغفر ذلك أبداً حتى أكثر الكلاب تواضعاً أكثر مما تفعله أرقى الكلاب. هل ربما لأنها لم تكن كلاباً على الإطلاق؟ لكن كيف ينبغي ألاّ تكون كلاباً؟ هل يمكن أن لا أسمع في الواقع وأنا

أصغي عن كثب إلى الصرخات الخافتة التي عن طريقها شجعت بعضها بعضا، ولفتت انتباه بعضها الآخر إلى الصعوبات، وحذرت بعضهم من الأخطاء؛ هل أنني لم أستطع أن أرى الكلب الأصغر والأخير، الذي كانت معظم تلك الصرخات موجّهة إليه، غالباً ما يسترق النظر لي وكأنه كان يود أن يردّ، لكنه امتنع لأنه كان غير مسموح له بذلك؟ لكن لماذا يجب أن لا يُسمح له بذلك، ولماذا الشيء نفسه الذي تأمر به قوانيننا بشكل غير مشروط لا يُسمح به في هذه الحالة؟ لقد أصبحتُ ساخطاً من تلك الفكرة ونسيت الموسيقى تقريباً. كانت تلك الكلاب تنتهك القانون. ربما كانوا سحرة كباراً، لكن القانون كان ساري المفعول عليهم أيضاً، كنتُ أعرف ذلك جيداً على الرغم من أنني كنت طفلاً. وبعد أن أدركتُ ذلك، لاحظتُ الآن شيئاً آخر. إذ لديهم أسباب وجيهة للبقاء صامتين، أي، على افتراض أنهم ظلوا صامتين بدواعي الشعور بالعار. فكيف كانوا يتصرفون؟ بسبب كل هذه الموسيقى لم أكن قد لاحظتُ ذلك من قبل، لكنهم تخلصوا من كل ذلك العار، فالمخلوقات البائسة كانت تفعل الشيء نفسه الذي يكون على حد سواء أكثر سخفاً وغير لائق في نظرنا؛ لقد كانوا يسيرون على أرجلهم الخلفية. تباً لهم! كانوا يكشفون عن عريهم، وهم يقومون بشكل صارخ بعرض عريهم هذا: كانوا يفعلون ذلك وكأنه عمل جدير بالتقدير، وبإطاعتهم فطرتهم السليمة للحظة، عندما حدث أن سمحوا لقوائمهم الخلفية بالسقوط، كانوا فزعين تماماً وكأنهم ارتكبوا خطأ، وكأن الطبيعة كانت على خطأ، فرفعوا على عجل سيقانهم مرة أخرى، وبدت عيونهم تتوسل من أجل الصفح كونهم توقفوا مؤقتاً مجبرين عن فضاعتهم. هل كان العالم يقف بالمقلوب؟ أين يمكن أن أكون؟ ما ذا حدث؟ فلو من أجل نفسي فقط لم أتجرأ على التردد في أي وقت الآن، لحررتُ نفسي من تشابك القضبان، وقفزتُ قفزة واحدة في العراء وتوجهتُ نحو الكلاب ـ أنا، التلميذ الصغير، يجب أن أكون المعلم الآن، يجب أن أجعلهم يفهمون ما كانوا يقومون به، يجب صدّهم من ارتكاب المزيد من الخطايا. «والكلاب الكبيرة أيضاً! والكلاب الكبيرة أيضاً!» هكذا بقيتُ أقول لنفسي. لكن بالكاد ما أصبحتُ حراً ولم تفصلني عن الكلاب سوى قفزة أو قفزتين، حتى أخذتني الموسيقى مرة أخرى بكل قوتها. ربما في فورة حماسي تمكّنت من احتمالها، ذلك لأنني عرفتها بشكل أفضل الآن، فإذا في خضم كل اتساعها المهيب، الذي كان مرعباً، لكنه ما يزال يمكن قهره، فإن نغمة واضحة، ثاقبة، مستمرة جاءت دون اختلاف بالضبط من المسافة الأبعد ـ ربما كانت اللحن الحقيقي في وسط تلك الموسيقى ـ ولو لم تكن ترنّ الآن، لما اضطررتُ إلى الجثو على ركبتيّ. أوه، إن الموسيقى التي عزفتْها هذه الكلاب كانت تخرجني من طوري تقريباً! فلم أقوَ على الحركة خطوة أخرى، ولم أعد أرغب في إرشادهم؛ فإنهم يمكن أن يستمروا في رفع سيقانهم الأمامية، واقتراف الخطيئة وإغراء الآخرين إلى اقتراف تلك الخطيئة عن طريق النظر إليهم بصمت؛ كنتُ ذلك الكلب الصغير ـ مَن يتمكن أن يطلب مثل هذه المهمة الصعبة مني؟ كما أنني جعلتُ من نفسي أقل أهمية مما كنت عليه، وركنتُ إلى الأنين، ولو سألتني الكلاب الآن عن رأيي في أدائها، ربما لما كان عندي كلمة أقولها ضد ذلك الأداء. إلى جانب ذلك، لم يمضِ وقت طويل قبل أن تختفي الكلاب بكل موسيقاها وإشراقها وتذوب في الظلام الذي كانت قد ظهرتْ منه.

كما سبق أن قلتَ بأن هذه الحادثة كلها لا تحتوي على شيء جدير بالملاحظة؛ ففي مسار حياة طويلة يواجه المرء شتى الأمور التي، عند أخذها من سياقها والنظر إليها بعينَيّ طفل، قد تبدو تماماً أكثر إثارة للدهشة. فضلاً عن ذلك، قد يكون المرء، بطبيعة الحال ــ في العبارة الشعبية اللاذعة ــ قد «فهم ذلك الأمر خطأً»، وكذلك كل ما يتصل به؛ ثم يمكن تبيان بأن هذه كانت مجرد حالة حيث اجتمع سبعة موسيقيين لممارسة فنّهم في صباح رائق، وأن كلباً صغيراً جداً قد ضلّ عن المكان، وهو دخيل ثقيل الظل كانوا قد حاولوا إبعاده عن طريق التهديد على نحو خاص أو عن طريق الموسيقى العالية، للأسف دون نجاح. لقد ضايقهم بأسئلته: هل كانوا، وهم ضائقون ذرعاً بمجرد وجود ذلك الغريب، يتوقعون بأن ينتبهوا إلى تدخلاته المشتِّتة أيضاً ويزيدون الطين بلّة من خلال الإجابة عن تلك الأسئلة؟ حتى لو كان القانون يأمرنا بالرد على كل شخص، فهل كان مثل ذلك الكلب الضال الصغير في الحقيقة شخصاً ما يستحق الاعتبار؟ وربما لم يفهموه حتى، ذلك لأنه على الأرجح جداً كان يلقي أسئلته بشكل غير واضح تماماً. أو ربما كانوا يفهمونه وبضبط نفس كبيرة كانوا يجيبون عن أسئلته، لكن، كونه مجرد جرو غير معتاد على الموسيقى، لم يستطع تمييز الإجابة من الموسيقى. أما بالنسبة للمشي على أرجلهم الخلفية، ربما، على عكس الكلاب الآخرين، فإنهم عادة كانوا يستخدمون في الواقع فقط هذه الأرجل للمشي؛ إذا كانت تلك خطيئة، حسناً، فلتكن خطيئة. لكنهم كانوا وحدهم، سبعة أصدقاء معاً، وهو تجمع حميم داخل أسوارهم الأربعة الخاصة بهم إذا جاز التعبير، بمفردهم تماماً إذا صحّ القول؛ لأن أصدقاء المرء، رغم كل شيء، ليسوا كعامة الناس، وحيث العامة ليسوا موجودين فإن كلب الشوارع الصغير الفضولي هو بالتأكيد ليس قادراً على تشكيله؛ لكن، عند التسليم بهذا، أليس الأمر وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق؟ ليس الأمر كذلك، لكنه قريب جداً من هذا، وعلى الآباء عدم السماح لأطفالهم بالجري هنا وهناك بحرية، ومن الأفضل تعليمهم ضبط ألسنتهم واحترام الكبار.

إذا قُبِلَ كل هذا، فإنه يمكن التخلص من القضية برمتها. لكن الكثير من الأشياء التي يتم التخلص منها في أذهان كبار السن لم تُرسخ بعد في أذهان الشباب. لذلك سارعتُ، وسردتُ قصتي، وطرحتُ الأسئلة، ووجُّهت الاتهامات وأجريتُ التحقيقات، وحاولت جرّ الآخرين إلى المكان الذي حدث فيه كل هذا، وتحرُّقت لأظهر لكل شخص أين كنت أقف وأين كان السبعة يقفون، وأين وكيف كانوا يرقصون ويعزفون موسيقاهم. ولو جاء أي شخص معي، بدلاً من التملّص مني والضحك عليّ، لربما ضحيتُ ببراءتي وحاولت جهدي للوقوف على ساقيّ الخلفيتين من أجل إعادة بناء المشهد بوضوح. الآن يلام الأطفال على كل ما يفعلونه، ولكن أيضاً في الأخير يُغفر لهم عن كل ما يفعلونه. وأنا قد حافظت على صفاتي الطفولية، وعلى الرغم من ذلك كبرتُ لأكون كلباً ناضجاً. حسناً، تماماً كما كنتُ في ذلك الوقت قد استمريتُ بلا توقف على مناقشة الحادثة السابقة ــ التي لابد أن أعترف اليوم بأنني أوليتُها أقل أهمية بكثير ــ بتحليلها إلى مكوناتها الرئيسية، ومناقشتها مع مستمعيّ دون النظر إلى الجماعة التي وجدتُ نفسي بينها، وتكريس وقتي كله لهذه المشكلة، التي وجدتها مرهِقة كما وجدها الجميع، لكن ــ وذلك هو

الفرق ـ لذلك السبب بالذات كنت قد قررتَ السعي بلا هوادة حتى حلها، من أجل أن أترك حراً مرة أخرى لأحظى بالحياة اليومية العادية، الهادئة، السعيدة. تماماً هكذا، وإن كان ذلك بوسائل أقل صبيانية ـ مع ذلك ليس الفرق كبيراً جداً ـ قد اجهدتُ نفسي منذ تلك السنوات الخوالي وبقيتُ مداوماً على ذلك العمل حتى اليوم.

لكن الأمر بدأ مع تلك الحفلة الموسيقية. أنا لا ألوم الحفلة الموسيقية؛ إذ إن تصرفي الفطري هو الذي دفعني إلى ذلك، ومن المؤكد أنه كان سيجد فرصة أخرى ليدفعني إلى الدخول لو لم تجرِ الحفلة الموسيقية. مع ذلك فإن حقيقة أنها جرت في وقت مبكر جداً جعلني أشعر بالأسى على نفسي. إذ إن هذا سرقني جزءً كبيراً من طفولتي؛ وهي الحياة الرغيدة لكلب صغير، التي يمكن مع كثيرين أن تدوم لسنوات، لكن في حالتي لم تستمر سوى بضعة أشهر ليس إلاّ. وهكذا كانت الأمور. فهناك أشياء أكثر أهمية من الطفولة. وربما لدي رؤية أكثر من مجرد سعادة أكثر طفولية، اكتسبتها من حياة العمل الشاق، في كبر سنّي لا يقوى على تحمّلها أي طفل، لكن مع ذلك فأنا سأمتلك ناصيتها.

بدأتُ تحقيقاتي بأبسط الأشياء؛ لم يكن هناك أي نقص في المواد؛ بل أن الوفرة الفعلية، للأسف، هي التي تلقي بي في غياهب اليأس في أكثر ساعاتي حلكة. وبدأتُ أحقق في السؤال على ماذا كان يتغذى جنس الكلاب. لا يبدو هذا الآن، إن شئت، بأي حال من الأحوال سؤالاً بسيطاً، بطبيعة الحال. لقد شغلنا منذ فجر التاريخ، فهو الهدف الرئيسي لجميع تأملاتنا، حيث جرى نشر ملاحظات ومقالات ورؤى لا تُعد ولا تُحصى حول هذا الموضوع، وتطور إلى تخصص معرفي لا يكون في بوصلته الكبيرة خارج إدراك أي عالِم فرد فقط، لكن أيضاً خارج إدراك جميع علمائنا مجتمعين، وهذا عبء لا يمكن حمله إلاّ على يد كامل مجتمع الكِلاب، ورغم ذلك يتحقق بصعوبة وليس في مجمله تماماً؛ لأنه يتهاوى المرة تلو الأُخرى مثل ميراث أجداد مهمل، ولا بد من إعادة تأهيله بجدٍّ مرة أُخرى ـ ناهيك عن الصعوبات وظروف تحقيقاتي التي لا يمكن استيفاؤها تقريباً. لا حاجة لأي أحد ليشير بكل هذا لي، فأنا أعلم كل خباياه كما يعلم بذلك أي كلب عادي؛ وليس لدي الطموح للتدخل في المسائل العلمية الحقيقية، إذ أنني أكنّ كل احترام للمعرفة التي تستحقه، ولكن من أجل زيادة المعرفة فأنا أفتقر إلى المعدات، والاجتهاد، ووقت الفراغ، و .....

ليس آخراً، وعلى الأخص أثناء السنوات القليلة الماضية ـ الرغبة أيضاً. ألتهمُ طعامي، لكن أدنى ملاحظة منهجية سياسية واقتصادية أولية لذلك الفعل لا يبدو لي تستحق الاهتمام. وفي هذا الصدد يكون جوهر كل المعرفة كافياً بالنسبة لي، فالقاعدة البسيطة التي تقوم بموجبها الأم بفطم صغارها من صدرها وترسلهم إلى العالم هي: «اسقِ الأرض بقدر ما تستطيع». وفي هذه الجملة أليس كل شيء تقريباً وارد فيها؟ ما الذي سيضيفه التحقيق العلمي ذو الأهمية الحاسمة، مذ افتتحه آباؤنا الأوائل؟ مجرد تفاصيل، مجرد تفاصيل، وكيف أنهم غير متأكدين منها: لكن هذه القاعدة سوف تبقى طالما بقينا كلاباً. وهذا يتعلق بمخزوننا الرئيسي من الغذاء: صحيح لدينا أيضاً موارد أخرى، ولكن فقط عند الحاجة، وإذا لم تكن السنة سيئة للغاية يمكننا أن نعيش على هذا المخزون الرئيسي من طعامنا. هذا الغذاء نجده على

الأرض، لكن الأرض تحتاج المياه لديمومته وبذلك الثمن فقط توفر لنا الأرض طعامنا، الذي يمكن تسريع ظهوره، على أي حال، وينبغي أن لا يُنسى هذا، ببعض التعاويذ، والأغاني، والحركات الطقسية. لكن في رأيي يكون ذلك كل شيء؛ إذ ليس هناك شيء ما آخر أساسي يجب أن يقال حول هذه المسألة. في هذا الرأي، علاوة على ذلك، أنا على اتفاق مع الغالبية العظمى من مجتمع الكلاب، ويجب أن أنأى بنفسي بقوة عن كل الآراء الضلالية بشأن هذه النقطة. بصراحة تامة ليس لدي أي طموح بأن أكون بدعاً عن غيري، أو أن أكون في الحق ضد الأغلبية؛ أنا سعيد جداً عندما أستطيع أن أتفق مع رفاقي، كما أفعل في هذه الحالة. غير أن تحقيقاتي، على أي حال، هي في اتجاه آخر. إذ تخبرني ملاحظاتي الشخصية بأن الأرض، عندما تُسقى بالماء وتُحرث وفقاً لقواعد العلم، فإنها تُخرج الغذاء، وعلاوة على ذلك تُخرجه بمثل هذه الجودة، وبهذه الوفرة، وبمثل هذه الطرق، وبمثل هذه الأماكن، وبمثل هذه الأوقات لأن ذلك راجع إلى القوانين التي يرسّخها جزئياً أو كلياً المطلب العلمي.

أنا أقبل بكل هذا؛ وسؤالي، مع ذلك، هو ما يلي: «من أين تُجمع الأرضُ هذا الغذاء؟» وهو سؤال يدّعي الناس بشكل عام عدم فهمه، ويمكن أن تكون أفضل إجابة لديهم هي: «إذا لم يكن لديك ما يكفيك من الطعام، فإننا سنقدّم لك بعضاً مما لدينا». الآن تمعّنْ في هذه الإجابة. أنا أعلم بأنها ليست من فضائل الكلاب أن تُشارك مع الآخرين الغذاء الذي حصل عليه أحدهم ذات مرة. الحياة صعبة، والأرض عنيدة، والعلم غني بالمعرفة لكنه ضعيف في النتائج العملية: فأي شخص لديه غذاء يبقيه لنفسه؛ وتلك ليست أنانية، بل العكس، هو قانون الكلاب، وقرار الناس بالإجماع، ونتائج انتصارهم على الأنانية، لأن المالكين هم دائماً أقلية. ولهذا السبب تكون هذه الإجابة: «إذا لم يكن لديك ما يكفيك من الطعام، فإننا سنقدّم لك بعضاً مما لدينا» مجرد وسيلة للتحدث، دعابة، او شكل من أشكال المزاح، أنا لم أنسَ ذلك. لكن أهم شيء بدا لي، عندما كنت أندفع في كل مكان حاملاً أسئلتي أثناء تلك الأيام، هو أنهم وضعوا السخرية جانباً بقدر تعلق الأمر بي؛ صحيح بأنهم لم يعطوني فعلاً أي شيء أتناوله ـ إذ أين يمكنهم أن يجدوه في ظرف لحظة؟ ـ وحتى لو سنحت الفرصة امام الشخص ليحصل على بعض الطعام، فبطبيعة الحال أنه ينسى كل شيء آخر في فورة جوعه. مع ذلك فهم جميعاً كانوا يعنون بجد ما قالوه عندما قدّموا العرض، وهنا وهناك، بالضبط تماماً، كان سيُسْمَح لي حالياً ببعض الأشياء التافهة لو كنتُ ذكياً فقط بما يكفي لانتزاعه بسرعة. كيف قيّض لهؤلاء الناس أن يعاملونني بغرابة، ويدللونني، ويؤثرونني؟ هل لأنني كنت كلباً هزيلاً، أعاني من سوء التغذية ومن إهمال احتياجاتي؟ لكن كان هناك عدد لا يحصى من الكلاب سيئي التغذية يركضون هنا وهناك، وكانت الكلاب الأخرى تنتزع حتى أقل قطعة طعام بائسة من تحت أنوفهم كلما استطاعوا ذلك، وكثيراً ما كان ذلك ليس بسبب الجشع، بل بالأحرى كان ذلك كمبدأ كانت تسير عليه. لا، كانوا يعاملونني بإحسان خاص؛ ولا يمكنني أن أعطي دليلاً مفصلاً عن هذا، لكن لدي قناعة راسخة بأن الأمر كان كذلك. هل كانت أسئلتي، إذن، هي التي سرّتْهم، والتي رأوها ذكية جداً؟ لا، لم تُسرّهم أسئلتي وكان يُنظر إليها عموماً بأنها غبية. ومع ذلك كانت

أسئلتي هذه هي التي جعلتني أحظى باهتمامهم. كان الأمر وكأنهم آثروا القيام بالمستحيل، بمعنى، إغلاق فمي بالطعام ـ أنهم لم يفعلوا ذلك، لكنهم أحبّوا أن يفعلوه ـ بدلاً من تحمّل أسئلتي.

لكن في تلك الحالة سيكونون قد فعلوا جميلاً لإخراجي بعيداً ورفض الاستماع إلى أسئلتي. لا، أنهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك؛ فهم في الواقع لم يريدوا الاستماع إلى أسئلتي، إلاّ أنه لأنني سألتُ تلك الأسئلة فهم لم يريدوا أن يخرجونني بعيداً. كان ذلك هو الوقت ـ الذي كثيراً ما سخروا مني وعاملوني مثل جرو سخيف، وكنت أندفع هنا وهناك ـ ذلك هو الوقت عندما كنت فعلاً أتمتّع فيه بتقدير عام؛ فلم أتمتع مرة أُخرى مطلقاً بأي شيء مثل ذلك التقدير؛ كنت أدخل بشكل حرّ إلى كل مكان، لم تُوضع أي عقبة في طريقي، وكنت في الواقع أحظى بالإطراء، برغم أن ذلك الإطراء كان مقنَّعا بلباس القساوة. وكل ذلك حقاً بسبب أسئلتي، ونفاد صبري وتعطشي إلى المعرفة. هل أرادوا أن يهدئونني حتى أنام، ويحرفونني، من دون عنف، بمحبة تقريباً، عن طريق خاطئ، لكنه طريق لم يكن خطؤه تماماً من دون شك بأن العنف مسموح به؟ كما أن احتراماً معينا وخوفاً ما نأى بهم عن استخدام العنف. فأنا تنبأتُ حتى في تلك الأيام بشيء ما من هذا القبيل؛ اليوم أعرفه تمام المعرفة، أفضل بكثير من أولئك الذين مارسوه فعلاً في ذلك الوقت: إن ما كانوا يريدون القيام به هو حقاً حرفي عن طريقي. لكنهم لم يفلحوا؛ بل هم حققوا العكس؛ وازدادت يقظتي. وفضلاً عن ذلك، أصبح واضحاً لي بأنه أنا مَن كان يحاول إغواء الآخرين، وأنني نجحتُ فعلاً إلى حدّ ما. ولم أتمكّن من فهم أسئلتي إلاّ بمساعدة عالم الكلاب أجمع. على سبيل المثال عندما سألتُ: «من أين جاءت الأرض بهذا الطعام؟» هل كنتُ مهتماً، كما تشير المظاهر إلى ذلك تماماً، بالأرض؛ وهل كنتُ مهتماً إزاء العاملين في الأرض؟ لا على الإطلاق؛ فذلك، كما أدركتُ الموقف عما قريب، كان بعيداً عن ذهني. فكل الذي كنتُ مهتماً به هو جنس الكلاب، ذلك الشيء ولا أمر سواه. لأنه ما الذي كان موجوداً فعلاً هناك باستثناء أجناسنا نحن؟ ولمن يمكن أن يلجأ المرء في العالم الواسع الخاوي؟ كل المعرفة، التي هي مجمل جميع الأسئلة وجميع الإجابات، يحيط بها الكلب. فلو تمكّن المرء فقط أن يدرك هذه المعرفة، ولو أمكنه فقط أن يأتي بها إلى النور، ولو قيّض لنا نحن الكلاب امتلاك ناصية تلك المعرفة، فأننا نعرف بلا حدود أكثر مما نعترف به لأنفسنا! فحتى الكلب الأكثر ثرثرة يكون أكثر كتماناً لسرية معرفته من تكتمه على سرية الأماكن التي يمكن العثور فيها على الطعام الجيد. وإذ ترتجف بالرغبة، وتجلد نفسك بذيلك، فإنك تتلصص بحذر على كلب زميل لك، وتسأل، وترجو، وتعوي، وتعض، وتحقق ـ وتحقق ما استطعتَ تحقيقه تماماً من دون أي جهد: بالاهتمام الودي، والتواصل الصدوق، والقبول المخلص، والاحتضان الحار، والنباح الذي يختلط في وحدة واحدة: كل شيء موجه نحو تحقيق نشوة ما، منسية ومكتشفة مرة أخرى؛ لكن الشيء الوحيد الذي تتوق للفوز به قبل كل شيء، وهو التسليم بالمعرفة، ما يزال مرفوضاً أمامك. بالنسبة لتلك التوسلات، سواء كانت صامتة أم بصوت عال، فإن الأجوبة الوحيدة التي تحصل عليها، حتى بعد أن استخدمتَ كل قواك في الإغواء إلى أقصى حد، هي مجرد تحديقات بلهاء، ونظرات بعيدة، وعيون مضطربة

ومطرقة. ذلك هو الشيء نفسه كما كان عندما، وأنا مجرد جرو، كنتَ أصيح إلى الموسيقيين من الكلاب وكانوا يظلون صامتين.

الآن يمكن أن يقول المرء: «أنت تتذمر بشأن زملائك الكلاب، بشأن صمتهم في المسائل الحاسمة؛ أنت تؤكد بأنهم يعرفون أكثر مما يقرّون به، أكثر مما كانوا سيعترفون بأنه صحيح، وأن ذلك الصمت، والسبب الغامض وراءه هو أيضاً، بالطبع، مخفي ضمناً، يسمم الوجود ويجعله لا يحتمل بالنسبة لك، وعليه لابد لك إما تغييره أو أن تنتهي بسببه؛ ربما يكون الأمر كذلك؛ لكنك أنت نفسك كلب، ولديك أيضاً معرفة بالكلاب. حسناً، حاول إخراجه إلى الملأ، ليس فقط على شكل سؤال، ولكن أيضاً على شكل جواب. وإذا ما نطقتَ به، فمَن سوف يفكر في معارضتك؟ ولسوف تنضمّ جوقة الكلاب العظيمة وكأنها كانت بانتظارك. ثم ستحظى بالوضوح، والحقيقة، والاعتراف كما يتمناه الكثيرون مثلما تتمناه أنت تماماً. إن سقف هذه الحياة البائسة، التي تقول عنها الكثير من الأشياء القاسية، سوف ينشق، وسوف نصعد جميعنا، متراصّين، إلى عالم الحرية النبيل. وإذا لم نحقق هذا الإنجاز النهائي، وإذا أصبحت الأمور أسوأ من ذي قبل، وإذا كانت الحقيقة برمتها لا تُحتمل أكثر من نصف الحقيقة، وإذا ثبت بأن الصامتين في الحق هم أوصياء هذا الوجود، وإذا كان بصيص الأمل الذي ما زلنا نمتلكه قد استحال إلى يأس مطبق، فإن المسعى ما يزال يستحق المحاولة، لأنك لا ترغب في العيش كما كنتَ مضطراً للعيش. حسناً، إذن، لماذا تجعل هذا تقريعاً ضد الآخرين بأنهم صامتون، وأنت نفسك تلتزم الصمت؟» لكن ما أسهل الإجابة: لأنني كلب؛ ومن حيث الجوهر فأنا ألوذ بالصمت مثل الآخرين، مقاوماً بعناد أسئلتي الخاصة بي، بسبب الخوف. ولكي أكون دقيقاً، هل ثمة أمل بأنهم قد يجيبونني عن أسئلتي الموجهة إلى زملائي الكلاب، على الأقل منذ سنوات كِبَري؟ هل كان لدي مثل هذا الأمل الأحمق؟ وهل يمكنني التفكير في أُسس وجودنا، والتنبؤ بعمقه، ومشاهدة عمل بنائه، ذلك العمل المزعج، ثم أتوقع بأن كل هذا يُتخلى عنه، ويُهمَل، ويُترك، لمجرد أنني أطرح سؤالاً؟ لا، فأنا لم أعد أتوقع ذلك حقاً. أنا أفهم زملائي الكلاب، أنا من دمهم ولحمهم، من لحمهم البائس، المتجدد باستمرار، التوّاق دائماً. لكنه ليس مجرد لحم ودم نشترك فيه جميعنا، بل هناك المعرفة أيضاً، وليست المعرفة فقط، ولكن المفتاح لهذه المعرفة كذلك. أنا لا أمتلك ذلك المفتاح إلاّ في القواسم المشتركة مع الآخرين؛ ولا أستطيع الإمساك به من دون مساعدتهم. فأقسى العظام، التي تحتوي على أغنى نخاع، لا يمكن قهرها الاّ بطحن موحدّ لأسنان جميع الكلاب. ذلك بالطبع هو مجرد تشبيه كلامي ومبالغ فيه؛ فإذا كانت جميع الأسنان جاهزة، لن تحتاج إلى العضّ، إذ إن العظام ستتشقق من تلقاء نفسها وسيكون النخاع بيسر في متناول أضعف الكلاب. وإذا بقيتُ مخلصاً لهذه الاستعارة، عندها تبدو غاية اهدافي، وأسئلتي، واستفساراتي، فظيعة، ذلك صحيح. لأنني أريد إجبار جميع الكلاب من ثم لتجتمع معاً، وأريد العظام أن تتشقق تحت ضغط استعدادهم الجماعي، وبعد ذلك أريد أن أُلقي بهم نحو الحياة العادية التي يحبّونها، في حين أنا بمفردي تماماً، وحدي ليس إلاّ، استمتع بالنخاع. يبدو ذلك فظيعاً، وكأنني تقريباً أردتُ أن أتغذى على النخاع، ليس مجرد نخاع عظمٍ، ولكن

نخاع كل جنس الكلاب نفسه. لكن هذا ليس سوى استعارة. فالنخاع الذي أنا بصدده هنا ليس طعاماً؛ على العكس من ذلك، هو سم.

إن أسئلتي لا تكون سوى مهماز لي؛ فأنا لا أريد سوى أن يحفّزني الصمت الذي يطوّقني بوصفه الجواب النهائي. «إلى متى ستكون قادراً على تحمّل حقيقة أن عالم الكلاب، كما توضّح ذلك أبحاثك أكثر فأكثر، يتعهد بالتزام الصمت وسيبقى كذلك دائماً؟ إلى متى ستكون قادراً على تحمله؟» ذلك هو السؤال الكبير الحقيقي في حياتي، الذي تقف تافهة أمامه جميع الأسئلة الصغيرة؛ فهو وُضِع لي وحدي ولا يهمّ أحداً سواي. للأسف أستطيع الإجابة عنه بسهولة أكبر من الأسئلة المحددة، الأصغر: على الأرجح سأحتمل ذلك حتى نهايتي الطبيعية؛ إذ أن هدوء شيخوختي سوف يضع مقاومة أكبر وأكبر أمام جميع الأسئلة المزعجة. أنا سوف أموت على الأرجح بصمت ومحاطاً بصمت، بسلام تقريباً، وأنا أتطلع إلى ذلك بهدوء. إن قلباً قوياً بشكلٍ مثيرٍ للإعجاب، ورئتين يكون من المستحيل استهلاكها قبل أوانها، قد حُبينا بها نحن الكلاب كما لو كان ذلك بخبث؛ فنحن سننجو من جميع الأسئلة، حتى أسئلتنا نحن، ونغدو مجرد حصون للصمت.

لقد اتخذتُ مؤخراً المزيد والمزيد من الخطوات لأصلح من شأن حياتي، باحثاً عن الخطأ الحاسم، والجوهري، الذي لابد أنني بالتأكيد قد ارتكبته؛ وأنا لا أتمكن من العثور عليه. ومع ذلك لا بد لي من ارتكابه، لأنه لو لم أكن قد ارتكبته، ومع ذلك لم أكن قادراً بسبب العمل الدؤوب لحياة طويلة على تحقيق رغبتي، فإن ذلك سيبرهن على أن رغبتي غدت ضرباً من المستحيل، ولابد أن يتبع ذلك يأس مطبق. فلأنظرْ، إذن، في عمل أستغرق حياة بأكملها. وأول شيء هو تحقيقاتي في السؤال: من أين تأتي الأرض بالغذاء الذي تعطيناه؟ ولكوني كلباً صغيراً، وطامعاً أساساً بشكل طبيعي في الحياة، زهدتُ بكل مباهجي، وتجنبتُ بوجلٍ كل الملذات، ودفنتُ رأسي بين قائميّ الأماميتين عندما كان يواجهني إغراء ما، ووطّنت نفسي على أداء مهمتي. لم أكن عالِماً، لا في المعلومات التي حصلتُ عليها، ولا في الطريقة، ولا في النية. ربما كان ذلك عيباً، لكنه لم يكن عيباً حاسماً. لم أحظَ إلا بالقليل من التعليم، لأنني هجرتُ رعاية والدتي في سن مبكرة، وسرعان ما اعتدتُ على الاستقلال، وعشتُ حياة حرة؛ والاستقلال المبكر يقف بالضد من التعلم المنهجي. لكنني قد شهدتُ الكثير، واستمعتُ إلى الكثير، وتحدثتُ مع كلاب من جميع الأنواع والظروف، وفهمتُ كل شيء، على ما أعتقد، بذكاء إلى حد ما، وربطتُ ملاحظاتي الخاصة بذكاءٍ إلى حد ما؛ مما عوّض إلى حد ما عن نقص تعليمي، ناهيك عن أن الاستقلال، إذا كان مثلبة في تعلّم الأشياء، هو ميزة فعلية عندما يقوم المرء بعمل تحقيقاته الخاصة به. في حالتي كان التعليم أكثر من ضروري لأنني لم أكن قادراً على توظيف الطريقة الحقيقية للعلوم، أي، لأفيد نفسي بأعمال أسلافي، وأقيم اتصالاً مع المحققين المعاصرين. لقد اعتمدتُ تماماً على مواردي الخاصة بي، وبدأتُ منذ البداية، وبالوعي، المشجّع للشباب، لكن المنصدم كلية مع العمر، الوعي بأن النقطة العرضية التي قمتُ بعملي في سبيلها لابد أن تكون النقطة الأخيرة. هل كنتُ فعلاً وحيداً في تحقيقاتي، في البداية وحتى الآن؟ نعم و لا. إذ لا يمكن تصوّر

بأنه يجب أن لا يكون هناك دائماً وأنه ليس هناك اليوم كلاب فردية في الحالة نفسها التي أنا عليها. كما لا يمكن أن أكون ملعوناً جراء ذلك. فأنا لا أحيد عن طبيعة الكلاب قيد أنملة. كل كلب مثلي لديه الدافع للسؤال، وأنا لدي كأي كلب الدافع إلى عدم الرد. الجميع لديهم الدافع إلى السؤال. كيف يمكن أن تكون أسئلتي قد اثّرت على مستمعيّ ادنى تأثير – لكنهم غالباً ما تأثروا، لفرحتي الغامرة، فرحة مبالغ فيها، عليّ أن أعترف – وكيف أمكنهم أن يمنعوني من تحقيق أكثر مما حققت؟

كما أن مسألة أنني مُكره على البقاء صامتاً لا يحتاج للأسف إلى أي دليل. أنا في الأساس، إذن، لا أختلف عن أي كلب آخر؛ الجميع، مهما اختلفوا في الرأي عني ورفضوا وجهات نظري، فإنهم سوف يعترفون بذلك بكل سرور، وأنا بدوري سوف أعترف مثلما يعترف أي كلب آخر. فقط خليط العناصر هو المختلف، فالفرق مهم جداً بالنسبة للفرد، وتافه بالنسبة للجنس ككل. والآن هل يمكن للمرء أن يثق بأن تكوين هذه العناصر المتاحة لم يحدث أبداً عبر الماضي والحاضر كلّه إن انتهى إلى خليط مماثل لي، وهو خليط، علاوة على ذلك، لو كان خليطي يُعدّ بائساً، فهو يعدّ أكثر بؤساً ايضاً؟ إن التفكير هكذا سيكون مخالفاً لتجاربي كلها. فنحن الكلاب جميعنا منهمكون في أغرب المهن، مهن يرفض المرءُ أن يؤمن فيها لو لم يكن لديه أوثق المعلومات بشأنها. وأفضل مثال يمكن أن أسوقه هو مثال الكلب المحلّق. المرة الأولى التي سمعت فيها بهذا النوع من الكلاب ضحكتُ وببساطة رفضتُ أن أصدّق ذلك. ماذا؟ وطُلِبَ من المرء بأن يصدّق بوجود نوع صغير جداً من الكلاب، ليس أكبر بكثير من حجم رأسي حتى عندما يكون كامل النمو، وهذا الكلب، الذي لابد بالطبع أن يكون مخلوقاً ضعيفاً، عبارة عن كرة لولبية اصطناعية، وواهنة، مرتّبة ومعقوصة الشعر هو بناءً على جميع ما قيل، غير قادر على القيام بقفزة حقيقية، هذا الكلب كان من المفترض، وفقاً لروايات الناس، أن يبقى معظم الوقت مرتفعاً في الهواء، على ما يبدو لا يفعل شيئاً على الإطلاق ولكن ببساطة ليستريح هناك؟ لا، إن محاولة جعلي أبتلع أشياء كهذه هو استغلال لبساطة كلب صغير بشكل شنيع تماماً، هكذا قلتُ في نفسي. لكن بعد ذلك بفترة وجيزة سمعتُ من مصدر آخر رواية كلب محلّق آخر. هل يمكن أن تكون هناك مؤامرة لخداعي؟ إلاّ أنه بعد ذلك رأيتُ الموسيقيين من الكلاب الموسيقية بأم عينيّ، ومنذ ذلك اليوم رأيتُ كل شيء ممكناً، من دون أن تكون هناك أي انحيازات تحدّ من قواي في الإدراك، فحققتُ في أكثر الشائعات خطأ، متتبِّعا اياها إلى المدى الذي يمكن أن تأخذني إليه، وهذه الشائعات غير المعقولة في هذا العالم غير المعقول تبدو أكثر احتمالاً مما هو معقول، وعلاوة على ذلك كانت على وجه الخصوص ميداناً خصباً للتحقيق فيه. وكذا كان الأمر أيضاً مع الكلاب المحلّقة. لقد اكتشفتُ الكثير من الأشياء عنها؛ صحيح أنني لم أنجح حتى يومنا هذا في رؤية أيّ من هذه الكلاب، لكنني كنتُ مقتنعاً بقوة بوجودها منذ فترة طويلة، وأنها تحتل مكاناً مهماً في صورتي للعالم. وكالمعتاد، لم تكن، بالطبع، طريقتهم هي التي حفّزتني أساساً على التفكير.

أنه لشيء رائع – مَن يمكنه أن ينكر ذلك؟ – بأن هذه الكلاب لابد أن تكون قادرة على أن تعوم في الهواء: وفي دهشتي الغامرة بتلك الحالة فإنني متفق مع زملائي

الكلاب. لكن الأكثر غرابة إلى ذهني هو انعدام الشعور، انعدام الشعور الغبي لهذه الكائنات. فهي ليس لديها أية علاقة مهما كان نوعها مع الحياة العامة للمجتمع، إنها تحوم في الهواء، وهذا هو كل شيء، وتستمر الحياة في طريقتها المعهودة؛ فيشير شخص ما بين الفينة والأخرى إلى الفن والفنانين، ولكن ينتهي الأمر هناك. لكن لماذا، يا كلابي اللطيفة، لماذا بحق السماء تحلق هذه الكلاب في الهواء؟ ما هو المعنى وراء عملها هذا؟ لماذا لا يمكن للمرء الحصول على أي كلمة توضيح فيما يتعلق بها؟ لماذا تحوم عالياً هناك، وهي تسمح لسيقانها، فخر الكلاب، بأن تقع في غياهب الإهمال، وتُبقي على انفصالها من الأرض المغذية، وتجني من دون أن تزرع، وتحصل لقاء ذلك الشيء الكثير، حسبما سمعت، وعلى حساب مجتمع الكلاب أيضاً. بوسعي أن أفخر بنفسي بأن تحقيقاتي في هذه المسائل أحدثت بعض الضجة. إذ بدأ الناس بالتحقيق إلى حد ما، من أجل جمع البيانات؛ لقد حددوا البداية، على الأقل، برغم أنهم من غير المرجح أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك. لكن رغم كل هذا تحقق شيء ما. وعلى الرغم من أن الحقيقة لن يتم اكتشافها بهذه الوسائل ــ إذ لا يمكن أبداً الوصول إلى تلك المرحلة ــ مع ذلك فإنها تلقي بالضوء على بعض التداعيات الأعمق للباطل. لأن جميع الظواهر غير المعقولة في وجودنا، والأكثر لا معقولية في معظمها، هي عرضة للتحقيق. ليس بشكل كامل، بطبيعة الحال ــ فتلك هي دعابة شيطانية ــ لكنها تجنب المرء بشكل كافٍ المسائل المؤلمة. خذ الكلاب المحلقة مرة أخرى كمثال؛ فهي ليست متكبرة كما يمكن للمرء أن يتصورها في البداية، بل بالأحرى معتمدة على وجه الخصوص على زملائهم الكلاب؛ إذا حاول المرء أن يضع نفسه في مكانها فإنه سوف يدرك ذلك. لأنهم يجب أن يفعلوا ما في وسعهم من أجل الحصول على الصفح، ليس بشكل علني ــ فذلك من شأنه أن يكون انتهاكاً لالتزام الصمت ــ بل يجب أن يفعلوا ما بوسعهم للحصول على الصفح بسبب طريقتهم في الحياة، وإلاّ سيحولون الانتباه عن هذا الأمر بحيث يمكن نسيانه ــ وهم يفعلون ذلك، حسبما قيل لي، عن طريق ثرثرة لا تطاق غالباً. إنهم يتحدثون بشكل دائم، آناً عن تأملاتهم الفلسفية، التي عن طريقها، يرون بأنهم قد تخلوا تماماً عن المجهود البدني، يمكنهم باستمرار أن يشغلوا بها أنفسهم، وآناً يتحدثون عن الملاحظات التي قاموا بها من محطاتهم العلوية؛ وبرغم، كما هو مفهوم جداً عند النظر في وجودهم الكسول، أنهم غير بارزين كثيراً بقواهم الفكرية، وأن فلسفتهم لا قيمة لها كما ملاحظاتهم، وأن العلم لا يمكن أن يستفيد أي شيء من كلامهم، وإلى جانب ذلك، أنه غير متقيّد بأخذ المساعدة من هذه المصادر البائسة، ومع ذلك إذا سأل امرؤ ما الذي تقوم به الكلاب المحلقة فعلاً فإنه دائماً ما يتلقى الردّ بأنهم يساهمون مساهمة كبيرة في المعرفة.

«هذا صحيح»، يشير احد الأشخاص، «لكن إساهاماتهم لا قيمة لها ومرهقة». والرد على ذلك هو التغاضي، أو تغيير الموضوع، أو إظهار الانزعاج، أو الضحك، وبعد فترة قصيرة، عندما تسأل ثانية، تعرف مرة أخرى بأنهم يساهمون في المعرفة، وأخيراً عندما يسألونك ذلك السؤال فأنت نفسك سوف تجيب ــ إذا لم تكن حذراً ــ بالمضمون نفسه. وربما يكون من الجميل حقاً أن لا تكون عنيداً جداً، ولكن عليك أن تذعن لمشاعر العامة، وتتقبّل الكلاب المحلّقة، ومن دون الاعتراف

بحقها في الوجود، الذي لا يمكنك القيام به، ومع ذلك تتساهل معهم. لكن يجب عدم طلب ما هو أكثر من هذا؛ فذلك من شأنه أن يذهب بعيداً جداً، ومع ذلك يتم الطلب. يطلبون منّا دائماً أن نتحمّل الكلاب المحلّقة الجديدة التي تظهر دائماً. والمرء لا يعرف حتى من أين جاءت. هل أن هذه الكلاب تتضاعف بالتوالد؟ هل هي تمتلك في الواقع القدرة على ذلك؟ ـ لأنها ليست أكثر من معطف جميل من الشعر، فما الذي يوجد هناك بحيث تتوالد؟ لكن حتى لو كان ذلك الاحتمال غير المرجّح ممكناً، فمتى يمكن أن يحدث؟ لأنها دائماً ما تُرى وحيدة، محلّقة برضى عالياً في الهواء، وإن نزلتْ لبرهة من الزمن لتجري، فهي لا تستمر سوى دقيقة أو اثنتين، بضع قفزات متكلفة ودائماً أيضاً في عزلة صارمة، مستغرقة في ما يُفترض أن يكون فكراً عميقاً، لا تستطيع الفكاك منه، حتى عندما يبذلون قصارى جهدهم، أو على الأقل هكذا يقولون. لكن إذا كانت لا يتوالد، هل يصدّق بأنه يمكن أن يكون هناك كلاب ممن تتخلى طواعية عن الحياة على الأرض الصلبة، وتصبح طواعية كلاباً محلّقة، وببساطة من أجل الدعة وتحقيق انجاز فني معين تختار تلك الحياة الفارغة على وسائد مرتفعة هناك؟ أنه لأمر لا يمكن تصوره؛ فلا التوالد ولا الانتقال الطوعي يمكن تصوره. الحقائق، على أي حال، تُظهر بأن هناك دائماً كلاباً محلّقة جديدة واضحة بالدليل؛ الذي لا بد للمرء أن يستنتج منه، برغم العقبات التي تبدو منيعة بالنسبة لفهمنا، بأن لا توجد أجناس من الكلاب، مهما كانت غريبة، يمكن أن تنقرض، ما إن وُجِدت، أو، على الأقل، ليس من دون صراع قاسٍ، ليس من دون أن تكون قادرة على وضع دفاع ناجح لفترة طويلة.

لكن إذا كان ذلك ينطبق على مثل هذه الأجناس غير المألوفة، الغريبة من الناحية الخارجية، غير الكفوءة مثل الكلب المحلق، هل يجب أن لا أتقبله أيضاً بأنه ينطبق عليّ؟ إلى جانب ذلك، أنا لست غريب الأطوار من الناحية الظاهرية؛ مجرد كلب عادي من الطبقة المتوسطة مثلما هو سائد جداً، في هذا الحيّ، على الأقل، كما أنني لست استثنائياً بشكل خاص بأي شكل من الأشكال، ولا بغيضاً بأية حال من الأحوال؛ وفي شبابي، وإلى حد ما أيضاً في مرحلة البلوغ، طالما كنتُ اهتم بمظهري وكانت لي الكثير من التجارب، كان يُنظر إليّ في الواقع على أني كلب وسيم إلى أبعد حدّ. كان منظري الأمامي مثار إعجاب بشكل خاص، وكذا قوائمي الرشيقة، والتكوين الجميل لرأسي. لكن معطفي الفضي الأبيض والأصفر، المتكوّر فقط عند نهايات الشعر، كان جميلاً جداً أيضاً. لم يكن ما يدعو إلى الغرابة في كل هذا؛ إذ إن الشيء الوحيد الغريب بالنسبة لي هو طبيعتي، وحتى ذلك، وأنا دائماً حريص على تذكّره، له أساسه في الطبيعة الكونية للكلاب. الآن إن لم تكن الكلاب المحلّقة تعيش في عزلة، بل دائماً تتدبر لملاقاة زملائها في هذا المكان أو ذاك في عالم الكلاب الفسيح، بل حتى تستحضر أجيالاً جديدة لها من لا شيء، إذن فأنا أيضاً أستطيع أن أعيش في الثقة التي لستُ يائساً تماماً منها. من المؤكد أن يكون مصير أمثالي من الكلاب مصيراً غريباً، كما أن وجود زملائي لا يمكن أبداً أن يكون ذا فائدة ملحوظة بالنسبة لي، إذا لم يكن هذا لسبب آخر سوى أنني غير قادر على تمييزهم. نحن الكلاب الذين سحقهم الصمت، الذين يحنّون إلى الانتصار عليه، تماماً للحصول على نَفَس من الهواء النقي. بينما البعض الآخر يبدو بأنه ينتعش

بالصمت: صحيح إن ذلك هو فقط في المظهر، كما هو الحال مع الكلاب الموسيقية، التي كانت ظاهرياً هادئة كل الهدوء عندما كانت تعزف، لكنها في الواقع كانت في حالة من الإثارة الكبيرة. مع ذلك يكون الوهم قوياً جداً، يحاول المرء أن يتغلّب عليه، لكنه يسخر من كل محاولة. ما هي المساعدة، إذن، التي يجدها زملائي؟ أي نوع من المحاولات التي يقومون بها ليتمكنوا من الاستمرار على العيش برغم كل شيء؟ ربما تكون هذه المحاولات ذات أنواع مختلفة. إن نوبة الاستجواب التي جرت عندما كنتُ صغيراً ربما تكون أحد تلك الأنواع. لذلك فكرتُ أنه ربما إذا ارتبطتُ مع أولئك الذين طرحوا العديد من الأسئلة قد أجد رفاقي الحقيقيين. حسناً، كنتُ أفعل ذلك لبعض الوقت، بضبط نفس كبير، وكانت مسألة ضبط النفس ضرورية بسبب الانزعاج الذي شعرتُ به عندما كنتُ أُقاطَع بأسئلة دائمة لم أستطع بنفسي الإجابة عنها في الغالب: لأن الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحصول على إجابات.

علاوة على ذلك، مَن الذي لا يكون متلهفاً على طرح الأسئلة وهو صغير، وكيف يكون الحال، عندما تدور الكثير من الأسئلة في الذهن، هل ستختار الأسئلة الصحيحة؟ فكل سؤال يبدو شبيهاً بالآخر؛ إنها النية التي يُحسب لها حساب، لكن النية تلك غالباً ما تكون مخفية حتى على طارح السؤال. وإلى جانب ذلك، فمن خصوصية الكلاب أن يطرحوا أسئلة دائماً، يطرحونها بشكل مشوَّش لبعضهم بعضا؛ وكأنهم إذ يقومون بهذا إنما يحاولون طمس كل أثر للأسئلة الحقيقية. لا، فرفاقي الحقيقيون لا يمكن أن يكونوا في صفوف طارحي الأسئلة الشباب، إنهم قليلون مقارنة بالكبار والصامتين، الذين أنتمي إليهم الآن. لكن ما الخير الذي يُرتجى من كل هذه الأسئلة، فهي قد خذلتني تماماً؛ على ما يبدو أن زملائي الكلاب أكثر ذكاء مني، ويلجؤون إلى أساليب ممتازة أخرى تمكّنهم من تحمّل هذه الحياة، أساليب، مع ذلك، حسبما أستطيع أن أقول من خلال تجربتي الخاصة، برغم أنها قد تساعد عند الحاجة، وبرغم أنها قد تهدّئ، وتسكّن إلى درجة الراحة، وتصرف الانتباه، {أساليب} هي حتى الآن على العموم عاجزة كأساليبي، لأنه، بغض النظر عن الوجهة التي أنظر إليها، لا أستطيع أن أرى أية علامة على نجاحهم. أخشى أن يكون آخر شيء يمكنني بواسطته أن أتمنى التعرّف على زملائي الحقيقيين هو نجاحهم. لكن أين، إذن، هم زملائي الحقيقيون؟ نعم، ذلك هو سبب شكواي؛ وذلك هو لبّ هذه الشكوى. أين هم؟ في كل مكان وليس في أي مكان. ربما جاري القريب، على بعد ثلاثة قفزات ليس إلاّ، هو واحد منهم؛ إذ إننا غالباً ما ننبح على بعضنا بعضا، كما أنه يدعونني أحياناً، برغم أنني لا أدعوه. فهل هو زميلي الحقيقي؟ لستُ أدري، فأنا بالتأكيد لا أرى فيه أية علامة على ذلك، لكن ذلك ممكن. إنه ممكن، لكن مع ذلك لا شيء أقل احتمالاً. عندما يكون بعيداً يمكن أن أُسرّي عن نفسي، منغمساً في خيالاتي، من خلال اكتشاف العديد من الأشياء فيه تلك الأشياء التي تحمل تشابهاً مريباً مع ما أمتلكه. لكن بمجرد أن يقف أمامي تغدو كل خيالاتي سخيفة. إنه كلب عجوز، أصغر قليلاً حتى مني ـ وأنا بالكاد متوسط الحجم ـ بني اللون، قصير الشعر، مع إمالة للرأس تنمّ عن التعب ومشية متثاقلة. وفوق كل هذا يجرّ ساقه الخلفية اليسرى خلفه قليلاً بسبب مرض ما. ومنذ فترة طويلة كنتُ الآن أكثر حميمية

معه من أي شخص آخر؛ ومن دواعي سروري أن أقول بأنني ما أزال قادراً على الانسجام معه على خير ما يرام، وعندما يذهب بعيداً أصرخ وراءه بأكثر التحايا ودية، وإن لم يكن هذا بسبب المودّة، ولكن غضباً على نفسي؛ لأنه إذا اتبعه أجده مثيراً للاشمئزاز مرة أخرى، وهو ينسلّ هناك خلسة يجرجر ساقه وأجزاءه الخلفية المنخفضة جداً. يبدو لي الأمر أحياناً كما لو كنتُ أحاول إهانة نفسي من خلال التفكير فيه بوصفه زميلاً لي.

كما أنه في محادثاتنا لا يشي بأي أثر يفصح عن تشابه الفكر؛ صحيح بأنه ذكي ومثقف بما فيه الكفاية بحيث تجري هذه الأمور هنا، ويمكنني أن أتعلم الكثير منه. ولكن هل الذكاء والثقافة هما اللذان أبحث عنهما؟ عادة ما نتجاذب أطراف الحديث بشأن المسائل المحلية، وأنا مندهش ـ إذ جعلتني عزلتي أكثر تبصًّرا في هذه الأمور ـ كم من الذكاء يكون مطلوباً حتى للكلب العادي في الظروف الطبيعية وليس في الظروف غير المواتية، إذا قيّض له أن يعيش حياته ويدافع عن نفسه ضد أكبر المخاطر الاعتيادية للحياة. صحيح بأن المعرفة تعطي القواعد التي يجب على المرء أن يتّبعها، ولكن فهمها حتى وإن كان بشكل ناقص ومبتسر ليس يسيراً بأية حال من الأحوال، وحتى عندما يستوعبها المرء فإن الصعوبة الحقيقية ما تزال قائمة، ألا وهي عملية تطبيقها على الظروف المحلية ـ هنا لا أحد تقريباً يمكن أن يُقدّم المساعدة، حيث كلّ ساعة تقريباً تجلب معها أعباءً جديدة، وكل قطعة جديدة من الأرض تجلب مشاكلها الخاصة بها. ولا أحد بوسعه أن يفترض بأنه قد سوّى كل شيء إلى الأبد وأنه من الآن فصاعداً سوف تستمر حياته، إذا جاز التعبير، من تلقاء نفسها، ولا حتى أنا بنفسي أستطيع أن أزعم ذلك، برغم أن حاجاتي تتقلص بمعنى الكلمة من يوم إلى آخر. كما أن كل هذا العمل المتواصل ـ إلى أية غاية؟ هو مجرد أن يدفن المرء نفسه أعمق فأعمق بصمت، على ما يبدو، بشكل عميق جداً لدرجة أنه لا يمكن أبداً أن يُسحب مرة أخرى على يد أي شخص.

إن الناس في كثير من الأحيان تثني على التقدم العام الذي يحرزه مجتمع الكلاب على مرّ العصور، وربما يقصدون من وراء ذلك على وجه الخصوص التقدم المحرَز في المعرفة. من المؤكد أن المعرفة تتقدم، وتقدمها لا يقاوم، هي في الواقع تتقدم بوتيرة متسارعة، دائماً بشكل أسرع، لكن ما الذي يمكن أن نثني عليه في ذلك التقدم؟ هذا الأمر يبدو كما لو أن شخصاً يثني على شخص آخر لأنه بمرور السنين أخذ يتقدّم في السن، وبالنتيجة يقترب أكثر فأكثر من الموت بسرعة متزايدة. تلك هي عملية طبيعية، فضلاً عن أنها {عملية} قبيحة، حيث لا أجد فيها شيئاً يستحق الثناء. لا أستطيع أن أرى سوى الانحطاط في كل مكان، وفي قول ذلك، على أي حال، أنا لا أقصد بأن الأجيال السابقة كانت أساساً أفضل من جيلنا اليوم، لكنها فقط كانت أصغر سناً. وتلك كانت ميزتها الكبيرة، كما أن ذاكرتهم لم تُثقل مثل ذاكرتنا اليوم، حيث كان من الأسهل جعلهم يتكلمون، وحتى لو لم ينجح أحد بالفعل في القيام بذلك، فإن إمكانية القيام بذلك كانت أكبر، وأنه بالفعل هذا الإحساس الأعظم بالإمكانية هو الذي يحركنا بعمق عندما نستمع إلى تلك القصص القديمة والبسيطة بشكل غريب. هنا وهناك نلتقط عبارة مهمة تثير الفضول ونود تقريباً أن نقفز على

أقدامنا، لو كنا لا نشعر بوطأة الدهور علينا. لا، مهما كان الاعتراض على عمري، فأن الأجيال السابقة لم تكن أفضل، بل في الواقع كانت أسوأ بكثير، وأضعف بكثير. حتى في تلك الأيام لم تكن المعجزات مبتذلة تتسكع صراحة في الشوارع لأي شخص يريد الفوز بها؛ ولكن برغم كل شيء، الكلاب ـ لا أستطيع أن أصف الأمر بأية وسيلة أخرى ـ لم تصبح حتى الآن كلبية كما اليوم، إذ كان صرح جنس الكلاب ما يزال مبنياً بشكل فضفاض، والكلمة الصادقة يمكن أن تتدخل، تخطط البناء أو تعيد تخطيطه، وتغيّره عند الرغبة بذلك؛ وتحويله إلى نقيضه؛ والكلمة كانت هناك، كانت قريبة جداً على الأقل، على طرف لسان كل شخص، أي شخص قد يعثر عليها. فماذا حلّ بها اليوم؟ فربما يقوم المرء اليوم بنزع قلب أي شخص ولا يجدها. جيلنا ضائع، قد يكون كذلك، لكنه أقلّ ملامة من تلك الأجيال السابقة. أستطيع أن أفهم تردّد أبناء جيلي، بل لم يعد مجرد تردّد؛ إنه النسيان الألف لحلم حُلِم به ألف مرة ونُسِي ألف مرة؛ فمَن الذي يمكن أن يلعننا فقط لمجرد النسيان للمرة الألف؟ لكن يُخيّل إليّ بأنني أفهم تردّد أجدادنا أيضاً، وربما كنا قد تصرفنا تماماً كما كانوا يتصرفون؛ بالفعل يمكنني تقريباً أن أقول: طوبى لنا بأننا لم نكن نحن مَن يلام، حيث إننا نستطيع بدلاً عن ذلك أن نسرع في صمت بريء غالباً نحو الموت في عالم سوّده الآخرون. عندما ضلّ آباؤنا الأوائل لم يكن لديهم دون شك أية فكرة بأن انحرافهم كان انحرافاً لا نهاية له، إذ كان بوسعهم أن يروا تماماً مفترق الطرق، وبدا أمراً يسيراً أن يعودوا إلى الوراء متى ما راقَ لهم ذلك، وإذا ما تترددوا في العودة إلى الوراء فإن ذلك ببساطة لأنهم كانوا يريدون التمتع بحياة الكلاب لفترة ما أطول. لم تكن بعدُ حياة كلب حقيقي، وقد بدت جميلة في أعينهم بشكل راقٍ، وهذا ما حلّ بهم في وقت قصير، وقت قصير جداً، وهكذا ضلّوا أكثر. لم يعرفوا ما يمكننا الآن تخمينه، ونحن نتأمل في مجرى التاريخ: بأن التغيير يبدأ في الروح قبل أن يظهر في الوجود العادي، وبأنهم، عندما بدأوا في التمتّع بحياة الكلاب، فلا بد أنهم امتلكوا بالفعل أرواح الكلاب القديمة الحقيقية، وليسوا بأي حال من الأحوال قريبين من نقطة بدايتهم كما كانوا يظنون، أو كما كانت تزيّن لهم أعينهم التي تستمتع بكل المباهج التي تليق بالكلاب. لكن مَن ذا الذي يستطيع أن يتكلم عن الشباب اليوم؟ فهؤلاء كانوا الكلاب الشبان حقاً، إلاّ أن طموحهم الوحيد للأسف هو أن يصبحوا كلاباً طاعنين في السن، وهذا بحقٍ شيء لم يخفقوا في تحقيقه، كما تُظهِر ذلك جميع الأجيال المتعاقبة، وجيلنا، وهو الجيل الأخير، يُعدّ أكثر الأجيال وضوحاً من سواه.

بطبيعة الحال أنا لا أتحدث مع جاري عن هذه الأشياء، لكنني في كثير من الأحيان لا يسعني إلاّ أن أُفكر فيها عندما أجلس قبالته ـ ذلك الكلب العجوز المثالي ـ أو أدسّ أنفي في معطفه، الذي تفوح منه نفحة من رائحة الجلود المتروكة. إن الحديث معه، أو حتى الحديث مع أي أحد من الآخرين، حول مثل هذه الأمور سيكون بلا طائل. فأنا أعرف ما هو الإتجاه الذي سوف تأخذه المحادثة. إذ سيقوم بإثارة اعتراض طفيف بين الفينة والأُخرى، لكنه سيوافق أخيراً ـ فالاتفاق هو أفضل سلاح للدفاع ـ وسوف تُدرس المسألة: والسؤال لماذا في الواقع نتجشّم عناء إخراجها بالمرّة؟ وبرغم هذا ثمة فهم عميق بين جاري وبيني، أكثر عمقاً من مجرد كلمات. ولن أتوقف أبداً عن إدامة ذلك، على الرغم من أنني ليس لدي أي دليل على ذلك وربما

أعاني من وهم اعتيادي، ناجم من حقيقة إنه لفترة طويلة كان هذا هو الكلب الوحيد الذي كنتُ أُقيم معه أي تواصل، وهكذا فأنا ملزم بالتشبث به. «هل أنت برغم كل شيء زميلي حسب طريقتك الخاصة؟ وهل أنت خجل لأن كل شيء قد خاب معك؟ انظر، لقد حصل المصير نفسه معي. عندما أكون وحيداً فأنا أبكي على هذا المصير؛ هلمّ، فما أحلى أن نبكي معاً». تنتابني في كثير من الأحيان مثل هذه الأفكار ومن ثم أرمقه بنظرة طويلة. لكنه لا يخفض بصره، ولكن لا يمكن لأي أحد قراءة أي شيء من ذلك؛ فهو يحدّق فيّ ببلادة، متسائلاً لماذا أنا صامت ولماذا قد قطعتُ الحوار. لكن ربما تلك النظرة بالذات تمثّل طريقته في استجوابي، وأنني أخيب أمله تماماً كما يخيب أملي. في شبابي، لو لم تكن المشاكل الأخرى أكثر أهمية بالنسبة لي وقتذاك، ولو لم أكن راضياً تماماً برفقتي، لربما سألته على الفور وتلقيتُ جواباً يتوافق معي توافقاً تاماً، ولكان ذلك أسوأ حتى من صمت هذا اليوم. لكن أليس الجميع صامتين بالضبط في الطريقة نفسها؟ ما الذي دهاني وحالَ دون الاعتقاد بأن كل شخص هو زميلي، بدلاً من التفكير بأن لدي واحداً أو اثنين فقط من المستجوِبين الزملاء ـ اللذَين ضاعا ونُسيا مع إنجازاتهما الصغيرة، حتى انني لا أستطيع الوصول إليهما بأية طريقة عبر غياهب العصور أو غياهب زحام الحاضر: لماذا لا أصدّق بأن جميع الكلاب منذ بدء الخليقة كانوا زملائي، جميعهم مجتهدون بطريقتهم الخاصة، وجميعهم غير ناجحين بطريقتهم الخاصة، وجميعهم صامتون أو ثرثارون أشرون وبطريقتهم الخاصة، كما يليق بالبحث اليائس أن يتوصل إلى أحد تلكم الاستنتاجات؟ لكن في تلك الحالة لستُ بحاجة إلى أن أنأى بنفسي عن زملائي على الإطلاق، بل كان بوسعي أن أبقى في هدوء بين الآخرين، ولم أكن بحاجة إلى شقّ طريقي للخروج مثل طفل عنيد عبر الصفوف المغلقة للبالغين، الذين أرادوا بالفعل مثلي أنا تماماً العثور على مخرج، والذين بدا أنهم غامضون بالنسبة لي ببساطة بسبب معرفتهم، التي اخبَرَتْهم بأنه لا أحد يمكن أبداً أن يهرب وأنه لمن الغباء استخدام القوة.

بيد أن مثل هذه الأفكار تعزى بالتأكيد إلى تأثير جاري؛ فهو يُربكني، ويملأني بالاكتئاب. مع ذلك هو سعيد غاية السعادة في قرارة نفسه، على الأقل عندما يكون في مقره الخاص كثيراً ما أسمعه يصيح ويغني؛ وهذا حقاً أمر لا يطاق. لذلك سيكون من الصائب أن أتخلى عن هذه العلاقة الأخيرة أيضاً، والكف عن فسح المجال إلى الأحلام الغامضة التي تتصل جميعها بالكلاب والتي تستفزني بشكل لا مهرب منه، مهما بلغت قساوة الشخص، وكذلك أن استخدام الوقت القصير الذي ما يزال متبقياً امامي بشكل خاص لإجراء أبحاثي. وفي المرة التالية التي يأتي فيها سوف أتملّص منه مبتعداً، أو أتظاهر بالنوم، واستمر في التظاهر حتى يتوقف عن زيارته لي.

لقد وقعتْ أبحاثي في غياهب الإهمال، فاسترخيتُ، وغدوتُ ضجِراً، وهرولتُ بشكل آلي إلى حيث تسابقتُ بحماس ذات مرة. أنا أفكر في الوقت الذي بدأتُ فيه بالتحقيق في السؤال: «من أين تأتي الأرض بهذا الطعام؟» عندها عشتُ بالفعل بين الناس، وكنتُ أشقّ طريقي حيث كان الحشد كثيفاً، وأردتُ من الجميع أن يعرفوا

عملي ويكونوا من بين جمهوري، فجمهوري كان أكثر أهمية بالنسبة لي حتى من عملي. إذ إنني ما زلت أتوقع إحداث بعض التأثيرات أو غيرها، وذلك ما أعطاني بطبيعة الحال زخماً كبيراً، والذي تلاشى الآن كوني وحيداً. لكن في تلك الأيام كنتُ أفيض قوة بحيث حققتُ شيئاً لم يسبق له مثيل، شيء يتعارض مع كل ثوابتنا، وإن كل شاهد عيان معاصر ينظر إليه الآن بالتأكيد على أنه مأثرة خارقة. إن معرفتنا العلمية، التي تنحو عموماً نحو التخصص الشديد، هي معرفة بسيطة بشكل ملحوظ في أحد مفاصلها. أعني حيث عرفنا بأن الأرض تولد طعامنا، ومن ثم، بعد طرح هذه الفرضية، تُعطي الأساليب التي عن طريقها يمكن أن تتحقق الأطعمة المختلفة في أفضل أنواعها وبوفرة أكبر.

الآن صحيح بالطبع بأن الأرض تُخرج كل الطعام، وليس هناك أدنى شك في ذلك؛ لكن البسطاء من الناس يتصورون عموماً بأن المسألة ليست كذلك. كما أن اعتقادهم بأنها مسألة بسيطة يحول دون المزيد من التحقيق. خذ مثلاً أية واقعة عادية تحدث كل يوم. فلو قيّض لنا أن نكون خاملين تماماً، مثلما هي حالتي الآن تقريباً، وبعد حرثٍ كيفما اتفق وسقي التربة نجلس وننتظر ما سيحدث، عندها لا بد أن نجد الطعام على الأرض، على افتراض، بمعنى، أن نتيجة من نوع ما هو أمر لا مفر منه. مع ذلك ليس هذا ما يحدث عادة. فأولئك الذين كان لديهم ولو النزر اليسير من حرية الحكم على القضايا العلمية ــ وأعدادهم صغيرة حقاً، لأن العلم يجذب دائرة أوسع فأوسع حول نفسه ــ سوف يرون بسهولة، دون الحاجة إلى القيام بأية تجربة معينة، بأن الجزء الرئيسي من المواد الغذائية الذي يُكتشف على سطح الأرض في مثل هذه الحالات يأتي من الأعلى. في العادة حقاً نحن نستلم معظم طعامنا، وفقاً إلى براعتنا وطمعنا، قبل أن يصل إلى الأرض على الإطلاق. وعند قول ذلك، على أي حال، فأنا لا أقول شيئاً ضد العلم؛ فالأرض، بطبيعة الحال، تُخرج هذا النوع من الطعام أيضاً. وسواء كانت الأرض تُخرج نوعا ما من الطعام من داخل جوفها أم تُنزل نوعاً آخر من الطعام من السماوات ربما لا يحدث فرقاً أساسياً، والعلم، الذي أقرّ بأنه في كلتا الحالتين يكون ضرورياً تهيئة الأرض، من دون ربما أن يشغل نفسه بهذه الفروق، من أجل أن لا يقول: «إذا كان لديك طعام في فكيك فإنك قد حللتَ جميع الأسئلة في الوقت الحاضر». لكن يبدو لي بأن العلم مع ذلك يعير اهتماماً مقنَّعا، على الأقل إلى حد ما، بهذه المسائل، طالما أنه يعترف بطريقتين رئيسيتين للحصول على الطعام؛ أولاهما التهيئة الفعلية للأرض، وثانيهما عمليات الإتمام المساعِدة التي تتمثل بالتعاويذ، والرقص، والغناء. أجد هنا فرقاً حسب المبدأ الأول الذي قمتُ به بنفسي؛ ليس فرقاً حاسماً، ربما، لكنه مع ذلك واضح كل الوضوح. إن حرث الأرض وسقيها، برأيي، يؤديان إلى إنتاج كلا النوعين من الطعام، ويبقيان لا غنى عنهما؛ إذ إن التعاويذ، والرقص، والغناء، على أي حال، هي معنية قليلاً بالطعام المستخرج من الأرض بالمعنى الأضيق، لكنها تؤدي أساساً إلى اجتذاب الطعام من الأعلى. إن التقاليد تحصنني في هذا التفسير. فالكلاب العادية نفسها تفهم العلم من دون أن تعرف ذلك، ومن دون أن يكون العلم قادراً على أن يعطي كلمة واحدة كجواب.

وكما يدعي العلم، إذا كانت هذه المراسيم تهتم بالتربة فقط، وتمنحها القوة، إذا جاز لنا القول، لتجتذب الطعام من الهواء، عندها من الناحية المنطقية ينبغي توجيهها حصراً إلى التربة؛ فهي التربة التي يجب أن تُهمَس التعاويد فيها، التربة التي يجب أن يكون الرقص لها. وعلى حدّ علمي، فإن العلم لا يقضي بأي شيء آخر غير هذا. لكن الآن يأتي الشيء الرائع؛ وهو أن الناس في جميع احتفالاتهم يحدّقون في الأعلى. وهذا ليس إهانة للعلم، لأن العلم لا يحرّم ذلك، بل يترك الحرية الكاملة للفلاح في هذا الصدد؛ ففي تعاليمه لا يأخذ سوى التربة في نظر الاعتبار، وعندما ينفّذ الفلاح تعليماته بشأن إعداد الأرض فهو يكون قانعاً بهذا؛ مع ذلك، برأيي، لا بد أن الأمر حقاً يتطلب أكثر من هذا إذا ما كان منطقياً. وعلى الرغم من أنني لم أكن أبداً قد بدأت بعمق في العلم، فأنا ببساطة لا يمكن تصور كيف يمكن للمتعلمين أن يتحملوا مسألة السماح لشعبنا، الجامحين والعاطفيين، بأن يرددوا تعاويذهم ووجوههم متجهة نحو الأعلى، ويزعقوا بأغانينا الشعبية القديمة في الهواء، ويقفزوا عالياً في رقصاتهم، متناسين الأرض، كما لو أنهم يرغبون في التحليق منها إلى الأبد. لقد أخذتُ هذا التناقض ليكون نقطة انطلاق لي، وكلما، وفقاً لتعاليم العلم، حان وقت الحصاد، جعلتُ انتباهي يقتصر على الأرض، إنها الأرض التي حرثتها أثناء الرقص، وغالباً ماكنت أُعاني من تشنّج في الرقبة وأنا أبقي رأسي أقرب ما يكون إلى الأرض قدر استطاعتي. في وقت لاحق حفرتُ حفرة لأنفي، وغنيتُ وصرختُ في داخلها حتى لا يسمعني أحد إلاّ الأرض، ولا أحد آخر بجانبي أو فوقي.

كانت نتائج تجربتي ضئيلة. ففي بعض الأحيان لم يظهر الطعام، وكنتُ أستعدّ للابتهاج بهذا الدليل، لكن بعد ذلك ظهرَ الطعام؛ كان الأمر بالضبط كما لو أن أدائي الغريب قد تسبّب في بعض الارتباك في البداية، إلاّ أنه قد تبيَّن لي في وقت لاحق بأن أدائي حَظِيَ ببعض المزايا، بحيث إنه في حالتي كان بالإمكان الاستغناء عن النباح المعتاد والقفز. في كثير من الأحيان، في الواقع، كان الطعام يظهر بوفرة أكثر من السابق، لكن بعد ذلك مرة أخرى كان يبقى بعيد المنال تماماً. وبالاجتهاد الذي هو حتى الآن غير متوقع من كلب صغير، وضعتُ تقارير دقيقة عن كل ما عندي من التجارب، وتخيَّلت هنا وهناك بأنني كنتُ على وشك العثور على خيط قد يقودني إلى أكثر من ذلك، لكنه بعد ذلك ضاع مرة أُخرى في غياهب الغموض. كما أن أساسي غير الكافي في العلم هو الآخر مما لا شك فيه قد جعلني أقف عند هذا الحد.

ما هي الضمانة التي لديّ، على سبيل المثال، بأن عدم وجود الطعام لم يكن بسبب الإعداد غير العلمي للأرض وليس بسبب تجاربي، وإذا لا بد من أن يكون الأمر كذلك، فإن كل استنتاجاتي كانت غير صحيحة. ولربما في ظروف معينة أكون قد تمكنت من تحقيق تجربة دقيقة كل الدقة؛ أي لو نجحتُ مرة واحدة فقط في إنزال الطعام عن طريق تعويذة صاعدة إلى الأعلى من دون إعداد الأرض على الإطلاق، ومن ثم فشلتُ في استخراج الطعام عن طريق تعويذة موجهة تماماً إلى الأرض. وبالفعل جرَّبت شيئاً ما من هذا القبيل، ولكن من دون أي اعتقاد حقيقي فيه ومن دون توفّر الظروف المواتية تماماً؛ ذلك لأن رأيي الراسخ هو أن مقداراً معيناً من

تهيئة الأرض يكون ضرورياً دائماً، وحتى لو كان الهراطقة الذين ينكرون هذا على حق، فإن نظريتهم لا يمكن أبداً إثباتها في أي حال من الأحوال، لأن الأرض تُسقى تحت نوع من الإكراه، وضمن حدود معينة لا يمكن تجنّب ذلك ببساطة. لقد نجحت تجربة أخرى ومماثلة نوعاً ما بشكل أفضل وأثارت بعض الاهتمام العام. وأنا أبحث في الطريقة الاعتيادية لانتزاع الطعام بينما لا يزال في الهواء، قررتُ السماح للطعام بأن يسقط على الأرض، لكنني لم أقم بأي جهد لانتزاعه. وفقاً لذلك كنتُ أقوم دائماً بقفزة صغيرة في الهواء عندما كان يظهر الطعام، إلاّ أنني وقَّت تلك القفزة بحيث إن الطعام قد يسقط دائماً من تلقاء نفسه. في معظم الحالات كان الطعام يسقط ببلادة وبلا اكتراث على الأرض على الرغم من هذا، فأرمي نفسي بشراسة عليه، شراسة كلّ من الجوع وخيبة الأمل. ولكن في حالات منفصلة كان يحدث شيء ما آخر، شيء ما غريب حقاً؛ وهو أن الطعام لم يسقط لكنه تبعني خلال الهواء؛ فالطعام كان يتبع الجائعين. وذلك لم يستمر طويلاً، فهو يبقى دائماً لفترة قصيرة فقط، ثم يسقط الطعام بعد ذلك، أو يختفي كلية، أو ـ الحالة الأكثر شيوعاً ـ إن جشعي كان يضع نهايةً قبل الأوان للتجربة وابتلعتُ الطعام المغري. وعلى الرغم من أنني كنتُ سعيداً في ذلك الوقت، عبرَ فضول كبير محيّا جاري، فانتبهتُ انتباهاً قلقاً، ووجدتُ معارفي أكثر تقبًّلا لأسئلتي، واستطعتُ أن أرى في عيونهم شعاعاً بدا وكأنه نداء للمساعدة؛ وحتى لو كان ذلك مجرد انعكاس لنظرتي فإنني لم أطلب شيئاً أكثر من ذلك. كنتُ راضياً. حتى اكتشفتُ اخيراً ـ واكتشف الآخرون ذلك في وقت واحد ـ بأن تجربتي هذه هي أمر معتاد لدى العلوم، قد نجحتْ مع آخرين ببراعة أكثر مما نجحت معي، وعلى الرغم من أنها لم تُجرب لفترة طويلة بسبب ضبط النفس الشديد الذي كانت تتطلبه، فإنه لم تكن هناك حاجة أيضاً لإعادتها، لأنها من الناحية العلمية ليس لها أية قيمة على الإطلاق.

لقد اثبتتْ ما كان معروفاً فقط، وهو أن الأرض لا تجتذب الطعام بشكل عمودي من الأعلى، لكنها أيضاً {تجتذبه} بشكل مائل، بل أحياناً بشكل حلزوني. وهكذا تُركتُ هناك مع تجربتي، لكن لم تثبط عزيمتي، إذ كنتُ حديث العهد بالنسبة لهذا الشعور؛ على العكس، فخيبة الأمل هذه شحذت همتي لأجرّب ربما أعظم إنجاز في حياتي. أنا لم أؤمن بانتقاص العلماء من قيمة تجربتي، مع ذلك لم يكن الإيمان بذي فائدة هنا، لكن ما يفيدني هو الدليل، وقد عزمتُ على الانطلاق بترسيخ ذلك ومن ثم انتشال تجربتي مما تعانيه من عدم علاقتها بالموضوع، ووضعها في صميم مجال البحث. وكنتُ أتمنى أن أثبت بأنه عندما انسحبتُ أمام الطعام فلم تكن الأرض هي التي اجتذبته بشكل مائل، بل كنتُ أنا مَن سحبه خلفي. هذه التجربة الأولى، حقيقة، لم أتمكن من المضي فيها أبعد من ذلك؛ أي النظر إلى الطعام أمام المرء وأجري تجربة بروح علمية في الوقت نفسه ـ فالمرء لا يمكنه أن يواصل ذلك إلى ما لا نهاية. لكنني قررتُ أن أفعل شيئاً ما آخر؛ فقد صممتُ على أن أصوم تماماً أطول فترة يمكنني احتمالها، وفي الوقت نفسه أتجنّب كل مشهد للطعام، وجميع إغراءاته. ولو قيّض لي أن أروّض نفسي على هذه الطريقة، وأبقى مستلقياً ليل نهار بعينين مغلقتين، من دون أن أكلّف نفسي مشقة تلقّف الطعام من الهواء أو رفعه من الأرض، ولو، كما لم أجرؤ على التوقع، مع ذلك كنتُ أُمنّي نفسي بأمل ضعيف،

دون اتخاذ أيٍّ من التدابير المعتادة، مجرد ردٍّ على سقي الأرض غير العقلاني والذي لا مفر منه والتلاوة الهادئة للتعاويذ والأغاني (وتمنيتُ حذف الرقص، حتى لا أضعف قواي) {ولو} كان الطعام سيأتي من تلقاء نفسه من فوق، ومن دون الاقتراب من الأرض لو كان سيدقّ على أسناني أملاً بقبول تناوله ـ لو كان ذلك سيحدث، عندئذ، حتى لو لم يُدحض العلم، لأنه ذو مرونة كافية لقبول الاستثناءات والحالات النادرة ـ لسألتُ نفسي: ماذا ستقول الكلاب الأخرى، التي لحسن الحظ لا تمتلك هذه المرونة الفائقة؟ لأن هذه لم تكن حالة استثنائية كتلك الحالات التي جاء بها التاريخ، مثل حادثة، لنقل، {حادثة} الكلب الذي يرفض، بسبب مرض جسدي أو مشكلة عقلية، أن يهيئ الأرض، وأن يتعقّب ويمسك بطعامه، الذي يقرأ عليه مجتمعُ الكلاب بأجمعه الوصفاتِ السحرية وبهذه الطريقة تنجح في جعل الطعام يحيد عن جادته المعتادة ويتّجه صوب فكي المرضى. أما أنا، فعلى العكس من ذلك، كنتُ سليماً تماماً وفي ذروة قواي، وشهيتي متفتحة جداً بحيث منعتني طوال يوم من التفكير في أي شيء سواها. لقد استسلمتُ، علاوة على ذلك، سواء جرى تصديق ذلك ام لا، بشكل طوعي إلى فترة صيامي، وكنتُ بنفسي قادراً تماماً على استخراج امداداتي من الطعام، وتمنيتُ أيضاً أن أفعل ذلك، وهكذا لم أطلب أية مساعدة من مجتمع الكلاب، وبالفعل رفضت تلك المساعدة بأكثر الأساليب حزماً.

فتّشت عن مكان مناسب لنفسي في مجموعة نائية من الشجيرات، حيث لا ينبغي لي أن أستمع إلى أي حديث عن الطعام، ولا إلى صوت أفواه تمضغ ولا إلى عظام تُقضَم. أكلتُ كفايتي للمرة الأخيرة واستلقيت. أردتُ إلى أقصى حد ممكن أن أقضي وقتي كلّه مغمض العينين؛ فحتى يأتي الطعام ستكون قد حلّت ليلة سرمدية بالنسبة لي، برغم أن سهري قد يستمر لعدة أيام أو أسابيع. أثناء ذلك الوقت، على أي حال، لم أجرؤ على النوم كثيراً، فالأفضل في الواقع لو لم أنم على الإطلاق ـ وذلك ما جعل كل شيء أصعب بكثير ـ لأنه ليس عليّ فقط أن لا أستنزل الطعام من الهواء، ولكن أيضاً عليّ أن أحترس خشية lest أن أستغرق في النوم عندما يصل الطعام؛ مع ذلك من ناحية أخرى سيكون النوم موضع ترحيب كبير بالنسبة لي، لأنني سوف أتمكّن من الصيام مدة أطول وأنا نائم أكثر منها وأنا مستيقظ. لهذه الأسباب قررتُ ترتيب وقتي بحكمة وقضاء شطر كبير في النوم، ولكن دائماً في فترات قصيرة. لقد حققتُ هذا عن طريق اسناد رأسي دائماً عندما كنتُ أنام على غصين هش، حيث سرعان ما انقطع واستيقظت. وهكذا استلقيتُ هناك، وأنا أنام أو أحرص على المراقبة، أحلم أو أغني بهدوء مع نفسي. ومرّت فترات يقظتي الأولى بشكل هادئ؛ لربما في المكان الذي كان يأتي منه الطعام لم يكن أحد قد لاحظ حتى الآن بأنني كنت مستلقياً هناك مقاوماً للمسار الطبيعي للأشياء، وهكذا لم تكن هناك أي علامة. وفي تركيزي على المراقبة انزعجتُ انزعاجاً خفيفاً بسبب الخوف من أن الكلاب الأخرى قد تفتقدني، ومن ثم تجدني في الحال، وتحاول القيام بهذا الشيء أو ذاك ضدي. وثمة خوف ثانٍ بأنه في مجرد سقي الأرض، على الرغم من أنها كانت أرضاً غير خصبة وفقاً لنتائج العلم، قد يظهر بعض الطعام عن طريق المصادفة ويغويني برائحته. ولكن لبعض الوقت لم يحدث شيء من هذا القبيل، وكان بإمكاني أن أستمر على الصيام. وبعيداً عن هذه المخاوف كنتُ أكثر هدوءً خلال هذه

المرحلة الأولى مما كنت أتذكر من أي وقت مضى من قبل. على الرغم من أنني في الواقع كنتُ أعمل على إلغاء نتائج العلم، شعرتُ في قرارة نفسي باطمئنان عميق، بالفعل هو تقريباً الصفاء الروحي للباحث العلمي. في أفكاري طلبتُ مغفرة العلم؛ إذ لا بد أن يكون فيه متسع لأبحاثي أيضاً؛ فقد كانت ترنّ، وبشكل يبعث على العزاء، في أذنيّ بوادر الاطمئنان من أنه لا يهم كم عظيماً ربما كان تأثير تحقيقاتي، وبالفعل كلما كان التأثير أعظم كان ذلك أفضل، فأنا لن أضيع في حياة كلب عادية. لقد نظر العلم إلى محاولاتي باستحسان، وهو نفسه سيضطلع بتفسير اكتشافاتي، وكان ذلك الوعد بالفعل يعني الوفاء؛ بينما حتى الآن كنتُ قد شعرتُ بأنني خارج على القانون في قرارة نفسي فضربتُ رأسي بالجدران التقليدية لأنواعي مثل وحش، وأودّ الآن أن أحظى بشرف كبير، حيث إن الدفء الذي طال انتظاره لدى الكلاب المتجمعة سوف يلفّني، ولسوف أركب عالياً مرفوعاً على أكتاف زملائي.

وهذه آثار ملحوظة لجوعي الأول. لقد بدا انجازي كبيراً جداً بالنسبة لي لدرجة أنني بدأتُ أجهش بالبكاء بعاطفة وشفقة هناك بين الشجيرات الهادئة، وهي حالة لا بد من الاعتراف بأنها لم تكن مفهومة تماماً، لأنه عندما كنتُ أتطلع إلى الأمام إلى جائزتي المستحقة تساءلتُ لماذا عليّ أن أبكي؟ لربما بسبب السعادة المحضة. إذ إنه دائماً عندما أكون سعيداً، وهذا امر نادر إلى أبعد حد، فأنني أبكي. بعد ذلك، على أي حال، سرعان ما مرّت هذه المشاعر. وهربت خيالاتي الجميلة الواحدة تلو الأخرى أمام الضغط المتزايد لجوعي؛ وما هي إلاّ فترة أطول قليلاً، أي بعد وداع مفاجئ لجميع خيالاتي ومشاعري السامية، حتى غدوتُ وحيداً حيث الجوع يحرق أحشائي. «ذلك هو جوعي»، هكذا أخبرتُ نفسي مرات لا حصر لها أثناء هذه المرحلة، كما لو أنني أردت إقناع نفسي بأن جوعي وأنا كنا ما نزال شيئين منفصلين وبذا يمكنني أن أنفضه عني مثل عاشق متعب؛ لكن في الواقع كنا حالة واحدة بشكل مؤلم جداً، وعندما شرحتُ لنفسي: «ذلك هو جوعي»، فقد كان ذلك حقاً هو جوعي الذي يتكلم ويتندّر على حسابي. يا له من زمان سيء، سيء! ما أزال أرتعد عند التفكير فيه، ليس ذلك ببساطة بسبب المعاناة التي تحملتها آنئذ، ولكن أساساً لأنني لم أتمكن من الانتهاء منه في حينها لذا لابد من العيش في خضم تلك المعاناة مرة أخرى إذا كنتُ أريد تحقيق أي شيء؛ لأنه حتى اليوم ما أزال متمسكاً بالصيام ليكون الوسيلة النهائية والأكثر فعالية في بحثي. إن الطريق يمرّ عبر الصوم؛ فالعلا إن كان يمكن نيله، لا يمكن تحقيقه إلا بأعلى جهد، وأعلى جهد بيننا هو الصيام الطوعي. لذلك عندما أفكر في تلك الأوقات ـ وأودّ أن أقضي حياتي بكل سرور في التفكير فيها ـ لا يسعني إلاّ أن أفكّر أيضاً في الوقت الذي ما يزال يهددني. على ما يبدو لي أن الأمر ليستغرق ما يقرب العمر كلّه للتعافي من محاولة كهذه؛ فحياتي كلّها بوصفي شخصاً بالغاً تقبع بيني وبين ذلك الصيام، وأنني لم أتعافَ بعد. وعندما أبدأ بصومي اللاحق سيكون ربما لدي تصميم أكبر من المرة الأولى، بسبب تجربتي الأكبر وبصيرتي الأعمق في الحاجة إلى تلك المحاولة، لكن قواي ما تزال خائرة جراء تلك التجربة الأولى، لذا فإنني ربما أبدأ في نسج فشلي عند مجرد الاقتراب من هذه الأهوال المألوفة.

فشهيتي الضعيفة لا تعينني في ذلك؛ إنها فقط ستقلل من قيمة المحاولة بعض الشيء، ولربما سوف، بالفعل، تجبرني على الصيام أطول مما كان ضرورياً في المرة الأولى. أعتقد بأنني واضح في هذه الأمور والعديد من المسائل الأخرى، والفاصل الزمني الطويل لم يكن مطلوباً في المحاولات التجريبية، ففي كثير من الأحيان يكفيني أنني تماماً قد خبرتُ الجوع. لكنني لم أكن بعدُ قوياً بما فيه الكفاية حيال الجهد الكبير، والآن فقد ذهبت بطبيعة الحال حماسة الشباب الجميلة إلى غير رجعة. إذ تلاشت في الحرمان الكبير في تلك المحاولة الأولى. إن كل أنواع الأفكار قد أقضّت مضجعي. وظهر أجدادنا أمامي متوعدين. حقاً، إنني أحمّلهم المسؤولية عن كل شيء، حتى لو لم أجرؤ على قول ذلك صراحة. فهم الذين مرّغوا حياتنا الكلبية في الذنوب، وهكذا كان باستطاعتي أن أستجيب بسهولة لتهديداتهم بتهديدات مضادة. إلاّ أنني انحني أمام علمهم، حيث جاء من مصادر لا قِبَل لنا بها، ولذلك السبب، بقدر ما أشعر بأنني مضطر إلى معارضتهم، فأنا في الحقيقة لن أتجاوز قوانينهم، بل أقنع نفسي بالتملص من خلال الثغرات، التي لدي اتجاهها حاسة شم جيدة بشكل خاص. في مسألة الصيام استأنستُ بالحوار المعروف الذي أعرب فيه أحد حكمائنا ذات مرة عن النية في النهي عن الصيام، لكن جرى العدول عنه على يد حكيم ثانٍ بقوله: «لكن مَن ذا الذي يفكر في الصوم؟» حيث اقتنع الحكيم الأول وسحب الحظر. لكن الآن يبرز السؤال: «أليس الصيام ممنوعاً حقاً بعد كل هذا؟» إن الغالبية العظمى من المعلّقين ينكرون هذا ويرون الصيام مباحاً بحرية، ويتفقون مع الحكيم الثاني بعدم القلق بشأن العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن التفسيرات الخاطئة. لقد تأكدتُ بنفسي بطبيعة الحال من هذه النقطة قبل أن أبدأ بالصيام. لكن الآن وقد افترستْني نياب الجوع، وفي محنتي العقلية لذتُ بساقيّ الخلفيتين، وأنا ألعقهما بيأسٍ وأعضّ عليهما حتى الأرداف نفسها، فإن التفسير العام لهذا الحوار بدا لي كاذباً بالمرة، فلعنتُ عِلْم المعلقين، ولعنتُ نفسي لأنني ضللتُ بسببه؛ لأن الحوار كان يتضمن، كما بوسع أي طفل أن يرى ذلك، أكثر من مجرد تحريم واحد للصيام. فالحكيم الأول تمنّى أن يمنع الصيام؛ وقد تحققتْ أمنية الحكيم بالفعل، لذلك أصبح الصيام ممنوعاً.

أما بالنسبة للحكيم الثاني، فهو لم يتفق فقط مع الحكيم الأول، بل في الواقع عدّ الصيام مستحيلاً، وأضاف من ثم على التحريم الأول تحريماً ثانياً، ألا وهو طبيعة الكلاب نفسها. فالحكيم الأول رأى هذا وعليه سحب التحريم الصريح، وكان ذلك يعني، بأنه فرضه على جميع الكلاب، الأمر الذي حُسِمَ الآن، وهو الالتزام بمعرفة أنفسهم وقيامهم بعمليات التحريم الخاصة بهم فيما يتعلق بالصيام. وهكذا يوجد هنا تحريم ثلاثي بدلاً من مجرد تحريم واحد، وكنتُ قد انتهكته. الآن استطعتُ أن أطيع على الأقل في هذه المرحلة، ولو أن تلك الطاعة تلك كانت متأخرة، ولكن في غمرة ألمي شعرتُ بالتوق إلى الصيام، وتبعتُ ذلك التوق بشكل جدي وكأنه كلب غريب. لم أستطع التوقف؛ وربما أيضاً كنتُ ضعيفاً للغاية بحيث لا أقوى على النهوض وأبحث عن السلامة لنفسي في مشاهد مألوفة. أخذتُ أتنقل على أوراق الغابات المتساقطة، ولم أعد قادراً على النوم، إذ كنتُ أسمع أصواتاً في كل جانب. فالعالم، الذي كان غاطّاً في النوم أثناء حياتي حتى اللحظة، بدا أنه قد أيقظه صيامي، وكنتُ

أتعذب عندما أتصور بأنني لن أكون قادراً على تناول الطعام مرة أخرى، ويجب أن آكل من أجل أن أحيل إلى الصمت هذا العالم العاج بالصخب من حولي، وأنا لن أكون قادراً على القيام بذلك؛ لكن أعظم ضجيج جاء من بطني، إذ غالباً ما كنتُ أضع أذني عليها بعينين منبهرتين، لأنني لا يمكن أن أصدق ما سمعت. إما وقد غدت الأمور الآن لا تطاق، بدت طبيعتي ذاتها قد استولى عليها الجنون العام، وقامت بمحاولات لا معنى لها لإنقاذ نفسها. بدأت رائحة الطعام تهاجمني، أطايب الطعام التي كنتُ قد نسيتها منذ فترة طويلة، مسرات طفولتي. نعم، كان باستطاعتي شمّ رائحة العطر ذاته المنبعث من أثداء والدتي. لقد نسيتُ تصميمي على مقاومة كل الروائح، أو بالأحرى لم أكن قد نسيتُ ذلك؛ إذ جعلتُ أُجرجر نفسي جيئة وذهاباً، ليس لأكثر من بضع ياردات، وأخذتُ أستنشق وكأن ذلك يتماشى مع تصميمي، وكأنني كنتُ أبحث عن الطعام لمجرد أن أكون على حذرٍ منه. وحقيقة أنني لم أجد شيئاً لم يصبني بخيبة أمل؛ فالطعام لا بد أن يوجد هناكَ، إلا أنه كان دائماً على بعد خطوات قليلة، لكن ساقيّ خذلتاني قبل أن أتمكن من بلوغه. ولكن على حين غرة عرفتُ بأن لا شيء هناك، وأنني قمتُ بتلك الحركات الواهنة ببساطة بسبب الخوف خشية أنني قد أنهار في هذا المكان ولن أكون قادراً على مغادرته. تلاشت آمالي الأخيرة، وكذا أحلامي الأخيرة؛ ولسوف أموت هنا بشكل يثير الشفقة؛ فما الفائدة المرجوة من أبحاثي؟ هي مجرد محاولات صبيانية جرت في أيام صبيانية وأكثر سعادة. في الوقت الحاضر كانت الساعة التي تنم عن جدية قاتلة، هنا لا بد لتحقيقاتي أن تكون قد أظهرت قيمتها، ولكن أين اختفت؟ فقط ثمة كلب مستلقٍ هنا بوهن وهو يعضّ بنواجذه في الهواء الفارغ، كلب، على الرغم من أنه ما يزال يسقي الأرض بسرعة متشنجة على فترات قصيرة من دون أن يكون على بيّنة من ذلك، لم يستطع تذكر حتى أقصر التعاويذ التي لا تعدّ ولا تُحصى المخزونة في ذاكرته، ولا حتى المقطوعة القصيرة التي يترنّم بها الجرو حديث الولادة وهو يستكين تحت أمه.

بدا لي كما لو كنتُ معزولاً عن جميع زملائي، ليس بمسافة قصيرة جداً، ولكن بمسافة لانهائية، وكما لو أنني كنتُ سأموت ليس بسبب الجوع بل بسبب الإهمال. لأنه كان واضحاً بأنه لا أحد يهتم بي، لا أحد تحت الأرض، أو على سطحها، أو فوقها؛ كنتُ أموت بسبب اللامبالاة. إذ كانوا يقولون بلا اكتراث: «إنه يموت»، وكان هذا سوف يحصل فعلاً. ألم أكن وافقتُ على ذلك بنفسي؟ ألم أكن أقول الشيء نفسه؟ ألم أكن قد أردتُ أن يهجرونني بمثل هذه الطريقة؟ نعم، أيها الأخوة، ولكن ليس من أجل أن أهلك في ذلك المكان، بل من أجل الوصول إلى الحقيقة والهروب من هذا العالم الزائف، حيث لا أحد هناك ممن يمكن أن تتعلم منه الحقيقة، ولا حتى مني، فأنا ولدت لأكون أحد مواطني هذا العالم الزائف. ربما لم تكن الحقيقة بعيدة جداً، وأنا لم أكن مهجوراً، لذلك، كما ظننتُ؛ أو أنني ربما كنتُ مهجوراً من نفسي أكثر مما كنت مهجوراً من جانب زملائي، في الإذعان والتسليم بالموت.

لكن المرء لا يموت بسهولة كما يتصور ذلك كلب عصبي. فأنا فقط أغمي عليّ، وعندما عدتُ إلى وعيي ورفعتُ عينيّ ثمة كلب غريب كان يقف أمامي. لم أشعر

بالجوع، بل كنتَ مليئاً بالقوة، وأطرافي، هكذا بدا لي، كانت خفيفة ورشيقة، برغم أنني لم أقم بأية محاولة لإثبات هذا عن طريق الوقوف على سيقاني. لم تكن قدراتي البصرية بحد ذاتها أكثر حدّة من المعتاد؛ فثمة كلب جميل ولكن ليس غير عاديّ على الإطلاق كان يقف أمامي؛ كان بوسعي أن أرى ذلك، وكان هذا هو كل شيء، ومع ذلك بدا لي بأنني أبصرتُ فيه شيئاً ما آخر. كان هناك دم تحتي، في البداية خلته طعاماً؛ لكنني أدركتُ على الفور بأنه دم كنتُ قد تقيأته. حولتُ بصري عنه صوب الكلب الغريب. كان هزيلاً، طويل القوائم، بنيّ اللون مع بقعة بياض هنا وهناك، ويشي بنظرة فاتنة، قوية، خارقة. «ماذا تفعل هنا؟» سألني. «يجب أن تغادر هذا المكان». «لا أستطيع مغادرته الآن»، أجبته من دون محاولة التوضيح، لأنه كيف يمكن لي أن أوضح له كل شيء. إلى جانب ذلك، بدا بأنه في عجلة من أمره. «رجاءً اغرب من هنا»، قال، وهو يرفع بنفاد صبر أقدامه ويُنزلها مرة أخرى. «دعني هنا»، قلت له، «خلّي عنّي، واتركني حيث أنا ولا تقلق نفسك بشأني؛ فالآخرون لا علاقة لهم بي. «أنا أطلب منك أن تذهب لحال سبيلك»، قال. «يمكنك أن تسأل عن أي سبب تشاء»، أجبته. «فأنا لا أستطيع الذهاب حتى لو أردتُ ذلك».

«لا داعي إلى الخوف من ذلك»، قال لي، وهو يبتسم. «يمكنك أن تذهب فعلاً. وذلك لأنك تبدو ضعيفاً لدرجة أنني أطلب منك أن تذهب الآن، وبإمكانك الذهاب ببطء إن شئت؛ وإذا ما تتباطأ الآن سيكون لزاماً عليك أن تقذّ الخطى فيما بعد». «ذلك هو شأني»، أجبته. «والأمر راجع لي أيضاً»، قال لي، وقد أحزنه عنادي، مع ذلك من الواضح بأنه عزم على السماح لي بأن أستلقي في الوقت الحاضر، ولكن في الوقت نفسه لينتهز الفرصة للتزلف لي. وفي أي وقت آخر سأكون بكل سرور قد استسلمتُ إلى مداهنة مثل هذا المخلوق الجميل، إلاّ أنه في تلك اللحظة، لماذا لا أستطيع أن أصرّح بأن تلك الفكرة ملأتني رعباً. «اخرج!» صرختُ، وبأعلى صوتي لأنني لم يكن لدي أية وسائل أخرى لحماية نفسي. «حسناً، سأتركك إذن»، قال لي، وهو يتراجع ببطء. «أنت رائع، ألا أرضيك؟» «أنت سترضيني بذهابك بعيداً وتركي في سلام»، قلتُ له، لكنني لم أكن متأكداً من نفسي بينما حاولتُ أن أجعله يفكّر. وبدت حواسي فجأة، التي شحذها الصيام، ترى أو تسمع شيئاً ما عنه؛ كانت هذه مجرد البداية، أخذتْ تنمو، واقتربتْ، وعرفتُ بأن هذا الكلب كان لديه القدرة على دفعي بعيداً، حتى لو لم أستطع أن أتخيل مع نفسي في تلك اللحظة كيف كنتُ أنهض على أقدامي. وأخذتُ أُحدّق فيه ـ كان يهز رأسه بحزن على إجابتي القاسية ـ مع رغبة متزايدة أكثر من أي وقت مضى. «مَن أنت؟» سألته. «أنا صياد»، أجابني. «فلماذا لم تدعني أستلقي هنا؟» سألته. «أنت تزعجني»، قال. «لا أستطيع أن أصطاد بينما تكون هنا». «حاول»، قلتُ له، «ربما ستكون قادراً على الاصطياد رغم كل هذا». «لا»، قال، «أنا آسف، لكن يجب أن تذهب». «لا تصطد في هذا اليوم!» توسُّلت به. «لا»، قال، «يجب أن أصطاد». يجب أن أذهب؛ وأنت يجب أن تصطاد»، قلتُ له، «لا شيء سوى يجب. هل بوسعك أن تفسّر لي لماذا يجب علينا ذلك؟» «لا»، أجاب، «ولكن لا يوجد شيء يحتاج إلى تفسير، فهذه أمور طبيعية، بديهية». ليست بديهية تماماً»، قلت، «أنت متأسف بأنك يجب أن تطردني بعيداً، ومع ذلك أنت تفعل ذلك». «هذا هو الحال»، أجابني. «هذا هو الحال»، رددتُ ما قاله مقاطعاً، «وهذا

ليس جواباً. فأية تضحية تفضّل أن تقوم بها: التخلي عن صيدك، أم التخلي عن طردي بعيداً؟» «التخلي عن صيدي»، قال دونما تردد. «هكذا إذن!» قلتُ، «ألا ترى بأنك تناقض نفسك؟» «كيف أناقض نفسي؟» أجاب. «عزيزي أيها الكلب الصغير، هل يمكن أن يكون الأمر بأنك حقاً لا تفهم بأنني يجب أن اصطاد؟ ألا تفهم الحقيقة الأكثر بديهية؟» لم أعط أية إجابة، لأنني لاحظتُ ـ حياة جديدة تجري في عروقي، حياة كتلك التي يعطيها الرعب ـ لاحظتُ من خلال مؤشرات غير مرئية تقريباً، ربما لا أحد إلاّي قد استطاع ملاحظتها، بأنه في قرارة نفسه كان الكلب يستعد للترنّم بأغنية.

«سوف تغني»، قلت له. «نعم»، أجاب بتجهّم، «أنني سأغني، عما قريب، ولكن ليس الآن». «ها أنت تبدأ بالفعل»، قلت له: «لا»، قال لي، «ليس الآن. ولكنني أستعدّ». «أستطيع أن أسمعها بالفعل، على الرغم من إنك تنكرها»، قلت له، وأنا ارتجف. كان صامتاً، ومن ثم ظننتُ أنني رأيتُ شيئاً ما كذلك الذي لم يسبق لأي كلب قبلي أن رآه، على الأقل ليس هناك أي تلميح عنه في عرفنا، فأحنيتُ رأسي على عجل بخوف وخجل كبيرين في بركة الدم الواقعة أمامي. ظننتُ بأنني رأيت كلب الصيد يغني بالفعل دون معرفة ذلك، كلا، بل أكثر من ذلك، {رأيتُ} بأن اللحن، المنفصل عنه، كان يطفو في الهواء وفقاً لقوانينه الخاصة به، وكما لو أنه لم يكن لديه يد في ذلك، كان يتحرك نحوي، نحوي فقط. اليوم، بالطبع، أنكرُ صحة كل هذه التصورات وأنسبها إلى فرط الاهتياج في ذلك الوقت، ولكن حتى لو كان ذلك خطأ فإنه ينطوي مع ذلك على نوع من العظمة، وهو الواقع الوحيد، حتى لو كان وهمياً، الذي حملته إلى هذا العالم بسبب فترة صيامي، ويُظهر على الأقل إلى أي مدى يمكن أن نمضي عندما نكون منفعلين. وأنا كنت في الواقع منفعلاً تماماً. ففي الظروف الاعتيادية كنت مريضاً جداً، غير قادر على الحركة؛ لكن اللحن، الذي سرعان ما بدا الكلب ينسبه له، كان لا يقاوم بالمرة. فقد صدح أقوى وأقوى؛ إذ بدت قواه المتنامية ليس لها حدود، وها هي بالفعل قد مزقت طبلات أذنيّ. لكن الأسوأ في الأمر هو أن هذا اللحن إنما وجد من اجلي فقط، هذا الصوت الذي خرّت الغابات أمام بهاءه صامتة، وُجد لي وحدي فقط. مَن ذا أكون، بحيث إنني يمكن أن أجرؤ على البقاء هنا، مستلقياً بوقاحة أمامه في بركة دمي وقذارتي. ترنّحت على أقدامي ونظرت إلى نفسي؛ فهذا الجسم البائس لا يمكنه أبداً أن يجري، ما يزال لدي الوقت للتفكير، لكن الآن، يحفّزني اللحن، فانطلقتُ من المكان بأسلوب رائع. لم أقل شيئاً لأصدقائي. ربما كان يمكنني أن أخبرهم جميعاً عند وصولي أول مرة، لكنني كنت واهناً جداً، وبعد ذلك بدا لي بأن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تقال. إن التلميحات التي لم أستطع الكفّ عن اطلاقها من حين إلى آخر قد ضاعت تماماً في المحادثة العامة. وبالنسبة للبقية فأنا تعافيت جسدياً في غضون ساعات قليلة، لكن روحياً ما زلت أعاني من آثار تلك التجربة.

مع ذلك، حملتُ بعد ذلك أبحاثي صوب الموسيقى. حقاً، إن العلم لم يكن عاجزاً في هذا المجال ايضاً؛ فعلم الموسيقى، لو تبحُّرت فيه كما ينبغي، هو ما يزال ربما أكثر شمولاً من علم التغذية، وعلى أية حال هو مستند على أساس متين. ويمكن تفسير

ذلك من خلال حقيقة أن هذا الميدان يعترف بالتحقيق الموضوعي أكثر من اعترافه بالتحقيقات الأخرى، ومعرفته هي مسألة ملاحظة ومنهجية صرفة، بينما في ميدان التغذية فإن الهدف الرئيسي هو تحقيق نتائج عملية. ذلك هو السبب في أن يحظى علم الموسيقى باحترام أكبر من علم التغذية، ولكنه أيضاً السبب في عدم دخول العِلْم الأول بعمق في حياة الناس. أنا نفسي شعرتُ بانجذاب أقل نحو علم الموسيقى من أي علم آخر حتى سمعتُ ذلك الصوت في الغابة. إن تجربتي مع الكلاب الموسيقية قد أثارت انتباهي بالفعل إلى الموسيقى، لكنني كنت ما أزال صغيراً جداً في ذلك الحين. كما أنه ليس سهلاً بأية حال من الأحوال فهم ذلك العلم؛ فهو يُنظر إليه على أنه مقتصر على فئة معينة ويستبعد بأدبٍ السواد الأعظم. إلى جانب ذلك، على الرغم من أن ما أثارني بعمق أكثر في البداية عن هذه الكلاب هو موسيقاهم، لكن بدا لي صمتهم أكثر أهمية؛ أما بالنسبة لموسيقاهم المخيفة، فهي ربما كانت فريدة من نوعها، حتى أنني أستطيع أن أضعها خارج الحساب؛ ولكن من الآن فصاعداً كان صمتهم يواجهني في كل مكان وعند كل الكلاب الذين ألتقيتهم. لذلك من أجل اختراق طبيعة الكلب الحقيقية، بدا البحث في الطعام بالنسبة لي أفضل طريقة، يقصد من ورائها أن تقودني إلى هدفي بأقصر الطرق. ربما كنت مخطئاً. ومع ذلك، فإن ثمة منطقة فاصلة بين هذين العلمين قد لفتت انتباهي. أعني نظرية التعاويذ، التي يُستنزل الطعام عن طريقها إلى الأرض. هنا أيضاً تكون هذه تماماً بالضد من توجهاتي بحيث إنني لم أتعامل بجدية مع علم الموسيقى وفي هذا المجال لا يمكن حتى إن أحسب نفسي بين أنصاف المثقفين، وهم الطبقة التي ينظر إليهم العلم في المقام الأول. وهذه هي الحقيقة التي لم أستطع الفرار منها. لم أستطع ـ لدي دليل على ذلك، للأسف ـ فأنا لم أتمكن من اجتياز حتى أكثر الامتحانات العلمية بدائية التي حدَّدتْها جهة عليا في هذا الموضوع. بالطبع، وبصرف النظر عن الظروف التي سبق ذكرها، فإن السبب في ذلك يمكن أن يكمن في عدم قدرتي على التحقيق العلمي، وقواي المحدودة في التفكير، وذاكرتي السيئة، لكن قبل كل شيء يكمن في عدم قدرتي على إبقاء هدفي العلمي باستمرار نصب عيني. إنني أعترف بكل هذا صراحة، ولو بدرجة معينة من المتعة. لأن أعمق سبب على عجزي العلمي يبدو لي هو الفطرة، وهي لم تكن في الواقع سيئة بأي حال من الأحوال.

وإذا رغبتُ في التباهي، فربما أقول بأن الفطرة هذه بالذات هي التي أوهنت قدراتي العلمية، لأنها ستكون بالتأكيد شيئاً غير عادي لو أن الشخص الذي يُظهر درجة مقبولة من الذكاء في التعامل مع أمور الحياة اليومية العادية، والتي بالتأكيد لا يمكن أن تُسمى بسيطة، ولاسيما ذلك الشخص الذي جرى التحقق من صحة نتائجه، حيثما كان ذلك ممكناً، على يد علماء كبار إن لم يكن عن طريق العلم نفسه، لا بد أن يكون غير قادر مسبقاً على وضع قدمه حتى على الدرجة الأولى من سلّم العلم. إن هذه الفطرة هي التي جعلتني ـ ربما من أجل العلم نفسه، ولكنه علم مختلف عن العلم اليوم، علم أساسي ـ أقدّر الحرية أعلى من كل شيء آخر غيرها. الحرية! ومن المؤكد أن هذه الحرية التي يمكن تحقيقها اليوم هي عمل بائس. لكنها حرية مع ذلك، هوس برغم كل هذا.

وصف الكفاح

والناس في يوم الأحد

يتمشون، متمايلين على الحصى

تحت هذه السماء الهائلة

التي، من التلال في المدى البعيد،

تتمطى إلى التلال الأبعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(I)

عند منتصف الليل تقريباً نهض عدد قليل من الناس، وانحنوا، وتصافحوا، وقالوا بأن هذه كانت أمسية جميلة، ومن ثمّ مروا من خلال المدخل الواسع إلى داخل الدهليز، لارتداء معاطفهم. وقفت المضيفة في وسط الغرفة وقامت بحركات ركوع رشيقة، مما تسبب في جعل الطيات الفاتنة في تنورتها تتحرك صعوداً ونزولاً.

جلست على طاولة صغيرة ـ كان لها ثلاث سيقان منحنية، رقيقة ـ وأنا أحتسي كوبي الثالث من البينديكتين، وبينما كنت أشرب استطلعت متجري الصغير من الحلويات التي كنت أنتقيتها بنفسي ورتبتها في كومة.

ثم رأيت أحد معارفي الجدد، أشعث إلى حد ما وعتيق الطراز، يظهر عند عضادة باب غرفة مجاورة؛ لكنني حاولت أن أشيح بنظري بعيداً لأن هذا لم يكن يهمني. بيد أنه جاء نحوي، ويبتسم بشرود على انشغالي، وقال: «عذراً على الإزعاج، ولكن حتى هذه اللحظة كنت أجلس وحيداً مع ابنتي في الغرفة المجاورة. كنت هكذا منذ العاشرة والنصف. سيدي، يا له من مساء! أعلم أنه ليس من الصواب بالنسبة لي أن أقول لك هذا، لأننا لا يكاد يعرف أحدنا الآخر. التقينا فقط على السلّم هذا المساء وتبادلنا بضع كلمات كضيوف في المنزل نفسه. والآن ـ لكن عليك أن تغفر لي، من فضلك ـ سعادتي لا يحدها حدود، ولايسعني أن أخفيها. ولأنني ليس لدي أي قريب آخر هنا أستطيع أن أثق به...».

نظرت إليه بحزن ـ فالقطعة من الكعك الذي كان في فمي لم يكن مذاقه سليماً على نحو خاص ـ وقال بوجهه المتورد إلى حد ما: «أنا سعيد بالطبع بأنك تراني جديراً بالثقة، لكنني مستاء كونك وثقت بي. وأنت نفسك أيضاً، لو لم تكن في مثل هذه الحالة، لعرفتَ كيف أنه من غير اللائق الحديث عن فتاة عاطفية لرجل يجلس وحده يحتسي المسكر».

عندما قلتُ هذا، جلس صعِقاً، انحنى إلى الخلف في كرسيه، وسمح لذراعيه بالتدلي إلى أسفل. ثم ضغطهما مرة أخرى، ونتأ مرفقاه، وبدأ يتحدث بصوت عال نوعاً ما: «كنا لوحدنا فقط قبل قليل في تلك الغرفة، آني وأنا. وقبّلتها، وقبّلتها ـ فمها، أذنيها، كتفيها. آه يا ربي ومنقذي!»

ثمة عدد قليل من الضيوف، وهم يشكون بأن يكون حوارنا أكثر حيوية، اقتربوا منا، يتثاءبون. عندها وقفت وقلت بحيث يتسنى للجميع سماعي: «حسنٌ إذن، عندما تصرون، سأذهب معكم، لكنني أكرر: إنه أمر مثير للسخرية تسلق التل الآن، في فصل الشتاء، وفي منتصف الليل. فضلاً عن ذلك، الدنيا تتجمد، ولأنها كانت تثلج فإن الطرق هناك كانت تشبه حلبات التزحلق على الجليد. حسنٌ، كما تشاء...».

في البداية أخذ يحدق في وجهي بدهشة وفرّق شفتيه المبللتين؛ وعندها، بينما كان يلاحظ الضيوف الذين قد اقتربوا جداً، ضحك، ووقف، ثم قال: «أعتقد أن البرد يُسدي لنا معروفاً؛ فملابسنا مليئة بالحرارة والدخان؛ أضف إلى ذلك، أنني منتشٍ قليلاً من دون أن أحتسي الكثير؛ نعم، دعونا نقول وداعاً وننصرف».

لذلك ذهبنا إلى المضيفة، وبينما قبّل يدها قالت: «أنا سعيدة لرؤيتك تبدو سعيداً جداً اليوم».

ولتأثّره برقة هذه الكلمات، قام بتقبيل يدها مرة أخرى؛ عندئذ ابتسمتْ. واضطررتُ إلى جرّه بعيداً. في الدهليز وقفت خادمة، لم يسبق لنا رؤيتها من قبل. ساعدتنا في معاطفنا وبعد ذلك أخذتْ فانوساً صغيراً لتضيء لنا أسفل السلّم. كانت رقبتها عارية خلا شريط مخملي أسود حول رقبتها؛ وقد انحنى جسدها الذي تغطيه ثياب فضفاضة وبقي يتمطّى بينما كانت تنزل إلى أسفل السلّم قبلنا، وهي تحمل الفانوس. كانت وجنتاها متوردتين، لأنها كانت قد احتست شيئاً من النبيذ، وفي ضوء المصباح الضعيف الذي عمّ السلّم كله، استطعت أن أرى شفتيها ترتجفان.

عند أسفل السلّم وضعتْ الفانوس، وتقدّمتْ خطوة نحو قريبي، عانقته، قبّلته، وبقيا في أحضان بعضهما الآخر. فقط عندما ضغطتُ بعملة معدنية في يدها قامت بتكاسل بفصل ذراعيها منه، وببطء فتحتْ الباب الأمامي، وسمحتْ لنا بالخروج في الليل.

في الشارع المهجور، المضاء بشكل متساوٍ بزغ قمر كبير في سماء غائمة قليلاً، وممتدة بشكل غير عادي. وعلى الثلج المتجمد كان المرء مضطراً إلى اتخاذ خطوات قصيرة.

وبالكاد كنا في الخارج حتى بدأتُ بشكل جليّ أشعر بالسعادة. رفعتُ ساقيّ، وجعلتُ مفاصلي تطقطق، وصرخت بأحد الأسماء في الشارع كما لو أن صديقي قد اختفى في المنحنى؛ وأنا أقفز، رميت قبعتي في الهواء وقبضتُ عليها متفاخراً.

استمر قريبي، مع ذلك، بالسير إلى جانبي، غير مبالٍ. سار مطرق الرأس. حتى أنه لم ينبس ببنت شفة.

فاجأني هذا، لأنني كنتُ قد حسبتُ بأنه، ما إن وجدته بعيداً عن الحفلة، سيطلق العنان لمباهجه. الآن أنا أيضاً يمكن أن أهدأ. ولم أكد أن أعطيه ضربة مشجعة على الظهر حتى أنني فجأة لم أعد أفهم مزاجه، فسحبت يدي. ولأنني لم أشأ أن استخدمها في شيء، فإنني دسستها في جيب معطفي.

لذلك سرنا بصمت. وبينما كنت أستمع إلى صوت خطواتنا، لم أستطع أن أفهم لماذا لم أكن قادراً على اللحاق بقريبي ـ خاصة وأن الهواء كان نقياً وبمقدوري أن أرى ساقيه بوضوح تام. هنا وهناك ثمة شخص ما انحنى من نافذة وأخذ يراقبنا.

عندما دخلنا شارع فيرديناند أدركت بأن قريبي قد بدأ يدندن بأغنية من مسرحية الأميرة الثرية. كان الصوت منخفضاً، لكنني استطعت سماعها بوضوح. ماذا كان يعني هذا؟ هل كان يحاول إهانتي؟ أما بالنسبة لي، فأنا على استعداد ليس للاستغناء عن هذه الموسيقى فقط، بل عن المشي أيضاً. لماذا لم يتكلم معي، على أي حال؟ وإذا لم يكن بحاجة لي، فلماذا لم يتركني بسلام في الغرفة الدافئة مع البينديكتين والمعجنات؟ بالتأكيد لم يكن أنا مَن كان قد أصر على هذه المسيرة. فضلاً عن ذلك، إنني استطعت أن أذهب في نزهة على الأقدام بمفردي. لقد كنت في إحدى الحفلات،

وقد أنقذت شاباً جاحداً من العار، وهو الآن يتجول تحت ضوء القمر. كان كل ذلك على خير ما يرام، أيضاً. طوال اليوم في المكتب، وفي الأماسي في الحفلة، وعند الليل في الشوارع، ولا شيء أبعد من ذلك. طريقة في الحياة طبيعية جداً بحيث تكاد تكون مفرطة!

مع ذلك كان قريبي ما يزال ورائي. وبالفعل، إنه حتى أغذّ الخطى عندما أدرك بأنه قبع في المؤخرة. لم ينبس أحد ببنت شفة، ولا يمكن أن يقال إننا كنا نركض. ولكن كنت أتساءل إذا لم تكن فكرة جيدة أن ننعطف في شارع جانبي؛ مع ذلك، لم أكن مضطراً للذهاب في هذه المسيرة معه. كان يمكنني أن أعود أدراجي وحيداً إلى البيت ولا يمكن لأحد أن يمنعني. ثم، وبشكل سرّي، كان بمقدوري أن أراقب قريبي وهو يعبر المدخل نحو شارعي. وداعاً، يا قريبي العزيز! عند وصولي إلى غرفتي سأشعر بالدفء، سأضيء المصباح في حامله الحديدي على طاولتي، وعندما أفرغ من هذا سوف أستلقي في كرسيي ذي المساند الذي ينتصب على السجادة الشرقية الممزقة. يا لها من تصورات سارّة! لِمَ لا؟ لكن ثم ماذا؟ لا جديد. المصباح سيلمع في الغرفة الدافئة، ويأتلق في صدري بينما استلقي في كرسيي ذي المساند. بعد ذلك سوف أهدأ وأقضي ساعات وحيداً بين الجدران المطلية والأرضية التي، عند انعكاسها في المرآة المؤطرة بالذهب المعلقة على الجدار الخلفي، تبدو مائلة.

أصبحت ساقاي متعبتين وكنت قد قررت بالفعل العودة إلى البيت والاستلقاء، عندما بدأت أتساءل، قبل الذهاب بعيداً، إن كان يجب أن أقول ليلة سعيدة لقريبي. لكنني كنت خجولاً جداً بحيث لم أذهب بعيداً من دون كلمة و{كنتُ} خائر القوى جداً بحيث لا أقوى على أن أدعوه بصوت عال. لذلك وقفت واجماً، وانحنيتُ على جدار المنزل المقمر، وانتظرت.

جاء قريبي يغذّ الخطى على طول الرصيف باتجاهي بسرعة كما لو أنه توقعَ أن أمسكه. غمز في وجهي، ما يشير إلى نوع من الاتفاق الذي كنت نسيته على ما يبدو.

«ما الخطب»؟ تساءلت.

«أوه، لا شيء»، قال. «أردت فقط أن آخذ رأيك بشأن تلك الخادمة التي قبّلتني على السلّم. مَن هي تلك الفتاة؟ هل سبق لك أن رأيتها من قبل؟ لا؟ ولا أنا. هل كانت خادمة؟ كنت قد قصدتُ أن أسألك هذا من قبل، بينما كانت تمشي أسفل السلّم أمامنا.»

«رأيت في الحال عن طريق يديها الحمراوين بأنها خادمة، وحتى لم تكن الخادمة الأولى، وعندما أعطيتها النقود شعرت ببشرتها القاسية».

«لكن هذا مجرد يثبت بأنها كانت في وقت ما في الخدمة، وهذا بلا شك هو الحال».

«قد تكون على حق في ذلك. في هذا الضوء لا يمكن للمرء أن يميز كل شيء، لكن وجهها ذكّرني بالابنة الكبرى لضابط شاءت الصدف أن أعرفه».

«ليس أنا»، قال.

«ذلك لن يمنعني من الذهاب إلى البيت؛ الوقت متأخر ويجب أن أكون في المكتب في وقت مبكر. المرء ينام بشكل سيء هناك». وعندها أخرجتُ يدي لأودّعه.

«يا للعجب، يا لها من يدٍ باردة!» صرخ. «لا أريد العودة إلى البيت بيد كهذه. عليك أن تدعها تقبّلك، أيضاً، يا صديقي. كان ذلك إغفالاً. مع ذلك، يمكنك تعويض ذلك. ولكن هل أنام؟ في ليلة كهذه؟ يا لها من فكرة! فقط تخيّل عدد الأفكار التي تخمدها بطانية واحدة وأنت تضطجع وحدك في السرير، وعدد الأحلام غير السعيدة التي تبقيها {البطانية} دافئة». قلتُ، «أنا لا خنق أي شيء ولا أُدفئ أي شيء».

واختتم قوله، «طيب، على رسلك! كنتَ ساخراً!»

في الوقت نفسه بدأ يمشي مرة أخرى وتبعتُه دون أن أدرك ذلك، لأنني كنت مشغولاً أُفكّر بما قاله.

من هذه الكلمات تخيلت أن قريبي يشكّ بشيء ما فيّ، شيء ما، على الرغم من أن لا وجود له هناك، جعلني مع ذلك أسمو في تقديره من خلال اشتباهه بذلك الشيء. لذلك حسناً فعلتُ أنني لم أذهب إلى البيت. مَن يعرف، إن هذا الرجل ــ الذي يفكر في شؤون الخادمة أثناء مسيره بجانبي، وفمه ينفث بخاراً بسبب البرد ــ قد يكون قادراً على منحي في نظر العالم قيمة من دون الحاجة إلى السعي من أجل ذلك. دعونا نبتهل بأن الفتيات لن يفسدنه! مهما كلّف الأمر فلْيقبّلْنه ويعانقْنه، فذلك واجبهن وحقه هو، ولكن يجب أن لا يطوّحن به بعيداً. بعد كل ذلك، عندما يقبّلنه فإنهن أيضاً يقبّلْنني قليلاً ــ بزوايا أفواههن، إذا جاز التعبير. لكن إذا يخطفنه، عندئذ فأنهن يسرقنه مني. وهو دائماً يجب أن يبقى معي، دائماً. مَن سيحميه، إن لم أكن أنا؟ كما أنه غبي جداً. شخص ما يقول له في شباط: تعال إلى التل ــ فذهب إلى هناك. ولنفترض أنه يكبو الآن، أو يصاب بالزكام؟ لنفترض أن رجلاً ما غيوراً يظهر من شارع بوستجاس ويهاجمه؟ ماذا سيحدث لي؟ هل سأرمى خارج العالم؟ سأصدّق بذلك عندما أرى هذا! لا، أنه لن يتخلص مني.

غداً سوف يتحدث إلى الآنسة آنا، عن أشياء عادية في البداية، كما هو طبيعي، لكنه فجأة لن يكون قادراً على إخفاء ذلك عنها مدة أطول: الليلة الماضية، يا آني، بعد الحفلة، حسبما تتذكرين، كنتُ مع رجل لم يسبق لك أن رأيتِ مثيله قط. بدا ــ كيف يمكنني أن أصفه لك؟ ــ مثل عصا تتدلى في الهواء، بدا، بجمجمة سوداء الشعر من الأعلى. كانت تغطي بدنه الكثير من خرق القماش الصغيرة الصفراء التي علته تماماً لأنها كانت تتدلى بالقرب منه في الهواء الساكن من الليلة الماضية. حسناً، آني، هل هذا يفسد شهيتك؟ أيفسدها بالفعل؟ في تلك الحالة هذا هو خطأي، بعدها قلتُ كل شيء بشكل سيء. فقط لو كنتِ رأيته، وهو يمشي على استحياء بجانبي، ويقرأ الافتتان على وجهي (حيث لم يكن هذا صعباً جداً)، ويقطع شوطاً طويلاً أمامي حتى لا يزعجني. أنا أعتقد، يا آني، إنكِ قد ضحكتِ قليلاً وتملّكك الخوف بعض الشيء؛ لكنني كنتُ سعيداً بصحبته. أين كنتِ، يا آني؟ كنتِ في سريرك، وسريرك كان بعيداً ــ ربما كان في إفريقيا. لكن في بعض الأحيان شعرتُ حقا كما

لو أن السماء المرصعة بالنجوم ارتفعت وسقطت بسبب لهاث صدره المسطح. هل تعتقدين بأنني أبالغ؟ لا، يا آني. وحق روحي، لا. وحق روحي التي تنتمي إليك، لا.

وأنا لم أدّخر لقريبي ـ إذ أننا قد بلغنا للتو الخطوات الأولى لفرانزنسكاي ـ أصغر جزء من الذل الذي لابد أن يكون قد شعر به في إلقاء مثل هذا الكلام. هذا ناهيك عن أن أفكاري أصبحت مشوّشة عند هذه اللحظة، ذلك لأن مولدافيا وربع المدينة على الشاطئ الأبعد امتدّا معاً في الظلام. ثمة عدد من الأضواء المتوهجة هناك أثارت العين.

عبرنا الطريق من أجل الوصول إلى السياج الحديدي على طول النهر، وهناك وقفنا صامتين. وجدتُ شجرة أتكئ عليها. وبسبب البرد المتفجر من الماء، ارتديتُ قفازيّ، وتنهدت من دون سبب وجيه، لأن المرء يميل إلى القيام بهذا في الليل بجانب النهر، لكن في ذلك الحين أردتُ الاستمرار في السير. كان قريبي، على أي حال، يحدّق في الماء، ولم يتزحزح. بعدها تحركَ مقترباً من السياج الحديدي؛ وبينما كانت ساقاه باتجاه القضيب الحديدي، أسندَ مرفقيه ووضع جبهته في يديه. ماذا بعد؟ مع ذلك، كنت أرتجف، وتوجّب عليّ أن أرفع ياقة معطفي. تمطّى قريبي ـ إذ مدّد ظهره، كتفيه، رقبته ـ ورفع النصف العلوي من بدنه، الذي استند على ذراعيه المشدودين، وانحنى على السياج الحديدي.

قلتُ: «حسناً، إنها ذكريات». نعم، حتى التذكر بحد ذاته أمر محزن، مع ذلك كم عظيم هذا الشيء! لا تستسلم لأشياء من هذا القبيل، فهو لا يليق بك وبي. إنه يضعف الموقف الحاضر للمرء ليس إلاّ دون تعزيز الموقف السابق ـ ليس هناك ما هو أكثر وضوحاً ـ بصرف النظر عن حقيقة أن الموقف السابق لا يحتاج إلى التعزيز. هل تعتقد بأنه ليس لدي أي ذكريات؟ أوه، لدي عشر مقابل كل واحدة مما لديكم. الآن، على سبيل المثال، يمكنني أن أتذكر الجلوس على مقعد على التلّة. كان ذلك في المساء، وأيضاً قرب نهر. في الصيف، بطبيعة الحال. وفي مثل هذه الأمسيات من عادتي أن أسحب ساقيّ وأضع ذراعيّ حولهما. أسندتُ رأسي على الظهر الخشبي للمقعد، ومن هناك شاهدت الجبال الشبيه بالغيوم على الشاطئ الآخر. ثمة كمان يعزف بهدوء في الفندق بجانب النهر. بين الفينة والفينة على كلتا الضفتين كانت القطارات تجلجل وسط الدخان المتصاعد».

وهو يستدير حوله فجأة، قاطعني قريبي؛ بدا وكأنه اندهش إذ يراني ما أزال هنا. «أوه، يمكنني أن أقول لك الكثير»، قلتُ له، دون أن أضيف أي شيء آخر.

وبدأ قائلاً، «لك أن تتخيل»، وسيحدث دائماً مثل هذا. اليوم، بينما كنت ذاهباً في الطابق السفلي لأتمشّى قليلاً قبل حفلة المساء، لا يمكنني إلاّ أن أتفاجأ بالطريقة التي تتدلّى فيها يداي في أصفادي، وهنّ يتدلّين بمرح. الأمر الذي جعلني أفكر فوراً: ما عليك سوى الانتظار، سيحدث شيء ما اليوم. وحدث بالفعل، أيضاً». قال هذا وهو يستدير للذهاب ونظر في وجهي مبتسماً بعينيه الكبيرتين.

لذلك حصلت بالفعل على مبتغاي بأسرع ما يمكن. كان بوسعه أن يقول لي أشياء من هذا القبيل وفي الوقت نفسه يبتسم وينظر في وجهي بعينيه الواسعتين. وأنا ـ عليّ

أن أكبح جماح نفسي من وضع ذراعي حول كتفيه وتقبيله على العيون كمكافأة لعدم حصوله على أي شيء ذي فائدة بالنسبة لي. لكن الأسوأ هو أنه حتى هذا لم يعد بمقدوره إنزال أي ضرر لأنه لا يمكن تغيير أي شيء، حتى الآن كان عليّ أن أذهب بعيداً، بعيداً بأي ثمن.

بينما كنت ما أزال أحاول بشكل عاجل التفكير في بعض الوسائل التي تمكّنني من البقاء على الأقل فترة أطول قليلاً مع قريبي، خطرَ ببالي بأنه ربما قامتي الطويلة أغضبتْه بجعله يشعر بأنه صغير جداً. وهذه الفكرة ـ على الرغم من أنها كانت في وقت متأخر من الليل، وكنا بالكاد نلتقي بأي شخص ـ فقد آلمني كثيراً بأنه بينما كنا نمشي أحنيتُ ظهري حتى وصلت يداي ركبتَي. ولكن من أجل منع قريبي من ملاحظة حقيقة نواياي غيُّرت موقفي بشكل تدريجي جداً، وحاولت تشتيت انتباهه عني، مرة بتحويله نحو النهر، ومرة بالإشارة إليه بيدين ممدودتين إلى الأشجار على الجزيرة وإلى الطريق حيث مصابيح الجسر تنعكس في النهر.

لكن بينما دار فجأة حوله، نظر إليّ ـ وأنا لم أنتهِ تماماً بعد ـ وقال: «ما هذا؟ أنت مقوّس الظهر تماماً؟ ماذا تنوي بحق السماء؟»

«صحيح تماماً. أنت ملاحِظ دقيق»، قلتُ له، ورأسي على درز بنطاله، وهذا هو السبب في أنني لم أستطع أن أنظر بشكل صحيح.

«دعك من هذا! قفْ منتصباً! ما هذا الهراء!»

«لا»، قلت، ووجهي منكّس إلى الأرض، «سوف أبقى كما أنا.»

«لابد أن أقول بأنك حقاً يمكنك أن تزعج أي شخص. وهذا مضيعة للوقت! هيا، ضعْ حداً لهذا».

قلتُ، «ما هذه الطريقة التي تصرخ بها! في هدأة الليل!»

«أوه حسناً، تماماً مثلما تحب»، أضاف، وبعد هنيهة أضاف: «الساعة الآن الواحدة إلاّ ربعاً». كان قد رأى بوضوح الوقت على ساعة البرج.

وقفتُ على الفور منتصباً كما لو أنني سُحِبتُ من شعري. أبقيتُ فمي مفتوحاً لبرهة، لأدع انفعالاتي تهرب. فهمتُ بأنه سيطوّح بي بعيداً. لم يكن هناك مكان لي بقربه، أو لو كان هناك مكان، على الأقل لا يمكن العثور عليه. لماذا، بالمناسبة، هل كنتُ عازماً جداً على البقاء معه؟ لا، عليّ أن أنصرف ـ وهذا يكون فوراً ـ إلى أقاربي وأصدقائي الذين ينتظرونني. ولكن إذا لم يكن لديّ أي أقارب وأصدقاء عندها يجب أن أدافع عن نفسي (ما جدوى الشكوى!)، لكن يجب أن أغادر من فوري. لأنه لا يوجد في عينيه شيء يمكن أن يخلصني من ذلك، لا طولي، ولا شهيتي، ولا يدي الباردة. لكن إذا رأيتُ أنني مضطر إلى البقاء معه، فهذا رأي خطير.

«لم أكن بحاجة إلى معلوماتك» قلتُ، وهذا صادف أن يكون صحيحاً.

«الحمد لله أنك تقف مرة أخرى منتصباً. كل الذي قلته إن الوقت هو الواحدة إلاّ ربعاً».

«ذلك صحيح تماماَ»، قلتَ، ووضعتَ ظفرين في الفجوات بين أسناني المثرثرة. «إذا لم أكن بحاجة إلى معلوماتك، فلا حاجة لي بأي توضيح. الحقيقة هي، لست بحاجة إلى شيء سوى رحمتك. من فضلك، أعدْ لي ما قلتَه للتو!»

«هل الساعة الواحدة إلاّ ربعاً؟ ولكن بكل سرور، خصوصاً وأن الواحدة إلاّ ربعاً مرت منذ فترة طويلة».

رفع ذراعه اليمنى، حرّك يده، واستمع لصوت شبيه بصوت الصنج صادر من حلقات أكمامه.

ومن الواضح أن هذا هو الوقت المناسب لعملية القتل. سأبقى معه وببطء سوف يسحب الخنجر ـ حيث يمسك مقبضه في جيبه ـ على طول معطفه، ومن ثم يغرزه فيّ. ومن غير المحتمل أنه سيتفاجأ ببساطةِ كلِّ هذا تماماً ـ مع ذلك ربما سيتفاجأ، من يدري؟ لن أصرخ، سأحدّق في وجهه ليس إلاّ طالما تستطيع عيناي تحمّل ذلك.

«حسناً؟» قال.

أمام مقهى بعيد ذي نوافذ سوداء ثمة شرطي سمح لنفسه الانزلاق على الرصيف كمتزلج. وإذ يعرقله سيفه، أخذه بيده، والآن انحدرَ لمسافة لابأس بها، لينتهي أخيراً برسم دائرة تقريباً. في نهاية المطاف جعل يغنّي بوهن و، بينما مازال يدندن، بدأ بالتزلج مرة أخرى.

لم يراودني الشعور بخوف ما حتى وصول هذا الشرطي ـ الذي، يبعد مائتي قدم عن عملية قتل وشيكة، لم يرَ ويسمع إلاّ نفسه. أدركتُ أنه سواء سمحتُ لنفسي أن أُطعَن أو أهرب، فإن نهايتي قد حانت. ألن يكون من الأفضل، بعد ذلك، الهرب، ومن ثم تعريض نفسي لموت صعب وأكثر إيلاماً؟ لم أستطع على الفور وضع إصبعي على الأسباب الداعمة لهذا النوع من الموت، ولكن لم أستطع تحمل قضاء الثواني الأخيرة المتبقية أبحث عن الأسباب. سيكون هناك وقت لذلك فيما بعد بشرط أنني امتلكتُ التصميم، والتصميم هو الذي امتلك.

كان عليّ أن أهرب، سيكون هذا سهلاً جداً. عند التحول إلى اليسار على جسر تشارلس كان يمكنني أن أقفز إلى اليمين في زقاق تشارلس. كان الطريق متعرجاً، وثمة مداخل مظلمة، وحانات ماتزال مفتوحة؛ إذن لم أكن بحاجة إلى اليأس.

بينما خطونا من تحت القوس في نهاية رصيف الميناء على ساحة العبور، ركضتُ إلى ذلك الشارع وذراعاي مرفوعتان. لكن أمام باب صغير سقطتُّ في الكنيسة، ذلك لأنه كانت ثمة درجة سلّم لم أكُ أتوقعها. صدرت ضوضاء قليلة، ومصباح الشارع المجاور كان بعيداً جداً، لذلك تمدَّدت في الظلام.

من حانة في الجهة المقابلة جاءت امرأة بدينة تحمل فانوساً لرؤية ما حدث في الشارع. كان هناك بيانو في الداخل مستمر في العزف، لكن بشكل واهن، وبيد واحدة فقط، لأن عازف البيانو قد اتّجه نحو الباب الذي، حتى الآن كان موارباً، فتحه على مصراعيه رجل يرتدي معطفاً بأزرار عالية. بصق ومن ثم عانق الامرأة بعنف لدرجة اضطرت فيها إلى رفع الفانوس من أجل حماية ذلك الفانوس.

«لم يحدث شيء!» صرخ في الغرفة، حيث استدار كلاهما، ذهبا إلى الداخل، وأغْلِق الباب.

عندما حاولتُ النهوض سقطتُ مرة أخرى. «جليد صلد»، قلتُ، وشعرتُ بألم في ركبتي. مع ذلك سرّني أن الناس في الحانة لم يرونني وأنني يمكن أن أضطجع هنا بسلام حتى الفجر.

يبدو أن قريبي قد سار حتى الجسر من دون أن يلحظ اختفائي، لأن ذلك كان في وقت قبل أن يلتحق بي. لم أرَ أية علامات اندهاش عندما انحنى فوقي ـ انخفض أكثر قليلاً من عنقه، تماماً كالضبع ـ ومسّدني بيد ناعمة. مررها صعوداً ونزولاً على عظمة وجنتي ومن ثم وضع راحته على جبهتي. «لقد آذيتَ نفسك، إيه؟ حسناً، الجو متجمد وعلى المرء أن يحذر ـ ألم تخبرني بذلك بنفسك؟ هل يوجعك رأسك؟ لا؟ أوه، الركبة. هم. ذلك سيء.»

لكنه لم يخطر بباله مساعدتي. أسندتُ رأسي بيدي اليمنى، ومرفقي على الحصاة، وقلتُ: «نحن هنا معاً مرة أخرى». وبينما بدأ خوفي يعود، ضغطتُ كلتا يديّ على ساقه من أجل أن أدفعه بعيداً. «لا تبتعد»، قلتُ.

وضع يديه في جيوبه ونظر إلى الشارع الفارغ، ثم إلى الكنيسة، ثم إلى السماء. في نهاية المطاف، على صوت عربة في أحد الشوارع المجاورة، تذكرني: «لماذا لا تقول شيئاً، يا صديقي؟ هل تشعر بالغثيان؟ لماذا لا تنهض؟ هل ينبغي أن أبحث عن سيارة أجرة؟ إن أردتَ، سأحضر لك بعض النبيذ من الحانة. على أي حال، يجب أن لا تضطجع هنا في البرد. فضلاً عن ذلك، أردنا أن نصعد إلى التلّة».

«بالطبع»، قلتُ، ونهضتُ بمفردي، لكن بألم كبير. بدأتُ أترنّح، وكان عليّ أن أنظر بشدة إلى تمثال كارل الرابع للتأكد من موقعي. مع ذلك، حتى هذا لن يساعدني لو لم أتذكر بأن فتاة ذات شريط مخملي أسود حول عنقها أحبتْني، إن لم يكن بشغف، على الأقل بإخلاص. وإنها في الحقيقة كانت ذلك القمر الذي يسطع عليّ، أيضاً، وبعيداً عن التواضع كنت على وشك أن أضع نفسي تحت قوس جسر البرج عندما خيّل لي بأن القمر، بطبيعة الحال، أضاء على كل شيء. لذلك نشرتُ ذراعيّ بسعادة من أجل التمتع الكامل بالقمر. وعندما أقوم بحركات السباحة بذراعيّ المرهقتين كان من السهل عليّ المضيّ قدماً من دون ألم أو صعوبة. أعتقد أنني لم أجرّب ذلك من قبل أبداً! رأسي في الهواء البارد، وكانت ركبتي اليمنى هي التي تنطلق بشكل أفضل؛ لذلك أطريتها عن طريق التربيت عليها. وتذكرتُ أنه ذات مرة لم أكن تماماً أحبّ أي قريب، ربما يكون لا يزال يمشي على مقربة مني، والشيء الوحيد الذي سرّني في كل هذه الأعمال هو أن ذاكرتي كانت جيدة بما فيه الكفاية بحيث أتذكر شيئاً كهذا. لكنني لا يمكن أن أقوم بالكثير من التفكير، ذلك لأنني لابد لي من الذهاب إلى السباحة لمنع نفسي من الغرق في الأعماق. مع ذلك، لتجنب أن يقال لي في وقت لاحق بأن أي شخص يمكنه أن يسبح على الرصيف وأن ذلك لا يستحق الذكر، رفعتُ نفسي فوق السور الحديدي عن طريق زيادة سرعتي وسبحتُ على شكل دوائر حول تمثال كل قديس واجهته. في الساعة الخامسة ـ كنت أحمل نفسي فوق

ممر عن طريق ضربات غير محسوسة ـ كان قريبي يمسك يدي. هناك وقفتَ مرة أخرى على الرصيف وشعرتُ بألم في ركبتي.

«أنا معجب دائماً»، قال قريبي، وهو يمسكني بيد واحدة ومشيراً بالأخرى إلى تمثال القديس لودميلا، «أنا معجب دائماً بيديّ هذا الملاك هنا إلى اليسار. انظر فقط كم هما رقيقتان! يدا ملاك حقيقي! هل رأيتَ في وقت مضى أي شيء مثلهما؟ إنك لم ترَ، لكنني رأيتُ مثلهما، لذلك قبّلت اليدين هذا المساء».

لكن بالنسبة لي كان هناك الآن احتمال ثالث للهلاك. عليّ أن لا أسمح لنفسي أن أطعَن، عليّ أن لا أهرب، يمكنني ببساطة رمي نفسي في الهواء. دعه يرتقي تلّته، وأنا لن أتدخل في شؤونه، ولا حتى عن طريق الهرب بعيداً سأتدخل في شؤونه.

والآن صرختُ: «هاتِ قصصك! أنا لم أعد أريد أن أسمع نتفاً! قل لي كل شيء، من البداية إلى النهاية. أنا لن أستمع إلى أقل من ذلك، أحذرك. لكنني أتحرّق لسماع الشيء ككل». حينما تطلع في وجهي توقفتُ عن الصراخ بصوت عال جداً. «ويمكنك الاعتماد على حصافتي! قل لي كل ما يدور في ذهنك. لم تجد مستمعاً حصيفاً جداً مثلي».

وانخفضتُ نوعاً ما، على مقربة من أذنه، وقلتُ: «وأنت لست بحاجة إلى أن تكون خائفاً مني، ذلك لا لزوم له تماماً».

سمعته يضحك.

قلتُ، «نعم، نعم». أعتقد ذلك. وأنا لا أشك فيه»، وبينما أقول هذا قرصته في بطتّي ساقَيه ـ حيث كانتا مكشوفتين. لكنه لم يشعر بذلك. عندها قلت لنفسي: «لماذا تمشي مع هذا الرجل؟ إنك لا تحبه، ولا تكرهه، لأن كل الذي يهتم به هو فتاة ومن غير المؤكّد أنها ترتدي ثوباً أبيض. لذلك فهذا الرجل غير مبال بك ـ وأكرر: غير مبال. لكنه أيضاً غير مؤذٍ، كما أثبت ذلك. إذن استمر بالمشي معه حتى أعلى التل، ذلك لأن هذا هو بالفعل طريقك، إنها ليلة جميلة، لكن دعه يقوم بالحديث ويُبهجك بعض الشيء، لأن هذه هي أفضل طريقة (قلْها بصوتٍ خافت) لحماية نفسك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(II)

انحرافات أو دليل على استحالة العيش

1 - جولة

والآن ـ بحركة سريعة، كما لو أنها لم تكن المرة الأولى ـ قفزتُ على أكتاف قريبي، وبغرز قبضتَي في ظهره فقد حثثته على الهرولة. لكن لأنه تقدّم إلى الأمام بتثاقل على مضض، وأحيانا كان يتوقف، ركلته في بطنه عدة مرات بحذائي، لجعله أكثر حيوية. نجح هذا ووصلنا بسرعة كافية إلى المناطق الداخلية لمشهد واسع لكنه غير مكتمل حتى الآن.

كان الطريق الذي سلكته حجرياً ويرتفع إلى حد كبير، لكن هذا فقط الذي أحببته وسمحت له أن يصبح أكثر صلابة وأكثر حدة. وحالما تعثَّر قريبي سحبته من ياقته وفي الوقت الذي تنهّد صفعتُ رأسه. وإذ أقوم بذلك شعرتُ بمدى صحية هذه الجولة في الهواء الطلق بالنسبة لي، ومن أجل أن أجعله أكثر وحشية سمحتُ لرياح قوية أن تهبّ ضدنا في نفحات طويلة.

الآن بدأتُ بالمبالغة بحركات القفز على كتفيّ قريبي العريضين، وأنا أحكم الإمساك بعنقه بكلتا يدَيّ أحنيتُ رأسي إلى الوراء وأخذتُ أفكر بالغمامات العديدة والمتنوعة التي، أضعف مني، كانت تتحرك بغير ما ترتيب مع الريح. ضحكتُ وارتعدتُ بشجاعة. انتشر معطفي وأعطاني قوة. ضغطتُ على كلتا يدَيّ بقوة، وبينما أقوم بذلك صادفَ أنّ ذلك يجعل قريبي يختنق. ولم أعد إلى رشدي إلاّ حينما أصبحت السماء مخفية تدريجياً بفروع الأشجار، التي تركتُها تتعاظم على طول الطريق.

بكيتُ دونما صوت «أنا لا أعرف، أنا حقاً لا أعرف. عندما لا يأتي أحد، إذن لا يأتي أحد. لم ألحق أيّ سوء بأي شخص، ولا أي شخص أصابني بأي سوء، لكن لا أحد سيساعدني. حزمة من النكرات. لكن الأمر ليس تماماً كهذا. إنه مجرد لا أحد يساعدني، وإلاّ فإن مجموعة من النكرات ستكون شيئاً لطيفاً، وأودّ (ما رأيك بذلك؟) الخروج في نزهة مع مجموعة من النكرات. داخل الجبال، بطبيعة الحال، في أي مكان ما غير ذلك؟ مجرد قم بإلقاء نظرة على هؤلاء النكرات وهم يدفعون بعضهم بعضا، وغنيّ عن القول إن كل هذه الأذرع امتدت أو ارتبطت ببعضها الآخر، وهذه الأقدام المفصولة بخطوات صغيرة! الجميع في معاطف طويلة. نسير جنباً إلى جنب بسعادة غامرة، والريح اللطيفة تصفر من خلال الفجوات التي عملناها و{تصفر} بين أطرافنا. في الجبال تصبح رقابنا حرة. ومن عجبٍ أننا لا نغني».

ثم انهار قريبي، وعندما تفحصته اكتشفت بأنه كان مجروحاً بجروح بليغة في الركبة. وبما أنه لم يعد ذا فائدة بالنسبة لي، تركته هناك على الأحجار دونما أسف شديد وصفرتْ أسفل منه بضع عقبان التي، بطاعةٍ وبمناقير خطيرة، جثمتْ عليه من أجل حمايته.

2 - مشية

بقيتُ أمشي، رابط الجأش. ولكن لأنني أمشي على قدميّ، خشيتُ من جهد تسلق الطريق الجبلي، جعلته يصبح مسطحاً بشكل تدريجي، جعلته ينحدر في وادٍ في ذلك المدى. اختفتْ الحجارة حسب إرادتي واختفتْ الرياح أيضاً.

مشيت بخطى رشيقة، ولأنني كنت في طريقي نازلاً رفعت رأسي، شددت جسدي، ومرُّرت ذراعيَّ وراء رأسي. وبسبب حبّي لغابات الصنوبر فقد ذهبت عبر غابات من هذا النوع، ولهيامي بالتحديق بصمت في النجوم، ظهرت النجوم ببطء في السماء، كما هي عادتها. لم أرَ سوى عدد قليل من الغمامات الناعمة حيث الرياح، عند هبوبها في الأعالي، جذبتها عبر الهواء، مما أثار دهشة الماشين.

في المقابل وعلى مبعدة من طريقي، الذي ربما يفصله عني نهر أيضاً، جعلتُ أصعد جبلاً عالياً جداً كانت هضبته، الضاجّة بالأدغال، تناطح السماء. كنت أرى بوضوح التفرعات القليلة للأغصان الشاهقة وحركاتها. هذا المشهد، رغم كونه عادياً ربما، جعلني سعيداً جداً لدرجة أنني، كطائر صغير على غصين من تلك الشجيرات الصغيرة البعيدة، نسيتُ أن أدعَ القمرَ يظهر. كان يقبع وراء الجبل، غاضباً بلا شك بسبب هذا التأخير.

لكن الآن انتشر الضوء البارد الذي يسبق طلوع القمر فوق الجبل وفجأة ظهر القمر نفسه من وراء إحدى الشجيرات القلقة. ومن ناحية أخرى كنت في غضون ذلك أحدّق في اتجاه آخر، وعندما نظرتُ الآن أمامي وفجأة رأيته متوهجاً بكامل دورته، وقفتُ واجماً بعينين مضطربتين، لأن طريقي الحاد بدا يؤدي مباشرة إلى هذا القمر المرعب.

بعد فترة، مع ذلك، اعتدت عليه وراقبتُ برباطة جأش الصعوبةَ التي اكتنفته في الظهور، حتى النهاية، بعدما اقتربنا من بعضنا الآخر في جانب كبير من الطريق، شعرتُ بأنه غلبني نعاس شديد بسبب، حسب اعتقادي، التعب من المشي، الذي لم أعتد عليه. تجولتُ لفترة بعينين مغمضتين، استيقظ فقط على التصفيق العالي والمنتظم ليديّ.

لكن بعد ذلك، بينما أنذرَ الطريق بالضياع من تحت قدمي، وكل شيء، كان ضجراً كنفسي، بدأ يتلاشى، استجمعتُ قوتي المتبقية وسارعت لتوسيع نطاق المنحدر إلى يمين الطريق من أجل الوصول في الوقت المناسب إلى غابة الصنوبر العالية المتشابكة حيث خططت لقضاء الليلة التي ربما تنتظرنا.

وكان الاستعجال ضرورياً. أخذتْ النجوم بالتضاؤل ولاحظتُ القمر يغرق بوهن في السماء كما لو كان {يغرق} في المياه العكرة. كان الجبل ينتمي إلى الظلام، والطريق انهارَ عند النقطة التي كنت فيها قد تحولتُ نحو المنحدر، ومن داخل الغابة سمعتُ تحطّم الأشجار المتداعية. الآن أصبح بإمكاني إلقاء نفسي على الطحلب حتى أنام، ولكن لأنني خشيت النوم على الأرض فقد تسللتُ ـ بينما الجذع ينزلق بسرعة أسفل الحلقات التي شكّلها ذراعاي وساقاي ـ إلى أعلى الشجرة التي كانت تترنح

بالفعل دون رياح. اضطجعتَ على غصن و، بينما أسند رأسي على الجذع، مضيتَ على عجل إلى النوم بينما سنجاب رغبتي جلس متصلّب الذيل عند النهاية المرتجفة من الغصن، وهزّ نفسه.

كان نومي عميقاً وبلا أحلام. فلم يوقظني لا القمر الآفل ولا الشمس المشرقة. وحتى عندما كنت على وشك أن أستيقظ، هدّأت نفسي بالقول: «لقد بذلتَ جهداً جهيداً أمس، لذا حافظ على نومك»، ومضيتُ إلى النوم مرة أخرى.

على الرغم من أنني لم أحلم، لم يكن نومي خالياً من شيء من الاضطراب الممض. فطوال الليل سمعتُ أحدهم يتحدث بجانبي. لم أكد أسمع الكلمات نفسها ــ باستثناء كلمات منفصلة مثل «مقعد... بجانب النهر»، «جبال كالغمام»، «قطارات... وسط دخان يتصاعد»؛ إذ إن ما استطعت سماعه كان نوعاً خاصاً من التركيز على تلكم الكلمات؛ وأتذكر أنه حتى في نومي فركتُ يديَّ بسعادة في أنني لستُ مضطراً لتمييز كلمات مفردة، ذلك لأنني كنت غارقاً في النوم.

«كانت حياتك رتيبة»، قلتُ بصوتٍ عالٍ من أجل إقناع نفسي، «بالفعل كان من الضروري بالنسبة لك أن تؤخَذ إلى مكانٍ ما آخر. عليك أن تكون قانعاً، الجو رائع هنا. الشمس ساطعة».

عندها اشرقت الشمس وأصبحت الغيوم الممطرة بيضاء وخفيفة وصغيرة في السماء الزرقاء. كانت تلتمع وتتصاعد. رأيت نهراً في الوادي.

«نعم، كانت حياتك رتيبة، أنت تستحق هذا الانحراف»، واصلت كلامي كما لو أنني مرغم، «ولكن ألم تكن أيضاً محفوفة بالمخاطر؟» في تلك اللحظة سمعت أحدهم يتنهد بشدّة بالقرب مني.

حاولت النزول بسرعة، ولكن لأن الغصن ارتجف بالقرب من يدي وقعتُ متصلّبًا من الأعلى. لم أسقط بشدة، ولم أشعر بأي ألم، لكنني شعرت بضعف وتعاسة لدرجة أنني دفنت وجهي في الأرض: لا يمكنني أن أتحمل وطأة رؤية ما حولي من أشياء هذه الأرض. شعرت بالقناعة من أن كل حركة وكل فكرة كانت مفروضة، وعلى المرء أن يكون على أهبة الاستعداد ضدها. مع ذلك لا شيء يبدو أكثر طبيعية من الاضطجاع هنا على العشب، وذراعاي بجانب جسدي، ووجهي مخفيّ. حاولت إقناع نفسي بأنني يجب أن أكون راضياً بأن أكون بالفعل في هذا الموقف الطبيعي، لأنه خلاف ذلك فإن العديد من التشويهات المؤلمة، كالخطوات أو الكلمات، ستكون لابد منها من أجل بلوغ ذلك.

كان النهر واسعاً وموجاته الصاخبة القليلة عكست الضوء. وعلى الشاطئ الآخر امتدتْ المروج التي اندمجت بعيداً في الشجيرات التي وراءها، في المدى البعيد، كان يمكن للمرء أن يرى آفاقاً مشرقة من أشجار الفاكهة الممتدة إلى التلال الخضراء.

ولبهجتي بهذا المنظر، اضطجعتُ، وسددتُّ أذنيّ حتى لا أسمع صوت التنهدات المفزع، وقلت في نفسي: أنا هنا يمكن أن أكون قانعاً. لأن هذا المكان منعزل

وجميل. ولا يتطلب الكثير من الشجاعة للعيش فيه. لا بد أن المرء سيعاني هنا كما في أي مكان آخر، لكن على الأقل ليس من الضروري للمرء أن يقوم بذلك بحركات رشيقة. لن يكون هذا ضرورياً. لأنه لا يوجد سوى جبال ونهر واسع ولدي الشعور الكافي للنظر اليها بوصفها جمادات. نعم، عندما أترنح وحيداً حتى المسار الحاد خلال المروج في المساء فإنني لن أكون مهجوراً أكثر من هذه الجبال، وما عدا ذلك فأنني سوف اشعر بذلك. لكنني أعتقد بأن هذا، أيضا، سيمرّ.

ومن ثم غازلتُ حياتي المستقبلية وحاولتُ بعناد أن أنسى. وطوال الوقت كنت أرمق تلك السماء التي كانت ذات لونٍ واحدٍ على نحو غير عادي. لقد مرّ وقت طويل مذ رأيتها على هذه الحال؛ لقد تأثرتُ وتذكرتُ بعض الأيام عندما ظننتُ أنني رأيتها بالطريقة نفسها. أزحتُ يدي من أذني، ونشرتُ ذراعيَّ، وجعلتهما يسقطان على العشب.

سمعت أحدهم يتنهّد بهدوء من بعيد. اشتدت الرياح فارتفعت كتلة كبيرة من الأوراق، التي لم أكن قد رأيتها من قبل، في الهواء. وسقطت بلا إحساس الفواكه غير الناضجة من الأشجار على الأرض. تصاعدت سحب مقيتة من وراء الجبل. بينما هدرت الأمواج على النهر وتراجعت بفعل الرياح.

نهضت بسرعة. كان قلبي يؤلمني، لأنه بدا الآن من المستحيل الهرب من معاناتي. كنت على وشك أن أستدير وأغادر هذه المنطقة وأعود إلى طريقتي السابقة في الحياة عندما خطرت لي الفكرة التالية: «كم يكون غريباً أنه حتى في عصرنا يتنقل الناس عبر النهر بهذه الطريقة المعقدة. ليس ثمة تفسير آخر أكثر من أنّ هذا هو عرف قديم». هززتُ رأسي، لأنني كنت متفاجئاً.

3 - الرجل البدين

أ - خطاب إلى المنظر الطبيعي

من الأجمة على الضفة المقابلة كان أربعة رجال عراة يسيرون بعنف إلى الأمام، وهم يحملون على أكتافهم قمامة خشب. وعلى هذه القمامة جلس، بزيّ شرقي، رجل بدين بشكل مخيف. ورغم أنه نفذ من خلال الأجمة على مسار غير مطروق، فهو لم يدفع الأغصان الشائكة جانباً بل ببساطة سمح لجسده الساكن أن يمرق من خلالها. كانت طيات الدهون منتشرة بعناية فائقة لدرجة أنه برغم تغطيتها القمامة كلها وحتى تعلقت أسفل جانبها مثل هدب سجادة صفراء، فإنها لم تعرقله. كانت جمجمته الصلعاء صغيرة وتلتمع صفراء. وحمل وجهه تعبيراً ساذجاً لرجل يتأمل ولا يقوم بأي جهد لإخفائه. من وقت لآخر كان يغلق عينيه: وعند فتحهما مرة أخرى أصبح ذقنه مشوهاً.

قال بصوت خفيض «إن المنظر يشوّش فكرتي. ويجعل تأملاتي تترنّح مثل جسور معلقة في تيار غاضب. المشهد جميل، ولهذا السبب يحتاج أن ننعم النظر فيه».

أغمضُ عينيَّ وأقول: ألا أيها الجبل الأخضر بجانب النهر، بصخورك المتدحرجة صوب الماء، أنت جميل.

لكنه غير راضٍ. إنه يريد مني أن أفتح عينيَّ له.

إذن ربما أقول له بعينين مغلقتين: «أيها الجبل، أنا لا أحبك، لأنك تذكّرني بالغيوم، بالغروب، بالسماء المرتفعة، وهذه أشياء تجعلني تقريباً أبكي ذلك لأن المرء لا يمكنه أبداً الوصول إليها في حين يُحمل على قمامة صغيرة. ولكن عندما تُظهر لي هذا، أيها الجبل الخبيث، فإنك تمنع المشهد البعيد الذي ينشرح له صدري، لأنه يكشف ما يمكن بلوغه في لمحة. هذا هو السبب في أنني لا أحبك، أيها الجبل بجانب الماء ـ لا، أنا لا أحبك».

لكن الجبل غير مبالٍ بهذا الخطاب مثل لامبالاته لخطابي السابق طالما أنني لم أتحدث معه بعينين مفتوحتين. وهذا هو السبيل الوحيد لإرضائه.

هل يجب علينا أن لا نبقيه متعاطفاً اتجاهنا لكي يبقى منتصباً على الدوام ـ هذا الجبل الذي لديه مثل هذا الولع المتقلب بالنسبة للبّ عقولنا؟ ربما يُلقي عليَّ ظله المسنّن، ربما يدفع بصمتٍ جدراناً جرداء مخيفة أمامي وسيتعثر الحمّالون على الحصى الصغيرة على الطريق.

ولكنه ليس فقط الجبل الذي هو دون جدوى، وفظ وحاقد ـ بل أن كل شيء غيره هو كذلك أيضاً. لذلك يجب أن أستمر على التكرار بعينين مفتوحتين على وسعهما ـ أواه، كم تؤلم تلكم الأشياء!

«نعم، أيها الجبل، أنت جميل والغابات على منحدرك الغربي تُبهجني. معك، أيتها الزهرة، ابتهج أيضاً، فلونك الوردي يشرح نفسي. أنتنّ، يا أعشاب المروج، عاليات وقويات ومنعشات. وأنتنّ، أيتها الشجيرات المثيرات، توخزن بشكل غير متوقع جداً لدرجة أن أفكارنا تبدأ في التقافز. لكن معك، أيها النهر، أنا مسرور جداً لدرجة أنني سوف أسمح لنفسي أن يحملها ماؤك الرشيق».

بعد أن صاح بأنشودة الثناء هذه عشر مرات، مصحوبة ببعض التحول المتواضع في جسده، جعل رأسه يتدلى وقال بعينين مغمضتين:

«لكن الآن ـ أتوسّل إليكم ـ أيها الجبل، والزهور، والأعشاب، والشجيرات، والنهر، أعطينني فسحة ما حتى أستطيع أن أتنفس».

في تلك اللحظة بدأت الجبال المحيطة بالتحول بطاعة متسرعة، ثم انسحبن وراء ستارة من الضباب. برغم أن الطرق وقفت ثابتة لفترة من الوقت وحرست عرض الطريق، فإنها سرعان ما اندمجت ببعضها بعضا. في السماء أمام الشمس امتدّت سحابة رطبة بحافة شفافة جداً غاصت البلاد في ظلها أعمق فأعمق في حين فقد كل شيء شكله الجميل.

وصل صوت خطوات الحمالين إلى جانب النهر ومع ذلك لم أستطع تمييز أي تفاصيل في المربع المظلم لوجوههم. رأيتهم فقط يحنون رؤوسهم إلى الجانب ويقوسون ظهورهم، لأن أعبائهم كانت مفرطة. كنت قلقاً عليهم، لأنني أيقنتُ بأنهم متعبون. لذلك كان من دواعي تشوقي أنني شاهدتهم يخطون في نباتات الأسل، ثم يمشون في الرمل الرطب، وخطواتهم ما زالت منتظمة، حتى في نهاية المطاف

غرقوا في المستنقع الموحل حيث انحنى الحمّالان الخلفيان أكثر وذلك من أجل إبقاء القمامة في موقعها الأفقي. ضغطتُّ على يديَّ كلتيهما. الآن كان عليهم رفع أقدامهم عالياً في كل خطوة حتى التمعت أجسادهم بالعرق في الهواء البارد من هذا المساء غير المستقر.

جلس الرجل البدين هادئاً ويداه على فخذيه؛ إذ أن النهايات المدببة الطويلة من القصب جرحته لأنها انقلبت خلف الحمّالين أمامه.

أصبحت حركات الحمالين أقل انتظاماً كلما اقتربوا أكثر من الماء. في بعض الأحيان كانت القمامة تتمايل كما لو أنها كانت على الأمواج. ثمة برك صغيرة في الأسل لا بد من قفزها أو المشي حولها، لأنها ربما تكون عميقة.

في لحظة واحدة نهض البط البري صائحاً، وارتفع بشكل حاد في الغيم الماطر. في ذلك الوقت بالذات لمحت وجه الرجل البدين؛ بدا قلقاً. نهضتُ في قفزات محمومة حيث تعرجتُ فوق المنحدر الحجري الذي يفصلني عن الماء. لم أكترث إلى الخطر، كنت مهتماً فقط بمساعدة الرجل البدين الذي لم يعد عبيده قادرين على حمله. ركضت بتهور كبير لدرجة أنني لا يمكنني التوقف، وكنت مجبراً على الاندفاع في الماء المطرطِش، ولم أتوقف إلاّ عندما وصل الماء ركبتيّ.

بينما كان العبيد، مع ما تحمله أجسادهم من تشوهات، قد حملوا القمامة في النهر، وهم يرفعون أنفسهم فوق الماء الجامح بيد واحدة، فقد دعموا القمامة بأربعة أذرع مشعرة، فيما نتأت عضلاتهم إلى الخارج بارتياح.

التفّ الماء حول ذقونهم، ثم ارتفع إلى أفواههم؛ أحنى الحمّالون رؤوسهم إلى الخلف وسقطت مقابض القمامة على أكتافهم. كانت المياه تدور حول جسور أنوفهم، ومع ذلك لم يستسلموا، على الرغم من أنهم بالكاد وصلوا إلى منتصف النهر. ثم اجتاحت موجة منخفضة رؤوس أولئك الذين كانوا في المقدمة وغرق الرجال الأربعة بصمت، فيما كانت أيديهم اليائسة تسحب القمامة إلى الأسفل معهم. تدفقت المياه ورائهم.

والآن انبلجت الأشعة المائلة لشمس المساء من وراء حواف السحابة العظيمة وأضاءت التلال والجبال بقدر ما تتمكن العين أن ترى، في حين امتد النهر والمنطقة تحت السحابة في ضياء غير مؤكد.

استدار الرجل البدين ببطء باتجاه المياه المتدفقة وحُمِل نحو النهر مثل دمية خشبية صفراء قد أصبحت عديمة الفائدة ولهذا ألقيت في النهر. أبحر إلى الأمام على انعكاس سحابة المطر. انسحبتْ الغمامات الطويلة فيما دفعتْه الغيوم المنحنية الصغيرة، مما خلق ضجة كبيرة، يمكن ملاحظة أثرها عن طريق التفاف المياه نحو ركبتيَّ و الأحجار على الشاطئ.

تسللتُ بسرعة إلى أعلى المنحدر لكي أتمكن من مرافقة الرجل البدين في طريقه، لأنني أحبه حقاً. وربما بوسعي أن أتعلم شيئاً عن مخاطر هذا البلد الآمن على ما يبدو. وهكذا مشيتُ على طول شريط من الرمال على المرء أن يعتاد على ضيقه،

ويديّ في جيوبي وحوُّلت وجهي بزوايا مستقيمة إلى النهر حتى استقرَّ ذقني تقريباً على كتفي.

جلست السنونوات على الأحجار بجانب الشاطئ.

قال الرجل البدين: «سيدي العزيز على الشاطئ، لا تحاول إنقاذي. هذا هو انتقام الماء وانتقام الرياح؛ الآن أنا ضائع. نعم، إنه الانتقام، إذ غالباً ما هاجمناهم، أنا وصديقي المتوسل، وسط صليل سيوفنا، ووميض الصنج النحاسي، والروعة الكبيرة للأبواق، والوهج المتقافز للطبول!»

ثمة بعوضة صغيرة ذات أجنحة ممتدة حلّقت مباشرة عبر بطنه دون أن تفقد سرعتها. استمر الرجل البدين.

ب. بداية حوار مع المتوسل

ثمة وقت عندما كنت أذهب إلى الكنيسة يوماً بعد يوم، لأن الفتاة التي كنت أحبها اعتادت على السجود هناك في الصلاة لمدة نصف ساعة كل مساء، مما مكّنني من مشاهدتها في أوقات فراغي.

ذات مرة عندما لم تظهر الفتاة وفي غمرة فزعي كنت أرقب الناس الآخرين وهم يصلّون، لفتَ انتباهي شاب كان قد رمى بجسمه النحيل الطويل على الأرض. من وقت لآخر، كان يمسك جمجمته بكل ما أوتي من قوة و، بينما يئن بصوت عالٍ، يضربها براحتي يديه على الأرض الحجرية.

في الكنيسة لم يكن هناك سوى عدد قليل من النساء المسنّات اللواتي بقين يحوّلن رؤوسهن المغطاة بشال لإلقاء نظرة على الرجل المصلي. ويبدو أن هذا الاهتمام يروق له، لأن قبل كل انفعال من انفعالاته الورعة كان يسمح لعينيه أن تحوم هنا وهناك لرؤية عدد الناس الذين كانوا يراقبونه. وكونه وجد ذلك غير لائق، قررتُ أن أبادره في طريقه خارج الكنيسة وأسأله صراحة لماذا كان يصلي بهذه الطريقة. لأنه منذ وصولي إلى هذه البلدة أصبح الوضوح أكثر أهمية بالنسبة لي من أي شيء آخر، حتى وأنني في هذه اللحظة شعرتُ بالانزعاج لعدم تمكّن الفتاة من الظهور.

حتى الآن مرّت ساعة قبل أن يقف، وينظّف بنطلونه لفترة طويلة من الوقت بحيث شعرت وكأنني أُصيح: «كفى، كفى! يمكننا جميعاً أن نرى بأنك ترتدي بنطلوناً»، ويرسم علامة الصليب بعناية، وبمشية بحّار متثاقلة سارَ إلى إناء الماء المقدس.

وضعتُ نفسي بين إناء التعميد والباب، وعقدتُ العزم على عدم السماح له بالمرور من دون تفسير. شددتُ فمي، وهذا هو أفضل استعداد لخطاب حازم، وأسندتُ نفسي بالوقوف على ساقي اليمنى بينما أسندتُ الساق اليسرى على أصابعها، لأن هذا الوضع الذي كثيراً ما جرّبته يعطيني إحساساً بالاستقرار.

من الممكن الآن أن هذا الشاب قد لمحني وهو يرش وجهه بالماء المقدس؛ ربما تحديقي قد أفزعه حتى في وقت سابق، لأنه الآن هرع بشكل غير متوقع تماماً إلى الباب وخرج. قفزت بشكل لا إرادي لإيقافه. اصطفق الباب الزجاجي. وعندما

مررت من خلاله في وقت لاحق لم أستطع أن أجده، لأن الشوارع الضيقة كانت عديدة وحركة المرور كبيرة.

أثناء الأيام التالية لم يظهر، ولكن الفتاة جاءت ومرة أخرى أخذت تصلي في زاوية من مصلى جانبي. كانت ترتدي ثوباً أسود ذا دانتيل شفاف ـ يمكن من خلاله رؤية هلال قميصها ـ من حافته السفلى كان الحرير يتدلّى في هدب دقيق جداً. والآن بعد أن عادت الفتاة سررتُ بأن أنسى الشاب، متجاهلاً إياه حتى عندما واصل الظهور بانتظام والصلاة بطريقته المعتادة.

لكنه كان دائماً يمرّ بي على عجل بسرعة مفاجئة، مشيحاً بوجهه. أثناء الصلاة، من ناحية أخرى، ما اِنفكّ ينظر اليّ. حتى إن الأمر بدا كما لو أنه كان غاضباً مني لعدم الاقتراب منه في وقت سابق وكان يعتقد بأنه بالنسبة لمحاولتي الأولى للتحدث معه إنما جرت لأنه تحتّم عليّ القيام بذلك. ذات يوم بينما كنت أتبع الفتاة وهي تخرج كالمعتاد بعد الصلاة، ركضتُ إليه في شبه الظلمة وأعتقد أنني رأيته يبتسم.

ولا حاجة إلى القول بأن واجب التحدث معه لم يكُن موجوداً، ولا كانت لي الرغبة الكبيرة في القيام بذلك بالمرة. وحتى عندما أسرعتُ إلى الكنيسة ذات مساء بينما كانت الساعة تدق السابعة وجدتُّ، بدلاً من الفتاة التي بالطبع قد غادرت منذ زمن بعيد، الشاب فقط يجهد نفسه أمام أسوار المذبح، فإنني ترددتُ.

أخيراً سرتُ إلى الباب على أطراف أصابعي، وأعطيتُ قطعة معدنية إلى الشحاذ الأعمى الجالس هناك، وحشرتُ نفسي بجانبه وراء الجناح المفتوح. وهناك لمدة نصف ساعة تقريباً كنت أتطلع إلى المفاجأة التي كنت أخطط فيها لمباغتة المتوسل. لكن هذا الشعور لم يدم. قبل فترة طويلة كنت أشاهد بكآبة العناكب تزحف على ملابسي ووجدت من الصعب اضطراري إلى الانحناء في كل مرة كان يجيء فيها أحدهم يتنفس بصوت عالٍ وهو خارج ظلمة الكنيسة.

لكنه في النهاية أتى. وأدركتُ بأن رنين الأجراس الكبيرة التي كانت قد بدأت قبل فترة لم تتوافق معه. في كل مرة قبل اتخاذ أي خطوة اضطرَّ لتلمس الأرض بخفةٍ بقدمه.

استقمتُ، واتخذتُ خطوة طويلة إلى الأمام، وأمسكت به. «طاب مساؤك»، قلت له، ويدي على ياقة معطفه دفعته إلى أسفل الدرجات على الساحة المضاءة.

عندما وصلنا الطابق الأرضي التفتَ نحوي بينما كنت ما أزال ممسكاً به من الخلف، بحيث وقفنا جنباً إلى جنب.

قال، «ليتك تتركني!». «لا أعرف بماذا كنت تشك بي، لكنني بريء». ثم كرَّر مرة أخرى: «بالطبع أنا لا أعرف بماذا كنتَ تشك بي».

«ليس ثمة شك هنا أو براءة. أطلب منك أن لا تذكر ذلك مرة أخرى. نحن غريبان؛ ومعرفتنا ليست أقدم من مدرجات الكنيسة المرتفعة. ماذا سيحدث لو بدأنا على الفور بمناقشة براءتنا؟»

قلت، «بالضبط كما أعتقد». في الحقيقة، قلتَ «براءتنا». هل تعني بأنني لو أثبتتَ براءتي فإن عليك أن تثبت براءتك أنت أيضاً؟ هل هذا ما تعنيه؟»

قلتُ، «تلك مسألة أو شيء ما آخر. أنا لا أُفاتحك إلاّ لأنني أريد أن أطلب شيئاً ما منك، أتتذكر ذلك!»

«أود العودة إلى البيت»، قال، وهمَّ ليستدير.

«أصدّق ذلك تماماً. هل كنتُ لأفاتحك خلاف ذلك؟ لا تفهم الفكرة بأنني أُفاتحك على أساس عينيك الجميلتين».

«ألستَ صادقاً جداً إلى حدّ ما؟»

«هل يجب أن أكرر بأنه ليس هناك مثل هذه الأشياء؟ ما علاقة هذا بالصدق أو عدم الصدق؟ أنا أسأل، وأنت تجيب، ومن ثم وداعاً. بقدر تعلق الأمر بي يمكنك حتى العودة إلى البيت، وبأسرع ما تشاء».

«أليس من الأفضل أن نلتقي في وقت آخر؟ وفي ساعة أكثر ملاءمة؟ في مقهى مثلاً؟ إلى جانب ذلك، إن خطيبتك غادرت قبل بضع دقائق ليس إلاّ، ويمكنك اللحاق بها بسهولة، لقد انتظَرَتْك وقتاً طويلاً».

«لا!» صرختُ وسط ضجيج مرور الترام. «لن تهرب مني، فأنا أحبك أكثر فأكثر. كنتَ صيداً محظوظاً. أُهنئ نفسي».

وردًّا على كلامي قال: «أوه يا إلهي، أنت تمتلك قلباً سليماً، كما يقولون، ولكنك {تمتلك} رأساً من خشب. تدعونني صيداً محظوظاً، إلى أي مدىً يجب أن تكون محظوظاً! إذ إن سوء حظي متوازن توازناً قلقاً وعندما تلمسه يقع على رأس المستجوِب. وعليه: طابت ليلتك.»

«حسناً»، قلت، وأنا أُفاجئه وأمسك بيده. «إذا لا تريد أن تجيب من تلقاء نفسك، فإنني سوف أُجبرك. سوف أتبعك أينما تذهب، يميناً أو شمالاً، حتى وأنت صاعد في السلّم إلى غرفتك، وفي غرفتك سوف أجلس، حيثما كان هناك مجال. امضِ على رسلك إذن، وابقَ محدِّقا فيَّ، وأنا يمكنني أن أتحمّل ذلك. ولكن كيف» ـ خطوتُ بالقرب منه ولأنه كان أطول فقد تحدثتُ عند رقبته ـ «كيف تستجمع الشجاعة لإيقافي؟»

عندها، تراجعتُ إلى الخلف، وقام بتقبيل يديّ بالتعاقب، وسقاهما بدموعه. «لا أحد يستطيع أن يُنكر عليك أي شيء. وكما عرفتَ أنني أريد العودة إلى البيت، وكنت أعرف حتى في وقت سابق بأنني لا أستطيع أن أنكر عليك أي شيء. كل ما أطلبه هو أننا نذهب إلى هناك في الشارع الجانبي. «أومأتُ برأسي موافقاً وذهبنا. حينما فصلتنا عربةٌ وبقيتُ في الخلف، أشار إليَّ بكلتا يديه، ليحثّني على الإسراع.

لكن عندما كنت هناك، غير راضٍ بظلام الشارع حيث كانت المصابيح بعيدة جداً عن بعضها البعض، وتقريباً مرتفعة كارتفاع الطابق الأول، فقد قادني إلى مدخل منخفض لمنزل قديم وتحت مصباح صغير معلّق متدلٍ أمام السلّم الخشبي.

وإذ ينشر منديله على التجويف في درجة سلم بالية، دعاني إلى الجلوس: «من السهل بالنسبة لك أن تطرح الأسئلة جالساً. وأنا سأظل واقفاً، فإنه من السهل بالنسبة لي أن أجيب. ولكن لا تعذبني!»

جلست لأنه أخذ كل شيء على محمل الجد، ولكن مع ذلك شعرتُ بأنه لابد لي أن أقول: «لقد دفعتني إلى هذا الموقف كما لو أننا متآمرون، بينما أنا متمسّك بك ببساطة بسبب الفضول، وأنت متمسّك بي بسبب الخوف. في الواقع، كل ما أريد أن أسأله هو لماذا تصلي بهذا الشكل في الكنيسة. والطريقة التي تستمر بها! كمعتوه مطلق! كم سخيف كل هذا، كم يكون مقبضاً للناظرين، كم هو لا يطاق بالنسبة للورعين»

وكان قد ضغط جسده على الجدار، ولم يتحرّك سوى رأسه ببطء في الفضاء. «أنت على خطأ! الورعون يرون سلوكي طبيعياً، والآخرون يرونه ورعاً».

«انزعاجي يثبت بأنك مخطئ.»

«انزعاجك ـ على افتراض أنه حقيقي ـ يثبت فقط بأنك لا تنتمي إلى الورعين ولا إلى الآخرين».

«أنت على حق. كنت أُبالغ عندما قلتُ بأن سلوكك أزعجني؛ لا، أثار فضولي كما ذكرتُ ذلك بشكل صحيح في البداية. لكنك، إلى أي جماعة تنتمي؟»

«أوه، أنا فقط احصل على المتعة من مراقبة الناس لي، وأنا من حين إلى آخر ألقي ظلاً على المذبح، إذا جاز التعبير».

«متعة؟» سألتُ، متجهماً.

«لا، إذا تريد أن تعرف. لا تغضب عليّ بسبب التعبير عن ذلك بطريقة خاطئة. إنها ليست متعة بالنسبة لي إنها حاجة. حاجة تتيح لنفسي أن تتسمّر لمدة ساعة وجيزة بواسطة تلك العيون، في حين أن البلدة كلها حولي ـ»

«ما هذه الأشياء التي تقولها!» صرختُ بصوت عال جداً بسبب الملاحظة التافهة والمدخل المنخفض، لكنني خشيتُ من الركون إلى الصمت أو إخفاض صوتي. «حقاً، ما هذه الأشياء التي تقولها! الآن أنا أدرك، والله، بأنني خمّنت منذ البداية الحالة التي أنت فيها. أليس هذا ما يشبه الحمى، دوار البحر على اليابسة، وهو نوع من الجذام؟ ألا تشعر بأن هذه الحمى هي التي تمنعك من أن تكون بشكل صحيح راضياً عن الأسماء الحقيقية للأشياء، وأنه الآن، في عجلتك المحمومة، فقط ترشقهم بأية أسماء قديمة؟ لا يمكنك أن تفعل ذلك بسرعة كافية. ولكن بالكاد تهرب بعيداً عنهم عندما نسيتَ الأسماء التي قدمتَها لهم. شجرة الحور في الحقول، التي تسميها «برج بابل» لأنك لم ترد أن تعرف بأنها شجر حور، تترنح مرة أخرى دون اسم، لذلك عليك أن تسميها «نوح في فناجينه».

قاطعني: «أنا سعيد أنني لم أفهم كلمة من تلك التي قلتها.»

وأنا مستثشاط غضباً، قلتُ بسرعة: «سعادتك بذلك تثبت بأنك فهمته».

«الم أقل ذلك من قبل؟ لا يستطيع أحد أن ينكر عليك أي شيء.»

وضعتُ يديَّ على درجة فوقي، انحنيتُ إلى الخلف، وفي هذا الموقف الحصين، الملاذ الأخير للمصارع، سألتُ: «عفواً، ولكن أن ترمي عليّ التفسير الذي أعطيتك إياه فهذا ينمّ عن النفاق».

في هذا الموقف أصبح جريئاً. من أجل إعطاء جسمه ترابطاً فقد شبكَ يديه معاً وقال بشيء من التردد: «أنت استبعدتَ الخلافات حول عدم الصدق منذ البداية. حقاً، إنني لم أعد مهتماً بأي شيء سوى إعطائك التفسير السليم لطريقتي في الصلاة. هل تعرف لماذا أُصلي بهذا الشكل؟»

كان يضعني على المحك. لا، لم أكن أعرف، ولا أريد أن أعرف. كما أنني لم أردْ أن آتي إلى هنا، قلت لنفسي، إلاّ أن هذا المخلوق قد أجبرني عملياً على الاستماعَ إليه. لذلك كل ما كان عليّ القيام به هو أن أهز رأسي وسيكون كل شيء على ما يرام، لكن في هذه اللحظة كان هذا ما لا يمكنني القيام به. ابتسمَ المخلوق قبالتي. ثم جثمَ على ركبتيه وقال بعبارة ناعسة: «الآن أستطيع أن أقول لك أخيراً لماذا سمحتُ لك أن تبادرني. بدافع الفضول، بدافع الأمل. كان تحديقك يواسيني لفترة طويلة. كما آمل أن أتعلم منك كيف تسير الأمور حقاً، لماذا تغرق الأشياء من حولي بعيداً مثل ثلج متساقط، في حين بالنسبة لأشخاص آخرين حتى كوب صغير من المسكرات يقف على الطاولة ثابتاً كالتمثال».

وبينما بقيتُ صامتاً حيث عبرتْ وجهي ارتعاشة لا إرادية، سألَ: «إذن أنت لا تعتقد بأن هذا يحدث للناس الآخرين؟ هل أنت حقاً لا تعتقد بذلك؟ أصغِ، إذن. عندما كنت طفلاً فتحتُ عينيَّ بعد قيلولة وجيزة بعد الظهر، ولمّا أزل غيرَ متأكد تماماً بأنني على قيد الحياة، سمعتُ والدتي من على الشرفة تسأل بنبرة صوت طبيعية: «لماذا تفعل يا عزيزي؟ يا سبحان الله، أليس الجو حاراً؟ ومن الحديقة أجابت امرأة: «بالنسبة لي، أنا أتناول الشاي على العشب». تحدثتا عرضاً وليس بشكل واضح، كما لو أن هذه المرأة كانت تتوقع السؤال، ووالدتي {تتوقع} الإجابة».

ولشعوري بأن هذا يتطلب جواباً، وضعتُ يدي في جيب الورك لسروالي كما لو أنني كنتُ أبحث عن شيء ما. في الواقع، لم أكن أبحث عن أي شيء، فقط تمنيتُ أن أغيّر مظهري من أجل إظهار الاهتمام في المحادثة. أخيراً قلتُ بأنني ظننتُ هذا هو أبرز حادث وأنني لا يمكن أن أفهم منه شيئاً. كذلك أضفتُ بأنني لم أعتقد بأن هذا صحيح، وأنه يجب أن يكون قد اخترع لسبب خاص لم يكن هدفه واضحاً بالنسبة لي الآن. ثم أغمضتُ عينيَّ من أجل أن أحجب الضوء المزعج.

«حسناً، أليس ذلك مشجعاً! وإذ تتفق معي، وتفاتحني لتقول لي بأن ذلك نابع من الكرم المطلق، فإنني أخسر أملاً واحداً وأكسب آخر.

«لماذا، بعد كل هذا، عليّ أن أشعر بالخجل من عدم السير منتصباً وأخطو خطوات طبيعية، ومن عدم ضرب الرصيف بعصاي، وعدم مس ملابس الناس الذين يمرّون

بشكلٍ صاخب؟ ألا يحق لي أن اشتكي بمرارة من الحاجة إلى أن أتخطى المنازل كظلّ بلا معالم واضحة، متخفياً أحياناً في أضلاف نوافد الدكان؟

«أوه، يا لها من أيام مروعة تلك التي لا بد لي أن أعيشها! لماذا كل شيء مبنيّ بشكل سيء للغاية لدرجة أن المنازل العالية تنهار بين الحين والآخر دونما سبب واضح؟ في هذه المناسبات أتسلق فوق الأنقاض، سائلاً كل شخص التقيه: «كيف حصل ذلك؟ في بلدتنا ـ منزل جديد ـ كم هو عددها اليوم؟ ـ فقط فكرْ بالأمر!» ولا أحد يمكنه أن يعطيني جواباً.

«كثيراً ما يقع الناس في الشارع ويرتمون هناك موتى. في كل متجر يفتح الناس أبوابه المحمّلة بالسلع، يهمّون بالخروج على عجل، ينقلون الموتى إلى المنزل، ويخرجون مرة أخرى تعلوهم الابتسامات، ثم تبدأ الثرثرة: «صباح الخير ـ إنه يوم ممل ـ إنني أبيع أية كمية من المناديل ـ آه نعم، إنها الحرب». أندفع إلى داخل المنزل، وبعد أن أرفع يدي عدة مرات على استحياء بإصبعي الملتوي، أضرب أخيراً على نافذة البوّاب الصغيرة: أقول «صباح الخير أعرف أن رجلاً ميتاً حُمِل إلى هنا للتو. هل ستتكرّم وتسمح لي أن أراه؟» وعندما يهزّ رأسه كما لو أنه غير قادر على اتخاذ قراره، أضيف: «حذار، فأنا عضو في الشرطة السرية وأصرّ على رؤية الرجل الميت في الحال! الآن لم يعد متردداً. «اخرجْ!»، يصرخ في وجهي. «من عادة هؤلاء الرعاع التلصّص هنا كل يوم. ليس ثمة رجل ميت هنا. ربما في الغرفة المجاورة». أرفعُ قبعتي وأذهب.

«لكن بعد ذلك، عند اضطراري إلى عبور ساحة واسعة، أنسى كل شيء. عندما يتحتّم على الناس بناء مثل هذه الساحات الضخمة انطلاقاً من طيش محض، إذن لماذا لا يبنون سوراً حولها كذلك؟ اليوم ثمة هبوب ريح جنوبية غربية. النهاية المستدقة لبرج قاعة المدينة تتحرك بدوائر صغيرة. وجميع زجاج النوافذ تطقطق، وأعمدة الإنارة تنحني مثل الخيزران. بينما عباءة السيدة مريم العذراء تلتف حول عمودها والرياح تتجاذبها. ألم يلاحظ هذا أحد ما؟ والسيدات والسادة الذين ينبغي عليهم المشي على الرصيف كانوا يتقلبون. وعندما تقل حدّة الرياح يقفون ساكنين، ويتفوهون بعدد قليل من الكلمات، وينحنون لبعضهم بعضا، لكن حينما تشتد الرياح مرة أخرى يصبحون عاجزين، وجميع أقدامهم تترك الأرض في الوقت نفسه. وبرغم أنهم ملزمون بالتمسك بقبعاتهم، فإن عيونهم تومض بفرح غامر، إذ لا أحد لديه أدنى خطأ في أن يتذمّر من الطقس. أنا الوحيد الذي يخاف».

إزاء ذلك كنت قادراً على القول: «إن تلك القصة التي أخبَرْتَني إياها في وقت سابق عن والدتك والامرأة في الحديقة أنا حقاً لم أجدها مثيرة جداً. ليس فقط لأنني سمعت وشهدت قصصاً كثيرة من هذا القبيل، بل أنني أيضاً اشتركتُ في بعضها. الأمر برمّته طبيعي تماماً. هل تعني حقاً أنك تشير إلى أنني لو كنت في تلك الشرفة في فصل الصيف، لما سألتُ السؤال نفسه وأعطيتُ الإجابة من خلال الحديقة؟ وهذا حدث عادي تماماً!»

بعد أن قلتَ هذا، بدا مرتاحاً أخيراً. أخبرني بأنني حسن الهندام وأنه يحب كثيراً ربطتي. وأملك سحنة جميلة. وتلك الاعترافات أصبحت مفهومة أكثر عندما تراجعوا.

ج. قصة المتوسل

ثم جلس بجانبي، لأنني قد أصبحتُ خجولاً و، بينما أحني رأسي إلى الجانب، خصُّصت غرفة له. مع ذلك، فإنه لم يغب عني أنه أيضاً كان يجلس هناك محرجاً نوعاً ما، محاولاً أن يبقى على مسافة مني ويتحدث بصعوبة:

«أوه، يا لها من أيام مروعة تلك التي لا بد لي أن أعيشها! الليلة الماضية كنت في حفلة. كنت انحني لسيدة شابة في ضوء الغاز وأقول: «أنا سعيد للغاية بقدوم الشتاء» ـ كنت أنحني وأنا أقول هذه الكلمات عندما لاحظتُ منزعجاً بأن فخذي الأيمن قد انزلق من رباطه. كما أن صابونة الركبة قد أصبحت أيضاً مرتخية قليلاً.

«وهكذا جلستُ، ولأنني كنت دائماً احاول السيطرة على عباراتي، قلت: «كون الشتاء يتطلب جهداً أقل بكثير؛ فإنه من السهل أن تريح نفسك، إذ لا ينبغي للمرء أن يدخل في الكثير من المتاعب بسبب كلماته. الا توافقين على ذلك، يا آنستي؟ ويحدوني الأمل بأنني على حق بشأن هذا». ساقي اليمنى الآن تسبب لي الكثير من المتاعب. في البداية بدت أنها تتفكك قطعاً، وبشكل تدريجي تمكنتُ من إرجاعها إلى ما كانت عليه عن طريق التحريك وإعادة الترتيب الدقيق.

«ثم سمعتُ الفتاة، التي، بسبب التعاطف، قد جلستْ أيضاً، تقول بصوت خفيض: «لا، أنت لا تستهويني على الإطلاق لأن ـ ».

«لحظة من فضلك»، قلتُ، وأنا سعيد وتملأني الآمال، «يجب أن لا تضيّعي حتى ولو بقدر خمس دقائق وأنتِ تتحدثين معي، آنستي العزيزة. رجاءً تناولي شيئاً ما حينما تتحدّثين، أتوسّل إليكِ».

«وأنا أُمدّد ذراعي أخذتُ قبضة كبيرة من العنب الذي يتدلى بثقله من وعاء قائم بواسطة كيوبيد برونزي مجنّح، لوُّحت به للحظة في الهواء، ومن ثم وضعته على لوح أزرق صغير سلّمته إلى الفتاة، بشكل لا يخلو من بعض الأناقة، أنا على ثقة.

قالت، «أنت لا تستهويني على الإطلاق». كل ما تقوله ممل و غير مفهوم، لكن هذا وحده لا يجعله صائباً. ما أفكّر به حقاً يا سيدي ـ لماذا تدعونني دائماً بآنستي العزيزة؟ ـ هل أنك لا يمكن أن تنزعج من الحقيقة لمجرد كون تلك الحقيقة متعِبة للغاية».

«يا إلهي، كم جميل ذلك الشعور الذي أعيشه! «نعم، آنستي، آنستي! صرختُ تقريباً، «كم أنتِ محقّة! آنستي العزيزة، ليتك تعرفين ما الفرح الغامر إذ أجد امرءا متفهماً جيداً ـ ومن دون بذل أي جهد!»

«ليس هناك شك، يا سيدي، بأنه بالنسبة لك تكون الحقيقة متعِبة جداً. فقط انظر إلى نفسك! إن طولك بأجمعه قد قُدَّ من مناديل ورقية، مناديل ورقية صفراء، مثل

صورة ظلية، وعندما تمشي لا بد للمرء أن يسمع حفيف مشيك. لذلك ينبغي للمرء أن لا ينزعج من موقفك أو رأيك، لأنه لا يسعك إلاّ الانحناء أمام أي تيار يصادف أن يكون في الغرفة.»

«أنا لا أفهم ذلك. صحيح أن العديد من الناس يقفون هنا في هذه الغرفة. إنهم يضعون أذرعتهم على خلفيات الكراسي أو أنهم يتكئون على البيانو أو أنهم يرفعون كأساً بشكل مؤقت إلى أفواههم أو أنهم يمشون على استحياء في الغرفة المجاورة، بعد أن يضربوا أكتافهم اليمنى بخزانة في الظلام، فإنهم يقفون ليتنفسوا بجانب النافذة المفتوحة ويتفكرون: هناك فينوس، نجمة المساء. مع ذلك أنا ههنا، بينهم. إذا كان هناك اتصال، فإنني لا أفهمه. ولكنني لا أعرف حتى إن كان هناك اتصال. ـ وإنكِ ترين، آنستي العزيزة، من كل هؤلاء الناس الذين يتصرفون بتردد، بسخف كبير نتيجة ارتباكهم، فإنني وحدي أبدو استحق سماع الحقيقة عن نفسي. ومن أجل جعل هذه الحقيقة أكثر قبولاً فإنكِ تضعينها بطريقة ساخرة حتى يبقى هناك شيء ما ملموس، كالجدران الخارجية للمنزل الذي دُمرت أجزائه الداخلية. فلا شيء يكاد يعرقل العين؛ ففي النهار يمكن رؤية السحب والسماء من خلال الثقوب الكبيرة في النافذة، وفي الليل تُرى النجوم. لكن الغيوم غالباً ما تقدّ من الأحجار الرمادية، بينما النجوم تشكّل أبراجاً غير طبيعية. ـ كيف سيكون الأمر لو كنتُ في المقابل سأخبركِ بأنه ذات يوم بأن أي شخص يريد أن يعيش يبدو يشبهني ـ أي قُدّ من مناديل ورقية، مثل صور ظلية، كما أشرتِ ـ وعندما يمشون فأنه سوف يُسمع حفيف مشيهم؟ لا يعني ذلك بأنهم سيكونون مختلفين عما هم عليه الآن، ولكن هذا هو ما يبدون عليه. حتى أنتِ، يا آنستي العزيزة ـ ».

«ثم لاحظتُ بأن الفتاة لم تعد تجلس بجانبي. لابد أنها غادرت بعد وقت قصير من التفوّه بكلماتها الأخيرة، فهي الآن تقف بعيداً عني بجانب نافذة، محاطة بثلاثة شبّان كانوا يتحدثون ويضحكون بياقاتهم البيض العالية».

«لذلك بسعادة شربتُ كأساً من النبيذ ومشيتُ إلى عازف البيانو الذي، كان وحيداً تماماً ويومئ إلى نفسه، صادف أن يعزف شيئاً ما حزيناً. انحنيتُ بعناية إلى أذنه حتى لا أخيفه وهمستُ في اللحن: «كونوا لطفاء جداً، يا سيدي، واسمحوا لي أن أعزف الآن، لأنني أشعر ببداية سعادتي الآن».

«ولأنه لم يعرني أي اهتمام، وقفتُ هناك لفترة من الوقت محرجاً، ولكن بعد ذلك، بعد التغلب على ترددي، مضيتُ من ضيف إلى آخر، قائلاً بلا تكلّف: «اليوم أنا سأعزف على البيانو. نعم.»

«يبدو أن الجميع يعرفون بأنني لا يمكنني العزف، لكنهم ابتسموا بطريقة ودية، وسُرّوا لهذه المقاطعة الجميلة لحديثهم. لم يعيروني اهتماماً مناسباً إلاّ عندما قلتُ لعازف البيانو بصوت عالٍ جداً: «اسدِ لي معروفاً، يا سيدي، بالسماح لي بالعزف الآن. بعد كل هذا، أنا فقط بدأتُ أشعر بالسعادة. الانتصار على المحك».

«على الرغم من أن عازف البيانو توقف، فإنه لم يترك مقعده البني ولا يبدو يفهمني. تنهّد وغطّى وجهه بأصابعه الطويلة.

«تأسَّفت عليه، وكنت على وشك أن أشجّعه على الاستمرار في العزف عندما اقتربت المضيفة مع مجموعة من الناس.

«تلك مصادفة مضحكة»، قالوا وضحكوا بصوتٍ عالٍ كما لو أنني على وشك أن أفعل شيئاً غير طبيعي.»

«انضمت الفتاة إليهم أيضاً، نظرتْ إليّ بازدراء، وقالت: «من فضلكِ، سيدتي، اسمحي له بالعزف. ربما كان يريد تقديم بعض المساهمات على سبيل التسلية. لابد من تشجيعه. الرجاء السماح له».

«ضحك الجميع، معتقدين على ما يبدو، كما اعتقدتُ أنا، بأن القصد من ذلك هو السخرية. فقط عازف البيانو كان صامتاً. وهو يخفض رأسه، أخذ يضرب خشب المقعد بسبابة يده اليسرى، كما لو أنه يقوم بتصاميم في الرمال. بدأتُ أرتجف، ومن أجل إخفاء ذلك، أقحمتُ يديّ في جيوب بنطلوني. كما أنني لم أتمكن أن أتحدث بوضوح أكثر من ذلك، لأن وجهي كله أراد أن ينتحب. وهكذا اضطررتُ إلى اختيار الكلمات بطريقة بحيث إن فكرة رغبتي في البكاء ستبدو سخيفة بالنسبة للمستمعين.

قلتُ، «سيدتي. يجب أن أعزف الآن لأنه ـ». وبينما كنت قد نسيتُ السبب فأنني جلستُ فجأة إلى البيانو. ومن ثم تذكرتُ مرة أخرى. وقف عازف البيانو وصعد بخفّة على المقعد، لأنني كنت أسدّ طريقه. «رجاءً اطفؤوا الضوء، فأنا لا يمكنني العزف إلاّ في الظلام». عدَّلت من وقفتي.

«في تلك اللحظة مسك المقعد سيدان و، بينما هما يترنمان بأغنية ويطوّحون بي جيئة وذهاباً، حملاني بعيداً عن البيانو إلى مائدة الطعام.»

«كان الجميع يشاهد باستحسان فقالت الفتاة: «ترين، يا سيدتي، إنه عزفَ بشكل جيد للغاية. كنت أعرف أنه سيعزف. وكنتِ قلقة جداً».

«فهمتُ وشكرتُها بانحناءة، نفّذتها بشكل جيد.»

«سكبوا لي شيئاً من عصير الليمون فيما قامت فتاة بشفتين حمراوين بحمل كأسي وأنا أشرب. وقدّمتْ لي المضيفة الحلوى على صينية من الفضة وفتاة ترتدي بدلة ناصعة البياض وضعت الحلوى في فمي. فتاة أخرى، شهوانية وذات شعر أشقر، كانت تحمل قبضة من العنب فوقي، وكان كل ما يمكنني القيام به هو التقاطها بشفتيّ بينما كانت تحدق في عينيّ الذابلتين.

«لأن الجميع كان يعاملني بشكل جيد فقد فوجئت قليلاً بأنهم أجمعوا على صدّي مرة أخرى عندما حاولت العودة إلى العزف على البيانو.»

«وهذا يكفي الآن»، قال المضيف، الذي لم أكن قد لاحظته من قبل. خرجَ وعاد على الفور بقبعة رسمية ضخمة ومعطف نحاسي بنّي ذي تصميم منمق. «هذه هي أشياؤك.»

لم تكن هذه أشيائي، بالطبع، لكنني لم أكن أريد أن أضعه في ورطة النظر مرة أخرى. ساعدني المضيف في المعطف الذي كان لائقاً بشكل جميل، متشبثاً بإحكام على جسدي النحيل. وهي تتحني ببطء، ثمة سيدة ذات وجه عطوف زرّرتْ المعطف من الأعلى إلى الأسفل.

«وداعاً»، قالت المضيفة، «وعُدْ قريباً. تعرف بأنك دائماً مرحٌّب بك». عندها انحنى الجميع كما لو كانوا يعتقدون بأن ذلك ضروري. حاولتُ أن أحذو حذوهم، إلاّ أن معطفي كان ضيقاً جداً. لذلك أخذت قبعتي و، بشكل مرتبك بلا شك، خرجتُ من الغرفة.»

«لكنني عند مروري من خلال الباب الأمامي بخطوات قصيرة تعرُّضت إلى الهجوم من السماء عن طريق القمر والنجوم وفسحة مقببة كبيرة، ومن مقعد الصف الأول في الحلبة عن طريق دار البلدية، وعمود العذراء، والكنيسة.»

«مشيت بهدوء من الظل إلى ضوء القمر، وفككتُ أزرار معطفي، وادفئتُ نفسي؛ ثم وضعتُ حداً لطنين الليل عن طريق رفع يديّ، وبدأتُ أُفكّر على النحو التالي:

«ما الذي يجعلكم جميعاً تتصرفون كما لو كنتم حقيقيين؟ هل تحاولون أن تجعلونني أعتقد بأنني غير حقيقي، واقفاً هنا بشكل سخيف على الرصيف الأخضر؟ أنتِ، أيتها السماء، من المؤكد مرّت فترة طويلة مذ كنتِ حقيقية، وأما بالنسبة لك، أيتها الحلبة، فلم تكوني أبداً حقيقية.

«هذا صحيح، كنتم جميعاً وما زلتم تتفوقون عليّ، ولكن فقط عندما أترككم وحدكم.»

«الحمد لله، أيها القمر، أنت لم تعد قمراً، ولكن ربما بسبب إهمال مني أنني مستمر بدعوتك قمراً، قمراً. لماذا تنخفض معنوياتك عندما أدعوك «فانوساً ورقياً منسياً ذا لون غريب»؟ ولماذا تنسحب تقريباً عندما أدعوك «عمود العذراء»؟ أما بالنسبة لك، يا عمود مريم العذراء، فإنني بالكاد أُميّز موقفك المهدّد عندما أدعوك «قمر يُلقي ضوءً أصفر».

«يبدو لي حقاً بأن التفكير بك لا يقدّم لك أي خير؛ كنت تفتقد إلى الشجاعة والصحة.»

«يا إلهي، كم مربحاً سيكون الأمر إذا يستطيع المفكّر أن يتعلم من السكران!»

«لماذا أصبح كل شيء هادئاً جداً؟ أعتقد بأن الرياح قد هدأت. والبيوت الصغيرة التي غالباً ما تتمايل عبر الساحة وكأنها على عجلات صغيرة تكون متجذرة في المكان ــ هادئة ــ هادئة ــ لا يستطيع المرء أن يرى حتى خطاً أسود رفيعاً يُستخدم لفصلها عن الأرض.»

«وبدأت في الجري. ركضتُ دون عوائق ثلاث مرات حول الساحة الكبيرة، ولأنني لم ألتقِ سكراناً استمريتُ في الجري نحو زقاق تشارلس دون إبطاء ومن دون أي

جهد. ظلي، الذي هو غالباً أصغر مني، ركض بجانبي على طول الجدار كما لو في ممر ضيق بين الجدار ومستوى الشارع.»

«عندما مررت بمحطة الإطفاء سمعتُ ضوضاء قادمة من الحلقة الصغيرة، وعندما التفتُّ إلى ذلك رأيتُ سكراناً يقف بجانب السياج الحديدي من النافورة، كانت ذراعاه خارجتين بشكل جانبي وقدماه في حذاء خشبي يضرب الأرض.»

«وإذ أقف لالتقاط أنفاسي، صعدتُ إليه، ورفعتُ قبعتي الرسمية، وقدّمت نفسي:

«مساء الخير، أيها النبيل اللطيف، أنا في الثالثة والعشرين من العمر، ولكن حتى الآن أنا بلا اسم. لكنك، بلا شك، تتحدر من المدينة العظيمة باريس ـ تحمل أسماء غير عادية، وفريدة تقريباً. كنتَ محاطاً بالرائحة غير الطبيعية جداً للمحكمة الماجنة لفرنسا. لا شك بأن عينيك الملونتين كانتا تشاهدن تلك السيدات العظيمات الواقفات على الشرفة العالية المشرقة، اللائي يلوين بشكل مضحك خصورهن الضيقة في حين ماتزال نهايات ثيابهن المزينة، المنتشرة على المدرجات، ملقاة على الرمال في الحديقة. ـ وبالتأكيد، العبيد الذين يرتدون سترات رمادية مفصّلة بجرأة و سراويل بيضاء إلى الركب يتسلقون أعمدة طويلة، وسيقانهم تحتضن تلكم الأعمدة لكن جذوعهم غالباً ما تنحني إلى الوراء وإلى الجانب، لأنها لابد أن ترفع شراشف كتانية رمادية هائلة بعيداً عن الأرض بحبال سميكة وتنشرها في الهواء، لأن السيدة العظيمة أعربت عن رغبتها في صباح ضبابي.»

«عندما تجشأ شعرتُ بالخوف تقريباً. «هل هذا صحيح حقاً، يا سيدي»، قلتُ، «بأنك تتحدر من باريسنا، من باريس العاصفة تلك ـ آه، من عاصفة الثلج المترف تلك؟»

«وعندما تجشّأ مرة أخرى، قلتُ بإحراج: «أعرف، أنه لشرف عظيم ذلك الذي تسبغه عليّ.»

«وبأصابع رشيقة قمتُ بتزرير معطفي؛ ثم بحماس وباستحياء مع ذلك قلتُ: «أنا أعلم بأنك لا تنظر لي بأنني أستحق جواباً، ولكن إذا لم أسألك اليوم فإن حياتي ستنقضي في البكاء. أنا أسألك يا سيدي الكبير، هل هو صحيح ما قيل لي؟ هل هناك أناس في باريس ممن يرتدون الباذخ من الملابس، وهل هناك منازل هي مجرد بوابات، وهل صحيح أنه في أيام الصيف تكون السماء فوق المدينة زرقاء عابرة منمقة فقط بسحب بيضاء صغيرة ملتصقه بها، وكلها على شكل قلوب؟ وهل يكون فيها بانوبتيكون ذا شعبية كبيرة هناك لا يحتوي سوى على أشجار مثبّت عليها لويحات صغيرة تحمل أسماء الأبطال الأكثر شهرة، والمجرمين، والعشاق؟

«ومن ثم هذا الخبر الآخر! وهذا خبر ملفق بشكل واضح! شوارع باريس هذه، على سبيل المثال، فإنها تتفرع فجأة، أليس كذلك؟ إنها مضطربة، أليس كذلك؟ الأمور ليست دائماً كما ينبغي أن تكون، فكيف يمكن أن تكون، بعد كل هذا؟ أحياناً ثمة حادثة، ويجتمع الناس معاً من الشوارع الجانبية بذلك الخطو الحضري الذي لا يكاد يمس الرصيف؛ إنهم جميعاً يملؤهم الفضول، ولكن أيضاً يملؤهم الخوف من خيبة

أمل؛ يتنفسون بسرعة ويمدّون رؤوسهم الصغيرة. ولكن عندما يلمسون بعضهم بعضا فأنهم ينحنون ويعتذرون: «أنا آسف جداً ـ لم أقصد ذلك ـ ثمة زحام كبير؛ سامحني، أتوسل إليك ـ كان ذلك عمل اخرق بدرَ مني، أعترف بذلك. اسمي هو ـ اسمي هو جيروم فاروشي، أنا بقّال في شارع دي كابوتن ـ اسمح لي بدعوتك لتناول طعام الغداء غداً ـ زوجتي أيضاً ستكون سعيدة لذلك».

«لذلك يمضون في الحديث بينما يمتد الشارع شملاً والدخان المتصاعد من المداخن يقع بين المنازل. هذا ما يبدو عليه الأمر. ولكن قد يحدث بأن عربتين تتوقفان في شارع مزدحم لحيّ مميز. ويقوم عبيد عليهم سيماء الجد بفتح الأبواب. ثمانية كلاب ذئبية سيبيرية أنيقة تأتي تثب وتتقافز وهي تنبح عبر الشارع. ويقال بأنهم شبّان متأنقون باريسيون متنكرون».

«كانت عيناه مغلقتين تقريباً، وعندما صمتُّ، وضعَ كلتا يديه في فمه وسحبَ فكه السفلي. كانت ملابسه مغطاة بالأوساخ. ربما كان قد ألقي به خارج إحدى الحانات ولم يدرك ذلك حتى الآن.»

«ربما كان ذلك سكون هادئ قصير بين الليل والنهار عندما تتدلى رؤوسنا إلى الخلف بشكل غير متوقع، عندما يصمت كل شيء من دون أن نعرف ذلك، وبما إننا لا ننظر إليه، ومن ثم يختفي؛ نبقى وحيدين، أجسادنا منحنية، ثم ننظر حولنا ولكن لم نعد نرى أي شيء، ولا حتى نشعر بأية مقاومة في الهواء ولو من الداخل نحن نتشبث بالذاكرة التي على مسافة معينة منا تقف منازل ذات أسقف وذات مداخن زاويّة لحسن الحظ يتسرّب الظلام أسفلها عبر الغرف العليا إلى غرف مختلفة. ومن حسن الحظ أنه غداً سيكون يوماً، من غير المحتمل كما قد يبدو، يستطيع فيه المرء أن يرى كل شيء.

«الآن هزّ السكران حاجبيه بحيث ظهر سطوع بينهما وبين عينيه، وأوضح بشكل متقطع: «الأمر مثل هذا، كما ترى ـ أنا نعسان، كما ترى، ولهذا السبب أنا سأنام. ـ كما ترى، لدي نسيب في ساحة فاتسلاف ـ هذا هو المكان الذي أنا ذاهب لأعيش فيه هناك، أنا ذاهب إلى حيث سريري ـ لذلك سأنطلق ـ. لكنني لا أعرف اسمه، كما ترى، أو أين يعيش ـ يبدو أنني نسيت ـ لكن لا يهم، ذلك لأنني لا أعرف حتى إن كان لدي نسيب بالمرة. ـ لكنني سأنطلق الآن، كما ترى ـ. هل تعتقد بأنني سوف أجده؟»

«إزاء ذلك، ودون تفكير، قلتُ: «ذلك من المؤكد. ولكنك قادم من الخارج وخَدَمك لا يصادف أن يكونوا معك. اسمحوا لي أن أريكم الطريق».

«لم يجب. لذلك قدُّمت إليه ذراعي، من أجل منحه بعض الدعم.»

د. استمرار المحادثة بين الرجل البدين والمتوسل

لبعض الوقت كنت أُحاول أن أسرّي عن نفسي. فركتُ جسدي وقلت لنفسي: «لقد حان الوقت أن تتحدث. فأنت أصبحتَ محرَجاً. هل تشعر بأنك مظلوم؟ فقط انتظر!

أنت تعرف هذه المواقف. فكرْ في الأمر مليًّا في وقت فراغك. فحتى المشهد سينتظر.

«إن هذ الشيء يشبه ما كان عليه في الحفلة الأسبوع الماضي. أحدهم يقرأ بصوت عالٍ من مخطوطة. وبناءً على طلبه قمت شخصياً بنسخ صفحة واحدة. عندما أرى كتابتي اليدوية بين الصفحات التي كتبها هو، ينتابني الخوف. إنها من دون أي ثبات. إذ إن الناس ينحنون عليها من ثلاثة جوانب من الطاولة. وبعينين مغرورقتين بالدموع، أقسم أن هذا ليس خط يدي».

«لكن ما هي العلاقة مع ما حصل هذا اليوم؟ الأمر برمّته منوط بك لبدء محادثة معقولة. كل شيء على ما يرام. فقط ابذل جهداً، يا صديقي! ـ من المؤكّد أن تواجه اعتراضاً. ـ يمكنك أن تقول: «أنا نعسان. عندي صداع. وداعاً». ثم اسرعْ! اسرعْ! كن متميَّزا! ـ ما هذا؟ مرة أخرى عقبات وعقبات؟ بماذا يذكرك هذا؟ ـ أتذكر هضبة عالية ارتفعت إلى السماء الواسعة كدرع إلى الأرض. رأيت ذلك من جبل وأعددتُ نفسي للتجوال خلاله. بدأتُ الغناء».

كانت شفتاي متيبستين وعصيتين كما قلت: «أما كان ينبغي أن تعيش بشكل مختلف؟»

«لا»، قال، وهو يتساءل، مبتسماً.

«ولكن لماذا تصلي في الكنيسة مساء كل يوم؟» سألتُ بعدها، في حين أن كل شيء بيني وبينه، الذي كان حتى ذلك الحين متماسكاً، قد انهار وكأنني أحلم.

«أوه، لماذا ينبغي أن نتحدث عن ذلك؟ إن الناس الذين يعيشون لوحدهم ليس لديهم أية مسؤولية في المساء. المرء يتخوف من عدة أمور ـ وهي إن جسد المرء يمكن أن يختفي، وأن البشر ربما يكونون حقاً على ما يبدون عليه في وقت الشفق، وإن المرء قد لا يُسمَح له بالمشي دون عصا، وإنه قد تكون فكرة جيدة الذهاب إلى الكنيسة والصلاة بأعلى صوت من أجل أن ينظر إليه الآخرون ويكتسب هيئة ما».

ولأنه تحدّث بهذه الطريقة ثم لاذ بالصمت، سحبتُ منديلي الأحمر من جيبي، وأحنيتُ رأسي، وبكيتُ.

وقفَ، وقبّلني، وقال: «ممَّ بكاؤك؟ أنت فارع الطول، أحب ذلك؛ تمتلك يدين طويلتين هما طوع بنانك؛ لماذا أنت غير سعيد بذلك؟ ارتدِ دائماً أكماماً داكنة، وهذه نصيحتي. ـ لا ـ أنا أُداهنك ومع ذلك أنت تبكي؟ أرى أن عليك التعامل بشكل معقول جداً مع ضنك العيش».

«نحن نبني آلات حربية عديمة الفائدة وأبراجاً وجدراناً وستائر من الحرير، ويمكن أن نعجب بكل هذا إيما إعجاب إذا كان لدينا الوقت. نحن معلّقون، لا نسقط، بل نرفرف، رغم إننا قد نكون أقبح من الخفافيش. وفي يوم جميل بالكاد يستطيع أي شخص أن يمنعنا من قول: «يا إلهي، ما أجمل هذا اليوم»، ذلك لأننا راسخون بهذه الأرض ونعيش بموجب اتفاق.

«ولأننا مثل جذوع الأشجار في الثلج. فهي غافية هناك أفقياً على الأرض كما يبدو للعيان، ويبدو الأمر كما لو أن بوسع المرء أن يزيحها بعيداً بركلة خفيفة. لكن لا، لا يمكن للمرء أن يفعل ذلك، لأنها متمسكة بقوة في الأرض. لذلك ترى حتى هذا هو مجرد شيء ظاهري».

الفكرة التالية منعتني من النشيج: «الوقت ليل ولا أحد سيعاتبني غداً لما يمكن أن أقوله الآن، لأن ذلك يمكن أن يقال أثناء نومي.»

ثم قلتُ: «نعم، هذا هو الأمر، ولكن عن ماذا كنا نتحدث؟ لم نكن نتحدث عن الضوء في السماء لأننا واقفون في ظلام المدخل. لا – كان يمكن أن نتحدث عن هذا، برغم ذلك، ألسنا غير أحرار في قول ما نرغب فيه في الحوار؟ مع ذلك، نحن لا نهدف إلى أي غرض محدد أو إلى الحقيقة، لكن ببساطة نهدف إلى إلقاء النكات وتزجية وقت طيب. ورغم ذلك، ألا تستطيع أن تسرد لي قصة الامرأة في الحديقة مرة أخرى؟ كم مثيرة للإعجاب، وكم ذكية هذه الامرأة! علينا الاقتداء بها. كم أنا مولع بها! لذلك فمن محاسن الصدف أنني قابلتك وانتظرتك كما فعلتُ الآن. لقد غمرني الحديث بفرحة كبيرة. لقد تعلمت العديد من الأشياء التي، ربما عن قصد، لم تكن معروفة لي حتى الآن. – أنا ممتنّ».

بدا مسروراً. ورغم أن الاتصال بجسم بشري هو دائماً ما يكون بغيضاً لي، فإنه لا يسعني إلاّ أن أحتضنه.

ثم خرجنا من الرواق تحت السماء. أبعدَ صديقي بعض الغمامات الصغيرة المتفرقة، مما سمح لسطح النجوم غير المتقطّع بالظهور. وسار بصعوبة.

4 - غرق الرجل البدين

والآن كان كل شيء محكوماً بالسرعة وبعيد المنال. فماء النهر انسحب باتجاه المنحدر، حاول المقاومة، التفّ قليلاً عند الحافة المنهارة، لكن بعد ذلك تحطمَ في دخان مُزبد.

لم يتمكن الرجل البدين من مواصلة الحديث، واضطر إلى التحول والتخفّي في الهدير العالي للشلال.

أنا، الذي خبرَ الكثير من التحولات السارّة، وقفتُ على الضفة وأخذتُ أُشاهد. «ما الذي يُفترَض أن تقوم به رئتانا؟» صرختُ. ثم صحتُ: «إذا تتنفسان بسرعة فسوف تخنقان نفسيهما بالسموم الداخلية؛ وإذا تتنفسان ببطء فإنهنّ سوف تختنقان بالهواء الذي لا يمكن تنفّسه. ولكن إذا يحاولان البحث عن إيقاعهما فإنهما سيهلكان بمجرد البحث».

وفي الوقت نفسه امتدت ضفاف النهر لتتجاوز كل الحدود، ومع ذلك لمستُ براحة يدي معدنَ لافتةٍ كانت تلمع بدقة في المسافة القصية. هذا حقاً لم أستطع أن أفهمه تماماً. برغم كل هذا فأنا كنتُ صغيراً، أصغر تقريباً من المعتاد، فشجيرة من الورد البري الأبيض بمجرد أن اهتزت بسرعة فائقة حتى أصبحتْ أكبر مني. هذا ما رأيته، إذ طيلة لحظةٍ خلت كان هذا قد حصل بالقرب منيٍ.

مع ذلك كنت مخطئاً، لأن ذراعيّ كانتا ضخمتين جداً ضخامة غيوم مطر البلاد الثابت، ما عدا أنهما كانتا أكثر تسرعاً. لا أعرف لماذا كانتا تحاولان سحق رأسي البائس. فهو لم يكن أكبر من بيضة نملة، لكنه مدمَّر تدميراً طفيفاً، وكنتيجة لذلك لم يعد دائرياً تماماً. قمتُ ببعض حركات التضرع، والالتواء، ذلك لأن تعبير عينيَّ لا يمكن ملاحظته، فقد كانتا صغيرتين جداً.

لكن ساقَيّ، ساقَيّ العصيّتين تقعان فوق الجبال المشجرة وأعطتا الظل إلى الوديان التي ترصّع القرية. كانتا تكبران وتكبران! وها هنّ وصلنَ إلى الفضاء الذي لم يعد يمتلك أي منظر طبيعي، ولبعض الوقت كان طولهما قد ذهب خارج مدى رؤيتي.

لكن لا، ليس الأمر كذلك ـ برغم كل شيء، أنا صغير، صغير في الوقت الحاضر ـ أنا أتدحرج ـ أنا أتدحرج ـ أنا انهيار جليدي في الجبال! من فضلكم، أيها المارة، هلاّ تكرّمتم وقلتم لي كم هو طولي ـ فقط قيسوا هذه الأذرع، وهذين الساقين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(III)

«دعوني أفكر»، قال أحد معارفي، الذي كان يرافقني منذ الحفلة وكان يسير الْهُوَيْنَا بجانبي على طريق حتى التلّ. «فقط قف ساكناً للحظة حتى أستطيع أن أفهم الأمر بوضوح. ــ لدي شيء ما لتسويته، كما تعرف. وهو وجود شيء من الإجهاد ــ الليل متألق، برغم برودته نوعاً ما، ولكن هذه الرياح الساخطة، تبدو أحيانا تغيّر موقع أشجار الأكاسيا.»

جعل القمر منزل البستاني يلقي بظلاله على الطريق المحدودب قليلا الذي تنتشر عليه بقع ضئيلة من الثلج. عندما رأيت المقعد الذي انتصب بجانب الباب، أشرتُ إليه بإصبع مرفوع، ولأنني لم أكن شجاعاً وكنت أتوقع التأنيب فقد وضعتُ يدي اليسرى على صدري.

جلس ضجراً، متجاهلاً ملابسه الجميلة، وأذهلني وهو يضغط مرفقيه على ركيه ويضع جبهته على أطراف أصابعه المرهقة.

«نعم، الآن أريد أن أقول هذا. كما تعرف، أنا أعيش حياة منتظمة. لا يمكن أن يشوبها أي خطأ، فكل شيء أقوم به يعدّ صائباً ويُوافق عليه عموماً. إن سوء الطالع، كما هو معروف في المجتمع الذي أتردد إليه، لم يدع لي مجالاً، كوني أنا ومَن يحيطني قد أدركنا ذلك بارتياح، وحتى حسن الحظ عموماً لم يخذلني فقد كنت شخصياً قادراً على الحديث عن ذلك في دائرة صغيرة من الأصدقاء. صحيح أنني حتى الآن لم أقع فعلاً في الحب. كنت أندم على ذلك من حين إلى آخر، لكنني كنت أستخدم هذه العبارة عندما كنت بحاجة إليها. والآن يجب أن أعترف: نعم، أنا واقع في الحب وإلى حد بعيد كنت أستشيط غضباً. أنا محب متحمس، بالضبط ما تحلم به الفتيات. لكن هل ينبغي أن لا أعدّ ذلك بأنه مجرد نقصي السابق هذا أعطى تحولاً استثنائياً وجميلاً، جميلاً على نحو خاص، إلى ظروفي؟»

«هدّئ من روعك»، قلتُ ذلك بلا اهتمام، مفكراً فقط بنفسي. «حبيبتك جميلة، وأنا لا يسعني إلاّ أن أسمع ذلك».

«نعم، إنها جميلة. وبينما أجلس إلى جوارها، فإن كل ما كنت أفكر فيه هو: يا لها من مغامرة ــ ألستُ جريئاً! ــ أذهب هناك للشروع في رحلة بحرية ــ وأشرب الخمر بالغالون. لكن عندما تضحك فإنها لا تُظهر أسنانها كما هو متوقع؛ بدلاً من ذلك، فكل الذي يراه المرء هو فتحة فم مظلمة، ضيقة، ومنحنية. الآن يبدو هذا ماكراً وخرفاً، رغم أنها تلقي رأسها إلى الخلف عندما تضحك».

«لا أستطيع أن أنكر ذلك»، قلت متنهداً. «ربما قد رأيته، أيضاً، لذلك لابد أن يكون هذا واضحاً. لكن الأمر لا يتعلق بذلك فحسب. إنه جمال الفتيات عموماً. في كثير من الأحيان عندما أرى فساتين ذات طيات، ورتوش، وكرانيش متعددة متشبثة بسلاسة بأجسام جميلة، يخيّل إليّ بأنهن لن يبقين على هذا النحو لفترة طويلة، وأنه سوف تغزوهن التجاعيد التي لا يمكن تسويتها، والغبار سوف يتجمع في الزكارش بشكلٍ كثيف جداً بحيث لا يمكن إزالته، وأنه ما من واحدة سوف تجعل نفسها بائسة

جداً ومثيرة للسخرية بحيث كل يوم ترتدي اللباس الثمين نفسه في الصباح وتخلعه في الليل. ومع ذلك أرى فتيات جميلات بما فيه الكفاية، وهنّ يعرضن جميع أنواع العضلات الجذابة والعظام الصغيرة والبشرة الناعمة وغابة من الشعر الناعم، ويظهرن كل يوم في الملابس الرائعة الطبيعية نفسها، ودائماً يجعلن الوجه نفسه في راحة اليد نفسها ويتركنه ينعكس في المرآة. فقط في بعض الأحيان في الليل، عند العودة في وقت متأخر من حفلة، يحدّق هذا الوجه فيهن من المرآة متعباً، ومتورماً، حيث شاهده جمع غفير من الناس، ولا يكاد يستحق الخروج به مرة أخرى».

«لقد سألتك عدة مرات ونحن نسير إنْ كنتَ وجدتَ فتاتي جميلة، لكنك دائماً تشيح بوجهك بعيداً بلا جواب. قل لي، هل تنوي إلحاق بعض الأذى؟ لماذا لا تواسيني؟»

دفعتُ قدميّ في الظل وقلتُ بلطف: «أنت لا تحتاج إلى مَن يواسيك. برغم كل شيء، أنت محبوب». ولتجنب الإصابة بالزكام وضعتُ على فمي منديلاً يحمل تصميم العنب الأزرق.

التفتَ نحوي الآن وأحنى وجهه البدين على الظهر المنخفض للمقعد: «في الواقع ما يزال لدي الوقت، كما تعرف. يمكنني وضع حد لعلاقة الحب الوليدة هذه في الحال، إما عن طريق ارتكاب عمل قبيح، أو من خلال خيانة، أو بالخروج إلى أرض نائية. ذلك لأن لدي شكوكاً خطيرة حول ما إذا كان ينبغي الاستسلام لكل هذه الإثارة. ليس هناك شيء مؤكد، لا أحد يمكنه أن يخبرك بالاتجاه أو المدة على نحو اليقين. إذا أدخلُ في حانة بقصد السكر، أعرف بأنني سوف أسكر في ذلك المساء. لكن في هذه الحالة! في غضون أسبوع نخطط للذهاب في رحلة مع بعض الأصدقاء. تخيّل العاصفة التي سيخلقها في القلب بالنسبة للأسبوعين القادمين! إن قبلات الليلة الماضية تجعلني أشعر بالنعاس وتمهّد الطريق لأحلام وحشية. أقاوم ذلك عن طريق الذهاب في نزهة في الليل، ولأنني في حالة دائمة من الاضطراب، يبقى وجهي يسخن ويبرد كما لو أن الرياح لفحته، عليّ أن أستمر باللعب بأصابعي بالشريط الوردي في جيبي طوال الوقت، فأنا مليء بأخطر المخاوف المحدقة بي التي لا يمكن متابعتها، وبوسعي أن أتحمّل صحبتك، يا سيدي، بينما أنا في العادة ما كنتُ لأقضي الكثير من الوقت في التحدث إليك».

كنت أشعر بالبرد القارس وكانت السماء تتحول إلى اللون الأبيض. «أخشى أن لا يكون أيّ عمل مشين، أو خيانة أو رحيل إلى أصقاع بعيدة بذي فائدة. «عليك أن تقتل نفسك»، قلت ذلك، وأنا أبتسم.

في مواجهتنا على الجانب الآخر من الشارع وقفت اثنتان من الشجيرات وأسفل هاتين الشجيرتين شخصت المدينة. كانت ما تزال هناك بعض الأضواء المشتعلة.

«حسناً»، بكى، وضرب المقعد بقبضته المشدودة الصغيرة التي، مع ذلك، تركها تقبع هناك. «لكنك مستمر في العيش. لا تقتل نفسك، لا أحد يحبك. أنت لا تحقق أي شيء. لا يمكنك التعامل مع اللحظة التالية. مع ذلك تجرؤ على التحدث إليّ بهذه الطريقة، أيها المتوحش. أنت غير قادر على الحب، فقط الخوف هو الذي يثيرك. فقط ألقِ نظرة على صدري».

عندها فتحَ بسرعةٍ معطفه وصدريته وقميصه. كان صدره فعلاً واسعاً وجميلاً.

«نعم، مثل هذه الأمزجة العنيدة تسيطر على المرء أحياناً»، بدأتُ أقول. «هذا الصيف كنت في القرية التي تقع بجانب نهر. أتذكره جيداً. فكثيراً ما كنت أجلس على مقعد بجانب الشاطئ في وضع ملتوٍ. كان هناك فندق، وغالباً ما يسمع المرء صوت الكمان. كان الأشخاص الأصحّاء الشباب يجلسون في الحديقة عند طاولات عليها البيرة ويتحدثون عن الصيد والمغامرات. وعلى الضفة الأخرى كانت الجبال التي تشبه الغيوم».

بعد ذلك، بمشية عرجاء، وفم مشوّه، نهضتُ، وخطوتُ على العشب وراء المقعد، وكسرتُ عدداً قليلاً من الأغصان المغطاة بالثلوج، وهمستُ في أذن قريبي: «أنا مرتبط، أعترف بذلك».

لم يتفاجأ قريبي بأنني نهضتُ. «أنت مرتبط؟» جلس هناك منهكاً تماماً، مستنداً فقط بظهر المقعد. ثم خلع قبعته ورأيتُ شعره، المعطر والممشّط بشكل جميل، الذي يُبرز الرأس المدور على عنق مكتنز في خط منحنٍ حاد، كما كانت الموضة في ذلك الشتاء.

وقد سرّني أنني أجبته بمهارة فائقة. «فكرْ فقط»، قلت لنفسي، «كيف يتحرك في المجتمع برقبة مرنة وذراعين تتأرجحان بحرية. وبينما هو يستمر بحوارٍ ذكي، فإن بوسعه توجيه سيدةٍ تماماً من خلال غرفة الضيوف، وحقيقة أنها تمطر في الخارج، وأن شخصاً ما خائفاً يقف قريباً أو أن شيئاً ما بائساً يحدث الآن، لا يجعله عصبياً. لا، يستمر بالانحناء بالمجاملة نفسها للسيدات. وهناك يجلس الآن.»

مسحَ قريبي حاجبه بمنديل باتيستة. «رجاءً ضعْ يدك على جبهتي»، قال. «أتوسل إليك». وعندما لم أفعل ذلك في الحال، طوى يديه.

وكأن حزننا قد عتّم كل شيء، جلسنا في أعالي الجبل كما لو أن الحال في غرفة صغيرة، برغم أنه في وقت مبكر قليلاً كنا قد لاحظنا ضوء ورياح الصباح. جلسنا قريبين من بعضنا بعضا على الرغم من أننا لا يحب بعضنا البعض على الإطلاق، لكنه لا يمكننا أن نتحرك متباعدين ذلك لأن الجدران كانت موضوعة بقوة وثبات. يمكننا، مع ذلك، أن نتصرف بشكل سخيف وبلا كرامة إنسانية، لأنه لم يجب علينا أن نخجل في حضرة الأغصان التي فوقنا والأشجار الشاخصة قبالتنا.

بعد ذلك، ومن دون مزيد من اللغط، سحب قريبي سكيناً من جيبه، فتحها بتروٍ، ومن ثم، كما لو كان يلعب، غرزها في الجزء العلوي من ذراعه، ولم يسحبها. بدأ الدم يشخب على الفور. وأصبحت وجنتاه المستديرتان شاحبتين. سحبتُ السكين، وقطّعت كمّ معطفه وسترته، ومزقتُ كمّ قميصه. ثم ركضتُ قليلاً إلى الشارع لمعرفة ما إذا كان هناك أي شخص يمكن أن يساعدنا. كانت جميع الأغصان تقريباً مرئية بشكل مبالغ فيه وبلا حراك. جعلتُ امتصّ قليلاً في الجرح العميق. بعد ذلك تذكرتُ كوخ البستاني. ركضتُ صاعداً الدرجات المؤدية إلى المرج العلوي على الجانب الأيسر من البيت، وبسرعة تفحصتُ النوافذ والأبواب، وقرعتُ الجرس

بقوة، وضربتَ بقدميّ، برغم أنني كنت أعرف طوال الوقت بأن المنزل غير مأهول بالسكان. بعدها نظرتُ إلى الجرح الذي كان ينزف شيئاً فشيئاً. وبعد أن ترطّب منديله في الثلوج، ربطته بشكل أخرق حول ذراعه.

قلتُ، «يا صديقي العزيز، العزيز. لقد جرحتَ نفسك من أجلي. إنك في مثل هذا الموقف الجيد، يحيط بك أصدقاء حسنو النية، يمكنك أن تتمشى في رابعة النهار عندما يمكن رؤية أي عدد من الناس المهندمين في كل مكان بين الطاولات أو على الممرات الجبلية. مجرد أمعن التفكير، في الربيع سوف نذهب إلى البستان ـ لا، ليس نحن، ذلك غير صحيح للأسف ـ لكنك مع آنّي سوف تذهب في نزهة سعيدة. أوه نعم، صدقني، أتوسل إليك، والشمس سوف تتباهى بك أمام الجميع في أفضل أحوالك. أوه، سيكون هناك موسيقى، وصوت خيول من الأقاصي، لا حاجة للقلق، سيكون هناك صراخ وستعزف الأرغنات اليدوية في الدروب».

«يا إلهي»، قال، ثم وقف، وانحنى عليّ ومضينا في سبيلنا، «يا إلهي، لا مناص من ذلك. هذا لن يجعلني سعيداً. اعذرني. هل الوقت متأخر؟ ربما عليّ أن أفعل شيئاً ما في الصباح. يا إلهي.»

ثمة فانوس يتوهّج على مقربة من الجدار أعلاه؛ كان يُلقي بظلال جذوع الأشجار عبر الطريق والثلج الأبيض، بينما على المنحدر كانت ظلال جميع الأغصان منحنية، كما لو أنها مكسورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترتيبات حفلة زواج في الريف

(I)

عندما سار إدوارد رابان، القادم على طول الممر، إلى المدخل المفتوح، رأى بأن السماء تمطر. لكنها لم تكُ تمطر بغزارة.

على الرصيف مباشرة أمامه كان هناك العديد من الناس يسيرون بإيقاعات مختلفة. بين الحين والآخر يقوم أحدهم بالخطوِ إلى الأمام ويعبر الطريق. ثمة فتاة صغيرة كانت تحمل جرواً متعباً في يديها الممدودتين. وكان سيّدان يتبادلان المعلومات. كان احدهما يرفع الراحتين إلى أعلى، يرفعهما ويخفضهما بحركة منتظمة، كما لو كان يوازن حمولة. ثم لمح الآخرُ سيدة كانت قبعتها مثقلة بأشرطة، ومشابك، وزهور. ومرَّ مسرعاً شاب يحمل عصا مشي نحيفة، ويده اليسرى، التي كأنها مشلولة، استوت على صدره. بين الفينة والأخرى كان يأتي رجال يدخنون، ويحملون سحباً صغيرة مستقيمة مستطيلة تسير أمامهم. ثلاثة رجال ـ اثنان منهم يحملون معاطف خفيفة الوزن على سواعدهم المعقوفة ـ ساروا عدة مرات إلى الأمام من أمام المباني إلى حافة الرصيف، واستطلعوا ما كان يجري هناك، وبعد ذلك انسحبوا مرة أخرى، وهم يتحدثون.

من خلال الفجوات بين المارة يمكن للمرء أن يرى الحجارة المرصوفة بانتظام الخاصة بممر العربات. هناك كانت العربات على العجلات العالية الدقيقة تسحبها خيول ذات أعناق مقوسة. كان الناس الجالسون على راحتهم على المقاعد المنجّدة يحدّقون بصمت على المارة، والمحلات التجارية، والشرفات، والسماء. وإذا حدث أن اجتازت عربةٌ ما عربةً أخرى، عندها فإن الخيول ستمضي باتجاه بعضها بعضا، وتكون أشرطة اللجام متدلية. وبينما كانت الحيوانات مربوطة على العوارض، انطلقت العربة إلى الأمام، تتمايل وهي تزداد سرعة، حتى يكتمل الانحراف حول العربة وتتفرق الخيول عن بعضها مرة أخرى، ماعدا رؤوسها الهادئة الضيقة تميل تجاه بعضها بعضا.

جاء بعض الناس بسرعة نحو المدخل الأمامي، وتوقفوا عند الرصف الفسيفسائي الجاف، وهم يدورون في المكان ببطء، وقفوا يحدقون في المطر، الذي، وهو يتركّز في هذا الشارع الضيق، كان يتساقط دونما انتظام.

شعر رابان بالتعب. وكانت شفتاه شاحبتين شحوب اللون الأحمر المتلاشي لرباطه السميك، الذي كان ذا نمط مغاربي. السيدة بجانب عتبات الباب هناك، التي كانت حتى اللحظة تتأمل في حذائها، الذي كان واضحاً تماماً تحت تنورتها المسحوبة بإحكام، كانت تنظر إليه الآن. فعلت ذلك بلا مبالاة، وهي ربما كانت، في أي حال من الأحوال، تنظر فقط إلى تساقط الأمطار أمامه أو على لوحات أسماء الشركات المثبّتة على الباب فوق رأسه. اعتقدَ رابان بأنها بدت مندهشة. فكَّر، «حسناً»، إذا كنتُ قادراً على أن أخبرها القصة الكاملة، لتوقفت عن الاندهاش. فالمرء يعمل بشكل محموم في المكتب لدرجة أنه بعد ذلك يصبح متعباً جداً بحيث لا يمكنه التمتع بالعُطَل كما ينبغي. لكن حتى كل هذا العمل لا يعطي الشخص زعماً بضرورة ان

يعامله الكل بمحبة؛ على العكس من ذلك، المرء وحيد، غريب تماماً وهذا موضوع يبعث على الفضول ليس إلاّ. وطالما كنتَ تقول «امرئ» بدلاً من «أنا»، لا شيء في ذلك، ويمكن للمرء أن يسرد القصة بسهولة؛ ولكن بمجرد أن تعترف لنفسك بأن ذلك هو أنت بنفسك، فستشعر كما لو أنك مذهول وعندها ستصاب بالرعب».

وضعَ الحقيبة ذات الغطاء المصنوع من القماش المربّع، وهو يحني ركبتيه أثناء قيامه بذلك. كانت مياه الأمطار تجري على طول حافة طريق العربات على شكل شرائط غالباً ما امتدت إلى المزاريب المنخفضة.

«لكن عندما اميّز بنفسي بين «المرء» و «أنا»، فكيف أجرؤ عندئذ أن أشكو من الآخرين؟ ربما إنهم ليسوا ظالمين، ولكنني متعب جداً بحيث لا أقوى على استيعاب كل هذا. كما أنني متعب جداً لدرجة لا يمكنني المشي على طول الطريق إلى المحطة من دون مشقة، وهي مجرد مسافة قصيرة ليس إلاّ. لذلك لماذا لا أبقى في المدينة أثناء هذه العُطَل القصيرة، من أجل فترة نقاهة؟ كم أنا غير منطقيّ! ـ ستجعلني الرحلة أمرض، أعرف ذلك تماماً. فغرفتي ليست مريحة بما فيه الكفاية، يمكن أن تكون خلاف ذلك في الريف. كما إننا بالكاد في النصف الأول من شهر حزيران، والهواء في الريف ما يزال في كثير من الأحيان بارداً جداً. بالطبع، اتخذتُ الاحتياطات بالنسبة لملابسي، ولكن عليّ أن أنضم إلى الناس الذين يذهبون للتنزّه في وقت متأخر من المساء. ثمة برك هناك؛ يمكن للمرء أن يذهب للتنزه مشياً على طول تلك البرك. ذلك هو المكان الذي من المؤكد أنني سأصاب فيه بنزلة برد. ومن ناحية أخرى، لن أظهر إلاّ لماماً في الأحاديث. إذ إنني لن أكون قادراً على مقارنة هذه البركة مع برك أخرى في بلاد بعيدة أخرى، ذلك لأنني لم أسافر قط، كما أن الحديث عن القمر والشعور بالنعيم والتسلّق بطريقة مفعمة بالنشوة على أكوام الأنقاض، بعد كل هذا، هو شيء أرى نفسي إزاءه بأنني كبير السن جداً بحيث لا يمكن أن أقوم به من دون أن يضحكوا عليّ ازدراءً».

كان الناس ماضين في طريقهم برؤوس مائلة قليلاً، حملوا فوقها المظلات السوداء بقبضة مرتخية. كذلك مرت عربة بجانبهم؛ على مقعد السائق، المحشو بالقش، جلس رجل كانت ساقاه ممددتين بإهمالٍ شديد بحيث إن إحدى القدمين كانت تلامس الأرض تقريباً، في حين استندت الأخرى بسلام على القش وخِرَق القماش. بدا الأمر كما لو كان يجلس في حقل في طقس رائق. إلا أنه كان يمسك بالعنان بانتباه بحيث أن العربة، التي يصطفق عليها قضبان الحديد أحدها بالآخر، شقت طريقها بأمان خلال حركة المرور الكثيفة. على السطح المبلل للطريق يمكن للمرء أن يرى انعكاس الحديد بشكل متعرّج وببطء منسلاً من أحد صفوف الحصى إلى الآخر. كان الطفل الصغير بجانب السيدة قبالته يرتدي مثل خمّار قديم. إذ شكّل لباسه المجعّد دائرة كبيرة عند الحاشية وتمّ رفعه، تقريباً تحت الإبطين بالضبط، بحزام جلدي. ونزلت قبعته نصف الكروية حتى حاجبيه، وثمة شرّابة تدلت من الأعلى حتى أذنه اليسرى. كان مسروراً بالمطر. ركض خارجاً من المدخل، ونظر بعينين مفتوحتين على وسعهما إلى السماء من أجل الفوز بالكثير من ذلك المطر. وغالباً ما كان يقفز

عالياً في الهواء بحيث بلل منه الماء قدراً كبيراً فيما كان المارة يقرّعونه أيما تقريع. ثم دعته السيدة ومسكته من اليد؛ مع ذلك لم يبكِ.

انطلق رابان. ألم يكن الوقت متأخراً؟ ولأنه ارتدى معطفه الخفيف وسترته مفتوحة، فقد أخرج بسرعة ساعته. لم تكن تعمل. وبانفعال سأل أحد الجيران، الذي كان يقف أبعد قليلاً إلى الوراء في المدخل، عن الوقت. كان هذا الرجل مشغولاً في محادثة، وبينما كان ما يزال يضحك مع صاحبه، قال: «بالتأكيد. تعدّت الساعة الرابعة»، وانصرف.

رفع رابان مظلته بسرعة والتقط حقيبته. ولكن عندما كان على وشك الدخول إلى الشارع، اعترضت طريقه عدة نساء كنّ في عجلة من أمرهن اللاتي سمح لهن بالمرور أولاً. وهو يقوم بذلك أخذ ينظر في قبعة طفلة صغيرة، مصنوعة من القش الأحمر المضفور ولها إكليل صغير أخضر على حافتها المتموجة.

ومضى يتذكر هذا حتى عندما كان في الشارع، الذي ارتفع قليلاً في الاتجاه الذي كان يرغب في اتخاذه. ثم نسي ذلك، والآن عليه أن يبذل جهده قليلاً؛ فحقيبته الصغيرة لم تكُ خفيفة جداً، والريح كانت تهبّ مستقيمة ضده، مما يجعل معطفه يرفرف والأسلاك الأمامية لمظلته تنحني.

@

كان عليه أن يتنفس بعمق أكثر. ثمة ساعة في ساحة قريبة إلى الأمام دقت الساعة الخامسة إلاّ ربعاً؛ وتحت المظلة رأى الخطوات القصيرة الخفيفة للناس القادمين نحوه؛ وعجلات العربات أصدرت صريراً عند استخدام الفرامل، وتصبح بطيئة أكثر؛ ومدّت الخيول قوائمها الأمامية الرقيقة، متجاسرة كحيوانات الشامواه في الجبال.

ثم بدا لرابان بأنه سيعاني من الفترة الطويلة المزعجة للأسبوعين القادمين أيضاً. لذلك لم تكن سوى أسبوعين، بمعنى آخر، فترة محدودة، وحتى لو أصبحت المضايقات أكبر من أي وقت مضى، مع ذلك، فإن الوقت الذي كان على المرء ان يصبر فيه سيصبح أقصر فأقصر. وهكذا، من المؤكد أن الشجاعة ستزداد. «كل الناس الذين يحاولون تعذيبي، والذين قد احتلوا الآن كامل المساحة من حولي، سيرجعون إلى الوراء بشكل تدريجيّ تماماً بفعل المرور الرحيم لهذه الأيام، دون الحاجة إلى مساعدتهم حتى في أقل تقدير. و، لأن هذا الأمر سوف يحدث بشكل طبيعي تماماً، يمكن أن أكون ضعيفاً وهادئاً وأرى كل شيء يحصل لي، ومع ذلك لا بد أن يتحول كل شيء إلى خير ما يرام، عبر الحقيقة المطلقة لمرور الأيام.

«وعلاوة على ذلك، ألا يمكن لي أن أفعل ذلك بالطريقة التي كنت دائماً افعلها عندما كنت طفلاً في المسائل التي كانت خطرة؟ لا حاجة لي للذهاب إلى الريف بنفسي، فهذا ليس ضرورياً. سوف أرسل جسدي المكسو بالملابس. عندما يترنح وهو يخرج من باب غرفتي، فإن الترنّح لا يشير إلى الخوف بل إلى تفاهة ذلك الجسد. كما أنه ليس علامة على الإثارة عندما يتعثر على الدرج، وعندما يسافر إلى البلاد، منتحباً

وهو يمر، وهناك يأكل عشاءه مغمَّسا بالدموع. لأنني شخصياً في هذه الإثناء أرقد في سريري، تغطيني بيسر بطانية صفراء بنية، وأتعرض إلى النسيم الذي هبّ خلال تلك الغرفة التي نادراً ما يدخلها الهواء. العربات والناس في الشارع يتحركون ويمشون بتردد على ارض مشرقة، لأنني ما زلت أحلم. الحوذيون والمشاة خجولون، وفي كل خطوة يريدون أن يخطوها يسألونني عن إسداء جميل لهم، عن طريق النظر إليّ. أنا أشجّعهم و لا أواجه أي عائق.

«بينما أنا أرقد في السرير فإنني أفترض شكل خنفساء كبيرة، خنفساء الأيل أو جُعْل كبير، حسبما أعتقد».

أمام نافذة دكان، فيه، خلف لوح زجاجي رطب، كانت تُعرض قبعات صغيرة للرجال على أوتاد صغيرة، توقّف وأخذ يتفحّص، وشفتاه مزمومتان. «حسناً، ماتزال قبعتي صالحة لأيام العطل»، فكّر واستمر في سيره، «وعندما لا يسعُ أحد على تحمّلي بسبب قبعتي، عندئذ يكون هذا أفضل.

«نعم، إنه شكل خنفساء كبيرة. ثم سأدّعي بأن هذا كان مجرد مسألة سبات، وسأضغط بساقيّ الصغيرتين على بطني المنتفخة. وسأهمس ببضع كلمات، تعليمات حزينة إلى جسدي، الذي يقف على مقربة مني، منحنياً. وقريباً سأكون قد انتهيتُ ـ ينحني، يذهب برشاقة، وسوف يدبّر كل شيء بكفاءة بينما أستريح أنا».

جاء إلى قوس مقبّب في الجزء العلوي من الشارع شديد الانحدار، يؤدي إلى مربع صغير كان يوجد حوله عدد من المحلات التجارية، المضاءة. في منتصف المربع، المحجوب نوعاً ما بفعل الضوء حول الحافة، كان ثمة نصب منخفض، وهو الشخصية المتأملة الجالسة لرجل. تحرّك الناس عبر الأضواء مثل مصاريع ضيقة، ولأن البرك نشرت كل تألق في جميع الأماكن، فإن الساحة بدت تتغير دون توقف.

ذهب رابان بعيداً في الساحة، ولكن بشكل متأرجح، متملّصا من العربات السائرة، وهو يقفز من حصاة جافة إلى المزيد من الحصى الجاف، حاملاً مظلته المفتوحة عالياً في يده من أجل أن يرى كل شيء حوله. أخيراً، توقّف بجانب عمود إنارة ـ وهو مكان حيث توقفَ الترام الكهربائي ـ القائم على قاعدة خرسانية صغيرة مربعة.

«لكنهم يتوقعون بأنني في الريف. ألا يتساءلون عني في هذا الوقت؟ مع ذلك، فأنا لم أكتب لها طيلة الأسبوع الذي كانت فيه في الريف، حتى هذا الصباح. لذلك سوف ينتهون بتخيّل أن مظهري أيضاً مختلف تماماً. قد يعتقدون بأنني أنطلق إلى الأمام عندما أخاطب شخصاً، رغم ذلك ليست تلك طريقتي على الإطلاق، أو أنني أعانق الناس عند وصولي، وذلك شيء لا أقوم به أيضاً. سأجعلهم يغضبون إذا حاولت تهدئتهم. أوه، ليتني تمكّنت فقط من جعلهم يغضبون تماماً في محاولتي لتهدئتهم».

في تلك اللحظة مرّت عربة مفتوحة، لم تك مسرعة؛ وخلف مصباحيها المضيئين يمكن أن تُرى سيدتان جالستين على مقاعد جلدية داكنة. أحداهما كانت منحنية إلى الخلف، ووجهها يُخفيه حجاب وظلال قبعتها. لكن السيدة الأخرى كانت تجلس

مستقيمة كالسهم؛ كانت قبعتها صغيرة، يحدّها ريش رقيق. وكل شخص باستطاعته أن يراها. كانت شفتها السفلى مسحوبة قليلاً داخل فمها.

وبمجرد أن العربة عبرت رابان، فإن قضيباً منع رؤية الحصان القريب الذي يجرّ العربة؛ ثم حوذي ـ يرتدي قبعة كبيرة ـ على صندوق عالٍ بشكل غير مألوف عبرَ من أمام السيدتين ـ كان هذا الآن أبعد بكثير ـ توجهتْ بعد ذلك عربتهم حول زاوية منزل صغير أصبح الآن مرئياً بشكل لافت للنظر، وتوارتْ عن الأنظار.

تبعها رابان بنظراته، وهو مطأطئ الرأس، واضعاً مقبض مظلته على كتفه من أجل أن يرى بشكل أفضل. وكان قد وضع إبهامه الأيمن في فمه وفرك أسنانه به. كانت حقيبته بجانبه، أحد جانبيها على الأرض.

أسرعت العربات من شارع إلى شارع عبر الساحة، واندفعت أجسام الخيول أفقياً كما لو أنها كانت محلّقة في الهواء، لكن تمايل الرأس والرقبة أظهر إيقاع وجهد الحركة.

في كل مكان، على حواف أرصفة جميع الشوارع الثلاثة التي تلتقي هنا، كان هناك العديد من العاطلين متحلّقين حول المكان، وهم ينقرون على الحصى بالعصي الصغيرة. ومن بين المجموعات التي شكّلوها ثمة أبراج صغيرة كانت الفتيات فيها يصببن عصير الليمون، ثم ساعات شارع ثقيلة على قضبان رقيقة، بعد ذلك رجال يرتدون من أمامهم ومن ورائهم لافتات كبيرة معلنة التسالي بحروف متعددة الألوان، ثم رُسُل... {صفحتان مفقودتان}... تجمع اجتماعي صغير. عربتان أنيقتان شخصيتان، يسيران قطرياً عبر الساحة في الشارع المؤدي إلى المنحدر، ووصلتا إلى طريق بعض السادة من الرجال من هذه الحفلة، لكن بعد العربة الثانية ـ وحتى بعد الأولى حاولوا على استحياء القيام بذلك ـ هؤلاء السادة تشكّلوا في مجموعة مرة أخرى مع الآخرين، الذين صعدوا معهم على الرصيف في موكب طويل وشقّوا طريقهم خلال باب مقهى، غارق في ضوء المصابيح المتوهجة المعلقة فوق المدخل.

مرّتْ عربات الترام الكهربائية، ضخمة وقريبة جداً؛ ووقفت عربات أُخرى، وهي مرئية بشكل غير واضح، {وقفت} بلا حراك بعيداً في الشوارع.

«كم منحنية هي»، فكّر رابان عندما نظر في الصورة الآن. «إنها لم تك مستقيمة حقاً، وربما كان ظهرها متقوّس. يجب عليّ أن أعير انتباهاً كبيراً إلى هذا. فمها واسع جداً، وهنا، بلا شك، تبرز الشفة السفلى، نعم، الآن أتذكر ذلك أيضاً. ويا له من ثوب! بطبيعة الحال، أنا لا أعرف أي شيء عن الملابس، لكن هذه الأكمام الضيقة جداً قبيحة، أنا على يقين، فهي تبدو مثل الضمادات. والقبعة، فإن الحافة عند كل نقطة تحوّلت عن الوجه بمنحنى مختلف. لكن عينيها جميلتان، فهما بنيتان، إن لم أكن مخطئاً. كل شخص يقول بأن عينيها جميلتان».

الآن توقفتْ سيارة ترام كهربائي أمام رابان واندفع كثير من الناس حوله نحو الدرجات، @

بمظلاتهم المفتوحة قليلاً، والمستدقة، التي حملوها بشكل مستقيم حيث كانت أيديهم تضغط على أكتافهم. كان رابان، الذي يمسك حقيبته تحت ذراعه، ابتعد عن الرصيف وخطى بقوة في بركة غير مرئية. داخل الترام ركع طفل على مقعد، ضاغطاً بأطراف أصابعه على شفتيه كما لو أنه كان يقول وداعاً لشخصٍ ما ذاهب بعيداً. خرج بعض المسافرين وتحتَّم عليهم السير بضع خطوات على طول الترام من أجل أن يشقّوا طريقهم للخروج من الزحام. بعدها قفزت سيدة على الدرجة الأولى، تنورتها الطويلة، التي شدّتها إلى أعلى بكلتا يديها، امتدت بإحكام حول ساقيها. ثمة سيد يمسك بقضيب من النحاس و، برأس مرفوع، روى شيئاً للسيدة. كل الناس الذين يريدون أن يصلوا كانوا غير صبورين. صاح الجابي.

رابان، الذي وقف الآن على طرف مجموعة الانتظار، استدار حوله، لشخص ما صاح باسمه.

«آه، يا لمنت»، قال ببطء ومدَّ لشابٍّ قادم نحوه بنصرَ اليد التي كان يحمل بها المظلة.

«إذاً ها هو العريس في طريقه إلى عروسه. ويبدو عاشقاً على نحو مخيف»، قال لمنت ثم ابتسم وفمه مغلقاً.

«نعم، لابد أن تغفر ذهابي اليوم»، قال رابان. «كتبتُ لك هذا العصر، على أي حال. لابد، بطبيعة الحال، إنني أعجبني كثيراً أن أسافر معك يوم غد؛ لكن غداً هو السبت، وكل شيء سيكون مزدحماً جداً، وهذه رحلة طويلة».

«أوه، هذا لا يهم. لقد قطعتَ وعداً، لكن عندما يكون المرء عاشقاً... إذن ينبغي لي أن أسافر بمفردي». وضع لمنت قدماً على الرصيف والأخرى على الحصى، مسنداً جسده آناً على ساق واحدة، وآناً على الأخرى. «ستصعد في الترام. ها هو يذهب. تعال، سنتمشّى، سأذهب معك. ما يزال أمامنا الكثير من الوقت.»

«أليس الوقت متأخراً نوعاً ما، أرجوك قل لي؟»

«لا عجب أنك عصبي، لكنك حقاً لديك المزيد من الوقت. أنا لست عصبياً، وهذا هو السبب في أنني اشتقتُ إلى جلمان الآن».

«جلمان؟ ألن يقيم هناك، أيضا؟»

«نعم، مع زوجته؛ في الأُسبوع المقبل ينويان الذهاب، وهذا هو السبب في أنني وعدتُ جلمان بمقابلته اليوم عندما يغادر مكتبه. أراد أن يعطيني بعض التعليمات المتعلقة بتأثيث منزلهما، وهذا هو سبب مقابلتي له. لكن الآن أنا متأخر نوعاً ما، كان لدي بعض المهمات التي أقوم بها. وبالضبط بينما كنتُ أتساءل ما إذا كان ينبغي أن لا أذهب إلى شقتهما، رأيتك، في البداية تعجبتُ من الحقيبة، وتحدثتُ إليك. لكن الآن رحل المساء بعيداً بحيث لا يمكن القيام بالزيارات، وأنه من المستحيل إلى حد ما الذهاب إلى جلمان الآن».

«بالطبع. ولذا فإنني سأقابل أناساً أعرفهم هناك، برغم كل شيء. ليس لأنني رأيتَ السيد جلمان، برغم ذلك».

«وهي جميلة جداً. فهي شقراء، وشاحبة الآن بعد مرضها. وتمتلك أجمل عينين رأيتهما في حياتي».

«قل لي من فضلك، كيف تبدو العيون الجميلة؟ هل هي النظرة؟ لم أجد أبداً عيوناً جميلة».

«حسناً، ربما كنتُ أبالغ قليلاً. مع ذلك، فهي امرأة جميلة».

من خلال زجاج النافذة من مقهى في الطابق الأرضي، على مقربة من النافذة، يمكن رؤية السادة جالسين، يقرأون ويأكلون، حول طاولة ذات ثلاثة جوانب؛ أحدهم كان قد وضع صحيفة على الطاولة، يرفع كأساً صغيرة، وينظر في الشارع من زوايا عينيه. ما وراء هذه الطاولات الملاصقة للنوافذ كان كل الأثاث واللوازم في المطعم الكبير مخفياً بسبب الزبائن، الذين جلسوا جنباً إلى جنب في دوائر صغيرة. {صفحتان مفقودتان}... «كما يحدث، مع ذلك، فإن هذا ليس عملاً تجارياً مزعجاً، أليس كذلك؟ فالكثير من الناس يواجهون مثل هذا العبء، حسبما أعتقد».

جاؤوا إلى ساحة مظلمة إلى حد ما، بدأت على جانبهم من الشارع، لأن الجانب الآخر كان ممتداً أكثر. وعلى جانب الساحة الذي كانوا يمشون على طوله، هناك صف متواصل من المنازل، من زواياه امتدّ ـ في البداية على نحو بعيد جداً ـ صفّان من المنازل في مسافة غير معروفة بدت فيها هذه المنازل تتحد. كان الرصيف ضيقاً بفعل المنازل، التي كانت في معظمها صغيرة؛ ليست هناك محلات تلوح في الأفق، ولا أي عربة تمرّ. ثمة عمود من الحديد بالقرب من نهاية الشارع الذي خرجوا منه كان يحمل عدة مصابيح، كانت مثبتة في حلقتين معلقتين بشكل أفقي، إحداهما فوق الأخرى. والشعلة على شكل أرجوحة بين الصحيفتين المتصلتين من الزجاج كانت تتوهج في هذا الظلام الواسع الذي يشبه البرج وكأنها في غرفة صغيرة، جاعلة الظلام يؤكد نفسه عدة خطوات إلى الأمام.

«ولكن الآن أنا على يقين بأن الوقت متأخر؛ لقد أبقيتَ الأمر سراً عني، و سوف يفوتني القطار. لماذا؟»{أربع صفحات مفقودة}

... «نعم، في أغلب الأحيان بيركرشوفر ـ حسناً، هذا ما يستحقه».

«الاسم مذكور، كما أعتقد، في رسائل بَتي، فهو مساعد كاتب في السكك الحديد، أليس كذلك؟»

«نعم، مساعد كاتب في السكك الحديد وشخص مزعج. سترى أنني على حق بمجرد أن تأخذ لمحة لذلك الأنف السميك الصغير. أقول لك، إن المشي عبر الحقول الكئيبة مع هذا الشخص... على أي حال، نُقل الآن وسيمضي بعيداً من هناك، كما أعتقد وأتمنى، الأسبوع المقبل».

«انتظرْ، قلتَ للتو بأنك نصحتني أن أبقى هنا هذه الليلة. لقد فكرت في ذلك طويلاً؛ إذ إنه لا يمكن تدبّر ذلك جيداً. لقد كتبتُ لأقول أنا قادم هذا المساء؛ وأنهم سوف يكونون بانتظاري».

«ذلك سهل جداً، ارسلْ برقية».

«نعم، يمكن القيام به ـ لكن ذلك لن يكون لطيفاً جداً إذا لم أذهب ـ فضلاً عن أنني متعب، نعم، سأذهب سمعاً وطاعة. إذا جاءت برقية، سيتملّكه الخوف، أيضاً. ـ ولأجل ماذا، إلى أين نحن ذاهبون، على أي حال؟»

«إذن من الأفضل لك أن تذهب. كنتُ أفكر ليس إلاّ... على أي حال لا أستطع أن أذهب معك اليوم، لأنني نعسان، فقد نسيتُ أن أخبرك بذلك. والآن سأقول لك وداعاً، لأنني لا أريد أن أذهب عبر المتنزه الرطب معك، كما أنني أودّ أن أزور بيت جلمان، مع كل هذا. الساعة السادسة إلاّ ربعاً، لذلك فالوقت ليس متأخراً، فزيارة الأشخاص الذين تعرفهم أمر جميل إلى حد ما. وداعاً. حسناً، رحلة سعيدة، وأبلغ تحياتي للجميع!»

تحوّل لمنت إلى اليمين ورفع يده اليمنى ليقول وداعاً، بحيث كان رابان للحظة يسير مقابل ذراع لمنت الممدودة.

«وداعا». قال رابان.

من مسافة قليلة عاد لمنت عندئذ: «أقول، يا إدوارد، هل تسمعني؟ رجاءً أغلق مظلتك؛ لقد توقف المطر منذ فترة طويلة. لم يكن لدي فرصة لأخبرك.»

لم يجب رابان، أغلق مظلته، وأطبقت عليه السماء من فوقه بظلام شاحب.

فكر رابان، «لو كنتُ على الأقل صعدتُ القطار الخطأ. عندها فإنه على أي حال سيبدو لي بأن المشروع بأكمله قد بدأ، وإن لاحقاً، بعد انجلاء الخطأ، سأكون قد وصلتُ إلى هذه المحطة مرة أخرى في طريق عودتي، عندئذ لابد أنني بالتأكيد أشعر بتحسن الوضع كثيراً. وإذا تحوّل المشهد ليكون مملاً، كما يقول لمنت فإن ذلك ليس من الضروري أن يكون مضراً على الإطلاق. فالمرء يقضي المزيد من الوقت في الغرف وهو في الحقيقة لا يعرف أين يكون الآخرون، وإذا @

ما كان هناك خراب في منطقة، فمن المحتمل أن يسير الجميع إلى ذلك الخراب؛ إذ سيكون الأمر قد أُتفِقَ بشأنه قبل فترة من الزمن. ثم، مع ذلك، على المرء أن يتطلع إلى هذا؛ وللسبب نفسه على المرء أن لا يفوته ذلك. لكن إذا لم يكن هناك مثل هذا المشهد، عندها لن تكون هناك مناقشة مسبقة بالمرّة، لأن الجميع من المتوقع أن يجتمعوا سوية بسهولة كبيرة أن كان ذلك فجأة، مقابل الممارسة المعتادة برمتها، ويُنظَر إلى الحملة الأكبر على أنها صائبة، لأنه لا يتوجّب على المرء سوى إرسال الخادمة إلى شقق الآخرين، حيث يجلسون بشأن رسالة أو كتب وهم مسرورون بهذه الأخبار. حسناً، ليس من الصعب حماية نفسك من هذه الدعوات. ومع ذلك لا أعرف ما إذا كنتُ قادراً على فعل ذلك، لأن الأمر ليس سهلاً كما أتصوره الآن عندما لا أزال وحدي، وبوسعي القيام بكل شيء، وبوسعي الرجوع إنْ أردتُّ ذلك،

لأنني ليس لدي أي أحد هناك من الممكن أن أزوره متى ما أشاء، وما من أحد يمكنني معه أن أقوم بحملات أكثر نشاطاً، لا أحد هناك يمكنه أن يريني كيف هو حال محاصيله أو يريني المحجر الذي يعمل فيه. لأن المرء ليس متأكداً على الإطلاق حتى من معارفه ذوي المكانة الرفيعة. ألم يكن لمنت لطيفاً معي اليوم؟ ـ شرح لي بعض الأشياء، أليس كذلك، كما وصف كل شيء كما كان سيبدو لي. جاء وتحدّث اليّ ثم مشى معي، على الرغم من حقيقة أنه لا شيء أراد أن يكتشفه عني، وأنه نفسه ما يزال لديه شيء آخر يقوم به. لكن الآن على حين فجأة قد غادر بعيداً، ومع ذلك لم أشأ الإساءة إليه ولو بكلمة واحدة. رفضتُ قضاء المساء في المدينة، لكن ذلك كان طبيعياً، ولم يشكّل إساءة إليه، كونه شخصاً حصيفاً».

دقّت ساعة المحطة معلنة السادسة إلاّ ربعاً. توقف رابان لأنه كان يعاني من الخفقان، ثم مشى بسرعة على طول بركة المتنزه، وذهب على طول ممر ضيق، سيئ الإنارة بين الشجيرات الكبيرة، وهرع إلى مكان مفتوح ذي عدد من المقاعد الفارغة متكئاً على أشجار صغيرة، بعدها ذهب ببطء أكثر من خلال فتحة في السور إلى الشارع، عَبَرَه، وقفز من خلال مدخل المحطة، وبعد حين وجد مكتب الحجز، وكان عليه ان يضرب لفترة على المصراع الحديدي. بعدها حذّر كاتبُ الحجز، وقال إن الوقت متأخر، وأخذ الورقة النقدية، و ضرب التذكرةَ بعنف على الطاولة، تلك التذكرة التي سأله عنها وعن باقي الورقة النقدية. حاول رابان الآن حساب الباقي بسرعة، معتقداً بأنه يجب أن يحصل على أكثر من ذلك، لكن بواباً كان يسير قريباً عاجله من خلال باب زجاجي على المنصة. هناك نظر رابان حوله، وهو ينادي «شكراً لك، شكراً لك!» إلى البواب، ولأنه لم يجد الحرس، صعد درجات أقرب عربة بنفسه، في كل مرة يضع الحقيبة على الدرجة الأعلى ثم يصعد، مستنداً على مظلته بإحدى يديه، وعلى مقبض الحقيبة باليد الأخرى. العربة التي دخلها كانت مضاءة بشكل بهيّ بكمٍّ كبيرٍ من الضوء من القاعة الرئيسية للمحطة، التي كانت تقف فيها {تلك العربة}؛ وأمامَ العديد من زجاج النوافذ ـ المغلقة حتى السقف ـ ثمة مصباح قوسي يصدر صفيراً معلّق في مستوى العين تقريباً، وكانت القطرات الكثيرة من المطر على الزجاج بيضاء، وغالباً ما كانت القطرات المفردة ستتحرك. كان بإمكان رابان سماع الضجيج الصادر من المنصة حتى عندما اغلق باب العربة وجلس على آخر جزء فارغ صغير من مقعد خشبي ذي لون بني فاتح. رأى ظهور كثير من الناس، وخلفيات رؤوسهم، وبينهم الوجوه المقلوبة للناس على المقعد المقابل. في بعض الأماكن كان الدخان يتكوّر من الغلايين والسيگار، وفي أماكن اخرى ينحرف بشكل هزيل مارًّا من أمام وجه فتاة. غالباً ما كان المسافرون يغيرون الأماكن، ويناقشون هذه التغييرات مع بعضهم بعضا، أو أنهم يغيّرون أمتعتهم، الموضوعة في شبكة زرقاء ضيقة فوق المقعد، إلى مكان آخر. وإذا ما برزت عصا أو زاوية حقيبة مغطاة بالمعدن، فإن صاحب الحقيبة يُنبه إلى هذا. فيذهب ويعيدها إلى مكانها الصحيح. تذكّر رابان أيضاً نفسه ودفع حقيبته تحت مقعده.

على يساره، عند النافذة، كان سيدان يجلسان قبالة بعضهما بعضا، يتحدثان عن أسعار السلع. «إنهما تاجران متجولان»، فكّر رابان و، بينما يتنفس بشكل اعتيادي، أخذ يحدّق فيهما. «التاجر يرسلهما إلى الريف، فيطيعان، ويسافران بالقطار، وفي كل قرية يذهبان من متجر إلى متجر. في بعض الأحيان يسافران بالعربة بين القرى. لا بد أنهما لا يقيمان طويلاً في أي مكان، لأن كل شيء لا بد أن يتم بسرعة، ولابد أنهما دائماً لا يتحدثان إلاّ عن بضائعهما. فبأي متعة، إذن، يمكن للمرء أن يبذل قصارى جهده في مهنة مقبولة جداً!»

كان الرجل الأصغر سناً قد أخرج دفتر ملاحظات من الجيب الخلفي لسرواله، وبسرعة تصفّح الأوراق بالسبابة التي بلّلها بلسانه، ثم أخذ يقرأ في إحدى الصفحات، وهو يسحب الجزء الخلفي من ظفره إلى أسفلها بينما كان ماضياً في القراءة. تطلّع في رابان بينما كان يحملق و، بالفعل، عندما بدأ الآن بالحديث عن موضوع أسعار الخيوط، لم يحوّل وجهه بعيداً عن رابان، كما لو أن المرء يحدّق بثبات عند نقطة من أجل أن لا ينسى اي شيء مما يريد أن يقوله. وفي الوقت نفسه شدّ حاجبيه بقوة على عينيه. وحمل دفتر الملاحظات نصف المغلق بيده اليسرى، وهو يضع إبهامه على الصفحة أخذ يقرأ، من أجل أن يكون قادراً على الرجوع إليه بسهولة إذا توجّب عليه ذلك. واهتزّ دفتر الملاحظات، لأنه لم يسند ذراعه على أي شيء، والعربة، التي كانت الآن تسير، اصطدمت بالقضبان مثل المطرقة.

جلس المسافر الآخر منحنياً إلى الوراء، يصغي ويومئ على فترات منتظمة. بدا من الواضح أنه كان بعيداً عن الاتفاق مع كل شيء وفي وقت لاحق من شأنه أن يعطي رأيه الخاص.

وضع رابان راحة يديه على ركبتيه و، بينما يميل إلى الأمام، بين رؤوس المسافرين رأى النافذة ومن خلال النافذة {رأى} الأضوية تتذبذب و {رأى} الآخرين يبتعدون في المدى. لم يفهم شيئاً مما كان يتحدّث عنه المسافر، ولم يفهم أيضاً جواب المسافر الآخر. فالأمر يتطلب أولاً الكثير من الاستعداد، فهؤلاء أناس مهتمون بالسلع منذ شبابهم. ولكن إذا حملَ أحدهم بكرة خيط في يده في كثير من الأحيان وسلّمها إلى أحد الزبائن في أحيان كثيرة، عندها يعرف المرء السعر و يمكنه الحديث عنه، في حين تأتي القرى نحونا وتمرّ مسرعة، بينما في الوقت نفسه ينصرفون بعيداً في أعماق البلاد، حيث بالنسبة لنا لابد أن يختفون. ومع ذلك هذه القرى مأهولة، وربما هناك مسافرون يتنقلون من متجر إلى آخر.

في زاوية في النهاية البعيدة من العربة وقف رجل طويل القامة، يحمل ورق اللعب في يده، وصاح:

«أقول، ماري، هل حزمتِ القمصان الخفيفة؟»

«بالطبع فعلت ذلك»، قالت الامرأة، التي كانت تجلس قبالة رابان. كانت تغفو، والآن عندما أيقضها السؤال أجابت كما لو أنها كانت تتحدث مع نفسها أو مع رابان. «أنت ذاهب إلى السوق في جونغبنزلاو، إيه؟» سألها المسافر النشيط. «جونغبنزلاو، هذا صحيح.» وأضاف «أنه سوق كبير هذه المرة، أليس كذلك؟»

«سوق كبير، هذا صحيح». كان يغلبها النعاس، أسندت مرفقها الأيسر على حزمة زرقاء، وانخفض رأسها بشدة نحو يدها، التي انضغطت خلال لحم الخد على عظمة الوجنة. «يا لها من شابة»، قال المسافر.

أخرج رابان النقود التي استلمها من أمين الصندوق من جيب صدريته وعدّها. كان يمسك بكل قطعة معدنية بقوة بين الإبهام والسبابة لفترة طويلة، وكذلك كان يلويها بهذه الطريقة أو تلك على السطح الداخلي لإبهامه بطرف سبابته. أخذ يتطلع لفترة طويلة في صورة الإمبراطور، ثم هاله إكليل الغار والطريقة التي ثُبِتَ بعُقَد وأقواس الشريط في الجزء الخلفي من الرأس. أخيراً وجد أن المبلغ صحيح ووضع النقود في محفظة سوداء كبيرة. لكن الآن عندما @

كان على وشك أن يقول للمسافر: «إنهما زوجان، ألا تظن ذلك؟» توقفَ القطار. وتوقفَ ضجيج الرحلة، وصاح الحراس باسم المكان، ولم يفه رابان ببنت شفة.

بدأ القطار مرة أخرى ببطء شديد بحيث يمكن للمرء أن يصوّر دوران العجلات، ولكن بعد لحظة أخذ يسرع على منحدر، وبشكل غير متوقع تماماً تمزّقت الأسوار الطويلة للجسر، خارج النوافذ، وانضغطت معاً، كما بدت للعيان.

كان رابان الآن مسروراً بأن القطار يسير بسرعة كبيرة، لأنه لا يرغب في البقاء في المكان الأخير. «عندما يحلّ الظلام هناك، وعندما لا يعرف المرء أحداً هناك، وعندما يكون مثل هذا الطريق الطويل إلى البيت. ولكن عندها لا بد أن يكون الأمر هناك فظيعاً في النهار. لكن الأمر يكون مختلفاً في المحطة التالية أو في المحطات السابقة أو في المحطات اللاحقة أو في القرية التي أنا ذاهب اليها؟»

اخذ المسافر يتحدث فجأة بصوتٍ عالٍ. فكّر رابان، «ما يزال امامنا طريق طويل. سيدي، أنت تعرف تماماً مثلما أعرف، ان هؤلاء المصنّعين يرسلون مسافريهم إلى اكثر القرى الصغيرة كآبة، فهم يذهبون زحفاً إلى ارذل أصحاب المحال التجارية القليلة، وهل تظن بأنهم يعرضون عليهم أسعاراً مختلفة عن تلك التي يعرضونها علينا نحن رجال الأعمال الكبار؟ سيدي، خذْها مني؛ بالضبط الأسعار نفسها، بالأمس فقط رأيتُ الأمر اكثر سوءً. أسميها نذالة. انهم يمتصون وجودنا؛ ففي ظل الظروف الحالية يستحيل علينا ببساطة القيام بأعمال تجارية».

تطلّع مرة أخرى في رابان؛ لم يستحِ من الدموع في عينيه؛ ضغطَ أصابع يده اليسرى على فمه لأن شفتيه ترتعشان. انحنى رابان إلى الخلف وسحب بشكل ضعيف شاربه بيده اليسرى.

نهضت صاحبة الدكان التي كانت قبالتنا ومرّرت يديها مبتسمة على جبينها. كان المسافر يتحدث بهدوء اكثر. مرة أخرى تحولتْ المرأة كما لو انها ترتب امرها للنوم، وتنهّدت بينما كانت نصف مضطجعة على حزمتها. انسحبت التنورة ضاغطة أكثر على وركها الأيمن.

جلس خلفها رجل يعتمر قبعةَ سفرٍ على رأسه، يقرأ جريدة كبيرة. الفتاة قبالته، التي ربما كانت أحد أقربائه، حثّتْه ـ و هي في الوقت نفسه تميل برأسها نحو كتفها

الأيمن ـ لفتح النافذة، لأن الجو كان حاراً جداً جداً. قال، من دون أن يرفع طرفه، بأنه سيفعل ذلك في لحظة، إلاّ ان عليه أولاً الانتهاء من قراءة مقال في الجريدة، وأظهر لها المقال الذي قصده.

لم تستطع صاحبة الدكان من الخلود إلى النوم مرة أخرى؛ جلست منتصبة وتطلّعت عبر النافذة؛ ثم لفترة طويلة نظرت إلى المصباح الزيتي وإلى اللهب المشتعل بلون أصفر بالقرب من سقف العربة. أغلق رابان عينيه لبرهة.

عندما حملق إلى الأعلى، كانت صاحبة الدكان تقضم لتوّها قطعة من الكعكة المغطاة بالمربي البني. كانت الحزمة المجاورة لها مفتوحة. وكان المسافر يدخّن سيگاراً بصمت ومستمراً بحركات عصبية كما لو كان ينفض الرماد بعيداً عن نهايته. اما الآخر فكان يبحث عن الأجزاء المتحركة لساعةِ جيبٍ بطرف سكين، بحيث يمكن للمرء أن يسمع السكين وهي تكشط. وبعينيه المغمضتين تقريباً كان رابان ما يزال لديه الوقت ليرى، وبطريقة مشوّشة، قام الرجل المعتمر قبعة السفر بسحب حزام النافذة. جاءت هناك نفحة من هواء بارد، فسقطت قبعة القش من الخطاف. اعتقد رابان بأنه كان مستيقظاً وهذا هو السبب في ان وجنتيه كانتا منتعشتين جداً، أو ان شخصاً ما كان يفتح الباب ويسحبه {اي رابان} إلى داخل الغرفة، أو انه كان نوعاً ما مخطئاً بشأن الأشياء، وهو يتنفس بعمق، سرعان ما سقط نائماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(II)

كانت درجات الحافلة ماتزال تهتز قليلاً عندما ترجّل رابان منها. وفي وجهه، الخارج من هواء الحافلة، ضربه المطر، ولذلك اغلق عينيه. كانت السماء تمطر بشكل صاخب على سطح الحديد المموج لبناية المحطة، لكن في الخارج في الريف المفتوح سقط المطر بشكل بحيث بدا مثل هبوب رياح غير منقطعة. جاء صبي حافي القدمين يركض صاعداً ـ لم يرَ رابان من اين جاء ـ وطلب بأنفاس مبهورة من رابان السماح له بحمل الحقيبة، لأنها كانت تمطر؛ لكن رابان قال: نعم، انها تمطر، ومن ثم فإنه سيستقلّ الباص. وقال بأنه لم يكن بحاجة إلى هذا الصبي. على إثر ذلك عبس الصبي كما لو أنه اعتقد بأن المشي تحت المطر وحمل المرء حقيبته لأروع من الذهاب بالباص، وتحوّل على الفور وركض بعيداً. وعندما أراد رابان أن يناديه، كان الأوان قد فات.

كان ثمة مصباحان مضاءان، وخرج مسؤول المحطة من الباب. ودون تردد مشى خلال المطر إلى الماكنة، وقف هناك بلا حراك وذراعاه مطويتان، وانتظرَ حتى انحنى سائق الماكنة على القضبان وتحدَّث إليه. نودي بطلب بوّاب، وجاء، وطُلب منه الرجوع مرة أخرى. في العديد من النوافذ في القطار كان هناك مسافرون واقفون، ولأن ما كان عليهم أن ينظروا إليه هو مجرد محطة اعتيادية للسكك الحديد فإن تحديقهم ربما كان معتماً، والجفون قريبة من بعضها بعضا، كما لو أن القطار كان يتحرّك. جاءت فتاة مسرعة من الطريق إلى المنصة تحت مظلة مورّدة؛ وضعت المظلة المفتوحة على الأرض وجلست، دافعة بساقيها عن بعضهما بعضا من أجل أن تجف تنورتها بشكل أفضل، و مرّرت أطراف أصابعها على التنورة الضيقة. لم يكن هناك سوى مصباحين مضاءين؛ لذا لم يكن بالإمكان تمييز وجهها. جاء البواب واشتكى من أن البُرَك كانت تتشكل تحت المظلة؛ رفعَ ذراعيه على شكل نصف دائرة أمامه بغية توضيح حجم هذه البُرَك، ثم حرّك يديه في الهواء، الواحدة تلوى الأخرى، كأسماك تخوض في مياه عميقة، من أجل التوضيح بأن حركة المرور أيضاً تعرقلت بسبب المظلة.

بدأ القطار، واختفى كأنه باب طويل متحرّك على منزلق، وخلف أشجار الحور على الجانب البعيد من خط السكة الحديد كان هناك المشهد، ضخماً جداً بحيث يخلب اللب. هل كان هذا منظراً مظلماً عبر فجوة أو هل كان غابة، هل كان بركة، أم منزلاً كان فيه الناس نيام، هل كان برج كنيسة أم وادياً بين التلال؟ لا بد أن لا يتجرّأ اي شخص على الذهاب إلى هناك، ولكن مَن يتمكن أن يضبط نفسه؟

وعندما لمحَ رابان مسؤول المحطة ـ كان يهمّ بالصعود إلى مكتبه ـ ركض أمامه واستوقفه: «اسمح لي، من فضلك، هل المسافة بعيدة عن القرية؟ فذلك هو المكان الذي أريد أن أذهب إليه».

«لا، ربع ساعة، ولكن بالباص ـ لأنها تمطر ـ ستصل إلى هناك في غضون خمس دقائق».

«إنها تمطر. ليس ربيعاً جميلاً جداً»، قال رابان. وكان المسؤول قد وضع يده اليمنى على وركه، ومن خلال المثلث الذي شكّله الذراع والجسم رأى رابان الفتاة، التي كانت قد أغلقت الآن المظلة، على المقعد الذي تجلس عليه.

«عندما يذهب المرء في عُطَله الصيفية الآن، وينوي البقاء هناك، فإنه لا يسعه إلاّ أن يأسف على ذلك. في الواقع اعتقدتُ بأنه لابد أن يقابلني شخص ما». نظر حوله لجعل الأمر يبدو معقولاً.

«أخشى أن يفوتك الباص. فهي لا تنتظر وقتاً طويلاً. لا شيء تشكرني عليه. ذلك هو الطريق، بين الأسيجة». كان الطريق خارج محطة السكك الحديد غير مضاء؛ إذ ليس هناك سوى ثلاث نوافذ في الطابق الأرضي في المبنى كان يأتي منها وميض ضبابي، لكنه لا يمتد بعيداً. مشى رابان على رؤوس الأصابع عبر الطين و صاحَ «سائق»! و«مرحبا بك!» و«باص»! و«إنني هنا!» مرات عديدة. لكن عندما هبط بين البرك المستمرة على الجانب المظلم من الطريق، كان عليه أن يغذ الخطى إلى الأمام بكعبيه المتجهتين إلى الأسفل، حتى فجأة لامست جبينَه كمامةُ الحصان الرطبة.

@

ها هو ذا الباص؛ لذلك قفز بسرعة إلى مقصورة فارغة، جلس بجانب زجاج النافذة وراء غرفة السائق، وحنى ظهره في الزاوية، لأنه قد فعل كل ما هو ضروري. فإذا نام السائق، فانه سيستيقظ قبيل الصباح؛ وإن مات، عندها سوف يأتي سائق آخر، أو صاحب الحانة، ويجب أن لا يحدث أي منهما، ثم سيأتي الركاب بقطار الصباح الباكر، وبسبب عجلة الناس من أمرهم، ستصدر الضوضاء. على أي حال، يمكن أن يكون المرء هادئاً، يمكن للمرء أن يسحب الستائر على النوافذ وينتظر الهزّة التي لابد أن تبدأ بها العجلة.

«نعم، بعد كل الذي انجزته بالفعل، فمن المؤكد أنني غداً سأصل إلى بَتي وماما؛ إذ لا أحد يستطيع أن يمنع ذلك. مع ذلك فمن الصحيح، ومن المتوقع فعلاً، بأن رسالتي لن تصل إلاّ غداً، لذلك ربما أكون قد بقيتُ في المدينة وأمضيتُ ليلة جميلة في بيت الد□ي، من دون أن أخشى من عمل اليوم التالي، وهو الشيء الذي يدمّر بشكل أو بآخر كل بهجة بالنسبة لي. لكن انظر، لقد تبلّلت قدميّ.»

أشعلَ كعبَ شمعةٍ كان قد أخرجها من جيب صدريته ووضعها على المقعد المقابل. كانت ساطعة بما فيه الكفاية، جعلها الظلام في الخارج تبدو كما لو أن للباص جدراناً مشوشة سوداء بلا زجاج في النوافذ. لا حاجة للتفكير بأن هناك عجلات تحت الأرض وأمام الحصان بين الأعمدة. فرك رابان قدميه بشكل كامل على المقعد، وارتدى جوارب نظيفة، وجلس منتصباً. ثم سمع شخصاً من المحطة يصرخ: «مرحبا!» إذا كان هناك أي شخص في الحافلة ربما يقول كذلك. «نعم، نعم، وكان يود أن يبدأ الآن، ايضاً»، أجاب رابان، وهو يميل خارج الباب، الذي كان قد فتحه، متشبثاً بعضادة الباب بيده اليمنى، فيما كانت اليد اليسرى مفتوحة، على مقربة من فمه.

نزل المطر خلف رقبته، داخل ياقته.

وهو يلفّ نفسه بقماش جنفاص مأخوذ من كيسين جرى تقطيعهما، جاء السائق، وانعكاس فانوسه المستقر يقفز خلال البرك عند قدميه. وبانفعال بدأ يُعطي تفسيراً: أصغِ هنا، قال، كان يلعب الورق مع لبيدا وكانا منسجمين جداً عندما جاء القطار. وكانَ من المستحيل حقاً بالنسبة له إلقاء نظرة إلى الخارج في ذلك الحين، مع ذلك، هو لم يقصد الإساءة إلى أي شخص لم يفهم ذلك. بغض النظر عن ذلك، كان هذا المكان هنا نفاية قذرة، وليست هناك أي حلول، ومن الصعب أن نرى ما هو العمل الذي يمكن أن يقوم به رجل نبيل كهذا هنا، وأنه سوف يصل إلى هناك في وقت قريب جداً على أي حال، لذلك ليس من الضروري الذهاب والشكوى في أي مكان. والآن فقط السيد بيركرشوفر ـ من فضلك، ذلك هو مساعد الكاتب الصغير ـ قد دخل وقال إنه اعتقد بأن رجلاً أشقر صغيراً كان يريد أن يذهب بالباص. حسناً، لذلك جاء حالاً وسأل، أو ألم يأتِ حالاً ويسأل؟

كان الفانوس معلقاً بنهاية العمود؛ والحصان، بعد أن صاحوا به بصوت مخنوق، بدأ ينسحب، والماء على أعلى الباص، الذي بدأ الآن يتحرّك، أخذ يقطر ببطء خلال شقّ في العربة.

ربما كان الطريق كثير التلال؛ إذ إن هناك بالتأكيد طيناً يتطاير إلى شعاع العجلات؛ وتشكّلت مراوح من ماء البرك، بصوت مندفع، وراء العجلات الدائرة؛ إذ إن السائق كان بالنسبة للجزء الأكبر يقود الحصان المتصبّب بأعنّة راخية. ـ ألا يمكن استخدام كل هذا كتقريع ضد رابان؟ كانت الكثير من البرك مضاءة بشكل غير متوقع بالفانوس الذي يرتجف على العمود، ومنقسمة، على شكل تموجات، تحت العجلة. حدث هذا فقط لأن رابان كان مسافراً إلى خطيبته، إلى بَتي، وهي فتاة تقليدية جميلة. ومَن، لو قيّض للمرء أن يتحدث عن ذلك على الإطلاق، سيقدّر ما كان رابان يمتلكه من مزايا، حتى لو كان فقط في احتماله لكل تلك التقريعات، التي من المؤكد أن لا أحد يمكن أن يفعلها علناً. بالطبع أنه كان يقوم بذلك برحابة صدر. كانت بَتي خطيبته، وكان مولعاً بها، وسيكون من المثير للاشمئزاز لو شكرتْه على ذلك أيضاً، ولكن كل ذلك سيّان ـ.

ودون قصد، كان في كثير من الأحيان يضرب رأسه على اللوحة التي كان يتّكئ عليها، ثم لبعض الوقت أخذ يتطلع في السقف. إذ انزلقت يده اليمنى إلى الأسفل من فخذه، حيث كان يسندها. لكن مرفقه بقي في الزاوية بين البطن والساق.

كان الباص الآن يمرّ بين المنازل؛ هنا وهناك كان داخل العربة تأتيه حصة من الضوء من الغرفة؛ ثمة درجات ـ ومن أجل رؤية مقدّمتها اضطر رابان إلى الوقوف ـ موصولة إلى الكنيسة؛ إذ كان خارج بوابة الحديقة مصباح يتوهج فيه لهب كبير، لكن تمثال قديس برز في النقش البارز الأسود فقط بسبب الضوء القادم من محل البزّاز، ورأى رابان شمعته، التي احترقت عن آخرها، وبقايا الشمع تتدلى من المقعد.

عندما توقف الباص خارج الحانة، وكان بالإمكان سماع المطر بصوتٍ عالٍ و ـ ربما كانت هناك نافذة مفتوحة ـ وكذا كان بالإمكان سماع أصوات الضيوف، تساءل رابان أيّ من شأنه أن يكون أفضل، الخروج حالاً أم الانتظار حتى مجيء صاحب الحانة إلى العربة. إنه لم يعرف ما هو التقليد السائد في هذه البلدة، ولكن من المؤكد جداً بأن بَتي ستكون قد تحدّثت عن خطيبها، وحسب ما إذا كان وصوله هنا رائعاً أو واهناً، لذلك فإن الاحترام الذي تتمتع به هنا من شأنه أن يزداد أو يتضاءل، ووفق هذا المنظور، يكون احترامه هو، أيضاً. لكنه بالطبع لا يعلم ما كان يشعر به الناس تجاهها ولا يعرف ما الذي قد أخبرتهم به عنه، وهكذا كان كل شيء أكثر بغضاً وصعوبة. أوه، يا لها من مدينة جميلة وطريق عودة إلى البيت جميل! إذا هطل المطر هناك، يذهب المرء إلى بيته عن طريق الترام فوق الحصى الرطب؛ وهنا يذهب المرء في عربة عبر الطين إلى الحانة. ـ «المدينة بعيدة عن هذا المكان، ولو كنت الآن في خطر الموت من الحنين إلى الوطن، فأنه لا أحد بإمكانه أن يُرجعني إلى هناك مرة أخرى اليوم. ـ حسناً، على أي حال، أنا لا ينبغي أن أموت ـ ولكن هناك أحصل على الوجبة المتوقعة لذلك المساء، موضوعة على الطاولة، إلى اليمين وراء طبقي تكون الصحيفة، والمصباح إلى اليسار، هنا سيُقدّم اليّ طبق دسم بشكل مرعب وصحيفة غير مألوفة ـ إنهم لا يعرفون أن شهيتي ضعيفة، وحتى لو عرفوا فإن الكثير من الناس، الذين يمكنني أن أسمعهم، سيكونون هناك، وسوف يضاء مصباح واحد للجميع. أي نوع من الضوء يمكنه أن تقدمه؟ يكفي أن يلعبوا الورق بجانبه ـ ولكن ليس لقراءة الصحيفة.

«صاحب الحانة لا يأتي، فهو غير مهتم بالضيوف، ربما يكون رجل غير ودي. أو هل يعلم بأنني خطيب بَتي، وهل هذا يعطيه سبباً في عدم المجيء واصطحابي؟ وهذا يتوافق مع إبقاء السائق لي انتظر وقتاً طويلاً في المحطة. وكثيراً ما كانت بَتي تخبرني، برغم كل شيء، كم كانت متضايقة من الرجال الداعرين وكيف أنها كانت مضطرة لصد إصرارهم؛ ربما ذلك يحصل هنا أيضا...!» {النص منقطع}

{المخطوطة الثانية}

عندما مشى إدوارد رابان، القادم على طول الممر، إلى المدخل المفتوح، تمكّن الآن من رؤية كيف كانت السماء تمطر. لم تكن تمطر مطراً غزيراً.

على الرصيف مباشرة أمامه، ليس أعلى، وليس أقل من ذلك، كان هناك، برغم المطر، العديد من المارّة. وبين الفينة والفينة يخطو شخص ما إلى الأمام ويعبر الطريق.

ثمة فتاة صغيرة تحمل كلباً رمادياً على ذراعيها الممدودتين. كان سيدان يتبادلان المعلومات بشأن موضوع ما، تارة يحوّلان مقدّمة جسميهما بالكامل نحو بعضهما بعضا، وتارة يميلان ببطء عن بعضهما الآخر؛ وبدا الأمر مثل أبواب مواربة في مهب الريح. أحدهما يداه والراحتان إلى الأعلى، يرفعهما ويخفضهما بحركة منتظمة، كما لو كان يوازن حملاً، @

ً

لاختبار وزنه. ثم لمح الآخر سيدة نحيفة كان وجهها يرتعش قليلاً، مثل ارتعاشة ضوء النجوم، وقبّعتها المسطحة كانت مثقلة إلى الأعلى وإلى الحافة بأشياء لا يمكن تمييزها؛ بدت غريبة لكل المارّة، دون قصد، كما لو كان ذلك مفروضاً بالقانون. ومرّ مسرعاً شاب يحمل عصا مشي رقيقة، يضع يده اليسرى، كما لو أنها مشلولة، على صدره. كان العديدُ من الناس خارجين في أعمالهم؛ وبرغم حقيقة أنهم كانوا يمشون بسرعة، فإن المرء كان يراهم أطول من غيرهم، آناً على الرصيف، وآناً في الأسفل؛ كانت معاطفهم لا تلائمهم بشكل جيد؛ كما أنهم لا يهمهم كيف يحملون أنفسهم؛ فهم سمحوا للناس بدفعهم وهم أيضاً دفعوا الآخرين. ثمة ثلاثة سادة ــ اثنان منهم يحملان معاطف خفيفة على سواعدهما المعقوفة ــ كانوا يسيرون من أمام المبنى إلى حافة الرصيف، من أجل رؤية ما يجري في الطريق وعلى الرصيف الأبعد.

من خلال الفجوات بين المارة، الآن بشكل عابر، ثم بشكل مريح، كان المرء يرى الحصى المرصوف بانتظام في الطريق، الذي كانت العربات فيه، وهي تتمايل على عجلاتها، تسحبها الخيول بخفة بأعناق مقوّسة. كان الناس الذين جلسوا على راحتهم على مقاعد منجدة يحدّقون بصمت في المارّة، والمحلات التجارية، و الشرفات، والسماء. إذا حدث أن اجتازت عربةٌ عربةً أخرى، فإن الخيول تندفع مع بعضها بعضا، وتتدلّى أشرطة اللجام. فتُسحب الحيوانات من العوارض، وتتحرك العربة إلى الأمام، وهي تتمايل كلما زادت السرعة، حتى يكتمل الانحراف حول العربة وتبتعد الخيول مرة أخرى عن بعضها، فيما تبقى رؤوسها الهزيلة مائلة تجاه بعضها الآخر.

جاء رجل نبيل مسن مسرعاً نحو المدخل الأمامي، ووقف على الرصيف الفسيفسائي الجاف، واستدار. وبعد ذلك حدّق في المطر، الذي أخذ يسقط باضطراب، بعد أن انحشر في الشارع الضيق.

أنزل رابان الحقيبة ذات الغطاء المؤلف من القماش الأسود، وهو يحني ركبته اليمنى قليلاً عند قيامه بذلك. كانت مياه الأمطار تجري على طول حافة الطريق على شكل شرائط امتدت تقريباً إلى المزاريب الأقل ارتفاعاً.

وقفَ السيد المسن مستقيماً بالقرب من رابان، الذي كان يسند نفسه بالانحناء قليلاً أمام عضادة الباب الخشبي؛ ومن وقت إلى آخر كان يحملق نحو رابان، على الرغم من أنه من أجل أن يقوم بذلك كان عليه أن يلوي عنقه بشكل حاد. مع ذلك لم يفعل هذا إلاّ من وحي الرغبة الطبيعية، إذ صادف الآن أنه غير مشغول، في مراقبة كل شيء بالضبط، على الأقل في المناطق المجاورة له. وكانت نتيجة هذا التحديق الطائش هنا وهناك هو ان هناك قدراً كبيراً لم يلحظه. لذلك، على سبيل المثال، فاته بأن شفتي رابان كانتا شاحبتين جداً، ليست أقل كثيراً من اللون الأحمر المتلاشي من ربطة عنقه، التي كانت ذات يوم تمتلك نمطاً مغاربياً أخَّاذا. الآن، لو لاحظ هذا، لعملَ بالتأكيد ضجة حول هذا الموضوع، على الأقل داخلياً، حيث، مرة أخرى، لن يكون هذا الأمر الشيء الصائب، لأن رابان كان شاحباً دائماً، حتى لو، وهذه حقيقة، جعلتْه أشياءُ مختلفة متعباً على نحو خاص في الآونة الأخيرة.

«يا له من طقس!» قال الرجل النبيل بصوت خفيض وهو يهز رأسه، بوعي، كان ذلك صحيحاً، لكن ما يزال بطريقة خرفة نوعاً ما.

«نعم، فعلاً، وعندما يُفترض بأن أحداً ينطلق في رحلة، أيضاً،» قال رابان، وهو يستقيم بجسمه بسرعة.

«إنه ليس ذلك النوع من الطقس الذي من شأنه أن يتحسن»، قال الرجل النبيل، من أجل التأكد من ذلك مرة أخرى للمرة الأخيرة، وانحنى إلى الأمام ليتفحّص الشارع، ثم يشيح ببصره إلى أسفل، وبعد ذلك إلى السماء. «قد يستمر لأيام أو حتى لأسابيع. وبقدر ما أتذكر، وأيضاً لا شيء أفضل يمكن توقعه لشهر حزيران وبداية تموز. حسناً، لا يُسعد هذا أي شخص؛ أنا على سبيل المثال عليّ أن أتخلّى عن نزهاتي مشياً على الأقدام، والتي هي مهمة للغاية لصحتي».

وبهذا تثاءب وبدا منهكاً، لأنه سمع الآن صوت رابان و، لانهماكه بهذه المحادثة، لم يعد مهتماً بأي شيء، ولا حتى في المحادثة.

ترك هذا انطباعاً على رابان، لأنه رغم ذلك كان الرجل النبيل قد خاطبه أولاً، وهو لذلك حاول التباهي قليلاً، برغم عدم ظهور ذلك. قال، «صحيح، في المدينة يمكن للمرء بسهولة كبيرة الاستغناء عن كل ما هو ليس مفيداً لأحد. وعندما لا يستغني المرء عنه، عندها لا يلوم المرء إلاّ نفسه عن العواقب الوخيمة. وسيأسف المرء، وبهذه الطريقة سيرى للمرة الأولى بوضوح تام كيفية تدبّر الأمر في المرة القادمة. وحتى لو كان ذلك في المسائل التفصيلية.... {صفحتان مفقودتان}... «أنا لا أقصد من ذلك أي شيء. لا أقصد أي شيء على الإطلاق»، أسرع رابان إلى القول، واستعدّ للصفح عن شرود الذهن لدى الرجل النبيل بأي طريقة ممكنة، لأنه بعد كل هذا أراد اظهار مزيد من التباهي. «كل هذا جاء من الكتاب المذكور سابقاً، وأنا، مثل الآخرين، حدثَ أن قرأته في المساء في الآونة الأخيرة. لقد كنت وحيداً في اغلب الأحيان. ونظراً لظروف عائلية، كما ترى. ولكن بصرف النظر عن أي شيء آخر، فإن كتاباً جيداً هو ما أُفضّله أكثر بعد العشاء. دائما ما كان ذلك. فقط مؤخراً قرأت في نشرةٍ اقتباساً من أحد الكتّاب. «الكتاب الجيد هو أفضل صديق هناك، وهذا صحيح بالفعل، فالأمر هو كذلك، الكتاب الجيد هو أفضل صديق هناك».

«نعم، عندما يكون المرء شاباً ـ «قال الرجل النبيل، وهو لا يعني شيئاً على وجه الخصوص بقوله هذا، فقط لمجرد الرغبة في الإشارة إلى كيفية هطول المطر، إذ إن المطر اشتدّ من جديد، وأنه الآن لن يتوقف على الإطلاق؛ ولكن بالنسبة لرابان بدا الأمر برغم أنه في الستين إلاّ أن الرجل النبيل ما يزال يرى نفسه شاباً ويفيض حيوية ويرى سني رابان الثلاثين لا شيء مقارنة به، وبرغم أنه كان يقصد أن يقول إضافة إلى ذلك، بقدر الإمكان، بأنه في سن الثلاثين كان، بطبيعة الحال، أكثر عقلانية من رابان. كما اعتقد بأنه حتى لو لم يمتلك المرء شيئاً آخر يقوم به، مثله، على سبيل المثال، بوصفه رجلاً عجوزاً، مع ذلك كان حقاً إضاعة للوقت الوقوف هنا في هذه القاعة، والنظر إلى المطر، ولكن إذا قضى المرء الوقت، إلى جانب ذلك، في الثرثرة، فإن المرء يهدر ذلك الوقت على نحو مضاعف.

الآن ظنّ رابان لبعض الوقت بأن الآخرين لم يتحدثوا بشيء حول قدراته أو آرائه والذي من شأنه ان يؤثر عليه، على العكس من ذلك، {ظنّ} بأنه ترك بشكل ايجابي الموقف حيث كان يستمع، بشكل مطيع تماماً، إلى كل ما قيل، حتى إن الناس كانوا الآن مجرد يرهقون أنفسهم سواء كانوا ضده أو معه. «نحن نتحدث عن أشياء مختلفة، لأنك لم تنتظر لسماع ما كنتُ سأقوله».

«رجاءً استمر، رجاءً استمر»، قال الرجل النبيل.

قال رابان، «حسناً، ليس هذا مهماً جداً». كنت فقط أريد أن أقول بأن الكتب مفيدة بكل معنى الكلمة وخاصة في نواحي لا يتوقعها المرء. ذلك لأنه عندما يكون المرء على وشك الشروع بمشروع ما، فإن الكتب بالضبط الكتب التي لا تمتلك محتوياتها على الإطلاق أي قواسم مشتركة مع ذلك المشروع هي التي تكون الأكثر فائدة. بالنسبة للقارئ الذي ينوي برغم كل شيء الشروع في ذلك المشروع، بمعنى، {القارئ} الذي يصبح بطريقة أو بأخرى متحمساً (وحتى لو كان، إذا جاز التعبير، أثر الكتاب لا يمكنه أن يخترق سوى ذلك الحماس)، فأن الكتاب سيحفّزه إلى جميع أنواع الأفكار المتعلقة بمشروعه. الآن، على أي حال، لأن محتويات الكتاب هي على وجه التحديد عبارة عن شيء ما ينم عن لامبالاة مطلقة، فإن القارئ ليس @

خاضعاً على الإطلاق إلى تلك الأفكار، ويمرّ إلى منتصف الكتاب معها، كما مرّ ذات يوم اليهود عبر البحر الأحمر، وهذه هي الكيفية التي أود أن أطرح الموضوع فيها».

بالنسبة لرابان فإن شخص الرجل النبيل العجوز افصح الآن عن تعبير غير سار. بدا الأمر له كما لو انه قد انجذب بشكل خاص تجاهه ـ لكن هذا كان مجرد عبث... {صفحتان مفقودتان}... «الصحيفة، أيضاً. ـ ولكن كنت على وشك أن أقول، أنا ذاهب إلى الريف، هذا كل شيء، فقط لمدة أسبوعين؛ إنني آخذ عطلة للمرة الأولى لفترة زمنية طويلة نوعاً ما، وهي ضرورية لأسباب أخرى أيضاً، ومع ذلك على سبيل المثال فإن الكتاب، كما ذكرت، الذي كنت أقرأه مؤخراً علّمني عن رحلتي القصيرة أكثر مما قد تتصور».

قال الرجل النبيل، «أنا أستمع».

كان رابان صامتاً و، إذ يقف هناك منتصباً، وضع يديه في جيوب معطفه، التي كانت نوعاً ما مرتفعة للغاية. قال الرجل النبيل العجوز بعد هنيهة: «يبدو لهذه الرحلة أهمية خاصة بالنسبة لك.»

«حسنا، كما ترى، كما ترى»، قال رابان، وهو يسند نفسه مرة أخرى إلى عضادة الباب. الآن فقط رأى كيف كان الممر يغصّ بالناس. إذ كانوا يقفون حتى في أسفل السلّم، وثمة مسؤول، كان قد استأجر غرفة في شقة المرأة ذاتها كما استأجر رابان، عندما نزل السلّم تحتّم أن يطلب من الناس إفساح المجال له. بالنسبة إلى رابان، الذي كان يشير إلى المطر، صاح بعدة أشخاص، استداروا الآن نحو رابان قائلين،

«نتمنى لك رحلة جيدة» وكرروا وعداً، من الواضح أنهم قطعوه في وقت سابق، بزيارة رابان بالتأكيد الأحد المقبل.

{صفحتان مفقودتان}... لديه وظيفة ممتعة، مقتنع بها بالفعل وبقيتْ دائماً مفتوحة بالنسبة له. لديه قوى تحمل كبيرة وهو مبتهج جداً من الداخل بحيث لا يحتاج أي شخص لإمتاعه مطلقاً، ولكن الجميع بحاجة إليه. كان دائماً بصحة جيدة. أوه، لا تحاول أن تخبرني.

قال الرجل النبيل، «أنا لست بصدد الجدال».

«أنت لن تجادل، لكنك لن تعترف بخطأك أيضاً. لماذا تتشبّث بذلك إلى هذا الحد؟ ومهما كانت ذاكرتك حادة الآن، فإنك، أُراهن على ذلك، ستنسى كل شيء إذا ما أردتَّ التحدّث معه. ستلومني لعدم تفنيدك بشكل أكثر فعالية الآن. وإذا ما يتحدث عن الكتاب. فهو يكون منتشياً على الفور بكل شيء جميل...».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكم

كان صباح يوم أحد في أوج الربيع. كان جورج بنديمان، وهو تاجر شاب، يجلس في غرفته الخاصة في الطابق الأول لصف طويل من المنازل الصغيرة، الآيلة للسقوط الممتدة بجانب النهر والتي لا يمكن تمييزها عن بعضها بعضا من حيث الارتفاع والتلوين. كان قد أنهى لتوه رسالة إلى صديق قديم له يعيش الآن في الخارج، ووضعها في مظروفها بطريقة بطيئة وحالمة، وبمرفقيه المسنودين على طاولة الكتابة أخذ يحدّق عبر النافذة في النهر، والجسر، والتلال على الضفة البعيدة للنهر بخضرتها اليانعة.

كان يفكّر بصديقه، الذي هرب في الواقع إلى روسيا قبل بضع سنوات، وهو غير راضٍ عن مستقبله في بلده. الآن استمرّ بمزاولة عمل في سان بطرسبرغ، الذي ازدهر في البداية لكنه أخذ يتراجع منذ فترة طويلة، حسبما كان يشتكى دائماً أثناء زياراته النادرة جداً. لذلك أنهك نفسه من دون أي غرض في بلد أجنبي، ولحيته الكاملة غير المألوفة لم تخفِ تماماً الوجه الذي عُرِف به جورج جيداً منذ طفولته، كما أن جلده أصبح شاحباً ليشير إلى مرض كامن. وحسب روايته هو لم يكن لديه اتصال منتظم مع مستعمرة مواطنيه هناك، وليس لديه أي اتصال اجتماعي مع الأسر الروسية، بحيث إنه جعل نفسه ليصبح عازباً دائماً.

ما عسى أن يكتب المرء إلى مثل هذا الرجل، الذي يتضح أنه حادَ عن الطريق، وهو رجل يمكن للمرء أن يتأسف عليه لكنه لا يسعه ذلك. هل ينبغي للمرء أن ينصحه بالقدوم إلى البيت، لينقل نفسه ويبدأ بصداقاته القديمة مرة أخرى ـ إذ ليس هناك ما يعيقه ـ وبشكل عام يعتمد على مساعدة من أصدقائه؟ لكن هذا كان جيداً بمثابة قولك له، الذي كلما كان بلطف كان أكثر عدوانية، بأن كل جهوده حتى الآن أجهضت، وأن عليه أن يستسلم في النهاية، ويعود إلى المنزل، ويحدّق الجميع في وجهه بوصفه المسرف العائد، الذي لا يعرف ما يدور في خلده سوى أصدقاءه وأنه هو نفسه كان مجرد طفل كبير ينبغي أن يفعل ما يصفه له اصدقاؤه الناجحون، الملازمون إلى البيت. وهل من المؤكد، إلى جانب ذلك، أن كل الآلام التي يجب على المرء أن يلحقها به ستحقق هدفها؟ ربما لن يكون من الممكن جعله يأتي إلى البيت بالمرة ـ فقد قال بنفسه إنه الآن بعيد كل البعد عن التجارة في وطنه ـ وبعد ذلك سيُترك غريباً في أرض أجنبية يتجرّع مرارة نصيحة أصدقائه وأكثر بعداً من أي وقت مضى عنهم. لكن إذا ما تبع نصحهم ولم يلائمه البيت ـ ليس خبثاً، بطبيعة الحال، ولكن بسبب قوة الظروف ـ فهو لا يمكنه التواصل مع أصدقائه أو دونهم، ويشعر بالمهانة، ولا يمكن أن يقال عنه بأن لديه أصدقاء أو بلداً خاصاً به، أليس من الأفضل له أن يبقى في الخارج تماماً كما كان؟ وبأخذ كل هذا بنظر الاعتبار، كيف يمكن للمرء أن يكون على يقين من أنه سيحقّق نجاحاً في الحياة في وطنه؟

لهذه الأسباب، لنفترض أن أحداً أراد الاستمرار بمراسلته، فأنه لا يمكنه أن يرسل له أي أخبار حقيقية كتلك التي تقال بصراحة إلى الأقرباء الأكثر بعداً. لقد مرّت أكثر من ثلاث سنوات منذ زيارته الأخيرة، ومن أجل هذا قدّم حجة واهية بأن

الوضع السياسي في روسيا كان مضطرباً جداً، والذي لا يسمح على ما يبدو حتى أقصر غياب لرجل أعمال صغير في حين أنه أتاح لمئات الآلاف من الروس السفر بسلام إلى الخارج. ولكن أثناء هذه السنوات الثلاث كان موقف جورج نفسه في الحياة قد تغير كثيراً. قبل سنتين توفيت والدته، منذ أن كان هو ووالده قد تقاسما أعباء العائلة معاً، وجرى إخبار صديقه بطبيعة الحال بذلك، وأعرب عن تعاطفه برسالةٍ صيغت بجفاء شديد لدرجة أن الحزن الذي سبّبه مثل هذا الحدث، بوسع المرء أن يستنتج، لا يمكن إدراكه في بلد بعيد. ومنذ ذلك الحين، على أي حال، أجهد جورج نفسه بعزم لا يلين في العمل وبأي شيء آخر.

ربما أثناء حياة والدته كان إصرار والده على أن يأخذ كل شيء طريقه الخاص في العمل قد أعاقه من تطوير أي نشاط حقيقي خاص به، وربما منذ وفاتها أصبح والده أقل عدوانية، على الرغم من أنه كان ما يزال نشيطاً في الأعمال التجارية، ربما كان هذا يرجع في معظمه إلى ضربة حظ موفقة ـ هي من المحتمل جداً كانت كذلك ـ ولكن على أي حال أثناء تلك السنتين تطورت الأعمال التجارية بطريقة غير متوقعة جداً، ولابد أن الموظفين تضاعفت أعدادهم، وتعاظمت المبيعات بخمسة أضعافها؛ ولا شك في ذلك، إن المزيد من التقدم قادم.

لكن صديق جورج ليس لديه أدنى فكرة عن هذا التحسن. في السنوات السابقة، ربما في المرة الأخيرة في رسالة التعزية تلك، حاول اقناع جورج بالهجرة إلى روسيا وأسهب في احتمالات النجاح لفرع جورج التجاري بالضبط. وكانت الأرقام المذكورة صغيرة جداً بالمقارنة مع نطاق عمليات جورج الحالية. مع ذلك انتفض من مسألة جعل صديقه يعرف مدى نجاحه التجاري، ولو قيّض له أن يفعل ذلك الآن بأثر رجعي فأن ذلك بالتأكيد سوف يبدو غريباً.

لذلك آلَ جورج على نفسه تبادل أحاديث غير مهمة مع صديقه كتلك التي تطفح عشوائياً في الذاكرة عندما يفكر بها المرء بكسلٍ في يوم أحدٍ هادئ. كل الذي كان يرغب فيه هو ترك فكرة مدينته الأم التي كان لابد لصديَقه أن يبنيها حسب قناعته أثناء الفترة الفاصلة الطويلة. وهكذا حدث لجورج بأن أخبر صديقه ثلاث مرات في ثلاث رسائل منفصلة حول ارتباط رجل غير مهم بفتاة غير مهمة أيضاً، حتى بالفعل، تماماً على عكس نواياه، بدأ صديقه بإظهار بعض الاهتمام بهذا الحدث البارز.

مع ذلك فضَّل جورج أن يكتب عن أشياء كهذه بدلاً من الاعتراف بأنه هو نفسه قد ارتبط قبل شهر بالآنسة فريدا براندنفيلد، وهي فتاة من عائلة موسرة. وكثيراً ما كان يناقش صديقه بموضوع خطيبته والعلاقة الخاصة التي نشأت بينهما في مراسلاتهما. «ومن ثم لن يأتي إلى زفافنا»، قالت، «ومع ذلك لدي الحق في التعرف على كل أصدقائك». «أنا لا أريد أن أزعجه»، أجاب جورج، «لا تسيئي فهمي، ربما يأتي على الأرجح، على الأقل أعتقد ذلك، لكنه يشعر بأنه مكره على ذلك وأنه سوف يتأذى، ربما كان سيحسدني وبالتأكيد سيكون ساخطاً من دون أن يتمكن من فعل أي شيء حيال استيائه وسيضطر إلى أن يبتعد مرة أخرى وحيداً. وحيداً ـ هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟» «نعم، لكن ألا يمكن أن يسمع عن زفافنا

بطريقة أخرى؟» «لا أستطيع منع هذا، بطبيعة الحال، لكنه من غير المرجّح، عند الأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي يعيش فيها.» «ولأن أصدقاءك هم من هذا القبيل، يا جورج، فإنك لا ينبغي أبداً أن ترتبط على الإطلاق» «حسناً، كلانا ملوم على حد سواء إزاء ذلك؛ ولكنني لن أفهم الأمر بأية طريقة أخرى الآن. «وعندما تتنفس بسرعة تحت قبلاته، فهي ما تزال تعيد: «كل شيء سيّان عندي، وأنني أشعر بالضيق»، كان يعتقد بأنه لا يمكن حقاً أن يقع في ورطة لو أرسلَ الخبر إلى صديقه. «ذلك هو أنا وعليه أن يتقبلني كما أنا»، قال في نفسه، «أنا لا أستطيع أن أُكيّف نفسي إلى نمط آخر قد يجعل مني صديقاً أكثر ملائمة بالنسبة له».

في واقع الأمر أنه لم يبلغ صديقه، في الرسالة الطويلة التي كان قد كتبها في صباح ذلك الأحد، عن خطوبته، بهذه الكلمات: «لقد احتفظتُ بأفضل أخباري إلى النهاية. لقد ارتبطت بالآنسة فريدا براندنفيلد، وهي فتاة من عائلة موسرة، جاءت للعيش هنا بعد فترة طويلة من ابتعادك، بحيث يصعب عليك جداً أن تعرفها. سيكون هناك متسع من الوقت لأخبرك المزيد عنها في وقت لاحق، بالنسبة لهذا اليوم اسمح لي فقط أن أقول بأنني سعيد جداً وبيني وبينك فإن الفرق الوحيد في علاقتنا هو أنه بدلاً من وجود صديق عادي جداً ستجد الآن فيّ صديقاً سعيداً. بالإضافة إلى ذلك، سوف تكتسب في خطيبتي، التي ترسل تحياتها الدافئة والتي قريباً ستكتب لك بنفسها، صديقة حقيقية من الجنس الآخر، وهذا لا يخلو من أهمية بالنسبة لعازب.

أعلم أن هناك العديد من الأسباب عن عدم مجيئك لرؤيتنا، ولكن ألن يكون زواجي بالضبط الفرصة المناسبة لنقول لكل العقبات وداعاً؟ مع ذلك، مهما يكن من أمر، أفعل كل ما يبدو جيداً بالنسبة لك دون الالتفات إلى أية مصالح خلا مصلحتك أنت».

وبينما كانت هذه الرسالة في يده جلس جورج فترة طويلة إلى طاولة الكتابة، ووجهه متحول صوب النافذة. وكان بالكاد يلتفت، بابتسامة غائبة، إلى تحية ألقاها عليه من الشارع أحد معارفه المارّين.

أخيراً وضع الرسالة في جيبه وخرج من غرفته عبر رواق صغير في غرفة والده، التي لم يدخلها لعدة أشهر. إذ ليس هناك في الواقع حاجة للدخول إليها، لأنه كان يرى والده يومياً في العمل ويتناولان وجبة غدائهما معاً في مطعم؛ في المساء، صحيح، كل شخص فعل كما يحلو له، لكن حتى في ذلك الحين، ما لم يخرج جورج ـ كما كان ذلك يحدث في الغالب ـ مع أصدقائه أو، في الآونة الأخيرة، يزور خطيبته، فإنهم كانوا يجلسون دائماً لفترة من الوقت، ولكل منهم صحيفته، في غرفة جلوسهم المشتركة.

تفاجأ جورج بظلام غرفة والده حتى في هذا الصباح المشمس. فقد كان يظللها كثيراً جدار عالٍ على الجانب الآخر من الفناء الضيق. كان والده يجلس قرب النافذة في زاوية معلق عليها مختلف تذكارات أم جورج الميتة، يقرأ صحيفة كان يحملها إلى أحد الجوانب أمام عينيه في محاولة للتغلب على قصور في الرؤية. وعلى الطاولة كانت بقايا وجبة إفطاره، الذي بدا لم يؤكل منه الكثير.

«آه، يا جورج»، قال والده، وهو ينهض حالاً لمقابلته. كان ثوبه الثقيل يتأرجح مفتوحاً بينما كان يسير وترفرف حواشيه حوله. ـ «ما يزال أبي رجلاً عملاقاً»، قال جورج لنفسه.

«إنها مظلمة هنا بشكل لا يطاق»، قال بصوت عال.

«نعم، إنها مظلمة بما فيه الكفاية»، أجاب والده.

«وإنك أغلقتَ النافذة، أيضا؟»

«أنا أُفضّل الأمر هكذا.»

«حسناً، الجو دافئ جداً في الخارج»، قال جورج، كما لو أنه مستمرّ بملاحظته السابقة، وجلس.

أزال والده أطباق الإفطار ووضعها على صندوق.

«لم أرد حقاً سوى أن أقول لك»، استمرَّ جورج، الذي كان يتابع تحركات العجوز ببلاهة، بأنني الآن أقوم بإرسال أخبار خطوبتي إلى سان بطرسبيرغ». سحب الرسالة قليلاً من جيبه وأرجعها مرة أخرى.

«إلى سانت بطرسبيرغ؟» سأل والده.

«إلى صديقي هناك»، قال جورج، محاولاً مواجهة عين والده. ـ في ساعات العمل يكون مختلفاً تماماً، كان يفكر، كيف يجلس بصلابة وذراعاه متصالبتان.

«أوه، نعم، إلى صديقك»، قال والده، بتركيز غريب.

«حسناً، أنت تعرف يا أبي، بأنني لم أرغب في إخباره عن خطوبتي في البداية. من وجهة النظر بالنسبة له، كان ذلك هو السبب الوحيد. أنت نفسك تعرف بأنه رجل صعب. قلت في نفسي إن شخصاً ما آخر قد يخبره عن خطوبتي، على الرغم من أنه ذلك المخلوق الانفرادي جداً لدرجة أن ذلك مستبعد ـ لم يكن بوسعي منع ذلك ـ ولكنني لم أكن لأقول له بنفسي».

«والآن هل غيرتَ رأيك؟» سأل والدُه، وهو يضع جريدته الكبيرة على عتبة النافذة وعلى أعلى من ذلك {وضع} نظارته، التي غطّاها بيد واحدة.

«نعم، لقد فكّرت في هذا الأمر ملياً. إذا كان هو صديق جيد لي، قلت في نفسي، فإن كوني مرتبطاً بسعادة لابد أن تجعله سعيداً أيضاً. ولذا فإنني لا أؤجّل مسالة إخباره كثيراً. ولكن قبل أن أرسل الرسالة أردت أن أعلمك».

«يا جورج»، قال والده، وهو يمطّ فمه الخالي من الأسنان، «استمع إليّ! لقد جئتَ لي حول هذا الشأن، لتتحدث به معي. لا شك في أن ذلك يشرّفك. لكن هذا لا شيء، بل أسوأ من لا شيء، عندما لا تقول لي الحقيقة كاملة. إنني لا أريد إثارة الأمور التي لا ينبغي أن تُذكر هنا. فمنذ وفاة أمّنا العزيزة تمّ القيام ببعض الأشياء التي ليست صائبة. ربما سيحين الوقت لذكرها، وربما في وقت أقرب مما نعتقد. هناك

العديد من الأشياء في العمل التي لستَ على علم بها، ربما لم تَفعل من وراء ظهري ـ لن أقول إن ذلك جرى من وراء ظهري ـ فأنا لست بقدر تلك الأشياء، ذاكرتي تخونني، وليست لدي رؤية بالنسبة لأشياء كثيرة. وهذا هو مجرى الطبيعة في المقام الأول، وفي المقام الثاني وفاة والدتنا العزيزة أصابتني أشدّ مما اصابتك. ـ ولكن بما إننا نتحدث عن ذلك، حول هذه الرسالة، أتوسل إليك، يا جورج، لا تخدعني. إنها قضية تافهة، لا تستحق الذكر، لذلك لا تخدعني. هل لديك حقاً هذا الصديق في سان بطرسبيرغ؟»

نهض جورج محرجاً. «لا تهتموا يا أصدقائي. فألف صديق لا يعوّضني عن والدي. هل تعرف ما أفكّر به؟ إنك لا تهتم كثيراً بنفسك. ولكن لا بد من الاهتمام بالشيخوخة. لا أستطيع أن أعمل من دونك في هذا العمل التجاري، وأنت تعرف ذلك تمام المعرفة، ولكن إذا كان العمل سيقوض صحتك، فأنا مستعد لإغلاقه غداً إلى الأبد. وذلك لن يفلح. علينا أن نقوم بإجراء تغيير في طريقة معيشتك. ولكن تغيير جذريّ. أنت تجلس هنا في الظلام، وفي غرفة الجلوس ستتنعم بالكثير من الضوء. ما عليك سوى تناول لقمة في الإفطار من أجل الاحتفاظ بقوتك إلى حدّ بعيد. تجلس بجانب نافذة مغلقة، وسيكون الهواء جيداً بالنسبة لك. لا، يا أبي! سأحضر الطبيب، وسوف نتبع أوامره. سنقوم بتغيير غرفتك، يمكنك الانتقال إلى الغرفة الأمامية وسوف أنتقل إلى هنا. لن تلاحظ التغيير، إذ إن جميع أشيائك ستنتقل معك. ولكن هناك وقت لكل ذلك فيما بعد، سوف أضعك في السُرير الآن لبعض الوقت، فأنا على يقين من أنك بحاجة إلى الراحة. هيّا، سوف أُساعدك على خلع ثيابك، سترى بأنني أستطيع أن أفعل ذلك. أو إذا كنت تفضل الذهاب إلى الغرفة الأمامية حالاً، يمكنك الاستلقاء في سريري في الوقت الحاضر. وذلك سيكون الشيء الأكثر منطقية.»

وقف جورج قريباً بجانب والده، الذي ترك رأسه بشعره الأشيب غير المرتّب ينحدر على صدره.

«جورج»، قال والده بصوت منخفض، من دون أن يتحرك.

انحنى جورج حالاً بجانب والده، وفي الوجه المنهك للرجل العجوز رأى الحدقتين، متوسعتين، تنظران إليه بثبات من زوايا العينين.

«ليس لديك صديق في سانت بطرسبيرغ. لقد كنتَ دائماً معرقلاً ولم تتوانَ عن صدّي. كيف يمكن أن يكون لديك صديق هناك! لا أستطيع أن أصدّق ذلك».

«فقط ارجع بتفكيرك إلى الوراء قليلاً، يا أبي»، قال جورج، وهو يرفع والده من الكرسي ويخلع ثوبه بينما كان يقف بوهن كبير، «ستمرّ قريباً ثلاث سنوات مذ جاء صديقي لرؤيتنا آخر مرة. أتذكر أنك اعتدتَ أن لا تحبه بالمرة. على الأقل منعتُك مرتين من رؤيته، على الرغم من أنه كان يجلس في الواقع معي في غرفتي. بوسعي أن أفهم جيداً كرهك له، فلصديقي خصوصياته. ولكن حينها، في وقت لاحق، انسجمتَ معه أيما انسجام. أنا فخور لأنك استمعتَ له وأومأتَ وسألتَه أسئلة. لو عدتَّ بتفكيرك إلى الوراء فستتذكر حتماً. لقد اعتاد أن يسرد لنا القصص الأكثر

دهشة عن الثورة الروسية. على سبيل المثال، عندما كان في رحلة عمل إلى كييف وصادف أعمال شغب، رأى كاهناً على شرفةٍ مسح صليباً عريضاً مليئاً بالدم على راحة يده ورفع يده عالياً وناشد الغوغاء. لقد سردتَّ تلك القصة بنفسك مرة أو مرتين منذ ذلك الحين».

في هذه الأثناء نجح جورج في إنزال والده مرة أخرى وبعناية خلع سرواله الصوفي الذي كان يرتديه فوق لباسه الكتاني وجواربه. فمظهر ملابسه الداخلية غير النظيف بالمرة جعله يؤنّب نفسه لكونه اصبح مهملاً. لابد أنه كان من واجبه بالتأكيد أن يرى أن لوالده تبديلات نظيفة من الملابس الداخلية. لم يناقش بشكل واضح حتى الآن مع عروسه المستقبلية الترتيبات الواجب اتخاذها حيال والده في المستقبل، ذلك لأنهما بصمت اعتبرا من المسلم به بأن الرجل العجوز سيستمر في العيش وحيداً في البيت القديم. لكنه الآن اتّخذ قراراً حاسماً، سريعاً لنقله إلى مؤسسته المستقبلية الخاصة به. وبدا الأمر تقريباً، عند المعاينة عن كثب، وكأن العناية التي قصد اغداقها هناك على والده ربما جات متأخرة.

حمل والده إلى الفراش بين ذراعيه. وقد تملّكه شعور مروّع إذ لاحظ بأنه في الوقت الذي أخذ الخطوات القليلة نحو السرير كان الرجل العجوز على صدره يلهو بسلسلة ساعته. لم يتمكن من وضعه على السرير للحظة، لأنه كان متشبّثًا بقوة بسلسلة الساعة.

ولكن بمجرد أن وُضِع في السرير، بدا كل شيء على ما يرام. إذ غطّى نفسه وحتى سحب البطانيات أبعد من المعتاد على كتفيه. وتطلّع في جورج بعين ودية.

«حاول أن تتذكر صديقي، أليس كذلك؟» سأل جورج، وهو يعطيه إشارة مشجعة.

«هل أنني مغطى جيداً الآن؟» سأل والدُه، كما لو أنه لم يكن قادراً على رؤية إن كانت قدماه مدسوستين بشكل صحيح أم لا.

«لذلك تجد الأمر مريحاً في السرير»، قال جورج، وسحب البطانيات أكثر فأكثر حوله.

«هل أنني مغطى جيداً؟» سأل الأبُ مرة أخرى، على ما يبدو أنه مصرّ بشكل غريب على الجواب.

«لا تقلق، أنت مغطى جيداً».

«لا!»، صاح والده، وهو يختصر الجواب، ورمى البطانيات بقوة جعلتها تتطاير جميعها للحظة ووثب منتصباً في السرير. ثمة يد واحدة فقط مسّت بخفةٍ السقفَ لتوازن الوالد.

«أردتَ أن تغطيني، أنا أعلم، يا ريحانة عمري، لكنني أبعد من كوني مغطى حتى الآن. وحتى لو كان هذا هو آخر قواي التي امتلكها، فهذا يكفي بالنسبة لك، كثير جداً بالنسبة لك. بالطبع أنا أعرف صديقك. كان ابناً مثلما يتمناه قلبي. لهذا السبب كنتَ تخدعه كل هذه السنوات. وإلاّ لماذا؟ هل تعتقد بأنني لم أكن متأسفاً عليه؟ وهذا هو

السبب لماذا تحتّم عليك سجن نفسك في مكتبك ـ الرئيس مشغول، ويجب عدم إزعاجه ـ فقط بحيث تتمكن من كتابة رسائلك الصغيرة إلى روسيا. ولكن الحمد لله لا حاجة لتعليم الأب كيف يدرك حقيقة ابنه. والآن بعد أن اعتقدتَ بأنك قد أوقعْته حزناً وكمداً، إلى الأسفل بحيث يمكن أن تضع مؤخرتك عليه وتجلس فوقه وهو لن يتحرك، عندها فإن ابني اللطيف يقرر أن يتزوج!»

حدّق جورج في البعبع الذي استحضره والده. صديقه في سانت بطرسبيرغ، الذي عرفه والدُه فجأة بشكل جيد، قدح خياله كما لم يحدث له ذلك من قبل. رآه ضائعاً في أراضي روسيا الشاسعة. رآه عند باب مستودع فارغ، منهوب. وبين حطام خزائن العرض، والبقايا المقطوعة لبضاعته، ومساند الغاز الساقطة، كان واقفاً ليس إلاّ. لماذا كان عليه الذهاب بعيداً جداً!

«ولكن أصغِ إليّ!» صاح والده، و جورج، منصرف الذهن تقريباً، ركض نحو السرير لأخذ كل شيء، مع ذلك توقف في منتصف الطريق.

«لأنها رفعت تنورتها»، بدأ والده يغرّد، «لأنها رفعت تنورتها على هذه الشاكلة، هذه المخلوقة السيئة»، ومحاكاةً لها رفع قميصه عالياً جداً لدرجة أن المرء يمكن أن يرى الندبة على فخذه من جرحه في الحرب، «لأنها رفعت تنورتها بهذا الشكل فإنك استحسنتها، ومن أجل أن تستغلها دونما حرج لطّخت ذاكرة والدتك بالعار، وخنتَ صديقك، ووضعتَ والدك في السرير من أجل أن لا يتمكن من الحركة. لكنه يمكن ان يتحرك، أم أنه لا يمكنه ذلك؟».

ووقف غير مستندٍ تماماً وأخرج ساقيه. وبصيرته جعلته مشعاً.

انكمش جورج إلى الزاوية، وبعيداً عن والده قدر الإمكان. قبل وقت طويل قرّر بقوة أن يراقب عن كثب كل حركة من اجل أن لا يتفاجأ بأي هجوم غير مباشر، انقضاض من الخلف أو من الأعلى. في هذه اللحظة استذكر عزمه الذي طواه النسيان ونسيه مرة أخرى، مثل رجل يسحب خيطاً قصيراً من خلال ثقب إبرة.

«لكن صديقك لم يتعرض إلى الخيانة رغم كل شيء!» صاح والده، مؤكداً على النقطة بطعنات من سبابته. «أنني أُمثّله هنا في هذا المكان.»

«أيها الكوميديّ لم يستطع جورج مقاومة الرد الساخر، أدرك في الحال الضرر الذي ألحَقَه و، عيناه يدوران في رأسه، توقّف عن الكلام، فقط بعد فوات الأوان، حتى بان الألمُ على ركبتيه.

«نعم، بالطبع كنتُ أمثّل ملهاة! ملهاة! ذلك خير تعبير! ايّ عزاء آخر تُركَ لأرملٍ عجوزٍ مسكين؟ قل لي ـ وبينما تجيبني فأنت ما تزال ابني الحيّ ـ ماذا بقي لي، في غرفتيَ الخلفية، المبتلاة بكادر خائن، والقديمة جداً؟ وابني المتبختر عبر العالم، والمنتهي من صفقات كنتُ قد أعددتها له، والذي يفيض بغبطة منتصرة، والمبتعد عن والده بالوجه المنغلق لرجل أعمال محترم! هل تعتقد بأنني لم أحبك، أنا، الذي عن طريقه رأيتَ الدنيا.

الآن سوف يميل إلى الأمام، فكر جورج، ماذا لو سقط وحطم نفسه! بقيت هذه الكلمات ترن في عقله.

انحنى والده إلى الأمام لكنه لم يسقط. ولأن جورج لم يقترب، كما كان متوقعاً، فإنه قوَّم نفسه مرة أخرى.

«ابقَ حيث أنت، لستُ بحاجة إليك! تعتقد بأن لديك ما يكفي من القوة بحيث تأتي إلى هنا و تتأخر بمحض إرادتك. لا تكن على يقين تام! فأنا ما أزال أقوى الاثنين بكثير. بمفردي تماماً ربما تحتَّم عليّ أن افسح المجال، لكن والدتك أعطتني كثيراً من قوتها بحيث أقمتُ اتصالاً جميلاً مع صديقك كما أن زبائنك هنا طوع بناني!»

«عنده جيوب حتى في قميصه!» قال جورج في نفسه، واعتقد بأنه بهذه الملاحظة يمكن أن يجعل منه شخصية مستحيلة للعالم أجمع. للحظة فقط أخذ يفكر هكذا، لأنه داوم على نسيان كل شيء.

«فقط خذ عروسك على ذراعك وحاول الوقوف في طريقي! سأكتسحها من جانبك تماماً، أنت لا تعرف كيف!»

أشاح جورج بوجهه كعلامة لعدم التصديق. أومأ والده برأسه فقط، مؤكداً صدق كلامه، نحو زاوية جورج.

«كم سلّيتني اليوم، إذ تأتي لتسألني إن كان يجب أن تخبر صديقك بخطوبتك. فهو يعرف ذلك مسبقاً، أيها الصبي الأحمق، هو يعلم ذلك كله! لقد كتبتُ له، لأنك نسيتَ أن تُبعد كتاباتي. وهذا هو السبب في انه لم يكن هنا لسنوات، فهو يعرف كل شيء مئة مرة أفضل مما تعرفه أنت، في يده اليسرى يجعّد رسائلك وهي مغلقة بينما في يده اليمنى يحمل رسائلي ليقرأها!».

ووسط حماسه هذا لوَّح بذراعه فوق رأسه. وصاح، «إنه يعرف كل شيء أفضل ألف مرة!».

«عشرة آلاف مرة!» قال جورج، ليسخر من والده، ولكن تحولت الكلمات في فمه نفسه إلى كلمات جدية قاتلة.

«لسنوات كنت أنتظرك أن تأتي بمثل هذا السؤال! هل تعتقد بأنني أشغل نفسي بأيِ شيء آخر غيره؟ هل تعتقد بأنني قرأتُ صحفي؟ انظر!» وألقى لجورج ورقة صحيفةٍ كان قد أخذها بطريقة أو بأخرى إلى السرير معه. صحيفة قديمة، تحمل اسماً غير معروف تماماً لجورج.

«كم من الوقت تستغرقه لكي تكبر! كان على أمك أن تموت، فهي لم ترَ يوم السعد، صديقك ذاهب إلى أجزاء في روسيا، وحتى قبل ثلاث سنوات كان أصفر بما فيه الكفاية بحيث لابد أن يُرمى، وبالنسبة لي، فأنت ترى الحالة التي أنا فيها. لديك عينان في رأسك لذلك الغرض!».

«لذلك فأنت قد تتربص بي!» صاح جورج.

قال والده بإشفاق، بطريقة ارتجالية: «افترضْ بأنك أردتَ أن تقول ذلك عاجلاً. لكن الآن لا يهم». وبصوت أعلى: «إذن الآن أنت تعلم ماذا يوجد هناك في العالم إضافة إلى نفسك، حتى الآن أنت لا تعرف إلاّ عن نفسك! طفل بريء، نعم، هكذا كنتَ، حقاً، ولكن الذي ما يزال أكثر صدقاً هو أنك كائن شيطاني إنساني! ــ ومن ثم اعلم الآن: أنا أحكم عليك الآن بالموت غرقاً!».

شعر جورج نفسَه بأنه أثيرَ من الغرفة، إذ إن الاصطدام الذي سقط به والده على السرير وراءه كان ما يزال يرنّ في أذنيه أثناء فراره. على السلّم، الذي اندفع نازلاً فيه كما لو كانت درجاته سطحاً مائلة، هرع إلى خادمته وهي في طريقها للقيام بالتنظيف الصباحي للغرفة. «يا إلهي!» صاحت، وغطت وجهها بمئزرها، لكنه قد مرّ. خرج من الباب الأمامي، عبر الجادة، مندفعاً نحو الماء. وهكذا كان يمسك بدرابزين السلّم مثل رجل جائع يمسك بالطعام. طوّح بنفسه، مثل لاعب جمباز بارع كان في أوجّ شبابه، افتخاراً بوالديه. وبقبضة واهنة ما زال متمسَّكا حينما لمحَ بين الدرابزين باصاً قادماً غطّى بسهولة على ضوضاء سقوطه، ونادى بصوت منخفض: «والداي العزيزان، أنا دائما أحبكما»، على حد سواء»، ثم سقط.

عند هذه اللحظة كان سيل مستمرّ من السيارات يمرّ فوق الجسر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مستعمرة العقاب

«إنه جهاز رائع»، قال الضابط للمستكشف وتفحّصه بمسحة من الإعجاب، ذلك الجهاز الذي كان برغم كل شيء مألوفاً بالنسبة له. وبدا المستكشف بأنه قَبِل بدافع التأدب دعوة القائد ليشهد إعدام جندي حُكِمَ عليه بالموت بسبب العصيان وسلوكه المشين تجاه أحد رؤسائه. لكن المستعمرة نفسها لم تُبدِ كبير اهتمام بعملية الإعدام هذه. على الأقل، في الوادي الرملي الصغير، وهو عبارة عن تجويف عميق تحيطه من جميع الجوانب صخور جرداء، لم يكن هناك أي أحد حاضر ماعدا الضابط، والمستكشف، والرجل المدان، الذي كان مخلوقاً غبيّ المظهر، واسع الفم ذا شعر ووجه محيّرين، والجندي الذي كان يحمل السلسلة الثقيلة المسيطِرة على السلاسل الصغيرة المقفلة على كاحلَي السجين ومعصميه، ورقبته، السلاسل نفسها المرتبطة ببعضها البعض عبر روابط موصلة. على أية حال، بدا الرجل المدان مثل كلب خاضع بحيث يخاله المرء بأنه يمكن أن يترك ليهرب حرًّا على التلال المحيطة، ولا يحتاج سوى الصفير له عندما يحين موعد التنفيذ.

لم يعر المستكشف اهتماماً كبيراً للجهاز وسار جيئة وذهاباً خلف السجين بلا مبالاة واضحة تقريباً في حين كان الضابط يقوم بآخر التعديلات، وهو آناً يزحف تحت هذا الجهاز، الذي دُقّ عميقاً في الأرض، وآناً يتسلّق سلّما لتفقد أجزائه العلوية. وثمة مهام يمكن أن تُترك للميكانيكي، لكن الضابط قام بها بحماس كبير، سواء لأنه كان معجباً جداً بالجهاز أم لأسباب أخرى ربما بأن هذا العمل لم يوكل إلى أي شخص آخر غيره. «جاهز الآن!» صاح أخيراً ونزل من السلّم. وبدا يضلع في مشيته بشكل غير عادي، وتنفّس بفم فاغر، ودسّ منديلين نسائيين جميلين تحت ياقة بزّته. «إن ملابسك هذه ثقيلة جداً بالنسبة للمناطق المدارية»، قال المستكشف، بدلاً من القيام ببعض الاستفسارات حول الجهاز، كما توقع الضابط. «بالتأكيد»، قال الضابط، وهو يغسل يديه الذّين علاهما الزيت والشحم في دلو ماء كان موضوعاً هناك، «لكن ذلك يذكّرنا بالوطن؛ ونحن لا نريد أن ننسى الوطن. والآن ما عليك سوى إلقاء نظرة على هذا الجهاز»، أضاف حالاً، وفي آنٍ واحد أخذ يجفف يديه بمنشفة ويشير إلى الجهاز. «حتى الآن لا يزال هناك عدد قليل من الأشياء التي يجب القيام بها يدوياً، ولكن منذ هذه اللحظة يعمل الجهاز من تلقاء نفسه تماماً». هزّ المستكشف رأسه وتبعه. وقال الضابط، الذي كان حريصاً على حماية نفسه من أية حالات طارئة: «تسير الأمور في بعض الأحيان سيرها الخاطئ، بطبيعة الحال؛ آمل أن لا يحدث شيء خطأ اليوم، ولكن علينا أن نتوقع أي احتمال. وينبغي أن تستمر الآلة في العمل بشكل مستمر لمدة اثنتي عشرة ساعة. لكن إن حدث شيء ما خطأ فلن يكون ذلك سوى شيء تافه يمكن تصحيحه حالاً.»

«ألا تريد مقعداً؟» سألَ أخيراً، وهو يسحب كرسياً من قصب الخيزران من بين كومة من الكراسي ويقدمه إلى المستكشف، الذي لم يشأ أن يرفضه. جلس الآن على حافة حفرة، أخذ يحدّق فيها للحظة عابرة. لم تكن عميقة جداً. على أحد جوانب هذه الحفرة كُدست التربة المستخرجة على شكل سياج، وعلى الجانب الآخر منها

شخص الجهاز. قال الضابط، «لا أعرف إن كان القائد قد شرح هذا الجهاز لك». لوَّح المستكشف بإحدى يديه بغموض؛ ولم يطلب الضابط أي شيء أكثر من هذا، لأنه الآن يمكن أن يشرح الجهاز بنفسه. «هذا الجهاز»، قال وهو يمسك بمقبض الذراع وانحنى عليه، «اخترعه قائدنا السابق. وساعدتُه في التجارب المبكرة جداً وساهمتُ في جميع الأعمال حتى الانتهاء منه. لكن فضل اختراعه يخصّه وحده. هل سبق لك أن سمعتَ عن قائدنا السابق؟ لا؟ حسناً، لا أبالغ إذا قلتُ لك بأن تنظيم مستعمرة العقاب بأكملها هو من ثمرة جهوده. نحن أصدقاؤه كنا نعرف حتى قبل أن يموت بأن تنظيم المستعمرة كان مثالياً جداً بحيث ان خَلَفَه، حتى مع وجود آلاف المخططات الجديدة في رأسه، كان سيجد من المستحيل تغيير أي شيء، على الأقل لسنوات عديدة قادمة. وقد تحققت نبوءتنا؛ وكان على القائد الجديد الاعتراف بحقيقة هذا. ومن المؤسف أنك لم تقابل القائد القديم! ـ ولكن»، توقف الضابط، «أنا سرحتُ في حديثي، فها هو جهازه يقف أمامنا. يتألف، كما ترى، من ثلاثة أجزاء. وبمرور الوقت كل جزء من هذه الأجزاء قد اكتسبت ما يشبه اسماً شعبياً له. يسمى الجزء الأسفل «المرقد»، والجزء العلوي «النقّاش»، وهذا الجزء هنا في الوسط الذي يتحرك صعوداً ونزولاً يسمى «المشط». «المشط؟» سأل المستكشف. إذ إنه لم يُرهف السمع جيداً، وكان وهج الشمس في الوادي المكشوف قوياً جداً، وبدا من الصعب جداً على المرء جمع شتات أفكاره. أضف إلى ذلك أنه ازداد إعجابه بالضابط، الذي برغم معطفه الضيق الذي يعلو بزّته الرسمية، والمزركش بإسراف والمثقَل بالشرائط المقصبة على كتفه، كان يتابع موضوعه بمثل هذا الحماس، وإلى جانب الحديث، كان ما يزال يشدّ لولباً هنا ولولباً هناك باستخدام المفك. أما بالنسبة للجندي، فقد بدا تماماً في الحالة نفسها التي يعيشها المستكشف. كان قد لفّ سلسلة السجين حول كل من معصميه، وأسند نفسه على بندقيته، وسمحوا لرأسه بالتدلّي، ولم يعر أي اهتمام لأي شيء. وهذا لم يفاجئ المستكشف، لأن الضابط كان يتحدث الفرنسية، ومن المؤكد أنه لا الجندي ولا السجين يفهم كلمة واحدة من اللغة الفرنسية. لذلك، تجدر الإشارة إلى أن السجين كان مع ذلك يبذل جهداً لمتابعة توضيحات الضابط. وبنوع من الإصرار المضض كان يحوّل نظرته أينما أشار الضابط بإصبعه، وعند مقاطعة سؤال المستكشف، كان السجين، أيضاً، وكذلك الضابط، ينظران حولهما.

قال الضابط، «نعم، المشط، اسم يليق بذلك. فالإبر موضوعة مثل أسنان المشط والجهاز برمته يعمل بما يشبه المشط، برغم أن عمله يقتصر على مكان واحد ويتطلب مهارة فنية أكثر. على أي حال، سرعان ما تفهمه قريباً. على «المرقد» هنا يوضع الرجل المدان ـ سأصف الجهاز أولاً قبل أن أدعه يتحرك. ثم سيكون بمقدورك متابعة الإجراءات بشكل أفضل. إلى جانب ذلك، إن أحد التروس المسننة في «النقّاش» مستهلك جداً؛ فهو يصرّ كثيراً عندما يعمل؛ ولا يمكنك إذ ذاك أن تسمع نفسك وأنت تتكلم؛ وقطع الغيار، لسوء الحظ، من الصعب الحصول عليها هنا. ـ حسناً، ها هو «المرقد»، كما قلتُ لك. إنه مغطى تماماً بطبقة من القطن الطبي؛ وسوف تكتشف السبب في وقت لاحق. على هذا القطن الطبي يوضع الرجل المدان، ووجهه إلى الأسفل، عارٍ تماماً، بطبيعة الحال؛ هنا أشرطة لليدين، وهنا

أشرطة للقدمين، وهنا أشرطة للرقبة، من أجل ربطه بقوة. وهنا على رأس «المرقد»، حيث يضع الرجلُ، كما قلتُ، وجهه أولاً، توجد هذه الكمامة الصغيرة من اللباد، والتي يمكن تنظيمها بسهولة لتذهب مباشرة إلى فمه. والقصد منها هو منعه من الصراخ وعض لسانه. وبطبيعة الحال يضطر الرجل إدخال اللباد في فمه، لأنه خلاف ذلك سوف تُكْسَر عنقه بسبب الشريط». سأل المستكشف وهو ينحني إلى الأمام، «هل ذلك هو قطن طبي؟» أجاب الضابط بابتسامة، «نعم، بالتأكيد، يمكنك أن تلتمّسه بنفسك». وأخذ يد المستكشف وقادها إلى «المرقد». «إنه قطن طبي معدّ خصيصاً لهذا الغرض، وهذا هو السبب في أنه يبدو مختلفاً جداً؛ سوف أخبرك حالاً عن استخدامه». وشعر المستكشف باهتمام مباغت في الجهاز؛ فحجبَ عينيه عن الشمس بإحدى يديه وأخذ يحدّق في الهيكل. كان شيئاً ضخماً. وكان «المرقد» و«النقّاش» بحجم واحد وكانا يبدوان مثل صندوقين خشبيين مظلمين. «النقّاش» كان يتدلى على ارتفاع حوالي مترين فوق «المرقد»؛ ورُبِطَ كلّ منهما بالزوايا بأربعة قضبان من النحاس كانت تومض تقريباً في ضوء الشمس. وبين الصندوقين كان «المشط» يتأرجح على شريط من الفولاذ.

لم يلحظ الضابط لامبالاة المستكشف السابقة، لكنه أدرك الآن اهتمامه المباغت؛ لذلك توقف عن الشرح من أجل ترك فسحة من الوقت لمعاينة هادئة. قام الرجلُ المدان بتقليد المستكشف؛ ولأنه لم يكن قادراً على استخدام يده لتظليل عينيه كان يحدق إلى الأعلى من دون ظل.

قال المستكشف الذي كان يميل بنفسه إلى الخلف في كرسيه ويصالب ساقيه، «حسناً، الرجل يستلقي».

«نعم»، قال الضابط، وهو يدفع قبعته قليلاً إلى الوراء ويمرر إحدى يديه على وجهه الساخن، «اصغ الآن! كل من «المرقد» و «النقّاش» يحتوي على بطارية كهربائية؛ إذ يحتاج «المرقد» واحدة له، و «النقّاش» يحتاج واحدة للمشط. وطالما يُربط الرجل، يوضع «المرقد» على وضع الحركة. يرتجف في غضون دقيقة، باهتزازات سريعة جداً، سواء من جانب إلى آخر أم صعوداً ونزولاً. ربما رأيتَ جهازاً مماثلاً في المستشفيات؛ لكن في «فراش» جهازنا تكون كل الحركات محسوبة بدقة؛ كما ترى، هذه الحركات تتوافق تماماً مع تحركات المشط. والمشط هو الأداة المستخدمة للتنفيذ الفعلي للعقوبة».

«وكيف تُنفذ العقوبة؟» سأل المستكشف.

«أنت لا تعرف ذلك أيضاً؟» قال الضابط مندهشاً، وعضّ شفتيه. «اعذرني إذا كانت توضيحاتي تبدو غير مترابطة نوعاً ما. أستميحك عذراً. كما ترى، اعتاد القائد دائماً على القيام بالشرح؛ لكن القائد الجديد يتهرّب من هذا الواجب؛ مع ذلك فإن زائراً مهماً كهذا» ــ حاول المستكشف الانتقاص من هذا الشرف بالتلويح بكلتا يديه، إلاّ أن الضابط، على أي حال، أصرّ قائلاً ــ «أن زائراً مهماً كهذا لم يخبروه بنوع العقوبة التي نصدرها فهو تطور جديد ــ ». وكان على وشك استخدام لغة عنيفة لكنه ضبط نفسه وقال فقط: «لم أكن على علم بهذا، ليس هذا خطأي. على أي

حال، أنا بالتأكيد أفضل شخص لشرح إجراءاتنا، طالما لدي هنا» ـ وربتَ على جيب صدره ـ «الرسومات ذات الصلة التي قام بها قائدنا سابقاً».

وسأل المستكشف، «رسومات القائد؟ هل هو يجمع كل شيء بنفسه، إذن؟ هل كان جندياً، وقاضياً، وميكانيكياً، وكيميائياً، ورساماً؟»

«بالفعل كان هكذا»، قال الضابط، وهو يهز رأسه موافقاً، بنظرة جامدة، نائية. ثم قام بتفتيش يديه بتأنٍّ؛ فإنهما لم تبدوا نظيفتين بما فيه الكفاية بالنسبة له للمس الرسومات؛ لذلك مضى إلى الدلو وغسلهما مرة أخرى. ثم سحبَ محفظة جلدية صغيرة وقال: «إن حكمنا لا يبدو شديداً. فكل أمر خالفه السجين يُكتب على جسده بواسطة المشط. هذا السجين، على سبيل المثال» ـ وأشار الضابط إلى الرجل ـ «كان سيكتب على جسده: احترم رؤساءك!»

حدّق المستكشف في الرجل؛ إذ وقف، عندما أشار إليه الضابط، برأس منحنٍ، على ما يبدو يستمع بكل جوارحه في محاولة لفهم ما يجري قوله. مع ذلك، فإن حركة شفتيه السميكتين، المزمومتين إلى بعضهما بعضا، أظهرت بوضوح بأنه لا يمكنه فهم كلمة واحدة. هناك العديد من الأسئلة التي تقض مضجع المستكشف، ولكن عند مرأى السجين كان يسأل فقط: «هل هو يعرف عقوبته؟» «لا»، قال الضابط، المتلهّف على المضي قدماً في شرحه، إلاّ أن المستكشف قاطعه: «هو لا يعرف الحكم الصادر بحقه؟» «لا»، قال الضابط مرة أخرى، وتوقف للحظة كما لو أنه يريد أن يسمح للمستكشف بالتوسّع في سؤاله، ومن ثم قال: «ليس هناك داعٍ في إخباره. سوف يعرف ذلك مكتوباً على جسده.» وقرر المستكشف أن لا يجيب، لكنه شعر بأن نظرة السجين تحولت إليه؛ وكأنها تتساءل إن كان وافق على مثل هذه الإجراءات. لذلك انحنى إلى الأمام مرة أخرى، بعد أن رجع إلى الوراء في كرسيه، وطرح سؤالاً آخر: «ولكن من المؤكد أنه يعلم بأنه قد حُكِم عليه؟» «ولا يعلم بذلك أيضاً»، قال الضابط، وهو يبتسم بوجه المستكشف وكأنه يتوقع منه أن يطرح المزيد من الملاحظات المثيرة للدهشة. «لا»، قال المستكشف، وهو يمسح جبينه، «إذن فهو لا يمكنه أن يعرف أيضاً ما إذا كان دفاعه فعَّالا أم لا؟» «لم يكن لديه فرصة ليضع له دفاعاً»، قال الضابط، وهو يشيح ببصره بعيداً وكأنه يتحدث مع نفسه وبهذا يجنّب المستكشف مؤونة سماع توضيح المسائل البديهية. «ولكن يجب أن يكون لديه فرصة للدفاع عن نفسه»، قال المستكشف، ونهض من مقعده.

أدرك الضابط بأنه يخشى أن يستغرق شرحه للجهاز فترة طويلة؛ لذلك مضى إلى المستكشف، وأخذه من ذراعه، ولوّح بيده صوب الرجل المدان، الذي كان يقف منتصباً جداً الآن لدرجة أنه أصبح بوضوح محط اهتمام ـ وقام الجندي أيضاً بتحريك السلسلة ـ وقال: «هذه هي الطريقة التي تجري فيها الأمور، لقد عُينت قاضياً في مستعمرة العقاب هذه. على الرغم من صغر سني. لأنني كنت مساعد القائد السابق في جميع المسائل الجنائية وأعرف المزيد عن الجهاز أكثر من أي شخص. إن مبدئي الذي أسير عليه هو: الذنب لا يمكن أبداً أن يكون موضع شك. ومحاكم أخرى لا يمكنها أن تتبع ذلك المبدأ، لأنها تتألف من عدة آراء ولديها محاكم عليا لتدقيقها. وتلك المسألة لا تنطبق هنا، أو على الأقل، لم تكن الحال هكذا في وقت

القائد الأسبق. لقد أظهر الرجل الجديد بالتأكيد بعض الميل للتدخل في أحكامي، لكن حتى الآن نجحتُ في صدّه وسوف استمر بالنجاح. أردتَ مني توضيح القضية؛ فهي بسيطة جداً، مثل كل القضايا. لقد أبلغني نقيبٌ هذا الصباح بأن هذا الرجل، الذي كان قد أسند إليه دور الخادم وينام أمام بابه {اي النقيب}، كان نائماً اثناء الواجب. فمن واجبه، كما ترى، النهوض في كل مرة تدقّ فيها الساعة والمبادرة إلى تحية باب النقيب. وهذا ليس واجباً إجبارياً، ولكنه ضروري جداً، لأنه لابد أن يكون حارساً وكذلك خادماً، ويجب أن يكون في حالة تأهب في كلتا الوظيفتين. في الليلة الماضية أراد النقيب معرفة ما إذا كان الرجل يقوم بواجبه. فتح الباب عندما دقّت الساعة الثانية فوجد خادمه متكوراً هناك وغاطًّا في النوم. أخذ سوط ركوبه وجلده على الوجه. وبدلاً من الاستيقاظ وطلب العفو، مسك الرجلُ بأرجل سيده، وهزّه، وصرخ: «أبعد ذلك السوط وإلاّ أكلتك حيًّا.» ــ هذا هو الدليل. جاءني النقيب قبل ساعة، ودونتُ إفادته وأرفقتُ الحكم بها. ثم قيِّدت الرجل بالسلاسل. كان كل هذا في غاية البساطة. فلو كنتُ قد أحضرتُ الرجل أمامي أولاً واستجوبته، لتعقّدت الأمور واضطربت. كان سيقول الأكاذيب، ولو كشفتُ هذه الأكاذيب فإنه سيدعمها بالمزيد من الأكاذيب، وهكذا دواليك. والحالة هكذا، فقد أمسكتُ به ولن أدعه يفلت. ــ هل هذا واضح تماماً الآن؟ لكننا نضيّع الوقت، فتنفيذ الحكم يجب أن يبدأ وأنا لم أنتهِ من شرح الجهاز حتى الآن». وضغط على المستكشف وأرجعه إلى الخلف في كرسيه، ونهض مرة أخرى إلى الجهاز، وبدأ قائلاً: «كما ترى، إن شكل المشط يتوافق مع الشكل البشري؛ هذا هو المشط الخاص بالجذع، وهذان هما المشطان الخاصان بالساقين. أما بالنسبة للرأس فلا يوجد سوى هذا المسمار الصغير. هل هذا واضح تماماً؟» انحنى بشكل ودّي إلى الأمام نحو المستكشف، وكلّه لهفة إلى تقديم أشمل التوضيحات.

نظر المستكشف إلى المشط نظرة عابسة. إذ إن توضيح الإجراءات القضائية لم يقنعه. كان عليه أن يذكّر نفسه بأن هذه هي على أي حال مستعمرة عقاب حيث تكون هناك حاجة إلى تدابير غير عادية وضرورة تطبيق النظام العسكري إلى الآخر. كذلك شعرَ بأنه يمكن عقد بعض الأمل على القائد الجديد، الذي كان على ما يبدو ذا عقل يمكن أن يحقق ذلك الأمل، ولو تدريجياً، وهو نوع جديد من الإجراءات لا يمكن أن يستوعبه العقل الضيق للضابط. هذه السلسلة من الأفكار دفعته إلى السؤال التالي: «هل سيحضر القائد عملية تنفيذ الحكم؟» «لستُ متأكداً»، قال الضابط، وهو يجفل من هذا السؤال المباشر، واكفهرّت تقاسيم وجهه الودودة. وأضاف «هذا هو السبب في أننا يجب أن لا نضيّع مزيداً من الوقت. وبقدر ما أكره ذلك، سوف أضطر إلى اختصار توضيحاتي. ولكن بالتأكيد غداً، عندما يُنظف الجهاز ــ عيبه الوحيد هو أنه يصبح مشوشاً جداً ــ يمكنني تلخيص كل التفاصيل. في الوقت الحاضر، إذن، سأوضّح لك الأشياء الأساسية. ــ عندما يتمدد الرجل على «المرقد» ويبدأ بالاهتزاز، فإن «المشط» يهوي على جسده. يقوم بتنظيم نفسه تلقائياً بحيث بالكاد تلمس الإبرُ جلدَه؛ وما إن يتم التماس فإن الشريط الفولاذي يتصلب على الفور ويتحول إلى شريط قاسٍ. ومن ثم يبدأ العمل. وبالنسبة للناظر الجاهل لا يرى أيّ فرق بين عقوبة وأخرى. إذ يبدو بأن «المشط» يقوم بعمله

بانتظام منسّق. وبينما يهتز، فإن نهاياته المدببة تخترق بشرة الجسم الذي يرتعش بسبب اهتزاز «المرقد». وبهذا فإنه يمكن مشاهدة التقدم الفعلي للحكم، فالمشط مصنوع من الزجاج. إن تثبيت الإبر في الزجاج كانت مشكلة فنية، ولكن بعد العديد من التجارب تغلبنا على هذه الصعوبة. وكما ترى لم تكن هناك أية مشكلة كبيرة يمكن أن تقف في طريقنا. والآن يمكن لأي شخص أن ينظر من خلال الزجاج ومشاهدة النقش وهو يتشكّل على الجسم. هلاّ تكرَّمت بأن تقترب قليلاً وتُلقي نظرة على الإبر؟»

نهض المستكشف ببطء، ومشى، وانحنى على المشط. «كما ترى»، قال الضابط، «هناك نوعان من الإبر مرتبة بأنماط متعددة. كل إبرة طويلة لديها إبرة قصيرة بجانبها. الإبرة الطويلة هي التي تقوم بالكتابة، بينما الإبرة القصيرة تطلق رشة من الماء لإزالة الدم والإبقاء على النقش واضحاً. ثم يوجه الدم والماء معاً هنا من خلال قنوات صغيرة إلى هذه القناة الرئيسية وإلى أسفل أنبوب التصريف وبعدها إلى الحفرة». وبإصبعه تتبّع الضابط المسار الدقيق الذي يتخذه الدم والماء. ومن أجل جعل الصورة حية قدر الإمكان رفع كلتا يديه تحت منفذ أنبوب التصريف وكأنه يقبض على تدفق مزيج الدم والماء، وعندما فعل هذا سحب المستكشف رأسه إلى الوراء وهو يتحسس ما خلفه بإحدى يديه سعى إلى العودة إلى كرسيه. ولرعبه وجد أن الرجل المدان أيضاً قد أطاع دعوة الضابط لتفحّص «المشط» عن كثب وتبعه في ذلك. كان قد سحب إلى الأمام الجندي النائم بالسلسلة وانحنى على الزجاج. يمكن للمرء أن يرى بأن عينيه القلقتين كانتا تحاولان تصوّر ما كان ينظر إليه السيدان، ولكن لأنه لم يفهم الشرح فلم يدرك جليّة الأمر بالضبط. كان يجول ببصره هنا وهناك. وظل يدير عينيه على طول الزجاج. أراد المستكشف أن يبعده، لأنّ ما كان يقوم به ربما كان امراً يلام عليه. إلا أن الضابط بقوة صدّ المستكشف بإحدى يديه وباليد الاخرى أخذ قبضة تراب من الحاجز الترابي وألقاها على الجندي. فتح عينيه بحركة فجائية، ورأى ما تجاسر الرجل المدان على القيام به، فسمح لبندقيته بالسقوط، وضرب كعبيه في الأرض، وسحب سجينه إلى الخلف حتى أنه تعثر وسقط على الفور، ومن ثم وقف ينظر إليه بازدراء، وهو يشاهده يكافح ويزمجر في سلاسله. «اوقفه على قدميه!» صاح الضابط، لأنه لاحظ بأن انتباه المستكشف كان مشتتاً جداً بسبب السجين. في الحقيقة كان يميل تماماً على «المشط»، من دون أن يدري، لا ينوي إلاّ معرفة ما يحدث للسجين. «ترفّق به»! صاح الضابط مرة أخرى. وركض حول الجهاز، وأمسك بنفسه الرجل المدان من تحت الأكتاف، وبمساعدة الجندي أوقفوه على قدميه، اللتين بقيتا تترنحان من تحته.

قال المستكشف عندما عاد الضابط إليه، «الآن أعرف كل شيء عن الجهاز». «كل شيء باستثناء أهم الأشياء»، أجاب الضابط، وهو يمسك بذراع المستكشف ويشير إلى الأعلى: «في «النقّاش» توجد كل التروس المسننة التي تسيطر على حركات «المشط»، وتُنظم هذه الآلية وفقاً للنقش الذي يتطلبه الحكم. وما زلت أستخدم الخطط التوجيهية التي رسمها القائد السابق. وها هي ذي» ـ استخرج بعض الأوراق من المحفظة الجلدية ـ »ولكن من المؤسف أنني لا أستطيع أن أسمح لك

بأن تأخذها، فهي أثمن ممتلكاتي. فقط خذ مقعداً وسأحملها أمامك بهذا الشكل، ثم ستكون قادراً على رؤية كل شيء بشكل جيد». ونشر الورقة الأولى. كان المستكشف يريد أن يقول شيئاً ما مهماً، ولكن كل ما أمكنه أن يراه هو متاهة من خطوط تعبر وتتقاطع مع بعضها الآخر، مما غطى الورقة بشكل سميك جداً لدرجة غدا من الصعب تمييز المسافات الفارغة بينها. قال الضابط، «أقرأها». وأجاب المستكشف، «لا أستطيع». فقال الضابط، «ومع ذلك، هي واضحة بما فيه الكفاية. فردّ المستكشف متهرباً، «أنها بارعة جداً، ولكنني لا يمكنني فهمها». قال الضابط ضاحكاً، وهو يضع الورقة جانباً مرة أخرى، «نعم، هذه ليست كتابة خطّها تلاميذ المدارس. بل هي تحتاج إلى دراسة عن كثب. وأنا متأكد تماماً بأنه في النهاية سوف تفهمها أيضاً. بالطبع أن هذه الكتابة لا يمكن أن تكون بسيطة؛ فإنه ليس من المفترض أن تقتل رجلاً مباشرة، ولكن فقط بعد فترة، أي بمعدل، اثنتي عشرة ساعة؛ إذ إن نقطة التحول يعتقد بأنها تحين في الساعة السادسة. لذلك لا بد أن يكون هناك الكثير والكثير من الزخارف حول النص الفعلي؛ النص نفسه يمتد حول الجسم فقط في حزام ضيق؛ حيث إن بقية الجسم يخصّص للزينة. هل يمكن أن تقدّر الآن العمل الذي ينجزه «المشط» والجهاز ككل؟ ـ فقط راقبْه!» ارتقى السلّم، وأدارَ عجلةً، وصاح: «حذارِ، ابقَ على جانب واحد!» فكل شيء بدأ بالعمل. إذا لم تصدر العجلة صريراً، فسيكون هذا رائعاً. وضرب الضابطُ بقبضته عليها، وكأنه فوجئ بضجيج العجلة، ثم نشر ذراعيه اعتذاراً للمستكشف، ونزل بسرعة ليحدّق في عمل الجهاز من الأسفل. ثمة شيء لا يراه أي أحد سواه لم يكن في محلّه؛ و تسلّق مرة أخرى، وقام بشيءٍ ما بكلتا يديه في المناطق الداخلية من «النقّاش»، بعدها أنزلَ أحد القضبان، بدلاً من استخدام السلّم، وذلك من أجل النزول إلى أسفل بشكل أسرع، وبكلّ قوة تتحمّلها رئتاه، ولجعل نفسه مسموعاً وسط ذلك الضجيج، صرخ في أذن المستكشف: «أيمكنك أن تتابع ذلك؟ يبدأ «المشط» بالكتابة؛ وعندما ينتهي من المسودة الأولى من النقش على ظهر الرجل، فأن طبقة من القطن الطبي تبدأ تلفّ وببطء تدير الجسم، لإعطاء «المشط» مساحة جديدة للكتابة. في غضون ذلك، يكون الجزء المؤلم الذي كُتِبَ عليه واقعاً على القطن الطبي، المعدّ خصيصاً لإيقاف النزيف وهكذا يجعل كل الأجزاء على استعداد للكتابة بشكلٍ أعمق. ثم أن هذه الأسنان على حافة «المشط»، عندما يدور الجسم أكثر حول نفسه، تمزّق القطن الطبي من الجروح، وترميه في الحفرة، وهناك المزيد من العمل لـ «المشط». وهكذا يبقى مستمراً في الكتابة بشكل أعمق فأعمق طيلة الاثنتي عشرة ساعة الكاملة. في الساعات الست الأولى يبقى الرجل المدان على قيد الحياة تقريباً كما كان من قبل، لا يعاني إلاّ من الألم. وبعد ساعتين تزال كمامة اللباد، لأنه لم يعد لديه قوة للصراخ. هنا، في هذا الإناء المسخّن كهربائياً عند رأس «المرقد»، يُسكب بعض حساء الأرز الدافئ، الذي يستطيع الرجل، إن شعرَ بميل له، أن يتناول منه بقدر ما يمكن للسانه ان يطاله. ولم تفت أيّ واحد منهم تلك الفرصة. لا أستطيع أن أتذكر أياً منهم {ممن فاتته الفرصة}، وتجربتي واسعة النطاق في ذلك. فقط في حوالي الساعة السادسة يفقد الرجل كامل رغبته في تناول الطعام. أنا عادة ما أركع هنا في تلك اللحظة وأراقب ما يحدث. ونادراً ما يبتلع الرجلُ آخر لقمة له، فهو فقط يلفها حول

فمه ويبصقها في الحفرة. لا بد لي أن أتفادى ذلك حينها وإلا فسوف يبصقها في وجهي. ولكن كم هادئاً سيصبح في مجرد حلول الساعة السادسة! التنوير يأتي إلى أكثر الأشخاص ذكاءً. يبدأ حول العينين. ومن هناك يشع. وهذه لحظة قد تُغري المرء بأن يكون تحت «المشط» بنفسه. لا شيء يحدث أكثر من أن الرجل يبدأ بفهم النقش، فيزمّ فمه كما لو كان يستمع. لقد رأيتَ كم صعباً فك شفرة النص بعيني المرء؛ لكن رجلنا يفك شفرته بجراحاته. ومن المؤكد بأن هذا أمر صعب للغاية؛ فهو يحتاج ست ساعات لإنجازه. حينها يكون «المشط» قد اخترقه تماماً وألقاه في الحفرة، حيث ينتهي به المقام على الدم والمياه والقطن الطبي. عندها يكون الحكم قد تمّ، والجندي وأنا، نقوم بدفنه».

وكان المستكشف قد مال بأذنه إلى الضابط وجعل يراقب الآلة وهو يضع يديه في جيوب سترته. كما أن الرجل المدان كان يراقب ذلك أيضاً، ولكن بشكل غير مفهوم. انحنى إلى الأمام قليلاً واستغرق في مراقبة الإبر المتحركة عندما قام الجندي، بإشارة من الضابط، بشقّ قميص الرجل وسرواله من الخلف بسكين، بحيث سقطا إلى الأرض؛ وحاول الرجل أن يمسك بملابسه عند سقوطها لتغطية عريه، لكن الجندي رفعه في الهواء وجرّده من آخر ما تبقّى لديه. أوقف الضابط الآلة، وفي الصمت المفاجئ وُضع الرجل المدان تحت «المشط». تم فكّ السلاسل وشدّ الأشرطة بدلاً عن ذلك؛ في الوهلة الأولى كان هذا يبدو تقريباً راحة بالنسبة للسجين. والآن عُدل «المشط» قليلاً نحو الأسفل، لأنه كان رجلاً نحيفاً. عندما مسّتْه رؤوس الابر سرت رعدة في جلده؛ بينما كان الجندي مشغولاً بربط يده اليمنى، طوَّح بيده اليسرى بشكلٍ أعمى؛ ولكن صادف أن تكون باتجاه المكان حيث كان يقف المستكشف. ظل الضابط يراقب المستكشف جانبياً، وكأنه يسعى إلى أن يقرأ من خلال وجهه الانطباع الذي كوّنه عن تنفيذ الحكم، الذي جرى شرحه له بعجالة على الأقل.

انقطع شريط المعصم؛ ربما كان الجندي قد سحبه بشدة بالغة. عندها اضطر الضابط إلى التدخل، ورفع الجندي قطعة الشريط المنقطعة ليريها له. لذلك ذهب إليه الضابط وقال، بينما وجهه ما يزال متحولاً نحو المستكشف: «هذه آلة معقدة جداً، ولا سبيل من منع أجزائها من التمزّق والانفلات هنا وهناك؛ ولكن لا ينبغي للمرء أن يسمح لنفسه أن يحيد عن تطبيق الحكم العام. على أي حال، يمكن بسهولة إصلاح هذا الشريط؛ وسأستخدم ببساطة سلسلة؛ حيث إن حساسية التذبذب للذراع اليمنى سوف تتأثر قليلاً بطبيعة الحال». وبينما هو يربط السلاسل، أضاف: «الموارد اللازمة للحفاظ على الجهاز منخفضة جداً الآن. ففي ظل القائد السابق كانت لي حرية التصرف بمبلغ من المال خُصص تماماً لهذا الغرض. وكان هناك مخزن، أيضاً، تُحفظ فيه قطع الغيار لجميع أنواع الإصلاحات. أعترف بأنني كنت تقريباً مسرفاً حيالها، أعني في الماضي، وليس الآن كما يدّعي القائد الجديد، الذي يبحث دائماً عن ذريعة لمهاجمة طريقتنا القديمة في التعامل مع الأشياء. الآن هو نفسه مَن تولّى مسؤولية الأموال المخصصة للآلة، وإذا ما أرسلتُ بطلب شريط جديد فإنهم يطلبون الشريط القديم الممزق كدليل، والشريط الجديد يستغرق عشرة

أيام ليظهر، فضلاً عن أنه مصنوع من مواد غير مطابقة للمواصفات وليست جيدة بالمرة. ولكن أنّى لي أن أشغّل الجهاز من دون شريط، هذا شيء لا أحد يكلّف نفسه بشأنه».

فكر المستكشف في نفسه: إنها دائما مسألة حساسة أن تتدخل بشكل حاسم في شؤون الآخرين. فهو لم يكن عضواً في المستعمرة الجنائية ولا مواطناً في الولاية التي تنتمي إليها تلك المستعمرة. ولو قيّض له أن يندد بتنفيذ الإعدام أو في الواقع أن يحاول وقف ذلك، لقالوا له: أنت أجنبي، اهتم بأمورك فقط. عندها لا يمكن أن يدّخر أي إجابة لذلك، إلا إذا أضاف بأنه كان يعجب من تصرّفه في هذا الخصوص، لأنه لم يسافر إلاّ بوصفه مراقباً، من دون أن ينوي مطلقاً تغيير أساليب الآخرين في تطبيق العدالة. مع ذلك وجد نفسه هنا تحت أغراء كبير في التدخل. فالظلم في الإجراءات واللاإنسانية في التنفيذ لا يمكن إنكارهما. لا يمكن لأحد أن يفترض بأن لديه أية مصلحة أنانية في المسألة، لأن الرجل المدان كان غريباً تماماً، وليس مواطناً أو حتى متعاطفاً معه. كما أن المستكشف نفسه كانت لديه توصيات من جهات عليا، وقد جرى استقباله هنا بحفاوة كبيرة، وبدت حقيقة دعوته لحضور عملية الإعدام توحي باستحسانهم لآرائه. وكان هذا كله الأكثر احتمالاً لأن القائد، كما سمع بوضوح شديد، لم يكن من المؤيدين لهذا الإجراء واتخذ موقفاً معادياً تقريباً من هذا الضباط.

في تلك اللحظة سمع المستكشف الضابطَ يصرخ عالياً بغضب. كان قد أقحم، بصعوبة بالغة، كمامة اللباد في فم الرجل المدان عندما مرّ الرجل في حالة لا تقاوم من الغثيان فأغلق عينيه وتقيأ. وعلى عجل أبعده الضابط عن الكمامة وحاول رفع رأسه فوق الحفرة؛ ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان القيء يسير على جميع أجزاء الجهاز. «أنه خطأ ذلك القائد!» صاح الضابط، وهو يهز بلا شعور قضبان النحاس أمامه، «فالآلة تلوثت مثل زريبة خنازير». وبيدين مرتجفتين أوضح إلى المستكشف ماذا حدث. «ألم أحاول لساعات في كل مرة أن أجعل القائد يفهم بأن السجين يجب أن يصوم لمدة يوم كامل قبل الإعدام؟ لكن عقيدتنا الجديدة، المعتدلة ترى خلاف ذلك. فسيدات القائد يحشين الرجل بحلوى السكر قبل أن يقاد إلى هذا المكان. لقد عاش على الأسماك النتنة طوال حياته والآن عليه تناول حلوى السكر! إلاّ أن هذا ربما يكون ممكناً، وليس لدي أي شيء أقوله ضد ذلك، ولكن لماذا لا يحضروا لي كمامة لبّاد جديدة، بقيتُ أطلبها طيلة الأشهر الثلاثة الماضية. كيف لا يشعر الرجل بالغثيان عندما يُدخل كمامة لبّاد في فمه حيث إن أكثر من مائة رجل قد روّلوا عليها وقاموا بِعَضّها في لحظات موتهم؟».

لقد أمال الرجل المدان رأسه إلى أسفل وبدا مسالماً، فيما كان الجندي مشغولاً بمحاولة تنظيف الجهاز بقميص السجين. تقدم الضابط نحو المستكشف الذي تراجع خطوة وقد تملكتْه هواجس غامضة، لكن الضابط مسكه من يده، وسحبه إلى أحد الجوانب قائلاً: «أودّ أن أسرّ لك ببعض الكلمات على انفراد. أيمكنني ذلك؟»، قال المستكشف، «طبعاً»، واستمع بعينين مطرقتين.

«هذا الإجراء وطريقة الإعدام، حيث تسنح لك الفرصة الآن للاستمتاع به، لم يعد له في هذه اللحظة أي أتباع صريحين في مستعمرتنا. أنا المدافع الوحيد عنه، وفي الوقت نفسه المدافع الوحيد عن تقاليد القائد القديم. ليس بإمكاني التفكير بأي توسيع إضافي لهذا الأسلوب، فإنه يستهلك كل ما عندي من الطاقة لإبقائه على ما هو عليه. فأثناء فترة حياة القائد القديم كانت المستعمرة تعج بأتباعه؛ فما زلت أمتلك شطراً من قوة إدانته، ولكن لا يصل إلى ذرة من سطوته؛ ومن ثم توارى الأتباع عن الأنظار، ما يزال هناك الكثير منهم ولكن أياً منهم لن يعترف بهذا الإجراء. فلو قيّض لك أن تدخل المقهى اليوم، في يوم الإعدام، وتستمع إلى ما يقال، فإنك لا تسمع سوى ملاحظات غامضة. وهذه كلها يحوكها المناصرون، ولكن في ظل القائد الحالي وقوانينه الحالية فالملاحظات تكون عديمة الفائدة لي. والآن أسألك: بسبب هذا القائد والنساء اللاتي يؤثرن عليه، هل أن عملاً، عملاً استغرق العمر كله» ــ وأشار إلى الجهاز ــ »سيموت؟ هل ينبغي للمرء أن يسمح بحدوث ذلك؟ حتى لو جاء المرء كغريب إلى جزيرتنا لبضعة أيام؟ ولكن ليس هناك وقت نضيّعه، إذ إن هجوماً من نوع ما يتهدد وظيفتي بوصفي قاضياً؛ فالمؤتمرات تُعقد في مكتب القائد، المؤتمرات التي اُستثنيتُ من حضورها؛ وحتى مجيئكم هنا اليوم يبدو لي خطوة مهمة؛ هم جبناء ويستخدمونك كستار، أنت، أيها الغريب. ــ كم مختلفة كانت عملية تنفيذ الإعدام في الأيام الخوالي! فقبل يوم كامل من المراسيم كان الوادي يكتظ بالناس؛ وكلهم يأتون لمجرد التفرّج؛ وفي وقت مبكر من الصباح كان القائد يظهر مع سيداته؛ وكان المشجعون يثيرون المخيم بأكمله؛ كنتُ أعلن أن كل شيء جاهز؛ والجموع المحتشدة ــ ولم يجرؤ أي مسؤول رفيع المستوى أن يتغيب ــ كانت ترتب نفسها حول الجهاز؛ وهذه الكومة من كراسي الخيزران هي بقايا بائسة من تلك الحقبة. وكان يُنظف الجهاز من جديد ويجري تلميعه، وكنتُ أحصل على قطع غيار جديدة تقريباً عند كل عملية إعدام. وأمام مئات من المتفرجين ــ وجميعهم يقفون على رؤوس أصابعهم بقدر مسافة المرتفعات هناك ــ كان القائد نفسه يضع الرجل المدان تحت «المشط». ما تبقّى اليوم لجندي عادي أن يقوم به هو مهمتي، أي مهمة القاضي المشرف على عملية الإعدام، وكان ذلك شرفاً لي. ومن ثم كانت تبدأ عملية الإعدام! ولم تفسد أي ضوضاء نشاز عمل الجهاز. لم يهتم الكثير بمشاهدته بل كانوا يتمددون بعيون مغلقة في الرمال؛ فجميعهم كانوا يعرفون أنه الآن يجري تطبيق العدالة. وسط ذلك الصمت لم يسمع المرءُ شيئاً سوى تنهدات الرجل المدان، وهي نصف مكتومة بكمامة اللباد. في الوقت الحاضر لم تكن الآلة بمقدورها أن تعتصر من أي شخص زفرة أعلى مما بوسع كمامة اللباد أن تكتمه؛ ولكن في تلك الأيام كانت إبر الكتابة تسمح بتقطير سائل حامضي، لا يُسمح لنا الآن باستخدامه. حسناً، وبعد ذلك تحين الساعة السادسة! وكان من المستحيل السماح بتلبية جميع الطلبات في مشاهدة تلك الآلة عن كثب. والقائد بحكمته أمر بأن يكون للأطفال الأفضلية في المشاهدة؛ وأنا، طبعاً، بسبب منصبي كان لي الشرف بأن أكون دائماً رهن الإشارة؛ وكثيراً ما أجلس القرفصاء هناك وأحمل طفلاً صغيراً في كلا الذراعين. كيف كنا نحن جميعاً نستوعب نظرة التجلي على وجه الشخص المتألم، وكيف كنا نتوضأ بنور تلك العدالة، المتحققة في النهاية والمتلاشية بسرعة! يا لها من أزمان تلك التي

مرّت، يا رفيقي!» من الواضح أن الضابط قد نسي مع مَن كان يتحدّث؛ فقد احتضن المستكشف ووضع رأسَه على كتفه. فكان المستكشف محرجاً حرجاً كبيراً، وبنفاد صبر أخذ يحدّق فوق رأس الضابط. كان الجندي قد أنهى عمله في تنظيف الجهاز وهو الآن يصب حساء الأرز من قدر في الوعاء. وبمجرد أن لاحظ الرجلُ المدان، الذي بدا قد تعافى تماماً، هذا العمل حتى بدأ يطال الأرز بلسانه. فيما بقي الجندي يدفعه بعيداً، لأن حساء الأرز كان يُقصَد منه بالتأكيد لساعة لاحقة، ومع ذلك كان من غير المناسب تماماً بأن الجندي نفسه يدفع يديه القذرتين في الإناء ويتناول منه أمام وجه الآخر المتعطّش إلى الطعام.

وسرعان ما انسحب الضابط قائلاً، «أنا لا أريد إزعاجك. أعلمُ بأنه من المستحيل جعل تلك الأيام قابلة للتصديق الآن. على أي حال، ما يزال الجهاز يعمل وما يزال فعالاً بحد ذاته. إنه فعال بحد ذاته برغم وقوفه وحيداً في هذا الوادي. وماتزال الجثة تقع في نهاية المطاف في الحفرة بحركة متأرجحة لطيفة غير مفهومة، على الرغم من عدم وجود مئات الناس يتدفقون حولها مثل الذباب كما كان سابقاً. في تلك الأيام كان علينا أن نضع سياجاً قوياً حول الحفرة، وقد اندرس ذلك السياج منذ فترة طويلة».

أراد المستكشف إبعاد وجهه عن الضابط ونظر حوله بشكل عشوائي. كان الضابط يعتقد بأنه يستعرض خراب الوادي؛ لذلك مسكه باليدين، وأداره ليواجه عينيه، وسأل: «هل تدرك هذا العار الذي لحق بالوادي؟».

إلاّ أن المستكشف لم يقل شيئاً. تركه الضابط لوحده قليلاً؛ وبينما كان يفارق ساقيه، ويضع يديه على الوركين، وقف واجماً، يحدّق في الأرض. ثم ابتسم ابتسامة مشجعة بوجه المستكشف وقال: «كنتُ بالقرب منك يوم أمس عندما وجّه إليك القائدُ الدعوة. سمعته وهو يدعوك. أنا أعرف القائد. تكهنتُ فوراً بما كان ينويه. وبرغم أنه قويّ بما فيه الكفاية لاتخاذ التدابير اللازمة ضدي، فهو لا يجرؤ على القيام بذلك حتى الآن، لكنه بالتأكيد يعني استخدام قرار حكمك ضدي، حكم من أجنبي لامع. لقد حسب الأمر بعناية: هذا هو يومك الثاني في الجزيرة، أنت لم تعرف القائد القديم وطرقه، أنت مقيّد بطرق التفكير الأوربية، ربما تعترض من حيث المبدأ على عقوبة الإعدام بشكل عام، وعلى مثل أدوات الموت الميكانيكية هذه بشكل خاص، إلى جانب أنك سترى بأن الاعدام ليس لديه أي مؤيد من لدن الجمهور، مراسيم قذرة ـ تنفّذها آلة عفا عليها الزمن الآن، مع أخذ كل ذلك بعين الاعتبار، ألن يكون من المرجح (وهكذا يعتقد القائد) بأنك ربما تستنكر طرقي التي اتبعها؟ وإذا ما استنكرتَ، فانك لن تُخفي الحقيقة (فأنا ما زلت أتحدث من وجهة نظر القائد)، لأنك رجل تشعر بالثقة في استنتاجاتك المبنية على التجربة. صحيح أنك رأيتَ وتعلمتَ أن تقدّر خصوصيات العديد من الشعوب، وعليه فإنك من المرجح لن تتخذ موقفاً متشدداً ضد إجراءاتنا، كما قد تفعل في بلدك. لكن القائد لا حاجة له بذلك. فمجرد إشارة عرضية، أو حتى ملاحظة عابرة ستكون كافية. كما أن الأمر لا يحتاج إلى تمثيل ما تعتقد به حقاً، طالما يمكن أن يُستخدم بشكل خادع لخدمة غرضه. سيحاول استفزازك بأسئلة سخيفة، وأنا على يقين من ذلك. وسوف تجلس سيداتُه من حولك

ويستمعن بانتباه شديد؛ ربما تقول شيئاً ما من قبيل: «في بلادنا لدينا إجراءات جنائية مختلفة»، أو «في بلادنا يُحقق مع السجين قبل الحكم عليه»، أو «نحن لم نستخدم التعذيب منذ العصور الوسطى». كل هذه العبارات صحيحة مثلما تبدو طبيعية لك، وهي إشارات غير مؤذية لا تعطي أي حكم على أساليبي. ولكن كيف سيستجيب لها القائد؟ أستطيع أن أراه، قائدنا الجيد، وهو يدفع كرسيه بعيداً على الفور ويُسرع إلى الشرفة، أستطيع أن أرى سيداته يسرعن وراءه، أستطيع أن أسمع صوته ـ الذي يسمينه السيدات بصوت الرعد ـ حسناً، وهذا ما يقوله: «إن محققاً غربياً مشهوراً، أُرسلَ لدراسة الإجراءات الجنائية في جميع بلدان العالم، قد قال للتوّ بأن تقاليدنا القديمة في إقامة العدل غير إنسانية. مثل هذا الحكم الصادر من شخصية كهذه يجعل من المستحيل بالنسبة لي أن أشجّع هذه الأساليب بعد الآن. لذلك منذ هذا اليوم سأقرّ قانوناً.... وما إلى ذلك. قد ترغب في أن تعترض على أنك لم تقل أي شيء من هذا القبيل، وأنك لم تنعت أساليبي باللاإنسانية، بل على العكس أن تجربتك العميقة تقودك إلى الاعتقاد بأنها الأكثر إنسانية والأكثر انسجاماً مع الكرامة الإنسانية، وأنك معجب بالجهاز إلى حد كبير ـ ولكن هذا سيكون بعد فوات الأوان؛ فأنت لن يكون بمقدورك الدخول حتى إلى الشرفة، المزدحمة كالعادة بالسيدات؛ وربما تحاول جلب الانتباه إلى نفسك؛ قد ترغب بالصراخ عالياً؛ لكن يد إحدى السيدات سوف تُغلق شفتيك ـ وعندها يُجهز علينا أنا وما عمله القائد القديم.»

اضطر المستكشف كتم ابتسامة؛ إذ إن المهمة سهلة جداً، إذن، التي كان قد تصوّرها في غاية الصعوبة. وقال متهرباً: «أنت تبالغ في تقدير نفوذي؛ فالقائد قد قرأ رسائل التوصية التي بحوزتي، هو يعلم بأنني لست خبيراً في الإجراءات الجنائية. فلو قيّض لي أن أعطي رأياً، لكان بمثابة رأي فردي خاص، وهو رأي ليس أكثر تأثيراً من رأي أي شخص عادي، وعلى أي حال هو أقل تأثيراً بكثير من رأي القائد، الذي، حسب علمي، يتمتع بسلطات واسعة جداً في مستعمرة العقاب هذه. وإذا كان موقفه من إجراءاتك عدائياً بالتأكيد كما تعتقد، إذن أخشى بأن تكون نهاية تقليدك وشيكة، حتى من دون أي مساعدة متواضعة مني».

هل تجلّى الأمر إلى الضابط أخيراً؟ لا، فهو ما يزال لا يفهم. هزّ رأسه بشكل قاطع، وحدّق على عجل في الرجل المدان والجندي، الذين ابتعدا عن الأرز، واقترب من المستكشف، ومن دون النظر إلى وجهه بل ركّز عينه على نقطة ما على معطفه وقال بصوت أخفض من ذي قبل: «أنت لا تعرف القائد؛ انت ترى نفسك ـ اعذرني على هذا التعبير ـ مجرد غريب بقدر تعلّق الأمر بنا؛ مع ذلك، صدقني، إن نفوذك لا يمكن أن يكون كبيراً جداً. كنت سعيداً جدا عندما سمعتُ بأنك ستحضر تنفيذ الإعدام بنفسك. فالقائد رتّب الأمر ليكيل ضربة لي، لكنني سوف أحولها لصالحي. ومن دون أن ينصرف انتباهي بالهمسات الكاذبة والنظرات المزدرية ـ والتي لا يمكن تجنبها لو حضر حشد من الناس عملية التنفيذ ـ فقد سمعتَ توضيحاتي، ورأيت الآلة، وأنت الآن في طريقك لمشاهدة تنفيذ الإعدام. لقد كوَّنت بلا شك حكمك الخاص؛ وإذا كانت لا تزال لديك بعض الشكوك الصغيرة فإن مرأى التنفيذ سوف يجلّيها. والآن التمسك: ساعدني ضد القائد!»

لم يسمح له المستكشف بالاستمرار في حديثه. «كيف يمكنني أن أفعل ذلك،» صاح، «فهذا مستحيل تماماً. أنا لا يمكن أن اساعدك ولا أقف في طريقك».

قال الضابط، «نعم، يمكنك ذلك». وشاهد المستكشف بشيء من الوجل بأن الضابط كان يطبق قبضتيه. «نعم، يمكنك ذلك»، كرّر الضابط، بمزيد من الإصرار. «لدي خطة لا بد أن تنجح. انت تعتقد بأن نفوذك غير كافٍ. وأنا أعلم بأنه كافٍ. ولكن حتى لو سلّمنا بأنك على حق، أليس من الضروري، من أجل الحفاظ على هذا التقليد، تجريب ما يمكن أن يثبت بأنه غير كافٍ؟ اصغِ إلى خطتي، إذن. إن أول شيء ضروري تقوم به هو أن تكون متحفظاً قدر الإمكان اليوم فيما يتعلق بحكمك بشأن هذه الإجراءات. وما لم تُسأل سؤالاً مباشراً يجب أن لا تقول شيئاً على الإطلاق؛ ولكن ما تقوله يجب أن يكون موجزاً وعاماً؛ دعهم يلاحظون بأنك لا تفضّل مناقشة المسألة، التي نفد صبرك معها، وإذا كنت تريد أن تمضي يمكنك استخدام لغة قوية. أنا لا أطلب منك أن تروي الأكاذيب؛ لا على الإطلاق؛ بل عليك أن تعطي إجابات مقتضبة فقط، من قبيل: «نعم، رأيتُ الإعدام»، أو «نعم، أوضحوه لي». هذا فقط، ولا شيء أكثر من ذلك. فهناك أسباب كافية لأي نفاد صبر تُظهره، وإن لم يكن من ذلك النوع الذي سيحصل للقائد. وبطبيعة الحال، سوف يخطئ المعنى الذي رميتَ إليه ويفسره لإرضاء نفسه. ذلك ما تعتمد عليه خطتي. غداً في مكتب القائد سيكون هناك مؤتمر كبير لجميع المسؤولين الإداريين رفيعي المستوى، برئاسة القائد. بالطبع إن القائد هو ذلك الرجل الذي حوّل هذه المؤتمرات إلى استعراضات عامة. فهو لديه فناء مبنيّ مكتظ دائماً بالمتفرجين. أنا مضطر للمشاركة في المؤتمرات، لكنها تجعلني أشعر بالغثيان بسبب الاشمئزاز. الآن، مهما يحدث، فسوف تُدعى بالتأكيد إلى هذا المؤتمر؛ وإذا تصرفتَ اليوم كما اقترحت عليك، فستكون الدعوة طلباً ملحًّا. ولكن إذا كان لسببٍ ما غامض لم تتم دعوتك، فإنه لابد من المطالبة بدعوة؛ إذ ليس هناك شك في تلبيتها لك. ومن ثم غداً ستجلس في مقصورة القائد مع السيدات. سيبقي دائم النظر حتى يتأكد من أنك هناك. وبعد مختلف القضايا التافهة والسخيفة، التي جيء بها لمجرد التأثير على الجمهور ـ في الغالب تتعلق بأعمال الميناء، لا شيء سوى أعمال الميناء! ـ وستبرز إجراءاتنا القضائية إلى طاولة المناقشة أيضاً. وإذا لم يقم القائد بإدراجها، أو لم تكن في البداية، فسوف أنظر في موضوع إدراجها. سأقف وأعلن أن الإعدام الذي جرى اليوم قد حصل فعلاً. باختصار شديد، بيان واحد ليس إلاّ. مثل هذا البيان ليس معتاداً، ولكنني سأقوم به. وسوف يشكرني القائد، كما هو شأنه دائماً، بابتسامة وديعة، ومن ثم لا يستطيع كبح نفسه، فهو يستغل هذه الفرصة الرائعة ويقول، «لقد أُعلِنَ عنه»، أو كلمات تليق بهذه المناسبة من قبيل، «إن الإعدام قد تمّ. وأود فقط أن أضيف بأن هذا الإعدام شهده المستكشف الشهير الذي، كما يعلم الجميع، شرّف مستعمرتنا شرفاً كبيراً بزيارته لنا. إن حضوره في جلسة اليوم لمؤتمرنا يساهم أيضاً في أهمية هذه المناسبة. ألا يجب الآن أن نسأل المستكشف الشهير ان يعطينا حكمه فيما يتعلّق بنظامنا التقليدي في الإعدام والإجراءات التي تؤدي إليه؟» بالطبع هناك هتاف عالٍ، واتفاق عام، وأنا أكثر إصراراً من أي شخص آخر. وسينحني

القائد لك ويقول: «إذن باسم الجموع المحتشدة، أطرح عليك هذا السؤال. «والآن أنت تتقدم إلى أمام المقصورة. ضع يديك بحيث يمكن للجميع رؤيتهما، وإلاّ فالسيدات سوف يمسكنهما ثم يضغطن على أصابعك. ـ وبعد ذلك في نهاية المطاف يمكنك التحدث علناً. لا أعرف كيف سأتحمل توتر انتظار تلك اللحظة. لا تضع أي قيود على نفسك عندما تُلقي خطابك، انشر الحقيقة بصوت عال، وانحنِ على الجزء الأمامي من المقصورة، اصدحْ، نعم فعلاً، اصدحْ بحكمك، قناعتك التي لا تتزعزع، في حضرة القائد. مع ذلك ربما لا تهتم بالقيام بذلك، فهذا لا يتماشى مع شخصيتك، وفي بلدك ربما يقوم الناس بهذه الأشياء بشكل مختلف، حسناً، لا ضير في ذلك أيضاً، فهذا سيكون مؤثراً تماماً، لا تقفْ، فقط قُلْ بضع كلمات، حتى ولو همساً، بحيث لا يسمعك سوى المسؤولين أسفل منك، فذلك سيكون كافياً تماماً، كما أنك لستَ بحاجة حتى إلى ذكر عدم دعم الجمهور لتنفيذ الإعدام، وللعجلة التي تُصدر صريراً، والشريط المقطوع، وكمامة اللباد القذرة، لا، سوف أحمل كلّ ذلك على عاتقي، و، صدقني، إذا لم يدفعه اتهامي خارج قاعة المؤتمرات هذه، فسوف يجبره على الركوع على ركبتيه للاعتراف: يا قائدي القديم، أنا أتواضع استصغاراً أمامك. ـ تلك هي خطتي؛ هل ستساعدني على تنفيذها؟ ولكن بالتأكيد أنت راغب في ذلك، هذا ناهيك عن أنك لابد أن تقوم بذلك.» ثم أمسك الضابطُ بكلتا ذراعي المستكشف وأخذ يحدّق، وهو يتنفس بصعوبة، في وجهه. لقد هتف بالجملة الأخيرة بصوت مجلجل بحيث جفل الجندي والرجل المدان؛ إذ إنهما لم يفهما كلمة واحدة ولكنهما توقفا عن تناول الطعام ونظرا إلى المستكشف، وهما يمضغان لُقَمَهما السابقة.

منذ البداية لم يكن لدى المستكشف أي شك في الجواب الذي يجب أن يعطيه؛ ففي حياته قد شهد الكثير بحيث لا يمكن أن ينتابه عدم اليقين هنا؛ فهو أساساً كان شريفاً وغير خائف. مع ذلك الآن، وهو يواجه الجندي والرجل المدان، تردّد بالفعل، طالما تطلّب ذلك التقاط بعض أنفاسه. وأخيراً، على أي حال، قال، كما كان يجب عليه أن يقول: «لا». ورمش الضابط عدة مرات ولكن من دون أن يحوّل عينيه بعيداً. «هل تريدني أن أشرح؟» سأل المستكشف. فأومأ الضابط من دون كلام. «أنني لا أوافق على إجراءاتك»، قال المستكشف بعد ذلك، «حتى قبل أن تجعلني موضع ثقتك ـ بالطبع أنا لن أخون ثقتك تحت أي ظرف من الظروف ـ كنت أتساءل بالفعل ما إذا كان من واجبي أن أتدخّل وما إذا كان تدخّلي سيكون له أدنى فرصة للنجاح. أدركتُ لمَن يجب أن أتحوّل: إلى القائد، بطبيعة الحال. لقد أوضحتَ تلك الحقيقة أيما توضيح، ولكن من دون أن تعزز قراري، على العكس من ذلك، لقد أثّرت بي قناعتك الصادقة، رغم أنها لا يمكن أن تؤثر على حكمي.»

ظلّ الضابط واجماً، وتحوّل نحو الجهاز، وأمسك بقضيب نحاسي، ومن ثم، وهو يميل إلى الوراء قليلاً، حدّق في «النقّاش» وكأنه يؤكد لنفسه بأن كل شيء في محله. وبدا الجندي والرجل المدان وكأنهما توصّلا إلى شيء من التفاهم؛ إذ كان الرجل المدان يوجّه إشارات إلى الجندي، على الرغم من صعوبة تحركاته بسبب الأشرطة المحكمة الشد؛ فيما كان الجندي ينحني عليه؛ وهمسَ الرجل المدان بشيء ما وهزّ له الجندي رأسه.

وتبع المستكشف الضابط وقال: «أنت لا تعرف حتى الآن ما أريد فعله. سوف أخبر القائد برأيي في الإجراءات، بالتأكيد، ولكن ليس في مؤتمر عام، فقط في السرّ؛ ولن أبقى هنا طويلاً بما فيه الكفاية بحيث أحضر أي مؤتمر؛ فأنا ذاهب بعيداً في وقت مبكر صباح الغد، أو على الأقل سأعتلي ظهر سفينتي.»

لم يكن الأمر يبدو بأن الضابط كان يصيخ السمع. «إذن فأنت لم تجد الإجراءات مقنعة»، قال لنفسه وابتسم، كما يبتسم عجوز لهراء طفوليّ ومع ذلك يستمر في تأملاته الخاصة بعد الابتسامة.

«إذن حان الوقت»، قال أخيراً، ونظر فجأة إلى المستكشف بعينين مشرقتين حملتا بعض التحدي، وبعض الرغبة في التعاون. «حان الوقت لأي شيء؟ «سأل المستكشف بعدم ارتياح، ولكن لم يحصل على أية إجابة.

«أنت حر»، قال الضابط للرجل المدان باللغة المحلية. لكن الرجل لم يصدّق ذلك في البداية. «نعم، أنت مطلق سراحك»، قال الضابط. ولأول مرة استبشر وجه الرجل المدان بشكل حقيقي. هل كان ذلك صحيحاً؟ هل كان ذلك مجرد نزوة تصدر من الضابط، قد تتغير مرة أخرى؟ هل أن المستكشف الأجنبي قد توسّل إليه حول ذلك الأمر؟ ماذا هناك؟ يمكن للمرء أن يقرأ هذه الأسئلة على وجهه. ولكن ليس لفترة طويلة. مهما كان الأمر، إنه أراد أن يكون حراً بالفعل، وبدأ يكافح بقدر ما سمح له المشط بذلك.

«سوف تمزّق أشرطتي»، صرخ الضابط، «ابقَ ساكناً! سنقوم قريباً بتخفيف شدّها». وهو يكلّف الجندي بمساعدته، شرع بالقيام بذلك. فضحك الرجل المدان ضحكة مكبوتة مع نفسه، وكان آناً يحوّل وجهه يساراً نحو الضابط، وآناً أخرى يميناً نحو الجندي، كما أنه لم ينسَ المستكشف من نظراته.

«أخرجْه»، أمر الضابطُ. وبسبب المشط كان لا بد من القيام بذلك بعناية. وكان الرجل المدان قد أخرج نفسه قليلاً من الخلف لقلة صبره.

من الآن فصاعداً، على أي حال، لم يعره الضابط أي اهتمام. فقد مضى إلى المستكشف، وسحب المحفظة الجلدية الصغيرة مرة أخرى، وأخرج الأوراق التي فيها، ووجد الورقة التي كان يريدها، وأظهرها للمستكشف. وقال له، «اقرأها». فردّ المستكشف، «لا أستطيع، قلتُ لك من قبل بأنني لا يمكن أن افهم هذه النصوص.» «حاولْ أن تنظر إليها عن كثب»، قال الضابط واقترب كثيراً من المستكشف حتى يتمكنا من قراءتها معاً. ولكن عندما ثبت عدم جدوى ذلك، مرّر بخنصره على النص، رافعاً خنصره عالياً فوق الورقة وكأنه لا يريد أن يلطّخ النص باللمس، من أجل مساعدة المستكشف في متابعة النص بهذه الطريقة. وبذل المستكشف جهده، وهو يقصد إرضاء الضابط بهذا الخصوص على الأقل، لكنه كان غير قادر تماماً على المتابعة. والآن بدأ الضابط بتهجئته، حرفاً حرفاً، ومن ثم قرأ الكلمات بصوت عال. ««كن عادلاً!» هو ما مكتوب هناك»، قال، «بالتأكيد يمكنك قراءته الآن». وانحنى المستكشف ليقترب كثيراً من الورقة التي كان الضابط يخشى أن يلمسها لذلك سحبها بعيداً جداً عنه؛ لكن المستكشف لم يعلّق، ومع ذلك كان واضحاً بأنه ما

يزال غير قادر على فك شفرته. «"كن عادلاً!» هو ما مكتوب هناك»، قال الضابط مرة أخرى. «ربما»، قال المستكشف، «أنا على استعداد لتصديقك». «حسناً إذن»، قال الضابط، على الأقل مقتنع جزئياً، وصعد السلّم حاملاً الورقة؛ وبحذر شديد وضعها داخل «النقّاش» وبدا يغيّر عمل كل شيء في التروس المسننة؛ إنه عمل مزعج جداً، ولابد أنه ينطوي على ربط عجلات صغيرة للغاية، ولبعض الوقت توارى رأس الضابط تماماً عن الأنظار داخل «النقّاش»، لأن عليه تنظيم الجهاز بدقة كبيرة.

وأخذ المستكشف، وهو ينحني إلى الأسفل، مراقبة العمل دون انقطاع، بحيث تصلّبت رقبته وآلمته عيناه من وهج أشعة الشمس في أعالي السماء. كان الجندي والرجل المدان الآن مشغولَين معاً. وجرى استخراج قميص الرجل وسرواله، الذَين كانا في الحفرة بواسطة حربة الجندي. كان القميص قذراً للغاية فغسله صاحبه بسطل مليء بالماء. عندما ارتدى القميص والبنطلون لم يتمالك نفسه ولا الجندي من الضحك، لأن الملابس كانت بطبيعة الحال ممزقة من الخلف. ربما شعر الرجل المدان بأن عليه أن يسلّي الجندي، لذلك اخذ يستدير حوله عدة مرات بملابسه الممزقة أمام الجندي، الذي تربّع على الأرض وهو يضرب ركبتيه مرحاً. مع ذلك، سيطرا في الوقت الحاضر على مرحهما احتراماً للسيدين.

عندما انتهى الضابط اخيراً من مهمته في الأعلى، تفحّص الجهاز بجميع تفاصيله مرة أخرى، بابتسامة، ولكن هذه المرة أغلق غطاء «النقّاش»، الذي بقي مفتوحاً حتى الآن، ونزل، ونظر إلى الحفرة وبعد ذلك نظر إلى الرجل المدان، مشيراً بارتياح إلى أن الملابس قد أخرجت، ثم مضى لغسل يديه في دلو الماء، ولاحظ متأخراً جداً بأن الماء كان قذراً بشكل يثير الاشمئزاز، فكان غير راضٍ لأنه لم يتمكن من غسل يديه، وفي النهاية اقحمهما في الرمال ـ إلاّ أن هذا الخيار لم يرق له، لكنه اضطر إلى تحمّله ـ ثم وقف معتدلاً وبدأ بفتح ازرار سترة بدلته. وبينما كان يقوم بهذا، وقع في يديه المنديلان النسائيان اللذان كان قد دسّهما تحت ياقته. «هذان هما منديلاك»، قال، ورماهما إلى الرجل المدان. وقال إلى المستكشف شارحاً: «إنها هدية من النساء».

على الرغم من التسرع الواضح الذي كان يتخلص فيه أولاً من سترة بدلته الرسمية وثم من كل ملابسه، كان يتعامل مع كل قطعة من ملابسه بعناية محببة، لدرجة أنه مرّر أصابعه بحنو على الشريط الفضي الذي يزّين السترة ووضع شرابةً في مكانها. وكانت هذه العناية المحببة بالتأكيد تتماشى مع حقيقة أنه بمجرد خلعَ الملابس فإنه يرميها مباشرة برمية عنيفة في الحفرة. وآخر شيء بقي عنده هو سيفه القصير مع حزام السيف. فقد سحبه من غمده، وكسره، ثم جمع كل أجزائه معاً، أي قطع السيف، والغمد، والحزام، وطوّح بها بعنف إلى أسفل حتى أحدثت قعقعة في الحفرة.

والآن وقف عارياً هناك. عضّ المستكشف على شفتيه ولم يقل شيئاً. كان يعرف جيداً ما كان سيحدث، لكنه لم يكن لديه الحق في عرقلة الضابط في أي شيء. وإذا كانت الإجراءات القضائية التي رعاها الضابط توشك من نهايتها ـ ربما نتيجة

لتدخله الخاص، فيما يتعلق بالشيء الذي تعهّد به ـ عندئذ كان الضابط يفعل الشيء الصحيح؛ ومن موقعه ما كان المستكشف ليتصرف خلاف ذلك.

لم يفهم الجندي والرجل المدان في البداية ما كان يجري، ففي بادئ الأمر حتى أنهما لم يكلّفا نفسيهما بالنظر إلى ذلك. كان الرجل المدان سعيداً لرجوع منديليه إليه، لكنه لم يُسمح له بالتمتع بهما لفترة طويلة، لأن الجندي انتزعهما بشكل مفاجئ وغير متوقع. والآن حاول الرجل المدان بالمقابل انتزاعهما من تحت الحزام حيث كان الجندي قد دسّهما فيه، لكن الجندي كان يقظاً. لذلك أخذا يتصارعان، بما يشبه الدعابة. ولم يحوّلا انتباههما إلاّ عندما وقف الضابط عارياً تماماً. وقد بدا الرجل المدان مصدوماً بفكرة أن تغييراً ما كبيراً كان وشيك الحدوث. إن ما حدث له كان سيحدث الآن للضباط. ربما حتى إلى النهاية نفسها. وعلى ما يبدو أن المستكشف الأجنبي كان أعطى الأمر بذلك. إذن كان هذا انتقاماً. ورغم أنه هو نفسه لم يعانِ حتى النهاية، فإنه سيُثأر له في نهاية المطاف. وعبرت محيّاه الآن تكشيرة صامتة، عريضة وبقيت مرسومة هناك إلى ما تبقى من الوقت.

بيد أن الضابط قد تحول إلى الجهاز. وكان واضحاً بما فيه الكفاية سابقاً بأنه فهم الجهاز جيداً، ولكنه الآن مندهش تقريباً إذ يرى كيف كان يديره وكيف كان يطيعه. فلابد ليدِه أن تقترب من «المشط» من أجل أن يرتفع وينخفض عدة مرات حتى يُعدل إلى المكان الصحيح لاستقبال الضابط؛ وأمسك فقط بحافة «المرقد» وبالفعل أخذ يهتز؛ وجاءت كمامة اللباد لتقابل فمه، ويمكن للمرء أن يرى بأن الضابط كان كارهاً حقاً لأخذها لكنه انكمش منها للحظة، وسرعان ما استسلم وتناولها. كان كل شيء جاهزاً، إلا أن الأشرطة كانت تتدلى إلى الأسفل على الجانبين، ومع ذلك اتّضح بأنه لا لزوم لها، فليست هناك حاجة لربط الضابط بها. ثم لاحظ الرجلُ المدان الأشرطة السائبة، وفي رأيه أن تنفيذ الإعدام كان غير مكتمل مالم تُربط الأشرطة، فأشار بلهفة إلى الجندي وركضا معاً لتقييد الضابط بالأشرطة. وكان هذا الأخير قد مدّد قدماً واحدة لدفع الذراع الذي كان يشغّل «النقّاش»؛ ورأى الرجلين قادمين؛ لذلك سحب قدمه إلى الوراء وسمح بشدّ نفسه. لكنه الآن لم يتمكن من الوصول إلى الذراع؛ فلا الجندي ولا الرجل المدان بقادرّين على العثور عليه، وكان المستكشف عازماً على عدم تحريك ساكن. إنه لم يكن ضرورياً؛ فطالما رُبطت الأشرطة فقد بدأت الآلة بالعمل؛ واهتزّ «المرقد»، وأخذت الابرُ تومض فوق الجلد، وأخذ «المشط» يرتفع وينخفض. وكان المستكشف يحدّق في ذلك لفترة من الزمن قبل أن يتذكر بأن عجلة في «النقّاش» يجب أن تُصدر صريراً؛ إلاّ أن كل شيء كان هادئاً، ولم يُسمع ولا حتى أدنى نأمة.

ولأن الجهاز كان يعمل بصمت كبير فإن أحداً لم يعره اهتماماً. ولاحظ المستكشف الجنديَّ والرجلَ المدان. كان الأخير أكثر حيوية من الآخر، فقد أثاره كل شيء في الجهاز، فآناً كان ينحني إلى الأسفل وآناً آخر كان يشرأب على رؤوس الأصابع، وكانت سبابته ممتدة طوال الوقت توضح التفاصيل إلى الجندي. وهذا ما أزعج المستكشف. فقد عزم على البقاء حتى النهاية، لكنه لا يمكن أن يتحمل مرأى هذين الرجلين. وقال لهما، «ارجعا إلى بيوتكما». لقد كان الجندي راغباً جداً في ذلك، لكن

الرجل المدان فسّر الأمر بأنه عقاب. وبيدين مشبوكتين توسّل للسماح له بالبقاء، وعندما هزّ المستكشف رأسه ولم يتنازل، جثا هذا الشخص على ركبتيه. ولما رأى المستكشف بأنه لم تكن هناك فائدة من مجرد إعطاء الأوامر، كان على وشك الذهاب وإبعادهما. في تلك اللحظة سمع ضجيجاً فوقه في «النقّاش». نظر إلى الأعلى. هل كان ذلك ان العجلة المسننة هي التي تسبب الضوضاء برغم كل شيء؟ لكنه كان شيئاً ما مختلفاً تماماً. وببطء ارتفع غطاء «النقّاش» ومن ثم انفتح على مصراعيه. وظهرت أسنان العجلة المسننة وارتفعت عالياً، وسرعان ما اصبحت العجلة بأكملها بادية للعيان، بدا الأمر وكأن قوة هائلة كانت تعصر «النقّاش» لذلك لم يعد هناك مجال للعجلة، وهكذا ارتفعت حتى وصلت إلى حافة «النقّاش» نفسها، وهبطت، وتدحرجت على طول الرمال مسافة قصيرة على حافتها، وبعد ذلك ارتمت بشكل أفقي. لكن عجلة ثانية كانت ترتفع بعدها، تلتها العديد من العجلات الأخرى، كبيرة وصغيرة ودقيقة للغاية، وحدث الشيء نفسه لجميع عجلاتها، ففي كل لحظة تخيّل المرء بأن «النقّاش» لابد أن يكون الآن فارغاً حقاً، ولكن مجموعة أخرى من العجلات المتعددة كانت ترتفع في الأفق، وتسقط، متدحرجة على طول الرمال، وتقع أفقياً. جعلت هذه الظاهرة الرجل المدان ينسى تماماً أمر المستكشف، فالعجلات المسننة خلبن لبّه، كان يحاول دائماً الإمساك بواحدة وفي الوقت نفسه يحث الجندي على المساعدة، لكنه كان دائماً يسحب يده مذعوراً، لأن عجلة أخرى دائماً ما كانت تأتي تتقافز إلى الأمام، وكان هذا على الأقل يُدخل الروع في قلبه عند أول تقدّمها.

المستكشف، من ناحية أخرى، شعر بالضيق الشديد؛ فالجهاز من الواضح قد أصبح شذر مذر؛ وكان عمله الصامت مجرد وهم؛ وتملّكه شعور بأنه يجب أن يقف الآن بجانب الضابط، لأن الضابط لم يعد قادراً على الاعتناء بنفسه. ولكن في الوقت الذي استقطبت العجلات المسننة المتدلية كل اهتمامه فقد نسي مراقبة بقية الجهاز؛ ولأن آخر عجلة مسننة كانت قد تركت «النقّاش»، على أي حال، فإنه انحنى على «المشط» وألمّت به مفاجأة جديدة وغير سارّة. وهي ان «المشط» لم يكتب، كان فقط يطعن، و»المرقد» لا يدير الجسم ولكن يرفعه فقط مرتعشاً على الإبر. أراد المستكشف أن يفعل شيئاً ما، إذا كان ذلك ممكناً، من أجل إيقاف الجهاز كله، لأن هذا لم يكن تعذيباً مثالياً مثلما أراده الضابط، بل كان قتلاً صريحاً. فمدّ يديه. ولكن في تلك اللحظة ارتفع «المشط» مع الجسم المغروس فيه وانتقل إلى الجانب، كما هو شأنه عادة عندما تحين الساعة الثانية عشرة. كان الدم يتدفق كالميازيب، لم يختلط بالماء، كما أن خراطيم الماء توقّف عملها ايضاً. والآن فشلت المرحلة الأخيرة من القيام بالمهمة، فالجسم لم يسقط بعيداً عن الابر الطويلة، وبينما يشخب الدم فقد استمر معلقاً على الحفرة دون الوقوع فيها. حاول «المشط» العودة إلى موقعه القديم، ولكن كأنه لاحظ بنفسه أنه لم يتخلص بعدُ من حمله فقد علق بعد كل هذا حيثما كان، فوق الحفرة. «تعالا وقدّما المساعدة!» صرخ المستكشف إلى الاثنين الآخرين، وأمسك بنفسه بقدمي الضابط. أراد أن يندفع تجاه القدمين في حين أمسك الآخران بالرأس من الجانب الآخر وهكذا تمّ تخليص الضابط ببطء من الإبر. لكن هذين الاثنين لم يكن بوسعهما أن يقررا المجيء؛ فالرجل المدان تحرّك بعيداً؛

فاضطر المستكشف إلى الذهاب إليهما وإجبارهما على المجيء عند رأس الضابط. وهنا، تقريباً ضد إرادته، كان عليه أن ينظر إلى وجه الجثة. كانت مثلما هي عليه في الحياة؛ لم تظهر أي علامة على الفداء الموعود؛ إذ ما كان قد وجده الآخرون في الآلة لم يكن قد وجده الضابط؛ فالشفتان كانتا مضغوطتين بقوة معاً، وكانت العينان مفتوحتين، وبالتعبير نفسه كما في الحياة، وكانت نظرتهما هادئة ومطمئنة، وخلال الجبين مضى رأس المسمار الحديدي العظيم.

وعندما وصل المستكشف، بمعية الجندي والرجل المدان، إلى أول بيوتات المستعمرة، أشار الجندي إلى احدهما وقال: «ها هو ذا المقهى».

في الطابق الأرضي من المنزل كان ثمة مجال عميق، منخفض، مجوّف، اسودّت ْجدرانه وسقفه بالدخان. كان مفتوحاً على الطريق على طوله كلّه. وبرغم أن هذا المقهى كان مختلفاً قليلاً جداً عن المنازل الأخرى في المستعمرة، التي كانت جميعها متهالكة جداً، حتى وصولاً إلى المقر الواسع للقائد، فإنه أدخل في روع المستكشف انطباعاً ينمّ عن تقليد تاريخي من نوع ما، وشعر بسطوة الأيام الخوالي. واقترب منه، يتبعه صاحباه، تماماً بين المناضد الفارغة التي شخصت في الشارع أمام المقهى، وتنفس الهواء البارد، الثقيل الذي جاء من الداخل. قال الجندي، «الرجل العجوز مدفون هنا، إذ لم يسمح لهم القس بدفنه في فناء الكنيسة. لا أحد كان يعرف أين سيدفنونه مؤقتاً، ولكن في النهاية دفنوه هنا. من المؤكد أن الضابط لم يخبرك قط بذلك، لأن ذلك بطبيعة الحال كان يُشعره بالخجل اكثر. بل حتى أنه حاول عدة مرات نبش قبر الرجل العجوز ليلاً، لكنه دائماً كان يتعرّض للمطاردة». «أين هو القبر؟» سأل المستكشف، الذي وجد من المستحيل تصديق الجندي. وفي الحال ركض كلّ من الجندي والرجل المدان أمامه مشيرين بأيادي ممدودة إلى الاتجاه حيث ينبغي أن يكون القبر. وقادا المستكشف حتى الجدار الخلفي، حيث كان الضيوف يجلسون على بعض المناضد. كانوا على ما يبدو عمال الميناء، رجال أشدّاء بلحى قصيرة، لامعة، سوداء كثّة. لم يرتدِ أيّ منهم سترة، وقمصانهم ممزقة، كانوا مخلوقات فقيرة، متواضعة. عندما اقترب المستكشف، نهض بعض منهم، وضغطوا انفسهم لصق الجدار، وجعلوا يحدقون في وجهه. «أنه أجنبي»، مرّ الهمسُ من حوله، «يريد أن يرى القبر». نحّوا أحد المناضد جانباً، وكان تحته شاهد قبر بالفعل. كان عبارة عن حجر بسيط، منخفض بما يكفي بحيث تغطيه منضدة. ثمة نقش عليه بحروف صغيرة جداً، لذلك اضطر المستكشف إلى الركوع لقراءته. يقول النقش: «هنا يرقد القائد القديم. إن أتباعه، الذين لابد أن يكونوا الآن بلا أسماء، قد حفروا هذا القبر وأنشئوا هذا الحجر. هناك نبوءة تفيد بأنه بعد عدد معين من السنوات سوف يُبعث القائد مرة أخرى ويقود أتباعه من هذا البيت لاستعادة المستعمرة. كن مؤمناً وانتظر!» وعندما قرأ المستكشف هذا ونهض على قدميه رأى جميع المتفرجين حوله يبتسمون، كما لو أنهم كانوا قد قرأوا النقش ايضاً، ووجدوه مثيراً للسخرية، وكانوا يتوقعون منه أن موافقتهم الرأي. تجاهل المستكشف هذا، ووزع عليهم عدداً قليلاً من القطع النقدية، وبقي منتظراً حتى دُفِعت الطاولة فوق القبر مرة أخرى، وغادر المقهى، وتوجّه نحو الميناء.

وقد وجد الجندي والرجل المدان بعضاً من معارفهما في المقهى، الذين أخّروهما. ولكن سرعان ما تصافحا معهم مودّعين، لأن المستكشف كان في منتصف الطريق يهبط مجموعة الدرجات الطويلة المؤدية إلى القوارب عندما جاءا مسرعَين بعده. ربما كانا يريدان إجباره في اللحظة الأخيرة على اصطحابهما معه. وبينما كان يساوم في الأسفل مع صاحب العبّارة لينقله إلى الباخرة، جاء الاثنان من فورهم يهبطون الدرجات، في صمت، لأنهما لم يجرؤا على الصياح. ولكن ما إن وصلا إلى أسفل الدرجات كان المستكشف في القارب، وانطلق صاحب العبارة من الشاطئ. وهمّوا بالقفز إلى القارب، لكن المستكشف رفع حبلاً ثقيلاً معقوداً من داخل القارب، وهددهما به، وهكذا منعهما من محاولة القفز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدير مدرسة القرية {أو الخلد العملاق}

هؤلاء، وأنا منهم، ممن يجدون حتى أصغر خلد عادي الحجم مقززاً، ربما كانوا سيموتون من الاشمئزاز لو رأوا الخلد العملاق الذي لوحظ قبل بضع سنوات خلت في أحد أحياء قرانا، والذي حقق شهرة عابرة بسبب تلك الحادثة. اليوم مرّت فترة طويلة منذ أن طواها النسيان مرة أخرى، وهذا ماساهم بغموض الحادثة ككل، التي ظلت عصية على التفسير تماماً، والتي، يجب أن نعترف، لم يكلّف الناس أنفسهم في شرحها؛ ونتيجة للامبالاة غامضة في تلك الأوساط نفسها التي لابد أنها مهتمة بها، والتي أبدت في الواقع اهتماماً كبيراً في مسائل تافهة إلى أبعد حد، فإن القضية نُسيت من دون أن تحظى بالتحقيق الذي تستحق. على كل حال، فإن عدم تمكّن القرية من أن تصلها السكك الحديد ليس عذراً. إذ إن الكثير من الناس كانت تجيء من أصقاع بعيدة بدافع الفضول المحض، وحتى كان بينهم أجانب؛ وفقط أولئك الذين لابد أنهم اظهروا شيئاً ما أكثر من الفضول قد امتنعوا عن المجيء. في الواقع، لو أن عدداً قليلاً من الناس البسطاء جداً، الناس الذين لم يعطهم عملهم اليومي لحظة فراغ ـ لو أن هؤلاء الناس لم يتبنّوا القضية بشكل مثير تماماً، لما انتشرت أبداً الشائعة حول هذه الظاهرة الطبيعية خارج المنطقة. بالفعل، الشائعة نفسها، والتي عادة لا يمكن أن تحدّها حدود، كانت في الواقع بطيئة في هذه الحالة؛ فلو لم تُعطَ دفعة بالمعنى الحرفي فأنها ما كانت لتنتشر. ولكن حتى ذلك لم يكن سبباً وجيهاً في رفض التحقيق في هذه القضية؛ على العكس من هذا يجب التحقيق في هذه الظاهرة الثانية أيضاً.

وبدلا عن ذلك، تُرك مدير مدرسة القرية العجوز يكتب التقرير الوحيد بصورة مبسترة عن الحادثة، وعلى الرغم من أنه رجل ممتاز في مهنته الخاصة، لكن لا قدراته ولا معداته مكّنتْه من انتاج وصف شامل يمكن أن يستخدمه الآخرون كأساس لهم، ومن ثم، تفسير فعلي للحادثة. طُبع كتيبه الصغير، وبيعت منه نسخ كثيرة لابأس بها إلى زوار القرية في ذلك الحين؛ كما أنه حظي ببعض الاعتراف العلني، لكن المدرّس كان حكيماً بما يكفي ليدرك بأن أعماله المجتزأة، التي لم يدعمه فيها أحد، كانت في الأساس من دون قيمة. وإذا كان برغم ذلك لم يتهاون فيها، وجعل المسألة شغله الشاغل طوال حياته، على الرغم من أنها أصبحت بطبيعة الحال ميؤوساً منها من سنة إلى أخرى، فهذا يُظهر من ناحية مدى قوة التأثير التي يمكن أن يبديها ظهور الخلد العملاق، ومن ناحية أخرى {يُظهر} مدى الجهد الشاق والإخلاص لقناعاته التي يمكن أن يوجد في مدرس قرية عجوز ومغمور. لكن مسألة معاناته الكبيرة من الموقف البارد للسلطات المختصة يؤكّده كرّاس موجز أخذ عن طريقه يتابع كتيّبه بعد عدة سنوات، حيث لا يستطيع أي شخص في ذلك الوقت أن يتذكر عن ماذا كان يتحدث. في هذا الكرّاس اشتكى من عدم وجود فهم لَمَسَهُ في أناس لم يكن متوقعاً هذا منهم؛ وهي شكاوى حملت اتهاماً عن طريق المهارة التي صيغت فيها أقل منه عن طريق نزاهتها. وعن هؤلاء الناس قال بشكل مناسب جداً: «إنه ليس أنا، ولكنهم هم، مَن يتحدثون مثل مدرسي القرية العجائز». ومن بين أمور أخرى أدلى بها هو الإفصاح عن أحد الباحثين الذي كان قد ذهب

صراحة إليه بشأنه قضيته. لم يُذكر اسم الباحث، ولكن من خلال ظروف مختلفة استطعنا تخمين شخصيته. بعد أن تمكّن المدرس بصعوبة بالغة من تأمين الموافقة، أدرك في الحال من خلال الطريقة نفسها التي اُستُقبِل فيها بأن العالِم كان قد اكتسب تحيزاً متجذراً ضد هذه المسألة. إذ إن الشرود الذي استمع فيه إلى التقرير الطويل الذي قدّمه له المدرّس، وهو يحمل الكتيب في يده، يمكن قياسه من ملاحظةٍ ابداها بعد وقفة كردّة فعل ظاهرية: «إن التربة في منطقتكم سوداء وغنية على نحو خاص. لذا فإنها تمدّ حيوانات الخلد بالتغذية الغنية بشكل خاص، وهكذا فإنها تنمو لتصبح بحجم غير عادي.

«ولكن ليس بهذا الحجم!» هتف المدرس، وقاسَ ياردتين على الحائط، وهو يبالغ إلى حد ما بطول الخلد بحنق. «أوه، ولِمَ لا؟» أجاب الباحث، الذي كان من الواضح أنه ينظر إلى القضية برمتها بوصفها نكتة كبيرة. وبهذا الحُكم كان على المدرس أن يعود أدراجه إلى بيته. ويسرد كيف كانت زوجته وستة أطفال ينتظرونه على جانب الطريق تحت الثلج، وكيف أنه كان عليه أن يعترف لهم بالانهيار الأخير لآماله.

عندما قرأتُ موقف الباحث تجاه الرجل العجوز لم أكن بعدُ قد اطُّلعت على كتيب المدرّس. لكنني على الفور عزمتُ على جمع وربط كل المعلومات التي يمكنني أن أكتشفها بشأن هذه القضية. فإذا لم أستطع استخدام القوة البدنية ضد الباحث، يمكنني إذ ذاك أن أكتب على الأقل دفاعاً عن المدرّس، أو أكثر تحديداً، {دفاعاً} عن النوايا الحسنة لرجل نزيه لكنه غير مؤثر. أعترف بأنني ندمتُ على هذا القرار في وقت لاحق، لأنني سرعان ما رأيتُ بأن تنفيذه كان من شأنه أن يُدخلني في مأزق غريب جداً. فمن ناحية، كان نفوذي أبعد من أن يكون كافياً لإحداث تغيير في الرأي المثقف أو حتى الرأي العام ليقف لصالح المدرّس، في حين من ناحية أخرى على المدرس أن يكون ملزماً بأن يلاحظ بأنني كنت أقل اهتماماً بموضوعه الرئيسي، الذي كان لإثبات أن الخلد العملاق كان قد شوهد في الواقع، من الدفاع عن صدقه، الذي لابد أن يكون بطبيعة الحال جليًّا له ولا حاجة للدفاع. ووفقاً لذلك، ما كان من المقرر أن يحدث هو التالي: إن المدرّس سوف يسيء فهمي، على الرغم من أنني أردتُ أن أتعاون معه، وبدلاً عن مساعدته فأنا شخصياً قد أحتاج إلى دعم، وهو أمر من غير المرجّح أن يظهر. إلى جانب ذلك، فإن قراري سوف يفرض عليّ عبئاً كبيراً من العمل. وإذا أردتُ إقناع الناس فإنني لا أستطع استدعاء المدرس، لأنه هو نفسه غير قادر على إقناعهم. إن قراءة كتيبه لا يمكن أن يقودني إلاّ إلى الضلال، وهكذا أحجمتُ عن قراءته حتى أكون قد أنهيتُ من اعمالي الخاصة بي. أضف إلى ذلك، أنني لم أكن على اتصال بالمدرس. صحيح أنه سمع عن تحقيقاتي من خلال وسطاء، لكنه لم يعرف ما إذا كنتُ أعمل لصالحه أم ضده. في الحقيقة انه ربما افترض الاحتمال الثاني، رغم أنه نفى ذلك في وقت لاحق؛ لأن لدي دليلاً على حقيقة أنه وضع مختلف العقبات في طريقي. كان من السهل جداً بالنسبة له أن يفعل ذلك، لأنني بالطبع كنت مضطراً إلى القيام مرة أخرى بجميع الاستفسارات التي سبق أن أدلى بها، وهكذا يكون بوسعه أن يسبقني دائماً. لكن ذلك كان الاعتراض الوحيد الذي يمكن أن يكون بشكل عادل على أسلوبي، وهو عيب لا يمكن تجنبه،

لكنه أسلوب خَفِفَ بالحذر ونكران الذات الذين توصلتَ معهما إلى استنتاجاتي. ولكن بالنسبة للبقية فإن كتيبي كان غير متأثر تماماً بالمدرس، ربما في هذه النقطة، فعلاً، أظهرتُ دقة متناهية جداً؛ إذ من خلال كلامي ربما يعتقد المرء بأن أحداً لم يحقق في القضية من قبل، وأنني كنت أول مَن حقق مع أولئك الذين كانوا قد رأوا أو سمعوا عن الخلد، وأول مَن ربط الأدلة، وأول مَن توصّل إلى الاستنتاجات. عندما قرأتُ في وقت لاحق كتيب مدير المدرسة ـ كان له عنوانٌ استنتاجيٌّ جداً: «خلدٌ، أكبر في الحجم من أي خلد رأيته سابقاً» ـ وجدتُ أننا في الواقع لم نتفق على بعض النقاط الهامة، برغم أن كلينا يعتقد بأننا أثبتنا نقطتنا الرئيسية، وهي، وجود الخلد. وقد حالت هذه الاختلافات دون بناء العلاقات الودية مع مدير المدرسة التي كنت أتطلع إليها على الرغم من كل شيء. من جانبه هناك شعور بالعداء تقريباً. صحيح أنه كان معتدلاً ومتواضعاً في تصرفه تجاهي، لكن ذلك فقط جعل مشاعره الحقيقية أكثر وضوحاً. بعبارة أخرى، كان يرى بأنني دمَّرت سمعته، وأن اعتقادي بأنني كنتُ أو يمكن أن أكون ذا عونٍ له كان ينمّ عن بساطة في أحسن الأحوال، ولكن الأكثر احتمالاً هو مجرد افتراض أو حيلة. كان على وجه الخصوص مولعاً بالقول بأن جميع أعدائه السابقين قد أظهروا عدائهم إما بشكل مطلق، أو في السرّ، أو على الأكثر عن طريق كلمة تصدر عنهم، في حين كنت أرى من الضروري أن أنشر انتقاداتي على الفور. علاوة على ذلك، فإن معارضيه القليلين الذين شغلوا أنفسهم حقاً بهذا الموضوع، ولو بشكل ظاهري، قد استمعوا على الأقل إلى آرائه، اي آراء مدير المدرسة، قبل أن يعبّروا عن آرائهم: بينما قمتُ، بناءً على قوة دليل جرى تجميعه بشكل غير منتظم وغير مفهوم إلى حدّ ما، {قمتُ} بنشر الاستنتاجات التي، حتى لو كانت صحيحة فيما يتعلق بالنقطة الرئيسية، لا بد أنها تثير عدم الرضا، بين العامة ليس أقلّ مما تثيره بين المتعلمين. لكن أدنى تلميح بأن وجود الخلد لا يستحق المصداقية كان أسوأ شيء يمكن أن يحصل في هذه الحالة.

وحيال هذه الانتقادات، المستترة كما بدت، استطعتُ بسهولة أن أجد إجابة ـ على سبيل المثال، أن كتيبه حقّق أعلى درجة من اللايقين ـ كان من السهل جداً، على أي حال، إحراز تقدّم ضد شكّه المستمر، وكان ذلك السبب في أنني كنت متحفظاً جداً في تعاملاتي معه. لأنه في قرارة نفسه كان مقتنعاً بأنني أردتُ أن أسرقه الشهرة في أن يكون أول رجل يُثبت علناً وجود الخلد. الآن بطبيعة الحال لم يتمتع حقاً بأية شهرة من أي نوع، ولكن فقط سمعة سيئة سخيفة تذوي أكثر فأكثر، والتي بالتأكيد لم تكن لدي إزاءها الرغبة في المنافسة. إلى جانب ذلك، في مقدمة كتيبي كنتُ قد أعلنتُ صراحة بأن المدرس يجب أن يبقى طوال الوقت بوصفه المكتشف لهذا الخلد ـ وهو لم يكن كذلك ـ وأن تعاطفي فقط مع مصيره المؤسِف هو الذي دفعني إلى الكتابة. «إن الهدف من هذا الكتيب» ـ وهكذا أنهيتُ كل شيء بشكل ميلودرامي، إلاّ أن ذلك يتوافق مع مشاعري في ذلك الوقت ـ «هو المساعدة في إعطاء كتاب مدير المدرسة الدعاية الواسعة التي يستحق. وإذا نجحتُ في ذلك، عندها قد يُمحى اسمي في الحال، الاسم الذي أراه يتعلق على نحو عابر وغير مباشر بهذه المسألة». وهكذا تنصُّلت صراحة من أي مشاركة كبيرة في هذه القضية؛ كان الأمر تقريباً كما لو أنني توقعتُ بطريقة ما انتقادات المدرس التي لا تصدّق. مع ذلك وجد في هذه الفقرة

بالذات ذريعة ضدي، كما أنني لا أنكر بأن هناك مسحة خافتة من العدالة في ما قاله أو بالأحرى ما ألمحَ اليه؛ وبالفعل صعقتني حقيقة أنه أظهر تقريباً انجازاً بقدر تعلّق الأمر بي أذكى مما فعله في كتيبه. لأنه أكّد بأن مقدمتي كانت مزدوجة. وإذا كنتُ حقاً مهتماً فقط بإعطاء الدعاية لكتيبه، لماذا لم أكن قد شغلتُ نفسي حصرياً به وبكتيبه، ولماذا لم أشر إلى فضائل ذلك الكتيب، وعدم الطعن فيه، ولماذا لم أقتصر على الإصرار على أهمية الاكتشاف وجعل ذلك واضحاً، ولماذا قمتُ بدلاً عن ذلك بتناول الاكتشاف نفسه، في حين تجاهلتُ الكتيب تماماً؟ ألم يتم التوصّل إلى الاكتشاف بالفعل؟ هل ما يزال هناك شيء ما يتعين القيام به في ذلك الاتجاه؟ ولكن إذا كنت حقاً أظن بأنه من الضروري بالنسبة لي جعل الاكتشاف منتشراً من جديد، فلماذا نأيتُ بنفسي عن الاكتشاف بشكل جاد تماماً في مقدمتي؟ يمكن للمرء أن يُنزل ذلك إلى منزلة التواضع الكاذب، لكن الأمر ينطوي على شيء ما أسوأ من ذلك. كنتُ أحاول التقليل من شأن الاكتشاف، اذ كنتُ ألفت الانتباه اليه ذلك فقط من اجل الانتقاص منه، في حين كان من ناحية أخرى يحقق فيه ويثبته له. ربما كانت القضية قد غرقت إلى حد ما في غياهب النسيان؛ والآن قمتُ بإثارتها مرة أخرى، لكنه في الوقت نفسه جعلتُ موقف مدير المدرسة أصعب من أي وقت مضى. ماذا يهمّ سواء أثبِتت أمانته أم لا؟ فكلّ الذي كان يعنيه هو الشيء نفسه، ذلك الشيء ولا غير. لكنه قد لحقني الأذى من ذلك الشيء، لأنني لم أفهمه، ولم أعطه قيمته الحقيقية، ولم يكن لدي أي شعور حقيقي تجاهه. فقد كان فوق قدرتي الفكرية بكثير. جلس قبالتي ونظر إليّ، وكان وجهه العجوز المجعّد هادئاً تماماً. ومع ذلك كان هذا كل ما يفكر فيه. لذا لم يكن صحيحاً بأنه كان مهتماً فقط بهذا الشيء نفسه: في الواقع كان يلهث وراء الشهرة، وأراد كسب المال من الأعمال التجارية أيضاً، وهذا الأمر، على أي حال، عند أخذ عائلته الكبيرة بعين الاعتبار، كان مفهوماً جداً. وعلى الرغم من هذا بدا اهتمامي في هذه القضية تافهاً جداً مقارنة باهتمامه هو، حيث شعر بإمكانه الادّعاء بعدم اهتمامه التام من دون أن يحيد بشكل خطير عن جادة الصواب. وبالفعل لم تهدأ شكوكي الداخلية بمجرد إخبار نفسي بأن انتقادات الرجل كانت ترجع فعلاً إلى حقيقة أنه تعلّق بخلده، إذا جاز التعبير، بكلتا يديه، وكان مجبراً على النظر إلى أي شخص يضع ولو إصبعاً عليه بأنه خائن. لأن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فموقفه لا يمكن تفسيره بالجشع، أو بأي حال من الأحوال عن طريق الجشع وحده، بل بالأخرى {يمكن تفسيره} عن طريق الحساسية التي كانت أعماله الكبيرة وفشلها الكامل قد ورثته فيه. ولكن حتى حساسيته لم تفسر كل شيء. ربما لأن اهتمامي في القضية كان حقاً تافهاً جداً. لقد اعتاد مدير المدرسة ان يُظهر عدم اهتمامه بالغرباء. ونظر إلى هذا الاهتمام بأنه شرّ مستطير، لكنه لم يمضِ وقت حتى أخذ يعاني من مظاهره الفردية. الآن ظهر رجل، وبشكل غريب تماماً، تبنّى هذه القضية؛ وحتى من دون أن يفهمها. ولأنني هوجمتُ من هذا الجانب فلم أتمكن من الدفاع. فأنا لستُ عالِم حيوان؛ مع ذلك ربما كنتُ ألقيتُ نفسي في هذه القضية بكل جوارحي لو كنتُ قد اكتشفته؛ لكنني لم أكن قد اكتشفته. هذا الخلد العملاق هو بالتأكيد معجزة، ولكن لا يمكن للمرء أن يتوقع الاهتمام المستمر والمتفق عليه الذي حباه اياه العالم بأسره، خاصة وأن وجوده غير مثبت بشكل كامل ولا يقبل الجدال، وعلى أي حال لا سبيل

إلى تفسيره. كما أنني أعترف أيضاً بأنه حتى لو كنتَ أنا المكتشف فإنني ربما لم أكن قد انبريتُ بكل سرور وبشكل طوعي للدفاع عن الخلد كما هو ديدن مدير المدرسة.

الآن ربما يكون سوء الفهم بيني وبين مدير المدرسة قد انقشع بسرعة لو كان كتيبي قد حقق النجاح. لكن النجاح لم يكن يلوح في الأفق. لعل الكتاب لم يكن مكتوباً بشكل جيد بما فيه الكفاية، وليس مقنعاً بما يكفي؛ فأنا رجل أعمال، قد يكون تأليف مثل هذا الكتيب ما يزال ابعد عن امكانياتي المحدودة من امكانيات المدرس، لكن بالنسبة لنوع المعرفة المطلوبة لذلك فأنني كنت متفوقاً كثيراً عليه. إلى جانب هذا، يمكن أن يكون فشلي قابلاً للتفسير بطرق أخرى؛ إذ إن الوقت الذي ظهر فيه الكتيب قد يكون مشؤوماً. إن اكتشاف الخلد، الذي فشل في الوصول إلى جمهور واسع في الوقت الذي حدث فيه، لم يمضِ عليه وقت طويل جداً من ناحية بحيث يُنسى تماماً، ومن ثم القدرة على أن يعود ساخناً مرة أخرى من خلال كتيبي، بينما من ناحية أخرى فقد انقضى وقت كافٍ جداً لاستهلاك الفائدة التافهة التي كانت موجودة أصلاً. وأولئك الذين أخذوا كتيبي على محمل الجد قالوا لأنفسهم، في تلك النبرة المملة التي وصمت النقاش منذ البداية، بأن الأعمال القديمة عديمة الفائدة المتعلقة بهذه المسألة المرهقة كانت ستبدأ من جديد؛ وحتى إن بعضها خلط بين كتيبي وكتيب مدير المدرسة. وفي مجلة زراعية رائدة ظهر التعليق التالي، لحسن الحظ في النهاية تماماً، وبطباعة صغيرة: «لقد أرسِل الكتيب المتعلق بالخلد العملاق مرة أخرى لنا. وقبل سنوات خلت نتذكر كيف ضحكنا عليه من كل قلوبنا. منذ ذلك الحين لم يصبح أكثر وضوحاً، ولم نألُ جهداً في فهمه. لكننا ببساطة نرفض الضحك عليه مرة أخرى. فبدلاً من ذلك، سوف نسأل جمعيات التدريس عندنا ما إذا كان بالإمكان العثور على عمل أكثر فائدة لمديري المدارس في القرية من البحث عن حيوانات الخلد العملاقة». وهذه مسألة تشويش للهوية لا تغتفر. فهم لم يقرأوا لا الكتيب الأول ولا الكتيب الثاني، والعبارتان اللتان تترددان بشكل ممل، «الخلد العملاق» و»مدير مدرسة القرية»، كانتا كافيتين لهؤلاء السادة، بوصفهم ممثلين للمصلحة المحترمة جماهيرياً، للإعلان عن هذا الموضوع. وفي مواجهة هذا الهجوم فقد أُتخذت التدابير وبنجاح، لكن الافتقار إلى وجود فهم بيني وبين المدرس أبعدني عن المغامرة في تلك الإجراءات. حاولتُ بدلاً عن ذلك أن أبقي الاستعراض بعيداً عن علمه بقدر ما استطيع. لكنه سرعان ما اكتشف ذلك، حسبما عرفت هذا من خلال جملة في إحدى رسائله، التي أعلن فيها نيته في زيارتي في اعياد الميلاد. كتبَ: «العالم مليء بالخبث، والناس تعبّد الطريق له»، وعن طريق هذه الجملة كان يرغب في القول بأنني كنت أحد الخبثاء، ولكن، لعدم قناعته بخبثي الفطري، تمنّى أيضاً أن أجعل مسار العالم سهلاً امامه: بعبارة أخرى، كنت أتصرف على نحو يثير الخبث العام ويساعده على النصر. حسناً، لقد اعددتُ الحل المطلوب، وكنتُ قادراً على انتظاره بهدوء، والترحيب به بهدوء أيضاً عندما وصل، حيث في هذه المرة ثمة ظلال أقلّ أدباً في تصرّفه مما اعتاد عليه؛ إذ سحبَ بعنايةٍ المجلة من جيب الصدرِ لمعطفه المبطن القديم الطراز، وهو يفتحها سلّمها لي. «لقد رأيتها»، أجبته، وأنا أُعيد إليه المجلة من دون قراءة. «لقد رأيتَها»، قالها بزفرة؛ كانت عنده عادة المدرس القديم

في تكرار إجابات الشخص الآخر. «بالطبع لن أتقبّل هذا صاغرا!» استمرّ في الحديث، وهو يضرب المجلة بحماس بإصبعه ويحدّق بحدّة في وجهي، كما لو أنني من جنس مختلف؛ كانت لديه بالتأكيد فكرة عما كنتُ على وشك أن أقوله، فأنا أعتقد بأنني لاحظت، ليس من خلال كلماته بقدر ما كان من خلال مؤشرات أخرى، بأن عنده غالباً حدساً حقيقياً لنواياي، برغم انه لا يستسلم ابداً لها ولن يسمح لنفسه بالانجرار وراءها. ما قلتُه له يمكنني أن أدونه كلمة كلمة تقريباً، بالنسبة لي عملتُ مذكرة عنه بُعيد وقت قصير من مقابلتنا. «افعل ما يحلو لك»، قلتُ له، «فطرقنا متفرقة منذ اللحظة. يخيّل إليّ بأن تلك ليست أخباراً غير متوقعة ولا أخباراً غير مرغوب فيها لك. فالمراجعة في هذه المجلة ليست السبب الحقيقي لقراري هذا؛ إذ أكِدَ هذا مؤخراً ليس إلاّ. السبب الحقيقي هو التالي: في الأصل ظننتُ بأن مداخلتي قد تكون بذات فائدة لك، بينما الآن لا يسعني إلاّ أن أعترف بأنني قد آذيتُك في كل اتجاه. ولا يمكنني أن أقول لماذا أصبح الأمر هكذا؛ حيث ان أسباب النجاح والفشل هي دائماً غامضة؛ ولكن لا تبحث عن التفسير الوحيد في أوجه القصور لدي. ضع في اعتبارك: أنت أيضاً كان لديك أفضل النوايا، ومع ذلك، عندما ينظر المرء إلى المسألة بشكل موضوعي، فأنت فشلتَ. أنا لا أنوي ذلك من باب المزحة، لأنه سيكون مزحة ضدي، عندما أقول بأن اتصالك بي لابد أن يُحسب للأسف من بين عناصر فشلك. إنه ليس جبناً ولا خيانة، إذا ما انسحبتُ من القضية الآن. في الواقع ينطوي انسحابي على درجة معينة من التنازل الذاتي؛ فكتيبي نفسه يُثبت كم أحترمك شخصياً، بمعنى ما، فأنت أصبحتَ أستاذي، وأنا اصبحتُ تقريباً مولعاً بالخلد نفسه. ومع ذلك قررت أن أتنحّى؛ أنت المكتشف، وكل ما يمكنني القيام به هو منعك من كسب شهرة ممكنة، بينما أنا أجذب الفشل وأمرّره لك. على الأقل ذلك هو رأيك بي. يكفي ذلك. إن الكفارة الوحيدة التي أستطيع أن أفعلها هي رجاء غفرانك والاعتراف الذي قدّمته لك للتو، إذا كنت بحاجة إليه، ونشره علناً، أي، في هذه المجلة».

هذه كانت كلماتي. لم تكن صادقة تماماً، ولكن ما هو صادق فيها كان واضحاً بما فيه الكفاية. وكان لتفسيري تأثير عليه كنتُ قد توقعته تقريباً. فلمعظم الناس الكبار شيء ما خادع، شيء ما كاذب، في تعاملهم مع أناس أصغر سناً منهم؛ أنت تعيش بسلام معهم، وتتخيل بأنك على أفضل حال معهم، وتعرف أحكامهم المسبقة، وتتلقى التأكيدات المستمرة عن الصداقة، وتتخذ كل شيء أمراً مسلَّما به؛ وعندما يحدث شيء ما حاسم، وتلك العلاقات السلمية، التي ترعرعت فترة طويلة، يجب أن تدخل في خضم عملية فعالة، فجأة هؤلاء كبار السن ينتفضون أمامك مثل الغرباء، ويُظهرون بأن لديهم قناعات أعمق وأقوى، والآن للوهلة الأولى ينشرون رايتهم بكل معنى الكلمة، وبرعبٍ تقرأ عليها المرسوم الجديد. والسبب وراء هذا الرعب يكمن أساساً في حقيقة أن ما يقوله العجائز الآن هو أكثر عدلاً بكثير وأعقل مما قالوه من قبل؛ يبدو الأمر بأنه حتى البديهي جداً له درجات من الصحّة، وكلماتهم الآن هي أكثر وضوحاً من أي وقت مضى. لكن الخداع النهائي الذي يكمن في كلماتهم ينطوي على هذا، اذ أنهم في الأصل كانوا دائماً يقولون ما يقولونه الآن. لا بد لي من التحقيق بعمق مع مدير المدرسة، إذ رأيتُ بأن كلماته التالية لم تفاجأني

بالمرة. «بنيّ»، قال لي، ووضع يده على يدي وأخذ يربت بلطف عليها، «كيف زيّن لك عقلك أن تمضي في هذه القضية؟ فأول ما سمعت بها تحدثتُ مع زوجتي». دفع كرسيه إلى الوراء بعيداً عن الطاولة، ونهض، ونشر ذراعيه، وحدّق في الأرض، وكأن زوجته الضئيلة جداً كانت تقف هناك وكان هو يتحدث معها. «لقد كنا نكافح لوحدنا»، قلتُ لها، «لسنوات عديدة؛ الآن، على ما يبدو، برز لنا حام نبيل في المدينة، وهو رجل أعمال لطيف، السيد فلان. يجب أن نهنئ أنفسنا، أليس كذلك؟ إن رجل أعمال في المدينة لا ينبغي أن نستهين به؛ فعندما يصدّقنا فلاّح جاهل ويقول هكذا فأن هذا الأمر لا يخدمنا، لأن ما يقوله فلاّح أو يفعله ليس بذي بال؛ سواء عندما يقول بأن مدير المدرسة العجوز على حق، أو يبصق لإظهار احتقاره، فإن النتيجة هي نفسها. وإذا كان بدلاً من فلاّح واحد وقف لمؤازرتنا عشرة آلاف، فإن النتيجة، إن أمكن ذلك، لن تكون إلا أسوأ. رجل أعمال في المدينة، من ناحية أخرى، ذلك يضيف شيئاً ما آخر مرة أخرى؛ فرجل مثل هذا لديه اتصالات، والأشياء التي يقولها سريعاً، إذا جاز التعبير، يتم تناولها وتكرارها، كما أن رعاة جدداً يهتمون بالمسألة، ربما يعلّق أحدهم قائلاً: يمكنك أن تتعلم حتى من مدرّسي القرية العجائز، وفي اليوم التالي ستقولها حشود كاملة من الناس لبعضهم بعضا، أناس ما كنتَ تتخيل أبداً بأنهم يقولون مثل هذه الأشياء، من أجل أن تنظر إليهم. ثم، ايجاد المال لتمويل الأعمال التجارية، وأحد السادة يطوف لجمعها والآخرون يمطرونه باشتراكاتهم؛ إذ يقررون بأنه لابد من انتشال مدرس القرية من غيابة النسيان؛ ويَصِلون، لا يأبهون بمظهره الخارجي، بل يضعونه وسط قلوبهم، ولأن زوجته وأطفاله متعلقون به، فهم يصطحبونه معهم أيضاً. هل سبق لك أن شاهدت سكان المدينة؟ هم يثرثرون هكذا من غير توقف. عندما يكون هناك الكثير منهم مجتمعين يمكنك سماع ثرثرتهم تتنقّل ذات اليمين وذات الشمال وبالعكس، ثم صعوداً ونزولاً، وبهذه الطريقة وتلك. وهكذا، تتلاشى الثرثرة، ويدفعوننا إلى داخل العربة، حتى أننا لم يكن لدينا الوقت المناسب للانحناء إلى الجميع. الرجل على مقعد الحوذي يضع نظاراته مباشرة، ويلوّح بسوطه، وننطلق مبتعدين. ويلوّح الجميع بتحية الوداع إلى القرية، كما لو أننا ما نزال هناك ولسنا جالسين بينهم. وينطلق سكان المدينة قليلو الصبر في عربات لمقابلتنا. وبينما نقترب فإنهم ينهضون من مقاعدهم ويشرئبون بأعناقهم. فيما يقوم السيد الذي جمع المال بترتيب كل شيء بشكل منهجي وعلى أتمّ وجه. وعندما ندخل المدينة فنحن عبارة عن موكب طويل من العربات. ونظن بأن ترحيب الناس قد انتهى؛ ولكنه يبدأ حقاً عندما نصل فندقنا. في مدينة حيث يجتذب إعلانٌ السوادَ الأعظم من الناس. وما يهمّ المرء يهم جميع الباقين على الفور. فهم يتبادلون وجهات النظر مع بعضهم بعضا وسرعان ما يجعلون تلك الآراء خاصة بهم. وجميع الناس الذين لم يتمكنوا من الخروج ومقابلتنا في عربات أخذوا ينتظرون أمام الفندق؛ بينما استطاع آخرون الخروج، لكنهم كانوا متحفظين جداً. إنهم ينتظرون أيضاً. إنها رائعة جداً الطريقة التي كان فيها السيد الذي جمع المال يتابع كل شيء ويوجّه كل شيء.»

لقد استمعتُ إليه بهدوء، في الواقع كنت ازداد هدوءا كلما استمرّ في حديثه. على الطاولة جمعتُ كل نسخ كتيبي التي في حوزتي. لم يكن هناك سوى عدد قليل من

النسخ المفقودة، لأنه أثناء الأسبوع الماضي كنت قد أرسلتَ تعميماً يطالب باسترجاع جميع النسخ الموزعة، وقد استرجعتُ معظمها ثانية. وبالفعل تلقّيت من عدة جهات ملاحظات مهذبة جداً تقول إن فلان الفلاني لم يستطع تذكّر استلامه مثل هذا الكتيب، وإنه، لو وصله هذا الكتيب فعلاً، لتأسَّف إذ يعترف بأنه لابد قد فقده. وحتى هذا كان مما يثلج الصدر؛ ففي قرارة نفسي لا أرغب بشيء أفضل من ذلك. فقط قارئ واحد توسّل لي للسماح له بالاحتفاظ بالكتيب من باب الفضول، قاطعاً العهد على نفسه، وفقاً لروح تعميمي الذي وزعته، بأن لا يُظهره لأي أحد مدة عشرين عاماً. ولم يطلع مدرس القرية بعدُ على تعميمي. كنتُ سعيداً بأن كلماته يسّرتْ لي مسألة إظهاره إليه. كان يمكنني أن أطلعه على ذلك دون قلق على أي حال، سيما وأنني كنت قد كتبته بحذر شديد، واضعاً مصالحه نصب عيني طوال الوقت. وتركّز الفقرة الحاسمة في التعميم على ما يلي: «أنا لا أطلب إرجاع الكتيب لأنني أتراجع بأي شكل من الأشكال عن الآراء التي دافعتُ عنها هناك أو أتمنى أن يُنظر إليها بوصفها مغلوطة أو حتى غير قابلة للإثبات عند أية نقطة. بل إن طلبي يستند إلى أسس شخصية محضة وإلى دواعي ملحّة علاوة على ذلك؛ ولكن يجب ان لا يكون هناك أي استنتاج مهما كان نوعه يمكن استخلاصه منه فيما يتعلق بموقفي من المسألة برمتها. أنا أودّ أن ألفت انتباهكم إلى هذا، وسأكون سعيداً أيضا إذا كنتم ستجعلون الحقيقة معروفة».

في الوقت الحاضر أبقيتُ يدي على التعميم وقلتُ: «أنت تؤنّبني في قرارة نفسك لأن الأمور لم تتحول كما كنتَ تأمل. لماذا تفعل ذلك؟ لا تدعنا نعكّر صفو اللحظات الماضية معاً. وحاول أن ترى ذلك، على الرغم من أنك توصلتَ إلى اكتشاف، فهو ليس بالضرورة أعظم من كل اكتشاف آخر، ومن ثم فالظلم الذي تقاسيه ليس بأعظم من أي ظلم آخر. لا أعرف أساليب المجتمعات المتعلمة، ولكنني لا أستطيع أن أصدّق بأنه في الظروف الأكثر ملائمة قد حظيتَ باستقبال ولو من بعيد يشبه الاستقبال الذي يبدو أنك وصفته لزوجتك. بينما كنتُ ما أزال أتمنى أن يكون هناك شيء ما قد يأتي من كتيبي، فإن جلّ ما توقعتُه ربما كان لفت انتباه أستاذ إلى قضيتنا، بأنه قد يكلّف أحد الطلبة الشباب للتحقيق فيه، وأن ذلك الطالب قد يزورك ويحقّق بأسلوبه الخاص في استفساراتك واستفساراتي مرة أخرى على الفور، وبأنه أخيراً، إذا كانت النتائج تبدو له تستحق النظر ــ وعلينا أن لا ننسى بأن جميع الطلبة الشباب تملؤهم الشكوك ــ فهو ربما يُخرج كتيباً خاصاً به حيث ستُوضع اكتشافاتك على اساس علمي. أياً كان الأمر، حتى لو تحقق ذلك الأمل لما تحقق شيء كبير جداً. إذ إن كتيب الطالب، الداعم لمثل هذه الآراء الغريبة، من المحتمل أن ينزل إلى مرتبة السخرية. إذا تأخذ هذه المجلة الزراعية كعينةٍ، يمكنك أن ترى كيفية حدوث ذلك بسهولة؛ والدوريات العلمية ما تزال أكثر صرامة في مثل هذه الأمور. وذلك أمر مفهوم تماماً؛ فالأساتذة يتحملون مسؤولية كبيرة تجاه أنفسهم، واتجاه العلم، واتجاه الأجيال القادمة؛ إذ إنهم لا يمكن أن يحتضنوا كل اكتشاف جديد مباشرة. ونحن الآخرين نستفيد منهم في هذه الميزة. لكنني سأترك ذلك الأمر خارج الحساب وأفترض بأن كتيب الطالب قد وجد القبول. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ قد تتلقى تقريضاً مشرَّفا، وذلك ربما يفيد مهنتك أيضاً؛ وسيقول الناس: «إن مدرسي قريتنا لديهم

نظرات ثاقبة»؛ وهذه المجلة، إذا كانت للمجلات ذاكرة أو ضمير، ستضطر إلى الاعتذار منك أمام الملأ؛ كما سيوجد بعض الأساتذة المرموقين بغية الحصول على منحة دراسية لك؛ فمن الممكن أنهم قد يأتون بك إلى المدينة، ويجدون لك وظيفة في احدى المدارس، وهكذا يعطونك فرصة لاستخدام الموارد العلمية للمدينة من أجل تطوير نفسك. ولكن إذا كنتُ صريحاً تماماً، أظن بأنهم سيُقنعون أنفسهم لمجرد محاولة القيام بهذا. سوف يستدعونك وسوف تظهر، ولكن فقط بصفة مقدّم طلب اعتيادي مثل مئات الآخرين، وليس بحالة مهيبة؛ وسوف يتحدثون معك و يثنون على جهودك الصادقة، لكنهم سيرون في الوقت نفسه بأنك رجل عجوز، ولا أمل لأحد أن يبدأ بدراسة العلوم في مثل هذا العمر المتقدم، وعلاوة على ذلك فإنك كنت قد توصَّلت إلى اكتشافك بالصدفة أكثر منه عن طريق التخطيط، وإلى جانب ذلك ليس لديك طموح لتوسيع أعمالك وراء هذه الحالة اليتيمة. لهذه الأسباب من المحتمل أن يعيدوك إلى قريتك مرة أخرى. وسيحملون اكتشافك أبعد من ذلك، بطبيعة الحال، لأنه ليس تافهاً جداً، بمجرد أن يحظى بالاعتراف، بحيث يمكن نسيانه مرة أخرى. ولكنك لن تسمع به كثيراً، وما تسمعه عنه لن تفهمه. يفترض بأن كل اكتشاف جديد يسهم في الحال في المجموع الكلي للمعرفة، وبتلك المرحلة يتوقف بمعنى أن يكون اكتشافاً؛ فهو يذوب في الكل ويتلاشى، ولابد أن تكون للمرء عين علمية مدربة لتميّزه بعد كل ذلك. لأنه مرتبط بالبديهيات الأساسية التي لا نعرف وجودها، وفي مناقشات العلم يربو الاكتشاف على هذه البديهيات ويرقى صوب السحب نفسها. فكيف يمكننا أن نتوقع فهم مثل هذه الأمور؟ في كثير من الأحيان ونحن نستمع إلى مناقشة عليمة قد ينتابنا الانطباع بأن الأمر يتعلق باكتشافك، في حين هو يتعلق بشيء مختلف تماماً، وفي المرة القادمة، عندما نظن بأنه يدور حول شيء ما غيره، وليس حول اكتشافك على الإطلاق، قد يتحول الأمر إلى أن يكون حول اكتشافك وحده.

«ألا ترى ذلك؟ سوف تبقى في قريتك، وسوف تكون قادراً بالمال الإضافي على إطعام عائلتك واكسائهم أفضل قليلاً؛ ولكن اكتشافك سيكون قد أخِذ من بين يديك، ومن دون أن يكون بمقدورك الاعتراض باستخدام العدالة؛ لأنه فقط في المدينة يمكن أن يُعطى التصديق النهائي. والناس لن تكون جاحدة لك تماماً، فهم قد يبنون متحفاً صغيراً في المكان الذي جرى فيه الاكتشاف، وسوف يصبح أحد معالم القرية، وسوف تُعطى المفاتيح لتُبقيها معك، وحتى لا ينبغي أن تفتقر إلى بعض رموز الشرف الخارجية، فإنهم يمكن أن يعطوك وساماً صغيراً تزيّن به صدر معطفك، مثل تلك الأوسمة التي يرتديها المشرفون في المؤسسات العلمية. ربما يكون كل هذا ممكناً؛ ولكن هل كان هذا ما أردتَه؟»

ودون التوقف للنظر في جوابه تحوَّل إليّ وقال: «إذن ذلك ما أردتَ أن تحققه بالنسبة لي؟».

قلتُ له، «ربما، فأنا لم أفكّر بما كنتُ أفعله بعناية فائقة في ذلك الوقت لأتمكّن من الإجابة عن ذلك بوضوح الآن. أردتُ أن أساعدك، لكنني فشلتُ، بل كان أسوأ فشل

أصبتَ به في حياتي. هذا هو السبب في أنني أريد أن أنسحب الآن وأتراجع عما قمتُ به بقدر استطاعتي».

«حسناً جداً»، قال المدرس، وهو يخرج غليونه ويبدأ بملئه بالتبغ الذي كان يحمله سائباً في جميع جيوبه. «لقد اتخذتَ هذا الصنيع بمحض إرادتك من دون أن تتوقع شكراً من أحد، والآن بمحض إرادتك سوف تنسحب. إذن حسناً على أي حال.»

فقلت له، «أنا لست رجلاً عنيداً. هل تجد أي شيء تعترض عليه في مقترحي؟».

«لا، لا شيء على الإطلاق»، قال مدير المدرسة، وبدأ بتدخين غليونه. لم أستطع تحمل رائحة التبغ، وهكذا نهضتُ وبدأتُ أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. من خلال اللقاءات السابقة اعتدتُ على الصمت المطلق للمعلم، و{اعتدتُ} على حقيقة أنه على الرغم من هذا فهو لم يكن لديه أية رغبة في التحرّك من غرفتي ما إن كان فيها. كان ذلك كثيراً ما يزعجني من قبل. كما أنه يريد شيئاً ما أكثر من هذا، كنتُ دائماً افكّر في الأمر في مثل تلك الحالات، وكنتُ أعرض عليه المال، الذي كان في الواقع يقبله دائماً. لكنه لم يذهب أبداً قبل أن يجد ان ذلك يلائمه. عموماً كان ينتهي من تدخين غليونه في ذلك الحين، ثم يقوم بشكل متكلف وبكل احترام بدفع كرسيه إلى الطاولة، ويلتفّ حولها، ويمسك بعصاه التي تقبع في الزاوية، ويضغط على يدي بحرارة، ويمضي في سبيله. لكن اليوم كان وجوده الصامت عندما جلس هناك بمثابة تعذيب حقيقي بالنسبة لي. عندما يقوم شخص بتوديع شخص ما الوداع الأخير، كما فعلتُ أنا، فإن الوداع يُقبَل بحسن نية، وبالتأكيد لابد من التخلص من الشكليات المتبادلة بأسرع وقت ممكن، وعلى المرء أن لا يُثقِل كاهل مضيفه بشكل عمدي بوجوده الصامت. فبينما كنت أفكِر ملياً بالزميل العنيد من ورائه، عندما كان جالساً إلى الطاولة، بدت حتى فكرة أن أُريه الباب مستحيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حارس القبر

غرفة عمل صغيرة، نافذة عالية، خلفها رأس شجرة عارٍ. أمير (عند طاولة الكتابة، يميل إلى الخلف في كرسيه، يتطلع من خلال النافذة)ً. حاجب (ذو لحية بيضاء، محشور بشكل جميل في سترة ضيقة، يقف قبالة جدار بالقرب من باب وسطي).

وقفة.

الأمير (متحولاً من النافذة): حسناً؟

الحاجب: لا أستطيع أن أوصي به، يا صاحب السمو.

الأمير: لماذا؟

الحاجب: لا أستطيع تماماً صياغة اعتراضاتي في الوقت الحاضر. أنا أعرب عن جزء يسير فقط مما يدور في ذهني عندما أقتبس المثل العالمي: دع الأموات ترقد بسلام.

الأمير: هذا هو رأيي أيضاً.

الحاجب: في تلك الحالة لم أفهم بشكل صحيح.

الأمير: هكذا يبدو الأمر.

وقفة.

الأمير: ربما الشيء الوحيد الذي يربكك هو أنه بدلاً من المضي قدماً بهذا الترتيب، الذي أعلنته لك أولاً.

الحاجب: إن ذلك الإعلان بالتأكيد يثقل كاهلي بمسؤولية عظيمة يجب أن أسعى إلى الالتزام بها.

الأمير: لا تتحدث عن المسؤولية!

وقفة.

الأمير: دعني أُفكر. حتى الآن جرت حراسة القبر في حديقة فريدريش على يد حارس يعيش في نُزل في مدخل المتنزه. هل كان هناك أي خطأ في هذا؟

الحاجب: بالتأكيد لا يوجد أي خطأ. فعمر القبر هو أكثر من أربعمائة سنة وكانت دائماً تجري حراسته بهذه الطريقة.

الأمير: يمكن أن تكون هناك إساءة. ولكنها ليست إساءة، أليس كذلك؟

الحاجب: إنه ترتيب ضروري.

الأمير: حسناً إذن، إنه ترتيب ضروري. لقد كنتُ هنا في القلعة منذ بعض الوقت من الآن، وحصلتُ على بعض الرؤى في التفاصيل التي كانت حتى الآن مسندة إلى

الغرباء ـ أنهم يديرون الأمور بشكل جيد إلى حد ما ـ وتوصلتَ إلى هذا الاستنتاج: إن الحارس في الأعلى هناك في المتنزه لا يكفي. يجب أن يكون هناك أيضاً حارس في الأسفل عند القبر. ربما لن تكون تلك وظيفة محببة. لكن التجربة أثبتت بأن الأناس الراغبين والمناسبين يمكن العثور عليهم لأية وظيفة.

الحاجب: غنيّ عن القول بأن أي أوامر تصدر عن سموكم ستجد طريقها إلى التنفيذ، حتى لو لم تكن الضرورة لذلك الأمر مفهومة تماماً.

الأمير (يبدأ بحركة سريعة): الضرورة! هل تريد أن تقول بأن حارساً في بوابة المتنزه يكون ضرورياً؟ إن حديقة فريدريش تعود إلى متنزه القلعة، التي تحيط به تماماً. ومتنزه القلعة نفسه يحظى بحراسة موسعة ـ من لدن الجيش، وغيره كثير. فلماذا لابد من وجود حارس خاص لحديقة فريدريش؟ أليس هذا مجرد إجراء شكلي؟ أليس هو فراش موت وثير لهذا العجوز البائس الذي يقوم بالحراسة هناك؟

الحاجب: نعم إنه إجراء شكلي، لكنه ضروري. إنه إظهار التبجيل للأموات المشهورين.

الأمير: وماذا عن الحارس في القبر نفسه؟

الحاجب: في رأيي سيكون لهذا دلالة بوليسية. سوف يعني حراسة حقيقية لأشياء غير حقيقية خارج المجال الإنساني.

الأمير: بالنسبة لعائلتي يمثّل هذا القبر الحدَّ بين الإنسان والآخر، وإنه على هذا الحدّ أودّ أن أعيّن حارساً. أما بالنسبة للدلالة البوليسية، كما تسميها، يمكننا أن نستجوب الحارس نفسه. لقد أرسلت بطلبه. (يدق الجرس.)

الحاجب: إنه رجل عجوز مرتبك، إذا أمكنني قول ذلك، هو أصلاً خارج نطاق الخدمة تماماً.

الأمير: إذا كانت تلك هي الحال، فثمة سبب إضافي لتعزيز الحراسة في الطريقة التي اقترحتها.

(يدخل الخادم.)

الأمير: حارس القبر!

(الخادم يقود الحارس، يمسكه بشدة حول الخصر لمنعه من الانهيار. زيٌّ أحمر عتيق الطراز يتدلى فضفاضاً حول الحارس، أزرار فضية صقيلة زاهية، تحتوى على العديد من الزخارف. يحمل قبعته في يده، يرتعد أمام ناظريّ السيدين.)

الأمير: ضعْه على الأريكة!

(الخادم يُجلسه ويغادر. وقفة. حشرجة خافتة في حنجرة الحارس.)

الأمير (مرة أخرى في الكرسي ذي المساند): هل لديك القدرة على السمع؟

الحارس (يحاول الإجابة لكنه يفشل، فهو مرهق جداً، يجلس راجعاً في مقعده مرة أخرى).

الأمير: حاول أن تحرّك نفسك سوية. نحن ننتظر.

الحاجب (ينحني نحو الأمير): عن ماذا عسى هذا الرجل أن يعطي المعلومات؟ هل هي معلومات موثوقة وهامة في ذلك الأمر؟ لابد من أخذه مباشرة إلى الفراش.

الحارس: ليس إلى الفراش ـ ما أزال قوياً ـ إلى حد ما ـ يمكنني أن أرفع قامتي بكامل قواي.

الأمير: لابد أن تكون كذلك إذن. لقد دخلتَ لتوّك في الستين. مما لاشك فيه، أنت تبدو ضعيفاً جداً.

الحارس: سأتحسن في وقت قصير ـ وسأشعر بالتحسن في ظرف دقيقة.

الأمير: لم أقصد الانتقاص منك. يؤسفني بأنك لست بصحة جيدة. هل تشتكي من شيء؟

الحارس: العمل الشاق ـ العمل الشاق ـ ليست شكوى ـ لكنني ضعيف جداً ـ أُصارع النوبات كل ليلة.

الأمير: ماذا تقول؟

الحارس: العمل الشاق.

الأمير: لقد قلتَ شيئاً ما آخر.

الحارس: أُصارع النوبات.

الأمير: تصارع النوبات؟ أي نوع من نوبات المصارعة؟

الحارس: مع الأسلاف المباركين.

الأمير: لا أفهم. هل تعاني من الأحلام المزعجة؟

الحارس: لا أحلام ـ فأنا لا أنام.

الأمير: إذن دعنا نسمع عن نوبات ـ نوبات المصارعة هذه.

الحارس (يلتزم الصامت).

الأمير (إلى الحاجب): لماذا لا يتكلم؟

الحاجب (وهو يسرع إلى الحارس): قد يموت في أية لحظة.

الأمير (ينهض).

الحارس (بينما يمسكه الحاجب): لا، لا، لا! (وهو يصدّ يد الحاجب، ثم ينهار باكياً.)

الأمير: نحن نعذبه.

الحاجب: كيف؟

الأمير: لا أعرف.

الحاجب: بالقدوم إلى القلعة، ووجوب تقديم نفسه هنا، ومشهد سموكم، وهذا الاستجواب ـ فهو لم يعد لديه القابلية على مواجهة كل هذا.

الأمير (ما يزال يحدّق في الحاجب): ليس الأمر كذلك. (يذهب إلى الأريكة، وينحني على الحارس، ويأخذ جمجمته الصغيرة بين يديه.) يجب أن لا تبكي. ماذا يُبكيك؟ نحن نتمنى أن تكون بخير. أنا أدرك بأن عملك ليس سهلاً. انك بالتأكيد تستحق كل الخير من عائلتي. لذلك كفاك بكاءً وقل لنا كل شيء عن الأمر.

الحارس: لكنني خائف جداً من ذلك الرجل هناك ـ (ينظر إلى الحاجب، مهدِّداً أكثر منه خائفاً.)

الأمير (إلى الحاجب): إذا أردنا منه أن يتحدث يؤسفني بأن عليك أن تغادر.

الحاجب: لكن انظر، يا صاحب السمو، إن فمه يرغي. إنه مريض للغاية.

الأمير (بشرود): اذهب أرجوك، فإنه لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً.

يخرج الحاجب.

يجلس الأمير على حافة الأريكة.

وقفة.

الأمير: لماذا كنتَ خائفاً منه؟

الحارس (برباطة جأش مثيرة للاستغراب): لم أكن خائفاً. مثلي يخاف من خادم؟

الأمير: إنه ليس خادماً. إنه كونت، حرّ وثريّ.

الحارس: هو خادم على كل حال، فأنت السيد.

الأمير: إذا كان يروق لك بهذا الشكل. لكنك قلتَ بنفسك بأنك كنت خائفاً منه.

الحارس: لم أكن أريد أن أقول أشياء أمامه وهي موجّهة لك فقط. ألم أقل الكثير أمامه؟

الأمير: إذن نحن على علاقة حميمة، مع أن اليوم هو المرة الأولى التي رأيتك فيها.

الحارس: رأيتني للمرة الأولى، لكنك كنتَ دائماً تعرف بأنني (وهو يرفع سبابته) أتبوأ أهم منصب في البلاط. حتى أنك اعترفتَ بذلك علناً من خلال منحك لي الوسام «الأحمر كالنار». هنا! (يحمل الوسام على معطفه.)

الأمير: لا، ذلك الوسام لقِاء خدمة دامت خمسة وعشرين عاماً في البلاط. جدّي أعطاك إياه. لكنني سوف أقلدك وساماً أيضاً.

الحارس: افعل كما يحلو لك وامنحني أي شيء تعتقد بأنني أستحقه. فقد عملتَ حارس مقبرتك مدة ثلاثين عاماً.

الأمير: ليست مقبرتي. فحكمي بالكاد استمر سنة.

الحارس (وهو مستغرق في تفكيره): ثلاثون عاماً.

وقفة.

الحارس (يتذكر فقط نصف ملاحظة الأمير): الليالي تستغرق سنين هناك.

الأمير: لم يكن لدي بعدُ أي تقرير عن وظيفتك. ما هي طبيعة عملك؟

الحارس: كل ليلة تشبه أُختها. كل ليلة حتى ينبض القلب كما لو كان على وشك أن ينفجر.

الأمير: هل هذا هو واجب ليلي فقط، إذن؟ واجب ليلي لرجل عجوز مثلك؟

الحارس: هو كذلك بالضبط، يا صاحب السمو. كما أنه واجب نهاري. وظيفة متسكع. حيث يجلس المرء هناك، عند الباب الأمامي، فاغر الفم في أشعة الشمس. في بعض الأحيان يربت كلبُ الحراسة عليه على الركبة بكفوفه، ومن ثم يجثم مرة أخرى. ذلك كل ما يحدث.

الأمير: حسناً؟

الحارس (متمايلاً): لكن جرى تغييره إلى واجب ليليّ.

الأمير: على يد مَن؟

الحارس: على يد أمراء القبر.

الأمير: هل تعرفهم؟

الحارس: نعم.

الأمير: هل يأتون لرؤيتك؟

الحارس: نعم.

الأمير: الليلة الماضية، أيضاً؟

الحارس: الليلة الماضية أيضاً.

الأمير: كيف كان الوضع؟

الحارس (يجلس منتصباً): الشيء نفسه كالمعتاد.

ينهض الأمير.

الحارس: الشيء نفسه كالمعتاد. الجو هادئ حتى منتصف الليل. وأنا مستلقٍ في السرير ــ عفواً ــ أُدخن غليوني. حفيدتي نائمة في السرير التالي. عند منتصف الليل

تأتي الطرقة الأولى على النافذة. أنظرُ إلى الساعة. دائماً إلى حدّ الدقيقة. ثمة طرقتان اثنتان أخريان، تختلطان مع دقات ساعة البرج، لكنني ما أزال أسمعهما. وهاتان الضربتان ليستا بأصابع بشرية. الاّ انني أعرف كل ذلك ولا أتزحزح. ثم يتنحنح في الخارج، إنه من المستغرب برغم كل ذلك الطرق فإنني لم أفتح النافذة. فلْيتفاجأ سموكم! ما يزال الحارس العجوز هناك! (يُظهر قبضته.)

الأمير: أنت تهددني؟

الحارس (لا يفهم على الفور): ليس أنت. الشخص عند النافذة!

الأمير: مَن هو؟

الحارس: يُظهر نفسه في الحال. على حين غرّة تنفتح النافذة والمصاريع. لدي فقط الوقت لرمي البطانية على وجه حفيدتي. تهبّ العاصفة، وتطفئ الأضواء حالاً. الدوق فريدريش! وجهه الملتحي والمشعر يملأ نافذتي البائسة تماماً. كيف كبر على مرّ القرون! وعندما يفتح فمه للكلام فإن الرياح تضرب لحيته العتيدة بين أسنانه ويأخذ بالعض عليها.

الأمير: لحظة من فضلك. أنت تقول الدوق فريدريش؟ أي فريدريش؟

الحارس: دوق فريدريش، مجرد دوق فريدريش.

الأمير: هل هذا هو الاسم الذي يعطيه؟

الحارس (بلهفة): لا، لم يعطِ أيّ اسم.

الأمير: مع ذلك فأنت تعرف ـ (يتوقف) ـ استمرْ!

الحارس: هل استمر؟

الأمير: بالطبع. فكل هذا يهمني كثيراً. لابد أن يكون هناك خطأ في توزيع العمل. فأنت مجهد من العمل.

الحارس (وهو يركع): لا تحرمني من عملي هذا، يا صاحب السمو. فبعد أن عشتُ من أجلكم كل هذه السنوات، اسمحوا لي أيضاً أن أموت دونكم! لا تضعوا سوراً حول القبر الذي أُكافح من أجله. أنا أخدم عن طيب خاطر وما أزال قوياً بما فيه الكفاية بحيث يمكنني أن أخدم. وإذ أُمنَح جمهوراً مثل جمهور اليوم، وآخذُ قسطاً من الراحة مع سيدي ـ فهذا يعطيني قوة لعشرة سنوات.

الأمير (وهو يُجلس الحارس مرة أخرى على الأريكة): لا أحد يمكنه أن يأخذ عملك منك. كيف يمكنني أن أستمر من دون خبرتك؟ لكنني سأعيّن حارساً آخر، عندها سوف تصبح رئيس الحرس.

الحارس: ألم أكن بصحة جيدة بما فيه الكفاية؟ هل سبق لي أن سمحتُ لأي شخص بالمرور؟

الأمير: في حديقة فريدريش؟

الحارس: لا، خارج الحديقة. مَن عساه يدخل؟ إذا توقف أيّ شخص عند السياج الحديدي فإنني أشير له من النافذة ويهرب. لكن خارج الحديقة! فكل شخص يرغب في الخروج. بعد منتصف الليل يمكنك أن تتدبّر see كل الأصوات من القبر مجتمعة حول منزلي. أعتقد أن هذا فقط لأن هذه الأصوات مزدحمة معاً بحيث أن الكثير منها لا تبرز عبر نافذتي الضيقة. وعندما يصبح الوضع سيئاً للغاية، على أي حال، امسك بالفانوس من تحت سريري، والوّح به عالياً، وبضحك وأنين تتفرق هذه المخلوقات الغريبة في كل الاتجاهات. ثم أستطيع أن أسمع حفيفها في أقصى الأدغال عند نهاية الحديقة. ولكن سرعان ما يجتمعون معاً مرة أخرى.

الأمير: وهل يقولون لك ماذا يريدون؟

الحارس: في البداية يعطون الأوامر. خاصة الدوق فريدريش. ما من كائن حي يمكن أن يكون واثقاً كل هذه الثقة. فكل ليلة لمدة ثلاثين عاماً كان يتوقع مني أن أستسلم.

الأمير: إذا كان يأتي طيلة ثلاثين عاماً فلا يمكن أن يكون هذا الدوق فريدريش، لأنه مات منذ خمسة عشر عاماً فقط. ومن ناحية أخرى، هو الوحيد الذي يحمل ذلك الاسم في القبر.

الحارس (الذي أهتاج جداً بقصته): ذلك ما لا أعرفه، يا صاحب السمو، فأنا لم أذهب إلى المدرسة قط. أنا أعرف فقط كيف يبدأ حديثه. «أيها الكلب العجوز»، هكذا يبدأ كلامه عند النافذة، «السادة يطرقون الباب وأنت مجرد تبقى في سريرك القذر». لديهم ضغينة معينة ضد الأسرّة، بالمناسبة. والآن كل ليلة لدينا الحادثة نفسها، هو في الخارج، وأنا قبالته، وظهري إلى الباب. أقول: «أنا فقط في واجب نهاري». يستدير الدوق ويصرخ في الحديقة: «أنه فقط في واجب نهاري». عندها كل العائلة الأرستقراطية مجتمعة كانت تنفجر من الضحك. بعدها يقول الدوق لي مرة أخرى: «ولكن الوقت نهار». وأقول باقتضاب: «أنت مخطئ». الدوق: «سواء كان الوقت ليلاً أم نهاراً، أفتح الباب». أنا: «ذلك مخالف للأوامر التي عندي». وبغليوني أشير إلى إشعار على الباب. الدوق: «لكنك حارسنا». أنا: «حارسكم، لكنني أعمل لدى الأمير الحاكم». هو: «يا حارسنا، ذلك هو الشيء الرئيسي. لذلك أفتح الباب، وأسرعْ في ذلك». أنا: «لا.» هو: «أيها المخبول، سوف تفقد وظيفتك، فالأمير ليو قد دعانا هذا اليوم».

الأمير (بسرعة): أنا؟

الحارس: أنت.

وقفة.

الحارس: عندما أسمع باسمك فإنني افقد ثباتي. وذلك هو السبب في انني دائماً احرص على الاتكاء على الباب الذي هو تقريباً الشيء الوحيد الذي يبقيني واقفاً. في الخارج، الجميع يلهج باسمك. «أين الدعوة؟» أنا أسأل بوهن. «يا بقة الفراش!» يصرخ، «أنت تشك في كلمتي الدوقية؟» أقول: «ليس لدي أوامر، لذلك لن أفتح، لن

أفتح، لن أفتح!» ـ «لن يفتح!» يصرخ الدوق في الخارج. «هيا، جميعكم، السلالة بأكملها! عند الباب! سنفتحه بأنفسنا» وبعد لحظة ليس هناك اي شيء تحت نافذتي.

وقفة.

الأمير: هل هذا كل ما في جعبتك؟

الحارس: كل ما في جعبتي؟ لا تبدأ خدمتي الحقيقية سوى الآن. أنا أندفع خارج الباب، حول المنزل، وعلى الفور أجري إلى الدوق وهناك نكون، نشتبك في قتال. هو كبير جداً، وأنا صغير جداً، هو واسع الجسم جداً، وأنا نحيل جداً، أنا لا يمكن مهاجمة إلاّ قدميه، ولكن مراراً وتكراراً يرفعني عالياً في الهواء ومن ثم أقاتله من تلك النقطة هناك، أيضاً. ويقف كل رفاقه متحلّقين في دائرة ويسخرون مني. أحدهم، على سبيل المثال، يمزّق سروالي من الخلف وبهذا يلعب جميعهم بذيل قميصي بينما أنا أقاتل. لا يمكنني أن أفهم لماذا يضحكون، وحتى الآن كنتُ أفوز دائماً.

الأمير: كيف يمكنك أن تفوز؟ هل لديك أي أسلحة؟

الحارس: كنتُ أحمل أسلحة فقط أثناء السنوات الأولى. إذ ما هو الشيء الجيد الذي يمكن أن تؤديه هذه الأسلحة ضده؟ لقد كانت تعيقني ليس إلاّ. نحن نقاتل فقط بقبضاتنا، أو بالأحرى بقوة أنفاسنا. وكنتَ أنت في أفكاري دائماً.

وقفة.

الحارس: لكنني لا أشك أبداً بانتصاري. فقط في بعض الأحيان أخشى بأن الدوق سوف يجعلني أنزلق من خلال أصابعه وينسى بأنه يقاتل.

الأمير: ومتى تفوز؟

الحارس: عند الفجر. ثم يلقي بي إلى الأسفل ويبصق في وجهي. ذلك هو اعتراف بالهزيمة. ولكنني يجب أن استمر بالتمدّد هناك لمدة ساعة قبل أن أستطيع التقاط أنفاسي مرة أخرى بشكل صحيح.

وقفة.

الأمير (واقفاً): لكن قل لي، ألا تعرف ماذا يريدون حقاً؟

الحارس: الخروج من الحديقة.

الأمير: لكن لماذا؟

الحارس: ذلك ما لا أعرفه.

الأمير: ألم تسأل عن ذلك؟

الحارس: لا.

الأمير: لِمَ لا؟

الحارس: ذلك من شأنه أن يحرجني. لكن إن شئتم، سوف أسالهم اليوم.

الأمير (مصدوماً، بصوت عال): اليوم!

الحارس (بدراية): نعم، اليوم.

الأمير: ولا حتى يمكنك تخمين ماذا يريدون؟

الحارس (بتروٍّ): لا.

وقفة.

الحارس: ربما يجب أن أضيف بأنه في بعض الأحيان في الصباح الباكر بينما أتمدد هناك في محاولة لالتقاط أنفاسي وأنا ضعيف للغاية بحيث يتعذّر عليّ فتح عينيّ، تأتي إلى هناك مخلوقة رقيقة، نديّة، نوعاً ما مشعرة بملمسها، متأخرة المجيء، إلا وهي الكونتيسة إيزابيلا. تمرّر يدها على جميع أنحاء جسمي، وتمسك بلحيتي، وينزلق جسدها كله على رقبتي، تحت ذقني، ومن عادتها القول: «لا تدع الآخرين، ولكنني أنا ـ دعني أخرج». وأهزّ رأسي بقدر ما أستطيع. «أريد أن أذهب إلى الأمير ليو، لأعرض عليه مساعدتي». وأظل أهزّ رأسي. «ولكن أنا، أنا!» ما زال بإمكاني سماعها تبكي، ثم ذهبتْ. وتظهر حفيدتي بالبطانيات، وتلفني بها، وتنتظر معي حتى أتمكن من المشي بمفردي. يا لها من فتاة جيدة بشكل استثنائي.

الأمير: إيزابيلا؟ الاسم غير معروف بالنسبة لي.

وقفة.

الأمير: لتعرض عليّ مساعدتها! (يذهب إلى النافذة، وينظر.)

يدخل الخادم من خلال الباب الرئيس.

الخادم: صاحبة السمو، مولاتي الأميرة، بانتظاركم.

الأمير (ينظر بشرود إلى الخادم، ويتحول إلى الحارس): انتظر حتى أعود. (يخرج من اليسار).

يدخل الحاجب في الحال من خلال الباب الرئيس، ثم يدخل اللورد هاي ستيوارد (وهو في مقتبل شبابه يرتدي بزة ضابط) من خلال الباب على اليمين.

الحارس (ينحني وراء الأريكة ويلوّح بيديه كما لو رأى أشباحاً).

ستيوارد: هل ذهب الأمير؟

الحاجب: جرياً وراء نصيحتك، أرسلت الأميرةُ بطلبه.

ستيوارد: جيد. (يتحول فجأة، وينحني وراء الأريكة.) وأنت، أيها الشبح البائس، تجرؤ فعلاً على الظهور هنا في القلعة الملكية! ألستَ خائفاً من الجزمة الكبيرة التي سوف تركلك حتى الباب؟

الحارس: إنني ـ إنني ـ.

ستيوارد: اهدأ، أولاً وقبل كل شيء عليك الحفاظ على هدوئك، لا تنطق بأية كلمة ـ اجلسْ هنا في هذه الزاوية! (إلى الحاجب) أشكركم على إبلاغكم لي عن آخر نزوات الأمير.

الحاجب: لقد استفسرتم عن ذلك.

ستيوارد: مع ذلك. والآن سأسرّ لك بكلمة. بشكل مقصود أمام ذلك المخلوق هناك. أنتم، أيها الكونت، تغازلون المعارضة.

الحاجب: هل هذا اتهام؟

ستيوارد: مجرد توجّس، حتى الآن.

الحاجب: في هذه الحالة يمكنني أن أُجيبك. أنا لا اغازل المعارضة، لأنني لا أعرفها. أستطيع أن أشعر بالتيارات، لكنني اتجنبها. ما زلتُ أمثّل السياسة المفتوحة التي سادت تحت راية الدوق فريدريش. في ذلك الوقت كانت السياسة الوحيدة في المحكمة هي لخدمة الأمير. ومما سهّل هذا هو كونه عازباً، لكنها لا ينبغي أن تكون صعبة أبداً.

ستيوارد: معقول جداً ـ ماعدا أن إحساس المرء، مهما كان موثوقاً، لا يشير أبداً إلى الطريق الصحيح في كل مرة. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالعقل. لكن العقل يجب أن يتخذ قرارات. لنفترض بأن الأمير على الجادة الخطأ: هل بوسع المرء أن يخدمه أفضل عن طريق إتّباعه أم، مع شديد الاحترام، عن طريق ملاحقته؟ مما لا شك فيه عن طريق ملاحقته.

الحاجب: جئتم هنا مع الأميرة من بلاط أجنبي، وقضيتم قرابة ستة أشهر هنا، وتعتقدون بأنه يمكنكم التمييز بين الخير والشر في الظروف المعقدة لهذا البلاط؟

ستيوارد: مَن يغض الطرف لا يرى سوى المضاعفات. ومَن يُبقِ عينيه مفتوحتين يرَ الحقيقة الأبدية في الساعات الأولى بوضوح تام كما بعد مئة سنة. من المسلّم به، في هذه الحالة، إن الحقيقة المحزنة، على أي حال، قد تتخذ في الأيام القليلة المقبلة تحولاً حاسماً نحو الأفضل.

الحاجب: لا أستطيع أن أصدق بأن القرار الذي ترغبون الإتيان به والذي أعرفه فقط من خلال الإعلان سيكون قراراً جيداً. أخشى بأنكم تسيئون فهم أميرنا، والبلاط، وكل شيء هنا.

ستيوارد: سواء فهمتُ ام اسأتُ الفهم، فإن الوضع الحالي لا يطاق.

الحاجب: ربما يكون لا يطاق، لكنه قائم على طبيعة الأمور كما هي هنا، ونحن على استعداد لتحمله حتى النهاية.

ستيوارد: ولكن ليس الأميرة، وليس أنا، وليس أولئك الذين هم بجانبنا.

الحاجب: ما الذي تجدونه لا يطاق؟

ستيوارد: فقط لأن القرار على وشك الصدور فإنني أريد أن أتكلم بصراحة. للأمير طبيعة مزدوجة. الطبيعة الأولى، المتعلقة بالحكومة، تضطرب بشرود في العلن، متجاهلة امتيازاتها. اما الطبيعة الأخرى فتبحث فعلاً بشكل جاد من أجل تعزيز أسسها. هي تبحث عن تلك الأسس في الماضي، وتغوص أعمق فأعمق. فأي سوء فهم لهذا الوضع! سوء فهم لا يفتقر إلى العظمة ـ على الرغم من أن خلله حتى أكبر من مظهره. هل تعجزون عن رؤية ذلك؟

الحاجب: إنه ليس التوصيف الذي أعترض عليه، بل التفسير.

ستيوارد: التفسير؟ ولابد من الاعتقاد بأنه على أمل أن أجعلك تتفق، فإنني حكمتُ على الوضع بتساهل أكثر مما أشعر به فعلاً! وما زلتُ أحجب حكمي من أجل أن أنقذكم. ولكن ثمة شيء واحد فقط: في الواقع لا يحتاج الأمير إلى تعزيز أسسه. وإذا ما يستخدم كل سلطاته في الوقت الحاضر التي هي تحت تصرفه، فإنه سوف يجدها كافية لتحقيق كل شيء تتطلبه منه المسؤولية الشاقة أمام الله والإنسان. لكنه يبتعد عن ميزان الحياة، إنه في طريقه ليصبح طاغية.

الحاجب: يصبح طاغية بشخصيته المتواضعة!

ستيوارد: إنه نصف تواضع، لأنه يحتاج إلى كامل طاقته من أجل النصف الثاني الذي يزيل معاً الأساس اللازم لبناء شيء ما مثل برج بابل. وينبغي أن تكون عرقلة هذا العمل هي السياسة الوحيدة لجميع أولئك الذين يكونون مهتمين بوجودهم الشخصي، وفي المقاطعة، وفي الأميرة، وربما حتى في الأمير.

الحاجب: «ربما حتى في الأمير» ـ أنت صريح جداً. ولكي أُشاطرك الصراحة، فإن صدقك يجعلني أرتعد في القرار الوشيك. ويؤسفني، إذ إنني تأسّفت مؤخراً كثيراً، بأنني مكرّس نفسي للأمير تكريساً تاماً تقريباً.

ستيوارد: كل شيء واضح. أنت لا تغازل المعارضة. في الحقيقة، إنك حتى تمدّ يد المساعدة. أمر واحد فقط، وهو خليق بعجوز من حاشية البلاط. ومع ذلك فأملك الوحيد هو أن أنموذجنا العظيم يحملك بعيداً.

الحاجب: كل ما يمكنني القيام به لمنع ذلك، سأفعله.

ستيوارد: لا يخيفني ذلك بعد الآن. (مشيراً إلى الحارس.) وأنت الذي كنت تجلس هناك بهدوء، هل فهمتَ كل ما قيل؟

الحاجب: حارس القبر؟

ستيوارد: حارس القبر. على المرء أن يكون غريباً من أجل تقييمه. أليس كذلك، ايها الولد الكبير، أيها البومة العجوز الصغيرة الصيّاحة! هل سبق لك أن رأيتَه يحلّق خلال الغابة في المساء، على مرمى بندقية؟ ولكن في النهار ينحني عند أدنى حركة.

الحاجب: أنا لا أفهم.

الحارس (باكياً تقريباً): إنك توبخني، يا سيدي، ولا أعرف لماذا. رجاءً اسمحوا لي بالعودة إلى بيتي. أنا حقاً لستُ شريراً، أنا مجرد حارس القبر.

الحاجب: أنت لا تثق به.

ستيوارد: لايثق بي؟ لا، إنه أتفه من ذلك. لكنني أريد أن أُراقبه. لأنني أعتقد ـ سمّها نزوة أو خرافة، إن شئت ـ بأنه ليس مجرد أداة للشر، بل هو عامل قائم، ناشط في سبيل الشر.

الحاجب: كان يخدم البلاط بهدوء لمدة ثلاثين عاماً ـ ربما دون أن يكون في يوم من الأيام في القلعة.

ستيوارد: أوه، إن حيوانات الخلد مثله تبني ممرات طويلة قبل أن تظهر. (يتحول فجأة إلى الحارس.) لكن أولاً وقبل كل شيء، تخلصوا منه! (إلى الخادم) خذه إلى حديقة فريدريش، وابقَ معه، ولا تسمحْ له بالخروج حتى إشعار آخر.

الحارس (خائفاً جداً): من المفترض أن أنتظر صاحب السمو، الأمير.

ستيوارد: خطأ. ـ اغربْ عن وجهنا.

الحاجب: يجب أن يعامَل بعناية. فهو رجل عجوز ومريض، ولسبب ما ينظر إليه الأمير بأهمية.

الحارس (ينحني أمام الحاجب).

ستيوارد: ماذا؟ (إلى الخادم) أُعامله بعناية، ولكن في سبيل الله أخرجْه من هنا. بسرعة!

الخادم (على وشك أن يمسكه).

الحاجب (يخطو بينهما): لا، يجب أن نُحضر عربة.

ستيوارد: إنه الهواء في هذا البلاط. لا أستطيع تذوق حبة ملح في أي مكان. حسناً إذن، إلينا بالعربة. تريد أن تنقل الكنز في عربة. لكن الآن، اُخرجا من الغرفة كلاكما! (إلى الحاجب) سلوكك يبرهن لي....

الحارس (ينهار، مع صرخة خافتة، وهو في طريقه إلى الباب).

ستيوارد (يضرب قدمه): هل من المستحيل التخلص منه؟ التقطْه بين ذراعيك إن لم يكن هناك وسيلة أخرى. ألا يمكنك أن تفهم ما هو متوقع منك!

الحاجب: الأمير!

الخادم (يفتح الباب على اليسار).

ستيوارد: آه! (ويحدق في الحاجب.) كان ينبغي أن أعرف بأن الأشباح لا يمكن نقلها.

الأمير (يدخل بخطى سريعة، وراءه الأميرة، وهي امرأة شابة سمراء مطبقة الأسنان، تقف في المدخل).

الأمير: ماذا حدث؟

ستيوارد: شعر الحارس بالمرض، وكنتُ على وشك أن أخرجه.

الأمير: كان ينبغي أن يعلموني بذلك. هل أرسِل بطلب الطبيب؟

الحاجب: سأطلبه. (يُسرع خارجاً من الباب الرئيسي، ويعود في الحال.)

الأمير (ينحني بجانب الحارس): جهّزوا له سريراً! واجلبوا نقالة! هل الطبيب في طريقه إلى المجيء؟ إنه يستغرق وقتا طويلاً. النبض ضعيف جداً. لا أستطيع سماع دقات القلب. يا لها من أضلاع بائسة! يا له من جسم بالٍ! (يقف فجأة، يجلب كوباً من الماء، ويحدق حوله.) إنه عاجز تماماً. (ينحني ثانية، ويبلل وجه الحارس.) الآن يتنفس بشكل أفضل. لن يكون الأمر سيئاً للغاية. السلالة الصحية، وهي ذلك النوع الذي لا يستسلم، حتى في أحلك الظروف. ولكن علينا بالطبيب، الطبيب!

(وبينما يحدّق نحو الباب، يرفع الحارس يده ويداعب خدّ الأمير. تتحوّل الأميرة رأسها بعيداً، باتجاه النافذة. يدخل خدم يحملون نقالة، ويساعدهم الأمير على رفع الحارس.)

الأمير: أرفقوا به. أوه، أنتم بمخالبكم الكبيرة! ارفعوا رأسه قليلاً. كونوا أقرب إلى النقالة. والوسادة أسفل ظهره. ذراعه! ذراعه! أنتم ممرضون، سيئون جميعكم! وأتساءل عما إذا ستكونون متعبين جداً مثل هذا الرجل على النقالة؟ ـ ها نحن إذن ـ والآن بخطوات بطيئة ـ بطيئة. وقبل كل شيء، احملوه بثبات. (وهو يدير الباب إلى الأميرة.) ها هو إذن حارس القبر.

الأميرة (تهزّ رأسها).

الأمير: كنت قد عزمتُ أن أريه لكِ بشكل مختلف. (بعد أن أخذ خطوة أُخرى.) هل أنت قادمة؟

الأميرة: أنا متعبة جداً.

الأمير: سأعود في اللحظة التي أكون قد تحدثتُ فيها إلى الطبيب. وأنتم، أيها السادة، الذين ترغبون في تقديم تقريركم، انتظروني.

ستيوارد (إلى الأميرة): هل يحتاج سموكِ إلى خدماتي؟

الأميرة: دائماً. أنا ممتنة ليقظتكم. لا تتخلَّ عن ذلك، حتى لو كان اليوم بلا طائل. كل شيء على المحك at stake. أنت ترى أكثر مني. أنا دائماً في غرفي. لكنني أعلم بأن الجو سوف يغدو أكثر قتامة. هذا الخريف مقبض sad بشكل لا يصدّق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبيب ريفي

كنت في حيرة كبيرة من أمري؛ كان عليّ أن أبدأ برحلة عاجلة؛ إذ كان هناك مريض حالته خطرة ينتظرني في قرية على بعد عشرة أميال؛ لكن عاصفة ثلجية كثيفة ملأت كل المساحات الواسعة بينه وبيني. كانت عندي عربة، عربة خفيفة ذات عجلات كبيرة، مناسبة بالضبط لطرق ريفنا؛ وأنا متلفّع في معطف الفرو، وحقيبة أدواتي في يدي، كنتُ في الفناء على أهبة الاستعداد للرحلة؛ لكن لم يكن هناك حصان يمكن أخذه، نعم ليس هناك حصان. كان حصاني قد نفقَ في الليل، أنهكته متاعب هذا الشتاء الجليدي؛ لذا كانت خادمتي الآن تركض في جميع أنحاء القرية تحاول اقتراض حصان؛ ولكن الأمر كان ميؤوساً منه، كنتُ أعرف ذلك، ووقفتُ هناك يائساً، حيث تتجمع الثلوج أكثر فأكثر عليّ، أكثر فأكثر بحيث لا اقدر على الحركة. في البوابة، ظهرت الفتاة، وحيدة، ولوّحت بالفانوس؛ بطبيعة الحال، مَن سيعير حصاناً في هذا الوقت لرحلة كهذه؟

وخطوتُ خطوات واسعة عبر الفناء مرة أخرى؛ لم أكن أرى أيّ مخرج. ووسط كربتي الكبيرة رفستُ الباب المتداعي لزريبة خنازير غير مأهولة منذ عام. وانفتح على مصراعيه وأخذ يصطفق جيئة وذهاباً على نرماداته. فتصاعد بخار ورائحة من الزريبة كرائحة الخيول. هناك فانوس خافت مستقر يتأرجح من حبل في الداخل. ثمة رجل، يجثم على فخذيه في ذلك الفضاء المنخفض، أفصح عن وجه ذي عينين زرقاوتين مفتوحتين. «هل سأعدّ العربة؟» سأل الرجلُ، وهو يزحف على قوائمه الأربعة. لم أكن أعرف ماذا أقول ولذلك انحنيتُ لرؤية ماذا كان أيضاً موجوداً في الزريبة. كانت الخادمة تقف بجانبي. «أنت لا تعرف أبداً ماذا سوف تجد في منزلك»، قالت الفتاة، وضحك كلانا. «مرحباً، أيها الأخ، مرحباً، أيتها الأخت!» صاح السائس، ولاح حصانان، وهما مخلوقان هائلان ذوا خواصر قوية، الواحد تلو الآخر، وقوائمهما مثنية بالقرب من جسميهما، ورأساهما الجميلان ينخفضان نحو الأسفل كرأسَي جمل، وبقوة محضة لأردافهما خرجا من خلال فتحة الباب التي ملآها تماماً. لكن وقفا في الحال، بسيقانهما الطويلة وجسميهما الذَين يتصاعد منهما البخار الكثيف. «ساعديه»، قلتُ، وهرعت الفتاة المتحمسة لمساعدة السائس باللجام. مع ذلك ما إن كانت بجانبه حتى تشبّث بها السائس ودفع وجهه تجاه وجهها. صرختْ وهربتْ راجعة نحوي؛ فشخصت على خدها بلون أحمر آثار صفين من الأسنان. «أيها المتوحش»، صرختُ بغضب، «هل تريد أن أجلدك؟» لكن في اللحظة ذاتها فكُرت بأن الرجل غريب؛ بحيث لم أعرف من أين جاء، وهو بمحض إرادته كان يساعدني عندما كان الجميع قد خذلني. وكما لو أنه عرف بأفكاري فلم يتخذ أي هجوم على تهديدي لكنه، بينما لايزال مشغولاً بالخيول، استدار فقط تجاهي. «أصعد»، قال بعد ذلك، وبالفعل: كان كل شيء جاهزاً. أبصرتُ زوجاً رائعاً من الخيول، كتلك التي لم أكن قد امتطيتها من قبل، وصعدتُ بسعادة. «ولكنني أنا مَن سيقود الخيول، فأنت لا تعرف الطريق»، قلتُ. «بالطبع»، قال، «أنا لا آتي معك على أي حال، بل سأبقى مع روزا». «لا»، صرختْ روزا، وهي تهرب إلى

المنزل يتملكها هاجس له ما يبرره بأن مصيرها لا مفر منه؛ سمعتَ سلسلة الباب تطقطق عندما رفعتْها؛ وسمعتُ المفتاح يدور في القفل؛ وأستطيع أن أرى، علاوة على ذلك، كيف أطفأت الأضواء في مدخل القاعة وفي حركة أخرى برغم ذلك أطفأت الأضواء في الغرف لكي لا يكتشفها أحد. «أنت تأتي معي»، قلتُ للسائس، «وإلاّ لن أذهب، مهما كانت رحلتي ملحّة. أنا لا أفكر بأن يكون ثمن الرحلة هو تسليم الفتاة لك». «هيا!» قال؛ وصفّق؛. اندفعت العربة كالسيل الهادر؛ استطعتُ سماع باب بيتي يتصدّع وينفجر عندما اندفع السائس نحوه ومن ثم صكّ سمعي وأعمى بصري اندفاع عاصف أربك كل حواسي.

لكن هذا استمرّ فقط للحظة، لأنني كنتُ هناك بالفعل، كما لو أن فناء مزرعة مريضي انفتح أمام بوابة فناء مزرعتي؛ وتوقفَ الحصانان بهدوء؛ وتوقفت العاصفة الثلجية؛ وضوء القمر يعمّ جميع الأرجاء؛ وسارع والدا المريض للخروج من المنزل، تتبعهما شقيقته؛ كنتُ على وشك أن أخرج من العربة؛ لكن بسبب صيحاتهم المرتبكة لم أتمكن من فهم كلمة واحدة؛ كان الهواء في غرفة المرضى خانقاً تقريباً؛ وكان الدخان يتصاعد من الموقد المهمل؛ وأردتُ دفع إحدى النوافذ؛ لكن في البداية عليّ أن ألقي نظرة على مريضي. كان الشاب هزيلاً، لا يعاني من أي حمى، ولا من البرد، ولا من الحرارة، وبنظرات خالية من التعابير، ودونما قميص، نهض من تحت فراش الريش، ورمى ذراعيه حول رقبتي، وهمس في أذني: «أيها الطبيب، دعني أموت». جلتُ ببصري حول الغرفة؛ لم يكن أحدٌ قد سمع بهذا؛ كان الوالدان يميلان إلى الأمام بصمت بانتظار قراري؛ وكانت أخت المريض قد أعدّت كرسياً لحقيبتي؛ فتحتُ الحقيبة وفتّشت بين معداتي؛ وظلّ الصبي متشبثاً بي من سريره لتذكيري بمناشدته؛ أخذتُ ملقطاً، وفحصته في ضوء الشمعة، ثم أرجعْته مرة أخرى. «نعم»، فكرتُ بسخط، «في مثل هذه الحالات تكون الآلهة مفيدة، فترسل الحصان المفقود، وتضيف إليه حصاناً ثانياً بسبب حراجة الموقف، ومن أجل تتويج كل شيء فإنها تُعطي حتى السائس –» والآن فقط تذكرتُ روزا مرة أخرى؛ ماذا كان عليّ أن أفعل، وكيف يمكنني إنقاذها، كيف يمكنني إن أجرّها بعيداً من تحت ذلك السائس وأنا على مسافة عشرة أميال عنها، بحصانين لم أستطع السيطرة عليهما. هذان الحصانان، الآن، مطلقا العنان، فتحا النوافذ من الخارج، لا أعرف كيف؛ وكل واحد منهما اقحم رأسه في نافذة، و، دون أن يأبها بالصرخات المروعة التي تصدر من الأسرة، وقفا يتطلعان إلى المريض. «من الأفضل العودة في الحال»، فكرتُ، وكأن الحصانين يأمرانني إلى رحلة العودة، مع ذلك سمحتُ لأخت المريض، التي ظنتْ بأنني تضايقتُ من الحرارة، بأخذ معطف الفرو مني. وهو يصبّ لي كأساً من شراب الرم، ربتَ الرجل العجوز على الكتف، ورفع الكلفة هذه يبررها هذا العرض بأغلى ما عنده. هززتُ رأسي؛ وحسب الحدود الضيقة لتفكير الرجل العجوز بأنني مرضتُ؛ وكان هذا هو السبب الوحيد لرفض الشراب. كانت الأم واقفة بجانب السرير وتحثّني نحوه؛ استجبتُ لها، و، بينما صهل احد الخيول بصوت عال باتجاه السقف، وضعتُ رأسي على صدر الصبي، الذي كان يرتجف تحت لحيتي الرطبة.

وتأكد لي ما كنتَ أعرفه بالفعل؛ كان الصبي معافى تماماً، ثمة عارض طفيف في دورته الدموية، المشبعة بالقهوة على يد أمه الحنون، لكنه سليم ومن الأفضل أن ينهض من السرير بحركة واحدة. أنا لستُ مصلحاً للعالم وهكذا سمحتُ له بأن يبقى مضطجعاً. كنتُ طبيب المنطقة وقمتُ بواجبي إلى أقصى حد، إلى درجة مبالغ فيها. كانوا يدفعون لي اجوراً زهيدة ومع ذلك كنتُ سخياً ومتعاوناً مع الفقراء. كان عليّ ان ارى بأن روزا على خير ما يرام، ومن ثم ربما مضى الصبي إلى دار حقه وأنا وودتُ أن أموت أيضاً. فماذا كنت أفعل هناك في ذلك الشتاء الذي لا نهاية له! نفقَ حصاني، ولم يعرني حصاناً آخر أيّ شخص في القرية. لذلك اضطررتُ إلى الحصول على هذا الزوج من زريبة خنازير؛ ولو لم تشأ الصدف أن يكونا حصانين لتوجَّب عليّ أن أسافر بالخنازير. كان هذا هو الحال. فملتُ إلى ناحية الأسرة. لم يكونوا يعرفون أي شيء عن ذلك، ولو عرفوا، لما صدّقوه. من السهل كتابة الوصفات الطبية، ولكن من العسير التوصّل إلى تفاهم مع الناس. حسناً، لابد أن تكون هذه نهاية زيارتي، فقد جرى استدعائي مرة أخرى دون داع، إنني معتاد على ذلك، إن المنطقة بأكملها احالت حياتي إلى عذاب بقرع اجراسي ليلاً، ولكن عندما يتحتّم عليّ أن أُضحي بروزا هذه المرة أيضاً، الفتاة الجميلة التي عاشت في بيتي لسنوات من دون أن ألحظها ـ فإن هذه التضحية كبيرة جداً، وكان لي بطريقة أو بأخرى أن أجد سبباً معقولاً لذلك في رأسي بمساعدة المهارة التي أحذقها، من أجل أن لا أهاجم هذه العائلة، التي بكل ما تملكه من إرادة قوية في العالم لا تستطيع إعادة روزا لي. لكن عندما أغلقتُ حقيبتي ومددتُ ذراعي لأضع عليها معطف الفراء، حيث كانت الأسرة في غضون ذلك تقف معاً، كان الوالد يستنشق في زجاجة الرام الذي كان في يده، والوالدة، على ما يبدو لخيبة ضنها بي ـ لماذا، ماذا يتوقع هؤلاء الناس؟ ـ تعض شفتيها والدموع في مآقيها، والأخت تلوّح بمنشفة منقوعة بالدم، وكنتُ على استعداد بطريقة أو بأخرى للاعتراف بشكل مشروط بأن الصبي ربما يكون مريضاً برغم كل شيء. مضيتُ نحوه، ورحَّب بي مبتسماً وكأنني جلبتُ له حساء المرضى المغذّي جداً ـ آه، كلا الحصانين يصهلان معاً الآن؛ وأظن بأن هذا الضجيج قد أمرت به السماء لمساعدتي في فحص المريض ـ وهذه المرة اكتشفتُ بأن الصبي كان مريضاً بالفعل. إذ كان في جانبه الأيمن، بالقرب من الورك، جرح فاغر بحجم راحة يدي. أحمر وردي، في معظم أجزائه، قاتم في التجاويف، افتح لوناً عند الحواف، محبّب بشكل خفيف، ذو تكتلات غير منتظمة من الدم، مفتوح كمنجم سطحي في وضح النهار. كان ذلك ما يبدو عليه من مسافة بعيدة.

ولكن عند المعاينة عن كثب ثمة معضلة أخرى. فأنا لم يسعني تحمّل نأمة اندهاش صغيرة. إذ إن الديدان، السميكة والطويلة كبنصري، والتي هي نفسها أيضاً حمراء وردية وملطخة بالدماء، كانت تتلوى من مكانها في الجزء الداخلي من الجرح تتحرك نحو الضوء، برؤوسها البيضاء الصغيرة وسيقانها القصيرة الكثيرة. أيها الولد المسكين، أمرك ميؤوس منه. لقد اكتشفتُ جرحك الكبير؛ هذه الزهرة في جانبك كانت تدمرك. انشرحت أسارير أفراد الأسرة؛ فقد رأوني دائب الحركة؛ فالأخت أخبرت الأم، والأم أخبرت الأب، والأب أخبر العديد من الضيوف الذين دخلوا، في ضوء القمر عند الباب المفتوح، يمشون على رؤوس الأصابع،

ويحافظون على توازنهم بأذرعتهم الممدودة. «هل ستنقذني؟» همس الصبي بتنهد، غير دارٍ تماماً بالحياة الدائبة داخل جرحه. هكذا هم الناس في منطقتي. دائماً يتوقعونً المستحيل من الطبيب. لقد فقدوا معتقداتهم القديمة؛ فالكاهن جلس في المنزل وخلع ثيابه الكهنوتية، الواحد تلو الآخر؛ لكن الطبيب من المفترض أن يكون كلّي القدرة بيده الجراحية الرحيمة. حسناً، كما يحلو لهم؛ فأنا لم أفرض خدماتي عليهم؛ إذا ما يسيئون الظن بي لغايات مقدسة، فأنا أسمح لذلك الأمر أن يحصل لي أيضاً؛ فأي خير ارتجي، أنا طبيب البلدة العجوز، المثكول بخادمتي! وهكذا جاءوا، كل من الأسرة وكبار القرية، وجرّدوني من ملابسي؛ ووقفتْ جوقة المدرسة والمعلم على رأسها أمام المنزل وترنّمتْ بهذه الكلمات بلحن بسيط تماماً:

جرّدوه من ملابسه، فهو سوف يشفينا،

وإذا لم يشفنا، نرديه قتيلا!

طبيب ليس إلاّ، طبيب ليس إلاّ.

ثم نزعوا ثيابي فأخذتُ أنظر إلى الناس بهدوء، وأنا أضع أصابعي في لحيتي وأميل برأسي إلى أحد الجوانب. كنتُ ثابت الجنان تماماً وعلى قدر الموقف وبقيتُ هكذا، على الرغم من أنني لاحول ولا قوة لي، لأنهم الآن أخذوني بالرأس والقدمين وحملوني إلى الفراش.

مدّدوني عليه بجوار الحائط، على جانب الجرح. ثم غادروا الغرفة جميعهم؛ وأغْلِق الباب؛ وتوقف الغناء. وكانت الغيوم تغطي القمر؛ وبدا الفراش دافئاً حولي؛ فيما كانت رؤوس الخيول في النوافذ المفتوحة تتمايل مثل الظلال. «هل تعلم»، قال صوت في أذني، «بأن لدي ثقة ضئيلة جداً فيك. لماذا، كنتَ تأتي إلى هنا فقط، فأنت لم تأتِ سائراً بمحض إرادتك. وبدلاً من مساعدتك لي، فأنك تطرحني على فراش الموت. لذا فإن أفضل شيء عندي أن أفعله هو أن أفقأ عينيك». «حسناً»، قلتُ، «هذا عيب. ومع ذلك فأنا طبيب. ماذا عساي أن أفعل؟ صدقوني، ليس الأمر يسيراً بالنسبة لي أيضاً.» «هل من المفترض أن أكون مقتنعاً بهذا الاعتذار؟ أوه، لابد أن أكون مقتنعاً، لا يسعني إلاّ أن اكون كذلك. عليّ دائماً أن أتحمّل الأشياء. فكلّ الذي جلبته إلى هذا العالم هو جرح جميل؛ كان ذلك هو إنجازي الوحيد. قلتُ له، «يا صديقي الشاب، خطؤك هو: لم تكن لديك رؤية واسعة بما فيه الكفاية. لقد كنتُ في جميع غرف المرضى، في أصقاع متعددة، وأقول لك بأن جرحك ليس سيئاً كما تظن. حصل في زاوية ضيقة بضربتي فأس، فكم من امرئ يكشف جانبه ويصعب عليه أن يسمع صوت الفأس في الغابة، دون أن يعي بأنه يقترب منه». «هل الأمر هو حقاً كذلك، أم هل أنك تخدعني بالحمى التي فيّ؟» «الأمر هو حقاً كذلك، خذ كلمة شرف من طُبيب مهني». وأخذ الكلمة واستلقى ساكناً. لكن الآن حان الوقت بالنسبة لي بأن أُفكر في الهروب. فالحصانان ما يزالان يقفان بإخلاص في أماكنهما. جمعتُ ملابسي، ومعطفي الفرو، وحقيبتي بسرعة؛ ولم أشأ أن أضيّع الوقت في ارتداء الملابس؛ فلو قيّض للحصانين أن يقذا السير مسرعَين إلى المنزل مثلما جاءا، فإنني سأقفز، إذا جاز التعبير، من هذا الفراش إلى فراشي. وبكل طاعة

أدار أحد الحصانين ظهره بعيداً عن النافذة؛ فألقيتَ صرتي في العربة؛ لكن معطف الفراء ابتعد عن المرمى وعلق فقط من الكم بخطاف. هذا جيد تماماً. ورميتُ نفسي على الحصان. فيما كانت الأعنة تُسحل في الأرض مرتخية، وبالكاد يكون الحصانان مربوطين ببعضهما بعضا، فيما كانت العربة تتمايل وراءهما، ومعطفي الفرو يتدلى في الخلف في الجليد. «هيا!» قلتُ للحصانين، لكن لم يتحركا؛ وببطء، زحفنا مثل العجائز في الامتدادات الثلجية؛ ولفترة طويلة أخذ الصدى وراءنا يردد أغنية الأطفال الجديدة ولكن الخاطئة:

أوه ابتهجوا، أيها المرضى كلكم، فالطبيب مستلقٍ في السرير بجانبكم!

لن أبلغ بيتي مطلقاً بهذا المعدل من السير؛ فمهنتي المزدهرة قد انتهت؛ وخليفتي سيحلّ بدلاً عني، ولكن عبثاً، لأنه لا يمكنه أن يأخذ مكاني؛ في منزلي يستشيط السائس المثير للاشمئزاز غضباً؛ روزا هي ضحيته؛ لا أريد أن أفكر في ذلك بعد الآن. فأنا أهيم على وجهي عارياً، مكشوفاً لصقيع كل ما هو تعيس في هذه العصور، بعربة أرضية، وحصانين عجيبين، ورجل عجوز هو أنا. معطفي الفرو يتدلى من الجزء الخلفي من العربة، لكنني لا أستطيع الوصول إليه، ولا أحد من مجموعة مرضاي من شأنه أن يحرّك ساكناً. مغدور! مغدور! هذه اجابة إنذار كاذب على جرس الليل ذات مرة ـ لا يمكن أن يتم هذا على خير ما يرام، أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصياد غراخوس

كان صبيان يجلسان على جدار الميناء يلعبان النرد. ثمة رجل يقرأ صحيفة على مدرجات النصب، يأخذ قسطاً من الراحة في ظل بطل كان يلوّح بسيفه عالياً. وكانت هناك فتاة تملأ دلوها عند النافورة. وبائع الفاكهة كان مستلقياً بجانب أغراضه، يحدّق في البحيرة. ومن خلال النافذة الخالية وفتحات باب المقهى يمكن للمرء أن يرى رجلين في الخلف تماماً يحتسيان النبيذ. كان المالك يجلس على طاولة في الأمام وقد غلبه النعاس. ثمة قارب يتجه بصمت نحو الميناء الصغير، كما لو أنه محمول بوسائل غير مرئية فوق الماء. رجل يرتدي بلوزة زرقاء صعد إلى الشاطئ وسحبَ الحبل من خلال حلقة. خلف السفّان كان رجلان آخران يرتديان معطفين داكنين ذواتي أزرار فضية يحملان نعشاً، كان ملقىً عليه على ما يبدو رجل، تحت قطعة قماش كبيرة من الحرير المزين بالأزهار.

ولم يهتم أي أحد على الرصيف بالقادمين الجُدد؛ حتى عندما أنزلوا النعش في انتظار السفّان، الذي كان ما يزال مشغولاً بحبله، لم يقترب أحد، ولم يسألهم أحد سؤالاً، ولم يتكرّم أحد عليهم بنظرة ولو من باب الفضول.

كان الربان ما يزال متأخراً أكثر بسبب امرأة، تحمل طفلاً على صدرها، ظهرت الآن بشعر محلول على سطح القارب. ثم تقدّم وأشار إلى منزل مصفر ذي طابقين ارتفعَ بشكل مفاجئ إلى اليسار بالقرب من المياه؛ رفع الحمالون حملهم ومضوا به إلى الباب المنخفض ولكن المدعم بشكل جميل بدعامة. فتح صبي صغير نافذة تماماً في الوقت المناسب لرؤية المجموعة وهي تتلاشي داخل المنزل، ثم أغلق النافذة على عجل مرة أخرى. اغلاق الباب أيضاً الآن؛ كان مصنوعاً من البلوط الأسود، وقوياً. ثمة سرب من الحمائم التي كانت تحلق حول برج الجرس نزلت في الشارع أمام المنزل. وكما لو خُزنَ طعامها في الداخل، فقد تجمعت أمام الباب. حلّقت إحداها نحو الطابق الأولَ وأخذت تنقر في زجاج النافذة. كانت طيوراً زاهية الألوان، وجميلة إلى أبعد حدّ، ونشيطة. ورمت لهن المرأة الموجودة على القارب الحَبّ بحيث أخذ مساحة واسعة؛ فأكلنه عن آخره وطرنَ إلى المرأة.

رجل يعتمر قبعة عالية مربوطة بشريط من الكريب الأسود نزل الآن على أحد الممرات الضيقة والشديدة الانحدار المؤدية إلى الميناء. أخذ ينظر حوله بحذر، فبدا كل شيء يضايقه، وزمّ شفتيه لمرأى بعض الفضلات في إحدى الزوايا. فقد كانت قشور الفاكهة مرمية على مدرجات النصب التذكاري؛ كنسها على عجل بعصاه. طرق على باب المنزل، وفي الوقت نفسه أخذ قبعته من على رأسه بيده التي يغطيها قفاز أسود. فُتِحَ الباب حالاً، فظهر ما يربو على خمسين صبياً صغيراً في صفين في قاعة الدخول الطويلة، وانحنوا له.

نزل السفّان من السلّم، وحيّا الرجلَ الذي يرتدي ملابس سوداء، وأخذه حتى الطابق الأول، ثم قاده حول الرواق المشرق والأنيق الذي كان يطوّق الفناء، ودخل كلاهما، في حين تبعهما الصِبية على مسافة تنمّ عن الاحترام، غرفة فسيحة باردة تطلّ

باتجاه الخلف، لم يُرَ من نافذتها أي مظهر للسكنى، ما عدا جدار عارٍ، صخري رمادي ضارب إلى السواد. كان الحمالون مشغولين في وضع عدة شموعٍ طويلة وإضاءتها عند رأس النعش، مع ذلك لم تعطِ هذه الشموع الضوء، هي فقط شوّشت الظلال التي كانت غير متحركة حتى ذلك الحين، وجعلتها تضطرب على الجدران. لقد جرى سحب القماش الذي يغطي النعش. كان ملقىً عليه رجل ذو شعر مضفور بقوة، بدا إلى حد ما مثل صياد. كان متمدداً دون حراك، وحسبما يبدو، لايتنفس، عيناه مغلقتان؛ لكن السيمياء التي بدا عليها دلّت على أن هذا الرجل ربما كان ميتاً.

صعد السيد إلى النعش، ووضع يده على جبين الرجل الممدّد عليه، ثم ركع إلى الأسفل وصلّى. أشّر السفّان إلى حاملي النعش بمغادرة الغرفة؛ خرجوا، وأخذوا الصِبيةَ الذين تجمّعوا في الخارج، وأغلقوا الباب. ولكن حتى هذا لا يبدو أنه يُرضي السيد، لذلك حدّق بالسفّان؛ فهم السفّان المغزى، واختفى خلال باب جانبي يوصل إلى الغرفة التالية. وفي الحال فتح الرجل المسجّى على النعش عينيه، وحوّل وجهه بألمٍ صوب السيد، وقال: «مَن أنت؟» ودون أي علامة تدل على التعجب نهض السيِّد من هيئة الركوع التي كان عليها وأجاب: «رئيس بلدية ري□ا».

وأومأ الرجل المسجّى على النعش برأسه، وأشار إلى كرسي بحركة واهنة من ذراعه، وقال، بعد أن قبل رئيس البلدية دعوته: «كنتُ أعرف ذلك، بالطبع، يا رئيس البلدية، ولكن في اللحظات الأولى من عودة الوعي أنا دائماً ما أنسى، فكل شيء يمرّ أمام عينيّ، ومن الأفضل أن أسأل عن أي شيء حتى لو كنتُ أعرف. أنت أيضاً ربما تعرف بأنني أنا الصياد غراخوس».

قال رئيس البلدية، «بالتأكيد، أُعلِنَ لي وصولك أثناء الليل. كنا نائمين لفترة لابأس بها. ثم قبيل منتصف الليل صاحت زوجتي: «سالفاتوري» ـ وهذا هو اسمي ـ «انظر إلى تلك الحمامةِ عند النافذة». إنها حقاً حمامة، لكنها كبيرة كالديك. حلقت فوق رأسي وقالت في أُذني: «غداً سيأتي الصياد غراخوس الميت؛ استقبلْه باسم المدينة»».

هزّ الصياد رأسه ولعق شفتيه بطرف لسانه: «نعم، حلّقت الحمائم هنا أمامي. لكن هل تعتقد، يا رئيس البلدية، بأنني سوف أبقى في ري□ا؟»

أجاب رئيس البلدية، «لا أستطيع أن أقول ذلك حتى الآن، هل أنت ميت؟»

قال الصياد، «نعم، كما ترى. قبل سنين عديدة، نعم، لابد أن يكون ذلك قبل عدد كبير جداً من السنين، إذ سقطتُ من المنحدر في الغابة السوداء ـ حدث هذا في ألمانيا ـ عندما كنت أصيد الشامواه. ومنذ ذلك الحين كنتُ ميتاً».

قال رئيس البلدية، «لكنك على قيد الحياة أيضاً».

قال الصياد، «بمعنى ما، بمعنى ما أنا على قيد الحياة أيضاً. فسفينة موتي ضلتْ طريقها؛ إثر دوران خاطئ للعجلة، في لحظة غياب العقل من جانب الربان، والانحراف عن وطني الأصلي الرائع، لا أستطيع أن أصف ما كان عليه الحال؛ لا أعرف سوى أنني بقيتُ على الأرض وأن ذلك منذ أبحرت سفينتي في المياه

الدنيوية. لذلك فأنا، الذي لم أطلب شيئاً أفضل من العيش بين جبالي، أسافر بعد وفاتي في جميع أرجاء المعمورة».

«وليس لديك أي جزء في العالم الآخر؟» سأل رئيس البلدية، وهو يقطّب جبينه.

أجاب الصياد، «أنني إلى الأبد على السلّم الكبير المؤدي إلى ذلك العالم. فعلى ذلك السلّم الواسع والفسيح بلا حدود أتسلق، أحياناً إلى الأعلى، وأحيانا إلى الأسفل، وأحياناً إلى اليمين، وأحياناً إلى اليسار، وأنا دائماً في حركة مستمرة. واستدار الصياد إلى فراشة. لا تضحك.»

«أنا لا أضحك»، قال رئيس البلدية دفاعاً عن نفسه.

قال الصياد، «ذلك لطف جميل منك. أنا دائب الحركة دائماً. لكنني عندما أقوم بطيران أعلى وأرى البوابة مشرقة فعلاً أمامي أستيقظ في الحال على سفينتي القديمة، التي ما تزال متقطعة بها السبل بشكل يائس في البحر الدنيوي أو غيره. إن الخطأ الاساسي لموتتي السابقة يكشّر في وجهي وأنا أستلقي في مقصورتي. جوليا، زوجة الربّان، تطرق على الباب وتجلب لي على نعشي شراب الصباح من الأرض التي صادف أن نمرّ بسواحلها. أستلقي على لوح خشبي خشبية، وأرتدي ـ لا يمكن أن يكون من دواعي السرور النظر إليّ ـ {أرتدي} كفناً قذراً، وكل من شعري ولحيتي، أسودان مخضبان باللون الرمادي، قد نما معاً بشكل متشابك لا انفصام لهما، وأطرافي مغطاة بشال نسائي كبير مزهّر ذي أهداب طويلة. وتنتصب شمعة مقدسة عند رأسي وتضيء لي. وعلى الجدار قبالتي ثمة صورة صغيرة، من الواضح أنها صورة لرجل الغابة الذي يصوّب رمحه عليّ ويتخفّى بأفضل طريقة ممكنة لديه وراء درع مرسوم بشكل جميل. وعلى متن السفينة غالباً ما يصادف المرء صوراً سخيفة، لكن هذه الصورة هي الأسخف من بين جميع الصور. فيما عدا ذلك فإن قفصي الخشبي فارغ تماماً. ومن خلال ثقب في الجانب تدخل نسمات الهواء الدافئة التي تليق بالليل الجنوبي، وأنا أسمع المياه تصطك بالقارب القديم.

«لقد استلقيتُ هنا، حيث يعيش الصياد غراخوس في الغابة السوداء، منذ أن تبعتُ الشامواه وسقطتُ من المنحدر. حدث كل شيء بترتيب جيد. فتابعتُ، وسقطتُ، ونزفتُ حتى الموت في واد، ومتُّ، وهذه السفينة لا بد أنها نقلتني إلى العالم التالي. ما زال بإمكاني أن أتذكر كيف كنتُ سعيداً إذ تمددتُ على هذه الخشبة لأول مرة. لم تصغِ الجبال قط إلى هذه الأغاني التي أصدح بها كما كانت تفعل هذه الجدران المظلمة في ذلك الحين.

«لقد كنت سعيداً أن أعيش، وكنت سعيداً أن أموت. وقبل أن أخطو على متن السفينة، رميتُ بفرح ذخيرتي البائسة، وحقيبتي، وبندقية صيدي التي كنتُ دائماً فخوراً بحملها، وانزلقتُ في كفني مثل فتاة في فستان زواجها. استلقيتُ وبقيتُ أنتظر. ثم جاء الحظ العاثر».

قال رئيس البلدية، وهو يرفع يده بشكل دفاعي، «يا له من مصير فظيع. وأنت لا تتحمل أية مسؤولية حيال ذلك؟».

قال الصياد، «لا أتحمّل أي شيء. كنتَ صياداً؛ هل هناك أية خطيئة في ذلك؟ إذ تبعتُ ندائي كصياد في الغابة السوداء، حيث كانت ما تزال هناك ذئاب في تلكم الأيام. وبقيتُ متربصاً، وأطلقتُ النار، وأصبتُ هدفي، وسلختُ الجلود من ضحاياي: هل ثمة أي خطيئة في ذلك؟ كانت أعمالي مباركة. إن تسمية «صياد الغابة السوداء العظيم» هو الاسم الذي نُعِتُّ به. هل ثمة أي خطيئة في ذلك؟»

قال رئيس البلدية، «أنا غير مدعو لتقرير ذلك»، لكن بالنسبة لي أيضاً لا يبدو أن هناك خطيئة في مثل هذه الأمور. ولكن بعد ذلك، ذنب مَن كل هذا؟»

قال الصياد، «ذنب السفّان. إذ لا أحد سيقرأ ما أقوله هنا، لا أحد سوف يأتي لمساعدتي؛ حتى لو أمِرَ جميع الناس لمساعدتي، فكل باب وكل نافذة كانت ستبقى مغلقة، والجميع سيخلدون إلى الفراش ويسحبون أغطيتهم على رؤوسهم، وجميع المعمورة تصبح حانة ليلية. هناك مغزى في ذلك، حيث لا أحد يعرف بي، وإذا كان أي شخص يعرفني فإنه لن يعرف أين يمكنه العثور عليّ، ولن يعرف كيف يتعامل معي، ولن يعرف كيف يساعدني. إن فكرة أن يساعدونني هو مرض لا بد من علاجه عن طريق الخلود إلى الفراش.

«أعرف ذلك، وهكذا فأنا لا أصرخ طلباً للمساعدة ـ عندما أفقد السيطرة على نفسي، مثلما أنا عليه الآن، على سبيل المثال ـ على الرغم من أنه في بعض اللحظات أُفكّر جدياً بتلك المساعدة. ولكن من اجل طرد مثل هذه الأفكار فأنا لا أحتاج سوى إلى أن أنظر حولي وأتحقق من مكاني، و ـ بوسعي أن أؤكد صراحة ـ كنتُ كذلك طيلة مئات السنين».

قال رئيس البلدية، «رائع، رائع. والآن هل تفكر في البقاء هنا في ريـ□ا معنا؟»

«لا أفكّر في ذلك»، قال الصياد مبتسماً، و، في سبيل أن يعذر نفسه، وضع يده على ركبة رئيس البلدية. «أنا هنا، لا أعرف أكثر من ذلك، ولا يسعني الذهاب أبعد من الذي بلغته. سفينتي بلا دفة، تسوقها الرياح التي تهب في أعمق مناطق الموت».

الصياد غراخوس: وصلة إضافية

هل هو صحيح، أيها الصياد غراخوس، بأنك كنتَ تطوف في هذا القارب القديم لمئات السنين؟

لمدة ألف وخمس مئة سنة.

ودائماً في هذه السفينة؟

دائماً في هذا المركب. المركب، حسبما أعتقد، هو التعبير الصحيح. أنتَ لستَ معتاداً على القضايا البحرية؟

لا، فأنا لم أعر هذه القضايا أي اهتمام إلى اليوم، حتى سمعتُ عنك، وحتى ركبتُ سفينتك.

لا تعتذر. أنا ابن اليابسة، أيضاً. لم أكن بحاراً، ولم أرغب في أن اكون واحداً من البحارين، فالجبال والغابات أصدقائي، والآن ـ يا أقدم البحارين، أيها الصياد غراخوس، يا شفيع البحارين، أيها الصياد غراخوس ـ صبي المقصورة الذي يرتجف خوفاً في منصة المراقبة في الليلة العاصفة يتوسّل لي بيدين ملتويتين.لا تضحك.

انا أضحك؟ بالتأكيد لا. وبقلب يخفق وقفتُ أمام باب مقصورتك، وبقلب يخفق دخلتُ. وطريقتك الودية هدّأت من روعي قليلاً، لكنني لا أنسى أبداً ضيف مَن أنا.

أنت محقّ، بالطبع. ومهما يكن من أمر، فأنا الصياد غراخوس. ألا تشرب شيئاً من النبيذ؟ لا أعرف العلامة التجارية، لكنه حلو وقوي، والربان يفخر بي.

ليس الآن تماماً، أنا قلق جداً. في وقت لاحق ربما، إذا كنتَ تستطيع أن تتحملني فترة أطول. إلى جانب ذلك، لن أجرؤ على الشرب من كأسك. مَن هو الربان؟

صاحب المركب. هم رجال رائعون، هؤلاء الربابنة. إلاّ أنني لا أفهمهم. لا أقصد لغتهم، على الرغم من أنني بالطبع لا أفهم لغتهم، أيضاً. لكن هذه الملاحظة خارج الموضوع. فعلى مرّ القرون تعلمتُ ما يكفي من اللغات لأكون مترجماً بين هذا الجيل وأسلافه. وما لا أفهمه هو الطريقة التي تعمل بها أذهان الربابنة. ربما يمكنك أن تفسر ذلك لي.

لا أمل يُرتجى مني. كيف يمكنني أن أشرح أي شيء لك، وأنا لستُ سوى طفل يهذي؟

لا، لا تتحدث بهذه الطريقة. ستسدي لي معروفاً إذا ما كنتَ شهماً إلى حد ما، وواثقاً من نفسك. ماذا عساي أن أفعل بمجرد ظلّ ضيف؟ سوف أطوّح به من خلال الكوّة في البحيرة. أنا بحاجة إلى عدة تفسيرات. أنت الذي تتجول في الخارج يمكنك أن تعطيني إياها. لكن إذا تجلس مرتجفاً إلى مائدتي هنا وبخداع الذات تنسى القليل الذي تعرف، عندها قد تمحو أيضاً كل شيء حالاً. وأنا أعني ما أقول.

ثمة شيء ما في ذلك. في الحقيقة، أنا متفوق عليك بشكل من الأشكال. لذلك سأحاول السيطرة على نفسي. سَلْ ما بدا لك!

لابد، لابد أنك تبالغ في هذا الاتجاه وأنك تتصور نفسك متفوقاً بطريقة أو بأخرى. لكن عليك أن تفهمني بشكل صحيح. فأنا إنسان مثلك، وأنا منذ قرون عديدة أكثر صبراً كما أنني أكبر منك سناً. حسناً، لنتحدث عن الربابنة. اصغِ! واشرب بعض النبيذ، لتشحذ ذكاءك. لا تخجل. خذ جرعة كبيرة. فثمة حمل سفينة كبيرة أخرى هناك.

غراخوس، هذا نبيذ ممتاز. فلْيعش الربان!

واحسرتاه أنه مات اليوم. كان رجلاً طيباً وقضى بسلام. وقف الأطفال الأصحاء، اليافعين، عند فراش موته، وخرّت زوجته مغمياً عليها عند القدم، لكن آخر أفكاره كانت من أجلي. إنه رجل طيب، من هامبورغ.

يا إلهي، من هامبورغ! وأنت هنا في الجنوب تعلم بأنه توفي اليوم؟

ماذا؟ أنا لا أعرف متى يموت سيدي الربان؟ أنتَ ساذج حقاً.

هل تحاول إهانتي؟

لا على الإطلاق، انا أفعل ذلك من دون أن أقصد إهانتك. ولكن يجب أن لا تتفاجأ كثيراً. احتسِ المزيد من النبيذ. أما بالنسبة للربابنة، فيكون الأمر كالآتي: في الأصل، لا يعود المركب إلى أحد.

يا غراخوس، لدي طلب واحد. أولاً، أخبرني بإيجاز ولكن بشكل متسق كيف تسير بك الأمور. لأكن صادقاً معك: أنا حقاً لا أعرف ذلك. فأنت بالطبع تنظر إلى هذه الأمور على أنها شيء مفروغ منه وتفترض، كما هي طريقك، بأن العالم كله يعرف عنها. لكن في هذه الحياة الإنسانية القصيرة ـ والحياة هي قصيرة حقاً، يا غراخوس، حاولْ أن تفهم ذلك ـ في هذه الحياة القصيرة يبدو الأمر بقدر ما يستطيع المرء أن يقوم به لينجو منها هو وعائلة. ومن المثير للاهتمام بالنسبة للصياد غراخوس ـ وهذه هي قناعة، وليست تملقاً ـ ليس ثمة وقت للتفكير به، واكتشافه، ناهيك عن القلق بشأنه. ربما على فراش موت المرء، مثل صاحبك من هامبورغ، فهذا ما لا أعرفه. وربما سيكون حينها لدى الرجل المشغول فرصة ليتمدد لأول مرة ويسمح للصياد غراخوس الغرّ بالمرور مرة واحدة من خلال أفكاره العقيمة. ولكن من ناحية اخرى، الأمر هو كما قلتُ: بأنني لا أعرف شيئاً عنك، فالعمل جاء بي إلى هنا إلى الميناء، ورأيت المركب، الدرج المتحرك موضوعا، ومشيت عبره ـ لكنني الآن أودّ أن أعرف شيئاً ما متسقاً عنك.

آه، شيء متسّق. تلك القصة القديمة، القديمة. جميع الكتب تعجّ بها، والمعلمون يرسمونها على السبورة في كل مدرسة، والأم تحلم بها وهي تُرضع طفلها، والعشاق يدندنون بها بينما يحتضن أحدهم الآخر والتجار يسردونها للزبائن، والزبائن يسردونها للتجار، والجنود يترنمون بها عند المسير، والوعّاظ يعلنونها في الكنيسة، والمؤرخون في دراساتهم يذكرون بأفواه ملأى ما حدث منذ فترة طويلة ولم يتوقفوا أبداً عن وصفها، وهي مطبوعة في الصحف والناس يتناقلونها من جيل إلى جيل، وتمّ اختراع التلغراف من أجل أن يذيع صيتها في أرجاء العالم بشكل أسرع، إنها مستخرجة من باطن المدن المدمرة، فيندفع بها المصعد إلى أعلى ناطحة سحاب. ومسافرو السكة الحديد يصدحون بها من النوافذ إلى البلدان التي يمرون بها، ولكن حتى قبل أن يقوم المتوحشون بالزعيق بها عليهم، فإنها يمكن قراءتها في النجوم والبحيرات تعكسها، والجداول تُنزلها من الجبال والثلوج تبعثرها مرة أخرى على القمة، وأنت، أيها الإنسان، تجلس هنا وتطلب مني الاتساق. لابد أنك عانيتَ من شباب متهتك بشكل استثنائي.

ربما، فهذا هو حال أي شاب. لكن من المفيد جداً، كما أعتقد، لو تذهب وتُلقي نظرة فاحصة على جميع أنحاء العالم. قد يبدو لك غريباً هذا الأمر، بينما يدهشني جلوسك هنا، فإنها حقيقة بأنك لستَ حديث المدينة، ومع ذلك يمكن مناقشة العديد من

المواضيع التي لستَ طرفاً فيها، فالعالم يمضي في سبيله وأنت تستمر في رحلتك، ولكن حتى اليوم لم ألاحظ أبداً بأن مساراتكما قد التقتْ.

هذه هي ملاحظاتك، يا صديقي العزيز، والناس الآخرون لديهم ملاحظاتهم. ثمة احتمالان لاغيرهما هنا. إما أن تخفي ما تعرفه عني، وتقوم بذلك بدافع محدد. وفي هذه الحالة اسمح لي أن أقول لك بصراحة: أنت على المسار الخاطئ. أو أن تعتقد فعلاً بأنك لا تستطيع تذكري، لأنك تخلط بين قصتي وقصة شخص ما آخر. في هذه الحالة لا يمكنني إلاّ أن أقول لك: أنا ــ لا، أنا لا أستطيع ذلك، فالجميع يعرف القصة ومن بين جميع الناس يجب أن أكون الشخص الذي يخبرك! لقد مرّ عليها ردح طويل من الزمن. اسأل المؤرخين! اذهبْ إليهم، ثم عدْ. لقد مرّ عليها ردح طويل من الزمن. كيف يمكن أن تتوقعني بأن أحتفظ بها في هذا الدماغ المكتظ جداً؟

انتظرْ، يا غراخوس، سوف أسهّل الأمر عليك، سوف أسألك بعض الأسئلة. من أي بلد أنتَ؟

من الغابة السوداء، كما يعلم الجميع.

من الغابة السوداء، طبعاً. وهل كانت موجودة هناك، تقريباً حوالي القرن الرابع، بحيث اعتدتَ على الاصطياد؟

يا إلهي، هل تعرف الغابة السوداء؟

لا.

أنت حقاً لا تعرف أي شيء. فابن موجّه الدفة الصغير يعرف أكثر منك، ربما أكثر مما تعرفه بكثير. مَن بحق السماء أرسلك إلى هنا؟ إنه القدر. كان تواضعك المزعج له ما يبرره فعلاً خير تبرير. أنت شخص فارغ أقوم بملئه بالنبيذ. والآن فأنت لا تعرف حتى الغابة السوداء. وأنا ولدتُ هناك. بقيتُ أصطاد هناك حتى بلغتُ الخامسة والعشرين. لو لم يضللني الوعل الجبلي (الشامواه) ــ حسناً، الآن تعرف ذلك ــ لعشتُ حياة صياد جميلة طويلة، لكن الشمواه خدعني، وسقطتُ على منحدر وقُتلتُ على الصخور. لا تسلني المزيد من الأسئلة. هأنذا، ميت، ميت، ميت. انت لا تعرف لماذا أنا هنا. شُحِنتُ على سفينة الموت، بما يليق برجل ميت بائس، وجرى القيام بثلاث أو أربع مراسيم كهنوتية عليّ، كما تُنفذ على كل شخص، فلماذا يجب أن يستثنون الصياد غراخوس؟ كل شيء جري حسب النظام، وتمددتُ في القارب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سور الصين العظيم

تمّ الانتهاء من بناء سور الصين العظيم عند زاويته في أقصى الشمال. ومن الجانب الجنوب الشرقي والجنوب الغربي جاء في قسمين التحما أخيراً هناك. كذلك طبّق مبدأ البناء التدريجي هذا على نطاق أصغر كلّ من الجيشين العظيمين من العمال، الشرقي منه والغربي. وقد أنجز ذلك بهذه الطريقة: جرى تشكيل مجاميع من حوالي عشرين عاملاً تحتّم عليهم إنجاز طول، لنقلْ، خمسمائة ياردة من السور، في حين قامت مجاميع مماثلة ببناء امتداد آخر من الطول نفسه للالتقاء بالأول. لكن بعد القيام بهذا الالتقاء لم يتم الاستمرار ببناء السور من النقطة، لنقلْ، التي انتهت عندها الألف ياردة هذه؛ فبدلاً من ذلك تحولت مجموعتا العمال للبدء في البناء مرة أخرى في أحياء مختلفة تماماً. بطبيعة الحال بهذه الطريقة تُركت العديد من الفجوات الكبيرة، التي رُدِمت تدريجياً شيئاً فشيئاً، وبعضها، في الواقع، لم يجرِ ردمها حتى بعد الإعلان الرسمي على انهاء السور. في الحقيقة يقال بأن هناك فجوات لم تُسّد على الإطلاق، وهذا تأكيد، على أي حال، بأنه ربما مجرد واحد من الأساطير العديدة التي أدّى بناء السور إلى انتشارها، والتي لا يمكن التحقق من صحتها، على الأقل على يد أيّ إنسان بعينيه وبناءً على حكمه، بسبب مساحة هيكله.

الآن وللوهلة الأولى يمكن للمرء أن يتصور بأنه سيكون أكثر فائدة مهما كلّف الأمر لو جرى بناء السور بشكل مستمر، أو على الأقل بشكل مستمر ضمن قسمين رئيسيين. برغم كل شيء، كان القصد من السور، كما هو معلن ومعروف عالمياً، هو أن يكون حماية ضد شعوب الشمال. لكن كيف يمكن لسور أن يحمي إذا لم يكن بناءً مستمراً؟ ليست المشكلة فقط تكمن في أن مثل هذا السور لا يمكنه أن يقدّم الحماية، ولكن أيضاً أنه معرّض إلى خطر دائم. فهذه الكتل من السور التي تُركت في مناطق مهجورة يمكن أن يدمّرها البدو بسهولة مراراً وتكراراً، خاصة وأن هذه القبائل، التي أوجست خيفة من عمليات البناء، استمرت في تغيير مخيماتها بسرعة لا تصدق، مثل الجراد، وهكذا ربما كانت لديهم نظرة عامة عن تقدم السور أفضل مما لدينا، نحن البنائين. مع ذلك فمهمة البناء ربما لا يمكن تنفيذها بأيما طريقة أخرى. ومن أجل فهم هذا يجب أن نأخذ في الاعتبار ما يلي: كان الغرض من السور هو الحماية لعدة قرون؛ ووفقاً لذلك، كانت العناية الفائقة في البناء، وتطبيق الحكمة المعمارية لجميع العصور والشعوب المعروفة، والشعور الدؤوب بالمسؤولية الشخصية لدى البنائيين {كانت} من المتطلبات الأساسية التي لا غنى عنها للعمل. صحيح، إنه من أجل المهام اليدوية الصرفة أمكنَ استخدام العمال اليوميين الجهلاء من السكان، من الرجال والنساء والأطفال الذين عرضوا خدماتهم لقاء مبالغ لابأس بها من المال؛ ولكن من أجل الإشراف حتى على كل أربعة عمال يوميين تطلّب الأمر خبيراً بارعاً في فن البناء، وهو رجل قادر على الانخراط والإحساس بكل قلبه بما أنيط إليه من عمل. وكلما ارتفعت وتيرة العمل، ازدادت المسؤولية. كان لابد من تجنيد مثل هؤلاء الرجال في الواقع، وإن لم يكن بالفعل بالوفرة التي يمكن أن تستوعبها أعمال البناء، ولكن مع ذلك كانت أعدادهم كبيرة.

وهكذا فالعمل لم يجرِ من دون تفكير. فقبل خمسين سنة منذ وُضِع أول حجر، كان يُنظر إلى فن العمارة، وخاصة فن البناء، على أنه أهم فرع من فروع المعرفة في جميع أنحاء الصين التي كانت ستحاط بسور، وجميع الفنون الأخرى لم تكتسب الاعتراف إلاّ من حيث تعلقها بهذا الفن. ما يزال بإمكاني أن أتذكر جيداً ونحن نقف كأطفال صغار، بالكاد على أقدامنا، في حديقة معلمنا، وأُمِرنا بأن نبني ما يشبه السور من الحصى؛ وبعد ذلك قام المعلم، وهو يشمّر عن ساعديه، بالانحناء بشكل كامل على السور، وبطبيعة الحال أوقعه أرضاً، فوبخنا بفضاضة لرداءة عملنا بحيث ركضنا باكين في كل الاتجاهات إلى آبائنا. إنها حادثة تافهة، ولكنها كبيرة بالنسبة لروح تلك الفترة.

كنتُ محظوظاً طالما كان بناء السور مجرد في بدايته عندما، وأنا في العشرين من عمري، اجتزتُ الامتحان الأخير للمدرسة المتوسطة. أقول محظوظاً، لأن الكثيرين ممن سبقوني قد حققوا أعلى درجة من الثقافة المتاحة لهم لم يتمكنوا من إيجاد شيء عاماً بعد عام للقيام به بما يمتلكونه من معارف، وانجرفوا بلا جدوى هنا وهناك بكل ما تحمله رؤوسهم من ابرع الخطط المعمارية، وغرقوا بالآلاف في غياهب اليأس. لكن أولئك الذين جاءوا أخيراً للعمل كمشرفين، على الرغم من قلة شأن منصبهم، كانوا حقاً جديرين بمهمتهم. كانوا بنائين فكّروا كثيراً، ولم يتوقفوا عن التفكير، في بناء السور، إنهم رجال مع أول حجر وضعوه في الأرض شعروا بأنهم جزء من السور. وبنّاؤون من ذلك الطراز، بطبيعة الحال، لم يكن لديهم فقط رغبة في أداء عملهم بطريقة أكثر شمولاً، بل كانوا أيضاً يتحرقون شوقاً لرؤية السور وقد بُنيَّ بأبهى صورة. إلاّ أن العمال اليوميين لا يتملكهم مثل هذا الاستعجال، لأنهم لا ينظرون إلاّ إلى أجورهم، بينما كان بوسع المشرفين من ذوي المناصب العليا، بل وحتى المشرفين من ذوي الرتب المتوسطة، أن يروا ما يكفي من التصاعد المتعدد الجوانب لوتيرة البناء الذي يجعل معنوياتهم واثقة ومرتفعة. ولكن من أجل تشجيع المشرفين الثانويين، الذين هم ارفع فكرياً إلى حد كبير من المهام الصغيرة على ما يبدو المنوطة بهم، فلابد من اتخاذ تدابير أخرى. إذ لا يمكن للمرء، على سبيل المثال، أن يتوقع منهم أن يقوموا بوضع حجر على حجر آخر لعدة أشهر أو حتى عدة سنوات بلا نهاية، في منطقة جبلية غير مأهولة، على بعد مئات الأميال عن منازلهم؛ وهذا اليأس من مثل هذا الكدح الصعب، الذي حتى الآن لم يصل إلى الانتهاء حتى في أطول عمر، قد طوّح بهم في مستنقع القنوط وقبل كل شيء جعلهم أقل قدرة على العمل. ولهذا السبب كان القرار على نظام البناء التدريجي. إذ أمكنَ إنجاز خمسمائة ياردة في حوالي خمس سنوات؛ وفي ذلك الوقت، على أي حال، بدهيّ كان المشرفون منهكين تماماً وفقدوا كل ثقة بأنفسهم، وبالسور، وبالعالم. ومن ثم، بينما كانوا ما يزالون منتشين بالاحتفالات البهيجة بمناسبة الانتهاء من بناء ألف ياردة من السور، جرى إرسالهم بعيداً، بعيداً جداً، وشاهدوا في رحلتهم أقساماً مكتملة من السور ترتفع هنا وهناك، ومرّوا بمقرات القيادة العليا وقُدّمتْ لهم شارات الشرف، وسمعوا ابتهاج الجيوش الجديدة من العاملين المتدفقين من أصقاع المعمورة، ورأوا الغابات قد قُطعت لتصبح دعائم للسور، ورأوا الجبال قد نحتت لتكون حجارة للسور، واستمعوا إلى تراتيل الأضرحة المقدسة الصدّاحة حيث كان

الأتقياء يبتهلون لإتمام السور. كل هذا أدى إلى تهدئة روعهم. إن الحياة الهادئة لبيوتاتهم، حيث استراحوا لبعض الوقت، بثّت فيهم القوة؛ بينما السذاجة المتواضعة التي استمعوا فيها إلى تقاريرهم، والثقة التي آمن بها المواطن البسيط والمسالم بالاكتمال النهائي للسور، كل شيء ملأ قلوبهم بحبور جديد. ومثل الأطفال الذين يحدوهم الأمل إلى الأبد قالوا عندها وداعاً لبيوتاتهم؛ إذ غدت الرغبة مرة أخرى للعمل على سور الأمة لا تقاوم. وانطلقوا مبكرين اكثر مما ينبغي؛ وتبعهم نصف سكان القرية إلى مسافات بعيدة. فكانت مجاميع من الناس يلوّحون بلافتات وأشرطة ملونة على جميع الطرقات؛ لم يسبق لهم أن رأوا كم كانت بلادهم عظيمة وغنية وجميلة وجديرة بالحب. وكان كل مواطن أخاً للشخص الذي يبني سور الحماية، والذي يشكره مدى الحياة على هذا الصنيع بكل ما يملك وبكل ما يقوم به. الوحدة! الوحدة! كتفاً بكتف، حلقة من الإخوة، تيار من الدم لم يعد محصوراً ضمن الدورة الدموية الضيقة للجسم الواحد، بل يدور ببهاء ومع ذلك يعود في جميع أصقاع الصين التي لا حدّ لها.

وهكذا، عندئذ، يصبح نظام البناء التدرجي مفهوماً؛ ولكن ما تزال هناك أسباب أخرى وراء ذلك أيضاً. كما لا يوجد أي شيء غريب عند توقفي عند هذه المسألة طويلاً؛ فهي واحدة من المشاكل الحاسمة في مجمل عملية بناء السور، التي قد تبدو غير مهمة للوهلة الأولى. وإذا قيّض لي أن أنقل الأفكار والأحاسيس في ذلك الوقت وأجعلها مفهومة لا أستطيع أن أذهب بعيداً بما فيه الكفاية في هذا الأمر بالذات.

إذن، أولاً، يجب أن يقال بأن الأمور في تلك الأيام تحققت بشكل أدنى من بناء برج بابل، وإن كان فيما يتعلق بالموافقة الإلهية، على الأقل وفقاً للحساب البشري، فإنها تتعارض بشدة مع ذلك العمل. أقول هذا لأنه أثناء الأيام الأولى من البناء كتب باحث كتاباً عقد فيه المقارنة بين الاثنين بطريقة مستفيضة جداً. حاول فيه أن يثبت بأن برج بابل فشل في الوصول إلى مبتغاه، ليس نتيجة للأسباب المعروفة عالمياً، أو على الأقل من بين تلك الأسباب المعترف بها لا يمكن إيجاد أهمها جميعاً. إذ إن براهينه لم تأتِ من مجرد وثائق وتقارير مكتوبة؛ بل ادّعى كذلك بأنه قام بالتحقيقات على الفور، وأنه اكتشف بأن البرج فشل وكان محكوماً عليه بالفشل بسبب ضعف الأساس. في هذا الصدد على أي حال كان عصرنا متفوقاً إلى حد كبير على ذلك العصر القديم. تقريباً كل متعلم في زماننا يمتهن البناء ولا يمكن ان يخطئ في مسألة وضع الأسس. ولم يكن ذلك، على أي حال، موضوع اهتمام الباحث من أجل إثباته؛ ذلك لأنه أكّد على أن السور العظيم وحده سيوفر لأول مرة في تاريخ البشرية أساساً آمناً لبرج بابل جديد. لهذا فالسور أولاً، ومن ثم البرج. كان كتابه في متناول الجميع في ذلك الوقت، لكنني أعترف بأنه حتى اليوم لا أستطيع تماماً ان افهم كيف تصوَّر الباحث هذا البرج. كيف يمكن للسور، الذي لم يشكّل حتى دائرة، بل فقط ما يشبه ربع أو نصف دائرة، أن يعطي الأساس للبرج؟ من الممكن حسبما يتضح بأن ذلك لا يتحقق إلاّ بالمعنى الروحي. لكن في هذه الحالة لماذا جرى بناء السور الفعلي، الذي برغم كل شيء كان شيئاً ما ملموساً، وهو نتيجة العمل الذي استغرق الحياة بأسرها لجمع غفير من الناس؟ ولماذا كانت هناك خطط في الكتاب، خطط غامضة إلى حد

ما، لا بد من الاعتراف بذلك، لبناء البرج، والمقترحات الموضوعة بالتفصيل من أجل حشد طاقات الناس للعمل الجديد الهائل؟

ثمة العديد من الأفكار الطائشة في رؤوس الناس في ذلك الوقت ـ وما كتاب الباحث هذا إلاّ مثال واحد ليس إلاّ ـ ربما ببساطة لأن الكثيرين جداً كانوا يحاولون الانضمام إلى القوات بقدر ما يستطيعون من أجل تحقيق هدف واحد. إن الطبيعة البشرية، القابلة للتغيير أساساً، وغير المستقرة كما الغبار، لا يمكنها أن تتحمل أي قيود؛ إذ عندما تربط نفسها سرعان ما تبدأ بتمزيق قيودها بجنون، حتى تحيل كل شيء إرباً، السور، والقيود، وذاتها هي أيضاً.

من الممكن بأن هذه الاعتبارات ذاتها، والتي ناهضت بناء السور بالمرة، لم تُسقطها القيادة العليا من الحساب عندما حُدِدَ نظام البناء التدريجي. نحن ـ وهنا أتكلم باسم كثير من الناس ـ لم نعرف بأنفسنا حقاً حتى فحصنا بعناية مراسيم القيادة العليا، عندما اكتشفنا بأنه من دون القيادة العليا لا معرفتنا بالكتب ولا فهمنا البشري سيكون كافياً للاضطلاع بالمهام المتواضعة التي أجريناها على العموم. في مكتب القيادة ـ بغض النظر عن مكانه ومَن الذي كان يجلس هناك فليس هناك أحد ممن سألتهم قد عرف حينها أو يعرف الآن ـ في ذلك المكتب قد يكون المرء متأكداً بأن جميع الأفكار والرغبات الإنسانية تدور في دائرة، وان جميع الغايات والإنجازات البشرية تكون في دائرة مقابلة. ومن خلال النافذة سقطت العظمة المنعكسة للعوالم الإلهية على أيدي القادة بينما كانوا يتتبعون خططهم.

ولذلك السبب يجب على المراقب النزيه أن يؤكد بأن القيادة، إذا كانت جدياً ترغب في ذلك، لتمكّنت من التغلب أيضاً على تلك الصعوبات التي حالت دون تطبيق نظام البناء المستمر. لذلك، لا يبقى هناك شيء سوى الاستنتاج بأن القيادة اختارت عمداً نظام البناء التدريجي. لكن البناء التدريجي كان مجرد بديل مؤقت، ومن ثم غير مناسب. ويبقى الاستنتاج بأن القيادة رغبت في شيء غير مناسب. يا له من استنتاج غريب! صحيح، ومع ذلك في جانب ما لا بد أنه ينطوي على الكثير الذي يقال بشأنه. وبوسع المرء ربما مناقشة ذلك بأمان الآن. في تلك الأيام كان لدى كثير من الناس، ومن بينهم الأفضل، حكمة سرية تقول: حاولْ بكل قواك أن تفهم مراسيم القيادة العليا، ولكن فقط إلى نقطة معينة؛ ثم تجنب المزيد من التأمل في أبعد من ذلك. وهي حكمة بارعة جداً، جرى تفصيلها في مَثَلٍ اُقتبِسَ كثيراً في وقت لاحق: تجنب المزيد من التأمل، ولكن ليس لأنه قد يكون ضاراً؛ إذ ليس مؤكداً على الإطلاق بأنه ضار. وما هو ضار أو غير ضار لا علاقة له بالمسألة. أنعم النظر أيضاً في النهر في الربيع. فهو يرتفع حتى يصبح أكثر جبروتاً ويغذّي بشكل باذخ التربة على الامتداد الطويل لضفتيه، ويستمر في طريقه حتى يبلغ البحر، حيث يكون أكثر الجميع ترحيباً لأنه حليف أكثر جدارة. حتى الآن ربما تندفع بتأملاتك نحو مراسيم القيادة العليا. لكن بعد ذلك يفيض النهر على ضفتيه، ويفقد حدوده وشكله، ويخفّف من سرعة تياره، ويحاول تجاهل مصيره بتشكيل بحار صغيرة في داخل الأرض، ويلحق الأضرار بالحقول، ومع ذلك لا يستطيع أن يُبقي نفسه لفترة طويلة في اتساعه الجديد، لكنه يجب أن يعود بين ضفتيه مرة أخرى، بل ويجب

عليه ايضاً أن يجف بشكل يدعو إلى البؤس في الموسم الحار القادم. حتى الآن ربما لا تدفع بتأملاتك نحو مراسيم القيادة العليا.

الآن برغم أن هذا المَثَل قد ينطوي على مدىً وقوة غير عاديَين أثناء بناء السور، إلا أنه في معظم الأحيان يمتلك فقط علاقة مقيّدة بدراستي الحالية. إذ أن التحقيق الذي أقوم به هو تحقيق تاريخي بحت؛ فلا برق يومض منذ فترة طويلة منذ أن اختفت السحب الرعدية، ولذا فإنني قد أغامر في طلب شرح لنظام البناء التدريجي الذي يمضي أبعد من ذلك الذي أقنعَ الناس حينها. إن الحدود التي تفرضها عليّ قدرتي على التفكير هي حدود ضيقة بما فيه الكفاية، لكن المقاطعة التي لابد من اجتيازها هنا هي مقاطعة مترامية الأطراف.

ضد مَن كان ينبغي لسور الصين العظيم أن يوفّر الحماية؟ ضد شعب الشمال. الآن، جئتُ من جنوب شرق الصين. لا يمكن للشعب الشمالي أن يهددنا هناك. لقد قرأنا عنهم في كتب الأقدمين؛ حيث القساوة التي يرتكبونها وفقاً لطبيعتهم تجعلنا نتأوه في عرائشنا الوادعة. إن التمثلات المخلصة للفنان تُظهر لنا هذه الوجوه اللعينة، وأفواههم الفاغرة، وفكوكهم ذات الأسنان الكبيرة المدببة، وعيونهم شبه المغمضة التي تبدو أنها تبحث عن الضحية التي سوف تمزّقها وتزدردها فكوكهم. عندما يكون أطفالنا صعبي القياد نعرض لهم هذه الصور، وفي الحال يرتمون باكين بين أذرعنا. لكن لا شيء أكثر من ذلك نعرفه عن هؤلاء الشماليين. إذ إننا لم نرهم، وإذا بقينا في قرانا فلن نراهم أبداً، حتى لو كانوا على ظهور خيولهم الجامحة وامتطوها متجهين نحوها مباشرة بكل ما وسعتهم قوتهم ـ فالأرض شاسعة جداً لذلك لن تسمح لهم بالوصول إلينا، وهكذا ينتهي بهم المآل خالي الوفاض.

لماذا، إذن، والحالة هكذا منذ ذلك الحين، تركنا بيوتنا، والجدول بجسوره، وأمهاتنا وآباءنا، وزوجاتنا الباكيات، وأطفالنا المحتاجين إلى رعايتنا، ورحلنا إلى المدينة البعيدة لنتدرب هناك، في حين كانت أفكارنا ما تزال تسافر أبعد من ذلك نحو السور في الشمال؟ لماذا؟ سؤال للقيادة العليا. إن قادتنا يعرفوننا. فهم، رغم انغماسهم في همومهم الكبيرة، يعرفون عنا، ويعرفون مساعينا الصغيرة، ويروننا نجلس معاً في أكواخنا المتواضعة، ويستحسنون أو يستهجنون دعاء المساء الذي يتلوه ربّ المنزل في وسط عائلته. وإذا ما يُسمح لي بالتعبير عن مثل هذه الأفكار حول القيادة العليا، إذن يجب أن أقول بأن القيادة العليا حسب رأيي كانت موجودة منذ غابر الزمان، ولم تُجمع، لنقلْ، مثل تجمّع المسؤولين الصينيين الذين يُستدعَون على عجل لمناقشة الحلم الوردي لشخص ما في مؤتمر ينتهي بسرعة، بحيث إنه في ذلك المساء بالذات يهرع الناس خارجين من أسرّتهم لتنفيذ ما جرى تقريره، حتى لو لم يكن الأمر سوى إضاءة شعلة تكريماً لإلهٍ قد أظهر فضلاً كبيراً لأسيادهم قبل يوم، فقط لدفعهم إلى إحدى الزوايا المظلمة حيث تضربهم العصيّ غداً، تقريباً قبل أن تنطفئ نيران الشعلة. وأبعد من ذلك أعتقد بأن القيادة العليا كانت قائمة منذ الأزل، وكذا كان القرار القاضي ببناء السور أيضاً. لكن شعوب الشمال غير المطلعة هم الذين تصوروا بأنهم كانوا السبب في ذلك! حقاً، فالإمبراطور غير المطلع، هو الذي تخيّل

بأنه قضى بذلك! نحن بنّائي السور نعرف بأن الأمر لم يكن كذلك لكننا عقدنا ألسنتنا.

أثناء بناء السور ومنذ ذلك الحين حتى هذا اليوم بالذات شغلتُ نفسي بشكل حصري تقريباً بتاريخ الأجناس المقارن ـ ثمة بعض المسائل التي يمكن للمرء أن يحقق فيها حد النخاع، إذا جاز التعبير، فقط من خلال هذه الطريقة ـ واكتشفتُ بأننا نحن الصينيين نمتلك بعض المؤسسات الشعبية والسياسية الفريدة في وضوحها، وبعضها الأخرى فريدة في غموضها. إن الرغبة في تتبع سبب هذه الظواهر، لا سيما الأخيرة منها، حفزتني دائماً وما تزال تحثني، وبناء السور هو بحد ذاته ينطوي أساساً على هذه المسائل.

الآن نجد أن إحدى مؤسساتنا الأكثر غموضاً هي الإمبراطورية نفسها. في بكين، بطبيعة الحال، في البلاط الإمبراطوري، ثمة بعض الوضوح الذي يمكن العثور عليه في هذا الموضوع، على الرغم من أنه وهم أكثر منه حقيقة. كذلك يزعم معلمو القانون السياسي والتاريخ في مدارس التعليم العالي بأنهم على علم تام بهذه الأمور، وهم قادرون على نقل معرفتهم إلى طلابهم. وكلما يهبط المرء بين المدارس المتوسطة أكثر، يجد المرءُ بطبيعة الحال بما فيه الكفاية، بأن شكوك المعلمين والتلاميذ بمعرفتهم تتلاشى، وتتصاعد ثقافتهم السطحية عالياً حول بعض التعاليم التي جرى ترسيخها في عقول الناس لقرون، التعاليم التي، برغم أنها لم تفقد شيئاً من حقيقتها الأبدية، تبقى غير مرئية إلى الأبد في ضباب الارتباك هذا.

لكن هذه هي بالضبط المسألة التي تتعلق بالإمبراطورية التي في رأيي لابد أن يُطلب من الناس الإجابة عنها، لأنهم برغم كل شيء الداعم النهائي للإمبراطورية. هنا، عليّ أن أعترف، لا أستطيع أن أتكلم إلاّ مرة أخرى من أجل موطني الأصلي. وما خلا آلهة الطبيعة، وطقسهم الذي يملأ السنة بأكملها بمثل هذا التناوب الجميل والغني، فإننا لا نفكر إلاّ بالإمبراطور. لكن ليس الإمبراطور الحالي؛ أو بالأحرى نحن نفكر بالإمبراطور الحالي إذا ما عرفنا مَن هو أو إذا ما عرفنا أي شيء مؤكد عنه. صحيح ـ وهذا هو الفضول الوحيد الذي يملأ أنفسنا ـ نحن دائماً نحاول الحصول على معلومات حول هذا الموضوع، لكن، قد يبدو هذا غريباً، من المستحيل تقريباً اكتشاف أي شيء، سواء من الحجيج، رغم أنهم طافوا في الكثير من أرضنا، أم من القرى القريبة أو النائية، أم من البحّارة، برغم أنهم لم يبحروا في جدولنا الصغير، ولكن أيضاً أبحروا في الأنهار المقدسة. ربما يسمع المرء أشياء كثيرة، صحيح، ولكنه لا يمكن فهم أي شيء على وجه التحديد.

شاسعة جداً هي أرضنا بحيث لا يمكن لأية قصة خرافية أن تنصف اتساعها، إذ بالكاد تستطيع السماوات أن تمتد فوقها ـ وبكين ليست سوى نقطة فيها، والقصر الإمبراطوري أقل من نقطة. أما الإمبراطور والحالة هكذا، من ناحية أخرى، فهو قويّ في جميع مفاصل العالم: وهذه مسألة مفروغ منها. لكن الإمبراطور الحالي، وهو رجل مثلنا، يستلقي تماماً مثلنا على الأريكة التي هي ذات أبعاد سخية، ربما، ومع ذلك فهي من المحتمل جداً ضيقة وصغيرة تماماً. مثلنا في بعض الأحيان يتمدد وعندما يلمّ به التعب يتثاءب بفمه المنحوت بدقة. لكن كيف ينبغي لنا أن نعرف أي

شيء عن ذلك ـ فهو على بعد آلاف الأميال في الجنوب ـ تقريباً على حدود مرتفعات التبت؟ وإلى جانب ذلك، فإن أي أخبار، حتى لو وصلت إلينا، فإنها سوف تصل متأخرة إلى أبعد حدّ، وستكون قد عفا عليها الزمن قبل أن تصل إلينا. ودائماً ما يحيط بالإمبراطور حشود رائعة وغامضة من النبلاء والحاشية ـ الخبث والعداوة متستران بزي خدم وأصدقاء ـ يشكّلون قوة موازية للقوة الإمبراطورية ويكدحون بشكل دائم لإزاحة الحاكم من مكانه بسهام مسمومة. الإمبراطورية خالدة، لكن الإمبراطور نفسه يترنّح ويسقط من على عرشه، نعم، سلالات بأكملها تغرق في النهاية وتلفظ أنفاسها الأخير بحشرجة موت واحدة. لن يعرف الناس أبداً بهذه الصراعات والآلام؛ فهم مثل وافدين متأخرين، مثل غرباء في مدينة، يقفون عند نهاية شارع جانبي مكتظ جداً يمضغون بسلام الطعام الذي جلبوه معهم، في حين نجد بعيداً في الأمام، في ساحة السوق في قلب المدينة، استمرار عملية تنفيذ الإعدام بحق حاكمهم.

ثمة حكاية رمزية تصف هذا الوضع بشكل جيد: الإمبراطور، تقول الحكاية الرمزية، قد أرسل رسالة لك، الذات الذليلة، الظل غير المهم المنكمش في أبعد مسافة قبل أن تطلع الشمس الإمبراطورية. إذ إن الإمبراطور قد أرسل من فراش موته رسالة لك وحدك. وقد أمر الرسول أن يركع بجانب السرير، وهمس بالرسالة له؛ ومن ثم طالما أصاخ لها سمعه فإنه أمر الرسول بأن يهمس بها ثانية إلى أذنه. ثم بإيماءة من رأسه قد أكد بأنها صحيحة. نعم، أمام النظّارة الذين تجمهروا عند وفاته ـ هُدِمت كل الجدران المعيقة، وعلى السلالم المفتوحة الواسعة والمتزايدة بتعالٍ يقف في حلقة أمراء الإمبراطورية العظام ـ أمام هؤلاء جميعاً كان قد سلّم رسالته. ينطلق الرسول على الفور في رحلته؛ وهو رجل قوي، لا يعرف الكلل؛ وهو يدفع آناً بذراعه اليمنى، وآناً أخرى بذراعه اليسرى، فإنه يشق طريقة خلال حشد؛ وعندما يواجه مقاومة يشير إلى صدره، حيث يلمع رمز الشمس؛ وهكذا يُشَقّ له الطريق بشكل أسهل بالنسبة له من أي شخص آخر. لكن الجموع غفيرة جداً؛ إذ إن أعدادهم ليس لها نهاية. وإذا كان بمقدوره أن يصل إلى الحقول المفتوحة فما مدى السرعة التي سوف يطير بها، وقريباً بلا شك كنت تسمع دقّات قبضته المرحّبة على بابك. ولكن بدلاً عن ذلك كيف يضيّع عبثاً قوته؛ إلاّ أنه ما يزال يشق طريقه خلال غرف القصر التي لا قرار لها؛ لن يبلغ أبداً نهاية لها؛ وإذا ما نجح في ذلك فإنه لا يحظى بشيء؛ وعليه فيما بعد أن يشق طريقه أسفل السلّم؛ وإذا ما نجح في ذلك فإنه لا يحظى بشيء؛ ولا بد من عبور فناءات؛ وبعد الفناءات هناك القصر الخارجي الثاني؛ ومرة أخرى السلّم والفناءات. ومرة أخرى قصر آخر؛ وهلّم جرا لآلاف السنين؛ وإذا في نهاية المطاف تحتّم عليه أن يشق طريقه خلال البوابة الأبعد ـ ولكن لا يحدث هذا أبداً، أبداً ـ فإن العاصمة الإمبراطورية تمتد أمامه، مركز العالم، محشورة تمور برواسبها الخاصة بها. لا أحد يمكنه أن يشق طريقه هنا حتى لو كان يحمل رسالة من رجل ميت. ولكنك تجلس عند نافذتك عند حلول المساء وتتخيل ذلك بنفسك.

وبهذه الكيفية، ينظر الناس إلى الإمبراطور بيأس وأمل. فهم لا يعرفون ماذا يحكم الإمبراطور، وهناك شكوك بشأن حتى اسم السلالة. في المدرسة يُدرس الشيء الكثير عن السلالات مع تواريخ تعاقبها، لكن عدم اليقين العالمي بهذه المسألة كبير جداً لدرجة أنه جرى إشراك أفضل العلماء في هذا الأمر. يُنصب الأباطرة الذين ماتوا منذ فترة طويلة على العرش في قرانا، وأن أحدهم الذي تخلّده أغنية فقط أعلن عن اسمه مؤخراً على يد كاهن أمام المذبح. إن المعارك التي هي تاريخ قديم تعدّ جديدة بالنسبة لنا، ويندفع احد الجيران بوجه مبتشر ليسرد أخبارها. أما زوجات الأباطرة، المدللات والمغرورات، فيغوينّهن وفق عادة النبلاء الحاشيةُ الماكرون، الطافحون بالطموح، الحادّين في جشعهم، غير المسيطرين على شهواتهم، إذ لا يتوانون عن ممارسة حقاراتهم من جديد. وكلما يغوصون عميقاً في غياهب الزمن تصبح الألوان أكثر وضوحاً تلك التي ترسم فيها أفعالهم، وبصوت عالٍ من الأسى سمع قريتُنا أخيراً إمبراطورة شربت دم زوجها بجرعات طويلة منذ آلاف السنين.

وهكذا، إذن، يتعامل شعبنا مع الأباطرة الميتين، لكنهم يحسبون الحاكم الحي ضمن الأموات. لو مرة واحدة، مرة واحدة فقط في حياة المرء، وصل صدفة إلى قريتنا مسؤول إمبراطوري وهو في جولته للمقاطعات، وألقى بعض الإعلانات باسم الحكومة، وتفحّص القوائم الضريبية، وتفقّد تلاميذ المدارس، واستعلم من الكاهن فيما يتعلق بأفعالنا وشؤوننا، ومن ثم، قبل أن يستوي في عربته الصغيرة ذات العجلات، يجب أن يلخّص انطباعاته على شكل تحذيرات مطولة إلى الجموع المحتشدة ـ ثم ترتسم ابتسامة على كل وجه، والناس يرمقون بعضهم البعض من طرف خفي، وينحنون على أطفالهم حتى لا يلاحظهم المسؤول. لماذا، حسبما يظنون بينهم وبين أنفسهم، يتحدث هذا المسؤول عن رجل ميت كما لو كان على قيد الحياة، سيما وأن إمبراطوره ذاك قد توفي منذ فترة طويلة، وأن السلالة دُرست تماماً، وهذا المسؤول الطيب إنما يمزح معنا، لكننا سوف نتصرف كما لو أننا لم نلاحظ ذلك، من أجل أن لا نسيء له. إلاّ أننا لن نطيع جدياً اي أحد سوى حاكمنا الحالي، لأن عدم القيام بذلك سيكون جريمة. وخلف عربة المسؤول المغادرة يبزغ من هناك، بوصفه حاكم القرية، شخص خرج مصادفة من جرّة بعد أن تناثرت إلى تراب.

وبالمثل، فإن شعبنا لا يتأثر إلا قليلاً بالثورات في الدولة أو بالحروب المعاصرة. أتذكّر حادثة في شبابي. إذ اندلعت ثورة في المنطقة المجاورة، لكنها مع ذلك مقاطعة بعيدة جداً. لا أستطيع أن أتذكر سبب حدوثها، كما أنها ليست بذات أهمية الآن؛ حيث مناسبات وقوع الثورة يمكن وجودها هناك في أي يوم، فالناس عبارة عن شعب مهتاج. حسناً، ذات يوم ثمة منشور نشره المتمردون جلبه إلى منزل والدي متسول عَبَرَ تلك المقاطعة. صادف أن يكون يوم عيد، لذلك كانت غرفنا مكتظة بالضيوف، جلس الكاهن في المنتصف وأخذ يقرأ الورقة. فجأة بدأ الجميع في الضحك، ووسط هذا الارتباك مُزِّقت الورقة، أما المتسول، الذي على أي حال كان قد تلقى بالفعل صدقات وفيرة، أُخْرِج من الغرفة بالضربات، وتفرّق الضيوف للاستمتاع بذلك اليوم الجميل. لماذا؟ إن لهجة هذه المقاطعة المجاورة تختلف في

بعض النواحي الأساسية عن لهجتنا، وهذا الاختلاف يحدث أيضاً في بعض الانحناءات في الكلمة المكتوبة، التي تمتلك بالنسبة لنا طابعاً قديماً. ولم يكد الكاهن أن يقرأ صفحتين حتى اتخذنا قرارنا. فالتاريخ القديم اخبر منذ فترة طويلة، عن الأحزان القديمة التي التأمت حينها. وبرغم ذلك ـ هكذا يلوح لي الأمر عند تذكّره ـ فإن شناعة الحاضر المعاش نقلتها بشكل لا يقبل الجدال كلماتُ المتسول، ضحكنا وهززنا رؤوسنا ورفضنا الاستماع أكثر من ذلك. لذا فشعبنا حريص على طمس هذا الحاضر.

إذا كان يجب من خلال مثل هذه المظاهر على أي شخص استخلاص النتيجة بأنه في الواقع نحن بلا إمبراطور، فإنه لن يكون بعيداً عن الحقيقة. مراراً وتكراراً لابد أن نكرّر: ربما لا يوجد شعب أكثر اخلاصاً للإمبراطور من شعبنا في الجنوب، لكن الإمبراطور لا يستمد أية ميزة من إخلاصنا. صحيح، إن التنين المقدس يقف على العمود الصغير عند نهاية قريتنا، ومنذ بداية الذاكرة البشرية فإنه قد أطلق أنفاسه النارية باتجاه بكين إيحاءً للولاء ـ لكن بكين نفسها أغرب على الناس في قريتنا من العالم الآخر. هل يمكن أن تكون هناك حقاً قرية حيث تقف المنازل جنباً إلى جنب، مغطية جميع الحقول لمسافة أكبر من تلك التي يمكن للمرء أن يراها من خلال تلالنا، وهل يمكن أن تكون هناك حشود كثيفة من الناس محشورة بين هذه المنازل ليل نهار؟ نجد أن تصوير مدينة كهذه أصعب من الاعتقاد بأن بكين وإمبراطورها هما شيء واحد، لنقلْ، سحابة، ترتحل بسلامة تحت الشمس على مرّ العصور.

الآن نتيجة اتخاذ مثل هذه الآراء هي حياة على وجه الإجمال حرة وغير مقيدة. إنها حياة متحللة بأية حال من الأحوال؛ إذ إنني لم أجد في رحلاتي مثل هذه الأخلاق النقية كما في قريتي الأم. لكن مع ذلك هي حياة لا تخضع لأي قانون معاصر، وتهتم فقط بالعِظات والتحذيرات التي تأتي إلينا من العصور السالفة.

إنني حذر من التعميمات، ولا أؤكد بأنه في جميع العشرة آلاف قرية في المقاطعة التي أعيش فيها يكون الأمر كذلك، فهو أقل بكثير في جميع المقاطعات الصينية الخمسمائة. مع ذلك لعليّ أخاطر إذ أؤكد استناداً إلى العديد من الكتابات التي قرأتها حول هذا الموضوع، وكذلك من خلال ملاحظتي الخاصة ـ بأن بناء السور بشكل خاص، مع وجود هذه الوفرة من الإمكانيات البشرية، زوّد الإنسان العاقِل بفرصة تجاوز نفوس جميع المقاطعات تقريباً ـ وعلى أساس كل هذا، إذن، ربما أجازف في التأكيد على أن الموقف السائد للإمبراطور يظهر باستمرار وبشكل شامل شيئاً مشتركاً في جوهره مع ذلك الشيء في قريتنا. الآن ليس لدي أي رغبة مهما كان نوعها في تمثيل هذا الموقف بوصفه فضيلة؛ بل على العكس من ذلك. صحيح بأن المسؤولية الأساسية عن ذلك تقع على عاتق الحكومة، التي في أقدم إمبراطورية في العالم لم تنجح بعدُ في تطوير، أو أنها قد أهملت تطوير، مؤسسة الإمبراطورية إلى هذا الحدّ بحيث أن أعمالها تمتد بشكل مباشر ومن دون توقف إلى أبعد حدود في المعمورة. من جهة أخرى، على أي حال، هناك أيضاً ضعف إيمان وسلطة خلّاقة من جانب الشعب، تمنعهم من انتشال الإمبراطورية من ركودها في بكين وضمّها

في كل واقعها المعيشي الملموس إلى صدورهم، التي لا تريد شيئاً أفضل من أن تستشعر لمرة واحدة تلك اللمسة ومن ثم تموت.

هذا الموقف إذن هو بالتأكيد ليس فضيلة. فأبرز ما في الأمر هو أن هذا الضعف نفسه لابد أن يبدو أحد أكبر التأثيرات الموحِّدة بين شعبنا؛ بالفعل، إذا قيّض للمرء أن يستخدم هذا التعبير، فسيكون هو الأرض ذاتها التي نعيش عليها. إن الانطلاق في ترسيخ خلل أساسي هنا يعني تقويض ليس فقط ضمائرنا، ولكن، ما هو أسوأ من ذلك بكثير، {تقويض} أقدامنا. ولهذا السبب لن أمضي قدماً في هذه المرحلة في تحقيقي في هذه المسائل.

أخبار بناء السور: وصلة إضافية

دخلت أخبار بناء السور الآن إلى هذا العالم ــ في وقت متأخر، أيضاً، أي بعد ثلاثين عاماً من الإعلان عنه. كان ذلك في أمسية صيفية. كنتُ، وأنا بعمر عشر سنوات، أقف مع والدي على ضفة النهر. وتماشياً مع أهمية هذه الساعة التي أشبعت نقاشاً، أستطيع أن أتذكر أدقّ التفاصيل. كان والدي يمسك بي بإحدى يديه، وهو شيء كان مولعاً بالقيام به حتى أيامه الأخيرة، فيما كان يمرر يده الأخرى صعوداً ونزولاً على غليونه الطويل، الرقيق جداً، كما لو أنه ناي. وبلحيته المتناثرة، المتصلبة المرتفعة في الهواء، كان يستمتع بغليونه وهو يحدّق إلى الأعلى عبر النهر. ونتيجة لذلك كانت ضفيرته، وهي موضع تبجيل الأطفال، تتدلى إلى الأسفل، تحفّ بخفة على الحرير الموشى بالذهب للثوب الذي يرتديه في عطلته. في تلك اللحظة وصلت سفينة وتوقفت أمامنا، وأشار السفّان إلى والدي للنزول إلى الحاجز، بينما هو نفسه صعد نحوه. والتقيا في منتصف الطريق، همس السفّان بشيء ما في أذن والدي، من أجل أن يقترب أكثر بحيث احتضنه. لم أستطع أن أفهم ما قالاه، رأيتُ فقط بأن والدي لا يبدو أنه يصدق بالأخبار، وبأن السفّان حاول الإصرار على صحة هذه الأخبار، وأنه في الوقت الذي كان فيه أبي ما يزال يرفض تصديقها قام السفّان، بكل ما يحمله من عاطفة البحارة، بتمزيق ملابسه من صدره لإثبات الحقيقة، عند ذلك صمتَ والدي وقفز السفّان بصخب في القارب وأبحر بعيداً. وهو يستغرق عميقاً في التفكير تحوّل والدي نحوي، وأخرجَ غليونه ووضعه في حزامه، وضرب على خدي، وسحب رأسي نحوه. هذا أفضل شيء أحببته، حيث جعلني سعيداً جداً، وهكذا جئنا إلى البيت. كان هناك الأرز على الطاولة يتصاعد منه البخار، حيث تجمّع عدد من الضيوف، فيما صُبّ النبيذ في الكؤوس. مع عدم الاهتمام بأيٍّ من هذه الأمور وعدم التقدم أي خطوة أبعد من العتبة، بدأ والدي يسرد ما كان قد سمعه من قبل. ومن بين الكلمات الدقيقة التي بالطبع لا أتذكرها، ولكن نظراً للظروف الاستثنائية التي تُلقِي بسحرها حتى على الطفل، فإن المعنى أصبح واضحاً جداً بالنسبة لي بحيث أغامر مع ذلك في إعطاء تفسير ما لما قاله ابي. إنني أفعل ذلك لأنه كان سمة مميزة جداً لوجهة النظر الشعبية. قال والدي شيئاً ما من هذا القبيل: سفّان غير معروف ــ إذ إنني أعرف كل اولئك الذين يمرّون عادة من هنا، لكن هذا السفّان كان غريباً ــ قد أخبرني للتو بأن سوراً عظيماً سيتم بناؤه لحماية الإمبراطور. لأنه يبدو

بأن القبائل الكافرة، وبينهم العفاريت، غالباً ما يتجمعون امام القصر الإمبراطوري ويطلقون السهام السوداء على الإمبراطور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرفض

بلدتنا الصغيرة لا تقع على الحدود، وليس في أي مكان قريب منها؛ فهي قصية جداً عن الحدود، في الواقع، بحيث إنه ربما لم يصل إلى هناك أيّ أحد من بلدتنا؛ إذ لا بد من عبور المرتفعات المهجورة وكذلك السهول الخصبة الواسعة. بل أن تخيّل حتى جزء من الطريق يجعل المرء متعباً، كما أن هناك أكثر من جزء ليس بمقدور المرء أن يتخيله. تشخص أيضاً مدن كبيرة على الطريق، كل واحدة منها أكبر بكثير من بلداتنا. فحتى عند وضع عشر بلدات صغيرة مثل بلداتنا جنباً إلى جنب، وإنزال عشر أخَر قسراً من فوق، لا تنتج واحدة من هذه البلدات الضخمة، المكتظة بالناس. وإذا المرء لم يته وهو في طريقه فإنه لا بد أن يتيه في هذه البلدات، ومن المستحيل تجنب ذلك بسبب حجمها.

لكن ما هو أبعد من بلدتنا عن الحدود، إذا ما جرت مقارنة هذه المسافات ـ الأمر يكون مثل القول بأن رجلاً بعمر ثلاثمائة سنة أكبر من رجل بعمر مائتين ـ ما هو أبعد عن الحدود هو العاصمة. وبينما نحصل على أخبار الحروب الحدودية بين الفينة والأخرى، وعلى أخبار العاصمة فإننا لا نعرف شيئاً تقريباً ـ أقصد نحن المدنيين، فالمسؤولون الحكوميون بالطبع لديهم اتصالات جيدة جداً مع العاصمة؛ مع ذلك يمكنهم الحصول على الأخبار من هناك ليس أقل من ثلاثة أشهر، على حدّ زعمهم على الأقل.

يعدّ هذا الآن شيئاً لافتاً للنظر وأنا مندهش باستمرار من الطريقة التي نحن في بلدتنا نستسلم بكل تواضع إلى جميع الأوامر الصادرة في العاصمة. وطيلة قرون لم يحدث أي تغيّر سياسي على يد المواطنين أنفسهم. ففي العاصمة كان الحكام العظماء قد حلّ بعضهم محل الآخر ـ بالفعل، خُلعت حتى السلالات وأُبيدت، وبدأت سلالات جديدة؛ وفي القرن الماضي جرى تدمير حتى العاصمة نفسها، أُسِسَت عاصمة جديدة بعيدة عنها، وفيما بعد جرى تدمير هذه أيضاً وأعيد بناء العاصمة القديمة، مع ذلك لم يكن لأيّ من هذا التغيير أيّ تأثير على بلدتنا الصغيرة. مسؤولونا كانوا دائماً يبقون في مناصبهم؛ إذ إن المسؤولين الكبار كانوا يأتون من العاصمة، والأقل شأناً يأتون من المدن الأخرى، والأدنى يكونون من بين ظهرانينا ـ وذلك ما كان عليه الأمر دائماً والذي كان مناسباً بالنسبة لنا. إن المسؤول الأعلى رتبة هو جامع الضرائب الرئيسي، ويحمل رتبة عقيد، وهو يُعرف بذلك. العقيد الحالي هو رجل طاعن في السن؛ لقد عرفته لسنوات، لأنه كان بالفعل عقيداً عندما كنتُ طفلاً. في البداية تقدّم بسرعة كبيرة جداً في حياته المهنية، لكن فيما بعد يبدو أنه لم يتقدم أكثر من ذلك؛ في الواقع، بالنسبة لبلدتنا الصغيرة تكون رتبته مناسبة بما فيه الكفاية، حيث إن رتبة أعلى من ذلك ستكون في غير محلها. عندما أحاول أن أستذكره أراه يجلس على شرفة منزله في ساحة السوق، يميل إلى الوراء، والغليون في فمه. فوقه من السقف يرفرف العلم الإمبراطوري؛ وعلى جانبي الشرفة، التي هي كبيرة جداً بحيث تعكس مناورات عسكرية صغيرة كانت تقام هناك، يتم تعليق الغسيل من اجل ان يجف. فيما كان أحفاده، بملابسهم الحريرية الجميلة، يلهون

حوله؛ إذ لا يُسمح لهم بالنزول في ساحة السوق، فالأطفال هناك يُنظر اليهم بأنهم غير جديرين بتلك الملابس، إلاّ أن الأحفاد تستهويهم الساحة، لذلك فإنهم يدفعون رؤوسهم بين أعمدة السلّم وعندما يبدأ الأطفال في الأسفل بالشجار فإنهم ينضمّون إلى الشجار من الأعلى.

ثم يسيطر هذا العقيد على البلدة. لا أعتقد أنه قدّم وثيقة تخوّله لهذا المنصب؛ من المرجح جداً بأنه لا يمتلك مثل هذا الشيء. ربما هو حقاً رئيس جامعي الضرائب. لكن هل هذا كل شيء؟ هل يخوّله ذلك أن يحكم جميع الأقسام الأخرى في الإدارة أيضاً؟ صحيح بأن منصبه مهم جداً بالنسبة للحكومة، لكن بالنسبة للمواطنين ليس بتلك الأهمية. وهكذا يكون لدى المرء تقريباً الانطباع بأن الناس هنا يقولون: «أما وقد استوليتَ على كل ما نمتلكه، يرجى الاستيلاء علينا أيضاً». في الواقع، طبعاً، لم يكن هو مَن قبض على مقاليد الحكم، كما انه ليس بطاغية. لقد جرى على مرّ السنين بأن رئيس جامعي الضرائب هو تلقائياً المسؤول الأعلى، والعقيد يقبل بهذا التقليد تماماً مثلما نقبل به نحن.

مع ذلك فهو يعيش بيننا دون أن يضع اعتباراً كبيراً إلى منصبه الرسمي، إنه شيء مختلف تماماً عن المواطن العادي. عندما يأتي إليه وفد بطلب، يقف هناك مثل جدار العالم. لا شيء خلفه، يتخيّل المرء سماع أصوات تهمس في الخلفية، لكن هذا ربما يكون وهماً؛ برغم كل شيء، إنه يمثّل منتهى كل شيء، على الأقل بالنسبة لنا. ففي هذه الاستقبالات كان حقاً يستحق أن يراها. ذات مرة عندما كنتُ طفلاً كنتُ حاضراً عندما وصل وفد من المواطنين يطلبون دعماً حكومياً لأن أفقر حيّ في البلدة قد احترق بالكامل. كان أبي، الحداد، وهو رجل يحظى باحترام كبير في المجتمع، {كان} عضواً في الوفد وقد اصطحبني معه. ليس ثمة ما هو استثنائي في الأمر، الجميع يندفعون إلى مشاهد من هذا النوع، وليس بوسع المرء أن يميز الوفد الفعلي من الحشد. لأن حفلات الاستقبال هذه عادة ما تجري على الشرفة، فهناك أناس ممن يصعدون بواسطة السلّم من ساحة السوق ويشتركون في هذه الفعاليات من فوق الدرابزين. في هذه المناسبة جرى حجز ربع الشرفة للعقيد، فيما كان الحشد يملأ الباقي منها. واصلَ عدد قليل من الجنود المراقبة، بعضهم كان يقف حوله على شكل نصف دائرة. في الحقيقة جندي واحد يفي بالغرض، هكذا هو خوفنا منهم. لا أعرف بالضبط من أين يأتي هؤلاء الجنود، على أي حال كانوا يلوحون عن بعد، وكأنهم متشابهون على حد سواء، فهم لا يحتاجون حتى إلى بزّة موحدة. فهم أناس صغار، وليسوا أشدّاء بل خفيفو الحركة، والشيء المميز حولهم هو بروز أسنانهم التي تزدحم تقريباً في أفواههم، وارتعاشة قلقة لعيونهم الضيقة الصغيرة. وهذا ما يجعلهم مصدر رعب لدى الأطفال، ولكن أيضاً مصدر فرحهم، لأنه مراراً وتكراراً يتوق الأطفال ليستشعروا الخوف بسبب هذه الأسنان، وهذه العيون، حتى يكونوا قادرين على الهرب رعباً.

وحتى الكبار ربما لا يفقدون تماماً هذا الرعب الطفولي، على الأقل فإنه ما يزال له تأثير ما. هناك، بالطبع، عوامل أخرى تسهم في ذلك. فالجنود يتحدثون بلهجة غير مفهومة تماماً بالنسبة لنا، ولذلك فأنها لا تنسجم مع لهجاتنا ــ فجميعها تنتج توقفاً

معيناً، وهي صفة عصبية تتطابق، كما تشاء الصدف، مع شخصياتهم، لأنهم صامتون، وجديون، وصارمون. هم في الحقيقة لا يفعلون أي شيء شرير، ومع ذلك فهم غالباً لا سبيل إلى تحمّلهم بكل ما يحمله معنى الشر. على سبيل المثال، يدخل جندي متجراً، ويشتري شيئاً تافهاً، ويبقى هناك مستنداً إلى الدُرج؛ إذ إنه يستمع إلى المحادثات، على الأرجح لا يفهم شيئاً منها، ومع ذلك يعطي الانطباع بأنه يفهم؛ هو نفسه لا يتفوّه بكلمة، فقط يحدّق ببلاهة في وجه المتكلم، ثم يعود مرة أخرى إلى المستمعين، وطوال هذا الوقت كان يُبقي يده على مقبض سكين طويلة في حزامه. وهذا شيء مثير للاشمئزاز، أن يفقد المرء الرغبة في الحديث، ويبدأ الزبائن بترك المحل، ولا يغادر هذا الجندي إلاّ عندما يكون المحل فارغاً تماماً. وهكذا، حيثما يظهر الجنود، يجنح أُناسنا الحيويون إلى الصمت. هذا ما حدث هذه المرة أيضاً. إذ في جميع المناسبات الرسمية كان العقيد يقف في وضع مستقيم، حاملاً أمامه قضيبي خيزران في يديه الممدودتين. هذا هو عرف قديم يشير تقريباً إلى أنه يدعم القانون، وأن القانون يدعمه. الآن يعلم الجميع، بطبيعة الحال، ماذا يتوقعون على الشرفة، ومع ذلك في كل مرة ينتاب الناس الخوف من جديد. في هذه المناسبة أيضاً، فإن الرجل الذي أُختير للكلام لم يتمكن أن يبدأ بالحديث؛ إذ كان يقف مقابل العقيد عندما خانته شجاعته وقفل راجعاً مرة إلى الحشد وهو يتمتم ببعض عبارات الاعتذار. ولم يجدوا شخصاً مناسباً آخر مستعداً للتحدّث، على الرغم من أن العديد من الأشخاص غير المناسبين عرضوا أنفسهم لتلك المهمة؛ فتبع ذلك ضجة كبيرة وجرى إرسال رُسل بحثاً عن مواطنين مختلفين ممن كانوا متحدثين معروفين. أثناء هذا الوقت كان العقيد يقف هناك بلا حراك، إلاّ صدره يتحرك بشكل ملحوظ صعوداً ونزولاً على ايقاع تنفسه. ليس لأنه يتنفس بصعوبة، إنه مجرد كان يتنفس بشكل واضح جداً، كما تتنفس الضفادع ـ خلا أن ذلك يكون أمراً عادياً معها، في حين كان هنا استثنائياً مع العقيد. حشرتُ نفسي خلال الكبار وشاهدته عبر فجوة بين جنديين، حتى ركلني أحدهما بعيداً بركبته. في الوقت نفسه استعاد الرجل الذي اختير أصلاً للكلام رباطة جأشه و، بينما حمله بحزم اثنان من مواطنيه، أخذ يلقي خطابه. إنه لأمر مثير إذ تراه يبتسم طوال هذا الخطاب المهيب وهو يصف سوء الحظ الشديد ـ ابتسامة أكثر تواضعاً كان يسعى من خلالها دون جدوى إلى انتزاع أقل ما يمكن ردة فعل على وجه العقيد. وأخيراً صاغ الطلب ـ أعتقد أنه كان يطلب فقط إعفاء ضريبياً لمدة عام، ولكن ربما أيضاً يطلب الأخشاب من الغابات الملكية بسعر مخفض. ثم انحنى إلى الأسفل، وبقي على هذه الحال لبعض الوقت، كما كان يفعل الجميع باستثناء العقيد، والجنود، وعدد من المسؤولين في الخلفية. بالنسبة إلى الطفل بدا الأمر سخيفاً بأن الناس على السلالم ينبغي أن تنزل إلى الأسفل بضع درجات حتى لا يمكن رؤيتها أثناء الوقفة الكبيرة وهم بين الفينة والأخرى يحدّقون بفضول على أرضية الشرفة. بعد أن استمر هذا فترة لابأس بها من الزمن، سارعَ مسؤول، وهو رجل قصير، إلى العقيد وحاول الوصول إلى قامة الأخير عن طريق الوقوف على أصابع قدميه. همس العقيد، الذي ما يزال واجماً باستثناء تنفسه العميق، شيئاً في أذنه، وعلى إثر ذلك صفّق الرجل القصير له واشرأبّ الجميع. ثم أعلن، «رُفِض الالتماس. يمكنكم الانصراف». سرى شعور بالراحة لا يمكن إنكاره

بين الحشد، وخرج الجميع، دون أن يولي أي شخص اهتماماً خاصاً بالعقيد، الذي، إذا جاز التعبير، قد تحوّل مرة أخرى إلى إنسان مثلنا. ما زلت استرق آخر نظرة له عندما مرّ عبر قضيبي الخيزران، اللذان سقطا على الأرض، ثم غرق في كرسيٍّ قدّمه بعض المسؤولين، ووضع على الفور غليونه في فمه.

هذه الحادثة برمتها ليست بمعزل عن أخواتها، فهي تجري في الخضم العام للأشياء. فعلاً، يحدث بين الفينة والأخرى أن تُقدم التماسات بسيطة، لكن بعد ذلك دائماً ما يبدو الأمر كما لو أن العقيد قد فعل ذلك بوصفه شخصاً قوياً على مسؤوليته، وكان يجب أن يبقى الأمر كله سراً عن أعين الحكومة ـ ليس بشكل جليّ بالطبع، ولكن هكذا يبدو. ولا شك في بلدتنا الصغيرة تكون عينا العقيد، على حدّ علمنا، هما أيضاً عينيّ الحكومة، ومع ذلك هناك فرق من المستحيل فهمه تماماً.

على أي حال، في جميع المسائل الهامة، يعوّل المواطنون دائماً على الرفض. والآن الحقيقة الغريبة هي أنه من دون هذا الرفض لا يمكن للمرء أن يجاري الوضع بيسر، مع ذلك وفي الوقت نفسه فإن هذه المناسبات الرسمية المخصصة لتلقّي الرفض هي على الإطلاق تعدّ من الشكليات. فكم من مرة يذهب المرء هناك مليئاً بالتوقعات وبكل جدية ومن ثم يعود أدراجه، إن لم يكن بالضبط نشيطاً أو سعيداً، مع ذلك ليس خائباً أو متعباً. وحول هذه الأشياء عليّ أن لا أطلب رأي أي شخص آخر، فأنا أستشعرها في نفسي، كما يستشعرها الجميع؛ كما ليست لدي أية رغبة كبيرة في معرفة كيف ترتبط هذه الأشياء.

في الحقيقة توجد، بقدر ما تذهب إليه ملاحظاتي، فئة عمرية معينة ليست مقتنعة ـ هؤلاء هم الشباب تقريباً بين سبع عشرة وعشرين سنة. زملاء يفيضون شباباً، في الواقع، هم تماماً غير قادرين على التنبؤ بعواقب حتى أقل الأفكار أهمية، وأقلها ثورية. وبينهم فقط يتسرب السخط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فنان الجوع

اثناء العقود الماضية هذه تضاءل الاهتمام بالصيام الاحترافي بشكل ملحوظ. لقد جرت العادة على الدفع ببذخ للقيام بمثل هذه العروض الكبيرة تحت إدارة المرء، لكن اليوم يكون هذا الأمر مستحيلاً تماماً. نحن نعيش في عالم مختلف الآن. ذات يوم كانت البلدة كلها مهتمة اهتماماً كبيراً بفنان الجوع؛ ويوماً بعد يوم من صومه تزداد الإثارة؛ حيث كان الجميع يتوقون إلى رؤيته مرة واحدة في اليوم على الأقل؛ كان هناك أشخاص ممن اشتروا تذاكر الموسم طيلة الأيام القليلة الماضية وجلسوا من الصباح حتى الليل أمام قفصه الصغير ذي القضبان؛ حتى في الليل كانت ثمة ساعات للزيارة، عندما كان التأثير كله يشتد بفعل المشاعل الضوئية؛ وفي الأيام الجميلة كان يوضع القفص في الهواء الطلق، ومن ثم كان من دواعي سرور الأطفال رؤية فنان الجوع؛ وبالنسبة لشيوخهم كان في كثير من الأحيان مجرد مزحة صادف أن تبقى شاخصة، لكن الأطفال وقفوا مشدوهين، وهم يحملون أيادي بعضهم بعضا من أجل المزيد من الأمان، متعجبين منه بينما كان يجلس هناك مصفرًّا في جوارب سوداء طويلة ضيقة، وتبرز أضلاعه بشكل ملحوظ، ليس فقط على المقعد ولكن إلى الأسفل بين القش على الأرض، تندّ عنه أحيانا إيماءة مهذبة، وهو يجيب عن الأسئلة بابتسامة مكبوتة، أو ربما يمدّ إحدى ذراعيه من خلال القضبان بحيث يمكن للمرء أن يشعر كم كان نحيفاً، وبعد ذلك ينسحب مرة أخرى عميقاً صوب نفسه، دون إيلاء أي اهتمام إلى أي شخص أو إلى أي شيء، ولا حتى إلى الدقات المهمة للساعة التي كانت تمثل قطعة الأثاث الوحيدة في قفصه، لكنه فقط يقوم بالتحديق في الفراغ بعينين شبه مغلقتين، محتسياً بين الفينة والفينة رشفة من كوب صغير من الماء لترطيب شفتيه.

وفضلاً عن المتفرجين الطارئين كان هناك أيضاً مجاميع أُخرى من المشاهدين الدائميين الذين اختارهم الجمهور، وهم عادة الجزارون، وهذا ما يثير الغرابة جداً، حيث تمثّلت مهمتهم بمراقبة فنان الجوع ليل نهار، ثلاثة منهم في كل مرة، في حالة لجأ سراً إلى الطعام. لم يكن هذا سوى إجراء شكليّ، وُضع من أجل طمأنة الجماهير، لأن المطلعين كانوا يعرفون جيداً بما فيه الكفاية بأنه أثناء صيامه لم يقدم الفنان أبداً تحت أي ظرف من الظروف، ولا حتى تحت الإكراه القسري، على ابتلاع أصغر لقمة من الغذاء؛ إذ إن شرف مهنته نهاه عن ذلك. ولم يكن كل مشاهد، بالطبع، قادراً على فهم هذا، بل كانت هناك في كثير من الأحيان مجاميع من الحرّاس الليليين الذين كانوا متساهلين جداً في أداء واجباتهم ومتجمعين عمداً سوية في ركن منزوٍ للعب الورق بانهماك كبير، من الواضح أنهم ينوون إعطاء فنان الجوع فرصة للقليل من المرطبات، التي افترضوا بأنه يمكن أن يسحبها من مخزن خاص. لا شيء كان يزعج الفنان أكثر من هؤلاء الحرّاس؛ فقد جعلوه تعيساً؛ إذ جعلوا صومه يبدو لا يطاق؛ وأحيانا كان يتغلّب على وهنه بشكل كبير بالغناء أثناء مراقبتهم لطالما إن بإمكانه الاستمرار، ليريهم كم ظالمة كانت شكوكهم. لكن هذا كان بلا أدنى فائدة؛ وأخذتْهم الدهشة لذكائه في القدرة على ملء فمه حتى أثناء

الغناء. وكان المراقبون تماماً حسب هواه، هؤلاء المراقبون الذين جلسوا بالقرب من القضبان، والذين لم يكونوا مقتنعين بالإضاءة الليلية الخافتة للقاعة إلاّ أنهم كانوا يركزون عليه وسط الوهج الكبير لمصباح الجيب الكهربائي الذي أعطاه إياهم متعهد الحفلات. لم يكن الضوء الشديد يزعجه على الإطلاق، على أي حال لم يكن بمقدوره أن ينام بشكل جيد، ودائماً ما كان يشعر بالنعاس قليلاً، مهما كان الضوء، في أية ساعة، حتى عندما كانت القاعة تعجّ بالمتفرجين الصاخبين. كان سعيداً جداً لاحتمال قضاء ليلة مسهّدة مع هؤلاء المراقبين؛ كان على استعداد لتبادل النكات معهم، وسرد قصص لهم من وحي حياته البدوية، أي شيء على الإطلاق من أجل أن يبقيهم مستيقظين ويُظهر لهم مرة أخرى بأنه لم يكن لديه ما يأكله في قفصه وأنه كان يصوم بينما لا أحد منهم يستطيع الصيام. لكن أسعد لحظاته كانت عندما حلّ الصباح وجيء لهم بإفطار يفوق الوصف، على حسابه، حيث انكبّوا عليه بالرغبة الشديدة الخليقة بالرجال الأصحاء بعد ليلة قلقة من السهاد. بالطبع كان هناك أشخاص ممن جادلوا بأن هذا الإفطار هو محاولة غير عادلة لرشوة المراقبين، لكن ذلك اخذ مديات بعيدة جداً، وعندما جرت دعوتهم لقضاء ليلة مسهّدة من دون إفطار، فقط من أجل القضية، تسرَّب الرعب إلى نفوسهم، برغم أنهم تشبّثوا بعناد بشكوكهم.

هذه الشكوك، على أي حال، كانت ضيفاً ضرورياً لمهمة الصيام. إذ لا أحد يقدر على مشاهدة فنان الجوع بشكل مستمر، ليل نهار، ومن ثم لا يمكن لأي أحد أن يُعطي دليلاً مباشراً على أن الصيام كان حقاً شديداً ومستمراً؛ لا يعلم ذلك إلاّ الفنان نفسه، لذلك كان من الضروري أن يكون هو المتفرج الوحيد المقتنع تماماً بصيامه. ولكن لأسباب أخرى لم يكن راضياً ابداً؛ فإنه لربما ليس مجرد الصيام هو الذي أحاله إلى مثل نحافة الهيكل العظمي هذا بحيث إن كثيراً من الناس للأسف تحتَّم عليها الابتعاد عن مرآه، لأن رؤيته كانت تعني الكثير بالنسبة لهم، ربما كانت عدم قناعته بنفسه هي التي أرهقتْه. لأنه كان وحده يعرف، ما لم يعرفه المطلعون الآخرون، {يعرف} كم كان الصيامُ سهلاً.

كان أسهل شيء في العالم. إنه لم يخفِ هذا، مع ذلك لم يصدقه الناس، ففي أفضل الأحوال أنزلوه منزلة المتواضع، ومعظمهم، على أي حال، ظنّ بأنه ظهر إلى الخارج من أجل الدعاية وإلاّ كان ذلك نوعاً من الخداع إذ وجد من السهل الصيام كونه قد اكتشف طريقة ما لجعله يسيراً، ومن ثم تملّكتْه الوقاحة ليعترف بالحقيقة، على أقل تقدير. كان عليه أن يتحمّل كل ذلك، وبمرور الزمن اعتاد على الأمر، لكن عدم ارتياحه الداخلي دائماً ما كان يجيش في صدره، ولم يسبق له لحد الآن، بعد أية مدة من الصوم ـ وهذا لابد أن يضاف إلى رصيده ـ أن يترك القفص من تلقاء نفسه. إن أطول فترة من الصيام حدّدها متعهد الحفلات في أربعين يوماً، ومن دون إكمال تلك المدة لم يُسمحْ له بالذهاب، ولا حتى في المدن الكبرى، وثمة سبب وجيه لذلك أيضاً. إذ أثبتت التجربة بأنه طيلة حوالي أربعين يوماً كان بالإمكان استمالة اهتمام الجمهور من خلال الضغط المتزايد باطراد للإعلان، لكن بعد ذلك بدأت المدينة تفقد الاهتمام، وبدأ الدعم المتعاطف ينخفض بشكل ملحوظ؛ حيث كانت

هناك بالطبع تنويعات محلية بين بلدة وأخرى أو بين بلد وآخر، ولكن كقاعدة عامة دلّتْ فترة الأربعين يوماً على أنها الحد الأقصى لذلك. لهذا في اليوم الأربعين فُتح القفص الموشّى بالزهور، وغصّت القاعة بالمتفرجين المتحمسين، وعزفت الفرقة العسكرية، ودخل القفص طبيبان لقياس نتائج الصوم، التي جرى الإعلان عنها عبر مكبّر للصوت، وأخيراً ظهرت سيدتان شابتان، تغمرهما البهجة لاختيارهما لهذا الشرف، لمساعدة فنان الجوع أن ينزل الخطوات القليلة المؤدية إلى طاولة صغيرة نُشِرت عليها وجبة طعام خاصة للمرضى اختيرت بعناية. وفي هذه اللحظة بالذات كان الفنان دائماً يظهر العناد. صحيح بأنه سلّم ذراعيه النحيلتين إلى أيدي السيدتين الممدودة للمساعدة والمنحنيتين عليه، لكنه لا يقوى على الوقوف. لماذا يتوقف عن الصيام في هذه اللحظة بالذات، بعد مرور أربعين يوماً على هذا الصيام؟ كان قد صمد لفترة طويلة، فترة طويلة غير متناهية؛ فلماذا يتوقف الآن، سيما وهو في أفضل حالات صيامه، أو بالأحرى، لم يكن بعدُ في أفضل حالات صيامه؟ لماذا عليه أن ينخدع بالشهرة التي سوف يحصل عليها بالصيام لفترة أطول، وبكونه ليس فنان الجوع الوحيد الذي ضرب رقماً قياسياً على مرّ العصور، والذي يُفترض أنه أصبح كذلك بالفعل، ولكن بتحطيم رقمه الخاص بأداءٍ يتجاوز التصوّر البشري، لأنه شعر بعدم وجود حدود لقدرته على الصيام؟ تظاهرَ الجمهور بإعجابهم الكبير به، فلماذا لا ينبغي له أن يتجمّل بشيء من الصبر؛ إذا كان باستطاعته تحمّل الصيام لفترة أطول، فلماذا لا ينبغي أن يتحمل الجمهور ذلك؟ أضف إلى ذلك، أنه كان متعباً، وكان يشعر بالراحة بجلوسه في القش، والآن كان من المفترض أن يرفع نفسه على طول قامته وينكبّ على وجبة الغذاء التي مجرد التفكير بها كان يجعله يشعر بالغثيان لم يمنعه من إظهاره سوى وجود السيدتين، وحتى ذلك تطلّب منه جهداً.

ثم تطلّع في عيون السيدتين اللتين كانتا على ما يبدو ودودتين جداً لكنهما في الواقع قاسيتين إلى أبعد حد، وهزّ رأسه، الذي شعر بأنه ثقيلاً جداً على رقبته الخائرة القوى. لكن بعد ذلك حدث هناك مرة أخرى ما كان يحدث دائماً في كل مرة. وتقدم متعهد الحفلات إلى الأمام، من دون أية كلمة ـ لأن الفرقة جعلت الكلام مستحيلاً ـ ورفع ذراعيه في الهواء فوق الفنان، كما لو أنه يدعو السماء للنظر إلى مخلوقها هنا الرابض في القش، هذا الشهيد المكابِد، الذي كان كذلك بالفعل، ولو بمعنى آخر تماماً؛ أمسكه من خصره الهزيل، بحذر مبالغ فيها، من أجل تقدير ضعف حالته؛ ووضعه تحت رعاية السيدتين المتأففتين، ليس من دون أن يهزه سراً بحيث تمايلت وتأرجحت ساقاه وبدنه. الفنان الآن قد استسلم تماماً؛ إذ تدلّى رأسه على صدره وكأنه هبط هناك بالصدفة؛ وغدا بدنه مجوفاً؛ وساقاه المتشنجتان التصقتا ببعضهما بعضا عند الركبتين، مع ذلك كانت تخطان على الأرض كما لو أنها لم تكن أرضاً صلبة حقاً، وكأنهما تحاولان إيجاد أرض صلبة؛ بينما الوزن الكامل لجسمه، وهو وزن الريشة على كل حال، تداعى على إحدى السيدتين، التي، بينما هي تفتش حولها طلباً للمساعدة وتلهث قليلاً ـ منصب الشرف هذا لم تكن على الإطلاق قد توقّعتْه ـ مدّت رقبتها أولاً بقدر ما تستطيع لتُبقي على وجهها على الأقل بمنأى من الاتصال بالفنان، ولكونها وجدت ذلك مستحيلاً، ولعدم مجيء رفيقتها الأوفر حظاً

لتقديم المساعدة لها والتي حملت بيدها المرتجفة المجموعة الصغيرة من عظام المفاصل التي تعود للفنان، ووسط فرحة المتفرجين الكبيرة انفجرت باكية وكان لا بد من استبدالها بمرافق كان لفترة طويلة واقفاً رهن الإشارة. ثم جاء الطعام، استطاع متعهد الحفلات أن يُدخل القليل منه بين شفتَي الفنان، بينما كان يجلس في شبه غيبوبة، بمصاحبةِ طقطقة بهيجة مصممة لصرف انتباه الجمهور عن حالة الفنان؛ بعد ذلك، جرى شرب نخب الجمهور، الذي من المفترض أن يزيد في حدته الهمس الصادر من الفنان في أذن متعهد الحفلات؛ وعضّدت الفرقة ذلك بنفخ قوي من الأبواق، فذاب المتفرجون، ولا أحد لديه أي سبب ليكون غير راضٍ بالإجراءات، لا أحد سوى فنان الجوع نفسه، هو فقط، كما هو الحال معه دائماً.

لذلك عاش لسنوات عديدة، وبفترات منتظمة قصيرة من النقاهة، في مجدٍ واضح للعيان، يبجّله العالم، ولكن على الرغم من ذلك كان مضطرباً من حيث الروح، بل كان الأكثر اضطراباً لأنه لا أحد يأخذ مشكلته على محمل الجد. إذن ما العزاء الذي يمكن أن يكون بحاجة إليه؟ وما الذي يمكن أن يرغب فيه؟ وإذا كان هناك شخص ما دمث الخلق، يشعر بالأسى عليه، حاولَ أن يواسيه من خلال الإشارة إلى أن حزنه ربما كان سببه الصيام، فإنه يمكن أن يحدث، خصوصاً عندما كان يصوم لبعض الوقت، بأن تكون ردة فعله بسورة غضب ورعب عام يأخذ بزعزعة قضبان قفصه مثل حيوان بري. مع ذلك، فإن لدى متعهد الحفلات طريقته في الاقتصاص من سورات الغضب هذه التي كان يتمتع في وضعها حيّز التنفيذ. وكان سيعتذر علناً عن سلوك الفنان، الذي كان لابد من الصفح عنه، حسبما أعترفَ، بسبب الهياج الناجم عن الصيام؛ وهو ظرف لا يمكن أن يفهمه الناس حسنو التغذية؛ ثم ومن خلال الانتقال الطبيعي مضى إلى ذكر تفاخر الفنان الذي لا يُعرف كنهه بالمرة بأنه يمكن أن يصوم لفترة أطول بكثير مما كان يفعل؛ وقد أشاد بالطموح العالي، وحسن النية، ونكران الذات الكبير المضمر بلا شك في مثل هذه العبارة؛ ومن ثم ببساطة تامة مقابلة ذلك عن طريق إبراز الصور، التي كانت هي الأخرى للبيع للجمهور، حيث تُظهر الفنان في اليوم الأربعين من الصيام مضطجعاً في الفراش ميتاً تقريباً من الإعياء. انحراف الحقيقة هذا، برغم أنه كان مألوفاً لدى الفنان، فقد كان دائماً يثير أعصابه من جديد وكانت تعني الكثير بالنسبة له. وما كان يعدّ نتيجة لإنهاء صيامه قبل الأوان جرى تقديمه هنا على أنه سبب لذلك! إن الوقوف ضد قلة الفهم هذا، ضد عالم كامل من عدم الفهم، كان مستحيلاً. إذ كان يقف مراراً وتكراراً بحسن نية بجانب القضبان يستمع إلى متعهد الحفلات، لكن حالما ظهرت الصور فإنه درج دائماً على الذهاب والعودة ثانية إلى قشه، وكان يمكن للجمهور المطمئن أن يقترب مرة أخرى ويحدّق فيه.

بعد بضع سنوات عندما قام شهود هذه المشاهد بإعادتها إلى الأذهان، كثيراً ما فشلوا في فهم أنفسهم بالمرة. لأنه في الوقت الذي استمر فيه التغيّر المذكور أعلاه في الاهتمام العام؛ الذي بدا أنه يحدث تقريباً بين عشية وضحاها؛ فإنه ربما كانت أسباب عميقة لذلك، لكن من ذا الذي كان سيتجشم عناء ذلك؛ على أية حال وجد فنان الجوع المدلل نفسَه على حين فجأة وقد هجره في يوم من الأيام الصافية طالبو

التسلية، الذين ذهبوا يتدفقون من أمامه إلى مناطق أخرى أكثر جذباَ. للمرة الأخيرة أسرع به متعهد الحفلات في نصف أوروبا لاكتشاف ما إذا كان الاهتمام القديم مازال يحيى هنا وهناك؛ كل شيء كان بلا طائل؛ في كل مكان، كما لو أن الأمر جرى باتفاق سريّ، كان نفور إيجابي من الصيام المهني جلياً. بالطبع بأن ذلك لا يمكن حقاً أنه ظهر بشكل مفاجئ جداً، كما أن العديد من الأعراض التحذيرية التي لم يتم ملاحظتها بما فيه الكفاية أو قمعها عبر فورة النجاح وبريقه جاءت {أي الأعراض} الآن بأثر رجعي إلى الذهن، لكن الآن قد فات الأوان لاتخاذ أية تدابير مضادة. الصيام بالتأكيد سيصبح رائجاً مرة أخرى في وقت ما في المستقبل، إلاّ أن ذلك لم يكن مناسباً لأولئك الذين يعيشون في الحاضر. إذن، ما الذي كان سيفعله فنان الجوع؟ لقد أشاد به الآلاف في وقته ولم ينزل لعرض نفسه في كشك الشارع في معارض القرية، أما بالنسبة لاعتماد مهنة أخرى، فإنه لم يكن فقط مسنًّا جداً بالنسبة لتلك المهمة ولكن أيضاً كان مكرساً بشكل متعصب للصيام. لذلك أخذ إجازة من متعهد الحفلات، شريكه في مهنة لا مثيل لها، واستأجر hire نفسه إلى سيرك كبير؛ ومن أجل إنقاذ مشاعره فقد تجنَّب قراءة شروط عقده.

سيرك كبير بحركته الهائلة في استبدال وتجنيد الرجال، والحيوانات، وهذا الجهاز يمكنه دائماً أن يجد وظيفة للناس في أي وقت، حتى بالنسبة لفنان الجوع، بشرط طبعاً أنه لا يسأل كثيراً، وفي هذه الحالة بالذات على أي حال لم يكن فقط الفنان الذي جرى أخذه ولكن ايضاً اسمه الشهير والمعروف منذ فترة طويلة، في الواقع من أجل النظر في الطبيعة الغريبة لأدائه، الذي لم يُضعفه التقدم في السن، ربما يكون الاعتراض هنا بأن ثمة فناناً تجاوز ريعان صباه، لم يعد في ذروة مهاراته المهنية، يسعي إلى ملجأ في ركن هادئ نوعاً ما في السيرك؛ على العكس من ذلك، فقد جزم فنان الجوع بأنه كان بوسعه أن يصوم إلى أي وقت يشاء، وهذا أمر قابل للتصديق تماماً، بل أنه حتى زعم بأن لو سُمح له بالصيام كما يحلو له، وهو شيء أعطي له من دون أي لغط، لكان بإمكانه أن يُذهل العالم عبر تسجيل رقم قياسي لم يتحقق بعد، وهذه عبارة أثارت بالتأكيد ابتسامة بين المهنيين الآخرين، لأنها أسقطت من الحساب التغيير الذي طرأ على الرأي العام، الذي نسيه فنان الجوع بعد فترة قصيرة في غمرة حماسه.

لكنه لم يفقد في الواقع إحساسَه بالوضع الحقيقي وعدّه أمراً طبيعياً بأنه هو وقفصه يجب أن يوضعا، ليس في منتصف الحلبة كعامل جذب رئيسي، ولكن في الخارج، بالقرب من أقفاص الحيوانات، في موقع يكون رغم كل شيء سهل الوصول إليه بيسر. لقد صنعتْ لافتات كبيرة ومرسومة بفرح إطاراً للقفص وأعلنت ما كان موجوداً داخله. عندما جاء الجمهور وهم يحتشدون في فترات الاستراحة لرؤية الحيوانات، فإنه لا يمكنهم تجنب المرور بقفص فنان الجوع والوقوف هناك للحظة، ولربما أنهم مكثوا لفترة أطول لولا أولئك الذين يزاحمونهم من الخلف في الممر الضيق، والذين لم يفهموا لماذا ينبغي لهم أن يتوقفوا وهم في طريقهم نحو رؤية الإثارات في حديقة الحيوانات، قد جعلوا من المستحيل على أي شخص أن يقف بهدوء لأي فترة من الزمن. كان ذلك هو السبب في أن فنان الجوع، الذي كان

بطبيعة الحال يتطلع إلى ساعات الزيارة هذه بوصفها الإنجاز الرئيسي لحياته، بدأ بدلاً من ذلك يضيق ذرعاً منهم. في البداية لم يكن بمقدوره أن ينتظر فترات الاستراحة؛ إذ كان مبهجاً له مشاهدة الحشود تأتي متدفقة في الطريق، إلى وقت قريب جداً ـ إذ حتى أكثر عمليات خداع الذات عناداً، المتشبث بها بشكل واعٍ تقريباً، لا يمكنها أن تصمد بوجه الحقيقة ـ فالقناعة التي يحملها هي أن هؤلاء الناس، معظمهم، الذين يحكم عليهم من أفعالهم، المرة تلو الأخرى، من دون استثناء، كانوا جميعاً في طريقهم إلى حديقة الحيوانات. حيث إن مسألة رؤيتهم الأولى عن بعد بقيت الأجمل. لأنهم عندما وصلوا إلى قفصه صمّتْه في الحال عاصفة الصياح والإساءة التي تصاعدت من الفصيلين المتصارعين، الذين كانا يجددان انفسهما باستمرار، ممن أراد التوقف والتحديق فيه ـ إذ سرعان ما بدأ يكرههم أكثر من الآخرين ـ ليس بسبب دافع حقيقي ولكن فقط بسبب إصرار ذاتي معاند، و{من} أولئك الذين أرادوا الذهاب مباشرة إلى الحيوانات. عندما مرّت أول دفعة كبيرة، جاء المتشردون، وهؤلاء، الذين لا شيء كان يمكن أن يمنعهم من الوقوف والنظر إليه طالما كان عندهم عرق ينبض، تسابقوا بخطوات طويلة، من دون حتى أن يحدّقوا فيه، وهم يقذون الخطى للوصول إلى حديقة الحيوانات في الوقت المناسب. ونادراً ما كان يحدث بأن لديه ضربة حظ، عندما كان ربّ أسرة يصل قبالته مع أولاده، ويشير بإصبعه إلى فنان الجوع، ويوضح بالتفصيل الممل ما كانت تعنيه تلك الظاهرة، وهم يقصّون قصصاً من السنوات السالفة عندما كان هو نفسه قد شاهد عروضاً مماثلة لكنها أكثر إثارة، بينما الأطفال، لا يزالون غير واعين لذلك إلى حد ما، لأنهم لم يكونوا قد استعدّوا بما فيه الكفاية لا داخل المدرسة ولا خارجها لهذا الدرس ـ ما الذي كانوا يهتمون به عن الصوم؟ ـ مع ذلك ظهرَ في بريق عيونهم المنتبهة بأن أوقاتاً جديدة وجميلة قد تلوح في الأفق. قال فنان الجوع لنفسه في كثير من الأحيان، ربما تتحسّن الأشياء قليلاً لو وُضِعَ قفصه ليس قريباً تماماً من حديقة الحيوان. وهذا ما جعل من السهل جداً على الناس أن يختاروا، وأن لا يتفوهوا بأي شيء مما كان يعانيه من رائحة حديقة الحيوانات، وهياج الحيوانات ليلاً، وعمليات جلب كتل اللحم النيّئة للكواسر، وهديرها في أوقات التغذية، والذي كان يصيبه بالاكتئاب باستمرار. لكنه لم يجرؤ على تقديم شكوى إلى الإدارة؛ برغم كل شيء، كان عليه أن يشكر الحيوانات على حشود الناس الذين مرّوا من أمام قفصه، الذين من بينهم قد يكون هناك دائماً هنا وهناك ممن يُظهر الاهتمام به، والذي يمكن أن يروي أين عزلوه إذا ما استرعى الانتباه إلى وجوده ومن ثم إلى حقيقة أنه، بكل دقة، كان مجرد عقبة على الطريق المؤدية إلى حديقة الحيوانات.

عقبة صغيرة، مما لا شك فيه، تلك التي أصبحت اقلّ بكثير. فقد أصبح الناس يألفون الفكرة الغريبة بأنه من المتوقع، في مثل هذه الأوقات، أن يُظهروا اهتماماً في فنان الجوع، وبهذه الألفة خرج الحكم ضده. قد يصوم بقدر ما يستطيع، وهو فعل ذلك؛ لكن لا شيء يمكن أن ينقذه الآن، فالناس كانت تمرّ عليه مرور الكرام. بمجرد محاولتهم شرح فن الصيام لأي شخص! فأي شخص ممن ليس لديه أي شعور بذلك لا يمكن أن يفهم الأمر. فاللافتات الجميلة غدت متسخة وغير مقروءة، واهترأت؛ كما أن لوحة الإعلانات الصغيرة التي تُخبر عدد أيام الصيام المتحققة، التي كانت

في البداية تتغير بعناية كل يوم، قد بقيت طويلاً على الرقم نفسه، لأنه بعد الأسابيع القليلة الأولى بدت حتى هذه المهمة الصغيرة لا طائل منها بالنسبة للعاملين؛ وهكذا استمر الفنان ببساطة على صيامه يوماً بعد يوم، كما كان يحلم بهذا ذات مرة، ولم يكن هذا الأمر يسبب له أية مشكلة، تماماً كما كان دائماً يتنبأ بهذا، لكن لا أحد كان يحسب الأيام، لا أحد، ولا حتى الفنان نفسه، يعرف الأرقام التي كان يحطّمها، وأصبح قلبه مهموماً. وعندما كان يتوقف أحد المارّة المترفين لبرهة، فإنه يستأنس بالرقم القديم الموجود على لوحة الإعلانات، ويتحدث عن الاحتيال، الذي كان بصيغته هذه يُعدّ أغبى كذبة اخترعتها اللامبالاة والخبث المتأصل، لأنه ليس فنان الجوع مَن كان يغش، فقد كان يعمل بصدق، لكن العالم يغشه بمكافأته.

وانصرمت أيام أخرى كثيرة، على أي حال، ووصلت أيضاً إلى نهايتها. وقعت عين المراقب على القفص ذات يوم وسأل المرافقون لماذا ينبغي لهذا القفص الجميل أن يُترك واقفاً هناك بلا استخدام والقش القذر داخله؛ لا أحد يعرف، حتى تذكر أحد الأشخاص، ساعدتْه لوحة الإعلانات، {تذكّر} فنانَ الجوع. أخذوا ينكزون في القش بالعصي ووجدوه فيه. «هل ما زلتَ صائماً؟» سأل المشرف، «متى تتوقف بحق السماء؟» «اغفروا لي، جميعكم»، همس فنان الجوع؛ ولم يفهمْه سوى المراقب، الذي كان يضع أُذنه على القضبان. «بالطبع»، قال المراقب، وربت على جبهته بأحد أصابعه ليسمح للحضور بالتعرف على الحالة التي كان يعيشها الرجل، «نحن نغفر لك». «كنتُ دائماً أريدكم أن تُعجبوا بصيامي»، قال فنان الجوع». «نحن معجبون به»، قال المراقب، بلطف. «لكن يجب أن لا تُعجبوا به»، قال فنان الجوع. «حسناً اذن نحن لا نعجب به»، قال المراقب، «ولكن لماذا يجب أن لا نعجب به؟» «لأنني يجب أن أصوم، ولا يسعني إلاّ أن افعل ذلك»، قال فنان الجوع. «من أيّ طينة أنت»، قال المراقب، «ولماذا لا يسعكَ إلاّ أن تفعل ذلك؟» قال فنان الجوع، وهو يرفع رأسه قليلاً ويتحدث، بشفتين مزمومتين، وكأنه يستعدّ لقبلة، مباشرة في أذن المراقب، حتى لا يضيع أي حرف، «لأنني، لأنني لم أتمكن من العثور على الطعام الذي أحبه. ولو وجدته، صدقوني، لما أثرتُ أية ضجة ولحشوتُ نفسي مثلك أو مثل أي شخص آخر». كانت هذه هي كلماته الأخيرة، لكن في عينيه المعتمتين ظلّت القناعة القوية بأنه ما زال مستمراً في الصيام ولو أنها لم تعد قناعة يفتخر بها.

«حسناً، نظفوا هذا المكان الآن!» قال المراقب، وهكذا دفنوا فنان الجوع، والقش وكل شيء. في القفص وضعوا نمراً صغيراً. حتى أكثر الناس قلة إحساس شعروا بأنه من دواعي المتعة رؤية هذا المخلوق البري وهو يقفز حول القفص الذي كان كئيباً لفترة طويلة. كان النمر على ما يرام. جلب له المرافقون الطعام الذي كان يحبّه من دون تردّد؛ وبدا بأنه لا يريد أن يفقد حريته؛ فجسده النبيل، المجهّز تقريباً إلى ابعد حد بكل ما يحتاجه، بدا يحمل الحرية حوله أيضاً؛ إذ بدت تكمن في مكان ما في فكيه؛ كما أن فرحة الحياة تدفقت بمثل هذه العاطفة المتحمسة من حنجرته بحيث لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة للمتفرجين أن يقاوموا الصدمة. إلاّ أنهم تشجّعوا، واحتشدوا حول القفص، ولم يدر بخلدهم أبداً أن يتزحزحوا قيد أنملة عنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امرأة صغيرة

هي امرأة صغيرة؛ رشيقة إلى حدّ بعيد بطبيعة الحال، كما أنها مشدودة القدّ أيضاً؛ دائماً ما ترتدي الثوب نفسه عندما أراها، وهو مصنوع من مادة صفراء مائلة إلى الرمادي قريبة من لون الخشب ومقصّب بإتقان بشرابات أو بعض الزخارف شبيهة بالأزرار من اللون نفسه. لا ترتدي قبعة قط، وشعرها الباهت، الأشقر ناعم وليس غير مرتب، لكنه فضفاض جداً. وعلى الرغم من أنها تشدّ جسمها بإحكام لكنها سريعة وخفيفة الحركة، بل بالأحرى هي تبالغ في السرعة، وتحب أن تضع يديها على وركيها وتحوّل فجأة الجزء العلوي من جسمها إلى الجانب بحركة مفاجأة تثير الدهشة. إن الانطباع الذي تتركه يدها عليّ لا أستطيع أن أنقله إلاّ بالقول بأنني لم أكن أبداً قد رأيتُ يداً بأصابع منفصلة متباينة بشكل حاد عن بعضها بعضا مثل يدها هي. ومع ذلك لا تفصح يدُها عن ميزات تشريحية خاصة، بل هي يد طبيعية تماماً.

ثم إن هذه الامرأة الصغيرة ساخطة عليّ، هي دائماً ما تجد شيئاً ما بغيضاً بي، فأنا دائماً ما أُخطئ في حقها، وأزعجها في كل خطوة؛ فلو كان بالإمكان تقطيع الحياة إلى أصغر ما يمكن من القطع الصغيرة وكان بالإمكان تقييم كل قطعة منها على انفراد، لكانت كل قطعة من حياتي بالتأكيد تعدياً عليها. لقد كنتُ أتساءل في كثير من الأحيان لماذا أشكّل لها تعدياً؛ لربما يكون كل شيء عني يثير إحساسها بالجمال، وشعورها بالعدالة، وبعاداتها، وبتقاليدها، وآمالها، وهكذا فهناك مثل هذه الطبائع غير المتوافقة تماماً، لكن لماذا يزعجها ذلك كثيراً؟ ليس ثمة علاقة بيننا يمكن أن تجبرها على المعاناة بسببي. إذ كل ما عليها القيام به هو أن تنظر إليّ بوصفي غريباً بالمرة، وهو أمر، أمر لا اعتراض عليه من جانبي، في الواقع لا بد أن أرحّب به، فهي لا تحتاج إلاّ إلى أن تنسى وجودي، الذي لم أفرضه قط من أجل جلب انتباهها، ولن أفرضه أبداً، ومن الواضح ستنتهي عذاباتها. أنا لا أفكر في نفسي، إذ إنني أسقط من حسابي حقيقة أنني أجد موقفها بالطبع مزعجاً نوعاً ما، أسقطه من حسابي لأنني أدرك بأن عدم راحتي لا تعني شيئاً مقارنة بالمعاناة التي تتحملها. وفي الوقت نفسه فأنا على دراية تامة بأن معاناتها لم تكن معاناة وجدانية. فهي غير معنية بتحقيق أي تحسن حقيقي بالنسبة لي، إلى جانب ذلك، مهما تجد من شيء بغيض فيّ فهو ليس من ذلك النوع الذي يعرقل تطوري. مع ذلك هي لا تهتم بتطوري أيضاً، إذ لا يهمها سوى مصلحتها الشخصية في هذه المسألة، الذي هو الانتقام لنفسها عن العذابات التي تسببتُ بها لها الآن والحيلولة دون أية عذابات تهددها من جانبي في المستقبل. لقد حاولتُ مرةً الإشارة إلى أفضل طريقة لوضع حدّ لهذا الاستياء الدائم من جانبها، لكن محاولتي ذاتها جعلتها في سورة غضب بحيث آليتُ على نفسي بأنني لن أكرر ذلك أبداً.

كما أنني أشعر أيضاً بمسؤولية معينة ملقاة على عاتقي، إذا كنتَ ترغب في طرح الأمر على هذا النحو، كوننا غريبَين على بعضنا بعضا، الامرأة الصغيرة وأنا، ومهما كان صحيحاً بأن العلاقة الوحيدة بيننا هو الإزعاج الذي أُسببه لها، أو بالأحرى الإزعاج الذي جعلتْني أُسببه لها، لذلك لا ينبغي أن أشعر بعدم المبالاة

للمعاناة الجسدية الملحوظة التي يلحقه هذا فيها. فبين الحين والآخر، وأكثر من ذلك في وقت قريب، تتناهى إليّ المعلومات بأنها نهضت في صباح ما شاحبة، مسهّدة، مغتمّة بالصداع، وغير قادرة تقريباً على العمل. لذلك فعائلتها قلقة عليها، وهم يتساءلون ما الذي تسببَ في حالتها، ولم يجدوا الجواب بعد. أنا الشخص الوحيد الذي يعرف بأن الأمر راجع إلى انزعاجها الثابت والمتجدد يومياً مني. صحيح بأنني لستُ قلقاً كل القلق بشأنها مثل قلق عائلتها عليها؛ فهي جسورة وقوية؛ وأي شخص قادر على مثل هذا الشعور القوي من المرجح أيضاً أن يكون قادراً على النجاة من آثاره. بل أن لديّ شكاً في أن معاناتها ـ أو بعضاً من معاناتها، على الأقل ـ ليست سوى تظاهر إنما الهدف منه هو إثارة شك عام تجاهي. إنها متكبرة جداً بحيث لا تعترف صراحة بماهية العذاب الذي يسببه وجودي لها؛ بحيث إن تحشيدها للآخرين ضدي كانت تنظر إليه على أنه يجرح كرامتها. فالاشمئزاز فقط، الاشمئزاز المستمر والنشط، هو ما يدفعها إلى الانشغال بي؛ وأن يناقش المرء علناً هذا الابتلاء غير النبيل من جانبها سيكون مخزياً جداً. لكن الركون إلى الصمت المطبق بشأن شيء ما يجيش باستمرار سيكون هو الآخر كثيراً بالنسبة لها. وهكذا فبمكرٍ أنثوي تتخذ موقفاً وسطاً؛ فهي تبقى صامتة لكنها تفصح عن كل العلامات الخارجية التي تنم عن أسىً سري من أجل لفت انتباه العامة إلى هذه المسألة. ولعلها أيضاً تأمل بأنه طالما يتركز انتباه العامة عليّ فإن حقداً جماهيرياً عاماً ضدي سيزداد ويستغل كل قواه العظمى لإدانتي بشكل مؤكد وبسرعة أكبر مما يمكن لحقدها الشخصي الواهن نسبياً القيام به. عندها ستنسحب إلى الخلف، وتتنفس الصعداء، وتدير ظهرها لي. حسناً، إذا كان ذلك هو حقاً ما عقدت عليه آمالها، فإنها تخدع نفسها. والرأي العام لن يتبنى دورها؛ فالرأي العام ما كان ليجدني كريهاً إلى هذا الحد، حتى في ظل أقوى عدساته المكبرة. كما أنني لستُ مخلوقاً عديم النفع تماماً مثلما تعتقد هي؛ فأنا لا أريد أن أتباهى ولا سيما في هذا الصدد.

لكنني إذا لم أكن بارزاً بخصائص مفيدة على نحو خاص، فأنا بالتأكيد لستُ بارزاً بسبب الافتقار إليها؛ فقط بالنسبة لعينيها، فقط بالنسبة لعينيها المبيضتين تقريباً، أنا أبدو هكذا، فهي لن تكون قادرة على إقناع أي شخص آخر. لذلك في هذا الصدد بوسعي أن أشعر بالاطمئنان تماماً، أليس كذلك؟ لا، لا على الإطلاق؛ إذا شاع بين الناس بأن سلوكي يجعلها مريضة بشكل ايجابي، حيث بعض المراقبين، وهم أولئك الذين يقدّمون لي المعلومات بشكل جدي عنها، على سبيل المثال، ليسوا بعيدين عن إدراك ذلك، أو على الأقل يبدو كما لو أنهم أدركوا ذلك، وينبغي للعالم أن يضع أسئلة لي، لماذا أقوم بتعذيب هذه الامرأة الصغيرة المسكينة بعادتي المستحكمة هذه، وهل أقصد أن أودي بها إلى حتفها، متى سأظهر بعض الأحاسيس وأمتلك ما يكفي من المشاعر الإنسانية اللائقة لوقف مثل هذه السلوكيات ـ لو كان العالم سيسألني كل تلك الأسئلة، لكان من الصعب العثور على إجابة. هل يجب أن أعترف صراحة بأنني لا أؤمن كثيراً في أعراض المرض هذه، لذا أعطي الانطباع غير الموفق بأن أكون رجلاً يلوم الآخرين لتجنب أن يلام هو نفسه، وفي مثل هذا الأسلوب غير الشهم؟ وكيف يمكن أن أقول بصراحة تامة بأنه حتى لو صدُّقت بأنها كانت مريضة حقاً، لا ينبغي لي أن أشعر بأدنى تعاطف معها، لأنها غريبة تماماً بالنسبة لي وأي

اتصال بيننا هو من اختراعها الخاص وهو اتصال من جانب واحد تماماً. لا أقول بأن الناس لن يصدقوني؛ لكنهم لن يكونوا مهتمين بما فيه الكفاية ليصلوا إلى مرحلة التصديق. فهم سيلاحظون ببساطة الإجابة التي أعطيتها فيما يتعلق بهذه الامرأة الضعيفة، المريضة، وهذا سيكون قليلاً بحقي. إن أية إجابة أعطيتُها من شأنها أن تواجَه بعدم قدرة العالم على تقليل الشكوك في أنه لا بد أن تكون هناك علاقة حب وراء مثل هذه الحالة، برغم أن الأمر واضح وضوح الشمس بأن علاقة كهذه غير موجودة، وإن وُجدت فأنها ستكون من جانبي وليست من جانبها، لأنني لا بد أن أكون قادراً حقاً على الإعجاب بالامرأة الصغيرة بسبب السرعة الحاسمة في حكمها وحيويتها الدائمة في القفز إلى الاستنتاجات، إذا كانت هذه الصفات ذاتها لا يوثق بها دائماً بوصفها أسلحة ضدي. وهي، على أي حال، لا تُظهر أي أثرٍ للودّ تجاهي؛ ذلك لأنها صريحة و صادقة؛ وهنا يكمن أملي الأخير؛ بل ولا تقدّم المساعدة في حملتها التي أمعنتْ فيها لحد الآن من أجل إبراز أي شك من هذا القبيل. إلاّ أن الرأي العام الذي هو متبلّد الإحساس كلياً في مثل هذه الأمور سيبقى ملتزماً بتحيزه ودائماً ما يُدينني.

لذا فإن الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أقوم به هو تغيير نفسي في الوقت المناسب، قبل أن يتمكن العالم من التدخل في ذلك، فقط من أجل الحدّ وبشكل كافٍ من الحقد الذي تضمره الامرأة الصغيرة، وليس من اجل تخليصها منه تماماً، وهو أمر لا يمكن تصوره. وبالفعل فإنني كثيراً ما سألتُ نفسي إن كنتُ راضياً جداً بطبيعتي self الحالية بحيث لا أرغب في تغييرها، وما إذا كنتُ لا أستطيع محاولة بعض التغييرات في نفسي، على الرغم من أنني لا بد أن أفعل ذلك ليس لأنني وجدتُ تلك التغييرات ضرورية ولكن فقط لاستمالة الامرأة الصغيرة. و قد حاولتُ ذلك بصراحة، بتجشم عناء بعض المتاعب والهموم، وكان مردود ذلك حسناً بالنسبة لي، وكان بمثابة تحوّل تقريباً؛ فبعض التغييرات الناجمة والتي كانت ملحوظة على طول مسيرتي، لم أكن بحاجة إلى لفت انتباهها إلى تلك التغيرات، فهي تدرك كل هذا النوع من الأشياء أسرع بكثير مما أدركه، بل أنها يمكن أن تدرك عن طريق عبارتي السابقة ما يجول في خاطري؛ لكن من دون أن تتوّج جهودي بأي نجاح. كيف يمكن أن يكون الأمر هكذا؟ إن اعتراضها عليّ، كما أدرك ذلك الآن، يعدّ مسألة جوهرية؛ ولا شيء يمكن أن يزيله، ولا حتى بإزالة نفسي؛ فلو سمعتْ بأنني قد انتحرتُ لسقطتْ في نشوة الغضب.

لا أستطيع أن أتخيل الآن بأن مثل هذه الامرأة الحادة الذكاء على ماهي عليه لا تفهم كما أفهم أنا كلاً من يأس مسارها في العمل وعجزي أنا، أي عدم قدرتي، مع وجود أفضل رغبة في العالم، لتتوافق مع متطلباتها. بالطبع هي تفهم ذلك، ولكن كونها مقاتلة بطبعها فهي تنسى ذلك في شهوة المعركة، كما أن تصرفي المؤسف، الذي لا أستطيع منه فكاكاً لأنه تصرفي بحكم طبيعتي، يشترط عليّ بأن أهمس بعبارات التأنيب اللطيفة لأي شخص يحلّق في سماء عاطفة عنيفة. وبهذه الطريقة، بطبيعة الحال، لن نتوصل أبداً إلى تفاهم فيما بيننا. وسأواصل ترك المنزل في المزاج السعيد من الصباح الباكر فقط من أجل أن رؤية وجهها، الذي تُخفضه عندما تراني،

والتبويزة المزدرية من شفتيها، واللمحة المتفحصة، التي تعلم مسبقاً ما ستبحث عنه، والتي تجتاحني ومهما كانت عابرة لا يغيب عنها شيء، والابتسامة الساخرة التي تعضّن خدها الأنثوي، ورفع عينيها الشاكيتين إلى السماء، ووضع اليدين على الوركين، لتحصين نفسها، ومن ثم الدخول في سورة الغضب يجلب معه الشحوب والارتجاف.

منذ وقت ليس ببعيد انتهزتُ الفرصة، إذ للمرة الأولى بالذات قد أدركتُ ذلك بشيء من الدهشة، في أن أذكر المسألة لصديقٍ لي رائع جداً، مجرد ذكراً سريعاً، بشكل عرضي، بكلمة أو اثنتين، مقللاً الأمر بذلك إلى أقل حتى من استحقاقه الطبيعي، حيث يبدو تافهاً في جوهره عند النظر إليه بشكل موضوعي. لقد كان من الغريب بأن صديقي مع ذلك لم يتجاهله، بل قام من تلقاء نفسه حتى بالإفاضة فيه أكثر مما كنتُ قد فعلت، ولم يحدْ عن متابعته، وأصرّ على مناقشته. لكن الأكثر غرابة بأنه في جزئية مهمة كان يقلل من شأنه، لأنه نصحني بجدية بأن ابتعد لفترة وجيزة. وما من نصيحة لا يمكن فهمها جيداً؛ فالمسألة بسيطة غاية البساطة، وأي شخص كان ينظر إليها عن كثب يمكنه أن يرى الأمر صائباً، مع ذلك لم يكن الأمر بهذه البساطة بأن مجرد رحيلي سيقوّم كل شيء، أو حتى يقوّم الجزء الأكبر منه. بل على العكس من ذلك، إذ إن هذا الرحيل هو ما يجب أن أتجنبه بالذات؛ فلو قيّض لي أن أُتابع خطة بالمرة يجب أن تكون خطة لإبقاء القضية ضمن حدودها الضيقة الحالية لا تنطوي بعدُ على العالم الخارجي، بمعنى، يجب أن أبقى بهدوء حيث أنا وأن لا أسمح للأمر بأن يؤثر على سلوكي بقدر ما يمكن أن يُنظر إليه، وذلك يتضمن عدم ذكره لأي أحد، ولكن ليس على الإطلاق لأنه لغز خطير من الألغاز، ببساطة لأنها مسألة تافهة، شخصية بحتة وعلى هذا النحو لا بد من التعاطي معها برفق، وإبقائها على ذلك المستوى. وهكذا لم تكن ملاحظات صديقي غير مثمرة برغم كل شيء، صحيح أنها لم تعلّمني شيئاً جديداً لكنها مع ذلك عززتْ قراري الأصلي.

وعند التأمل الدقيق يظهر بأن التطورات التي يبدو بأن القضية قد مرّت في خضمّها بمرور الزمن ليست تطورات في هذه القضية ذاتها، ولكنها فقط في موقفي تجاهها، مما يعني بأن ذلك الأمر أصبح أكثر هدوءً من ناحية، وأكثر شهامة، وأكثر نفاذاً في صلب المسألة، بينما من ناحية أخرى، وتحت تأثير التوتر العصبي المستمر الذي لا أستطيع التغلب عليه، مهما كان طفيفاً، قد ازداد في هياجه.

أنا أقل انزعاجاً جراء هذه القضية الآن بحيث أعتقد بأنني أدرك كيف من غير المرجح الدخول في أي أزمة حاسمة، وشيكة كما يبدو ذلك في بعض الأحيان؛ والمرء يتحول بسهولة، لا سيما عندما يكون صغيراً، ليبالغ في السرعة التي تصل فيها اللحظاتُ الحاسمة. فكلما غرقت ناقدتي الصغيرة، التي يُغمى عليها بسهولة عند رؤيتها لي، بشكل جانبي في الكرسي، وهي تمسك بالجزء الخلفي منه بيدٍ وتسحب برفق خيوط صدريتها باليد الأخرى، بينما كانت دموع الغضب واليأس تنحدر على خديها، أخذتُ أفكر بأن اللحظة قد حانت الآن وكنتُ فقط على وشك أن يستدعوني لأتحمل مسؤولية نفسي. مع ذلك لم تكن هناك لحظة حاسمة، ولا استدعاءات، أو نساء يُغمى عليهن بسهولة، فالعالم ليس لديه الوقت ليلاحظ جميع أعمالهن. وماذا

حدث حقاً في كل هذه السنوات؟ لا شيء سوى أن مثل هذه المناسبات كرّرت نفسها، أحياناً بشكل أكثر عنفاً وأحياناً أخرى بشكل أقل عنفاً، وأن مجموعها الكلي قد ازداد تبعاً لذلك. كما أن الناس ينتظرون متوقعين حدوث شيء ما يلوح في الإفق ويرغبون في التدخل إن استطاعوا أن يجدوا وسيلة ما للقيام بذلك؛ ولكن ليس بوسعهم العثور على أيّ منها، لذلك فقد اضطروا حتى الآن إلى الاعتماد على ما يمكن أن يتشمموه، وعلى الرغم من أن ذلك بحد ذاته يكفي تماماً لإبقاء أصحاب الأنوف مشغولين إلاّ أنه لا يمكن أن يفعل أي شيء أكثر من ذلك. برغم هذا، كان الوضع هكذا دائماً، من الناحية الجوهرية، دائماً ما كان يعجّ بالمتفرجين الفائضين عن الحد والمشاهدين الفضوليين، الذين كانوا دائماً ما يبررون وجودهم بأحد الأعذار الماكرة، بدعوى أنهم أقارب، حيث دائماً ما يمدّون رقابهم ويتشممون المشاكل، لكن كل الذي حققوه هو وقوفهم جانباً للتفرّج. والفرق الوحيد هو أنني بدأتُ تدريجياً بمعرفتهم وتمييز وجوههم. فذات مرة اعتقدتُ بأنهم كانوا قد تقاطروا تدريجياً من الخارج، وأن هذه القضية كانت لها تداعيات أوسع، والتي هي نفسها تجبر على خلق أزمة؛ لكن اليوم أعتقد بأنني أعرف بأن هؤلاء المتفرجين كانوا دائماً هناك منذ البداية و لديهم علاقة طفيفة أو لا علاقة لهم بقرب وقوع الأزمة. والأزمة باقية هي هي، إذن لماذا يجب أن ابجّلها باسم كهذا؟ فلو كان لا بد أن يحصل ـ وبالتأكيد ليس غداً أو بعد غد، على الأرجح لم يحصل أبداً ـ فأن ذلك الرأي العام يشغل نفسه بالقضية، التي، يجب أن أكرر، تتجاوز صلاحياته، فأنا بالتأكيد لن أهرب سالماً، ولكن من ناحية أخرى تكون الناس ملزمة بأن تأخذ بعين الاعتبار بأنني لست مجهولاً لدى الجمهور، وأنني عشتُ لفترة طويلة بين الأضواء، وفياً وجديراً بالثقة، وإن هذه الامرأة الصغيرة الكئيبة، هذه القادمة المتأخرة في حياتي، التي، اسمحوا لي أشير إشارة عابرة، ربما رفضها رجل آخر ككيس بذور وداسها سراً تحت قدميه دون صوت، وأن هذه الإمرأة في أسوأ الحالات لا يمكنها أن تضيف سوى تباهٍ قليل قبيح إلى الشهادة الذي أقرّ لي فيها الرأي العام منذ فترة طويلة بأن أكون عضواً محترماً في المجتمع. هذا ما تكون عليه الأمور اليوم، ليس من المحتمل أن تسبب لي شيئاً من عدم الارتياح.

وحقيقة أنه في غضون سنوات قد اصبحتُ مع ذلك غير مستقر نوعاً ما لا علاقة له بالأهمية الحقيقية لهذه القضية؛ فالمرء ببساطة لا يمكنه تحمّل أن يكون هدفاً متواصلاً لحقد شخص ما، حتى عندما يعرف جيداً بما فيه الكفاية بأن الحقد لا مبرر له؛ فهو يصبح غير مستقر، ويبدأ، بما يشبه ردة فعل جسدية فقط، بتوقع القرارات النهائية، حتى عندما لا يعتقد كثيراً، كأي رجل عاقل، بأنها قادمة. إلى حدّ ما، أيضاً، يكون هذا أحد أعراض تقادم العمر؛ فالشباب يُلقي بعبيره على كل شيء. إذ إن الخصائص غير الملائمة تضيع في الفورة غير المتناهية لطاقة الشاب. فلو كان الشخص بوصفه شاباً لديه عين حذرة إلى حد ما فهذه الخصيصة لا تُحسب ضده، بل لا تُلاحَظ على الإطلاق، حتى من جانب الشخص نفسه؛ لكن الأشياء التي تبقى على قيد الحياة في سن الشيخوخة ما هي إلاّ بقايا، كل منها يكون ضرورياً، ولا يمكن تجديد أيّ منها، فكل شيء يكون تحت المعاينة، والعين الحذرة لرجل مسنّ

هي بشكل واضح عين حذرة وليس من الصعب إدراك كنهها. فقط، كما هو الحال أيضاً في هذه المسألة، هذا ليس انحطاطاً حقيقياً لحالته.

لذلك مهما كانت وجهة النظر التي من خلالها أتمعّن في هذه القضية الصغيرة، حسبما يبدو، وسوف أتمسك بهذا، بأنه إذا أبقيتُ يدي عليها، حتى ولو بخفة كبيرة، فإنني سوف أستمر بهدوء أعيش حياتي الخاصة لفترة طويلة قادمة، دون أن ينغّصني العالم، برغم كل هيجان هذه الامرأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجحر

لقد أكملتُ بناء جحري ويبدو أن عملية الحفر كانت ناجحة. فكل ما يمكن رؤيته من الخارج هو حفرة كبيرة؛ مع ذلك، لا تؤدي بالفعل إلى أي مكان. إذ لو أخذتَ بضع خطوات لاصطدمتَ في صخر صلب طبيعي. لا يمكنني أن أتباهى بابتكار هذه الحيلة عمداً؛ فهي ببساطة عبارة عن بقايا إحدى محاولاتي الفاشلة العديدة في البناء، ولكن في النهاية بدا لي بأنه من المستحسن أن أترك هذه الحفرة من دون ردم. صحيح بأن بعض الحيل دقيقة جداً لدرجة أنها تُفشِل نفسها بنفسها، وأنا أعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر، وبالتأكيد من دواعي المجازفة أن أجذب الانتباه من خلال هذه الحفرة إلى حقيقة أنه قد يكون هناك شيء ما بالقرب منها يستحق الاستفسار عنه. لكنك لا تعرفني إذا كنتَ تعتقد بأنني خائف، أو أنني بنيت جحري ببساطة بسبب الخوف. فعلى مسافة بضعة آلاف من الخطوات من هذه الحفرة يقع المدخل الحقيقي للجحر، وهو مغطى بطبقة غير ثابتة من الأعشاب. كما أنه محصّن بشكل أمين شأنه شأن أي شيء في هذا العالم يمكن تحصينه. مع ذلك يمكن لأي شخص أن يخطو على الأعشاب أو يقتحمها، وبعد ذلك سوف ينفتح جحري على مصراعيه، وأي شخص يرغب في الدخول ـ الرجاء ملاحظة، على أي حال، بأن الأمر يتطلب أيضاً قدرات غير مألوفة جدا ـ يمكنه أن يجعل طريقه إلى الداخل ويدمّر كل شيء إلى الأبد. أعرف ذلك تمام المعرفة، وحتى الآن، في ذروة حياتي، لا يمكنني قضاء ساعة واحدة في هدوء تام. ففي تلك النقطة في العشب المظلم أنا عرضة للخطر، وفي أحلامي كثيراً ما أرى أنفاً جشعاً يتشمم حولها باستمرار. ويمكن أن ينغلق جيداً لو أنني ملأتُ المدخل أيضاً بشكل كامل، بطبقة رقيقة من الأرض الصلبة من الأعلى وبطبقة رخوة من التراب من الأسفل، من أجل أن لا يكلفني الكثير من المتاعب وأنا أشق طريقي للخروج مرة أخرى كلما أحببت ذلك. إلا أن تلك الخطة مستحيلة؛ فالحكمة نفسها تقتضي بضرورة أن تكون لي وسيلة للمغادرة في لحظة إنذار إذا لزم الأمر، والحكمة نفسها تقتضي أيضاً، ويا أسفي! في كثير من الأحيان، أن تخاطر بحياتك. كل هذا ينطوي على حسابات شاقة جداً، والمتعة الكبيرة لدى العقل في حرصه هي غالباً ما تكون السبب الوحيد وراء استمرار المرء في تلك الحكمة. لا بد أن تكون لي وسيلة للمغادرة في لحظة انذار، لأنه، على الرغم من كل يقظتي، هل أنني قد لا أتعرض إلى الهجوم من جهة غير متوقعة تماماً؟ إنني أعيش في سلام في الغرفة النائية من منزلي، وفي الوقت نفسه قد يكون العدو يحفر طريقه ببطء وبشكل سري مباشرة نحوي.

انا لا أقول إن لديه حاسة شم أفضل مني؛ فربما يعرف قليلاً عني مثلما أنا أعرف القليل عنه. لكن هناك لصوص نهمون يحفرون بشكل أعمى في الأرض، حيث إن حجم بيتي نفسه يعطيهم الأمل في العثور صدفة على بعض ممراته البعيدة. لدي بالتأكيد ميزة أنني في بيتي وأعرف كل الممرات وإلى أين تفضي. والسارق قد يصبح بسهولة كبيرة جداً ضحيتي وهدفاً سهلاً أيضاً. لكنني يتقدم بي العمر؛ ولستُ قوياً كقوة العديد من الأشخاص الآخرين، وأعدائي كُثُر؛ إذ يمكن أن يحدث بأنني في

تخلصي من أحد الأعداء ربما أقع بين فكي عدو آخر. أي شيء وارد الحدوث! على أي حال، يجب أن يكون لدي المعرفة الثابتة بأنه في مكان ما ثمة مخرج سهل الوصول وحرّ تماماً، حيث لا ينبغي لي القيام بأي عناء للخروج، وبهذا لن ـ ولتحرسنا السماء! ـ أشعر فجأة بأسنان مَن يطاردني في خاصرتي بينما أحفر بيأس طريقي بعيداً، حتى لو كان ذلك في تربة سهلة رخوة. كما أنه لا يتهددني فقط أعداء خارجيون، بل هناك أيضاً أعداء في جوف الأرض. لم أرهم أبداً، لكن الأسطورة تُخبر عنهم وأنا أؤمن إيماناً راسخاً بهم. هم مخلوقات الأرض الداخلية؛ لم تستطع حتى الأسطورة وصفهم. وضحاياهم أنفسهم لم يشاهدوهم إلاّ لماماً؛ إنهم يأتون، فتسمع صرير مخالبهم تماماً أسفل منك في الأرض، التي هي عنصرهم، وما أسرع أن تضيع. وهنا يبدو من غير المجدي أن تواسي نفسك بفكرة أنك في منزلك؛ فأنت بالأحرى بعيد وكأنك في منزلهم. ولا حتى فتحة خروجي يمكنها أن تنقذني منهم؛ بل في كل الاحتمالات أنها لن تنقذني في أي حال من الأحوال، لكن بالأحرى ستفشي سري. مع ذلك فهي بمثابة أمل، وأنا لا يمكنني العيش من دونه. وبصرف النظر عن هذا المخرج الرئيسي فأنا أيضاً متصل بالعالم الخارجي من خلال ممرات ضيقة جداً، آمنة بشكل مقبول توفر لي هواء نقياً صالحاً للتنفس. هذه الممرات هي من عمل فئران الحقول. لقد استفدتُ استفادة حكيمة منها، وأنا أحوّلها إلى جزء لا يتجزأ من جحري. كما أنها تعطيني إمكانية شمّ الأشياء من بعيد، ومن ثم فهي بمثابة حماية بالنسبة لي. فضلاً عن أن جميع أنواع الأطعمة، أيضاً، تأتي متدحرجة من خلالها، وأنا أقوم بالتهامها؛ وهكذا أتمكن من الحصول على كمية معينة من الصيد تحت الأرض، تكون كافية لنمط حياة متواضعة، من دون أن أترك جحري على الإطلاق. وهذه بطبيعة الحال ميزة كبيرة.

لكن أجمل شيء فيما يخص جحري هو السكون. بالطبع، ذلك الشيء خادع. إذ إنه في أية لحظة يمكن ان يتحطم هذا السكون ومن ثم سينتهي كل شيء. في الوقت الحاضر، على أي حال، ما يزال الصمت مخيماً عليّ. لساعات يمكنني التنزه عبر الممرات الخاصة بي وعدم سماع أي شيء سوى حفيف مخلوق صغير، حيث أحيله على الفور إلى الصمت بين فكيّ، أو صوت التربة، الذي يسترعي انتباهي إلى الحاجة إلى إصلاحه؛ عدا ذلك فإن كل شيء يبدو ساكناً. وبسبب عبير الغابة الذي يعمّ المكان؛ فإنه يبدو دافئاً وبارداً على حد سواء. أحيانا أستلقي وأدور حول المكان في الممر بفرح غامر. وعندما يحلّ الخريف، فإن امتلاكك جحراً مثل جحري، وسقفاً فوق رأسك، يعدّ ثروة رائعة كبيرة لأي شخص تتقدّم به السنون. فكل مئة ياردة قد وسّعت الممرات إلى خلايا مستديرة صغيرة؛ وهناك يمكنني أن أكوّر نفسي في راحة تامة وأستلقي دافئاً. وهكذا أنام هناك نوماً جميلاً، نوم الهدوء، والرغبة الملبّاة، والطموح المتحقق؛ لأنني أمتلك منزلاً. لا أعرف ما إذا كانت تلك هي عادة ما تزال مستمرة منذ الأيام الخوالي، أو ما إذا كانت المخاطر بضمنها مخاطر منزلي هذا كبيرة جداً بحيث توقظني. لكنني دائماً بين الحين والآخر أنهض من النوم العميق وأصغي، أصغي إلى السكون الذي يسود هنا دون تغيير ليل نهار، وابتسم بارتياح، ومن ثم أغط بأطراف مسترخية في نوم هادئ أكثر عمقاً. أما الهائمون الفقراء المشردون في الطرقات والغابات، الزاحفون نحو الدفء في كومة من

الأوراق أو قطيع من رفاقهم، فقد استسلموا إلى جميع مخاطر السماء والأرض! لكنني استلقي هنا في غرفة آمنة من كل جانب ـ إذ هناك ما ينيف على خمسين من هذه الغرف في جحري ـ وأزجي أكبر قدر من وقتي وأنا أتقلّب بين الوسن والنوم العميق.

ليس تماماً في وسط الجحر يقع الحصن الرئيسي، الذي اختير بعناية ليكون بمثابة ملجأ في حالة الخطر الشديد بسبب الحصار إن لم يكن بسبب مطاردة مباغتة. وبينما يكون كل ما تبقى من الجحر هو نتيجة للعمل الفكري المكثف أكثر منه نتيجة للعمل البدني، فإن ذلك الحصن قد أنجز عن طريق أكثر الأعمال صعوبة لجسمي ككل. ولعدة مرات، وسط اليأس الناجم عن الإرهاق الجسدي، كنتُ على وشك التخلي عن العمل كله، ووقعتُ أرضاً لاهثاً ولعنتُ الجحر، وسحبتُ نفسي إلى الخارج وتركتُ المكان مفتوحاً للعالم أجمع. كان بإمكاني تحمّل القيام بذلك، لأنه لم تعد لدي أية رغبة بأن أعود إليه، حتى أخيراً، بعد أربع ساعات أو أيام، عدتُ مرة أخرى تائباً، وعندما رأيتُ بأن الجحر لم يُصَب بأذى استطعتُ تقريباً أن أرفع صوتي مترنماً بالشكر، وفي غمرة سعادة قلب صادقة بدأتُ العمل من جديد. كما أن جهودي في الحصن قد أصبحت أكثر صعوبة، ومن دون داع لذلك (دون داع في أن الجحر لم يستمدّ أية فائدة حقيقية من تلك الجهود)، ومن حقيقة أنه فقط في المكان حيث، وفقاً لحساباتي، ينبغي أن يقوم الحصن فيه، كانت التربة رخوة جداً ورملية وتوجّب حرفياً أن يجري ضربها وطرقها لتتحول إلى حالة صلبة وتكون بمثابة جدار لحجرة مقببة بشكل جميل. لكن بالنسبة لمثل هذه المهام فإن الأداة الوحيدة التي أمتلكها هي جبهتي. لذلك كان عليّ أن أجري آلاف مؤلفة من المرات، طيلة أيام وليالي بأكملها، وجبهتي ضد الأرض، وكنت سعيداً عندما تفصّد الدم منها، لأن ذلك كان دليلاً على أن الجدران بدأت تتصلّب؛ وبتلك الطريقة، كما يجب على الجميع الاعتراف، كنتُ قد دفعتُ بسخاء من أجل حصني.

في الحصن أجمع مخازني؛ فكل شيء فائض عن حاجاتي اليومية الذي أراه داخل الجحر، وكل شيء أرجعه معي من رحلات صيدي في الخارج، أقوم بتكديسه هنا. المكان فسيح جداً لدرجة أن الغذاء الذي يكفي لنصف سنة بالكاد يملأه. ونتيجة لذلك يمكنني تقسيم مخازني، والمشي فيما بينها، والمرح فيها، والتمتع بروائحها المختلفة والكثيرة، وأحسب بالضبط كميتها. وعند القيام بذلك، يمكنني دائماً الترتيب وفقاً لذلك، وأقوم بإجراء حساباتي وخطط صيدي المستقبلية، مع الأخذ بعين الاعتبار كل فصل من فصول السنة. ثمة أوقات عندما تكون المؤونة وفيرة جداً لديّ بحيث إنه في عدم اكتراثي للطعام أنني لم ألمس قط ولو قطعة صغيرة من تلك التي يغص بها الجحر، وهذا، على أي حال، ربما يكون غير عقلاني من جانبي. إن انشغالي المستمر بالتدابير الدفاعية ينطوي على تغيير أو تعديل متكررين، ولو بحدود ضيقة، لوجهات نظري حول كيفية القيام بأفضل تنظيم للبناء لتلبّي ذلك الغرض. ثم في بعض الأحيان يبدو الأمر محفوفاً بالمخاطر أن أجعل الحصن أساساً للدفاع؛ إذ إن تشعبات الجحر تمدّني باحتمالات متعددة، بل أن الأمر أكثر من ذلك وفقاً للحكمة في تقسيم مخازني إلى حد ما، ووضع جزء منها في بعض الغرف الأصغر حجماً؛

ومن ثم أعلم كل ثالث غرفة، لنقل، على أنها مخزن احتياطي، أو أعلم كل رابع غرفة على أنها المخزن الرئيسي وكل ثاني غرفة على أنها مخزن احتياطي، وهكذا دواليك. أو إنني أتجاهل بعض الممرات تجاهلاً تاماً ولا أخزّن أي طعام فيها، وذلك لأبعد أي عدو خارج المرمى، أو أختار اختياراً عشوائياً عدداً قليلاً جداً من الغرف حسب بُعدها من المخرج الرئيسي.

كل واحدة من هذه الخطط الجديدة تنطوي بطبيعة الحال على العمل الشاق؛ إذ لا بد لي من إجراء حساباتي ومن ثم حمل مخازني إلى أماكنها الجديدة. صحيح بأنني يمكن أن أقوم بذلك في وقت فراغي ودون أي عجلة، حيث لا تدعو إلى الإزعاج أبداً مسألة حمل مثل هذا الطعام الجيد بين فكيك، والاستلقاء وأخذ قسط من الراحة متى ما تشاء، وتقضم لقمة لذيذة في بعض الأحيان. لكن الأمر ليس لطيفا جداً عندما، كما يحدث أحياناً، تتوهم فجأة، وأنت تنهض من نومك، بأن التوزيع الحالي لمخازنك هو توزيع خاطئ تماماً وبشكل كلي، قد يؤدي إلى أخطار عظيمة، ويجب إرجاعه إلى وضعه الصحيح في الحال، بغض النظر عن مدى تعبك أو شعورك بالنعاس. ثم اندفع، ثم أطير، ثم لا يكون لدي وقت للحسابات؛ ورغم أنني على وشك تنفيذ خطة جديدة ودقيقة تماماً، فإنني الآن امسك بأي شيء تطاله أسناني وأسحبه أو أحمله بعيداً، وأنا أتنهد، وأتأوّه، وأتعثر، وحتى أتفه التغييرات في الوضع الحالي، الذي يبدو خطراً للغاية، بإمكانها أن ترضيني. حتى يوقظني الصحو الكامل شيئاً فشيئاً، وأنا بالكاد استطيع أن أفهم استعجالي الجنوني، وأتنفس بعمق هدوء منزلي، الذي قد أفسدته بنفسي، وأعود إلى مكان استراحتي، وأغفو في الحال في حالة إعياء ألمّت بي مجدداً، بحيث عند الاستيقاظ أجد، لنقل، فاراً متدلياً من فكِيّ، ليكون برهاناً ساطعاً على الجهود الليلية التي تبدو غير واقعية تقريباً. ثم مرة أخرى تأتي أوقات يبدو فيها تخزين كل ما لديّ من الطعام في مكان واحد هو أفضل خططي جميعها. فأية فائدة يمكن أن أجنيها من وضع خزيني في الغرف الأصغر حجماً، وكم يمكنني التخزين هناك على أي حال؟ كما أن أي شيء أضعه هناك سوف يسدّ الممر، وسيكون عائقاً لي أكثر منه عوناً لو تعقّبوني وتوجّب علي أن أطير. إلى جانب ذلك، من الغباء ولكنها حقيقة ايضاً أن يهتز غرور المرء ــ عندما لا يمكنه أن يرى كلّ خزينه معاً، ولذلك يعرف بلمحة واحدة كم هو يملك. إضافة إلى أن تقسيم طعامي بهذه الطرق المختلفة هل يضيع منه المقدار الأكبر؟ ويصبح من غير الممكن أن أجوب دائماً عبر كل ما عندي من الممرات والممرات الفرعية لأتأكد من أن كل شيء في محلّه. إن فكرة تقسيم مخازني هي بالطبع فكرة جيدة، ولكن فقط لو كان لدى المرء عدة غرف شبيهة بحصني. العديد من هذه الغرف! حقاً! ومَن سيقوم ببنائها؟ على أية حال، لا يمكن بناؤها وفق الخطة العامة لجحري في هذه المرحلة المتأخرة. لكنني سأعترف بأن ذلك خطأ في جحري؛ إذ إنه من الخطأ أن يكون لديك نموذج واحد فقط من أي شيء.

كما أنني أعترف أيضاً بأنه طوال الوقت الذي كنتُ فيه أقوم ببناء الجحر ثمة فكرة غامضة بأنه ينبغي أن يكون لدي المزيد من هذه الحصون دارت في مخيلتي، بشكل مبهم، مع ذلك بشكل واضح جداً لو كنتُ قد رحُّبت بها؛ لكنني لم أكن قد استسلمتُ

لها، إذ شعرتَ بأنني ضعيف جداً قياساً بذلك العمل الجبار الذي تنطوي عليه الفكرة، أضف إلى انني شعرتُ بالضعف لدرجة أنني لا أقرّ لنفسي بضرورة ذلك العمل، وواسيتُ نفسي بقدر ما أستطيع بالأمل الغامض بأن البناء الذي في أية حالة أخرى يكون من الواضح غير كافٍ، سيكون في حالتي الفريدة، والاستثنائية، والمفضّلة {سيكون} كافياً، من المحتمل لأن العناية الإلهية تدخّلتْ في الحفاظ على جبهتي، تلك الأداة الفريدة. لذلك ليس لدي سوى حصن واحد، لكن هواجسي الظلامية بأن واحدة لا تكفي قد تلاشت. مع ذلك، لا بد أن أُقنع نفسي بغرفة كبيرة واحدة، إذ إن الغرف الأصغر منها بصراحة ليست بديلاً عنها، وهكذا، حينما نمتْ هذه القناعة في داخلي، بدأتُ مرة أخرى بسحب كل ما عندي من المخازن والعودة به إلى الحصن. ولبعض الوقت، وجدتُ بعض الراحة بعد ذلك، في وجود جميع الممرات والغرف خالية، وفي رؤية مخازني تكبر في الحصن وتبعث بروائحها المختلطة والمتنوعة، وكل منها يدخل السرور في نفسي بطريقته الخاصة، وكل رائحة منها بوسعي أن أميزها حتى ولو على مسافة، تصل إلى أبعد الممرات. ثم عادة ما أتمتع بفترات من الهدوء الخاص، حيث يمكنني تغيير مكان النوم على مراحل، دائماً أعمل باتجاه مركز الجحر، ودائماً ما أنغمس بعمق أكبر في الروائح المختلجة، حتى لم أعد أستطيع في نهاية المطاف كبح جماح نفسي وأندفع ذات ليلة في الحصن، وأرمي نفسي بقوة على مخازني، وأشبع نفسي بأفضل ما يمكنني الحصول عليه حتى أصل إلى حد التخمة تماماً. إنها ساعات سعيدة لكنها خطيرة؛ فأي شخص يعرف كيفية استغلالها يمكنه تدميري بكل سهولة ودون أية مجازفة. وهنا أيضاً عدم وجود مخزن كبير ثانٍ أو ثالث يسهم في إلحاق الضرر بي؛ لأنها الكتلة الوحيدة الضخمة من الطعام التي تغريني. أحاول أن أحترس بطرق شتى ضد هذا الخطر؛ وتوزيع مخازني في الغرف الأصغر حجماً هو بالفعل أحد هذه الوسائل؛ لكن للأسف، كباقي الوسائل الأخرى، فإنه يؤدي إلى التخلي عن الجشع الذي ما يزال أكبر، والذي، بغياب ذكائي، يجعلني أغير خططي الدفاعية بشكل اعتباطي لتتناسب مع غاياته.

وبغية استعادة رباطة جأشي بعد هذه الهفوات أقوم بممارسة معاينة الجحر، وبعد إجراء التحسينات اللازمة، كثيراً ما أتركه، ولو لفترة قصيرة فقط. وحتى في مثل هذه اللحظات فإن مشقة أن أكون من دونه لفترة طويلة تبدو مؤلمة إلى أبعد حد بالنسبة لي، مع ذلك أدرك بوضوح الحاجة إلى رحلات قصيرة في بعض الأحيان. ودائماً ما أقترب من المخرج مرة أخرى بنوع من التوجس. إذ أتجنبه أثناء فترات حياتي المنزلية، وأتوجه بعيداً حتى من الالتفافات الخارجية للممر الذي يؤدي إليه؛ إلى جانب ذلك، فإنه ليس من السهل أن أتجول هناك، لأنني قد تدبُّرت هناك متاهة صغيرة كاملة من الممرات. إنه في ذلك المكان بدأتُ بناء جحري، في وقت لم يكن لدي أي أمل في الانتهاء منه وفقاً لخططي؛ إذ بدأتُ، بشكل أقرب ما يكون إلى اللهو، في تلك الزاوية، وهكذا وجدتْ فرحتي الأولى في العمل ارتياحاً كبيراً هناك في بناء جحر معقد بدا لي في ذلك الوقت تاج جميع الجحور، لكنه جحر أراه اليوم، ربما بمزيد من الإنصاف، بأنه عمل باهر خامل، لا يستحق بالفعل أن يكون ضمن بقية الجحر، وبرغم أنه رائع ربما من الناحية النظرية ـ هنا هو مدخلي الرئيسي، قلتُ في تلك الأيام، وأنا أخاطب بشكل ساخر أعدائي غير المرئيين وأراهم جميعاً

عالقين ومختنقين في المتاهة الخارجية ـ إلا أنه في الواقع مجرد شعوذة واهية لا تصمد أمام هجوم جدّي أو نضالات عدو يقاتل من أجل حياته. فهل يجب أن أعيد بناء هذا الجزء من جحري؟ وأظل مستمراً على تأجيل القرار، وستبقى المتاهة ربما على حالها. وبصرف النظر عن العمل الشاق المحض الذي لا بد أن أواجهه، فإن المهمة ستكون أيضاً الأخطر ولا يمكن تخيلها. عندما بدأت ببناء الجحر استطعتُ العمل به في راحة بال نسبية، ولم يكن الخطر أكبر بكثير من أية مخاطر أخرى؛ لكن محاولة ذلك الشيء اليوم كان سيسترعي انتباه العالم بأسره، وبلا مبرر، إلى جحري؛ فاليوم يكون كل شيء مستحيلاً. أنا سعيد تقريباً بذلك، لأنه ما يزال يتملكني شعور معين بشأن إنجازي الأول هذا. وإذا ما حدث هجوم جدي، فأي مدخل على الإطلاق من المرجح أن ينقذني؟ فالمدخل يمكن أن يُخدع، يمكن أن يضلل، يمكن أن يعطي المهاجِم قلقاً لا نهاية له، والمدخل الحالي أيضاً يمكن أن يفعل ذلك عند الضرورة. لكن هجوماً جدياً بحق لا بد أن يُقابَل باستنفار فوري لجميع الموارد في الجحر وجميع القوى في جسدي وروحي ـ وهذا أمر بديهي. لذلك يمكن أن يبقى هذا المدخل تماماً حيث هو. ففي الجحر الكثير من العيوب التي لا يمكن تجنبها تفرضها الأسباب الطبيعية بحيث يمكنه أن يقاوم بالتأكيد هذا الخلل الذي أكون مسؤولاً عنه، والذي أعترف بأنه عيب، حتى لو كان ذلك بعد فوات الأوان.

وعلى الرغم من ذلك، على أي حال، فإنني لا أنكر بأن هذا الخطأ يقلقني من حين لآخر، في الواقع يقلقني دائماً. وعندما أتجنب هذا الجزء من الجحر أثناء جولاتي الاعتيادية، فالسبب الأساسي وراء ذلك هو أن مشهده مؤلم بالنسبة لي، لأنني لا أريد أن أتذكر دائماً وجود خلل في منزلي، حتى لو كان ذلك العيب موجوداً بشكل مزعج جداً في ذهني. فليستمر وجوده بشكل لا يمكن ازالته في المدخل؛ إذ أستطيع أن أتحاشى على الأقل النظر فيه طالما كان ذلك ممكناً. وإذا كنتُ مجرد أمشي باتجاه المدخل، حتى وإن فصلتْني عنه العديد من الممرات والغرف، فإني أجد نفسي أستشعر جوًّا من الخطر الكبير، في الحقيقة كما لو أن شعري أصبح رقيقاً وفي لحظة قد يطير ويتركني عارياً وأرتجف، ومعرضاً لعويل أعدائي. نعم، إن مجرد التفكير في الباب نفسه، أي نهاية الحماية المحلية، يجلب معه مثل هذه المشاعر، مع ذلك أن المتاهة المؤدية إليه هي التي تعذبني أكثر من أي شيء. أحياناً أحلم، بأنني قد أعدتُ بناءها، وحولتها تماماً، وبسرعة، في ظرف ليلة، بقوة عملاق، من دون أن يلحظ ذلك أحد، والآن هي مدخل منيع؛ والليالي التي تراودني فيها هذه الأحلام هي أحلى ما عرفتُ، فدموع الفرح والإخلاص ما تزال رقراقة على لحيتي عندما أستيقظ.

لذلك لابد أن أمرّ عبر التعقيدات المزعجة لهذه المتاهة جسدياً وعقلياً كلما أخرج، وهكذا أكون على حد سواء غاضباً ومُثاراً حينما، كما يحدث أحياناً، أضيع للحظة في متاهتي، ويبدو العمل الذي قمتُ به بيديّ ما يزال كبيراً جداً ويثبت كفاءته بالنسبة لي، بوصفي صانعه، الذي أصدرتُ حكمي النهائي عليه منذ فترة طويلة. لكن بعد ذلك أجد نفسي تحت غطاء عشبي، تُرك على حاله لفترة طويلة جداً ـ لأنني أبقى فترات طويلة داخل منزلي ـ بحيث إنه نما بسرعة إلى التربة حوله، والآن لا

يحتاج سوى إلى دفعة صغيرة فقط برأسي وأكون في العالم العلوي. ولفترة طويلة لم أجرؤ على القيام بتلك الحركة الصغيرة، ولولا اضطراري إلى اجتياز المتاهة مرة أخرى، لتركتُ بالتأكيد ذلك الأمر في الوقت الحاضر ورجعتُ ثانية. فكرْ في الأمر فقط. فمنزلك محمي ومكتفٍ ذاتياً. أنت تعيش في سلام، دافئاً، جيد التغذية، سيداً، السيد الوحيد لكل ممراتك وغرفك المتعددة، وهكذا فأنت على استعداد تام ــ لا من أجل التخلي عنه، بالطبع ــ ولكن للمخاطرة فيه، إذا جاز التعبير؛ فأنت ترعى الأمل الواثق، بالتأكيد، بأنك سوف تستعيده؛ مع ذلك أليس هذا رهاناً خطيراً، خطيراً جداً ذلك الذي تجازف به؟ هل يمكن أن تكون هناك أية أسباب معقولة لمثل هذه الخطوة؟ لا، بالنسبة لمثل هذه الأعمال لا يمكن أن تكون هناك أسباب معقولة لها. ولكن مع هذا، أقوم بعد ذلك بحذر برفع الباب السحري والانزلاق خارجاً، والسماح له بهدوء بالعودة مرة أخرى، والطيران بأسرع ما أستطيع من تلك البقعة الغادرة.

مع ذلك أنا لست حراً حقاً. صحيح بأنني لم أعد مقيداً بالممرات الضيقة، ولكنني أخرج للصيد عبر الغابة المفتوحة، وأشعر بقوىً جديدة تستيقظ في جسدي لم يكن لديها أي مجال، إذا جاز التعبير، في الجحر، ولا حتى في الحصن، على الرغم من أنها كانت عشرة أضعاف حجم الممرات. الطعام أيضاً أفضل هنا؛ برغم أن الصيد أكثر صعوبة، والنجاح أكثر ندرة، فإن النتائج أكثر قيمة من كافة وجهات النظر. لا أنكر كل هذا، بل أقدّره وأستفيد منه على الأقل تماماً كما يستفيد منه أي فرد آخر غيري، وربما أكثر من ذلك، لأنني لا أصطاد مثل متشرد بدافع الكسل أو اليأس، ولكنني أصطاد برويّة ومنهجية. كما أنني لست محكوماً بشكل دائم بهذه الحياة الحرة، فأنا أعلم بأن فترة بقائي محسوبة، إذ أنني لا يتوجب عليّ الاصطياد هنا إلى الأبد، وإنني، متى ما أشعر بالتعب من هذه الحياة وأرغب في تركها، فإن شخصاً ما، ممن لن أكون قادراً على أن اصدّ دعوته، سوف، إذا جاز التعبير، يستدعيني له. وهكذا أتمكن من تزجية وقتي هنا تماماً من دون عناء وفي سعادة تامة، أو بالأحرى كان بوسعي أن أقوم بذلك، لكن مع ذلك لا أستطيع. إذ إن جحري يستغرق الكثير الكثير من أفكاري. فهربتُ من المدخل بسرعة كبيرة جداً، لكنني سرعان ما أعود إليه مرة أخرى. إنني أسعى إلى مخبأ جيد وأراقب مدخل منزلي ــ من الخارج هذه المرة ــ لأيام وليالي كاملة. سمّها حماقة إن شئت؛ فهذا يعطيني متعة لا حدود لها ويعيد الطمأنينة إلى نفسي. في مثل هذه الأوقات يبدو الأمر كما لو أنني لم أكن أنظر كثيراً إلى منزلي مثلما أنظر إلى نفسي وأنا نائم، وكانت تتملكني فرحة كوني في سبات عميق وفي الوقت نفسه أبقى حارساً على نفسي. عندها أكون صاحب حظوة، إذا جاز التعبير، ليس فقط لأحلم بأشباح الليل بكل عجز وثقة النوم العمياء، بل أيضاً في الوقت نفسه لأواجهها في الواقع بالحكم الهادئ للمستيقظين تماماً. ومن الغريب جداً أن أكتشف بأن وضعي ليس سيئاً كما كنتُ أعتقد غالباً، وربما سوف أفكر مرة أخرى عندما أعود إلى منزلي. في هذا الصدد ــ وقد يكون في مواقف أخرى أيضاً، لكن في هذا الصدد على وجه الخصوص ــ فإن رحلاتي هذه هي حقاً لا غنى عنها.

وكوني قد اخترتُ بعناية مكاناً للخروج لبابي، فإن حركة المرور التي تمر أمامه تكون مع ذلك كبيرة جداً، إذا ما راقب المرءُ ذلك طيلة أسبوع. لكن، من دون شك،

يكون الأمر هكذا في جميع المناطق المأهولة، وربما يكون في الواقع المخاطرة في حركة المرور الكثيفة، التي تحمل زخمها ذاته إلى أبعد حدّ، أفضل من التسليم في عزلة كاملة لأول دخيل باحث باستمرار. هنا يكون الأعداء كثيرين ويكون حلفاؤهم وشركاؤهم ما يزالون أكثر عدداً، لكنهم يقاتلون أحدهم الآخر، وبينما كانوا منهمكين في ذلك فإنهم يندفعون أمام جحري من دون أن يلاحظوه. وطوال الوقت لم أرَ قط أي شخص يدقق في الباب الحقيقي لمنزلي، وهذا بلا شك من حسن حظه وحظي، لأنني بالتأكيد سأكون قد انطلقتُ على حلقه، متناسياً كل شيء آخر وسط قلقي على الجحر. صحيح بأن بعض المخلوقات تأتي، والتي لا أجرؤ على البقاء في محيطها، والتي يجب أن أفرّ منها بمجرد أن أشمّ رائحتها عن بعد؛ إذ لا يمكنني حقاً أن أتبيّن بيقين تام إن كانت وجهتها الجحر أم لا، ولكن هذا هو على الأقل يعطي تطميناً بأنه عندما أعود في الوقت الحاضر لا أجد أياً منها هناك، والمدخل غير مدمّر. لقد كانت هناك فترات سعيدة استطعتُ فيها تقريباً أن أؤكد لنفسي بأن عِداء العالم تجاهي كان قد توقف أو هدأت حدّته، أو أن قوة الجحر قد رفعتني فوق الصراع المدمر في الأزمان الغابرة. ربما كان الجحر قد حماني بطرق أكثر مما كنت أفكر فيها أو أتجرأ على التفكير بينما كنت داخله. كان هذا الشعور يتملكني جداً لدرجة أنه في بعض الأحيان تسيطر عليّ رغبة صبيانية في عدم العودة إلى الجحر مرة أخرى، بل البقاء في مكان ما قريب من المدخل، من أجل قضاء حياتي في مراقبة المدخل، والاستغراق على الدوام في تأمل ـ وفي ذلك أجد سعادتي ـ المَنَعة التي يوفرها الجحر إذا ما كنت داخله. حسناً، سرعان ما يستيقظ المرء من الأحلام الصبيانية. إلى ماذا ترقى هذه الحماية التي أتطلع إليها هنا من الخارج رغم كل شيء؟ هل أجرؤ على تقدير الخطر المحدق بي داخل الجحر من خلال عمليات المراقبة التي أقوم بها عندما أكون في الخارج؟ هل يمكن أن يكون لدى أعدائي، اذا ما بدأتُ بهم، اي إدراك مناسب لي عندما لا أكون في جحري؟ لا بد أن يكون لديهم بعض الإدراك لي، ولكن ليس إدراكاً كاملاً. اليس ذلك الإدراك الكامل هو التحديد الحقيقي لحالة الخطر؟ لذا فإن التجارب التي أقوم بها هنا هي مجرد أنصاف تجارب أو حتى أقل من ذلك، يُقصد منها فقط التأكد من مخاوفي وعندما تعطيني تطميناً كاذباً فإنها تجعلني نهباً لمخاطر كبيرة. لا، فأنا لا أراقب نومي، كما تخيلتُ. بل هو أنا مَن ينام، في حين يقوم المدمِّر بالمراقبة.

ربما يكون أحد أولئك الذين يمرّون من أمام المدخل دون أن يبدو بأنهم يلاحظونه، فهم مهتمون بمجرد التأكد، تماماً مثلي، بأن الباب ما يزال لا يمسه أحد وينتظر هجومهم، وهم لا يمرون إلاّ لأنهم يعرفون بأن سيد المنزل في الخارج، أو لأنهم يدركون تماماً بأنه مستلقٍ ببساطة يراقب عند الشجيرات القريبة. وأترك مركز المراقبة وأجد بأن لديّ ما يكفي من هذه الحياة الخارجية؛ إذ أشعر بأنه لا يوجد شيء أكثر من ذلك الذي يمكنني أن أتعلمه هنا، سواء الآن أو في أي وقت آخر. كما أنني متلهف لأن أقول كلمة الوداع الأخيرة لكل شيء هنا، وأنزل إلى جحري ولن أعود مرة أخرى، وأترك الأشياء تأخذ مسارها الطبيعي، ولن أحاول تأخيرها بسهري غير المجدي. ولكن لأن ذلك أفسدتْه رؤيتي ولمثل ذلك الوقت الطويل لكل ما كان يحدث في جميع أنحاء المدخل، فإنني أجد صعوبة كبيرة في اتخاذ القرار

لتنفيذ عملية النزول الفعلية، التي قد تسترعي انتباه أي شخص بسهولة، ومن دون معرفة ما يحدث خلف ظهري وخلف الباب بعد غلقه. وأستغل الليالي العاصفة للتغلّب على الأمور التمهيدية اللازمة، وبسرعة أتدحرج في تراب حفرتي؛ إذ يبدو ذلك قد جرى بنجاح، ولكن ما إذا كان قد جرى بنجاح بالفعل سيكون معروفاً فقط لو قمتُ بنفسي بعملية النزول؛ حيث سيكون ذلك معروفاً، ولكن ليس عن طريقي، أو يكون عن طريقي، ولكن بعد فوات الأوان. لذلك أترك المحاولة ولا أقوم بعملية النزول. أحفر جحراً تجريبياً، وبطبيعة الحال على بعد مسافة جيدة من المدخل الحقيقي، جحر يتناسب مع طولي تماماً، وأغلقه أيضاً بغطاء من العشب. أزحف إلى داخل حفرتي، وأغلقه من ورائي، وأنتظر بصبر، وأبقى متيقظاً لفترات طويلة أو قصيرة، وفي ساعات مختلفة من اليوم، ثم أقذف بالعشب بعيداً، وأخرج من حفرتي، وأقوم بتلخيص ملاحظاتي. وهذه الملاحظات غير متجانسة للغاية، فهي جيدة وسيئة معاً؛ لكنني لم أكن قادراً على اكتشاف مبدأ عالمي أو طريقة نزول معصومة من الزلل. ونتيجة لكل هذا لم أكن قد اتخذتُ القرار بعدُ للقيام بعملية نزولي الفعلية، وأبقى فريسة اليأس في ضرورة القيام بذلك قريباً. وأهمّ نفسي نحو نقطة اتخاذ قرار الهجرة إلى أجزاء بعيدة وأنزع مرة أخرى إلى حياتي السابقة عديمة الراحة، التي لم يكن فيها أي أمان مهما كان نوعه، بل كانت سلسلة عشوائية من المخاطر، ولكن مع ذلك بالنتيجة منعت المرء من إدراك مخاطر معينة والخوف منها، مثلما أذكّر نفسي باستمرار عن طريق مقارنة جحري الآمن بالحياة الاعتيادية. من المؤكد بأن مثل هذا القرار سيكون ضرباً من الحماقة، ناجم ببساطة عن العيش مدة طويلة جداً في حرية بلا معنى؛ فالجحر ما يزال جحري، وعليّ فقط اتخاذ خطوة واحدة وأكون آمناً.

كما وأحرر نفسي من كل ما عندي من الشكوك وفي رابعة النهار اندفع نحو الباب، وأنا مصمم تماماً على رفعه الآن؛ لكنني لا أستطيع، وأندفع من امامه وأرمي بنفسي في عشبة شائكة، بشكل متعمد، كعقاب، كعقاب لارتكاب خطيئة ما لا أعرف كنهها. ثم، في اللحظة الأخيرة، انا مجبر على الاعتراف بأنني كنتُ على حق رغم كل شيء، وبأنه كان من المستحيل حقاً النزول في الجحر من دون ان اعرّض الشيء الذي أحبّه، لبعض الوقت على الأقل، إلى جميع أعدائي، على الأرض، في الأشجار، وفي الهواء. والخطر هو بأية حال من الأحوال خطر خياليّ، لكنه حقيقيّ جداً. لا حاجة لاستفزاز أي عدو ليلاحقني، فقد يكون هناك مخلوقاً ما صغيراً بريئاً، او وحشاً ما صغيراً مثيراً للاشمئزاز يتبعني بدافع الفضول، وبالتالي، من دون معرفة ذلك، يصبح زعيماً للعالم كله ضدي. ولا حاجة حتى إلى ذلك، ربما ـ وهذا سيكون سيئاً تماماً، بل يكون في بعض الجوانب أكثر سوءً ـ قد يكون شخصاً ما من طينتي نفسها، ذوَّاقا ومقدِّرا للجحور، ناسكاً، عاشقاً للسلام، لكنه مع ذلك وغد قذر يرغب في أن يستقر في مكان لم يقم ببنائه. لو قيّض له بالفعل أن يصل الآن، ولو قيّض له في رغبته القذرة أن يكتشف المدخل ويشمّر عن ساعده للعمل فيه، ورفع العشب؛ ولو قيّض له بالفعل أن ينجح، ولو قيّض له بالفعل أن يأخذ طريقه إلى الداخل بدلاً عني، حتى لا تظهر منه سوى أطرافه الخلفية؛ لو قيّض بالفعل لكل هذا أن يحدث، حتى أنني أخيراً، ألقي بكل حكمتي إلى الرياح، فأنني ربما في غمرة

غضبي الأعمى أقفز عليه، وأهاجمه، وأنزع اللحم من عظامه، وأدمره، وأشرب من دمه، وأرمي جثته بين بقية غنائمي، ولكن قبل كل شيء ـ وذلك هو الأمر الرئيسي ـ أكون قد عدتُ مرة أخرى إلى جحري، ويكون في نفسي رغبة عميقة لإلقاء التحية على المتاهة نفسها بنشوة طرب. ولكن أولاً أودّ أن أسحب العشب الذي يعلو فوقي، وأود أن أستريح، هكذا يبدو لي، طوال ما تبقى من حياتي. لكن لا أحد يأتي فأتْرَك وشأني. ولكوني مهووس بشكل دائم بالصعوبة المطلقة التي تكتنف المحاولة، فأنا أفقد شطراً كبيراً من ترددي، ولم أعد أحاول حتى إن أبدو أنني أتجنب المدخل، بل أجعلها هواية لي مسألة الالتفاف حوله. الآن يبدو الأمر تقريباً كما لو كنتُ العدو الذي يتحين فرصة مناسبة للاقتحام بشكل ناجح. لو كان لدي شخص يمكنني أن أثق به ليستمر في الحراسة عند برج المراقبة؛ إذن لأمكنني بالطبع أن أنزل إلى الجحر في راحةٍ بالٍ تامة. ولَوَدَدْتُ أن أبرم اتفاقاً مع حليفي الموثوق هذا بحيث سيلاحظ جيداً حالة الأشياء أثناء نزولي ولوقت طويل جداً بعد ذلك، وإذا ما رأى أية علامة تدلّ على الخطر يدقّ على العشب الذي يغطي المدخل، وإذا لم يرَ شيئاً لا يفعل أي شيء.

وبتلك الطريقة أتخلّص تخلصاً تاماً من كل مخاوفي، ولن يكون لها أية بقية، أو على الأكثر سيبقى صديقي المؤتمن. ألن يطلب مني خدمة مقابِلة لقاء ذلك؟ ألا يريد على الأقل أن يرى الجحر؟ فذلك بحد ذاته، أي السماح لأي شخص أن يدخل بحرية إلى جحري، سيكون مؤلماً جداً بالنسبة لي. لقد بنيته لنفسي، وليس للزوار، وأعتقد بأنني سوف أرفض السماح له بالدخول، حتى لو كان هو وحده مَن جعلني أتمكن من الدخول إلى الجحر فلن أسمح له بالدخول. بل لا يمكنني ببساطة أن أسمح له، لأنه إما أن أسمح له بالدخول في البداية بمفرده، وهو أمر لا يمكن تصوره ببساطة، أو يجب أن ينزل كلانا في الوقت نفسه، وفي هذه الحالة ستضيع الميزة التي من المفترض أن أستمدها منه، ألا وهي الاستمرار في المراقبة. فما الثقة التي يمكنني أن أضعها فيه حقاً؟ هل يمكنني أن أثق بالشخص الذي أبقيته تحت عيني تماماً مثلما يمكنني أن أثق به عندما لا أستطيع أن أراه، حيث يفصلنا العشب الذي يغطي المدخل؟ من السهل نسبياً أن تثق بأي شخص إذا ما كنتَ تراقبه أو على الأقل يمكنك أن تراقبه؛ ربما يكون من الممكن أيضاً أن تثق بشخص ما عن بعد؛ ولكن أن تثق كلية بشخص ما خارج الجحر عندما تكون أنت داخل ذلك الجحر، بمعنى، نكون في عالم مختلف، فإن ذلك، حسبما يبدو لي، يكون مستحيلاً. لكن هذه الاعتبارات ليست ضرورية على الأقل؛ فمجرد التأمل يكفي بأنه أثناء نزولي أو بعده قد تقوم واحدة من الحوادث التي لا تحصى بمنع صديقي المؤتمن من الوفاء بواجبه، فما هي النتائج غير المحسوبة التي تسببها أصغر الحوادث من هذا النوع بالنسبة لي؟ لا، إذا ما نظر المرء إلى هذا الأمر بشكل عام، فإنه ليس من حقي أن أشتكي بأنني وحدي ولا أحد عندي يمكنني أن أثق به. إنني بالتأكيد لا أفقد شيئاً جراء ذلك وربما أجنّب نفسي المتاعب. أنا لا يمكن أن أثق إلا بنفسي وجحري. كان ينبغي أن أفكر في ذلك من قبل وأتخذ التدابير لمواجهة الصعوبة التي تقلقني كثيراً الآن. عندما بدأت ببناء الجحر كان ذلك على الأقل ممكناً إلى حدّ ما. كان عليّ أن أبني الممر الأول الذي ينطوي على مدخلين اثنين يقعان على مسافة معتدلة من بعضهما بعضا، بحيث إنه

بعد نزولي من خلال أحدهما بذلك البطء الذي لا مفر منه، فإنني ربما أندفع في الحال من خلال الممر إلى المدخل الثاني، وأرفع قليلاً الغطاء العشبي، الذي سيكون مرتباً بحيث يجعل ذلك الأمر سهلاً، ومن هناك أظل أراقب الموقف لعدة أيام وليال. كان ذلك هو الطريق الصحيح الوحيد لمعالجة الأمر.

صحيح بأن المدخلين سيضاعفان الخطر، لكن تلك المسالة لا يمكن أن تثنيني، لأن أحد المدخلين، الذي يقوم مقام برج مراقبة، يمكن أن يكون ضيقاً تماماً. وهكذا أضيع في متاهة من التكهنات الفنية، وأبدأ مرة أخرى بتخيل حلمي الخاص بجحر كامل بالمرة، وهذا ما يهدئني إلى حد ما؛ إذ بعينين مغلقتين أبصر ببهجةٍ الوسائلَ الهيكلية الكاملة أو شبه الكاملة التي تمكنني من الانزلاق إلى الخارج وإلى الداخل من دون أن يلاحظني أحد. وبينما أستلقي هناك مفكراً في مثل هذه الأشياء، تعجبني هذه الوسائل إلى حد كبير جداً، لكن فقط بوصفها إنجازات فنية، وليس بوصفها مزايا حقيقية؛ لأن هذه الحرية في الانزلاق إلى الخارج والداخل متى ما أشاء، ماذا تعني؟ إنها أمارة لطبيعة قلقة، وعدم يقين داخلي، ورغبات مخزية، ونزعات شريرة تبدو أسوأ عندما يفكر المرء في الجحر، الذي يكون هناك في متناول يد المرء ويمكن أن يغمره بالسلام إذا ما بقي ذلك المرء متفتحاً تماماً ومتقبلاً إياه. في الوقت الراهن، على أي حال، أنا خارج الجحر باحثاً عن امكانية العودة اليه، ومن أجل ذلك ستكون الوسائل الفنية اللازمة أمراً مستحسناً جداً. لكنها ربما ليست مستحسنة جداً برغم كل هذا. أليس هذا ظلم كبير للغاية بحق الجحر إذ يُنظر إليه في لحظات الذعر العصيبة بأنه مجرد ثقب يمكن للمرء أن يتسلل إليه ويكون آمناً فيه؟ بالتأكيد هو ثقب من بين أمور أخرى، وآمن أيضاً، أو لا بد أن يكون كذلك، وعندما أتصوّر نفسي في خضم الخطر، عندها أصرّ بأسنان مشدودة و بكل إرادتي بأن الجحر لا ينبغي أن يكون سوى ثقب وُجِد لحمايتي، وأنه ينبغي أن يؤدّي تلك الوظيفة المحددة بوضوح بأكبر قدر ممكن من الكفاءة، وأنا على استعداد أن أعفيه من أي واجب آخر. الآن فأنّ حقيقة الأمر ـ والمرء لا يمتلك وجهة نظر حيال ذلك في أوقات الخطر الشديد، إلاّ بعد جهد جهيد حتى في الأوقات التي يكون فيها الخطر وشيكاً ـ هي أن الجحر في الواقع يوفر قدراً كبيراً من الأمان، ولكنه قدر ليس كافياً بأي حال من الأحوال، لأنه هل يكون المرء بعيداً عن المخاوف عندما يكون داخله؟ هذه المخاوف تختلف عن المخاوف العادية، فهي أمضى أثراً، وأكثر ثراء من حيث المحتوى، ومقموعة منذ فترة طويلة في كثير من الأحيان، ولكن في آثارها المدمرة ربما تكون كبيرة الشبه بالمخاوف التي يولدها الوجود في العالم الخارجي. لو شيدتُ الجحر حصراً لضمان سلامتي لما شعرتُ بخيبة أمل، وذلك صحيح تماماً؛ ومع ذلك فإن العلاقة بين العمل الهائل الذي يتطلب ذلك والأمان الفعلي الذي سيوفره، على الأقل بقدر ما يمكنني أن أشعر به وأستفيد منه، لن تكون في صالحي. ومن المؤلم للغاية أن تضطر إلى الاعتراف بمثل هذه الأشياء لنفسك، لكن المرء مجبر على القيام بذلك، إذ يواجهه ذلك المدخل هناك الذي يغلق نفسه الآن تماماً ويصدّني، وأنا البنّاء والأستاذ.

مع ذلك فالجحر ليس مجرد ثقب التجأ إليه. عندما أقف في الحصن محاطاً بمخازني المكدسة، وأنا امسح الممرات العشرة التي تبدأ هناك، وهي ممرات مرتفعة

ومنخفضة، ممرات عمودية ومستديرة، ممرات واسعة وضيقة، كما تقتضي الخطة العامة لذلك، وكلها على حد سواء صامتة وفارغة، جاهزة بفضل طرقاتها المختلفة لتقودني إلى جميع الغرف الأخرى، التي هي أيضاً صامتة وفارغة ـ عندئذ أرى كل التفكير بمجرد السلامة أبعد ما يكون عن ذهني، ثم أنني أعلم بأن حصني هنا، الذي انتزعته من التربة العنيدة بالناب والمخلب، بضربات ماحقة وقوية، حصني الذي لا يمكن أبداً أن يعود إلى أي شخص آخر، و هو أساساً لي بحيث يمكنني أن أتقبل وأنا داخله بهدوء حتى ضربة عدويّ المميتة في الساعة الأخيرة، لأن دمي سوف يجري هنا في تربتي ولن يضيع. وأي شيء سوى تلك اللحظات التي تعطي معنى لساعات الهناء التي امضيها، آناً أهجع بسلام، وآناً أخرى أراقب بسعادة، في هذه الممرات، هذه الممرات التي تناسبني تماماً، حيث يمكن للمرء أن يتمدد براحة كبيرة، ويلتفّ حول نفسه بفرح طفولي، يستلقي ويحلم، أو يغطّ في نوم هانئ. والغرف الأصغر، المألوفة كلها بالنسبة لي، مألوفة جداً بحيث إنه على الرغم من تشابها الكامل أستطيع أن أميّز بوضوح إحداها عن الأخرى وعيناي مغمضتين بمجرد تلمّس الجدار: فهي تطوقني بسلام ودفء أكثر من طير مطوّق في عشه. وكل شيء، كل شيء ما يزال ساكناً وفارغاً.

ولكن إذا كان هذا هو الحال، فلماذا أنا باقٍ لا أبرح هذا المكان؟ لماذا أخشى فكرة العدو المتطفل أكثر من خشيتي من إمكانية عدم رؤية جحري مرة أخرى؟ حسناً، فمن حسن الطالع أن الخيار الأخير هو ضرب من المستحيل. إذ ليس هناك حاجة لي ولو في التفكير في معرفة ماذا يعني الجحر بالنسبة لي. فأنا والجحر ننتمي بشكل راسخ إلى طينة واحدة بحيث إنه على الرغم من كل مخاوفي فأنا يمكنني أن أسلّي نفسي هنا في الخارج، ولا أحتاج حتى إلى التغلب على اشمئزازي وأفتح الباب؛ إذ بوسعي أن أكون مقتنعاً تماماً بالانتظار هنا بشكل سلبي، لأنه لا شيء يمكن أن يفرقنا لفترة طويلة، وبطريقة أو بأخرى من المؤكد انني سوف أجد نفسي في جحري مرة أخرى. لكن من ناحية أخرى كم من الوقت قد يمر قبل ذلك الحين، وكم من الأشياء قد تحدث في ذلك الوقت، سواء هنا أم هناك؟ إذن فما يقع على عاتقي على نحو خاص هو تقليص تلك الفترة الزمنية والقيام بما هو ضروري في الحال.

ومن ثم، وأنا منهك جداً بحيث لا طاقة لي أبداً على التفكير، ورأسي يتدلى، وساقاي ترتجفان من شدة التعب، ونصف نائم، متحسساً طريقي بدلاً من المشي، أقوم بالاقتراب من المدخل، وببطء أرفع العشب الذي يغطي المدخل، وأنزل ببطء، تاركاً الباب مفتوحاً بسبب ذهولي لفترة طويلة دون داع، وأتذكر حالياً حالة إغفالي هذه، وأخرج مرة أخرى لتدارك الأمر ـ ولكن ما الحاجة التي تدعو إلى الخروج للقيام بذلك؟ فكل ما كنتُ بحاجة إليه هو الاقتراب من الغطاء العشبي؛ حسناً؛ لذلك أزحف إلى الداخل مرة أخرى والآن في نهاية المطاف أقترب من العشب الذي يغطي المدخل. في هذه الحالة فقط، في هذه الحالة وحدها، يمكنني تحقيق عملية نزولي. وهكذا أخيراً أستلقي تحت العشب على أعلى الأنقاض الملطخة بالدماء وبوسعي الآن الاستمتاع بنومي الذي كنتُ أحنّ إليه. لا شيء يزعجني، ولا أحد يتعقبني، ففوق العشب يبدو كل شيء هادئاً حتى الآن على الأقل، ولكن حتى لو لم يكن كل

شيء هادئاً فأنا أتساءل عما إذا كان يمكن أن أتوقف عن المراقبة الآن؛ لقد غيرتَ مكاني، وتركتُ العالم العلوي وأنا الآن في جحري، وأشعر بتأثيره في الحال. إنه عالم جديد، يمدّني بقوى جديدة، وما شعرتُ به من تعب هناك لم يعد له مكان هنا. لقد عدتُ من رحلةٍ متعباً غاية التعب بسبب كثرة تطوافي، لكن مرأى المنزل القديم، والتفكير في جميع الأشياء التي تنتظر إنجازها، وضرورة على الأقل أن ألقي نظرة على جميع الغرف، ولكن قبل كل شيء ان أجعل طريقي فوراً نحو الحصن. كل هذا يحوّل تعبي إلى حماس متوهج؛ إن الأمر بدا كما لو أنني في هذه اللحظة التي خطوتُ فيها في الجحر قد استيقظتُ من نوم طويل وعميق. مهمتي الأولى شاقة جداً وتستغرق كل انتباهي؛ أعني التخلص من الأنقاض خلال الممرات الضيقة ذات الجدران الرقيقة الخاصة بالمتاهة. اندفع بكل قوتي، فيُنجز العمل أيضاً، لكن ببطء شديد جداً بالنسبة لي. ومن أجل تسريعه أسحب جزءاً من مؤونتي من اللحم مرة أخرى وأغذّ طريقي إلى الأمام وأمرّ من خلاله؛ ليس لدي الآن سوى جزء من الأنقاض أمامي وأنه من الأسهل التقدم. إلاّ أن طريقي مسدود بكل هذا اللحم في هذه الممرات الضيقة، التي ليس من السهولة دائماً بالنسبة لي أن أمضي في سبيلي فيها حتى عندما أكون وحيداً، بحيث يمكن بسهولة أن أختنق بين مخازني. وأحياناً أستطيع أن أنقذ نفسي من ضغط تلك المخازن عن طريق أكل وشرب ما يملأ مساحة واضحة من أجلي. لكن العمل الذي يكتنف النقل يكون ناجحاً، إذ إنني انتهيتُ منه في وقت معقول تماماً، فتصبح المتاهة ورائي، وأصل إلى ممر عادي وأتنفس بحرية، وأدفع أنقاضي عبر ممر ثانوي إلى ممر رئيسي مصمم خصيصاً لهذا الغرض، وهو ممر يميل إلى الأسفل بشدة نحو الحصن.

ما تبقى من أجل القيام به لا يعدّ حقاً عملاً على الإطلاق؛ إذ إن حملي بأكمله يتدحرج ويندفع إلى أسفل الممر تقريباً من تلقاء نفسه. الحصن أخيراً! أخيراً يمكنني أن أجرؤ على أخذِ قسط من الراحة. لم يتغير أي شيء، ولا يبدو أن حادثاً كبيراً قد حصل، فالعيوب الصغيرة القليلة التي ألاحظها للوهلة الأولى يمكن إصلاحها عما قريب؛ أولاً، على أي حال، يجب أن أذهب بجولتي الطويلة في جميع الممرات، لكن هذا الأمر لا يدعو إلى المشقة، فهو مجرد مناجاة مرة أخرى مع الأصدقاء، كما درجتُ على ذلك في كثير من الأحيان في الأيام الخوالي أو ـ إنني لستُ طاعناً جداً في السن حتى الآن، إلاّ أن ذاكرتي بالنسبة للعديد من الأشياء مرتبكة تماماً ـ كما كنتُ أقوم بذلك غالباً، أو كما سمعتُ في كثير من الأحيان بأنه تمّ القيام به. الآن أبدأ بالممر الثاني، بشكل بطيء عن قصد، ولأنني رأيت الحصن فإن لدي وقتاً لا نهاية له ـ ففي داخل الجحر دائماً ما يكون لدي وقت لا نهاية له ـ إذ كل ما أفعله هناك يكون جيداً ومهماً ويرضيني بطريقة أو بأخرى. أبدأ بالممر الثاني، لكنني أتوقف في المنتصف وأتحول إلى الممر الثالث وأسمح له بأن يرجعني مرة أخرى إلى الحصن، والآن بالطبع يجب أن أبدأ بالممر الثاني مرة أخرى، وهكذا فأنا أتلاعب بمهمتي وأعمد إلى إطالة أمدها وأبتسم إلى نفسي وأُسلّيها وأصاب بالدوار تماماً جرّاء كل العمل الذي ينتظرني، لكن لا أفكر ابداً في التحول بعيداً عنه. إنه من أجلك، أيتها الممرات والغرف، وأنت، أيها الحصن، قبل كل شيء، أنني عدتُ ثانية، لأواصل حياتي وكأن لا شيء مضمون فيه، بعد أن ارتجفتُ بغباء من أجله

لفترة طويلة، مؤجلاً عودتي لك. فهل أهتم بخطر الآن وأنا معك؟ أنت تنتمي إليّ، وأنا أنتمي إليك، نحن متحدان؛ ما الذي عساه أن يؤذينا؟ ماذا لو كان على خصومي أن يتجمعوا هناك وتستعد انوفهم لاختراق العشب؟ ووسط صمته وخوائه يجيبني الجحر، مؤكداً كلامي. لكن الآن يغلبني شعور بالتعب وفي غرفة أثيرة على نفسي أكوّر نفسي مؤقتاً، لأنني بعدُ لم أمسح كل شيء كما هو مطلوب، على الرغم من أنني ما أزال مصمماً على تفحّص كل شيء حتى النهاية؛ ليست لدي نية للنوم هنا، مجرد أنني استسلمتُ فقط إلى إغراء أن أجعل نفسي مرتاحة وأتظاهر بأنني أريد أن أنام، أنا أرغب فقط في معرفة إن كان هذا هو مكان ملائم للنوم كما كان عليه من قبل. إنه لكذلك، لكنه مكان مناسب للنوم افضل منه مكان لليقظة، وهكذا فأنا باقٍ مستلقياً حيث أنا في سبات عميق.

لا بد أنني نمتُ لفترة طويلة. ولم أستيقظ إلاّ عندما كنت قد وصلتُ إلى لحظات النوم الأخيرة الخفيفة التي انتهت من تلقاء نفسها، ولا بد أنه كان نوماً خفيفاً جداً، لأنه مجرد ضجيج خفيف غير مسموع تقريباً قد أيقظني. أدركت ما هو مصدر ذلك الصوت فوراً؛ إنها كانت تلك الكائنات الصغيرة، التي سمحتُ لها بقدر كبير من الحرية، قد حفرت قناة جديدة في مكان ما أثناء غيابي، لا بد أن هذه القناة صادف أن تتقاطع مع قناة أكثر قدماً، وقد حُبِس الهواء هناك، وذلك أنتج صوت الصفير. يا لها من مجموعة مشغولة لا تكل ولا تمل تلك الكائنات الصغيرة، وأي إزعاج يمكن أن يحدثه اجتهادها! أولاً سوف أضطر إلى الاستماع إلى جدران ممراتي وأحدّد مكان الضوضاء عن طريق الحفريات التجريبية، وعندها فقط سأكون قادراً على التخلص من الضوضاء. مع ذلك، قد تكون هذه القناة الجديدة موضع ترحيب كبير بوصفها وسيلة أُخرى للتهوية، إذا كان بالإمكان وضعها ضمن خطة الجحر. ولكن بعد هذا سوف أراقب مراقبة دقيقة تلك الكائنات الصغيرة أكثر مما اعتدتُ عليه؛ ولن أبقي على أيّ منها.

وبينما تتكوّن لديّ خبرة كبيرة في التحقيقات من هذا النوع فإن العمل ربما لن يستغرق مني طويلاً ويمكنني البدء فيه حالاً. صحيح أن هناك مهام أخرى في انتظاري، لكن هذه المهمة هي الأكثر إلحاحاً. لا بد أن يسود الصمت في ممراتي. مع ذلك، فإن هذا الضجيج بريء نسبياً؛ لم أسمعه على الإطلاق عندما وصلتُ بادئ ذي بدء، على الرغم من أنه لا بد أن يكون موجوداً هناك بالتأكيد. لا بد لي أن أشعر أولاً وكأنني في بيتي تماماً قبل أن أسمع ذلك الضجيج؛ فهو، إذا جاز التعبير، لا يمكن أن يكون مسموعاً إلاّ لأذن صاحب البيت. أضف إلى أنه ليس صوتاً متواصلاً، مثلما هو شأن أصوات كهذه عادة؛ فهناك وقفات طويلة، من الواضح إنها ناجمة عن توقف تيار الهواء. أبدأ في تحقيقاتي، لكنني لا أستطيع العثور عل المكان المناسب لأبدأ فيه، وبرغم أنني حفرتُ بعض الخنادق، إلاّ أنني أقوم بذلك بشكل عشوائي؛ وبطبيعة الحال ليس لهذا أي تأثير، فالعمل الشاق في الحفر والعمل الذي ما يزال أكثر صعوبة لملء الخنادق مرة أخرى وضرب الأرض حتى تصبح صلبة هو عمل ضائع في كثير من جوانبه. لا يبدو أنني أقترب إلى المكان حيث ترتفع فيه الضوضاء، فهي تستمر دائماً على الوتيرة الخفيفة ذاتها، بتوقفات منتظمة، آناً بما

يشبه صوت الصفير، وآناً أخرى بما يشبه صوت صفير. الآن يمكنني أن أتركه وشأنه في الوقت الحاضر؛ فهو مزعج للغاية، بالتأكيد، لكن لا يمكن ان يكون هناك أي شك في أن أصله هو مثلما وصفته في البداية. لذلك لا يمكن أن يصبح الصوت أعلى، على العكس من ذلك، مثل هذه الضوضاء ربما ـ برغم أنني حتى الآن لم أضطر إلى الانتظار طويلاً لما سيحدث ـ ربما تختفي تماماً من تلقاء نفسها بمرور الوقت من خلال استمرار العمل للحفارين الصغار. وبصرف النظر عن ذلك، في كثيرٍ من الأحيان تشاء الصدفة نفسها أن تضع المرء على مسار الاضطراب، حيث فشلَ التحقيق المنهجي لفترة طويلة.

بمثل هذه الطرق أواسي نفسي، وأقرر ببساطة مواصلة جولتي في الممرات، وزيارة الغرف، التي لم أرَ الكثير منها حتى الآن منذ عودتي، والتمتع في تأمل القلعة بين الفينة والأخرى بين الأوقات؛ لكن قلقي لن يسمح لي بذلك، فيما يجب أن أواصل بحثي. هذه المخلوقات الصغيرة تستغرق الكثير، الكثير جداً، من الوقت الذي يمكن توظيفه بشكل أفضل. في مثل هذه الحالات كما هو الحال الآن فإن المشكلة الفنية هي ما تجتذبني عادة؛ على سبيل المثال، من خلال الضوضاء، التي يمكن أن تميزها أذني في أدق درجاتها، بحيث تعطيني مخططاً واضحاً تمام الوضوح، أستنتج سببها، والآن أنا على أحر من الجمر لاكتشاف ما إذا كان استنتاجي صائباً. ولسبب وجيه، لأنه طالما لم يتم التثبّت من ذلك فأنني لا يمكنني أن أشعر بالأمان، حتى لو كان الأمر مجرد مسألة اكتشاف أين تدحرجت حبة رمل كانت قد سقطت من أحد الجدران. وان ضجيجاً كهذا هو بأية حال من الأحوال مسألة تافهة، إذا ما جرى النظر إليه من تلك الزاوية. لكن سواء كان تافهاً أو مهماً، لا يمكنني العثور على أي شيء، بغض النظر عن مدى مشقة البحث، أو قد يكون الأمر بأنني أجد الكثير الكثير. لا بد أن هذا كان قد حدث فقط في غرفتي الأثيرة إلى نفسي، هكذا أُحدّث نفسي، وأسير مسافة لا بأس بها بعيداً عنها، في منتصف الطريق تقريباً على طول الممر المؤدي إلى الغرفة التالية. إنني أفعل هذا كنوع من المزاح، متظاهراً أمام نفسي بأن غرفتي المفضلة ليست وحدها التي تلام، بل أن هناك اضطرابات في أماكن أخرى كذلك، وبابتسامة تعلو وجهي أبدأ في الاستماع. لكن سرعان ما أتوقف عن الابتسام، لأنه، بالتأكيد، الصفير نفسه يقابلني هنا أيضاً. لا شيء في الحقيقة ما يدعو إلى القلق؛ في بعض الأحيان أعتقد بأن لا أحد سواي سوف يسمع ذلك الصفير؛ صحيح بأنني أسمعه الآن بشكل اكثر وضوحاً، لأن أُذني قد أصبحت أكثر حدة عبر الممارسة؛ برغم أنه في الواقع هو بالضبط الضجيج نفسه أينما أسمعه، وهذا ما أقنعتُ به نفسي عن طريق مقارنة انطباعاتي. كما أنه لا يصبح أعلى صوتاً؛ وأنا أدرك هذا عندما أستمع في منتصف الممر بدلاً من إلصاق أذني على الجدار. عندها ببذل جهد جهيد، في الواقع مشفوع بنية كبيرة، يكون بإمكاني تخمين أكثر منه سماع مجرد أثر تلك الضجة بين الفينة والأخرى. ولكن هذا الاتساق في الضجيج في كل مكان هو الذي يزعجني أكثر من غيره، لأنه لا يمكن أن يتماشى مع افتراضي الأصلي. وإذا ما خمَّنت بشكل صائب سبب الضجيج، إذن لا بد أنه قد صدر بأعنف قوة من مكان ما، حيث سيكون من واجبي اكتشافه، وبعد ذلك قد خَفَتَ شيئاً فشيئاً.

لكن عندما لا تفي فرضيتي بالقضية، فماذا يمكن أن يكون التفسير؟ ما تزال هناك إمكانية وجود مصدرين للضجيج، الذَين حتى الآن أستمع إليهما من على مسافة لا بأس بها من المركزَين، وبينما يزداد الضجيج، عندما أقترب من أحدهما، تبقى النتيجة الإجمالية تقريباً نفسها بالنسبة للأذن نتيجة لخفض حجم الصوت من المركز الآخر. لقد سبق لي وتخيلتُ في بعض الأحيان، عندما كنتُ أستمع باهتمام، بأنني أستطيع أن أميّز، ولو على نحو غير واضح، الاختلافات في النغمة التي تدعم هذا الافتراض الجديد. على أي حال، عليّ أن أوسّع مجال تحقيقي أبعد بكثير مما فعلت. ووفقاً لذلك أهبط من الممر إلى الحصن وأبدأ بالاستماع هناك. والغريب هو أن الضجة نفسها هناك أيضاً. الآن إنها ضجة ناجمة من عمليات الحفر لبعض الأنواع من الكائنات الصغيرة التي استغلت غيابي بشكل مقيت. على أي حال ليس لديها نية لإيذائي، فهي ببساطة منهمكة في عملها، وطالما لا توجد أية عقبة في طريقها فإنها سوف تستمر في الاتجاه الذي سارت عليه: أنا أعرف كل هذا، مع ذلك فإن مسألة تجرّئها على الاقتراب من الحصن نفسها تبقي غير مفهومة بالنسبة لي وتملأني بالإثارة، وتشوّش عليّ القدرات التي أنا بأمس الحاجة إليها للقيام بالعمل الذي ينتظرني. وهنا، ليست لدي أي رغبة في اكتشاف ما إذا كان الأمر يتعلق بالعمق غير العادي الذي تقع عليه القلعة، أم أن الأمر يتعلق بمداها الكبير وعملية شفط الهواء القوية المرافقة لذلك، المصمم لإبعاد المخلوقات التي تحفر، أو مجرد حقيقة أن الأمر يتعلق بالحِصن، التي بطريقة أو بأخرى قد ترسخت في عقولهم الغبية. على أي حال، لم ألاحظ أية علامة على الحفر في جدران الحصن حتى الآن. صحيح أن حشوداً من الوحوش الصغيرة قد جاءت إلى هنا، تجتذبها الروائح القوية؛ وبهذا كان لديّ أرضية صيد ثابتة، لكن فرائسي دائماً ما كانت تفتح طريقاً في الممرات العليا، ومن ثم تأتي هابطة إلى هنا، خائفة إلى حد ما، إلاّ أنها غير قادرة على تحمل مثل هذا الإغراء. لكنها الآن، على ما يبدو، تحفر في جميع الممرات. آه لو قيّض لي فقط القيام بأفضل الخطط الكبرى التي فكرتُ فيها في شبابي وبداية رجولتي، أو بالأحرى، لو قيّض لي فقط أن أمتلك القوة اللازمة لتنفيذها، لأنه ما كان هناك أي نقص في الإرادة. إن إحدى خططي هذه المفضلة تتلخص في عزل الحصن عن المناطق المحيطة بها، أي بمعنى، تحديد سمك جدرانها إلى حوالي ارتفاعي أنا، وترك مساحة خالية بحوالي العرض نفسه في جميع أنحاء الحصن، باستثناء أساس ضيق، لسوء الحظ سيتعين تركه ليتحمل البناء ككل.

كنتُ دائماً اتصوّر هذه المساحة الخالية، وهذا ليس من دون سبب، على أنها أجمل مزار يمكن تخيله. فيا لها من فرحة أن يستلقي المرء ملتصقاً بالجدار الخارجي المدور، ويسحب نفسه، ويدعها تتزلق مرة أخرى، ويفقد موطئ قدمه ويجد نفسه على الأرض الصلبة، ويلعب كل تلك الألعاب تماماً على الحصن وليس داخله. ومن أجل تجنّب الحصن، ومن أجل أن يريح المرء عينيه من النظر إليه كلما أراد ذلك، ومن أجل تأجيل فرحة رؤيته حتى وقت لاحق ولكن من دون وجوب الاستغناء عنه، بل بالضبط يقوم بإبقائه آمناً بين مخالبه، وهو أمر يكون مستحيلاً إذا كان لديك فقط مدخل مفتوح اعتيادي إليه؛ ولكن قبل كل شيء من أجل أن تكون قادراً على الوقوف حرساً عنده، وبتلك الطريقة تعوَّض تعويضاً كاملاً عن مشهد رؤيته الفعلية

بحيث، إذا كان على المرء أن يختار بين البقاء جميع حياته في الحصن أو في المساحة الخالية خارجه، لاخترَ الأخير، مقتنعاً بالتجوال صعوداً وهبوطاً هناك طوال اليوم ويحرس الحصن. وبهذا لن تكون هناك أية ضوضاء في الجدران، ولا عملية حفر وقحة تطال الحصن نفسه. عندئذ سيستتب السلام هناك وسأكون حارسه؛ ثم لن يتوجب عليّ الاستماع باحتقار إلى عملية الحفر التي تقوم بها الكائنات الصغيرة، بل أصغي بفرح لشيء لا أستطيع أن أسمعه الآن على الإطلاق: ألا وهو صمت الحصن المغمغم.

لكن ذلك الحلم الجميل أصبح من الماضي ويتعيّن عليّ أن أبدأ بالعمل، وأنا سعيد إلى حد ما بأن عملي الآن مرتبط ارتباطاً مباشراً بالحصن، لأن ذلك سيعجّل في انجازه. بالتأكيد، كما يمكنني أن أرى بشكل أكثر وضوحاً، بأنني بحاجة إلى كل طاقاتي لإنجاز هذه المهمة، التي بدت في البداية مهمة تافهة تماماً. إنني أستمع الآن إلى جدران الحصن، وأينما أستمع، في الأعلى او في الأسفل، على السطح أو الأرض، عند المدخل أو في الزوايا، في كل مكان، في كل مكان، أسمع الضجيج نفسه. وكم من الوقت، وكم من الرعاية يجب أن أوليها في الاستماع إلى ذلك الضجيج، بتوقفاته المنتظمة. وبوسع المرء، إذا رغب في ذلك، أن يجد عزاءً خادعاً صغيراً في حقيقة أنه هنا في الحصن، بسبب سعته، لا يسمع المرء أي شيء على الإطلاق، كما هو واضح من الممرات، عندما يقف المرء وراء الجدران. وبوصفها راحة ووسيلة لاستعادة رباطة جأشي فأنا غالباً ما اقوم بهذه التجربة، وأستمع باهتمام وأشعر بسعادة غامرة عندما لا أسمع شيئاً. لكن يبقى السؤال، ما الذي يمكن أن يحدث؟ وأنا بمواجهة هذه الظاهرة يصبح تفسيري الأصلي باطلاً تماماً. لكن عليّ أيضاً أن أرفض التفسيرات الأخرى التي تطرح نفسها أمامي. على سبيل المثال، يمكن للمرء أن يفترض بأن الضجيج الذي أسمعه هو ببساطة ضجيج تصدره تلك الكائنات الصغيرة نفسها أثناء عملها. إلاّ أن كل تجاربي تناقض هذا؛ إذ إنني لا أستطيع أن أبدأ فجأة بسماع شيء الآن لم يسبق لي أن سمعتُه من قبل على الرغم من أنه كان دائماً هناك. إن حساسيتي لهذه الاضطرابات في الجحر قد أصبحت أعظم على مرّ السنين، مع ذلك فقد أصبح سمعي بأي حال من الأحوال أكثر حدّة. إذ إنه من طُبيعة هذه الكائنات الصغيرة أن لا يسمع صوتها أحد. هل تغاضيتُ معها بطريقة أُخرى؟ حتى في خطر الموت جوعاً فإن باستطاعتي إبادتها. ولكن ربما ـ حيث تبرز هذه الفكرة الآن ـ أنا مهتم هنا بحيوان ما غير معروف بالنسبة لي. ذلك ممكن. صحيح أنني قد أمعنتُ في الحياة هنا في الأسفل طويلاً وباهتمام كبير، لكن العالم مليء بالتنوع ولا يفتقر أبداً إلى المفاجآت المؤلمة. مع ذلك لا يمكن أن يكون هذا حيواناً واحداً، لا بد أنه سرب كامل قد أتى فجأة إلى مكاني، سرب ضخم من مخلوقات صغيرة، طالما يكون صوتها مسموعاً، لا بد أنها بالتأكيد أكبر من الكائنات الصغيرة، لكنها مع ذلك لا يمكن أن تكون أكبر من ذلك بكثير، لأن صوت أعمالها هو بحد ذاته خافت جداً. قد يكون، إذن، سرب من مخلوقات مجهولة أثناء جولاتها، صادف أن تمرّ بطريقي وتزعجني، لكنها سوف تتوقف حالياً عن القيام بذلك. لذلك يمكنني حقاً أن أنتظرها لتمرّ، ولا حاجة أن أتجشم عناء عمل سيكون غير ضروري في نهاية المطاف. مع ذلك إذا كانت هذه

المخلوقات غريبة، فلماذا لا أرى مطلقاً أياً منها؟ لقد حفرتَ فعلاً مجموعة من الخنادق، على أمل الإمساك بواحد منها، لكنني لا أستطيع أن أجد واحداً من تلك المخلوقات. ثم يخيّل اليّ بأنها قد تكون مخلوقات صغيرة جداً، اصغر بكثير من أيّ مخلوقات أعرفها، وبأنه ليس هناك شيئاً كبيراً سوى الضجيج الذي تقوم به. ووفقاً لذلك فأنا احقّق في التربة التي قمتُ بحفرها، وألقي بالكتل في الهواء حتى يتسنى لها ان تتفتت إلى جزيئات صغيرة جداً، لكن مثيري الضجيج ليسوا من بينها. وأدرك ببطء بأنه من خلال حفر مثل هذه الخنادق العشوائية الصغيرة بأنني لا أحقق شيئاً؛ إذ في القيام بذلك فأنا مجرد أشوّه جدران جحري، بينما أخربش على عجل هنا وهناك من دون ان آخذ الوقت لملء الثقوب مرة أخرى. ففي العديد من الأماكن ثمة أكوام من التراب التي تقطع طريقي وتحجب رؤيتي. مع ذلك، هذا هو مجرد قلق ثانوي؛ حيث إنني الآن لا أستطيع أن أتجول في منزلي، ولا أستطيع أن أنعم النظر فيه، ولا أرتاح فيه. وغالباً ما كنتُ أخرّ نائماً في مكان عملي في هذه الحفرة أو تلك، وأنا أمسك بالتربة فوقي بأحد مخالبي، حيث كنت بنوع من الانذهال أحاول أن أمزّق منها قطعة ما.

أعتزم الآن تغيير أساليبي. سأقوم بحفر خندق واسع ومشيّد بعناية باتجاه الضجيج ولا أتوقف عن الحفر، بغض النظر عن جميع النظريات، حتى أجد السبب الحقيقي وراء الضجيج. ثم سأقضي عليه، إذا كان ذلك في حدود امكانياتي، وإذا لم يكن كذلك، فإنني على الأقل سأعرف الحقيقة. وتلك الحقيقة سوف تعود عليّ إما بالسلام أو اليأس، ولكن أياً كانت النتيجة، فسوف يكون ذلك وراء الشكوك أو التساؤلات. هذا القرار يقوّي عزيمتي. فكل الذي فعلته حتى الآن يبدو لي متسرعاً إلى درجة بعيدة. ففي غمرة حماسي في العودة، وبينما لم أحرر نفسي بعدُ من هموم العالم العلوي، ولم يغمرني تماماً سلام الجحر، بل كنت شديد الحساسية في اضطراري إلى التخلي عنه لمثل هذا الوقت الطويل، فقد سقطتُ في ارتباك ذهني كامل جرّاء ذلك الضجيج غير المألوف. فماذا عساه كان ذلك الصوت؟ صفير خافت، لا يكون مسموعاً إلاّ على فترات طويلة، هو مجرد شيء تافه لا أستطيع القول حياله بأن المرء يمكنه أن يعتاد عليه في الحقيقة، لأنه لا أحد يمكنه أن يعتاد على ذلك، ولكن بوسع المرء، من دون فعل أي شيء في الحال، أن يراقب لفترة من الزمن. بمعنى، الاستماع لساعات قليلة، مثلاً، وتسجيل النتائج بصبر، بدلاً من، كما فعلتُ سابقاً، إبقاء إذن المرء ملتصقة على الجدار والقيام عند كل تلميح بحدوث ضجيج بتمزيق كتلة من الأرض، ليس حقاً على أمل العثور على أي شيء، ولكن ببساطة من أجل فعل شيء ما للتنفيس عن الهياج الداخلي للمرء. ويحدوني أمل في أن كل ذلك سيُغيره الآن. ومن ثم، بعينين مغمضتين غاضبتين، لا بد لي من الاعتراف لنفسي بأنني لا آمل شيئاً من هذا النوع، لأنني ما زلت أرتجف من هول الإثارة تماماً مثلما كنتُ قبل ساعات خلت، وإذا لم يخذلني تفكيري فأنا ربما لا أحب شيئاً أفضل من أن أبدأ بعناد وأحفر بتحدّ، ببساطة من أجل الحفر، في مكان ما أو غيره، سواء أسمعت أي شيء هناك أم لا؛ تقريباً مثل الكائنات الصغيرة، التي تحفر إما من دون أي سبب على الإطلاق أو ببساطة لأنها تأكل التربة. إن خطتي الجديدة والمعقولة تغريني وتهدئني. لا شيء فيها ما يُعترَض عليه، فأنا على الأقل لا أعرف أي اعتراض. لا

بد، بقدر ما أستطيع أن أرى، من تحقيق هدفي. ومع ذلك أنا أصلاً لا أؤمن فيها؛ إذ إنني أؤمن فيها قليلاً جداً حتى أنني لا أخشى المخاوف التي قد يجلبها نجاحها، بل لا أؤمن حتى بخاتمة مروعة؛ فعلاً يبدو لي بأنني كنتُ أفكر منذ الظهور الأول للضجيج بمثل هذا الخندق المثالي، ولم أبدأ فيه حتى الآن ببساطة لأنني لم أضع أية ثقة فيه.

وعلى الرغم من ذلك سوف أبدأ طبعاً ببناء الخندق؛ إذ ليس لدي أي بديل آخر؛ لكنني لن أبدأ حالاً، بل سوف أؤجل المهمة لبعض الوقت. فلو قيّض للعقل أن يعود ثانية إلى رشده، لوجبَ أن يعاد بشكل كامل؛ فأنا لن أندفع بشكل أعمى في مهمتي. على أي حال سأقوم أولاً بإصلاح الضرر الذي قد الحقته بالجحر بطريقة حفري الطائشة. وهذا سوف يستغرق وقتاً طويلاً تماماً، لكنه ضروري؛ إذ لو أريد للخندق الجديد أن يصل حقاً إلى مبتغاه فلربما كان طويلاً، ولو كان ينبغي له أن لا يؤدي إلى أي شيء على الإطلاق فسيكون بلا نهاية. مهما يكن من أمر فهذه المهمة تعني غياباً طويلاً بعض الشيء عن الجحر، على الرغم من أن غياباً كهذا لا يكون بأي حال من الأحوال مؤلماً جداً كالغياب في العالم العلوي، لأنني يمكن أن أقطع عملي متى ما أحب وأقوم بزيارة منزلي. وحتى لو لم أفعل ذلك فإن هواء الحصن سوف يهبّ عليّ ويحيطني أثناء عملي. مع ذلك فهذا يعني ترك الجحر وتسليم نفسي إلى مصير مجهول، ومن ثم أريد أن أغادر الجحر وكل شيء على ما يرام ورائي؛ حتى لا يمكن أن يقال بأنني، الذي أقاتل من أجل سلامته، قد دمّرت بنفسي ذلك السلام من دونه إعادته حالاً. لذلك سأبدأ بتجريف التربة وأعيدها ثانية إلى الثقوب التي أخِذتْ منها تلك التربة، وهو نوع من العمل مألوف لديّ، إذ إنني قد فعلته مرات لا تحصى تقريباً من دون النظر إليه على أنه عمل، والذي لا أهزَمَ فيه، لا سيما فيما يتعلق بعملية الضغط النهائي والتمهيد الأولي ــ وهذا ليس تفاخر أجوف، بل هي الحقيقة المجردة ــ فأنا لا أهزَم. لكن هذه المرة يبدو كل شيء صعباً، وأنا مشتت غاية التشتت، فأضغط أذني بين الحين والآخر، في منتصف عملي، على الحائط وأستمع، ودون الالتفات إلى أي شيء أسمح للتربة التي قد رفعتها للتو بأن تتناثر راجعة إلى الممر مرة أخرى. أما الترتيبات النهائية، التي تتطلب اهتماماً أكثر دقة، فلا يمكنني انجازها بالمرة. فما تزال هناك نتوءات قبيحة، وشقوق مزعجة، ناهيك عن حقيقة أن الروح القديمة لا يمكن ببساطة العودة بها مرة أخرى إلى جدار مرقّع بمثل هذه الطريقة. وأحاول أن أسلّي نفسي بالتفكير بأن عملي الحالي مؤقت ليس إلاّ. فعندما أعود بعد استتباب السلام فسوف أقوم بإصلاح كل شيء كما ينبغي: إذن فالعمل سيكون مجرد لهو بالنسبة لي. أوه نعم، العمل مجرد لهو في حكايات الجنيات، وسلوتي هذه تنتمي إلى عالم الحكايات أيضاً. وسيكون من الأفضل بكثير القيام بهذا العمل بشكل كامل الآن، في الحال، وأكثر عقلانية من اعتراضه بشكل دائم والتجوال عبر الممرات لاكتشاف مصادر جديدة من الضجيج، وهو أمر سهل للغاية، فكل ما هو مطلوب هو التوقف عند أي نقطة يريدها المرء والاستماع.

وتلك ليست نهاية اكتشافاتي العقيمة. في بعض الأحيان أتوهم بأن الضجيج قد توقف، لأنه يتوقف فترات طويلة؛ وفي أحيان أخرى لا يميّز المرء مثل هذا الصفير

الخافت، فيضرب دمُه بصوت عالٍ جداً في أذنيه. ثم يحدث توقفان الواحد تلو الآخر، ويعتقد المرء لبرهة بأن الصفير قد توقف إلى الأبد. عندها لم أعد أستمع، فقط أقفز عالياً، فتتبدّل الحياة؛ كما لو أن الينابيع التي يتدفق منها صمت الجحر قد فُتِحت. وأحجم عن التحقق من اكتشافي على الفور، أريد أولاً العثور على شخص ما أستطيع أن أسرّ له بكل حسن نية، لذلك أهرع إلى الحصن، وأتذكر، لأنني وكل شيء داخلي قد أستيقظ على حياة جديدة، بأنني لم أتناول أي شيء لفترة طويلة، واختطف هذا الشيء أو ذاك من بين متجري من المواد الغذائية نصف المدفون تحت الحطام وأبدأ على عجل بابتلاعه بينما أكرّ راجعاً إلى المكان حيث قمتُ باكتشافي العجيب، أريد فقط أن أؤكد لنفسي هذا الموضوع بشكل عرضي، عفويّ، بينما أتناول طعامي. وأستمع، لكن الاستماع الأكثر مللاً يظهر على الفور بأنني خُدِعْتُ بشكل مخجل: وبعيداً هناك في المدى ما يزال الصفير باقياً. ثم أبصق طعامي إلى الخارج، وأود أن أدوسه تحت قدمي، وأعود مرة اخرى إلى مهمتي، لا يهمّ أي شيء أبدأ به؛ في أي مكان يبدو بحاجة إلى عملي، وهناك أماكن كثيرة من هذا القبيل، وأبدأ بصور آلية مع هذا العمل أو ذاك، كما لو أن الرائي كان قد ظهر ولابد أن يتظاهر بالعمل لصالحه. لكنني لم أبدأ العمل بهذه الطريقة عندما يصادف بأنني أتوصل إلى اكتشاف جديد. يبدو أن الضجيج قد أصبح أعلى صوتاً، ليس كثيراً، بطبيعة الحال ـ هنا دائماً ما تكون هذه مسألة ذات ظلال دقيقة ـ لكن أعلى بما فيه الكفاية بحيث تستطيع الأذن ان تميّزه بشكل واضح. وهذا الصوت المتزايد علواً يبدو وكأنه أكثر قرباً؛ فهو ما يزال أكثر وضوحاً مما تسمع من الصوت المتزايد للضجيج، ويمكنك أن ترى حرفياً الخطوة التي تقربه إليك. وتقفز من الجدار، وتحاول أن تفهم في الحال كل العواقب المحتملة التي سيجلبها معه هذا الاكتشاف. تشعر كما لو أنك لم تنظم حقاً الجحر للدفاع ضد أي هجوم؛ لقد كنتَ قد اعتزمتَ القيام بذلك، ولكن على الرغم من كل ما تمتلكه من تجربة في الحياة فإن خطر أي هجوم، ومن ثم الحاجة إلى تنظيم مكان للدفاع، بدا بعيداً ـ أو بالأحرى ليس بعيداً (كيف يمكن أن يكون كذلك!) ـ ولكنه أقل أهمية إلى أبعد حد من الحاجة إلى وضعه في حالة يمكن للمرء أن يعيش بسلام؛ ومن ثم تُعطى هذه الاعتبارات أولوية في كل ما يتعلق بالجحر. لقد تمّ القيام بأشياء كثيرة في هذا الاتجاه من دون التأثير على الخطة عموماً؛ حيث جرى إهمالها بشكل غير مفهوم. لقد كان لي قدر كبير من الحظ كل تلك السنوات، حظ أفسدني؛ لقد تملّكني القلق، لكن القلق لا يؤدي إلى شيء عندما تمتلك حظاً يدعمك.

إن الشيء الذي يجب القيام به، حقاً ما يجب القيام به الآن، هو تفحص الجحر بعناية والنظر في كل وسيلة ممكنة للدفاع عنه، ووضع خطة للدفاع وخطة مماثلة للبناء، ومن ثم البدء في العمل في الحال بفورة الشباب. ذلك هو العمل الذي سيكون مطلوباً حقاً، الذي يمكن أن أضيف، بأن الوقت متأخر جداً الآن؛ ولكن ذلك ما يكون مطلوباً حقاً، وليس حفر خندق تجريبي كبير، ستكون نتيجته الحقيقية الوحيدة هي الدفع بي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي في غياهب البحث عن الخطر، بسبب الخوف الأحمق الذي لن يصل بسرعة كافية من تلقاء نفسه. وفجأة لا أستطيع أن أفهم خطتي السابقة. إذ لم أستطع أن أجد أقل أثر للعقل في ما بدا معقولاً جداً؛ ومرة أخرى

أتنحّى عن عملي بل وحتى عن استماعي. فليس لدي أية رغبة في اكتشاف أية اشارات أخرى على أن الضجيج يرتفع بصوت أعلى؛ حيث كان لدي ما يكفي من الاكتشافات. إنني أدع كل شيء يتلاشى. سأكون مقتنعاً تماماً لو استطعتُ تخفيف حدة الصراع الذي يعتمل داخل صدري. ومرة أخرى سمحتُ لممراتي ان تقودني حيثما تشاء، وآتي إلى ممرات نائية أكثر فأكثر لم يسبق لي أن رأيتها منذ عودتي، لم تتأثر تماماً بخربشات مخالبي، ممرات يرتفع صمتها ليلاقيني ويغمرني. أنا لا أستسلم له، بل أسرع قُدماً، لا أعرف ما أريد، ربما ببساطة لتزجية الوقت. وأتيه بعيداً بحيث أجد نفسي في المتاهة، وتغريني فكرة الاستماع تحت الغطاء العشبي؛ فمثل هذه الأشياء القصية، القصية في الوقت الحاضر، تشدّ اهتمامي. اغذّ طريقي إلى الأمام وأستمع. سكون مطبق؛ ما أروعه في هذا المكان، وفي الخارج لا أحد هناك يهمّه أمر جحري، فلكل امرئ شأن يغنيه، ليس له أية صلة بي؛ كيف تسنّى لي تحقيق ذلك؟ هنا تحت الغطاء العشبي ربما هو المكان الوحيد في جحري الآن حيث أستطيع الاستماع لساعات لكن من دون سماع أي شيء. إنه انقلاب تام للأشياء في الجحر. فما كان ذات مرة مكمناً للخطر قد أصبح مكاناً للهدوء، في حين كان الحصن غارقاً في معترك هذا العالم و كل مخاطره.

والأسوأ من ذلك، حتى هنا لا يوجد سلام في الواقع، لم يتغير شيء هنا؛ الصمت أو الصخب، والخطر يتربّص بي كما كان من قبل فوق العشب، لكنني لم أعد أحسّ به، إذ انشغل ذهني إلى أبعد حدّ بالصفير المنبعث من جدراني. هل حقاً انشغل ذهني به؟ إنه يصبح أعلى، إنه يقترب، لكنني أنسلّ ملتوياً في طريقي من خلال المتاهة وأصنع لنفسي متكئاً هنا تحت العشب؛ يكاد أن يكون الأمر كما لو أنني تركتُ المنزل متجهاً نحو الصفير، راضياً إن استطعتُ فقط الفوز بالقليل من السلام هنا. نحو الصفير؟ هل توصلتُ، عندئذ، إلى استنتاج جديد بشأن سبب الضجيج؟ لكن بالتأكيد أن سبب الضجيج هو القنوات التي حفرتْها تلك الكائنات الصغيرة؟ أليس ذلك هو رأيي المعتبر؟ من الواضح لي بأنني لم أتراجع عنه حتى الآن. وإذا لم يكن الضجيج مباشرة بسبب هذه القنوات، فهي تؤثر بشكل غير مباشر. وحتى لو لم يكن للضجيج أية علاقة بها أيا كان نوعها، فلا يحق للمرء أن يضع افتراضات مسبقة، بل يجب أن ينتظر حتى يجد السببَ، أو تكشف المشكلة عن ساقها. يمكن للمرء أن يستأنس بالفرضيات، بطبيعة الحال، حتى عند هذه المرحلة؛ على سبيل المثال، فمن الممكن أن يكون هناك تدفّق مياه على بعد مسافة معينة، وما يبدو لي نفخاً أو صفيراً هو في الواقع صوت طرطشة الماء. لكن بصرف النظر عن حقيقة أنه ليس لدي خبرة في هذا المجال ـ فالمياه الجوفية التي وجدتها في البداية قد نزحتها بعيداً في الحال، وفي هذه التربة الرملية لم تعد المياه أبداً إلى سابق عهدها ـ بصرف النظر عن هذه الحقيقة فإن الضجيج هو بشكل لا يمكن إنكاره عبارة عن صفير وببساطة لا يُترجم إلى طرطشة. ولكن ما فائدة كل عمليات الحث على التزام الهدوء، وخيالي لن يهدأ، وأنا فعلاً قد اعتقدتُ ـ ولا جدوى من إنكار ذلك لنفسي ـ بأن الصفير يقوم به وحش ما، وبهذا فهو لا يصدر عن كائنات صغيرة كثيرة جداً، بل يصدر عن كائن كبير واحد. لكن العديد من الدلائل تناقض هذا. إذ يمكن سماع الضجيج في كل مكان ودائماً بالقوة نفسها، وعلاوة على ذلك يكون بوتيرة واحدة، سواء ليلاً ام

نهاراً. لذلك، في البداية لا يسع المرء إلا أن يميل إلى فرضية أن هناك عدداً كبيراً من الكائنات الصغيرة. لكن طالما كان عليّ أن أجد بعضاً منها أثناء عملية الحفر التي أقوم بها ولم أجد شيئاً، لم يبقَ لي سوى أن أفترض وجود وحش كبير، وخاصة أن الأشياء التي تبدو تتعارض مع الفرضية هي مجرد أشياء تجعل الوحش، وليس ذلك مستحيلاً، خطراً بحيث تتجاوز خطورته قوى تصورات المرء. ولهذا السبب وحده قد قاومتُ هذه الفرضية. وسوف أكفّ عن هذا الخداع الذاتي. إذ إنني لمدة طويلة من الزمن كانت تراودني فكرة أن الوحش يمكن سماعه على بعد مثل هذه المسافة الكبيرة لأنه يعمل بشراسة شديدة.

إنه يحفر بسرعة كبيرة في الأرض سرعة ذلك الذي يستطيع المشي على الطريق المفتوح. ماتزال الأرض ترتجف نتيجة عمليات حفره عندما توقف؛ وهذا الصدى والضجيج الناتج من الحفر نفسه يتّحدان في صوت واحد عند مثل هذه المسافة الكبيرة، وبينما لا أسمع سوى آخر انحسار خافت من ذلك الصوت، فإنني أسمعه دائماً بالقوة الموحدة نفسها. ويترتب على ذلك أيضاً بأن الوحش لا يتوجه صوبي، كوني أرى بأن الضجيج لا يتغير ابداً. على الأرجح إن لديه خطة يضمرها في نفسه لا أستطيع فك طلاسم غرضها؛ أنا أفترض فقط بأن الوحش ـ وأنا لا أدّعي بأنه يعرف بوجودي ـ يقوم بتطويقي. فهو ربما قام بحفر عدة دوائر حول جحري مذ بدأتُ بمراقبته. إن طبيعة الضجيج، أو النفخ أو الصفير، تغذّي تفكيري كثيراً. عندما أخربش وأكشط في التربة بطريقتي الخاصة يكون الصوت مختلفاً تماماً. أستطيع أن أشرح الصفير فقط بهذه الطريقة: إن وسيلة الوحش الرئيسية في الحفر ليست مخالبه، التي ربما يستخدمها فقط كمصدر ثانوي، بل وسيلته في الحفر هي خطمه أو أنفه، الذي، بطبيعة الحال، بصرف النظر عن قوته الهائلة، لابد أيضاً أن يكون حاداً إلى حدّ ما في تلك الحالة. من المحتمل أن ذلك الوحش يغرس خطمه في الأرض بدفعة واحدة قوية ويقتطع كتلة كبيرة؛ وبينما هو يقوم بذلك فأنا لا أسمع شيئاً. ذلك هو التوقف. لكن بعد ذلك يستنشق الهواء استعداداً لدفعة جديدة. سحب أنفاسه هذا، الذي لا بد أن يُحدث ضجة هائلة، ليس فقط بسبب قوة الوحش، بل بسبب سرعته، أو شهوته المتأججة للعمل أيضاً: هذا هو الضجيج الذي أسمعه إذن كصفير باهت. ولكن ما تزال غير مفهومة تماماً قدرة الوحش على العمل من دون توقف؛ وربما توفر التوقفات القصيرة له فرصة لانتزاع لحظة من الراحة. لكن على ما يبدو أن الوحش لم يسمح لنفسه لحد الآن براحة طويلة حقاً، فهو يواصل الليل بالنهار في عملية الحفر، ودائماً بالحيوية والنشاط السابقَين نفسيهما، والتفكير الدائم بهدفه، الذي لا بد أن يتحقق بأقصى سرعة، والذي لديه القدرة على إنجازه بكل يسر. الآن لا أستطيع أن أتكهن بخصم كهذا. ولكن بغض النظر تماماً عن خصال الوحش الغريبة، فإن ما يحدث الآن هو مجرد شيء لا بد أنني قد خشيته حقاً طوال الوقت، وهو أمر كان ينبغي لي أن أكون مستعداً له على الدوام: وهو حقيقة أن كائناً ما سيأتي. ووفق أي معايير أمكن لكل هذه الأشياء أن تستمر بذلك الهدوء والسعادة لمثل هذا الوقت الطويل؟ مَن يكون قد حوّل أعدائي عن مسارهم، وأجبرهم على القيام بالتفاف مؤقت وأسع حول ممتلكاتي؟ لماذا قد نجوتُ طوال تلك الفترة، لمجرد أن أقع فريسة لمثل هذا الرعب الآن؟

وبالمقارنة مع هذا، ما هي كل هذه المخاطر الصغيرة التي أتوجّس منها والتي قضيت حياتي في خضمها! هل كنت أتمنى، بوصفي صاحب الجحر، أن أكون في وضع أقوى من أي عدو قد سنحت له فرصة ليظهر؟ لكن ببساطة بحكم كوني صاحب هذا الصرح الضعيف الكبير فأنا بشكل واضح أعزل حيال أي هجوم خطير. إن فرحة امتلاكه قد أضرّت بي، وضعف الجحر جعلني عرضة للخطر؛ وأي إصابة يتعرض لها تضرّ بي كما لو كنتُ أنا مَن أصيب. هذا هو بالضبط ما كان ينبغي أن أتوقعه؛ فبدلاً من التفكير فقط في الدفاع عن نفسي ـ وكيف قمتُ بذلك بشكل رتيب وبلا فائدة ـ كان ينبغي أن أُفكر في الدفاع عن الجحر. وفوق كل هذا، يقتضي الاحتياط بأن أفصل أجزاءً من الجحر، وبأكبر عدد ممكن، عن الأجزاء المهدَّدَة عندما تتعرض للهجوم؛ كان ينبغي أن يكون هذا عن طريق إحداث انهيارات أرضية مرتجلة، مخطط لها أن تعمل في لحظة واحدة؛ وفضلاً عن ذلك ينبغي أن تكون هذه سميكة جداً، وتشكّل حاجزاً فعلياً، بحيث أن المهاجم لن يخمن بأن الجحر الحقيقي كان يبدأ فقط من الجهة الأخرى. أكثر من ذلك، كان ينبغي أن تكون هذه الانهيارات الأرضية قد وُضِعت بحيث لا تُخفي الجحر فقط، بل تدفن المهاجم أيضاً. لكنني لم أقم بأدنى محاولة من اجل تنفيذ مثل هذه الخطة، ولا شيء على الإطلاق قد جرى القيام به في هذا الاتجاه، لقد كنتُ متبلد التفكير كأنني طفل، وقد أفنيتُ سنوات عمري في ألعاب صبيانية، لم أفعل شيئاً سوى التهاون حتى بفكرة الخطر، لقد تهرَّبت حقاً من التفكير في الخطر الحقيقي. وبهذا لم يكن هناك أي افتقار للتحذير.

لا شيء، بالطبع، يحاكي الوضع الحالي قد حدث من قبل؛ مع ذلك ثمة حادثة لا تختلف عن ذلك عندما جرى البدء بالجحر. إن الفرق الرئيسي بين ذلك الوقت وهذا الوقت يكمن ببساطة في أن الجحر قد جرى البدء به في ذلك الحين... في تلك الأيام لم أكن بالضبط أكثر من متدرب متواضع، والمتاهة كانت مرسومة بإطار تقريبي، وكنت قد حفرتُ بالفعل غرفة صغيرة، لكن نسب وتنفيذ الجدران أفسِدتْ للأسف. باختصار، كان كل شيء مؤقتاً بحيث لا يمكن النظر إليه سوى إنه تجربة، وأنه شيء ما، إذا ما عيل صبر المرء في يوم من الأيام، يمكنه أن يتركه وراءه من دون الكثير من الندم. ثم في يوم من الأيام وأنا أستلقي على كومة من التراب لأستريح من العمل ـ لقد استرحتُ في كثير من الأحيان من أعمالي طوال حياتي ـ فجأة سمعتُ ضجيجاً في المدى. ولكوني صغيراً في ذلك الحين، لم أشعر بالخوف بقدر شعوري بالفضول. فتركتُ عملي لحاله وجعلتُ أستمع. استمعت واستمعت، ولم تكن لدي رغبة في الذهاب إلى الأعلى تجاه غطائي العشبي وتمددت هناك حتى لا أضطر إلى سماع أي شيء. لكنني استمعت، على الأقل. استطعت أن أدرك بوضوح بأن الضجيج جاء من نوع من أعمال الحفر يشبه الحفر الذي أقوم به. كان إلى حد ما أضعف، بطبيعة الحال، ولكن ليس بوسع المرء أن يتصور كم من الحفر الذي يجري عن بعد. كنتُ مهتماً اهتماماً شديداً بذلك، لكنني مع ذلك كنت هادئاً ومستقراً. ربما أنا في جحر شخص ما آخر، فكرت في نفسي، والآن يقدّ المالك طريقه نحوي. ولو صحّ ذلك الافتراض لذهبت بعيداً، لأنني لم تكن لدي أية رغبة في المعارك أو إراقة الدماء، ولبدأت البناء في مكان ما آخر. لكنني رغم كل شيء ما أزال صغيراً

وما أزال من دون جحر، لذلك كان بالإمكان أن أبقى هادئاً تماماً. إلى جانب ذلك، إن المسار الأبعد للضجيج لم يعطِ أي سبب حقيقي للقلق، إلا أنه لم يكن من السهل تفسير ذلك. فلو كان ذلك الذي يقوم بالحفر متجهاً نحوي، لأنه كان قد سمعني أحفر، ثم إذا كان غيّر اتجاهه، كما حدث الآن فعلاً، لما أمكن التثبّت ما إذا فعل ذلك لأن توقفي للراحة قد حرمه من أية نقطة محددة كان يتجه إليها، أو لأنه ـ وهو احتمال أكثر قبولاً ـ هو نفسه قد غيّر خططه. لكنني ربما كنت مخدوعاً تماماً، ولم يكن أبداً في الواقع يتقدّم باتجاهي. على أي حال اصبح الضجيج أعلى لفترة من الزمن كما لو أنه كان يقترب، ولكوني صغيراً في ذلك الوقت فأنا ربما لم أكن مستاءً من رؤية الحفّار يخرج فجأة من الأرض؛ لكن لم يحدث شيء من ذلك القبيل، ففي نقطة معينة بدأ صوت الحفر يضعف، وأخذ يخفت شيئاً فشيئاً، وكأن الحفّار أخذ يبتعد تدريجياً عن مساره الأول، وفجأة توقف كلية عن الحفر، كما لو أنه قد قرر الآن أن يتخذ الاتجاه العكسي تماماً، ويبتعد عني في المدى. ولفترة طويلة ما زلت مستمراً في الاستماع إليه في السكون، قبل أن أعود مرة أخرى إلى عملي. الآن كان ذلك التحذير كافياً جداً، لكنني سرعان ما نسيته، ولم يؤثر على خططي في البناء.

وبين ذلك اليوم وهذا اليوم تقبع سنوات نضجي، لكن أليس الأمر يبدو كما لو لم يكن هناك أي فاصل على الإطلاق بينهما؟ ما زلت آخذ فترات راحة طويلة من أعمالي واستمع إلى الجدار، وقد غيّر الحفّار نيته من جديد، لقد عاد، إنه راجع من رحلته، معتقداً بأنه أعطاني وقتاً وافراً في الفترة الفاصلة للتحضير لاستقباله. لكن من جانبي كان كل شيء معدّاً بشكل أسوأ مما كان عليه حينئذ؛ فالجحر العظيم يقف أعزلاً، وأنا لم أعدّ متدرباً صغيراً، بل معمار عتيد، والقوى التي ما زلت أمتلكها تخذلني عندما تحين ساعة الحسم. مع ذلك كوني كبير السن الآن فإنه يبدو لي بأن من دواعي سروري أنني ما أزال أكبر سناً، أكبر سناً بحيث إنني لا أقوى على النهوض مرة أخرى من مكان استراحتي تحت العشب. لأنني صراحة لا أطيق المكان، فأنهض وأندفع، كما لو إنني قد ملأت نفسي هناك بهموم جديدة بدلاً من السلام، وأبلغ المنزل مرة أخرى. ماذا كانت حالة الأشياء في آخر مرة كنتُ فيها هنا؟ هل أصبح الصفير أكثر ضعفاً؟ لا، لقد أصبح أعلى. أنا أستمع إلى عشرة أماكن مختارة عشوائياً وألاحظ بوضوح ذلك الخداع. الصفير هو نفسه تماماً كما هو الحال في أي وقت مضى، ولم يتغير شيء. هناك، ليس ثمة تغيرات، هناك يكون المرء هادئاً وليس قلقاً بشأن الوقت؛ لكن هنا كل لحظة تزعج المستمع وتضايقه. وأقطع مرة أخرى الطريق الطويل المؤدي إلى الحصن، فيبدو كل ما يحيطني مليئاً بالهياج، يبدو يتطلّع إليّ، ومن ثم ينظر بعيداً مرة أخرى حتى لا يزعجني، مع ذلك لا يمكنه أن يمتنع في اللحظة التالية من محاولة قراءة الحل المنقذ في تعابير وجهي. أهز رأسي، ولم أجد حتى الآن أي حل. كما أنني لا أذهب إلى الحصن في متابعة أية خطة. وأمرّ بالبقعة حيث كنتُ قد نويتُ البدء بالخندق التجريبي، وأتفحصه أكثر مرة أخرى، لقد كان مكاناً رائعاً للبدء فيه، لقد كان مسار الخندق في الاتجاه حيث توجد غالبية ثقوب التهوية الصغيرة، التي خففت إلى حد كبير من أعمالي. من المحتمل ما كان ينبغي لي أن أحفر بعيداً جداً، ولا ينبغي حتى أن أحفر وصولاً إلى مصدر الضجيج؛ ربما لو كنتُ قد استمعتُ إلى ثقوب التهوية لكان ذلك كافياً. لكن

ليس ثمة اعتبار قوي بما فيه الكفاية ليحركني إلى هذا العمل من الحفر. وقد تقول بأن هذا الخندق سيعود عليّ باليقين؟ لقد وصلتُ إلى المرحلة حيث لم أعد أرغب في الحصول على اليقين. في القلعة اختار قطعة جميلة من اللحم الأحمر المسلوخ وأزحف بها إلى أحد أكوام التراب. وهناك سأنعم بالهدوء على الأقل، مثل هذا الهدوء، على أي حال، كما يمكن أن يقال بأنه موجود هنا. أمضغُ وأقضمُ في اللحم، وأنا أفكر في الوحش الغريب الذي يذهب في طريقه الخاص في المدى، وبعد ذلك مرة أخرى بوسعي أن أتمتع بخزيني من الطعام على أكمل وجه ممكن، في حين ما أزال أمتلك الفرصة.

هذه الأخيرة هي على الارجح الخطة الوحيدة التي قد تركتها والتي بمقدوري القيام بها. وبالنسبة للبقية فأنا أحاول أن أفكّ طلاسم خطط الوحش. هل هو منشغل في جولاته، أم أنه يعمل على جحره الخاص به؟ إذا كان في جولاته اذن ربما يكون ممكناً عقد تفاهم معه. وإذا كان ينبغي له حقاً اقتحام الجحر فإنني سوف أعطيه بعضاً مما أُخزنه وسوف يمضي في طريقه مرة أخرى. سوف يمضي في طريقه مرة أخرى، يا لها من قصة رائعة! وبينما أستلقي في كومة التراب يمكنني أن أحلم بشكل طبيعي بكل أنواع الأشياء، حتى بتفاهم مع الوحش، على الرغم من أنني أعرف تمام المعرفة بأن لا شيء من هذا القبيل يمكن أن يحدث، وأنه في اللحظة التي نرى فيها بعضنا بعضا، بل أكثر من ذلك، في اللحظة التي كنا مجرد نخمن فيها وجود بعضنا الآخر، فسوف نقوم بشكل اعمى بتجريد مخالبنا وأسناننا، لا يتوانى أيّ منّا لحظة قبل الآخر أو بعده، إذ سيكون كلانا مليئاً بجوع جديد ومختلف، حتى لو كان علينا أن نلتهم حدّ الانفجار. وبعدالة كاملة، فمَن ذا الذي، حتى لو كان في تجواله، لن يغيّر خط سيره وخططه المستقبلية عند رؤيته للجحر؟ لكن ربما يقوم الوحش بالحفر في جحره الخاص به، في هذه الحالة لا أستطيع حتى إن أحلم بأي تفاهم. حتى لو كان مثل ذلك الوحش الغريب الذي يمكن أن يتسامح جحرُه مع أي جار، فإن جحري لا يمكن أن يتسامح مع إي جار، على الأقل ليس جاراً مسموعاً بشكل واضح. الآن في الواقع يبدو الوحش على مسافة بعيدة جداً؛ إذ لو قيّض له فقط أن ينسحب أبعد قليلاً فإن الضوضاء أيضاً ربما ستختفي. وربما في تلك الحالة سيكون كل شيء ينعم بالسلام مرة أخرى كما هو الحال في الأيام الخوالي؛ كل هذا من شأنه أن يصبح بعد ذلك درساً مؤلما لكنه مفيد، يحفزني على المضي قدماً للقيام بالتحسينات الأكثر تنوعاً على الجحر. إذا ما امتلكتُ السلام، ولا يتهددني الخطر مباشرة، فأنا ما أزال قادراً تماماً على أداء جميع أنواع العمل الشاق؛ ربما، عند الأخذ بعين الاعتبار الإمكانات الهائلة التي تفتحها أمامه قواه في العمل، فإن الوحش يكون قد تخلى عن فكرة توسيع جحره باتجاهي، ويعوض نفسه عن ذلك بجحر آخر. ذلك الانجاز أيضاً لا يمكن، بالطبع، أن يحصل عن طريق التفاوض، بل فقط عن طريق الوحش نفسه، أو عن طريق بعض الإكراه الذي أمارسه من جانبي. في كلتا الحالتين سيكون العامل الحاسم هو ما إذا كان الوحش يعرف عني، وإذا كان الأمر كذلك فماذا عساه يعرف. وكلما أمعنُ التفكير في الأمر يبدو لي من غير المحتمل بأن الوحش يكون قد احسّ بي. من الممكن، برغم أنني لا أستطيع أن أتخيل ذلك، أن يكون قد تلقّى أخباراً عني بطريقة ما، لكنه بالتأكيد لم

يكن قد أحسّ بي. طالما أنني ما زلت لم أعرف شيئاً عنه، فهو ببساطة لا يمكن أن يكون قد سمعني، لأنني في ذلك الوقت ظللتُ هادئاً جداً، فلا شيء يمكن أن يكون أكثر هدوءاً من عودتي إلى الجحر. بعد ذلك، عندما حفرتُ الخنادق التجريبية، ربما أمكنه أن يسمعني، برغم أن أسلوبي في الحفر يصدر القليل جداً من الضجيج. لكن لو كان قد سمعني لا بد أن أكون قد لاحظت بعض الدلائل على ذلك، ولكان الوحش على الأقل قد أوقفَ عمله بين الحين والآخر من اجل الاستماع. لكن كل شيء بقي من دون تغيير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جوزفينه المغنية، أو شعب الفئران

يُطلق على مغنيتنا اسم جوزفينه. وأي شخص لم يسمعها لا يعرف قوة الغناء. ما من أحد إلاّ وقد جرفه غناؤها، وهي إشادة كبيرة جداً لأننا لسنا بشكل عام جنساً محباً للموسيقى. السلام الهادئ هو الموسيقى التي نحبها أكثر؛ فحياتنا قاسية، ولم نعد قادرين، حتى في المناسبات التي حاولنا فيها أن ننفض غبار هموم الحياة اليومية، أن نرتقي إلى أي شيء سام وبعيد جداً عن روتيننا المعتاد مثل الموسيقى. لكننا لا نلقي باللائمة على ذلك كثيراً؛ بل ولا نمعن أكثر من ذلك؛ من المسلّم به نحن بأمسّ الحاجة إلى حيلة عملية ما، نتمسك بها لتكون أعظم ميزتنا، وبابتسامة تولد من رحم مثل هذه الحيلة فنحن معتادون على مواساة أنفسنا عن كل المثالب، بل حتى نفترض ـ ولو أن هذا لا يحدث ـ بأننا كنا نتوق ذات مرة بشكل أو بآخر إلى ذلك النوع من النعيم الذي يمكن أن تمدّنا به الموسيقى. جوزفينه هي الاستثناء الوحيد؛ فهي تمتلك حباً للموسيقى وتعرف أيضاً كيف تنقلها. هي الوحيدة فقط؛ عندما تموت، فإن الموسيقى سوف تختفي من حياتنا، من دون أن يعرف أحدٌ الفترة التي يستغرقها ذلك.

لقد فكرتُ في كثير من الأحيان بالشيء الذي تعنيه موسيقاها هذه حقاً. لأننا غير موسيقيين تماماً؛ فكيف يتسنى لنا أن نفهم غناء جوزفينه أو، طالما تُنكر جوزفينه ذلك، على الأقل نعتقد بأننا يمكننا أن نفهمه. إن أبسط اجابة هي أن جمال غنائها فائق جداً لدرجة أنه حتى بليدي الإحساس لا يمكنهم أن يصمّوا آذانهم عنه، لكن هذه الإجابة ليست مقنعة. لو كان الأمر كذلك حقاً، لأعطى غناؤها إلى المرء شعوراً فورياً ودائماً بوجود شيء ما خارج المألوف، شعور بأن شيئاً ما يصدح من حنجرتها لم نشأ أن نسمعه من قبل أبداً، ولم نكن قادرين حتى على سماعه، شيء ما تستطيع جوزفينه وحدها ولا أحد آخر سواها أن تمكّننا من سماعه. لكن في رأيي ذلك بالضبط هو ما لا يحدث، لا أشعر بهذا ولم ألحظ أبداً بأن الآخرين يشعرون بأي شيء من هذا القبيل. وبين المقربين نعترف بصراحة لبعضنا بعضا بأن غناء جوزفينه، بوصفه غناءً، هو لا شيء فيه خارج المألوف.

هل هذا في الواقع غناء بالمرة؟ على الرغم من أننا لسنا بموسيقيين لكننا نمتلك تقليداً غنائياً؛ في الأيام الخوالي درجَ شعبنا على الغناء. وهذا مذكور في الأساطير كما أن بعض الأغاني عاشت فعلاً، حيث، وهذا صحيح، لا أحد يستطيع الآن الغناء. ومن ثم فلدينا دراية بما يعنيه الغناء، وفن جوزفينه لا يتوافق حقاً مع ذلك. فهل هذا هو غناء على الإطلاق؟ ألم يكن مجرد صفير؟ والصفير هو شيء ما نعرف جميعاً موضوعه، هو الإنجاز الفني الحقيقي لشعبنا، أو بالأحرى ليس مجرد إنجاز بل تعبير مميز عن حياتنا. نحن نصفر جميعاً، ولكن بالطبع لا أحد يحلم بأن ينظر إلى صفيرنا على أنه فن، فنحن نصفّر من دون التفكير في ذلك، من دون الالتفات إليه فعلاً، كما أن هناك الكثير من بيننا ممن هم غير مدركين تماماً بأن الصفير هو احد خصالنا. إذن لو كان صحيحاً بأن جوزفينه لا تغني إنما هي تصفّر فقط ولربما، كما يبدو لي على الأقل، لا ترقى إلى مستوى صفيرنا المعتاد ـ مع ذلك، ربما لا تكون

قوتها حتى متساوية تماماً مع صفيرنا المعتاد، في حين أن عامل المزرعة العادي يمكنه المداومة على ذلك دون عناء طوال اليوم، إلى جانب قيامه بعمله ـ لو كان ذلك صحيحاً، فإن مهارة جوزفينه الصوتية المزعومة يمكن دحضها، لكن ذلك من شأنه أن يفسح المجال للغز الحقيقي الذي يحتاج إلى الحل، وهو التأثير الهائل الذي تمتلكه جوزفينه.

ورغم كل شيء، إن هذا الذي تنتجه ليس سوى نوع من الصفير. فلو انتبذتَ لنفسك مكاناً بعيداً عنها واستمعتَ، أو، من الأفضل حتى، لو وضعتَ حكمك موضع الاختبار، كلما صادف أنها تغني جنباً إلى جنب مع الآخرين، من خلال محاولة تحديد صوتها، فإنك بلا شك سوف لا تميز فيه شيئاً سوى نغمة صفير عادية جداً، وهي نغمة في الغالب تختلف اختلافاً طفيفاً عن الأنغام الأخرى كونها رقيقة أو ضعيفة. مع ذلك عندما تجلس قبالتها، فإنه لا يبدو مجرد صفير. ولفهم فنّها فمن الضروري ليس فقط ان تسمعها بل أن تراها. حتى لو كان صفيرها ليس سوى صفيرنا اليومي المعتاد، فإن هناك أولاً وقبل كل شيء هذه الخصوصية التي لا بد من أخذها بعين الاعتبار، وهي أن هناك شخصاً ما يؤدي أداءً احتفاليًّا من خلال قيامه بالشيء المعتاد. إن تكسر بندقة لا يعدّ مأثرة حقاً، لذلك لا أحد يجرؤ على حشد جمهور من أجل تسليته بصوت تكسير البندق. ولكن برغم هذا إذا قام المرء بذلك ونجح في تسلية الجمهور، إذن لا يمكن أن يكون الأمر مجرد مسألة تكسير بندق بسيطة. أو أن الأمر هو مسألة تكسير بندق، لكن يتضح بأننا قد تغافلنا فن تكسير البندق لأننا كنا بارعين للغاية فيه، وإن الوافد الجديد لهذا الفن يُظهر لنا أولاً طبيعته الحقيقية، بل حتى يجد من المفيد بأن يجعل تأثيراته {أي هذا الوافد} أقل مهارة نوعاً ما في تكسير البندق من مهارة معظمنا.

ربما ينطبق الشيء نفسه كثيراً على غناء جوزفينه؛ فنحن نُكبر فيها ما لا نكبره في أنفسنا على الإطلاق. في هذا الصدد، هي معنا قلباً وقالباً. كنتُ حاضراً ذات مرة عندما لفتَ انتباهها شخص ما، كما يحدث هذا غالباً بطبيعة الحال، إلى الصفير الشعبي الذي يعمّ في كل مكان، وهو يقوم بإشارة متواضعة لذلك الصفير، ومع ذلك كان الأمر بالنسبة لجوزفينه أكثر من كافٍ. ولم أشهد ابتسامة ساخرة ومتغطرسة جداً كالتي ندت منها في ذلك الحين. فهي، التي يشي مظهرها بالرقة ذاتها، الجلية بشكل واضح حتى بين شعبنا الفيّاض بمثل هذه الأنواع الأنثوية، بدت في تلك اللحظة مبتذلة فعلاً؛ فانتبهت بنفسها إلى ذلك في الحال، بالمناسبة، بكل ما تحمله من حساسية شديدة، وكبحت جماح نفسها. على أي حال، إنها تنفي أي اتصال بين فنّها والصفير العادي. بالنسبة لأولئك الذين لديهم رأي مخالف فهي تضمر لهم الازدراء والكراهية غير المعلنة. وهذا لا ينم عن غرور بسيط، لأن المعارضين، الذين أنا أيضاً أتعاطف معهم تعاطفاً جزئياً، بالتأكيد معجبون بها ليس أقل من إعجاب الجمهور بها، لكن جوزفينه لا يروق لها مجرد إعجاب، بل أنها تريد أن يُعجَب بها بالضبط في الطريقة التي تصفها، لأن مجرد إعجاب يتركها باردة. وعندما تتخذ لك مقعداً أمامها، فأنك تفهمها؛ فالمعارضة ممكنة فقط عن بعد، إذ عندما تجلس قبالتها، ستعرف: بأن هذا الصفير الذي تصدره ليس صفيراً.

ولأن الصفير هو أحد عاداتنا الرعناء، يمكن للمرء أن يتصور بأن الناس سوف تصفر عالياً في جمهور جوزفينه أيضاً؛ إذ إن فنّها يجعلنا نشعر بالسعادة، وعندما نسعد نزمّر؛ لكن جمهورها لا يزمّر أبداً، فهو يجلس ساكناً سكون الفئران؛ كما لو أننا قد أصبحنا مشاركين في السلام الذي نحنّ إليه، حيث يعيدنا تزميرنا إلى سابق عهدنا على أقل تقدير، لذلك لا نُصدر أي صوت. هل هو غناؤها الذي يسحرنا أم أليس السكون المهيب الذي يغلّف صوتها الضعيف الواهن؟ ذات مرة صادف بينما كانت جوزفينه تغني بأن شيئاً صغيراً سخيفاً اخذ ايضاً يزمّر بكل براءة. وبدا الأمر الآن شبيهاً بما كنا نسمعه من جوزفينه؛ وأمامنا كان صوت التزمير برغم كل التدريبات ما يزال فجاً وهنا في الجمهور يتناهى التزمير الوقح لطفلة؛ لقد أصبح من المستحيل تحديد الفرق؛ ولكن مع ذلك في الحال أصدرنا هسيساً وصفيراً لإسكات تلك الطفلة المقاطِعة، على الرغم من أن ذلك لم يكن ضرورياً حقاً، لأنه في كل الأحوال كانت بالتأكيد ستزحف مبتعدة يجللها الخوف والعار، في حين كانت جوزفينه تصدح بألحانها المنتصرة وكانت أبعد من ذلك بكثير، وهي تنشر ذراعيها على وسعهما وتمدّ حنجرتها بأعلى صوت تتمكن بلوغه.

هذا ما تبدو عليه دائماً، فكل حادثة تافهة، عرضية، وكل منغص، وصرير في الأرضية الخشبية، وصرير الأسنان، والفشل في الإضاءة يحرضها على زيادة فعالية أغنيتها. فهي تعتقد على أي حال بأنها تغني لآذان صماء؛ ليس هناك نقص في الحماس والتصفيق، لكنها تعلمت منذ فترة طويلة بعدم توقع فهم حقيقي، كما تصوره هي. لذلك فكل إزعاج هو موضع ترحيب كبير بالنسبة لها؛ إذ بغض النظر عما يتدخل من الخارج ليعيق نقاء أغنيتها، فهي تتغلّب عليه بمجهود بسيط، بل حتى دون بذل أي جهد على الإطلاق، بمجرد مواجهته، يمكنها أن تساعد في إيقاظ الجماهير، لتعلّمهم ليس الفهم ربما ولكن الاحترام المذهل.

وإذا كانت الأحداث الصغيرة تقدّم لها مثل هذه الخدمة، فكم تقدّم لها الأحداث الجسام. حياتنا غير مستقرة جداً، وكل يوم يجلب معه المفاجآت، والمخاوف، والآمال، والرعب، حتى أنه سيكون من المستحيل على فرد واحد أن يتحمل كل هذا اذا لم يتلقّ دائماً نهاراً وليلاً الدعم من زملائه. ولكن حتى مع هذا الدعم غالباً ما يصبح الأمر صعباً للغاية. ففي كثير من الأحيان يصل العدد إلى آلاف الأكتاف التي تهتز تحت وطأة عبء كان يُقصَد منه حقاً زوجاً واحداً. ثم ترى جوزفينه بأن الوقت قد حان. وهكذا تقف هناك، المخلوقة الرقيقة، ترنّحها اهتزازات لا سيما تحت عظمة الصدر، بحيث ان المرء يشعر حيالها باللهفة، ويبدو الأمر وكأنها ركّزت كل قوتها على أغنيتها، كما لو أن كل قواها قد انسحبت من كل الأشياء فيها التي لا تساعد غناءَها مباشرة، كل قوى الحياة تقريباً، كما لو أنها كانت مستلقية عارية، مهجورة، ملتزمة فقط برعاية الملائكة الصالحين، كما لو أن نَفَساً بارداً هابًّا عليها يمكن أن يقتلها عندما تنسحب تماماً وتعيش فقط في أغنيتها. لكن فقط عندما تقوم بمثل هذا الظهور، فنحن الذين من المفترض أن نكون معارضين لها نقول في العادة: «إنها لا تستطيع حتى أن تصفر؛ بل لابد لها أن تُجهد نفسها إجهاداً كبيراً لتخرج منها ليس أغنية – إذ لا يمكننا أن نسميها أغنية – إنما شيء قريب من تصفيرنا المعتاد». هكذا

يبدو الأمر لنا، لكن هذا الانطباع برغم، كما قلتَ، بأنه لا مفر منه فهو مع ذلك عابر ومتلاشٍ. نحن أيضاً سرعان ما نغرق في شعور الجماعة، التي، تستمع باندهاش بينما يتزاحمون بحرارة.

ومن أجل أن تجمع حولها هذا الكم الهائل من الناس الذين هم في الأعم الأغلب لا يلوون على شيء والمندفعين هنا وهناك لأسباب غالباً ما تكون غير واضحة تمام الوضوح، فإن جوزفينه في الغالب لا تحتاج إلى القيام بأي شيء آخر اكثر من اتخاذ وقفتها، رأسها إلى الخلف، وفمها نصف مفتوح، وعيناها تنظران إلى الأعلى، في الوضع الذي يشير إلى نيتها في الغناء. وبإمكانها القيام بذلك حيثما تحب، فهذا لا يلزم أن يكون هناك مكان مكشوف إلى الأمام، إذ إن أي ركن منعزل حُدِدَ في لحظة نزوة سوف يفي بالغرض كذلك. إن خبر عزمها على الغناء ينتشر في الأرجاء في الحال وسرعان ما تتدفع مواكب بأكملها في الطريق إلى هناك. الآن، في بعض الأحيان، برغم ذلك، تبرز العقبات، وتحب جوزفينه أن تغني بالضبط عندما تصبح الأمور أكثر استياءً، وعندها تُجبرنا العديد من المخاوف والمخاطر على اتخاذ طرق ملتوية، مع وجود النوايا لا يمكننا تجميع شتات أنفسنا بالسرعة التي تريدها جوزفينه، وفي بعض الأحيان تقف هناك بسيماء احتفالية لفترة طويلة من الزمن من دون جمهور كاف ـ ثم بالفعل تغدو غاضبة، بعدها تضرب قدميها، وهي تسبّ بأسلوب ما أنزل الله به من سلطان؛ وتقوم بالعضّ فعلاً. لكن حتى هذا السلوك لا يضر بسمعتها؛ فبدلاً من كبحِ قليلٍ من جماح مطالبها المفرطة، يقوم الناس ببذل قصاراهم لتلبيتها؛ ويجري إرسال الرُسل لاستدعاء مستمعين جدد. وهكذا تبقى في جهل لحقيقة ما يجري؛ ففي الطرقات المحيطة بالمكان يمكن مشاهدة الحراس متخذين مواقعهم يلوّحون إلى القادمين الجدد ويحثونهم على قذّ الخطى. ويستمر هذا الوضع حتى يُجمع، في الآخر، جمهوراً كبيراً بشكل مقبول.

لكن ما الذي يدفع الناس إلى بذل مثل هذه الجهود لصالح جوزفينه؟ هذا السؤال ليس أسهل للإجابة عنه من السؤال الأول المتعلق بغناء جوزفينه، الذي يرتبط به ارتباطاً وثيقاً. يمكن للمرء أن يسقط ذلك السؤال والجمع بينهما في السؤال الثاني، لو كان بالإمكان التأكيد بأنه بسبب غنائها يكرّس ناسنا أنفسهم بشكل غير مشروط لجوزفينه. لكن هذا ليس هو الحال ببساطة؛ فالتفاني غير المشروط لا يكاد يكون معروفاً بيننا. إذ إن شعبنا ممن يحبون الدهاء أكثر من كل شيء، بلا أية ضغينة، من دون شك، وهمس وثرثرة صبيانيتين، إنما ثرثرة بريئة، سطحية، من دون شك، إلاّ أن شعباً من هذا النوع لا يمكن أن يمضوا في تفانٍ غير مشروط، كما أن جوزفينه نفسها تشعر بذلك بالتأكيد، وهذا ما تقاتل هي ضده بكل القوة التي تمتلكها حنجرتها الضعيفة.

عند القيام بمثل هذه التصريحات المعممة، بطبيعة الحال، لا ينبغي للمرء أن يذهب بعيداً جداً، فشعبنا رغم كل ذلك مكرس نفسه لجوزفينه، ليس دون قيد أو شرط. على سبيل المثال، هم لم يكونوا قادرين على الضحك على جوزفينه. إذ يمكن التسليم بأنه: لدى جوزفينه ثمة الكثير الذي يجعل المرء يضحك؛ والضحك من أجل الضحك ليس أبداً بمنأى عنا. فبرغم كل البؤس الذي يكتنف حيواتنا فإن الضحك

الهادئ هو دائماً، إذا جاز التعبير، في متناول أيدينا؛ لكننا لا نضحك على جوزفينه. فكثير من المرات كان يتملكني انطباع بأن شعبنا يفسر علاقته مع جوزفينه بهذه الطريقة، بأنها، هذه المخلوقة الضعيفة، التي تحتاج إلى الحماية وبطريقة ما لافتة للنظر، في رأيها لافتة للنظر بسبب موهبتها في الغناء، {بأنها} تحت رعايتهم ويجب أن يهتموا بها؛ والسبب وراء ذلك ليس واضحاً لأي شخص، فقط تلك الحقيقة تبدو راسخة. لكن لا يمكن للمرء أن يضحك على ما يُعهد إليه رعايته؛ فالضحك يعني خرقاً للواجب؛ إذ إن أقصى حقد يمكن لأكثرنا حقداً ان يُنزله على جوزفينه هو أن يقول بين الفينة والفينة: «بأن رؤية جوزفينه تكفي لجعل المرء يتوقف عن الضحك».

لذلك فالناس تهتم بجوزفينه تماماً مثلما يرعى أبٌ طفلاً تمتد إليه يده الغضة ـ ولا يمكن للمرء أن يقول ما إذا كان ذلك ينم عن الإعجاب أم الأمر. وربما يظن المرء بأن شعبنا غير مهيأ لممارسة مثل هذه الواجبات الأبوية، لكنهم في الواقع يطلقونها، على الأقل في هذه الحالة، على نحو يدعو للإعجاب؛ حيث لا أحد بوسعه أن يفعل في هذا الصدد ما يستطيع أن يقوم به الناس. من المؤكد، أن الفرق في القوة بين الشعب والفرد هو فرق هائل جداً بحيث إنه يكفي للرضيع أن ينجذب إلى دفء قربهم بهذا يحصل على ما يكفي من الحماية. بالنسبة لجوزفينه، بالتأكيد، لا يجرؤ المرء على ذكر مثل هذه الأفكار. «إن حمايتكم لا تستحق أغنية قديمة» هكذا تقول لهم عندئذ. بالتأكيد، بالتأكيد، أغنية قديمة، نظن ذلك. وإلى جانب ذلك فإن احتجاجها لا ينم عن تناقض حقيقي، بل هو طريقة عمل صبيانية تماماً، وامتنان طفولي، في حين أن طريقة الأب في العمل تكمن في عدم إيلاء أي اهتمام لذلك الأمر.

مع ذلك ثمة شيء ما آخر وراء ذلك وهو شيء ليس من السهل جداً شرحه عن طريق هذه العلاقة بين الناس و جوزفينه. بمعنى أن جوزفينه تفكر بالضد تماماً، فهي تعتقد بأنها هي مَن يحمي الناس. عندما نمرّ بوضع سيء سياسياً أو اقتصادياً، من المفترض أن ينقذنا غناؤها، ولا شيء أقل من ذلك، وإذا لم تدفع الشر بعيداً، فهي على الأقل تعطينا القوة لتحمله. إنها لا تضع هذا الأمر في هذه الكلمات أو في أية كلمات أخرى، فهي تقول القليل جداً على أي حال، وهي صامتة بين المثرثرين، لكنه يومض من بين عينيها، أو يكون على شفتيها المغلقتين ـ وقليل منا مَن يستطيع أن يُبقي شفاهه مغلقة، لكنها تستطيع ذلك ـ وهذا واضح وضوح الشمس. كلما نتلقى أخباراً سيئة ـ وفي أيام كثيرة تأتي الأخبار السيئة شديدة الوطء وسريعة في الحال، بضمنها الأكاذيب وأنصاف الحقائق ـ تنهض من فورها، في حين هي عادة ما تجلس بلا حراك على الأرض، وتنهض وتمدّ عنقها وتحاول أن تمعن النظر في رؤوس قطيعها مثل راع قبل هبوب عاصفة رعدية. ومن المؤكد أن من عادة الأطفال، بطريقتهم الطائشة، المندفعة القيام بمثل هذه المزاعم، لكن أساليب جوزفينه ليست تماماً بلا أساس كما هو الحال مع أساليب الأطفال. صحيح بأنها لا تنقذنا ولا تمدّنا بالقوة؛ إذ من السهل أن ينصّب المرء نفسه مخلّصا لشعبنا، المعتادين كما هو ديدنهم على المعاناة، من دون أن يألوا جهداً، والسريعين في اتخاذ القرار، والعارفين بالموت تمام المعرفة، والوجلين فقط من النظر في الجو الذي ينمّ

عن الجرأة المتهورة ذلك الجو الذي يتنفسونه باستمرار، وكثيري العطاء إلى جانب كونهم جريئين ـ فأقول من السهل أن ينصّب المرء نفسه بعد الحدث منقذاً لشعبنا، الذين تمكنوا بطريقة أو بأخرى من إنقاذ أنفسهم دائماً، برغم أن ذلك على حساب التضحيات التي تجعل المؤرخين ـ عموماً نحن نتجاهل البحث التاريخي جملة وتفصيلاً ـ يصابون بالرعب تماماً. مع ذلك صحيح أنه في حالات الطوارئ فقط نصيخ السمع لصوت جوزفينه أفضل مما في أوقات أخرى. إن التهديدات التي تلوح فوقنا تجعلنا أكثر هدوءً، وأكثر تواضعاً، وأكثر خضوعاً لهيمنة جوزفينه؛ فنحن نحب أن نجتمع معاً، ونود أن نكون بالقرب من بعضنا البعض، خاصة في مناسبة بصرف النظر عن المشاكل التي تكتنفنا؛ ويكون الأمر كما لو كنا نشرب على عجل ـ نعم، العجلة ضرورية، لكن جوزفينه غالباً ما تنسى ذلك ـ من كأس السلام المشترك قبل اندلاع المعركة. لا ينطوي الأمر على أداء غنائي بقدر ما هو تجمّع لشعب، تجمّع حيث هناك سكون مطبق باستثناء صوت الصفير البسيط في الأمام؛ لذا فالساعة أكثر خطورة بالنسبة لنا بحيث لا يمكن أن نضيّعها في الثرثرة.

إن علاقة من هذا النوع، بطبيعة الحال، لن تُرضي جوزفينه أبداً. وبرغم كل عدم الارتياح القلِق الذي يملأ جوزفينه لأن موقفها لم يكن واضحاً تماماً، إذ ما يزال هناك الكثير الذي لا تراه، أعمى بصيرتَها غرورُها، ومن الممكن أن تُستدرَج بسهولة إلى حد ما لتتغافل الكثير من الأشياء، فدائماً ما ينشغل بها حشد من المتملقين لهذا الغرض، ومن ثم القيام فعلاً بخدمة عامة ـ مع ذلك، تكون فقط مؤدية طارئة، دون أن يلاحظها أحد في زاوية تضم جمعاً من الناس، لذلك، على الرغم من أن هذا بحد ذاته لن يكون شيئاً صغيراً، فإنها بالتأكيد لن تجعلنا الضحية لغنائها.

كما أنها ليست بحاجة إلى ذلك، لأن فنها لا يمرّ دون أن يلاحظه أحد. على الرغم من أننا في قرارة أنفسنا مشغولون بأشياء أخرى كبيرة وأنه ليس بأي حال من الأحوال من أجل غنائها يخيّم السكون وكثير من المستمعين لا ينظرون إليها بل يدفنون وجوههم في معاطف جيرانهم، بحيث إن جوزفينه الواقفة امامهم تبدو تبذل قصاراها دونما أي غرض، مع ذلك ثمة شيء ما ـ لا يمكن إنكاره ـ يأخذ طريقه بشكل لا يقاوم نحونا من صفير جوزفينه. هذا الصفير، الذي يعلو حيث يتعهّد الجميع بالتزام الصمت، يأتي تقريباً مثل رسالة من الشعب كله إلى كل فرد؛ إن صفير جوزفينه الخفيف وسط قرارات خطيرة يشبه تقريباً وجود شعبنا المحفوف بالمخاطر وسط اضطرابِ عالمٍ عدائيّ. وتبذل جوزفينه قصارى جهدها، لمجرد أن لا شيء في الصوت، لمجرد أنّ لا شيء في التنفيذ، إنها تفرض نفسها لتتعامل معنا؛ فهي تسدي معروفاً إذ تفكر في ذلك. إن مطرباً مدرباً تدريباً حقيقياً، إذا قيّض له أن يوجد بين ظهرانينا، فنحن بالتأكيد لا يمكننا أن نتحمل في مثل هذا الوقت وينبغي لنا بالإجماع الابتعاد عن انعدام الإحساس في أي أداء من هذا القبيل. عسى جوزفينه أن توفّر على نفسها عناء إدراك حقيقة أن مجرد استماعنا لها هو دليل على أنها ليست مطربة. عليها أن تمتلك حدساً بذلك، وإلاّ لماذا هي تنكر هكذا بحماس بأننا نستمع فعلاً، إلاّ أنها تواصل النأي بحدسها بالغناء والصفير.

لكن هناك أشياء أخرى يمكن أن تستمدّ راحتها منها: نحن فعلاً نستمع إليها بمعنى ما، ربما كما يستمع المرء إلى مطربة مدرّبة؛ فهي تُحدث الآثار التي تسعى عبثاً المطربة المدرّبة إلى تحقيقها بيننا والتي لا تحدث إلاّ بشكل دقيق لأن وسائلها غير كافية بما فيه الكفاية. وبلا شك، أن طريقتنا في الحياة مسؤولة أساساً عن هذا.

ليس من بين شعبنا مَن هو بسن الشباب، نادراً ما تكون الطفولة أقصر. صحيح بأنه بشكل منتظم يجري تقديم المطالب القاضية بضرورة منح الأطفال حرية خاصة، وحماية خاصة، فمن حقهم أن يكونوا هانئين بعض الشيء، وأن يمارسوا بعض الطيش الأهوج، واللعب قليلاً، وأن هذا الحق ينبغي احترامه وتشجيع ممارسته. تُطرح هذه المطالب ويوافق الجميع تقريباً عليها، لا يوجد شيء يمكن للمرء أن يوافق عليه أكثر من غيره، ولكن ليس هناك أيضاً شيء، في واقع حياتنا اليومية، يُمنح على أقل احتمال، يوافق المرء على هذه المطالب، ويقوم بالمحاولات لتلبيتها، لكن سرعان ما تعود كل الطرق القديمة مرة أخرى. وتشاء الصدف أن تكون حياتنا مثل ذلك الطفل، طالما يتمكن من التجوال قليلاً ويكون بوسعه التمييز بين الأشياء، لابد أن يهتم بنفسه تماماً مثلما يفعل الشخص الكبير؛ فالمناطق التي لأسباب اقتصادية، نضطر إلى العيش فيها متفرقين تكون واسعة جداً، وأعداؤنا كثيرون، والأخطار التي تتبرص بنا في كل مكان لا تخطر ببال احد ـ وبهذا لا يمكننا أن نحمي أطفالنا من الصراع من أجل الوجود، وإن فعلنا ذلك، فإننا نعجّل في موتهم المبكر. وتتعزز هذه الاعتبارات الكئيبة بأخرى غير محزنة وهي: خصوبة عرقنا. فكل جيل ـ وهو جيل متعدد ـ يدوس على أعقاب جيل آخر، والأطفال ليس لديهم الوقت ليكونوا أطفالاً. وربما ترعى أعراقٌ أخرى أطفالَها بعناية، وربما تقيم المدارس لصغارها، وربما يخرج الأطفال من هذه المدارس متدفقين يومياً، وهم مستقبل العِرق، مع ذلك يكون من بينهم دائماً الأطفال أنفسهم الذين يخرجون يوماً بعد يوم لفترة طويلة. ليس لدينا مدارس، ولكن من عرقنا تأتي متدفقة في أقصر الفترات الجموع الغفيرة من أطفالنا، لمجرد أن يلثغوا أو يزقزقوا طالما لا يسعهم أن يصفروا، وهم يتدحرجون أو يهبطون بزخم محض طالما لا يتمكنون من الجري بعد، حاملين أمامهم كل شيء بشكل أخرق بأثقال كبيرة طالما لا يستطيعون أن يروا حتى الآن، هؤلاء هم أطفالنا! وهؤلاء ليسوا الأطفال أنفسهم، كما في تلك المدارس، لا، دائماً هناك أطفال جدد في كل مرة، دونما انقطاع، من دون توقف، بالكاد يظهر الطفل ولم يعدو طفلاً، في حين تحتشد وراءه وجوه طفولية جديدة بسرعة كبيرة وزخم أكبر بحيث لا يمكن تمييزهم، وهم يفيضون بالسعادة. حقاً، مهما يكن ذلك مسلياً ومهما يكن ذلك موضع حسد لنا، وبحق، نحن ببساطة لا يمكننا أن نُعطي طفولة حقيقية لأطفالنا. وهذا الأمر له آثاره. إذ إن ثمة نوعاً من الطفولة غير المعاشة، وغير القابلة للاستئصال تعمّ شعبنا؛ في معارضة مباشرة لما هو جميل فينا، وهو فطرتنا العملية السليمة، غالباً ما نتصرف بأقصى حماقة، بحماقة الأطفال بالضبط، بلا إحساس، بإسراف، بتبجّح، برعونة، وغالباً ما يكون كل ذلك من أجل متعة تافهة. وعلى الرغم من أن بهجتنا بهذا الشيء لا يمكن بالطبع أن تكون صادقة جداً كبهجة الأطفال، فأنه يبقى شيء من ذلك دون شك. ومن طفولة شعبنا هذه استفادت جوزفينه أيضاً منذ البداية.

مع ذلك، فإن شعبنا ليس طفولياً فحسب، بل نحن أيضاً بمعنى ما كبيرو السن قبل الأوان. فالطفولة والشيخوخة تحلان علينا ليس كما تحلان على الآخرين. ليس لدينا شباب، فنحن جميعاً هرمنا حالاً، وبعد ذلك نبقى بالغين لفترة طويلة جداً، إذ إن إرهاقاً ويأساً من نوع ما منتشران جراء ذلك يشقّان درباً واسعاً في طبيعة شعبنا، الصعبة والقوية على أمل أن يكون ذلك بشكل عام، ومن المؤكد أن لافتقارنا للمواهب الموسيقية علاقة بهذا؛ نحن كبار جداً بالنسبة للموسيقى، وإثارتها، كما أن نشوة طربها لا تلاؤم شدتنا، لذلك فنحن لا نتقبّلها ضجرين منها؛ ونقنع أنفسنا بالصفير. القليل من الصفير هنا وهناك، وحسبنا هذا. مَن يدري، قد تكون هناك مواهب موسيقية بيننا؛ لكن لو وُجِدت تلك المواهب، فإن شخصية شعبنا سوف تقمعهم قبل أن يتمكنوا من الإفصاح عن امكانياتهم. بإمكان جوزفينه من ناحية أخرى أن تصفر بقدر ما يسعها ذلك، أو أن تُغني أو أي شيء تحب أن تدعوه به، ذلك لا يزعجنا، بل أن ذلك يناسبنا، ونستطيع أن نتحمله تماماً؛ إذ إن أي نوع من الموسيقى ينطوي عليه ذلك الصفير يُقلل أثره إلى أقل ما يمكن؛ حيث يُحافظ على تقاليد معينة تخص الموسيقى، ولكن من دون أن يتطلب من ذلك أدنى شيء.

لكن شعبنا، بما هم عليه، ما يزالون يحظون بأكثر من هذا من جوزفينه. ففي حفلاتها الموسيقية، لاسيما في أوقات الضيق، لم يهتم بغنائها حينما تغني سوى الشباب أنفسهم، فهم وحدهم يحدّقون بدهشة وهي تزمّ شفتيها، وتُخرج الهواء من بين أسنانها الأمامية الجميلة، ويذوب نصفهم بإعجابهم المحض في الأصوات التي تترنم بها وبعد هذا الإغماء يتفتّق أداؤها عن مستويات عالية جديدة لا تصدق، في حين ينكفئ السواد الأعظم من الناس على أنفسهم ـ وهذا واضح جداً للعيان. وهنا في الفترات القصيرة بين صراعهم يحلم شعبنا، يبدو الأمر كما لو أن أطراف كلّ منهم قد تراخت، وكأن الفرد المنهَك نادراً ما يتمكن من الاسترخاء والتمدد براحة تامة في السرير الكبير، والدافئ للمجتمع. وفي هذه الأحلام ينزل صفير جوزفينه نغمة نغمة؛ هي تدعوه لؤلؤاً منثوراً، ونحن نسمّيه صوتاً متقطعاً. ولكن على أي حال يكون هذا في مكانه الصحيح هنا، كما لو أنه ليس في أي مكان آخر، يجد اللحظة تنتظره لأن الموسيقى نادراً ما تقوم بذلك. فيه شيء ما من طفولتنا القصيرة البائسة، شيء ما من السعادة المفقودة التي لا يمكن أبداً أن توجد مرة أخرى، ولكن أيضاً تنطوي على شيء ما من الحياة اليومية النشطة، ومن مباهجها الصغيرة، العصية على التفسير ومع ذلك المنبعثة والتي لا يمكن طمسها. وبالفعل، إن كل هذا لم يعبَّر عنه بنغمات متّصلة كاملة ولكن بهدوء، بهمسات، وبشكل كتوم، وأحياناً بشكل أجش نوعاً ما. بالطبع هو ذا نوع من الصفير. لِمَ لا؟ فالصفير هو خطاب شعبنا اليومي، وكم من أحد يصفر حياته كلها وهو لا يعرف ذلك، حيث هنا يتحرر الصفير من أغلال الحياة اليومية وأنه يحررنا أيضاً لفترة وجيزة من الوقت. نحن بالتأكيد لا ينبغي أن نريد أن نفعل ذلك دون هذه العروض.

لكن من تلك النقطة، إنه لطريق طويل، طويل أمام ادّعاء جوزفينه بحيث يمكنها أن تمدّنا بقوة جديدة وهلم جرا. بالنسبة للناس العاديين، على الأقل، وليس بالنسبة لسلسلة متملقيها. «ما هو التفسير الآخر الذي يمكن أن يكون هناك؟» ـ هكذا

يتساءلون بصفاقة وقحة تماماً ـ «كيف يمكنك أن تفسر الجماهير العظيمة، خاصة عندما يكون الخطر داهماً، التي حتى في أحيان كثيرة جداً قد أعاقت الاحتياطات المناسبة المتخذة في الوقت المناسب لتفادي الخطر». الآن، هذا البيان الأخير هو لسوء الحظ صحيح، ولكن لا يمكن النظر إليه على أنه أحد عناوين جوزفينه للشهرة، وخاصة عند الأخذ بعين الاعتبار بأنه عندما تتفرق مثل هذا التجمعات الكبيرة بشكل غير متوقع بفعل العدو ويُترك العديد من أبناء شعبنا مستلقين حتى الموت، فإن جوزفينه، التي كانت مسؤولة عن كل شيء، وبالفعل ربما اجتذبت العدو بسبب صفيرها، كانت دائماً ما تحتل المكان الأكثر أماناً وكانت دائماً أول مَن يتحرك بعيداً بهدوء وبسرعة تحت غطاء مرافقيها. مع ذلك، الجميع يعرفون ذلك تمام المعرفة، لكن الناس تستمر في الجري إلى أي مكان تتخذه جوزفينه فيما بعد، وفي أي وقت تنهض فيه إلى الغناء. يمكن بوسع المرء أن يستشف من هذا بأن جوزفينه غالباً ما تقف وراء القانون، وبأنها يمكن أن تفعل ما يحلو لها، وهي تجازف في الواقع في تعريض المجتمع إلى الخطر، وسوف يُغفَر لها عن كل شيء. لو كان الأمر كذلك، لكانت حتى مزاعم جوزفينه مفهومة تماماً، نعم، في هذه الحرية الممنوحة لها، هذه الهبة الاستثنائية التي حُبيت بها وليس لأيما شخص آخر في مخالفة صريحة للقوانين، فإن المرء يمكنه أن يرى الاعتراف بحقيقة أن الشعب لا يفهم جوزفينه، تماماً مثلما تدعي، بأنهم يتعجبون بيأسٍ بفنها، ويرون أنفسهم غير جديرين بذلك، ويحاولون التخفيف من حدّة الشفقة التي تثيرها في نفوسهم من خلال تقديمهم فعلاً تضحيات كبيرة من أجلها، وإلى الدرجة ذاتها بأن فنها هو أعلى من مستوى إدراكهم، يتمعنون في شخصيتها ورغباتها التي تقع وراء سلطتهم. حسناً، هذا ببساطة ليس صحيحاً على الإطلاق، ربما كأفراد فإن الشعب قد يستسلم بسهولة كبيرة لجوزفينه، ولكن كمجموعة فإنهم لا يستسلمون دون قيد أو شرط إلى أي أحد، وليس لها أيضاً.

لفترة طويلة خلت، ربما منذ بداية حياتها الفنية ذاتها، كانت جوزفينه تقاتل من أجل استثنائها من جميع الأعمال اليومية بسبب غنائها؛ فهي ينبغي إعفاؤها من كل مسؤولة عن كسب قوتها اليومي والإنخراط في النضال العام من أجل الوجود، الذي ـ على ما يبدو ـ يجب تحويله نيابة عنها إلى الشعب ككل. إن متحمساً بسيطاً ـ ويوجد مثل هذا بالفعل ـ قد يجادل من منطلق غرابة هذا المطلب، ومن الموقف الروحي اللازم لتأطير مثل هذا المطلب، بأن له ما يبرره داخلياً. لكن شعبنا يستخلص استنتاجات أخرى ويرفضون هذا المطلب بهدوء. كما أنهم لا يتجشمون كثيراً عناء دحض الافتراضات التي يقوم عليها. تجادل جوزفينه، على سبيل المثال، بأن ضغط العمل مضرّ بصوتها، أن ضغط العمل هو بالطبع لا شيء مقارنة بضغط الغناء، لكنه يمنعها من أن تكون قادرة على أن ترتاح بما فيه الكفاية بعد الغناء وتستعد لتقديم مزيد من الغناء، ولا بد لها من استنفاد قوتها تماماً ومع ذلك، في هذه الظروف، لا يمكنها أبداً أن ترقى إلى ذروة إمكانياتها. وهكذا يستمع الناس إلى حججها من دون إيلائها أي اهتمام. فشعبنا، الذي يتأثر بسهولة، أحياناً لا يمكن أن يتأثر على الإطلاق. في بعض الأحيان يكون رفضهم حازماً جداً بحيث إنه حتى جوزفينه تتفاجأ، ويبدو أنها تذعن، وتقوم بنصيبها الصحيح من العمل، وتغني

بأفضل ما تتمكن، ولكن أحياناً، وبقوة متجددة ـ لهذا الغرض تبدو قوتها لا تنضب ـ إنها تخوض المعركة مرة أخرى.

يتضح الآن بأن ما تريده جوزفينه حقاً هو ليس ما تصوغه في كلمات. إنها صادقة، وليست كسولة، والتملص مهما كان نوعه ليس من شيمنا تماماً، فلو لُبّي التماسها لعاشت بالتأكيد الحياة نفسها كما كانت من قبل، من دون أن يتعارض عملها مطلقاً مع غنائها ولا مع ازدهار غنائها بشكل أفضل ـ إن ما تريده هو اعتراف عام، لا لبس فيه، ودائم بفنها، وهو يتجاوز بكثير أي عمل سابق معروف حتى الآن. ولكن بينما يبدو كل شيء تقريباً في متناول يدها، فإن هذا يخدعها باستمرار. ربما كان ينبغي لها أن تأخذ خطاً مختلفاً للهجوم منذ البداية، وربما هي نفسها ترى بأن منهجها كان على خطأ، لكنها الآن لا يمكن أن تعود أدراجها، فالتراجع سيكون خيانة للذات، والآن أما يجب أن تقف أو تسقط جراء التماسها.

لو كان لديها أعداء حقاً، كما تجزم، فإنهم يمكن أن يستمدّوا الكثير من التسلية من مشاهدة هذا الصراع، من دون الحاجة إلى تحريك ساكن. ولكن ليس لديها أعداء، وعلى الرغم من ذلك فإنها كثيراً ما تُنتقد هنا وهناك، لا أحد يجد هذا الصراع الخاص بها مسلياً. فقط بسبب حقيقة أن الناس يظهرون هنا في جانبهم البارد، الرسمي، الذي خلاف ذلك نادراً ما يُرى بيننا. ومع ذلك يمكن للمرء أن يبرهنه في هذه الحالة، فالفكرة ذاتها من أن مثل هذا الجانب يمكن أن يتحول إلى نفسه في يوم ما يمنع التسلية من أن تأتي. إن الشيء المهم، سواء في رفض الشعب أم في اِلتماس جوزفينه، ليس هو العمل نفسه، ولكن الحقيقة هي أن الناس قادرون على تقديم جبهة صلبة، متراصّة لا يمكن اختراقها، وأن ذلك هو الشيء الأكثر مَنَعَة لأنه في جوانب أخرى يُظهرون اهتماماً أبوياً قلقاً، وأكثر من الرعاية الأبوية، من أجل هذا العضو بالذات من الشعب.

لنفترض أنه بدلاً من الشعب كان لدى المرء فرد يتعامل معه: ربما يتصور ذلك المرء بأن هذا الرجل قد استسلم إلى جوزفينه طوال الوقت بينما يحاول فيه إشباع رغبة جامحة لوضع حدّ لاستسلامه ذات يوم رائق؛ وبأنه كان قد قدّم تضحيات كبيرة من اجل جوزفينه في اعتقاد راسخ بأن هناك حدّ طبيعي لقدرته على التضحية؛ نعم، وبأنه قد ضحّى أكثر مما كان ضرورياً لمجرد تسريع العملية، لمجرد تدليل جوزفينه وتشجيعها على طلب المزيد والمزيد حتى أنها وصلت بالفعل إلى الحد الذي قدّمت فيه التماسها الأخير هذا؛ وأنه بعد ذلك أبعدها برفض نهائي مقتضب لأنه كان بانتظارها منذ فترة طويلة. الآن، هذا بالتأكيد ليس كما تكون عليه المسألة، فالناس ليس لديهم حاجة لمثل هذا الخداع، إلى جانب ذلك، إن احترامهم لجوزفينه مجرّب جيداً وحقيقي، كما أن مطالب جوزفينه هي رغم كل شيء بعيدة المدى بحيث أن أي طفل بسيط كان بإمكانه أن يخبرها بما ستكون عليه النتيجة؛ مع ذلك قد يكون الأمر بأن هذه الاعتبارات تساهم في طريقة جوزفينه في تعاطيها مع هذه المسألة وهكذا تضيف {هذه الاعتبارات} مرارة ما إلى الألم الناجم من رفضها.

لكن أياً كانت أفكارها حول هذا الموضوع، فإنها لا تسمح لهم بمنعها من متابعة الحملة. في الآونة الأخيرة حتى أنها كثفت من هجومها؛ حتى الآن لم تستخدم سوى

الكلمات سلاحاً لها لكنها الآن بدأت في اللجوء إلى وسائل أخرى، تعتقد بأنها ستثبت فعاليتها الكبيرة لكننا نعتقد بأن تلك الوسائل ستوقعها في مخاطر جمّة.

ويعتقد الكثيرون بأن جوزفينه قد أصبحت أكثر إصراراً كونها تشعر بأنها أخذت تتقدّم في العمر وصوتها أخذ يضعف، وهكذا ترى بأن الوقت قد حان لخوض آخر معركة من أجل الاعتراف. أنا لا أصدق ذلك. إذ إن جوزفينه لن تكون جوزفينه لو صحّ ذلك. بالنسبة لها ليس هناك أي تقدم في السن ولا ضعف في صوتها. وعندما تقوم بمطالبها فهذا ليس بسبب الظروف الخارجية وإنما بسبب منطق داخلي. وهي تبلغ أعلى الإكليل ليس لأنه يتدلّى بشكل منخفض قليلاً ولكن لأنه الأعلى؛ وإذا كان لديها أي رأي في المسألة فأنها سوف تقوله بأعلى صوتها.

ولا شك أن هذا الازدراء بالصعوبات الخارجية لا يعوقها من استخدام أتفه الأساليب. فحقوقها تبدو لا يرقى إليها الشك بالنسبة لها؛ لذلك ما يهم هو كيف تصون هذه الحقوق؛ خاصة وأنه في هذا العالم، كما تراه، لا بد أن تفشل الأساليب الصادقة. ولعل ذلك هو السبب في أنها نقلت المعركة في سبيل حقوقها من مجال الأغنية إلى مجال آخر لا تهتم به كثيراً. ولقد أوضح أنصارها بأنه، وفقا لطبيعتها، تشعر بقدرتها التامة على الغناء بطريقة بحيث إن جميع طبقات الشعب، حتى بالنسبة إلى أبعد زوايا المعارضة، سوف يجدون فيه فرحة حقيقية، فرحة حقيقية ليس بالمعايير الشعبية، لأن الناس يؤكدون بأنهم كانوا يسعدون دائماً بغنائها، ولكنها فرحة وفقاً لمعاييرها الخاصة. على أي حال، تضيف بأنه طالما هي لا تستطيع تشويه أعلى المعايير ولا تستطيع الاقتناع بالأدنى، فإن غناءها لا بد أن يبقى كما هو عليه. ولكن عندما يتعلق الأمر بحملتها من أجل إعفائها من العمل، فهذه قصة مختلفة؛ بل هي أيضاً بطبيعة الحال حملة نيابة عن غنائها، مع ذلك إنها لا تقاتل مباشرة بسلاح أغنيتها الذي لا يقدر بثمن، وعليه فإن أي أداة تستخدمها تكون جيدة بما فيه الكفاية.

وهكذا، على سبيل المثال، دارت الشائعات بأن جوزفينه كانت تريد اختصار نغماتها الإضافية لو لم يلبّ اِلتماسها. أنا لا أعرف شيئاً عن النغمات الإضافية، ولم ألاحظ أبداً أياً من هذه النغمات في غناء جوزفينه. لكن جوزفينه سوف تختصر نغماتها الإضافية، ليس، في الوقت الحاضر، من أجل إلغائها تماماً، بل مجرد اختصارها. ويفترض أنها قد نفذت تهديدها، على الرغم من أنني شخصياً لم ألاحظ أي فرق في أدائها. فالشعب ككل كان يستمع بالطريقة المعتادة من دون أن يدلي بأي تصريحات بشأن النغمات الإضافية، ولا أختلف ردّهم لالتماسها قيد أنملة. لا بد من الاعتراف بأن طريقة جوزفينه في التفكير، مثل شخصيتها، غالباً ما تكون في غاية الروعة. وهكذا، على سبيل المثال، بعد ذلك الأداء، تماماً كما لو أن قرارها بشأن النغمات الإضافية كان خطوة قاسية جداً أو مفاجئة جداً ضد الشعب، أعلنت بأنها في المرة القادمة ستُدخل جميع النغمات الإضافية مرة أخرى. ولكن بعد الحفلة الموسيقية التالية غيّرت رأيها مرة أخرى، وكان هناك بالتأكيد نهاية لهذه الألحان الإنفرادية الكبيرة ضمن النغمات الإضافية، وحتى يُنظر في التماسها بشكل إيجابي فإن هذه الألحان لن تتكرر أبداً. حسناً، فالناس سمحت لكل هذه التصريحات والقرارات والقرارات المضادة بأن تدخل في هذه الأذن وتخرج من الأذن الأخرى، مثل

شخص بالغ راسخ في تفكيره يعطي اذناً صماء إلى ثرثرة طفل، أي يتم التخلص منها بشكل أساسي من دون الوصول إلى معانيها.

إلا أن جوزفينه لم تستسلم. ففي اليوم التالي، على سبيل المثال، ادّعت بأن قدمها قد أصيبت في العمل، لذلك تعذّر عليها الوقوف للغناء؛ ولكن نظراً لأنها لم تتمكن من الغناء إلاّ من حالة الوقوف، لذلك لا بد من اختصار أغانيها. وبرغم أنها تضلع وتميل على أنصارها، لا أحد يعتقد بأنها مصابة حقاً. ولأنه من المسلّم به بأن جسمها الضعيف حساس للغاية، فهي واحدة منا ونحن معشر العمال، إذا ما بدأنا نضلع في مشيتنا في كل مرة ننخدش فيها، فإن الناس أجمع لن تضلع أبداً. مع ذلك برغم أنها سمحت لنفسها بأن تقاد مثل كسيح، ورغم أنها تُظهر نفسها في هذه الحالة المثيرة للشفقة أكثر من المعتاد، فالناس جميعاً على حد سواء يستمعون إلى غنائها ممتنين ومقدّرين كما كان ديدنهم من قبل، لكنهم لا يهتمون كثيراً بمسألة اختصار أغانيها.

ولأنها لا يمكن أن تستمر كثيراً بالضلوع إلى الأبد، فإنها تفكر في شيء ما آخر، وتتذرع بأنها متعبة، ومزاجها لا يسمح لها بالغناء، وتشعر بالضعف. وهكذا نحصل على أداء مسرحي، فضلاً عن مشاهدتنا حفلة موسيقية. ونرى أنصار جوزفينه في الخلفية يتوسلون بها ويلتمسونها ان تغني. وتغمرها السعادة إذ تلتزم بذلك، لكنها لا تستطيع. وهكذا يواسونها ويداعبونها بآيات المجاملة، ويحملونها تقريباً إلى المكان المحدد حيث من المفترض أن تغني. في نهاية المطاف، وهي تنفجر باكية بشكل لا يمكن تفسيره، تنصاع للأمر، ولكن عندما تقف تغني، من الواضح في نهاية خياراتها، وهي مرهقة، وذراعاها غير ممدودتين على وسعهما كالمعتاد بل تتدليان إلى أسفل بلا حياة، بحيث يتبادر إلى المرء بأنهما ربما تكونان قصيرتين جداً ــ فما إن تحاول أن تبدأ، هناك، فإنها لا تستطيع أن تفعل ذلك برغم كل شيء، إذ إن هزة رأس عنيدة تخبرنا بذلك وتنهار أمام أعيننا. ومن المؤكد بأنها تسحب نفسها مرة أخرى وتغني، على ما أظن، كالمعتاد تماماً؛ ربما، إذا كان لدى المرء إذن لظلال التعبير الدقيقة، فيمكنه أن يسمع بأنها تغني بشعور غير عادي، وهو، على أي حال، شعور يشي بالخير. وفي نهاية المطاف تكون في الواقع أقل تعباً من ذي قبل، بخطوة ثابتة، إذا كان يمكن للمرء أن يستخدم مثل هذا المصطلح بالنسبة لمشيتها المتعثرة، وتغادر، وهي ترفض كل أنواع المساعدة من أنصارها وترمق بعينين باردتين الحشد الذي يفسح لها الطريق بكل احترام.

حدث ذلك قبل يوم أو يومين؛ ولكنها في آخر المطاف اختفت، تماماً في الوقت الذي كان من المفترض فيه أن تغني. ليس فقط أنصارها هم الذين يبحثون عنها، بل أن الكثيرين يكرسون أنفسهم لعملية البحث، ولكن كل هذا بلا طائل؛ فجوزفينه اختفت، ولن تغني؛ بل حتى أنها لن تُستدرَج إلى الغناء، وهذه المرة قد هجرتْنا تماماً.

الغريب في الأمر أنه كم كانت مخطئة في حساباتها، تلك المخلوقة الذكية، مخطئة جداً بحيث يخال المرء بأنها لم تعمل أي حسابات على الإطلاق وإنما سيقت فقط بمصيرها، الذي لا يمكن أن يكون في عالمنا سوى أنه شيء محزن. فمن تلقاء نفسها تهجر الغناء، ومن تلقاء نفسها تدمّر السطوة التي اكتسبتها في قلوب الناس. كيف تسنّى لها أن تكتسب تلك السطوة، لأنها لا تعرف سوى القليل عن قلوبنا هذه؟ انها

تَخفي نفسها ولا تغني، لكن شعبنا، بهدوء، من دون خيبة أمل واضحة، وهم جمهور واثق بنفسه في اتزان تام، مطمئن جداً، ولو أن المظاهر خادعة، بحيث إنهم يمكن أن يمنحوا الهدايا ولا يتلقونها، حتى من جوزفينه، بكل ذلك يواصل شعبنا طريقهم.

إلاّ أن طريق جوزفينه لابد أنه ينحدر نحو الأسفل. وسوف يحين الوقت عما قريب عندما تصدح أنغامها الأخيرة وتتلاشى في غياهب الصمت. جوزفينه هي قصة صغيرة في التاريخ الأزلي لشعبنا، والناس سوف تتعافى من فقدانها. وذلك لن يكون سهلاً بالنسبة لنا؛ كيف يتسنى لنا أن نعقد تجمعاتنا في صمت مطبق؟ مع ذلك، ألم يكونوا صامتين حتى عندما كانت جوزفينه حاضرة؟ هل كان صفيرها الحقيقي أعلى بشكل ملحوظ وأكثر حيوية مما ستكون عليه الذاكرة؟ هل كان حتى في حياتها أكثر من مجرد ذاكرة بسيطة؟ ألم يكن ذلك بالأحرى بأن غناء جوزفينه قد ضاع بهذه الطريقة التي قام شعبنا في حكمتهم بتثمينه عالياً؟

لذلك ربما لن يفوتنا الكثير الكثير رغم كل شيء، في حين أن جوزفينه، المنعتقة من الأحزان الدنيوية التي حسب تفكيرها تتربص بجميع الأرواح المختارة، سوف تفقد نفسها بسعادة في الحشد الغفير من أبطال شعبنا، وقريباً، لأننا لسنا مؤرخين، سوف ترتقي إلى مرتفعات الخلاص وتُنسى مثل كل إخوانها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القصص القصار

أطفال على طريق ريفي

سمعتُ العربات تدمدم وهي تمر خلف سور الحديقة، وأحياناً كنتُ أراها من خلال الثغرات المتمايلة بغنج بين أوراق الشجر. كيف كان خشب مكابحها ومحاورها يصرّ في حرارة الصيف! كان العمال يأتون من الحقول ويضحكون بحيث بدا الأمر وكأن هناك فضيحة.

كنت جالساً على أرجوحتنا الصغيرة، لمجرد أن أستريح بين الأشجار في حديقة والدي.

على الجانب الآخر من السياج لم تتوقف حركة المرور. كانت أقدام الأطفال الراكضة تمرّ في لحظة؛ وكانت عربات الحصاد التي تحمل الرجال والنساء والتي تجثم على حزم المحاصيل وحولها ظلّلتْ أسرّة الزهور؛ وقبيل المساء رأيتُ رجلاً نبيلاً يتنزه ببطء بعصاه، فيما تنحّتْ جانباً فتاتان ممن التقياه يداً بيد نحو العشب عندما ألقتا التحية عليه.

ثم طارت الطيور كما لو أنها تعرّضت إلى زخات مطر، جعلتُ أُتابعها بعينيّ ورأيتُ كيف حلقتْ عالياً بلمح البصر، حتى خالجني شعور بأنها لم تكُ ترتفع بل أنني كنتُ أتهاوى، وبينما كنتُ أتمسّك بالحبال أخذتُ أتأرجح قليلاً بسبب وهنٍ كبيرٍ انتابني. وسرعانٍ ما كنتُ أتأرجح بقوة عندما كانت نسائم الهواء تهبّ باردةً وبدلاً من الطيور المحلّقة المرتجفة بدتْ النجوم.

قُدّم لي عشاءي على ضوء الشموع. وكثيراً ما كان ذراعاي على اللوح الخشبي وكنتُ متعباً بالفعل وأنا أقضم الخبز والزبد. انتفختْ ستائر النافذة المشبكة الخشنة بفعل الرياح الدافئة والعديد من المرات يقوم بعض المارة في الخارج بتثبيتها بيديه كما لو أنه أراد أن يراني بشكل أفضل ويتحدث معي. عادة ما كانت الشمعة تنطفئ سريعاً وفي دخان الشمعة السخامي كانت تنطلق البراغش المتجمعة لتحلّق لبعض الوقت. لو سألني أحدهم سؤالاً من النافذة لأخذتُ أُحدّق فيه وكأنني أُحدّق في جبل بعيد أو في غور سحيق، فهو لم يهتم بشكل خاص سواء حصل على إجابة أم لا. لكن لو قفز أحدهم على عتبة النافذة وأعلن أن الآخرين كانوا ينتظرون بالفعل، لوقفتُ عندها على قدميّ متنهداً.

«علام تتنهد؟ ما الخطب؟ هل حدث شيء ما مروع لا يمكن إصلاحه أبداً؟ ألا يمكننا أن نتعافى منه؟ هل ضاع كل شيء؟

لم يَضِع أي شيء. ركضنا إلى مقدمة المنزل. «الحمد لله، ها أنت ذا في النهاية!» ـ «أنت متأخر دائماً!» ـ «لماذا أنا فقط؟» ـ «أنت على نحو خاص، لماذا لا تبقى في البيت إذا كنتَ لا تريد المجيء». ـ «لا رحمة!» ـ »لا رحمة؟ أي أُسلوب في الكلام ذلك الذي تتحدث به؟

أطلقنا لأنفسنا العنان بالكامل في المساء. لم يكن هناك نهار ولا ليل. الآن غدت أزرار صدارينا تصطك معاً مثل الأسنان، ومرة أخرى علينا أن نحافظ على مسافة

ثابتة بين بعضنا بعضا بينما كنا نركض، أنفاسنا سخينة مثل وحوش برية في الغابات المدارية. وبينما كنا مثل فرسان مدرعين في الحروب القديمة، نضرب الأرض بقوة ونقفز عالياً، قدنا بعضنا بعضا في الزقاق القصير وبهذا الزخم في سيقاننا كسبنا امتداداً أبعد على طول الطريق الرئيسي. ذهبتْ شخوص طائشة نحو الخندق، وما أن اختفوا أسفل جرف داكن حتى وقفوا مثل وافدين جدد على مسار الحقل في الأعلى وأخذوا ينظرون إلى أسفل.

«تعالوا إلى الأسفل!» ــ «اصعدوا أولاً!» ــ «لذا يمكنكم أن تدفعوننا إلى الأسفل، لا شكراً، نحن لسنا مثل هؤلاء الحمقى». ــ «أنتم خائفون، هكذا تقصدون. هيا اصعدوا، أنتم أيها الجبناء!» ــ «هل نخاف؟ من أمثالكم؟ أنتم ستدفعوننا إلى أسفل، أليس كذلك؟ هذا أمرٌ جيد».

قمنا بالمحاولة ودُفِعنا رأساً على عقب إلى العشب الموجود في الخندق على جانب الطريق، وسقطنا بمحض إرادتنا. كان كل شيء دافئاً بشكل مطرد بالنسبة لنا، ولم نشعر لا بالدفء ولا بالبرد في العشب، فقط ثمة شعور بالتعب.

وإذ قام المرء بتحريك جانبه الأيمن، مع وضع إحدى اليدين تحت الأذن، كان بإمكانه أن يخرّ نائماً بسهولة هناك. لكن المرء كان يرغب بالنهوض مرة أخرى وذقنه مرفوع إلى أعلى، لمجرد أن يتدحرج في خندق أكثر عمقاً. ثم مع دفع أحد الذراعين بشكل متصالب إلى الخارج وشدّ الساقين إلى الجانب اعتقد المرء أن ينطلق في الهواء مرة أخرى لمجرد أن يقع بكلّ تأكيد في خندق ما يزال أكثر عمقاً. ولم يرغب المرء أبداً في وضع حدّ لهذا.

كيف يتسنى للمرء أن يتمطى إلى الخارج، وخاصة عند الركبتين، من أجل أن ينام بشكل صحيح في الخندق الأخير، كان هذا أمراً نادراً ما يخطر في البال، فاستلقى ببساطة على ظُهره، مثل عليل، وأجهش في البكاء قليلاً. ربما لمح المرءُ كما يحدث بين الفينة والأُخرى شاباً داسًّا مرفقيه إلى جانبيه وقد وثب على رأس أحدهم بنعلين داكنين، في قفزة من الجرف إلى الطريق.

كان القمر بالفعل في مكان ما في عنان السماء، وتحت ضوئه مرّت عربة البريد. بدأت رياح خفيفة تهبّ في كل مكان، حتى في الخندق يمكن أن يشعر بها المرء، وبالقرب من ذلك بدأت الغابة تصطفق. ثم لم يعد المرء قلقاً جداً بسبب كونه وحيداً.

«أين أنت؟» ــ «هلمّ إلى هنا!» ــ «في الحال!» ــ «لماذا أنت مختبئ، تخلّ عن تفاهتك!» ــ «ألا تعرف أن البريد قد جاء بالفعل؟» ــ «ليس الآن؟» ــ «بالطبع؛ لقد مضى بينما كنتَ نائماً». ــ »لم أكن نائماً. يا لها من فكرة!» ــ «أوه اخرس، فأنت ما تزال نصف نائم» ــ «لكن لم أكن كذلك». ــ »هيا!»

ركضنا معاً أحدنا لصق الآخر، كان العديد منا يربط الأيادي، ولذلك لا يمكن أن يكون رأس أي منا مرفوعاً بما فيه الكفاية، فالطريق في الوقت الحالي كان ينحدر نحو الأسفل. شخص ما أطلق صرخة حرب هندية، أطلقنا سيقاننا للريح كما لم يحدث من قبل، رفعت الرياح وركنا ونحن نقفز. لا شيء كان بإمكانه أن يعوقنا؛

إذ كانت خطواتنا واسعة جداً لدرجة أنه في تجاوز الآخرين كان بإمكاننا أن نطوي أذرعتنا وننظر بهدوء من حولنا.

عند الجسر فوق الساقية وصلنا إلى نقطة التوقف؛ وأولئك الذين تجاوزوها رجعوا إلى الخلف. وكان الماء في الأسفل قد احتضن الحجارة والجذور كما لو أن الوقت لم يكن متأخراً في المساء. لم يكن هناك سبب لماذا لا ينبغي لأحدنا أن يقفز على حاجز الجسر.

ومن وراء مجاميع الأشجار في المدى مرّ قطار السكك الحديد، كانت جميع العربات مضاءة، وجميع ظلف النوافذ مفتوحة بالتأكيد. بدأ أحدنا يترنم بأغنية شعبية، لكننا جميعاً شعرنا وكأننا نغني. كنا نغني أسرع بكثير من سرعة القطار، وكنا نلوّح بأذرعتنا لأن أصواتنا لم تكن كافية، ثم اندفعت أصواتنا معاً في سيل صوتي جارف أفادنا كثيراً. وعندما ينضم أحدنا في أغنية مع الآخرين يبدو وكأنه مسحوب بخطاف أسماك.

وهكذا غنّينا، والغابة من ورائنا، من أجل أن نسرّي على المسافرين البعيدين. كان الكبار ما يزالون مستيقظين في القرية، وكانت الأمهات يرتبن الأسرّة لليل.

لقد أزف وقتنا. قبّلت الشخص الذي بجانبي، ومددتُ يديّ إلى الثلاثة الأقرب إليّ، وبدأتُ أركض نحو البيت، ولم يدْعُنِي أحد للعودة. عند أول مفترق طرق حيث لم يعد باستطاعتهم رؤيتي توقفتُ وركضتُ عبر مسارات الحقل إلى الغابة مرة أخرى. كنتُ متوجهاً نحو تلك المدينة في الجنوب التي ذُكرت في قريتنا:

«ستجد هناك قوماً غريبي الأطوار! تخيّل فقط، أنهم لا ينامون أبداً!»

«ولِمَ لا ينامون؟»

«لأنهم لا يشعرون بالتعب مطلقاً.»

«ولِمَ لا يشعرون بالتعب؟»

«لأنهم حمقى».

«ألا يشعر الحمقى بالتعب؟»

«كيف يمكن أن يشعر الحمقى بالتعب!»

الأشجار

لأننا مثل جذوع الأشجار في الثلج. في مظهرها تستلقي ساكنة وأن دفعة خفيفة لابد أنها كافية لجعلها تتدحرج. لا، لا يمكن القيام بذلك، لأنها متشبثة بقوة في الأرض. ولكن انظر، حتى ذلك هو مجرد مظهر ليس إلاّ.

الملابس

غالباً عندما أرى الملابس بطياتها المتقنة، وكراكيشها، وزوائدها التي تناسب بنعومةٍ فائقة جسوماً جميلة، أعتقد بأنها لن تحافظ على تلك النعومة طويلاً، بل

سوف تعتريها التجاعيد التي لا يمكن إعادتها إلى سابق عهدها، والغبار سوف يكون كثيفاً جداً في التطريز بحيث لا يمكن التخلص منه، كما أنه لا توجد فتاة تريد أن تكون تعيسة للغاية وغبية تماماً حتى ترتدي الثياب الثمينة نفسها كل يوم من الصباح الباكر وحتى الليل.

مع ذلك أرى فتيات جميلات بما فيه الكفاية يبدين عضلات جذابة وعظاماً صغيرة وبشرة ناعمة وغابات من شعر رقيق، ومع هذا يظهرن منذ بداية اليوم وحتى نهايته في هذا الثوب الطبيعي الخلاب نفسه، ودائماً ما يسندن الوجه ذاته على راحات أياديهن ذاتها ويتركنه ينعكس في المرآة.

خلا في بعض الأحيان في الليل، عند عودتهن إلى بيوتهن في وقت متأخر قادمات من حفلة، يبدو الوجه في المرآة منهكاً، منتفخاً، مغبراً، وقد كان محطّ أنظار الكثير من الأشخاص، وبالكاد يمكن الخروج به بعد الآن.

رحلة إلى الجبال

«أنا لا أعرف»، بكيتُ من دون أن يسمعني أحد، «أنا لا أعرف. إذا لم يأتِ أحد، إذن لا أحد يأتي. لم أفعل أي مكروه لأي أحد، ولم يفعل لي أحد أي مكروه، ولكن لن يساعدني أحد. مجموعة من اللاأحد ومع ذلك ليس هذا كله صحيحاً. فقط، ذلك اللاأحد يساعدني. ومن ناحية أخرى ستكون مجموعة من هؤلاء اللاأحد شيئاً رائعاً بالمرة. أحب أن أخرج في رحلة ـ لِمَ لا؟ ـ مع مجموعة من اللاأحد. في الجبال، طبعاً، إلى أين أذهب غير ذلك؟ كيف أن هؤلاء اللاأحد يتدافعون مع بعضهم بعضا، وكل هذه الأيادي المرفوعة مشتبكة ببعضها الآخر، وهذه الأقدام التي لا حصر لها تسير قريبة جداً من بعضها! بالطبع هم جميعاً في لباسهم الرسمي. نحن نسير بحبور، وتهبّ الرياح علينا وتمرّ في الفجوات بين مجموعتنا. حناجرنا تنتفخ و تتحرر في الجبال! من العجب أننا لا نبادر إلى الغناء».

رفض

عندما أُقابل فتاة جميلة وأتوسل بها: «اسدِ لي معروفاً وآتِ معي»، وتسير من دون أن تنطق ببنت شفة، هذا هو ما تريد أن تقوله:

«أنت لستَ دوقاً يحمل اسماً مشهوراً، ولستَ أمريكياً عريض المنكبين بقدّ هندي أحمر، وبعينين مستويتين، متأملتين وسحنة لفحها هواء البراري والأنهار التي تتدفق من خلالها، وأنت لم تكن قد سافرت إلى البحار السبعة وتوجهت معها أينما تمضي، لا أعرف أين. إذن، لماذا بحق السماء، ينبغي لفتاة جميلة مثلي أن تذهب معك؟

«أنتِ تنسين بأنه لا توجد أية سيارة تقلّك في الشارع في وجهات متواصلة؛ أنا لا أرى أي رجال نبلاء يرافقونك عن قرب، يضغطون على تنوراتك من الخلف ويتمتمون بالنِعَم على رأسك؛ وثدياك مشدودان جيداً إلى صدريتك، لكن ردفيك ووركيك يعوضان عن ذلك الشد؛ أنتِ ترتدين فستاناً من قماش التَفْتا مع تنورة

مجعدة، كتلك التي ابهجتّنا جميعاً في الخريف الماضي، ومع ذلك تبتسمين ـ وتستحثين خطراً مميتاً ـ من وقت لآخر».

«نعم، كلانا على حق، ومن أجلِ أن نبقى على دراية بهذا بشكل لا رجعة فيه، ألم يكن من الأفضل لنا أن نذهب كلٌ بطريقه إلى البيت؟»

نافذة على الشارع

مَن يحيا حياة العزلة ومع ذلك يريد بين الفينة والفينة أن يربط نفسه في مكان ما، أياً كان، وفقاً للتغيرات في وقت اليوم، والطقس، وحالة عمله، وما شابه ذلك، وفجأة يرغب في رؤية أي ذراع مهما كان نوعه يمكنه أن يتشبث به ـ لن يكون قادراً على الصمود لفترة طويلة من دون نافذة تطل على الشارع. وإذا كان في مزاج لا يريد معه أي شيء سوى أن يذهب فقط إلى عتبة نافذته متعباً، بعينين تتحولان من مكانِ وجوده إلى السماء وتعودان مرة أخرى، غير راغب في التطلع ورفعِ رأسه قليلاً، برغم ذلك فإن الخيول في الأسفل ستسحبه إلى قطارهم بعرباته وضجيجه، وهكذا أخيراً يسحبه إلى الانسجام الإنساني.

صاحب المتجر

من الممكن أن يأسف بعض الناس عليّ، لكنني لستُ على علم بذلك. إن عملي التجاري الصغير يملأني بالمخاوف التي تجعل جبهتي وصدغي يتألمان في الداخل مع ذلك من دون أخذ أي قسط من الراحة، لأن عملي هو عمل تجاري صغير.

عليّ أن أقضي ساعات سلفاً في إعداد الأشياء، وشحذ ذاكرة المتعهد، وتحذيره من الأخطاء التي من المرجح أن يرتكبها، وتوضيح في أحد مواسم السنة ما يجب أن تكون عليه موضات الموسم المقبل، ليس من قبيل تلك التي يتابعها الناس الذين أعرفهم ولكن تلك التي ستروق للفلاحين الذين يتعذر الوصول إليهم في أعماق البلاد.

إن أموالي في أيدي الغرباء، الذين لابد أن تكون شؤونهم سراً بالنسبة لي؛ فالحظ السيء الذي قد يحيق بهم لا أستطيع أن أتوقعه. كيف يمكنني تجنبه! ربما أنهم يهرعون إلى الإسراف وإقامة مأدبة في حديقة نُزلِ ما، وربما يحضر بعض منهم تلك المأدبة بوصفها فترة راحة قصيرة قبل رحلتهمَ إلى أمريكا.

عندما أكون في ختام يوم عمل، أدير المفتاح في عملي التجاري وفجأة أرى أمامي ساعات لن أكون قادراً على القيام بأي شيء لتلبية متطلبات ذلك العمل التي لا تنتهي إلى الأبد، ثم أجد الإثارة التي كنت فارقتها في الصباح تعود مرة أخرى مثل مدّ راجع، لكنها لا يمكن أن تحتويني وتجرفني بلا هدف بعيداً معها.

ومع ذلك، لا يمكنني الاستفادة من هذا الدافع، إذ لا أستطيع القيام بأي شيء سوى العودة إلى المنزل، لأن وجهي ويديّ متسخة ومتعرّقة، وملابسي ملطخة ويعلوها الغبار، وقبعة عملي على رأسي، وحذائي ممزقة بمسامير الصناديق. أذهب إلى البيت وكأنني محمول على موجة، وأنا أطقطق أصابع كلتا يديّ، وأداعب شعر أي طفل أصادفه.

لكن الطريق قصير. وما أسرع أن أصِل إلى منزلي، وأفتح باب المصعد، وأخطو إلى داخله.

أرى أنني الآن وحيد، بشكل مفاجئ. أما الآخرون الذين عليهم أن يتسلقوا السلالم يشعرون بالتعب قليلاً عندما يصعدون، يجب أن ينتظروا وهم يلهثون بنَفَسٍ مقطوع متسارع حتى يفتح شخصٌ ما باب الشقة، وهذا ما يعطيهم ذريعة ليكونوا سريعي الانفعال ونافدي الصبر، ويجب أن يعبروا الممر حيث تُعلقْ القبعات، وما إن ينزلوا إلى ردهةٍ مارّين بالعديد من الأبواب الزجاجية ويأتوا إلى غرفتهم الخاصة بهم حتى يشعروا بالوحدة.

لكنني وحدي في المصعد، على الفور، وأنا أجثو على ركبتيّ أُحدّق في المرآة الضيقة. وبينما يبدأ المصعد في الارتفاع، أقول:

«اهدأ الآن، وعدْ إلى ذاتك، هل هو ظلال الأشجار ما أريد أن أتوجه إليه، أم خلف ستائر النوافذ، أم نحو تعريشة الحديقة؟

أقول ذلك حانقاً، وينزل السلّم إلى الأسفل بتؤدة مارًّا بالألواح الزجاجية المعتمة مثل المياه الجارية.

«حلِّق الآن إذن؛ دع جناحيك، اللتين لم أرهما قط، تنقلانك إلى جوف القرية أو حتى باريس، إذا كان ذلك ما تودّ الذهاب إليه».

«لكن تمتعْ هناك وأنت تنظر عبر النافذة، وانظر إلى المواكب التي تتلاقى خارجة من ثلاثة شوارع في وقت واحد، من دون أن تفسح المجال لبعضها بعضا بل تسير من خلال بعضها تاركة المساحة المفتوحة خالية مرة أخرى مع انسحاب صفوفها الأخيرة. لوِّحْ بمناديلك، كن ساخطاً، تحرّكْ، واطلب السيدة الجميلة التي تمرّ أمامك.

اعبر الجدول على الجسر الخشبي، اومئ إلى الأطفال الذين يستحمّون وافغرْ فاك لكلمات الدهشة! التي تتعالى من آلاف البحّارة على البارجة القصيّة.

«اقتفِ درب الرجل الصغير المبهم، وعندما تدفعه في المدخل، اسرقْه، ومن ثم راقبْه، وضع يديك في جيوبه، بينما هو يقدّ بحزنٍ طريقه على طول الشارع الأيسر.

«انتشرت الشرطة على الخيول الراكضة والأعنّة على خياشيمها وأرجعتْك. دعهم يفعلون ما يفعلون، فالشوارع الخالية ستثبطهم، أعرف ذلك. مثلما أخبرتك، ها هم يبتعدون بالفعل على شكل أزواج، ببطء عند المنعطفات، وبأقصى سرعة عبر الساحات».

إذن عليّ أن أترك المصعد، وأنْزِله مرة أخرى، وأقرع الجرس، فتفتح الخادمة الباب بينما أقول لها: مساء الخير.

التحديق عبر النافذة بشرود

ما الذي سنفعله في أيام الربيع هذه التي تحلّ علينا الآن بسرعة؟ في وقت مبكر هذا الصباح كانت السماء رمادية، لكن عندما تذهب إلى النافذة الآن فستتفاجأ وستميل

بخدك على مزلاج النافذة.

ها هي الشمس في طريقها إلى الأفول، لكنك في الأسفل ترى أنها تضيء وجه الفتاة الصغيرة التي تتجول على طول الطريق وهي تنظر حولها، وفي الوقت نفسه تراها محتجبة بظل الرجل وراءها الذي يتجاوزها.

وبعدئذٍ مرّ الرجل فيأتلق وجه الطفلة الصغيرة من جديد.

الطريق إلى البيت

انظرْ يا لها من قوة مقنعة تلك التي يمتلكها الهواء بعد عاصفة رعدية! إن شمائلي تصبح واضحة وتتغلب عليّ، برغم أنني لا أبدي أية مقاومة، إنني اعترف لك.

أغذّ الخطى إلى الأمام وتكون وتيرة خطوي هي وتيرة جميع خطواتي على جانبي الشارع، وعلى الشارع كله، وعلى الحيّ كله. فالمسؤولية، والحق يقال تماماً، هي مسؤوليتي عن جميع الضربات على الأبواب أو على سطح طاولة، وعن جميع الأنخاب التي اُحتُسيت، وعن العشاق في مضاجعهم، في سقالات المباني الجديدة، التي تضغط على بعضها بعضاً على جدران المنزل في الأزقة المظلمة، أو على آرائك مبغى.

إنني أزن ماضيّ مقابل مستقبلي، لكنني أجد كليهما جديراً بالإعجاب، ولا يمكن أن أفضّل أحدهما على الآخر، ولا أجد شيئاً أتذمّر منه خلا ظلم العناية الربانية التي آثرتْني بشكل جليّ.

وما إن أدخل إلي غرفتي حتى ينتابني شعور بنوع من التأمل، من دون أن ألتقي أي شيء على السلّم يستحق التأمل. وهذا لا يساعدني كثيراً على فتح النافذة على مصراعيها وسماع الموسيقى التي ما تزال تصدح في الحديقة.

عابرو سبيل

عندما تتمشى ليلاً في شارع ويأتي رجل، يمكن رؤيته على طول الطريق ـ لأن الشارع يرتفع أعلى التل والقمر في تمامه ـ يركض نحوك، حسناً، فأنت لا تمسك به، ولا حتى لو كان مخلوقاً ضعيفاً ومنهكاً، ولا حتى لو قام أحدهم بمطاردته صارخاً عند قدميه، بل تدعه يركض على رسله.

ولأن الوقت ليلاً، ولا يسعك أن تفعل أي شيء إذا كان الشارع يرتفع إلى أعلى التل أمامك في ضوء القمر، وإلى جانب ذلك، قد يكون هذان الشخصان بدءاً تلك المطاردة لتسلية نفسيهما، أو ربما كلاهما يطاردان ثالثاً، ربما يكون الأول رجلاً بريئاً والثاني يريد أن يقتله وأنت ستصبح مساعداً، وربما لا يعرفان أي شيء عن بعضهما الآخر وهما مجرد يركضان بشكل منفصل من البيت إلى السرير، ربما يكونان طائرين ليليين، وربما يكون الشخص الأول مسلحاً.

على أي حال، أليس لك الحق في أن تكون متعباً، ألم تكن تشرب الكثير من النبيذ؟ أنت ممتن لأن الرجل الثاني الآن بعيد عن الأنظار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الترام

أقف على المنصة النهاية للترام وأنا غير متأكد تماماً من موضع قدمي في هذا العالم، وفي هذه المدينة، وفي عائلتي. ولا حتى كان بإمكاني أن أشير بشكل عرضي إلى أي مزاعم بأنني ربما أتقدم بحق في أي اتجاه. بل وليس لدي أي دفاع أقدمه بسبب الوقوف على هذه المنصة، والتمسك بهذا الشريط، وأدع هذا الترام يحملني إلى الأمام، ولا بالنسبة للأشخاص الذين يفسحون الطريق للترام أو يسيرون بهدوء إلى الأمام أو يقفون محدّقين في نوافذ المتجر. لا أحد يطلب مني أن أقدّم دفاعاً، بالفعل، ولكن ذلك أمر غير ذي صلة.

يقترب الترام من مكان الوقوف وتأخذ فتاة موقعها بالقرب من درجة الباب، وتستعد للنزول. إنها واضحة بالنسبة لي كما لو كنت مررت يديّ عليها. ترتدي ملابس سوداء، فيما تتدلى طيات تنورتها بهدوء تقريباً، وبلوزتها ضيقة تعتليها ياقة من الدانتيل الأبيض الناعم، ويدها اليسرى ممتدة بشكل أفقي على جانب الترام، بينما تستقر المظلة في يدها اليمنى على الدرجة العليا الثانية. وجهها بني، وأنفها، المنبعج قليلاً في الجانبين، له طرف مدور واسع. لديها شعر كثيف بني اللون وخصلات قليلة شاردة على صدغها الأيمن. أذنها الصغيرة ملمومة، ولكن لأنني قريب منها فيمكنني أن أرى الحافة الكاملة لاستدارة أذنها اليمنى والظل في جذرها.

في تلك المرحلة سألتُ نفسي: كيف لا يخامرها العجب من نفسها، بحيث إنها تُبقي شفتيها مغلقتين ولا تصرّح بمثل هذا الشيء؟

تأملات السادة الفرسان

عندما تفكر في الأمر ملياً، فإن الفوز في سباق هو لا شيء يستحق التحسّر عليه.

فالشهرة المتمثلة بالترحيب بك بوصفك أفضل فارس في البلاد تعطي سروراً يثير النشوى عندما يتعالى التصفيق ولا يجلب أية ردة فعل في الصباح التالي.

إن حسد خصومك، والأشخاص الماكرين وأصحاب النفوذ، لابد أن يزعجك في النطاق الضيق الذي تتجاوزه الآن بعد ميدان السباق المستوي، الذي سرعان ما يمتد فارغاً قبل أن تدخره لبعض المتخاذلين من الجولة السابقة، وهم شخصيات صغيرة يملؤون الأفق.

كثير من أصدقائك يهرعون لجمع مكاسبهم ولا يصيحون عليك إلا «يا مرحباً» ويحملونها على أكتافهم من صناديق المدفوعات البعيدة؛ فأفضل أصدقائك لم يضعوا أي رهان على حصانك، لأنهم كانوا يخشون أنهم لابد أن يغضبوك إذا ما خسرتَ، والآن بعد أن جاء حصانك في المركز الأول وهم لم يربحوا أي شيء، فإنهم يتحولون بعيداً وأنت تمرّ وتفضّل أن تنظر على طول المدرجات.

يحاول منافسوك من خلفك، وهم يشدون السرج بحزم، أن يتجاهلوا سوء الحظ الذي حلّ بهم والظلم الذي عانوا منه بطريقة ما؛ إنهم ينظرون نظرة شجاعة إلى الأشياء،

وكأن سباقاً مختلفاً من المقرر أن يبدأ، وهذه المرة سباق جدّي بعد لعب الأطفال هذا.

بالنسبة لكثير من السيدات إن المنتصر يتخذ شخصية مضحكة لأنه يتضخم بالأهمية ومع ذلك لا يمكنه تحمل المصافحة المستمرة، والتحية، والانحناء، والتلويح، بينما المنهزمون يبقون أفواههم مغلقة وبشكل عرضي يربتون على رقاب خيولهم التي تصهل.

وأخيراً يبدأ المطر بالتساقط من السماء الملبدة الآن.

الرغبة في أن تكون هندياً أحمرَ

لو كان المرء هندياً ليس إلاّ، يقظاً على حين غرة، وعلى حصان سباق، وهو يميل ضد الريح، وظلّ يترنح مرتعشاً على الأرض المرتجة، حتى ألقى ذلك المرء مهمازه، لأنه لم تكن هناك حاجة للمهماز، وألقى الأعنّة، لأنه لا توجد حاجة إلى الأعنة، ولم يرَ الأرض أمامه مرجة ناعمة العشب عندما يكون عنق الحصان ورأسه قد غابا بالفعل.

تعاسة

عندما أصبح الأمر لا يطاق ـ ذات مرة عند حلول المساء في تشرين الثاني ـ وركضتُ على طول الشريط الضيق من السجاد في غرفتي مثل ذلك الموجود في مضمار السباق، جفلتُ من مشهد الشارع المضاء، ومن ثم عند تحوّلي إلى داخل الغرفة وجدتُ هدفاً جديداً في أعماق المرآة وصرختُ بصوت عالٍ، ولم أسمع سوى صرختي التي لم تلقَ أيّ جوابٍ أو أي شيء من شأنه أن يبدد قوتها، حتى أنها تعالت دون رادع ولم تتوقف حتى عندما خفّت حدتها، وانفتح الباب في الجدار باتجاهي، بخفة، لأن الخفة كانت مطلوبة وحتى خيول العربة في الأسفل على حصباء الرصيف كانت ترتفع في الهواء مثل الخيول المدفوعة بعنف في معركة، حيث تصدح حناجرها بوجه العدو.

ومثل شبح صغير دخلت عنوة طفلة قادمة من ممر حالك الظلام، حيث لم يكن المصباح مضاءً بعدُ، ووقفت على رؤوس أصابعها على لوحِ أرضيةٍ كان يرتجف بشكل غير محسوس. في الحال عندما بهرها الشفق في غرفتي، جعلتْ تغطي وجهها بسرعة بيديها، ولكن اقنعتْ نفسها بشكل غير متوقع بلمحة إلى النافذة، حيث البخار المتصاعد بسبب إضاءة الشوارع قد استقر في النهاية تحت جنح الظلام خلف العوارض. وبكوعها الأيمن أسندت نفسها على الجدار في المدخل المفتوح وسمحت لتيار الهواء في الخارج أن يتلاعب بكاحليها، وحلقها، وصدغيها.

رمقتُها بنظرة عجلى، ثم أردفتُ قائلاً، «طاب يومك»، وأخذتُ سترتي من غطاء الموقد، لأنني لم أكن أريد أن أقف هناك بنصف ثيابي. ولبرهة فتحتُ فمي، من أجل أن أتمكن من إيجاد مخرج لسورة غضبي. لقد ساء طعم فمي، فيما كانت رموشي ترفرف على وجنتيّ، باختصار كانت هذه الزيارة، برغم أنني كنتُ أتوقعها، الشيء الوحيد الذي أحتاجه.

كانت الطفلة ما تزال تقف بجانب الجدار في المكان نفسه، وكانت قد ضغطت يدها اليمنى على الطلاء وتفاجأت تماماً إذ وجدتْ، وخداها متوردان، أن الجدران المطلية باللون الأبيض لها سطح خشن وخدشت أطراف أصابعها. قلتُ: «هل كنتِ حقاً تبحثين عني؟ أليس هناك خطأ ما؟ لا شيء أسهل من ارتكاب خطأ ما في هذا المبنى الكبير. إنني أدعى بفلان الفلاني وأعيش في الطابق الثالث. هل أنا الشخص الذي تودّين أن تجديه؟

قالت الطفلة وهي تتلفت، «صهٍ، صهٍ، كل شيء على ما يرام».

«إذن ادخلي إلى الغرفة، أود إغلاق الباب».

«لقد أغلقتُه في هذه اللحظة بالضبط. لا تزعج نفسك، فقط هوّن عليك».

«ليس هناك إزعاج. ولكن هناك الكثير من الناس يعيشون في هذا الممر، وأنا أعرفهم جميعاً، بالطبع؛ معظمهم عائدون من العمل الآن؛ فإذا سمعوا شخصاً يتحدث في غرفة ما، فإنهم ببساطة يعتقدون بأن لديهم الحق في فتح الباب و رؤية ما يحدث. إنهم تماماً من هذا النوع. لقد أداروا ظهورهم عن عملهم اليومي وفي أمسياتهم الحرة بشكل مؤقت لا أحد يمكنه أن يملي عليهم. إلى جانب ذلك، أنتِ تعرفين ذلك مثلما أعرف أنا. دعيني أغلق الباب».

«لماذا، ما خطبك؟ لا أبالي إذا ما دخل الجميع إلى البيت. على أي حال، كما قلت لك، لقد أغلقت الباب عما قليل، هل تعتقد أنك الشخص الوحيد الذي يستطيع إغلاق الأبواب؟ لقد أدرت حتى المفتاح في القفل».

«كل شيء على ما يرام إذن. لا داعي أن أطلب المزيد. لم تكن هناك حاجة إلى إدارة المفتاح أيضاً. والآن طالما أنتِ هنا، خذي راحتك. فأنت ضيفي. يمكنكِ أن تثقي ثقة عمياء. ما عليك سوى أن تشعري بأن البيت بيتك وأن لا يساورك الخوف. فأنا لن أجبرك سواء على البقاء أو الذهاب. هل يجب عليّ إخباركِ بذلك؟ هل تعرفينني معرفة قليلة؟»

«لا. أنت حقاً لا تحتاج إلى أن تخبرني بذلك. والأكثر من هذا، كان ينبغي أن تخبرني بذلك. أنا مجرد طفلة ليس إلاّ؛ لماذا كل هذا التكلّف الكبير معي؟»

«ليس الأمر بهذا السوء. أنت طفلة، هذا صحيح. ولكن لستِ بهذا الصغر. أنتِ كبيرة تماماً. لو كنتِ شابة، لما تجرأتِ على حبس نفسك بهذه البساطة في غرفة معي».

«لا داعي أن نقلق حيال ذلك. ما أودّ أن أقول هو: إن معرفتي بك جيداً لا تعني حماية كبيرة لي، هي فقط تخفف عنك جهد الاستمرار بالتظاهر أمامي. ومع ذلك فأنت تجاملني. دعك من هذا، أتوسل إليك، ارجوك دعك من كل هذا. على أي حال، أنا لا أعرفك تمام المعرفة، على الأقل في هذه الظلمة. سيكون من الأفضل بكثير لو أضئتَ الغرفة. لا، ربما لا. مهما كان الأمر سأضع في الاعتبار بأنك كنتَ تهددني».

«ماذا؟ هل من المفترض أن أكون قد هددتكِ؟ لكن، انظري هنا. أنا سعيد للغاية بأنك جئتِ أخيراً. أقول «أخيراً» لأنك قد تأخرتِ بالفعل. لا أستطيع أن أفهم لماذا جئتِ في وقت متأخر جداً. لكن من الممكن أنه في غمرة رؤيتي لك كنتُ أتحدث بشكل عشوائي وفهمتِ كلماتي خطأ. سأعترف عشرات المرات بأنني قلتُ شيئاً من هذا القبيل، لقد قمتُ بكل أنواع التهديدات، وأي شيء تحبينه. المهم بلا تشاجر، بحق السماء! لكن كيف يمكنكِ التفكير في شيء كهذا؟ كيف يمكنكِ أن تؤذينني هكذا؟ لماذا تصرين على إفساد هذه اللحظة الوجيزة من وجودكِ هنا؟ ربما يكون الغريب أكثر امتناناً منك».

«ذلك ما بوسعي أن أؤمن به جيداً؛ وذلك ليس اكتشافاً عظيماً. إذ لا يمكن لأيّ غريب أن يكون أقرب إليك مما أنا عليه بسبب طبيعتي. أنت تعرف ذلك، أيضاً، إذن لِمَ كل هذه التأسي؟ إذا كنتَ تريد فقط تمثيل مسرحية كوميدية، فإنني سأذهب على الفور».

«ماذا؟ ألديكِ الوقاحة لتقولي ذلك؟ أنكِ تتجاسرين. برغم كل شيء، هذه هي غرفتي التي أنتِ إفيها. انه جداري الذي تقومين بفرك أصابعك عليه مثل مجنون. غرفتي، وحائطى! وإلى جانب ذلك، إن ما تقولينه سخيف ووقح أيضاً. تقولين بأن طبيعتك تجبرك على التحدث معي هكذا. هل هذا صحيح؟ هل إن طبيعتك تجبرك على ذلك؟ ذلك النوع من طبيعتك. إن طبيعتك هي طبيعتي، وإذا كنتُ أشعر بالودّ تجاهك بطبيعتي، فلا ينبغي أن تكون أي شيء آخر».

«هل هذا ودّ؟»

«أنا أتحدث عن شيء سابق».

«هل تعرف كيف سأكون في وقت لاحق؟»

«لا أعرف أي شيء».

وذهبتُ إلى طاولة السرير وأضأتُ الشمعة التي عليها. في ذلك الوقت لم يكن لدي لا الغاز ولا الضوء الكهربائي في غرفتي. ثم جلستُ لبرهة إلى الطاولة حتى سئمتُ منها، وارتديتُ معطفي السميك، وأخذتُ قبعتي من الأريكة، وأطفأتُ الشمعة. وبينما خرجتُ تعثرتُ على ساق الكرسي.

على السلّم التقيتُ بأحد المستأجرين من طابقي.

«ها أنتَ تغادر مرة أخرى، أيها الوغد؟» سألني، وهو يقف مادًّا ساقيه بقوة عبر درجتين.

«ماذا عساي أن أفعل؟» قلتُ، «لقد شاهدتُ للتو شبحاً في غرفتي».

«أنتَ تقول ذلك تماماً كما لو إنكَ وجدت للتو شعرة في حسائك».

«إنك تستهزئ بالأمر. لكن دعني أخبرك، الشبح هو شبح».

«ما مدى صحة ذلك. لكن ماذا لو لم يؤمن المرء بالأشباح بالمرة؟»

«حسناً، هل تعتقد بأنني أؤمن بالأشباح؟ ولكن كيف يمكن لعدم إيماني بها أن يساعدني؟»

«ببساطة كبيرة. لا داعي للشعور بالخوف إذا ما ظهر شبح بالفعل».

«أوه، ذلك هو مجرد خوف ثانوي. فالخوف الحقيقي هو الخوف من السبب الذي جعل الشبح يظهر. وذلك الخوف لا ينجلي أبداً. وهذا ما يختلج بقوةٍ بداخلي الآن». وبسبب عصبية شديدة بدأتُ أُفتش في جميع جيوبي.

«ولكن بما أنك لم تكن خائفاً من الشبح بحد ذاته، يمكن بسهولة أن تسأله كيف جاء إلى هناك».

«من الواضح أنك لم تتحدث قط إلى أي شبح. فالمرء لا يحصل على معلومات مباشرة من الأشباح. إنها تنتشر هاهنا وهاهناك. يبدو أن هذه الأشباح أكثر ريبة بشأن وجودها مما نحن عليه من ريبة، ولا عجب، في أن نأخذ بعين الاعتبار كم ضعيفة هي».

«لكنني سمعتُ أنه يمكن للمرء أن يسمنها.»

«يا لك من شخص ضليع. هذا صحيح. ولكن هل من المحتمل أن يقوم بذلك أحد ما؟»

«لِمَ لا؟ لو كانت شبحاً أنثى، على سبيل المثال،» قال، وهو يتأرجح على الخطوة العليا.

«آها،» قلتُ، «لكن حتى في ذلك الفرض فهذا لا يستحق أي شيء».

فكرتُ في شيء ما آخر. لقد كان جاري بالفعل بعيداً جداً في الأعلى بحيث إنه من أجل أن يراني كان عليه أن ينحني على حجيرة السلّم. «مع ذلك»، صحتُ «إذا سرقتَ شبحي مني، فكل شيء سوف ينتهي بيننا، إلى الأبد».

«أوه، كنتُ أمزح ليس إلا»، قال ذلك وحرّك رأسه إلى الخلف.

«حسناً»، قلتُ، والآن يمكنني أن أخرج بهدوء لأتمشى. لكن لأنني شعرت بضيق شديد، فإنني فضّلت الصعود إلى الطابق العلوي مرة أخرى، وهكذا ذهبتُ إلى الفراش.

سوء حظ الأعزب

يبدو الأمر مرعباً جداً أن تبقى أعزباً، وأن تصبح رجلاً عجوزاً تناضل من أجل الحفاظ على كرامتك بينما تتوسل للفوز بدعوة كلما يريد أحدهم أن يقضي أمسية سوية، وأن تستلقي طريح المرض وأنت تحدّق لأسابيع في غرفة فارغة من الزاوية حيث مكان سريرك، مضطراً دائماً إلى القول «ليلة سعيدة» عند الباب الأمامي، وأن لا تصعد أبداً السلّم بجانب زوجتك، وأن يكون لديك فقط أبواب جانبية في غرفة تؤدي إلى غرف جلوس أناس آخرين، مضطراً إلى حمل عشائك إلى البيت في يدك، ومضطراً إلى الإعجاب بأطفال الآخرين من دون أن يكون مسموحاً لك

بالمضي قائلاً: «ليس لدي أي أطفال»، ومقولباً نفسك من حيث المظهر والسلوك على غرار عازب أو عازبَين رسخوا في ذاكرتك منذ أيام شبابك.

هذه هي الكيفية التي سوف يكون عليها الأمر، باستثناء ما هو موجود في الواقع، سواء اليوم أم في وقت لاحق، حيث سيقف المرء هناك بجسم محسوس ورأس حقيقي، بمعنى، جبين حقيقي، من أجل أن ينهال عليه ضرباً بيده.

فضحُ نصّاب

أخيراً، حوالي الساعة العاشرة ليلاً، أتيتُ إلى مدخل البيت الجميل حيث دعيتُ لقضاء المساء، بعدما كان الرجل بجانبي، الذي لم أكن على معرفة تامة به والذي كان قد اندفع مرة أخرى بلا سابق انذار نحوي، قد سار معي لساعتين طويلتين عبر الشوارع.

«حسناً!» قلتُ، وصفقتُ لإثبات أنه كان عليّ فعلاً أن أُودّعه. لقد قمتُ بعدة محاولات غير مباشرة للتخلص منه. كنتُ متعباً جداً.

«هل أنت ماضٍ مباشرة؟» سأل. وسمعتُ صوتاً في فمه مثل اصطكاك الأسنان.

«نعم».

لقد دُعيتُ، هكذا أخبرته عندما التقيت به. لكن كان ينبغي دخول منزل حيث اشتقتُ لمثل هذه الدعوة، وليس الوقوف هنا على قارعة الطريق أنظر عبر آذان الرجل الذي أمامي. ولا أيضاً البقاء صامتاً معه، وكأننا حُكِم علينا بالبقاء لفترة طويلة في هذا المكان. ومع ذلك شاطرتْنا المنازل من حولنا في الحال جانباً في صمتنا، والظلمة التي تغلفها، وصولاً إلى النجوم. كما أن خطوات المارّة غير المرئيين، التي لا يمكن لأحد أن يتجشم عناء الوقوف على كنهها، والرياح التي تضرب باستمرار على الجانب الآخر من الشارع، والغراموفون الذي يصدح خلف النوافذ المغلقة لغرفة ما ـ كل تلك الأشياء أفصحت عن نفسها في خضم هذا الصمت، كما لو أنها كانت تمتلك ناصية الزمن الذي أفلَ وذاك الذي سيأتي.

ووقّع رفيقي عليه باسمه و ـ بابتسامة ـ باسمي أيضاً، ومدّ ذراعه اليمنى على طول الجدار وأسند خده عليه، وهو يغلق عينيه.

لكنني لم أنتظر لأرى نهاية تلك الابتسامة، لأن الحياء قد أخذ بتلابيبي فجأة. لقد كان الأمر بحاجة إلى تلك الابتسامة من أجل أن أعرف بأن الرجل كان نصَّابا، ولا شيء آخر. ومع ذلك، فقد أمضيتُ شهوراً في البلدة وظننتُ بأنني أعرف كل شيء حول النصّابين، وكيف أتوا منسلّين من الشوارع الجانبية ليلاً ليلتقوا بنا بأيادي ممدودة مثل اصحاب الحانات، وكيف سكنوا أعمدة الإعلانات التي كنا نقف بجانبها، وهم يتخفّون حولها كما لو كانوا يلعبون الغميضة ويتجسسون علينا بعين واحدة على الأقل، وكيف ظهروا فجأة على حاجز الرصيف عند تقاطعات الشوارع عندما كنا مترددين! فهمتهم جيداً، فهم كانوا أول المعارف التي كوّنْتها في الحانات الصغيرة في البلدة، وأنني مدين لهم بالمعرفة الأولى للقسوة الوحشية التي أعيها الآن، في كل مكان على وجه البسيطة، حتى أنني بدأتُ أشعر بها في داخل نفسي. كيف درجوا

باستمرار على الوقوف بطريقنا، حتى عندما انتفضنا لنحرر أنفسنا، حتى عندئذ، لم يكن لديهم شيء ما يتمنونه لنا! كيف رفضوا الاستسلام، والاعتراف بالهزيمة، لكنهم بقوا يصوّبون نظراتهم علينا لدرجة أنه حتى لو كانت من مسافة بعيدة فإنها مثيرة! كما أن الوسائل التي استخدموها كانت هي نفسها دائماً: لقد كانوا يضعون أنفسهم أمامنا، ويبدون كبيري الحجم بقدر ما يستطيعون، ويحاولون إعاقتنا عن الذهاب إلى مقصدنا، ويعرِضون علينا بدلاً عن ذلك مأوى بين ظهرانيهم، وعندما ثارت في نهاية المطاف كلّ مشاعرنا المحبَطة، رحبّوا بذلك خير ترحيب.

وقد أخذ مني هذا وقتاً طويلاً في رفقة هذا الرجل للتعرف على اللعبة القديمة نفسها. فركتُ اطراف أصابعي معاً لأمسح العار.

كان رفيقي ما يزال متكئاً هناك كما كان من قبل، وهو ما يزال يظنّ نفسه نصَّابا ناجحاً، ورضاه الذاتي أخذ يتورّد على محيّاه الطلق.

«مُسِك متلبساً!»، قلتُ، وأنا أُربت بخفة على الكتف. ثم صعدتُ درجات السلّم، وقد أفرحني التفاني النزيه على وجوه الخدم في الصالة مثل هدية غير متوقعة. نظرتُ إليهم جميعاً الواحد تلو الآخر، في حين أخذوا يخلعون معطفي السميك ويمسحون حذائي.

وأنا أتنفس الصعداء وأقف مستقيماً بكامل قامتي، دخلتُ إلى الاستقبال.

النزهة المفاجئة

عندما يبدو الأمر وكأنك قد قررتَ في النهاية البقاء في البيت لقضاء المساء، وعندما تكون قد ارتديتَ سترتك المنزلية وجلستَ بعد تناول العشاء حيث الضوء على الطاولة للقيام بالعمل أو اللعبة التي تسبق عادة ذهابك إلى الفراش، عندما يكون الطقس في الخارج مزعجاً بحيث يبدو البقاء في الداخل أمراً طبيعياً، عندما كنت جالساً بهدوء إلى الطاولة لفترة طويلة جداً لدرجة أن مغادرتك لابد أن تسبب مفاجأة للجميع، وعندما، إلى جانب ذلك، يكون السلّم في الظلام والباب الأمامي مغلقاً، وعلى الرغم من كل هذا أخذت تعاني من نوبة مفاجئة من عدم الارتياح وغيَّرت سترتك، وارتديتَ فجأة ملابس الشارع، وأوضحتَ بأنك لابد أن تخرج وببضع كلمات توديع مبتسرة خرجتَ فعلاً، وأنت تضرب باب الشقة على عجل تقريباً وفقاً لدرجة الاستياء التي تعتقد بأنك تركتَها خلفك، وعندما تجد نفسك مرة أخرى في الشارع بأطراف تتأرجح بحرية أكبر استجابة للحرية غير المتوقعة التي منحتَها إياها، وعندما تشعر نتيجة لهذا الإجراء الحاسم بأنك ركّزت داخل نفسك جميع إمكانات العمل الحاسم، وعندما تدرك بشكل أكثر من المعتاد أهمية أن قوتك هي أعظم من حاجتك لإنجاز أسرع التغيرات دون عناء وتستطيع التغلب على هذا، وعندما تسير ضمن هذا الإطار الذهني في الشوارع الطويلة ـ ثم في ذلك المساء قد ابتعدتَ تماماً عن عائلتك، التي تتلاشى في حالة من عدم اليقين، بينما أنت نفسك، بوصفك شخصية ثابتة، جريئة ومتشائمة، وأنت تضرب نفسك على الفخذ، تتحول إلى مكانتك الحقيقية.

كل هذا ما يزال يتضاعف إذا كنتَ في هذه الساعة المتأخرة من المساء تبحث عن صديق لترى كيف تسير الأمور معه.

قرارات

إن انتشال نفسك من مزاج بائس، حتى لو تحتّم عليك القيام بذلك عن طريق قوة الإرادة، لابد أن يكون سهلاً. فأنا أنتزع نفسي انتزاعاً من مقعدي، وأتمشّى حول الطاولة، وأمرّن رأسي وعنقي، وأجعل عينيّ تأتلقان، وأشد العضلات من حولهما. أتحدى مشاعري، وأرحّب بالشخص (أ) بحماسة على افتراض أنه سيأتي لرؤيتي، وأتسامح بشكل ودّي مع الشخص (ب) في غرفتي، وأصدّق كل ما يقال في غرفة الشخص (ج)، مهما كان الألم والجهد الذي قد يترتّب على ذلك، على الأمد الطويل.

مع ذلك، حتى لو تمكنتُ من ذلك، فإن زلة واحدة، زلة لا يمكن تجنبها، سوف توقف العملية برمتها، على نحو سهل ومؤلم على حد سواء، وسوف أضطر إلى النكوص مرة أخرى إلى محيطي الخاص.

لذلك ربما يكون أفضل مورد هو أن تقابل كل شيء بشكل سلبي، وأن تصنع من نفسك كتلة خاملة، وأن لا تستميل نفسك باتخاذ خطوة واحدة غير ضرورية عندما تشعر بأنك تنجرف بعيداً، وأن تحدّق في الآخرين بعينيّ حيوان، وأن لا تشعر بالندم، باختصار، بيدك أن تخنق ما يتبقّى فيك من حياة شبحية، أي، أن توسّع سلام المقبرة النهائي وأن لا تدع أي شيء يدوم سوى ذلك.

إن الحركة المميزة في مثل هذه الحالة هي أن تحرّك خنصرك على طول حاجبيك.

حُلم

كان جوزيف ك يحلم.

كان يوماً جميلاً وشعر (ك) كأنه ذاهب في نزهة. ولكن ما إن كاد يخطو خطوتين حتى كان في المقبرة. كانت الممرات هناك متعرجة جداً، مصنوعة ببراعة، مما جعلها غير عملية، لكنه انِسلّ على طول أحدها وكأنه كان على تيار مندفع بهدوء وتوازن ثابت. ومن مسافة بعيدة وقعت عينه على تراب قبر محفور حديثاً أراد أن يتوقف بجواره. تل القبر هذا سحره إيما سحر وشعر بأنه لا يستطيع الوصول إليه بسرعة كافية. لكنه غالباً ما كان يخطئ رؤيته، لأن منظره كانت تحجبه الرايات التي كانت تنحرف veered وتضرب بعضها بعضا بقوة كبيرة؛ ولا يمكن للمرء أن يرى حاملي الرايات، ولكن بدا بأن ثمة احتفالاً بهيجاً للغاية يجري هناك.

بينما كان ما يزال يحدق في المدى، رأى فجأة بأن تراب القبر قريب تماماً من طريقه، في الواقع كان يكاد ان يتركه وراءه. فقفز قفزة سريعة على العشب. لكن بما أن الطريق بدأ يندفع إلى الأمام تحت قدمه المتحركة، ترنح وسقط على ركبتيه بالضبط أمام تراب القبر. كان رجلان يقفان وراء القبر وكانا يحملان شاهد قبر بينهما في الهواء. وما إن وصل (ك) حتى دفعا الشاهد إلى الأرض ووقف كما لو أنه ثبّت بقوة. ومن بين بعض الشجيرات، خرج في الحال رجل ثالث، ميّزه (ك) على الفور بأنه فنان. لم يكن يرتدي سوى سروال وقميص مزرر بشكل خاطئ. كان

يعتمر قبعة مخملية على رأسه؛ وكان يحمل في يده قلم رصاص تقليدي كان يرسم به اشكالاً في الهواء كلما اقترب.

بهذا القلم، وجّه الآن نفسه إلى الطرف العلوي من شاهد القبر. كان هذا الشاهد طويلاً جداً، ولم يكن مضطراً إلى الانحناء، برغم أنه كان يجب أن ينحني إلى الأمام، لأن تراب القبر الذي لم يشأ ان يطأه بقدمه، كان بينه وبين الشاهد. لذلك وقف على رؤوس الأصابع وثبّت نفسه بيده اليسرى على السطح المستوي للشاهد. وبتحول مذهل من المهارة، تمكّن من إنتاج حروف ذهبية من قلمه التقليدي؛ وكتب: هنا يرقد ـ وكان كل حرف واضحاً وخُطّ بشكل جميل، وحُفر بعمق وباستخدام أنقى الذهب. عندما نقشَ هاتين الكلمتين نظر إلى (ك) حانقاً؛ ولم يقم (ك)، الذي كان متلهفاً جداً لمعرفة ما يؤول اليه هذا النقش، بإيلاء أي اهتمام إلى الرجل بل ركّز فقط على الشاهد. وفي الحقيقة استدار الرجل مرة أخرى لمواصلة الكتابة، لكنه لم يستطع الاستمرار، ثمة شيء ما أعاقه، فأنزل قلم الرصاص وتحوّل مرة أخرى نحو (ك). هذه المرة بادله (ك) النظرات فلاحظ أنه كان محرجاً للغاية وغير قادر على شرح ما يمر به. لقد تلاشت كل حيويته السابقة. وهذا ما جعل (ك) يشعر بالحرج أيضاً؛ فتبادلا نظرات يائسة؛ كان هناك بعض سوء الفهم المريع بينهما لا يمكن معرفة كنهه. وفي وقت غير مناسب بدأ جرس صغير يرن من كنيسة المقبرة، لكن الفنان أصدر إشارة بيد مرفوعة وتوقف الجرس.

بعد قليل، بدأ الجرس يرن مرة أخرى؛ لكن هذه المرة بهدوء ودونما إصرار، ويتوقف مرة أخرى في الحال؛ وكأنه كان يختبر نغمته ليس إلاّ. شعر (ك) بالتعاسة بسبب مأزق الفنان، فأجهش في البكاء والنشيج لفترة طويلة وهو يكوّر يديه حول وجهه. انتظرَ الفنان حتى هدأ (ك) وبعد ذلك قرر، لأنه لا مناص من ذلك، الاستمرار في النقش. فكانت أول ضربة صغيرة قام بها بمثابة ارتياح لـ (ك)، لكن من الواضح بأن الفنان انجزها بإكراه شديد؛ إذ إن العمل، أيضاً، لم يعد قد انتهى بشكل جميل، فضلاً عن ذلك بدا أن هناك نقصاً في صفحة الذهب، فتبعثر الخط شاحباً ومضطرباً، وتحول إلى حرف كبير جداً. كان الحرف هو الحرف (جَي)، وكان على وشك الانتهاء، وعند تلك اللحظة وطأ الفنان بغضب على كومة تراب القبر بإحدى قدميه حتى طار التراب في كل مكان في الهواء. في نهاية المطاف فهمه (ك)؛ لقد فات الأوان ليقدم اعتذاره الآن؛ وباستخدام جميع أصابعه حفر في الأرض التي لم تُبدِ تقريباً أية مقاومة؛ فكل شيء بدا معدًّا سلفاً؛ إذ كانت هناك قشرة رقيقة من التربة من أجل إعطاء المنظر المطلوب؛ تحتها مباشرة انفتحت حفرة كبيرة إلى الخارج، بجوانب شديدة الانحدار، غاص فيها (ك)، حيث اندفع على ظهره بحركة لطيفة. وبينما جرى استقباله في أعماق منيعة، ما يزال رأسه منشدًّا إلى الأعلى على رقبته، كان اسمه مخطوطاً على الشاهد فوقه بحروف منمقة كبيرة.

ومن هول المشهد، استيقظ جوزيف من حلمه.

في المعرض

لو حُثت فارسة ما ضعيفة هزيلة في السيرك حثاً متواصلاً على حصان متمايل لعدة أشهر بلا توقف من دون الالتفات إلى مسؤول الحلبة القاسي، صاحب السوط الغليظ، أمام جمهور نهم، وهي تندفع إلى الأمام على حصانها، وترمي القبلات، وتتمايل بخصرها، ولو قيّض لهذا الأداء أن يستمر في المنظور اللانهائي لمستقبل رتيب ويتصل بالهدير المتواصل للأوركسترا وهمهمة أجهزة التهوية، مصحوباً بموجات التصفيق المنحسرة والمتجددة التي هي بحق بمثابة مطارق بخارية ـ ثم، ربما، يندفع زائر شاب إلى المعرض نحو السلّم الطويل عبر جميع الدوائر، ويهرع إلى الحلبة، ويصرخ: توقفوا! معترضاً على هدير الأوركسترا التي ما تزال تصدح بالموسيقى المناسبة.

ولكن لأن الأمر ليس كذلك؛ فسيدة جميلة، متشحة بالوردي والأبيض، تتماوج بين الستائر، حيث ينفتح بين يديها الخدم الفخورون؛ ويقوم مدير الحلبة، الذي يلفت انتباهها بكل وقار، بالتقدم نحوها وهو يلهث بالولاء لهاثاً حيوانياً؛ فيرفعها بحنان على صهوة الحصان الرمادي المنقط، كما لو أن حفيدته الغالية على وشك الانطلاق برحلة محفوفة بالمخاطر؛ ولا يستطيع أن يقرر إعطاء الإشارة بسوطه للبدء، وأخيراً يضبط نفسه بما يكفي ليُلهب السوط بصوت عال؛ يجري بجانب الحصان، مبهوراً؛ ويتتبع بعين حادة القفزات التي تتخذها الفارسة؛ ويجد مهارتها الفنية تفوق الوصف؛ ويناديها بصيحات تحذير إنكليزية؛ وبغضب يحضّ السائسين الذين يحملون الأطواق ليكونوا أكثر انتباهاً. وقبل القيام بالحركة البهلوانية الكبيرة، يرفع ذراعيه ويدعو الأوركسترا بأن تصمت؛ وأخيراً يرفع الصغيرة وينزلها من على حصانها المرتعش، ويقبّلها على خديها، ويجد بأن كل الحفاوة التي حظيت بها من لدن الجمهور بالكاد تفي بالمرام؛ بينما تقوم هي بنفسها، مستندة عليه، وواقفة على أطراف أصابع قدميها، وسط سحابة من الغبار، بذراعيها الممدودتين ورأسها الصغير المتدلي إلى الخلف، {تقوم} بدعوة السيرك بأجمعه للمشاركة في انتصارها ـ ولأن الأمر كذلك، يضع الزائر إلى المعرض وجهه على السياج الحديدي أمامه، غارقاً في المسيرة الختامية وكأنه في كابوس، وينتحب من دون أن يفقه كنهه.

قتل الأخ

توضّح الأدلة بأن هذه هي الكيفية التي ارتكبت فيها جريمة القتل:

اتخذ شمار، القاتل، مكانه حوالي الساعة التاسعة ذات ليلة في ضوء القمر الساطع من الزاوية حيث كان على فيزه، ضحيته، أن يتحول من الشارع حيث يقع مكتبه إلى الشارع الذي عاش فيه.

كان الهواء الليلي بارداً يثير الارتعاش. مع ذلك كان شمار لا يرتدي سوى بدلة زرقاء رقيقة؛ وكانت سترته غير مزررة، أيضاً. لم يشعر بالبرد؛ إلى جانب ذلك، كان دائب الحركة طوال الوقت. سلاحه، شيء ما بين الحربة وسكين المطبخ، أبقاه بقوة في قبضته، مجرداً تماماً. نظر إلى السكين على ضوء القمر؛ فالتمع النصل؛ لكن هذا لا يكفي شمار؛ لذا ضربها على صخور الرصيف حتى تطاير الشرر؛ وندم على ذلك، ربما؛ ولإصلاح هذا الضرر سحبها مثل قوس كمان عبر نعل جزمته

بينما كان ينحني إلى الأمام، وهو يقف على ساق واحدة، وأصاخ السمع إلى كل من شحذ السكين على جزمته وإلى أي صوت خارج من الشارع الجانبي المصيري.

لماذا سمح بالاس، المواطن العادي الذي كان يراقب كل شيء من نافذته المجاورة في الطابق الثاني، بأن يحدث ذلك؟ فلْتحلوا غموض أسرار الطبيعة البشرية! وبياقته الملفوفة إلى الأعلى، وثيابه الملتصقة حول جسمه البدين، وقف ينظر، وهو يهز رأسه.

وعلى بعد خمسة منازل أخرى، على الجانب الآخر من الشارع، أخذت السيدة فيزه، التي ترتدي معطفها من فراء الثعالب على ثوب نومها، تحدق للبحث عن زوجها الذي كان يتسكع على غير عادته في وقت متأخر الليلة.

في نهاية المطاف، رنّ صوت جرس الباب من أمام مكتب فيزه، رنيناً مرتفعاً جداً بالنسبة لجرس الباب، بالضبط دوّى صوته فوق المدينة وحتى عنان السماء، وفيزه، العامل الليلي الكادح، خرج من المبنى، وهو ما يزال غير مرئي في ذلك الشارع، استقبله صوت الجرس بصوت الجرس؛ وعلى الفور سجَّل الرصيف خطاه الهادئة.

انحنى بالاس إلى الأمام؛ لم يجرؤ على تفويت أي شيء. قامت السيدة فيزه، التي طمأنها الجرس، بإغلاق نافذتها محدثة قعقعة. لكن شمار خرّ على ركبتيه؛ لأنه لم يكن لديه أي جزء من أجزاء جسده عارياً، وضغط فقط على وجهه ويديه على الرصيف؛ حيث كان كل شيء آخر يتجمد، بينما كان شمار يتوهج حرارة.

عند الزاوية نفسها التي تفصل بين الشارعين توقّف فيزه، فقط عصاه التي يتوكأ عليها بانت في الشارع الآخر لتسنده. إنها نزوة مفاجئة. فسماء الليل أغوته بزرقتها الداكنة وبلونها الذهبي. ولأنه غير عارف بهذا، أخذ يحدق فيها، ودون معرفة أيضاً رفع قبعته وسرّح شعره؛ فلا شيء هناك اجتمع معاً في نمط يعينه على تفسير المستقبل القريب الذي ينتظره. بقي كل شيء في مكانه بلا معنى، يكتنفه الغموض. بحد ذاته، كان هذا عملاً معقولاً للغاية يجب على فيزه أن يواصل السير عليه، لكنه سار على سكين شمار.

«فيزه!» صرخ شمار، وهو يقف على رؤوس أصابعه، وذراعه ممدودة، والسكين منخفضة بحدة، «فيزه! لن ترى جوليا مرة أخرى!» وأخذت سكين شمار تطعن يميناً في الحلق مرة وشمالاً مرة أخرى في الحلق ومرة ثالثة عميقاً في البطن. إن فئران الماء، إذا ما فريت بطونها، أصدرت صوتاً مثل ذلك الذي أصدره فيزه.

«تمّ كل شيء»، قال شمار، وقذف السكين، وهي الآن عبارة عن حصباء ملطخة بفيض الدماء، نحو واجهة أقرب منزل. «إنها نعمة القتل! الراحة، والنشوة الكبيرة من جراء سفك دم شخص آخر! فيزه، أيها الطائر الليلي القديم، والصديق، والنديم، والخِل، ها أنت تنزف بعيداً في الأرض المظلمة أسفل الشارع. لماذا لا تكون ببساطة كيس دم حتى أتمكن من أن أدوس عليك وأجعلك تتلاشى في العدم. فليس كل ما نريده يتحقق، وليست كل الأحلام التي ازدهرت قد آتت ثمارها، ها هي

أشلاؤك الصلبة ترقد هنا، غير عابئة بأية ركلة. ما هو الخير المرتجى من السؤال الأبكم الذي تطرحه الآن؟»

ووقف بالاس، وهو يختنق بالسم المتسرب في جسمه، عند باب منزله ذي الظلفتين عندما انفتح على مصراعيه. «شمار! شمار! لقد رأيتُ كل شيء، لم يفتني شيء». تفرّس بالاس وشمار في بعضهما بعضا. إن نتيجة هذا التفرس قد أرضت بالاس، بينما لم يتوصل شمار إلى أي استنتاج.

وهرعت السيدة فيزه، يحيطها حشد من الناس من كلا جانبيها، وقد شاخ وجهها من هول الصدمة. وبينما انفتح معطفها الفرو واسعاً، انهارت فوق فيزه، فالجسد الذي تجلله ملابس النوم هو جسد فيزه، والمعطف الفرو الذي يغطي الزوجين مثل عشب غض يغطي قبراً كان ينتمي إلى هذا الحشد.

أما شمار، الذي يصارع بصعوبة آخر ما يشعر به من غثيان، ضغط فمه على كتف الشرطي الذي، وهو يخطو بخفة، قاده بعيداً.

القرية التالية

اعتاد جدّي أن يقول: «إن الحياة قصيرة إلى حد مذهل. بالنسبة لي، عند العودة إلى الوراء، يبدو بأن الحياة أقصر كثيراً مما أتصور بحيث لا أستطيع فهمها، على سبيل المثال، كيف يتسنى لشاب أن يقرر الذهاب إلى القرية التالية من دون أن ينتابه الخوف من أنه ـ ناهيك عن الحوادث ـ حتى بالنسبة لفترة حياة سعيدة عادية لا يكفيها الوقت اللازم للقيام بمثل هذه الرحلة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زيارة إلى منجم

اليوم نزل رئيس المهندسين إلى جانبنا في المنجم. لقد أصدرت الإدارة بعض التعليمات أو غيرها حول حفر صالات عرض جديدة، وهكذا وصل المهندسون لإجراء المسح الأولي. بالريعان شباب هؤلاء الرجال ومع ذلك كم هم مختلفون عن بعضهم بعضا! لقد نشأوا جميعهم في بحبوحة من الحرية وهكذا فهم يظهرون بوضوح شخصيات مميزة من دون أن يلتفتوا حتى إلى شبابهم.

أحدهم، رجل نشيط ذو شعر أسود، لديه عيون تستوعب كل شيء.

وشخص ثاني يحمل دفتر ملاحظات يسجل فيه ملاحظات عابرة حيثما يحلّ، وينظر حوله، ويقارن، ويدون.

وثالث، يداه في جيبي معطفه، حتى إن كل شيء حوله يبدو مشدوداً جداً، يمشي مستقيماً تماماً؛ ويحافظ على وقاره؛ ماعدا حقيقة أنه مستمر في عض شفتيه تشي بأنه شاب غير صبور، ومتعذر كبحه.

ورابع ينهال بتوضيحاته على الشاب الثالث، الذي لا يطلبها منه؛ وكونه أصغر من الآخر، يهرول بجانبه نشطاً، وسبابته دائماً في الهواء، فيبدو وكأنه يقوم بإبداء تعليق على كل شيء يراه.

وخامس، ربّما هو كبيرهم من حيث الرتبة، لا يطيق أي شخص يرافقه؛ آناً يكون في الصدارة، وآناً آخر يكون في الخلف؛ المجموعة توائم خطوها على غرار خطواته؛ فهو شاحب وضعيف؛ وقد جعلت المسؤولية عينيه غائرتين؛ وغالباً ما يضغط يده على جبينه مفكراً.

بينما الشخصان السادس والسابع فيسيران وهما يميلان إلى الأمام قليلاً، ورأساهما قريبان من بعضهما، ويداً بيد، غارقان في حديث سري؛ ولو لم يكن هذا منجمنا ومحطة عملنا في أعمق دهليز، لاعتقد المرء بسهولة بأن هذين السيدين النحيفين، حليقي الذقن، بارزي الأنف هما رجلا دين شابان. احدهما يضحك في الغالب مع نفسه بصوت يشبهه خرخرة القط؛ والآخر، مبتسم أيضاً، يتزعم الحوار ويعزز ذلك بحركات من يده الحرة. كم واثقان هذان الاثنان من موقعهما؛ نعم، ما هي الخدمات التي لابد أنهما قدماها بالفعل إلى منجمنا على الرغم من صغر سنهما، ليكونا قادرين هنا، بالنسبة لمثل هذا المسح المهم، أمام أنظار رئيسهما، ليكرسا نفسيهما بشكل راسخ لشؤونهما الخاصة، أو على الأقل لشأن لا علاقة له بالمهمة الحالية؟ أو هل يكون من الممكن بأنهما، على الرغم من ضحكهما وعدم انتباههما الواضح، مدركان تمام الإدراك لأي شيء ضروري؟ إن المرء ليجد صعوبة في المجازفة في إصدار حكم حاسم على سيدين من طينتهما.

من ناحية أخرى، ليس هناك شك على الإطلاق في أن الرجل الثامن، على سبيل المثال، منكب بشكل لايضاهى على عمله أكثر من هذين الشابين، بل أكثر من كل السادة الآخرين. إذ يجب عليه أن يلمس كل شيء وينقر عليه بمطرقة صغيرة ما

فتئ يخرجها من جيبه ويعيدها مرة أخرى. وغالباً ما يجثو على ركبتيه في التراب، على الرغم من ملابسه الأنيقة، وينقر على الأرض، ثم مرة أخرى ينقر على الجدران بينما هو يمشي بجانبها أو على السقف الذي يعلو رأسه. ذات مرة مدد نفسه بشكل كامل واضطجع ساكناً؛ وبدأنا في التفكير في حدوث شيء ما غير صحيح معه؛ ثم وبحركة ارتدادية مفاجئة لجسمه الرخو قفز على قدميه. كان فقط يقوم بتحقيق آخر. يخيّل إلينا بأننا نعرف منجمنا وتكويناته الصخرية، لكن ما يسبره هذا المهندس طوال الوقت في مثل هذه الطريقة يكون وراء حدود فهمنا.

ثمة رجل تاسع يدفع أمامه ما يشبه عربة أطفال تحمل المعدات المسحية. وهو جهاز مكلف للغاية، مغروس عميقاً في قطن طبي غاية في النعومة. ويجب فعلاً على بوّاب المكتب أن يدفع هذه العجلة، لكنه غير واثق منها؛ لذلك لابد أن يقوم مهندس بتلك المهمة، كما يمكن للمرء أن يرى بأنه يفعل ذلك بحسن نية. ربما هو يكون الأصغر، وربما لا يفهم كل الجهاز حتى الآن، لكنه يراقب الآلات طوال الوقت، مما يجعله في كثير من الأحيان عرضة لخطر ارتطام عجلته بالجدار.

لكن هناك مهندس آخر يمشي جنباً إلى جنب معه من اجل منع حدوث ذلك. من الواضح أنه يفهم الجهاز بدقة ويبدو أنه حقاً الرجل المسؤول عنه. من وقت إلى آخر، ومن دون إيقاف العجلة، يأخذ جزءًا من آلة ما، وينظر من خلاله، يفتحه أو يغلقه، يهزه وينقر عليه، ويحمله إلى أذنه ويصيخ السمع؛ وأخيراً، بينما الرجل الذي يدفع الآلات عادة ما يقف بلا حراك، يضع الشيء الصغير، الذي لا يمكن للمرء أن يميزه عن بعد، ويعيده إلى مكانه بعناية فائقة. هذا المهندس يبدو قليل التسلط ولكن فقط في خدمة آلاته. إذ على مبعدة عشر خطوات قبل العربة يجب أن نفسح المجال لها عن طريق إشارة بلا أية كلمة من إصبعه، حتى عندما لا يكون أمامنا مجال لإفساح الطريق.

ووراء هذين السيدين يتبختر بوّاب المكتب، من دون أن يقوم بأي شيء. أما السيدان، كما هو متوقع من أشخاص بحجم معرفتهم الهائلة، فقد نبذا منذ فترة طويلة أي غطرسة كانت تتملكهما، ولكن يبدو بأن البوّاب قد اخذها كلها واحتفظ بها. وهو يطوي إحدى يديه خلفه، ويعبث بالأخرى التي أمامه بالأزرار المذهبة أو بالمنشفة الرقيقة لبدلته، ما فتأ يركع ذات اليمين وذات الشمال وكأننا قد حييناه و كان هو يرد التحية، أو بالأحرى كأنه افترض بأننا قد حييناه، كونه مرتفعاً جداً وشديد البأس بحيث لا يرى أية تحايا. بالطبع نحن لم نحيه، مع ذلك بإمكان المرء أن يتصور، عند النظر إليه، بأنه من الرائع جداً أن يكون المرء بواباً عند المكتب الرئيس للمنجم. وبالتأكيد أننا وراء ظهره انفجرنا ضاحكين، ولكن طالما حتى الصاعقة لا يمكنها أن تجعله ينظر حوله، فقد بقي لغزاً محيراً بالنسبة لنا لابد من احترامه.

اليوم لن نقوم بالكثير من العمل؛ فالانقطاع كان مهمًّا للغاية؛ إذ إن مثل هذه الزيارة تزيل معها كل أفكار العمل. من المغري جداً أن نقف محدقين وراء السادة وهم يختفون في ظلام الدهليز التجريبي. إلى جانب ذلك، ستنتهي نوبتنا قريباً؛ ولن نكون هنا لرؤيتهم عائدين.

بنات آوى والعرب

كنا نخيّم في الواحة. وكان رفاقي نائمين. ومرّ بجانبنا عربي ممشوق القامة، يرتدي ثوباً أبيض؛ كان يهتم بالإبل وها هو في طريقه إلى مرقده.

ألقيتُ بنفسي على ظهري في العشب؛ حاولتُ الخلود إلى النوم؛ لكنني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً؛ فابن آوى كان يعوي في المدى؛ ونهضتُ تارة أخرى. وما كان بعيداً غاية البعد غدا دفعة واحدة أكثر قرباً. إذ كانت بنات آوى يحتشدن حولي، وعيونهن تلتمع ذهبية باهتة ومن ثم تتلاشى مرة أخرى، وأجسادهن اللينة تتحرك برشاقة وبإيقاع، كما لو أنها كانت تحت لهيب السياط.

جاء أحدها من ورائي، ودفعني مباشرة تحت ذراعي، وأخذ يضغط عليّ، كما لو أنه كان بحاجة إلى دفئي، ومن ثم وقف قبالتي وتحدّث معي تقريباً وجهاً لوجه قائلاً:

«أنا أقدم ابن آوى على نطاق واسع. ويسرّني أنني التقيتك هنا أخيراً. لقد خامرني اليأس تقريباً، لأننا كنا ننتظرك سنوات طوال بلا انقطاع؛ كانت والدتي تنتظرك، وكذا فعلت أمها، وجميع جداتنا نزولاً إلى الأم الأولى لكل بنات آوى. هذا صحيح، صدقني!»

«ذلك مثير للدهشة»، قلتُ له، متناسياً أن أشعل كومة من الحطب التي وضعت من أجل إبعاد بنات آوى، «من المثير للدهشة أن أسمع ذلك. إنها محض صدفة أنني جئت إلى هنا من أقصى الشمال، وأنني أقوم بجولة قصيرة في بلدك. فماذا تريد بنات آوى، إذن؟»

وكما لو أنهن تشجعن بهذا السؤال الذي ربما يكون ودوداً للغاية، فقد أطبقتْ عليّ حلقة من بنات آوى؛ وكلهن يلهثن بأفواه مفتوحة.

«نحن نعلم»، بدأ ابن آوى الأكبر سناً، «بأنك قد قدمتَ من الشمال؛ وهذا هو بالضبط ما نعقد عليه آمالنا. فأنتم الشماليون تمتلكون ذلك النوع من الذكاء الذي ليس له نظير بين العرب. إذ لا يمكن أن تنطلق شرارة الذكاء، دعني أخبرك، عن غطرستهم الباردة: إنهم يقتلون الحيوانات من أجل الطعام، و يكرهون الميتة».

قلتُ: «اخفض من صوتك، فهناك عرب ينامون جوارنا».

قال ابن آوى: «أنت فعلاً شخص غريب هنا، وإلاّ كنتَ عرفتَ بأنه في تاريخ العالم كله لا يوجد أي ابن آوى قط يخاف من عربي. فلماذا إذن نخشاهم؟ أليس من سوء حظنا أن نُنفى بين هذه المخلوقات؟

«ربما، ربما،» قلت له، «فالأمور حتى الآن خارج نطاق اهتمامي ولستُ معنياً بإصدار الحكم بشأنها؛ يبدو لي بأنه خصام قديم جداً؛ أعتقد أنه يجري في الدم، وربما لن ينتهي إلاّ به».

قال ابن آوى العجوز: «أنت ذكي للغاية؛ وبدأن جميعاً باللهاث بسرعة أكبر؛ وأخذ الهواء يخرج من رئاتهن على الرغم من أنهن كن يقفن ساكنات؛ كما أن رائحة نتنة كنتُ اضطر إزاءها في بعض الأحيان على إطباق أسناني من اجل تحملها خرجت

من فكوكها الفاغرات، «أنت ذكي للغاية؛ فما قلته للتو يتوافق مع تقاليدنا القديمة. لذا سوف نسحب الدم منهن وسوف ينتهي الخصام».

«أوه!» قلتُ، بشكل أكثر حدة مما كنت أقصد، «سوف يدافعون عن أنفسهم؛ سوف يطلقون عليكم النار ويسقطونكم بالعشرات ببنادقهم».

«أنت تسيء فهمنا»، قال، «فالإخفاق الإنساني يستمر على ما يبدو حتى في أقصى الشمال. نحن لا نقترح قتلهم. فكل ماء النيل لا يمكن أن يطهرنا من ذلك. لماذا، إن مجرد رؤية أجسادهم الحية تجعلنا نلوي على أعقابنا ونهرب إلى هواء أنقى، إلى الصحراء، التي لهذا السبب بالذات غدت بيتنا».

وجميع بنات آوى من حولنا، بما في ذلك العديد من الوافدين الجدد من أصقاع بعيدة، أنزلوا رؤوسهم بين قوائمهم الأمامية ومسحوها بمخالبهم؛ وكان الأمر كما لو أنهم كانوا يحاولون إخفاء شيء مثير للاشمئزاز جداً لدرجة أنني شعرت وكأنني أقفز فوق رؤوسهم من أجل الفرار.

«ثم ماذا تقترح القيام به؟» سألتُ، وأنا أحاول النهوض على قدميّ؛ لكنني لم أقوَ على النهوض؛ إذ أطبق اثنان من الوحوش الفتية ورائي أسنانهما على معطفي وقميصي؛ فاضطررتُ إلى الجلوس. «هذان هما حاملا ثوبك»، أوضحَ ابن آوى العجوز، بشكل جدي تماماً، «انها علامة تنم عن التبجيل». «عليهم أن يتركانني!» صرختُ، متحولاً آناً إلى ابن آوى العجوز، وآناً إلى الوحشين الفتيين. «سوف يتركانك، طبعاً»، قال ابن آوى العجوز»، إن كانت تلك رغبتك. لكن الأمر يستغرق بعض الوقت، لأن لديهما أسناناً غرزاها عميقاً، كما هو عرفنا، وعليهما أولاً إرخاء فكوكهم شيئاً فشيئاً. في غضون ذلك، أصخ السمع إلى مطلبنا». «إن سلوككم لا يشي بأنكم ستولونه أذناً صاغية»، قلتُ. «لا تنظر إلينا بأننا غير مهذبين»، قال، والآن للمرة الأولى لجأ إلى بحة الحزن الطبيعة في صوته، «نحن مخلوقات بائسة، ليس لدينا سوى أسناننا؛ وأي شيء نريد أن نفعله، سواء كان جيداً أم سيئاً، لا يمكننا التعامل معه إلاّ بأسناننا». «حسناً، ماذا تريد؟» سألتُ، من دون أن أهدأ كثيراً.

«سيدي»، صرخ، وجميع بنات آوى عوين معاً؛ بدا هذا عن بعدٍ أشبه ما يكون بلحن. «سيدي، نريدك أن تُنهي هذا الخصام الذي يقسّم العالم. أنت بالضبط الرجل الذي تنبأ به أسلافنا حيث وُلِد للقيام بهذه المهمة. نحن لا نريد المزيد من الاضطرابات مع العرب؛ نرغب بمتسع نتنفس به؛ أفق مطهّر منهم؛ لا مزيد من ثغاء الأغنام التي تقطعها سكينُ عربيّ؛ كل حيوان يجب أن يموت موتة طبيعية؛ لا تدخّل حتى نكون قد جففنا الجثث من الدماء والتقطنا عظامها نظيفة. النظافة، لا نريد شيئاً سوى النظافة» ـ والآن كانت كلها تتحسر وتنتحب ـ «كيف يمكن أن تتحمل العيش في عالم كهذا، أيها القلب النبيل وحَسَنُ الطوية؟ بياضهم قذارة؛ سوادهم قذارة؛ لحاهم رعب؛ ومجرد مرأى محاجر عيونهم تجعل المرء يرغب بالبصاق؛ وعندما يرفعون ذراعاً، يتثاءب ملاك الجحيم تحت الإبط. لذا، يا سيدي، لذا، يا سيدي العزيز، بيديك القوتين حزّ رقابهم بهذا المقص!» ورداً على حركة من

رأسه جاء أحد بنات آوى يركض حاملاً مقص خياطة صغير، مغطى بصدأ قديم، متدلياً من نابه.

«حسناً، ها هو المقص أخيراً، ودونما فرصة للتوقف!» صرخ زعيم قافلتنا العربي الذي كان قد زحف عكس اتجاه الريح نحونا، وأخذ الآن يلوّح بسوطه العظيم.

هربت بنات آوى على عجل، ولكن على مسافة صغيرة احتشدت بمجموعة متراصة، كل هذه الوحوش تتراص وتندمج مع بعضها الآخر لدرجة أنها بدت وكأنها محجوزة في مرعى صغير محاط بلهيب متذبذب.

«وهكذا، لقد مررتَ بهذه التسلية أيضاً يا سيدي»، قال العربي ضاحكاً مسروراً بقدر ما يسمح به الوقار المتعارف عليه لدى أبناء جنسه. «أنت تعرف، إذن، ماذا تنوي هذه الوحوش أن تفعله»؟ سألتُ. «بالطبع»، قال، «هذه معلومة عامة؛ فطالما العرب موجودون، فإن هذا المقص يجوب الصحراء وسوف يظل يجوب معنا حتى آخر رمق في حياتنا. وهو يقدّم لكل أوروبيّ من أجل القيام بهذا العمل العظيم؛ فكل أوربي هو الرجل الذي أختاره القدر لهم. لديها آمال أكثر جنوناً، هذه الوحوش؛ إنها مجرد حمقى، حمقى بكل معنى الكلمة. لهذا السبب نحن نحبها؛ هي كلابنا؛ كلاب أجمل من أيّ من كلابكم. انظرْ إلى هذا، الآن، نفق جمل الليلة الماضية، وقد جلبته إلى هنا».

جاء أربعة رجال بالجثة الثقيلة وألقوا بها أمامنا. وما إن لامست الأرض حتى رفعت بنات آوى أصواتها. وكما لو أنها مسحوبة بحبال بشكل لا يقاوم فإن كل واحد منها بدأ يقذ الخطى إلى الأمام، زاحفاً على بطنه. كانت قد نسيت العرب، ونسيت كراهيتها، إذ سحرها الوجود المباشر المطلق للجيفة النتنة. كان احدها قد تمكن من حنجرة الجمل، غارساً أسنانه مباشرة في أحد الشرايين. ومثل مضخة صغيرة قوية تسعى بكل ما تحمله من تصميم لإطفاء بعض النار المستعرة، انتفضت وجاهدت كل عضلة في جسده وهو منكب في هذه المهمة. وفي طرفة عين أصبحوا جميعاً على أعلى الجثة، وهم يعملون معاً، تكوموا كالجبل.

والآن ألهبَ زعيم القافلة سوطه الجارح على ظهورها. رفعت رؤوسها؛ نصف مغمى عليها في نشوة؛ رأت العرب يقفون قبالتها؛ وشعرت بلسعة السوط على أفواهها؛ فقفزت راجعة إلى الوراء بعض الشيء. لكن دماء الجمل كانت تصب كالميزاب، وتفوح رائحتها إلى عنان السماء، وكانت الجثة قد تقطعت إرباً إرباً في العديد من الأماكن. لم يستطيعوا مقاومة ذلك؛ لذلك عادت مرة أخرى. ومرة أخرى رفع الزعيم سوطه؛ فأوقفتُ ذراعه.

«أنت على حق يا سيدي»، قال، «سنتركها وشأنها؛ بالإضافة إلى ذلك، فقد حان الوقت لإنهاء المخيم. حسناً، ها انت رأيتَها. يا لها من مخلوقات عجيبة، أليس كذلك؟ كم تكرهنا!»

الجسر

كنتَ متصلباً وبارداً، كنتَ جسراً، كنتَ ممتداً فوق وادٍ. أصابع قدميّ على جانب، وأصابع يديّ تتشبث في الجانب الآخر، وكنت قد تمسُّكت بقوة في الطين المتداعي. وذيول معطفي كانت ترفرف على جوانبي. وبعيداً في الأسفل هدر السيل الجليدي بأسماكه. لم يطأ أي سائح على هذا الارتفاع المتعذر عبوره، فالجسر لم يُرسم بعد على أية خريطة. لذلك تمددتُ وجعلتُ أنتظر، لا استطيع سوى الانتظار. لا يمكن لأي جسر، ما إن امتدّ على الجانبين، أن لا يكون جسراً إلاّ بعد أن ينهار.

كان الوقت يقترب من مساء أحد الأيام ـ هل كانت هذه هي المرة الأولى، أم إنها كانت المرة الألف؟ لا يمكنني أن أجزم ـ إذ كانت أفكاري دائماً مشوشة ودائرة على الدوام في دوامة. كان الوقت يتجه نحو المساء في الصيف، ازداد هدير السيل، عندما سمعتُ صوت خطوة بشرية! إليّ، إليّ. استقم، أيها الجسر، تهيأي، أيتها الألواح بلا سور، لتُمسكي بالمسافر الذي وثق بك. إذا كانت خطواته غير واثقة، قم بترسيخها من دون أن يدري، ولكن إذا ما تعثر اظهرْ له المادة التي صُنِعتَ منها، ومثل إلهِ جبلٍ اِقذفْ به إلى الأرض.

جاء، وضربني بالنهاية الحديدية لعصاه، ثم رفع أطراف معطفي بها ووضعها بالترتيب عليّ. غرز نهاية عصاه في شعري الكثيف وتركها تكمن هناك لفترة طويلة، ونسيني بلا شك بينما كان يحدّق بوحشية حوله. لكن بعد ذلك ـ جعلتُ أتبعه في خيالي في كل حركة وسكنة منه ـ قفز بكلتا قدميه على منتصف جسدي. فارتعدتُ متألماً ألماً فظيعاً، من دون معرفة ما كان يحدث. مَن هناك؟ هل هو طفل؟ أم حلم؟ أم عابر سبيل؟ انتحاريّ؟ شيطان؟ مدمِّر؟ واستدرتُ من أجل أن أراه. جسر يستدير! لم أكد قد استدرتُ بعدُ حتى بدأت أتداعى فعلاً، سقطتُ وفي ظرف لحظة تمزقتُ واخترقتني الصخور الحادة التي طالما حدقتْ بيّ بسلام من الماء المندفع.

راكب الدلو

نفد كل الفحم؛ وأصبح الدلو فارغاً؛ والمجرفة عديمة الفائدة؛ والموقد بردت أنفاسه؛ والغرفة تتجمد. والأشجار خارج النافذة متصلبة، يغطيها الصقيع؛ والسماء درع فضي ضد أي شخص يبحث عن المساعدة منها. لا بد لي من الفحم. إذ ليس بوسعي أن أتجمد حتى الموت؛ ورائي يقبع الموقد القاسي، وقبالتي السماء التي لا ترحم، لذلك لا بد لي من التحرّك بينهما وفي رحلتي أسعى إلى طلب العون من بائع الفحم. لكنه أعطى أذناً صماء إلى مناشداتي الاعتيادية؛ يجب أن أثبت له بأنه لم تبقَ معي ذرة واحدة من الفحم، وأنه يعني بالنسبة لي الشمس في السماء. عليّ أن أقترب منه مثل شحاذ، حيث حشرجة الموت في حنجرته، يصرّ على الموت على عتبة الباب، وطبقاً لذلك يقرر الطباخ أن يعطيه ما تبقّى في إبريق القهوة؛ بالضبط تماماً على بائع الفحم، المستشيط غضباً، والمعترِف بالوصية «لا تقتلْ»([1])، أن يرمي بملء مجرفة من الفحم في دلوي.

إن طريقة وصولي لا بد أن تحدد القضية؛ لذلك سأركب الدلو. وأنا أجلس على الدلو، ويداي على المقبض، وهذا أبسط نوع من اللجام، أدفع نفسي بصعوبة أسفل السلّم؛ ولكن ما إن أكون في الطابق السفلي يصعد دلوي، بطريقة رائعة، بطريقة

رائعة؛ فالإبل الجاثمة بضعةٍ على الأرض لا تنهض بمزيد من الكرامة، فيما تهز نفسها تحت عصي السائسين. وعبر الشوارع المتجمدة تجمداً شديداً نسير بخبب منتظم؛ غالباً ما ارتفع إلى أعلى مرتبة من الطابق الأول للمنزل؛ ولا أنخفض إلى مستوى أبواب المنزل. وفي النهاية أطفو على ارتفاع غير اعتيادي فوق القبو المقبّب للتاجر، الذي أراه إلى الأسفل بعيداً متربعاً على طاولته، عاكفاً على الكتابة؛ وقد فتح الباب لإخراج الحرارة الزائدة.

«يا بائع الفحم!» أصرخ بصوتٍ ضاع في غيابة الصقيع وتلاشى في السحابة التي كوّنتْها أنفاسي، «من فضلك، يا بائع الفحم، أعطني القليل من الفحم. فدلوي خفيف جداً بحيث يمكنني امتطاءه. حنانيك. وعندما أستطيع فإنني سوف أدفع لك الثمن».

يضع البائع يده على أذنه. «هل أن سمعي على ما يرام؟» يُلقي السؤال بلا اهتمام على زوجته. «هل أن سمعي على ما يرام؟ إنه زبون».

«لا أسمع شيئاً»، تقول زوجته، وهي تتنفس بسلام بينما تحوك، وظهرها دافئ بشكل لطيف بفعل الحرارة.

«أوه نعم، لابد أن تسمع،» أصيح. «إنه أنا، زبون قديم؛ مخلص وصادق؛ فقط ليس معي نقود في الوقت الحالي».

يقول البائع، «أيتها الزوجة، إنه شخص ما، لابد أن يكون هناك شخص ما؛ لا يمكن لأذنيّ أن تخدعانني» بكل هذا المقدار؛ لا بد أنه زبون قديم، قديم جداً، حيث أمكنه أن يهز مشاعري بشدة.»

«ماذا دهاك، يا رجل؟» تقول زوجته، وهي تتوقف عن عملها للحظة وتضغط بما تحيكه على صدرها. «لا أحد هناك، الشارع خالٍ، وجميع زبائننا قد تزودوا بالفحم؛ يمكننا إغلاق المحل لعدة أيام ونأخذ قسطاً من الراحة».

«لكنني أجلس هنا على الدلو»، أصرخ، في حين تغلق عينيّ دموع متجمدة، خدرة، «من فضلك انظر هنا، نظرة واحدة ليس إلاّ؛ ستراني مباشرة؛ أتوسل إليك، أريد فقط ملء مجرفة؛ وإن أعطيتني المزيد فسوف يسعدني ذلك، حيث إني لن أعرف ماذا أفعل. كل الزبائن الآخرين جرى تزويدهم. أوه، كم اتمنى لو كان بإمكاني سماع طقطقة الفحم في الدلو!»

«أنا قادم»، يقول بائع الفحم، وبساقيه القصيرتين يقوم بالصعود على درجات القبو، لكن زوجته ماتزال بجانبه، تحاول إرجاعه والإمساك به من الذراع وتقول: «ابقَ هنا؛ وإن رأيتك تمعن في خيالاتك سأذهب بنفسي. فكّرْ في نوبة السعال المزعجة التي ألّمت بك أثناء الليل. ولكن من أجل عمل تافه، حتى لو كان من ذلك النوع الذي كنت تحلم به في خيالك، فأنت على استعداد لنسيان زوجتك وطفلك وتضحي برئتيك. سأذهب أنا.

«إذن تأكدي من إخباره بكل أنواع الفحم الموجودة عندنا في المخزن! سأصيح أنا بالأسعار من ورائك».

«حسناً»، تقول زوجته وهي تصعد وصولاً إلى الشارع. بطبيعة الحال إنها تراني في الحال. فصرختُ، «سيدتي بائعة الفحم، تحياتي المتواضعة؛ أريد مجرد ملء مجرفة من الفحم؛ هنا في دلوي؛ سأحملها إلى المنزل بنفسي. ملء مجرفة من أسوأ ما لديك من الفحم. سأدفع لك المبلغ كاملاً، بالطبع، ولكن ليس الآن، ليس الآن». يا له من صوت يشبه قرع الأجراس ذلك الذي تحمله الكلمات «ليس الآن»، وكيف تختلط بشكل محيّر مع دقات المساء التي تنطلق من برج الكنيسة المجاورة!

«حسناً، ماذا يريد؟» يصرخ البائع. «لا شيء»، تردّ عليه زوجته، «لا شيء هنا؛ لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً؛ ضربات الساعة السادسة، والآن علينا أن نغلق المحل. البرد قارس؛ غداً من المحتمل سيكون لدينا الكثير الذي نقوم به مجدداً».

هي لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً؛ لكن مع ذلك تحلّ أشرطة مئزرها وتلوّح به من أجل أن تبعدني. وتنجح في ذلك، لسوء الحظ. إذ إن دلوي يمتلك كل فضائل الجواد الأصيل باستثناء قوة المقاومة، التي لا يمتلكها؛ فهو خفيف غاية الخفة؛ ومجرد مئزر امرأة من شأنه أن يجعله يطير في الهواء.

«أيتها الامرأة السيئة!» رددتُ عليها صارخاً، بينما هي، إذ تتحول نحو المتجر، بشيء من الاحتقار والرضى، تلوّح بقبضتها في الهواء. «أيتها الامرأة السيئة! لقد توسلت بك من أجل الحصول على ملء مجرفة من أسوأ انواع الفحم ولن تعطيني إياه». ومع ذلك سوف أصعد إلى مناطق جبال الجليد وسأضيع إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المحامي الجديد

لدينا محامٍ جديد، هو الدكتور بوتسيفالوس. هناك القليل في مظهره الذي يذكّرك بأنه كان ذاتَ يوم ملقّماً في معركة الإسكندر المقدوني. بالطبع، عندما تعرف قصته، فإنك ستعرف شيئاً ما. ولكن حتى المرشد البسيط الذي كنتُ أراه بين يوم وآخر على الدرجات الأمامية للمحاكم العدلية، وهو رجل يحظى بتقدير عالٍ من المراهن الصغير العادي في ميدان سباق الخيل، كان ينظر نظرة إعجاب للمحامي بينما كان يصعد درجات الرخام بحركة نشيطة جعلتها تدوّي تحت قدميه.

بشكل عام، توافق هيأة المحامين على دخول بوتسيفالوس. وبنظرة ذهول يخبر الناس أنفسهم، بينما المجتمع الحديث على ما هو عليه، بأن بوتسيفالوس هو في موقف صعب، ومن ثم، مع الأخذ بعين الاعتبار أيضاً أهميته في تاريخ العالم، فإنه يستحق استقبالاً ودياً على الأقل. في الوقت الحاضر ـ لا يمكن إنكار ذلك ـ ليس هناك الإسكندر العظيم. هناك الكثير من الرجال ممن يعرفون كيف يقتلون الناس؛ إذ لا تعوزهم المهارة اللازمة للوصول إلى مائدة تقام عليها مأدبة وطعن صديق بحربة؛ وبالنسبة للكثيرين فإن مقدونيا محصورة للغاية، لذلك يلعنون فيليب، الأب ـ ولكن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، أن يسرج طريقاً نحو الهند. حتى في يومه كان الوصول إلى بوابات الهند أمراً بعيد المنال، مع ذلك أشّر سيفُ الملك إلى الطريق المؤدي إلى تلك البوابات. اليوم تراجعت البوابات إلى أماكن نائية وأكثر علواً؛ فلا أحد يمكنه أن يشير إلى الطريق؛ هناك كثيرون ممن يحملون السيوف، ولكن فقط للتلويح بها، والعين التي تحاول أن تتابعها تصاب بالتشوش.

لذا ربما يكون من الأفضل أن نقوم بما قام به بوتسيفالوس وأن نستغرق في كتب القانون. ففي ضوء المصباح الهادئ، حيث خاصرتاه لا يعيقهما فخذا الفارس، وهو متحرر وبعيد عن صخب المعركة، يقوم بقراءة وتقليب صفحات مجلداتنا القديمة.

مخطوطة قديمة

يبدو الأمر وكأن شيئاً بالغاً قد أُهمِل في منظومة دفاع بلدنا. ونحن لا نشعر بالقلق إزاءه حتى الآن فيما انشغلنا في أعمالنا اليومية؛ لكن الأشياء التي أخذت تحدث مؤخراً بدأت تزعجنا.

أمتلكُ ورشة للأحذية في الساحة التي تقع أمام قصر الإمبراطور. ونادراً ما كنتُ أنزل ستائري، عند أول خيوط الفجر، عندما أرى الجنود المسلحين رابضين في مدخل كل شارع ينفتح على الساحة. لكن هؤلاء الجنود ليسوا جنودنا، من الواضح أنهم بدو من الشمال. بشكل أو بآخر يبدو غير مفهوم بالنسبة لي اندفاعهم المباشر في العاصمة، على الرغم من أن المسافة التي تفصلنا عن الحدود طويلة جداً. على أي حال، ها هم هنا إذن؛ يبدو أنه في كل صباح هناك المزيد منهم.

كما هي طبيعتهم، فهم يخيّمون تحت السماء المفتوحة، لأنهم يمقتون السكن في المنازل. إنهم يشغلون أنفسهم بشحذ السيوف، وبري السهام، وممارسة الفروسية.

هذه الساحة الهادئة، والتي كانت دائماً نظيفة جداً بشكل مبالغ فيه، حوّلوها إلى إسطبل بمعنى الكلمة. نحن نحاول بين الفينة والأخرى أن نهجر متاجرنا ونتخلص على الأقل من أسوأ الأوساخ، لكن هذا يحدث بشكل نادر جداً، لأن العمل هو بلا طائل وإلى جانب ذلك يعرّضنا إلى خطر السقوط تحت حوافر الخيول البرية أو إلى خطر التعرض إلى جَلْد السياط.

إن الكلام مع البدو أمر مستحيل. فهم لا يعرفون لغتنا، في الواقع ليس لديهم لغة خاصة بهم. إنهم يتواصلون مع بعضهم بعضا تماماً مثلما تتواصل الغربان. صراخ كصراخ الغربان دائماً ما يصكّ أسماعنا. كما أنهم لا يفهمون مؤسساتنا وطريقتنا في العيش ولا يحرصون على فهمها. وعليه فهم غير راغبين في فهم حتى لغة الإشارة لدينا. إذ يمكنك الإيماء إليهم حتى تكاد تخلع فكّيك ومعصميك ومع ذلك لم يفهموك ولن يفهموك أبداً. هم غالباً ما يتجهمون في وجهك؛ ثم يرتفع بياض عيونهم ويتجمع الرغاء على شفاههم، لكنهم لا يقصدون أي شيء من وراء ذلك، ولا يقصدون حتى تهديداً؛ فهم يقومون بذلك لأنه من طبيعتهم القيام به. وكلما يحتاجون إلى شيء، يأخذونه. ولا يمكن أن تطلق على هذا بأنه أخذ بالقوة. إذ ما إن يمسكوا بشيء فأنت ببساطة تتنحى جانباً وتتركه لهم.

ومن مخزني أيضاً، قد أخذوا العديد من المواد الجيدة. لكنني لا يمكن الشكوى عندما أرى كيف أن الجزار، على سبيل المثال، يعاني عبر الشارع. بمجرد أن يُحضِر أي لحم فإن البدو ينتزعونه كله منه ويلتهمونه. حتى خيولهم تلتهم اللحم؛ إذ في كثير من الأحيان يتمدد فارس وحصانه جنباً إلى جنب، وكلاهما يقضمان في المفصل نفسه، كل واحد ممسك بأحد الجانبين. فيستشيط الجزار غضباً ولا يجرؤ على فعل أي شيء لوقف عمليات تسليمه من اللحوم. نحن نفهم هذا، مع ذلك، ونتبرع بالمال من أجل أن يستمر في عمله. فإذا لم يحصل البدو على اللحوم، مَن يدري ما عسى أن يفعله هؤلاء؛ مَن يعرف على أي حال بماذا يفكرون، على الرغم من أنهم يحصلون على اللحوم كل يوم.

ولم تمضِ فترة طويلة حتى فكّر الجزار أنه ربما يجنب نفسه على الأقل عناء الذبح، وهكذا في صباح أحد الأيام أحضر معه ثوراً حياً. لكنه لن يجرؤ على تكرار ذلك مرة أخرى. إذ استلقيتُ لمدة ساعة كاملة على الأرض في الجزء الخلفي من الدكان حيث رأسي مغطى بجميع الملابس والسجاد والوسائد التي بحوزتي ببساطة من أجل أن لا اسمع خوار ذلك الثور، الذي أخذ البدو يتقافزون عليه من جميع الجهات، وهم يمزقون قطعاً من لحمه الحي بأسنانهم. وما إن خيّم الهدوء لفترة طويلة حتى خاطرتُ بالخروج؛ كانوا مستلقين خائري القوى حول بقايا الذبيحة مثل السكارى المتحلقين حول برميل النبيذ.

هذه كانت المناسبة عندما تخيلتُ أنني في الواقع رأيتُ الإمبراطور نفسه عند نافذة القصر؛ فهو عادة لا يدخل أبداً هذه الغرف الخارجية بل يقضي جلّ وقته في الحديقة الداخلية البعيدة؛ مع ذلك في هذه المناسبة كان واقفاً، أو هكذا على الأقل بدا لي، عند إحدى النوافذ، يراقب برأس منحنٍ ما يجري أمام مقر إقامته.

«ما الذي سيحدث بعدئذ؟» نحن جميعاً نتساءل. «إلى متى يمكننا تحمل هذا العبء وهذا العذاب؟ إذ جاء قصر الإمبراطور بهؤلاء البدو إلى هنا لكنه لا يعرف كيف يطردهم مرة أخرى. البوابة تبقى مغلقة؛ والحراس، الذين اعتادوا أن يسيروا دائماً جيئة وذهاباً باحتفال كبير، يحرصون على البقاء لصق النوافذ المغلقة. وهكذا تركوا الحِرَفيين والتجار لإنقاذ بلدنا؛ لكننا لسنا أهلاً لمثل هذه المهمة؛ كما أننا لم نزعم بأننا قادرون على ذلك. فهذا هو سوء فهم من نوع ما؛ وهذا سيكون فيه خرابنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطرْق على بوابة القصر

كان الوقت صيفاً، إنه يوم قائظ. وبمعية أختي كنتُ مارًّا ببوابة منزل فخم ونحن في طريقنا إلى البيت. لا أستطيع أن أقول الآن ما إذا كانت أختي طرقت على البوابة بدافع الإيذاء أو بسبب غياب العقل، أو انها مجرد لوّحت بقبضتها ولم تطرقه على الإطلاق. مائة خطوة أخرى على طول الطريق، الذي تحوّل هنا إلى اليسار، وبدأت القرية. لم نكن نعرفها تمام المعرفة، لكننا ما إن تخطينا المنزل الأول حتى ظهر الناس وقاموا بعلامات ودية أو تحذيرية لنا؛ فقد كانوا أنفسهم على ما يبدو خائفين، ومنحني الظهر رعباً. أشاروا نحو القصر الذي كنا قد مررنا بجانبه وذكّرونا بالطَرْق على البوابة. كان صاحب القصر سيتهمنا بذلك، وكان سيبدأ التحقيق فوراً. بقيتُ هادئاً وحاولت أيضاً أن أُهدّئ من روع أختي. من المحتمل أنها لم تضرب الباب على الإطلاق، ولو كانت قد ضربته، لما كان ذلك في أي مكان في العالم مدعاة لمقاضاتنا.

حاولت أن أوضّح ذلك للناس المحيطين بنا؛ استمعوا لي لكنهم امتنعوا عن إبداء أي رأي. في وقت لاحق قالوا لي بأنه ليس فقط أختي مَن سوف تُتهَم بذلك، بل وأنا أيضاً. هززتُ رأسي وابتسمت. وصوّبنا جميعاً بصرنا مرة أخرى صوب القصر، وكأن شخصاً يراقب سحابة دخان بعيدة وينتظر ظهور النيران. وإلى اليمين تماماً رأينا الآن فرساناً يسيرون عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها. ارتفع الغبار، وهو يخفي كل شيء، فقط رؤوس الأسنّة الطويلة تبدو تلصف. وبالكاد اختفت القوات في فناء القصر حتى حوّلوا أعنّة خيولهم مرة أخرى، لأنهم كانوا في طريقهم إلينا. حثثتُ أختي على أن تتركني، وسوف أقوم بنفسي بوضع كل شيء في نصابه الصحيح. رفضتْ أن تتركني. فأخبرتها أن عليها أن تغيّر ثيابها على الأقل، لكي تظهر بملابس أفضل أمام يديّ هؤلاء السادة. أخيراً انصاعت إلى الأمر وانطلقت على الطريق الطويل المؤدي إلى بيتنا. وها هم الفرسان يقفون بجانبنا، وحتى قبل أن يترجلوا من على ظهور خيولهم، استفسروا عن أختي. لم تكن هنا في هذه اللحظة، كانت اجابتي الوجلة لهم، لكنها ستأتي لاحقًا. لم يلقَ الجواب أي اكتراث؛ إذ بدا أن الشيء المهم هو أنهم وجدوني. إن عضوَي المجموعة الرئيسيين هما شخص شاب يفيض نشاطاً، كان قاضياً، ومساعده الصامت، الذي يسمى أسمان. وطُلب مني الدخول إلى المنزل الريفي. وأنا اهزّ رأسي وارفع سروالي، بدأتُ ببطء في التحرك، بينما كانت أعين المجموعة الحادة تتفحصني. ما زلتُ شبه متيقن بأنه بمقدور كلمة أن تكون كافية لتحررني، أنا الرجل المديني، وبشرف أيضاً، من هؤلاء القرويين. ولكن عندما خطوتُ فوق عتبة قاعة الاستقبال، قال القاضي، الذي كان يقذ الخطى في الأمام وكان بالفعل ينتظرني: «أنا متأسف حقاً لهذا الرجل». ومما لا شك فيه بأنه بهذا القول لم يكن يعني وضعي الحالي، ولكن كان يعني شيئاً ما سيحدث لي. بدت الغرفة أكثر شبهاً بزنزانة سجن منها بقاعة استقبال لمنزل ريفي. ثمة بلاطات حجرية كبيرة على الأرض، وجدران عارية تماماً، وداكنة، كان

مثبتاً في إحداها حلقة حديدية، وفي المنتصف هناك شيء بدا مابين لوح، وطاولة تشغيل.

هل ما زال بإمكاني أن أتحمل أي هواء آخر غير هواء السجن؟ ذلك هو السؤال الكبير، أو بالأحرى سيتعلق الأمر فيما إذا كان مايزال عندي أي احتمال لإطلاق سراحي.

أحد عشر ابناً

لدي أحد عشر ابناً.

الأول واضح غاية الوضوح من الخارج، لكنه جاد وذكي؛ مع ذلك، برغم أنني أحبه مثلما أحب كل أطفالي، إلاّ أنني لا أقيّمه تقييماً عالياً. إذ إن عملياته الذهنية تبدو لي بسيطة إلى أبعد حد. فهو لا ينظر لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى المدى الأبعد؛ إنه يركض طوال الوقت، أو بالأحرى يدور حوله، ضمن دائرة أفكاره الصغيرة.

الثاني وسيم، رشيق، حَسَن القدّ؛ حيث بوسع المرء أن يتنفس بارتياح عند مشاهدته يحمل سهم المبارزة. كما إنه ذكي أيضاً، لكن لديه خبرة العالم كذلك؛ فهو قد رأى الكثير، ومن ثم حتى موطننا الأصلي يبدو أنه يغدق عليه بالمزيد من الأسرار أكثر مما يغدق على القاعدين في المنزل. مع ذلك أنني على يقين من أن هذه الميزة ليست الوحيد فقط ولا هي حتى بشكل أساسي ناجمة عن أسفاره، بل هي خصلة نابعة من طبيعته التي لا تضاهى، التي يعترف بها على سبيل المثال كل شخص قد حاول تقليده في، لنقلْ، الغطس العالي الرائع الذي يقوم به في الماء، وهو يتشقلب عدة مرات بحركات بهلوانية، مع ذلك بسيطرة كبيرة إلى أبعد حد. فإلى النهاية ذاتها لقاعدة القفز يحافظ المنافس على شجاعته ورغبته في الاستمرار؛ لكنه عند تلك النقطة، بدلاً من القفز في الهواء، يجلس فجأة ويرفع ذراعيه معتذراً. ـ ورغم كل هذا (لابد أن أشعر حقاً بأنني محظوظ مع هذا الابن)، فإن تعلقي به ليس بلا منغصات. فعينه اليسرى أصغر قليلاً من عينه اليمنى وتطرف كثيراً جداً؛ إنه عيب صغير، بالتأكيد، وهو عيب يضيف جرأة على وجهه أكثر مما يكون عليه خلاف ذلك، كما أنه، مع الأخذ بعين الاعتبار اكتفائه الذاتي الذي يصعب الوصول إليه، لا يفكر أي شخص في ملاحظة هذا العيب والبحث عنه بهذه العين الأصغر حجماً ولا يفكر في الطريقة التي تطرف بها. مع ذلك فأنا، بوصفي والده، أفعل ذلك. بالطبع، ليس العيب الجسمي الذي يقلقني، ولكن عدم الانتظام الطفيف الذي يكتنف الروح والذي بطريقة ما يتناسب معه، وهو نوع من سم ضال يجري في الدم، نوع من عدم القدرة على تطوير إمكانات طبيعته إلى أقصى حد التي بوسعي أنا وحدي أن أراها. من ناحية أخرى، هذا هو بالضبط ما يجعله مرة أخرى ابني الحقيقي، لأن عيبه هذا هو عيب عائلتنا بأكملها لكنه واضح جداً فيه.

اما ابني الثالث فهو وسيم أيضاً، ولكن ليس بالطريقة التي أقدّرها. لديه المظهر الجميل الذي يليق بمطرب: الشفتان المقوستان؛ والعينان الحالمتان؛ وذلك الرأس الذي لا يحتاج إلاّ إلى شعر ينزل إلى الوراء ليجعله مؤثرًا أكثرَ؛ والصدر المقوس

جداً؛ ويدان سريعتان في الارتفاع وأكثر سرعة عند الانخفاض؛ وساقان تتحركان برقة لأنهما لا تستطيعان أن تحملا وزن الجسم. وفضلاً عن ذلك: إن بحة صوته ليست ضخمة وممتلئة؛ فهي تأسرك للحظة؛ والمتذوق يصيخ السمع؛ ولكن في الحال تقريباً ما يلبث أن يتسع هذا النفس. ــ بشكل عام، رغم أن كل شيء يغريني على جلب هذا الابن إلى دائرة الضوء، فأنا أفضّل أن أبقيه بعيداً عن الأضواء. فهو نفسه ليس مصراً على ذلك، ولكن ليس لأنه مدرك لمثالبه ولكن هذا ناجم عن البراءة. علاوة على ذلك، فهو غير مرتاح بين ظهرانينا؛ كما لو أنه سُمح له بالانتماء إلى عائلتنا، مع ذلك عرف بأنه ينتمي إلى عائلة اخرى قد فقدها إلى الأبد، فهو كئيب في كثير من الأحيان ولا شيء يمكن أن يشرح صدره.

ربما يكون ابني الرابع هو الأكثر أُنساً من بين الجميع. طفل حقيقي بعمره، يفهمه الجميع، فهو يقف على ما هو مشترك بين جميع الناس، فيما يشعر كل شخص بالميل لمنحه إيماءة رضى. ربما هذا التقدير العام هو ما يجعل طبيعته وادعة نوعاً ما، وحركاته أكثر حرية، وأحكامه غير مكترثة إلى حدّ ما. كما إن الكثير من ملاحظاته تستحق الاقتباس مراراً وتكراراً، ولكن لا يعني هذا كل ملاحظاته، فإلى حد كبير تصبح وداعته مزعجة. هو مثل رجل يقوم بإقلاع رائع من الأرض، يشقّ الهواء مثل طائر سنونو، ورغم كل شيء يسقط بلا حول ولا قوة في مجاهل الصحراء، ويتحول إلى لا شيء. هذه التأملات تقض مضجعي عندما أنظر إليها.

ابني الخامس رحيم وطيب القلب؛ فقد كان يعطي الوعود أقل مما كان يفي بها؛ واعتاد على أن يكون غير ذي قيمة لدرجة أنه لا أحد كان يشعر بوجوده تماماً؛ لكنه حقق سمعة من نوع ما. ولو سُئِلتُ كيف حدث هذا، لما استطعتُ أن أجيبك بشيء. ربما تأخذ البراءة طريقها الأسهل من خلال الفوضى الكبيرة في هذا العالم، وهو من الأبرياء بالتأكيد. ربما بريء إلى أبعد حد. وديع مع الجميع. ربما وديع غاية الوداعة. أعترف بأنني لا أشعر بالراحة عندما أسمعهم يمدحونه. يبدو أن الأمر يتعلق بجعل المديح رخيصاً جداً بحيث يغدقونه على أي شخص يتضح بأنه جدير بالثناء مثل ولدي هذا.

أما ابني السادس، فيبدو، للوهلة الأولى على أي حال، مفكراً أكثر من الجميع. فهو معتاد على أن يُطرق برأسه، ومع ذلك فهو متحدث بارع. لذلك ليس من السهل سبر أغواره. فإذا كان في المرتبة الدنيا، سقط في كآبة مبهمة؛ وإذا كان في المرتبة العليا، حافظَ على تفوقه من خلال الحديث المطلق. مع ذلك، فإنني أمنحه نوعاً من الانهماك الوجداني السمح؛ وفي رابعة النهار، غالباً ما يشقّ طريقه خلال غابة من الأفكار كما لو كان في حلم. ودون أن يعاني من أي مرض ــ إذ إن صحته على العكس جيدة جداً ــ فإنه يترنح في بعض الأحيان، لا سيما عند الغسق، لكنه لا يحتاج إلى اية مساعدة، فهو لا يسقط أبداً. ولعل نموه الجسدي هو السبب وراء هذه الظاهرة، فهو طويل القامة جداً بالنسبة لعمره. وذلك ما يجعله يبدو قبيحاً بشكل عام، برغمِ أنه ذو جمال رائع في بعض التفاصيل، تراه مثلاً في اليدين والقدمين. جبهته، أيضاً، قبيحة؛ فكل من جلدها وتشكيلة عظمها متوقفة بطريقة أو بأخرى في نموها.

الابن السابع ينتمي لي ربما أكثر من جميع أبنائي الآخرين. والعالم لا يعرف كيف أكنُّ له كل التقدير؛ إذ إن هذا العالم لا يفهم بصمة ذكائه الخاصة. إنني لا أفرط في تقييمه؛ فأنا أعلم بأنه قليل الأهمية؛ ولو لم يكن للعالم أي خطأ آخر غير خطأ عدم تقدير ولدي، لكان العالم ما يزال بلا لوم. لكن ضمن دائرة الأسرة لا ينبغي لي أن أهتم بأن أكون من دون ابني هذا. فهو ينظر بعين من القلق وكذلك التقديس للتقاليد، ويجمع بينهما، على الأقل ذلك ما أشعر به، في كليةٍ لا جدال فيها. صحيح بأنه يعرف أقل من أي شخص آخر ما يجب القيام به مع هذا الإنجاز؛ إلاّ أن عجلة المستقبل لن تبدأ أبداً بالدوران عن طريقه؛ لكن تصرفه محفز جداً، ومفعم جداً بالأمل؛ أتمنى لو كان لديه أبناء وأبناء أبناء. للأسف لا يبدو أنه ميّال إلى الوفاء برغبتي هذه. فبرضى عن النفس أفهمه بقدر ما أنا أستنكره، حيث يقف هذا في تناقض رائع مع حكم العالم، يذهب إلى كل مكان بمفرده، لا يعير أي اهتمام للفتيات، ومع ذلك لن يفقد روح الدعابة لديه.

ابني الثامن هو ابن حزني، وأنا لا أعرف حقاً السبب وراء ذلك. برغم أنه يبقيني بعيداً عنه لكنني أشعر برباط أبويّ متين يشدّني إليه. لقد هوّن الزمن الكثير لتخفيف الألم؛ لكنني حينها اعتدتُ في كثير من الأحيان على أن أرتعد لمجرد التفكير فيه. إنه سلك طريقه الخاص به؛ إذ قطع كل الاتصالات معي؛ وبالتأكيد برأسه الصلب، وبجسمه الرياضي الصغير ـ فقط كانت ساقاه ضعيفتين نوعاً ما عندما كان صبياً، ولكن ربما في تلك الفترة جرى تصحيح ذلك ـ سوف يحقق نجاحاً في أي شيء يختاره. فكم من مرة درجتُ فيها على الرغبة في دعوته إلى الرجوع، من أجل أن اسأله كيف كانت تسير الأمور معه حقاً، ولماذا فصل نفسه تماماً عن والده، وماذا كان هدفه الأساسي في الحياة، لكنه الآن بعيد جداً ومرّ وقت طويل بحيث إنه من الأفضل أن تبقى الأمور على ماهي عليه. أسمع بأنه الوحيد من بين أبنائي قد اكتملت لحيته؛ وهذا لا يمكن أن يبدو أمراً مستحسناً، بطبيعة الحال، بالنسبة لرجل صغير جداً مثله.

ابني التاسع أنيق للغاية ولديه ما تعتبره النساء عيناً أخاذة بمعنى الكلمة. أخاذة جداً بحيث ثمة مناسبات يستطيع فيها أن يقنعني، على الرغم من أنني أعلم بأن قطعة إسفنج رطبة تكون كافية تماماً للقضاء على كل ذلك التألق السماوي. لكن الشيء الغريب حول هذا الولد هو أنه لا يحاول أن يكون مغرياً؛ فهو مقتنع بقضاء حياته مستلقياً على الأريكة ومبدداً نظراته على السقف، أو بأفضل حال، يبقيها لنفسه تحت جفونه. عندما يستلقي في هذا الوضع المفضل، تراه يستمتع بالتحدث ويدير الحديث بشكل جيد؛ بشكل مختصر وبصورة دقيقة؛ ولكن ما يزال ضمن الحدود الضيقة؛ وبمجرد تجاوز هذه الحدود، الأمر الذي لا يمكنه تجنب القيام بذلك لأنها ضيقة جداً، فإن ما يقوله فارغ تماماً. قد يشير إليه أحدهم بالتوقف، إن كان لدى هذا الشخص أي أمل بأن مثل هاتين العينين الناعستين كانتا على علم بهذه الإشارة.

من المفترض أن يكون ابني العاشر شخصية غير صادقة. من ناحيتي فأنا لن أنكر بالكامل هذا الافتراض أو أثبته. بالتأكيد أن أي شخص يراه يقترب بكل مايحمله من غطرسة رجل أكبر من عمره مرتين، وهو يرتدي معطفاً طويلاً مزرَّرا بإحكام

دائماً، ومعتمراً قبعة سوداء قديمة لكنها مسرَّحة بدقة، وبوجه خال من التعابير، وذقن ناتئ قليلاً، وجفنين جاحظين يخفيان الضوء خلفهما، وهو يضع أصبعين عند شفتيه في الغالب ـ إن أي شخص يراه على هذه الحال خليق به أن يقول في نفسه: يا له من منافق أشر. ولكن بعد ذلك، ما عليك سوى أن تستمع إليه وهو يتحدث! بفهم، وبترو، وبشكل فظ، مقاطعاً الأسئلة بحيوية ساخرة، بتناغم كامل مع الكون، وهو تناغم مثير وطبيعي ويثلج الصدر، تناغم بحكم الضرورة يرفع الرأس ويجعل الجسم فخوراً. كثيرون ممن يرون أنفسهم أذكياء جداً ولهذا السبب، كما كانت ترواده أوهامهم، شعروا بالكراهية لمظهره الخارجي، وأصبحوا منشدّين بقوة به بسبب حواره. كما أن هناك أشخاصاً آخرين، أيضاً، غير متأثرين بمظهره لكنهم يجدون حواره مرائياً. أما أنا، بوصفي أباه، فلن أصرّح بأي حكم، ولكن لابد أن أعترف بأن النقاد الأخيرين على الأقل لابد من أن آخذهم بجدية أكبر من النقاد السابقين.

ابني الحادي عشر حساس، ربما هو أضعف أبنائي؛ لكنه خادع في ضعفه؛ لأنه في بعض الأحيان يمكن أن يكون قوياً وحازماً، برغم أنه حتى في هذه الحالة هناك دائماً على نحو ما نقطة ضعف كامنة. ومع ذلك، ليس هذا ضعفاً يمكن أن يخجل منه، هو مجرد شيء ما يبدو ضعفاً فقط حسب أرضيتنا الصلبة هذه. على سبيل المثال، أليس الاستعداد للطيران نوعاً من الضعف أيضاً، لأنه ينطوي على ترنح، وعدم ثبات، وارتجاف؟ إن شيئاً ما من هذه الطبيعة يميز ابني. وهذه ليست، بطبيعة الحال، الخصال التي تسرّ أباً؛ فهي من الواضح تميل إلى تحطيم الأسرة. هو أحياناً ينظر إليّ وكأنه يقول: «سوف آخذك معي، يا أبتي». ثم أفكر: «أنت آخر شخص أثق به». ومرة أخرى يبدو منظره يقول: «إذن دعني أكون الأخير على الأقل».

هؤلاء هم أبنائي الأحد عشر.

جاري

تقع أعباء عملي التجاري برمته على عاتقي. هناك فتاتان مع طابعتيهما وسجلاتهما الخاصة بالحسابات في غرفة الانتظار، في حين تحتوي غرفتي على طاولة كتابة، وخزانة، وطاولة استشارة، وكرسي بذراعين، وهاتف: هذه هي منظومة عملي بالكامل. ومن ثم فهي بسيطة التحكم، وسهلة التوجيه. أنا صغير تماماً، وفي طريقي الكثير من الأعمال التجارية. لكنني لا أتذمر، لا أتذمر.

في بداية العام، اشترى شابٌ المبنى الخالي المجاور لي، الذي كنتُ قد ترددتُ بحماقة كبيرة في استئجاره حتى فاتني الأوان. يحتوي هذا المبنى أيضاً على غرفة وغرفة انتظار، مع مطبخ، على أي حال، تابع لها ـ بالنسبة للغرفة وغرفة الانتظار فمن المؤكد أنني كنتُ سأستخدمهما لكاتبتيّ، اللتين تشعران بالإرهاق نوعاً ما ـ ولكن لأي غرض سأستخدم المطبخ؟ هذه الالتفاتة البسيطة مسؤولة لوحدها عن السماح بأن يختطف المبنى من تحت أنفي. والآن يجلس ذلك الشاب هناك. اسمه هاراس. وليست لدي أية فكرة عما يقوم به. خطّت على الباب لافتة تقول: «مكتب هاراس». لقد استفسرتُ عن الأمر وقيل لي بأنه مكتب تجاري مماثل لمكتبي. لا

يمكن للمرء أن يحذر الناس ضد توسّع زميل المهنة، لأنه رغم كل شيء شاب ومندفع ربما ينتظره مستقبل؛ مع ذلك لا يمكن للمرء أن يذهب بعيداً إلى حد تقديم المشورة له، لأنه بالاعتماد على كل المظاهر التي تدور حوله فهو ليس لديه أي أصول مالية حتى الآن. هذا هو الشيء المعتاد الذي يقوله الناس الذين لا يعرفونه.

أحياناً أقابل هاراس على السلّم؛ ويبدو دائماً في عجلة من أمره على نحو استثنائي، فهو ينطلق انطلاقة سريعة أمامي. لذلك لم أستطع أن ألقي نظرة فاحصة عليه لحد الآن، إذ إن مفتاح مكتبه دائماً ما يكون في يده عندما يمر بجانبي. وفي غمضة عين يفتح الباب. ومثل ذيل فأر كان ينزلق إلى الداخل وأبقى واقفاً مرة أخرى أمام اللافتة «مكتب هاراس»، التي قرأتها أكثر بكثير مما تستحق.

إن الجدران الواهية بشكل بائس تفضح الإنسان الشريف والكفوء، لكنها تغطي على غير النزيه. هاتفي مثبت على الجدار الذي يفصلني عن جاري. لكنني أنظر إلى ذلك الأمر على أنه مجرد حالة ساخرة على نحو خاص. إذ حتى لو عُلق على الجدار المقابل، فأنه يمكن سماع كل شيء في الغرفة المجاورة. لقد عوَّدت نفسي على عدم تسمية أسماء زبائني عند التحدث على الهاتف لهم. ولكن هذا بالطبع لا يحتاج إلى مهارة فائقة لتخمين الأسماء من خلال الأدوار المميزة والتي لا مفر منها في المحادثة. أحياناً أرقص وجلاً بالتأكيد حول الهاتف، والسماعة على أذني، ومع ذلك لا يسعني إلاّ أن أفشي الأسرار.

وبسبب كل هذا فقد أصبحت قراراتي التجارية بطبيعة الحال غير مضمونة، ونبرتي عصبية. ما الذي يفعله هاراس بينما أنا أقوم باتصالاتي الهاتفية؟ لو رغبتُ في المبالغة ــ وعلى المرء أن يقوم بذلك في كثير من الأحيان من اجل توضيح الأمور في ذهنه ــ فإنني يمكنني أن أؤكد بأن هاراس لا يحتاج إلى هاتف، فهو يستخدم هاتفي، إذ يدفع أريكته على الجدار ويستمع؛ بينما أنا في الجانب الآخر يكون لزاماً عليّ أن أهرع إلى الهاتف، وأستمع إلى كل طلبات عملائي، وأتوصل إلى قرارات صعبة وخطيرة، وأقوم بحسابات طويلة ــ ولكن الأنكى من ذلك كله، أثناء كل هذا الوقت، أنني أقدِّم إلى هاراس وبمحض إرادتي معلومات قيّمة عبر الجدار.

ربما هو لا ينتظر حتى نهاية المكالمة، بل ينهض عندما أصل إلى النقطة حيث تكون الأمور فيها أصبحت واضحة له، فيهرع من فوره إلى المدينة بسرعته المعهودة، وقبل أن أغلق الهاتف، يكون هو بالفعل قد حقق هدفه والعمل ضدي.

الهجين {تسلية}

لدي حيوان غريب، نصفه قطيطة، ونصفه حمل. إنه إرث من والدي. لكنه لم يكشف عن نفسه إلاّ في زماني؛ وفي السابق كان يبدو حملاً أكثر منه قطيطة. لكنه الآن يشمل الاثنين كليهما في أجزاء متساوية تقريباً. فمن القطة يأخذ رأسها ومخالبها، ومن الحمل يأخذ حجمه وشكله؛ ومن الاثنين يأخذ عينيه، البريتين المترجرجتين، وشعره، الناعم جداً، ينزل قريباً جداً من بدنه، إما حركاته، فهي تشترك بين القفز والمشي خلسة. وإذ يستلقي على عتبة النافذة في الشمس فهو يتكور على شكل كرة ويهرّ؛ وعندما يكون خارجاً في المرج فهو يندفع هنا وهناك مثل المجنون ونادراً ما

يُمسك به. إنه يفر من القطط ويشن هجومه على الحملان. وفي الليالي المقمرة، تكون نزهاته المفضلة على طول الطنف. لا يستطيع أن يموء ويمقت الفئران. وبجانب قن الدجاج، يمكنه أن يستلقي لساعات متربصاً، لكنه لم تسنح له حتى الآن فرصة للفتك.

أنا أطعمه الحليب؛ وهذا يبدو مناسباً له بشكل أفضل. وبجرعات طويلة يمتص الحليب من خلال أسنانه الشبيهة بالأنياب. إنه بطبيعة الحال مصدر رائع للترفيه عن الأطفال. إذ تكون ساعة الزيارة صباح يوم الأحد. أجلس مع هذا الوحش الصغير على ركبتيّ، فيحلّق أطفال الحي كله من حولي.

ثم تنهمر أغرب الأسئلة، التي لا يمكن لأي إنسان الإجابة عنها: لماذا لا يوجد سوى حيوان واحد من هذا النوع، ولماذا أنا بالذات وليس أي شخص آخر مَن يمتلك هذا الحيوان، وفيما إذا كان هناك حيوان مثله من قَبل وماذا سيحدث إن مات، وفيما إذا هو يشعر بالوحدة، ولماذا لا يوجد لديه أطفال، وماذا يُطلق عليه، وما إلى ذلك من الأسئلة.

ولم أتجشم عناء الإجابة، لكنني أقيّد نفسي من دون الخوض بمزيد من التوضيح لأظهر كل ما أملك بشأن هذه الحيوان. في بعض الأحيان يجلب الأطفال معهم القطط؛ وذات مرة جلبوا فعلاً حَمْلَين. ولكن مقابل كل آمالهم لم يكن هناك أي مشهد للتعرف على بعضهم بعضا. كانت الحيوانات تحدق بسكينة على بعضها الآخر بعيونها الحيوانية، ومن الواضح أنها قبلت وجودها المتبادل كحقيقة مقدسة.

وعندما يجثو على ركبتيّ، فإن الوحش لا يعرف الخوف ولا شهوة السعي. وأسعد ما عنده عندما يضغط نفسه عليّ. فهو يبقى مخلصاً للعائلة التي ربّته. وفي ذلك ليس هناك بالتأكيد علامة استثنائية على الإخلاص، لكن فقط هذه هي الغريزة الحقيقية لحيوان، على الرغم من أن له علاقات بعيدة لا حصر لها في العالم، لا يملك علاقة دم واحدة، ومن ثم فإن الحماية التي قد وجدها له معنا تكون مقدسة.

في بعض الأحيان لا يسعني إلا أن أضحك عندما يتشممني ويلتفّ بين ساقيّ وبِبساطة هو لن يفترق عني. ولعدم رضاه بكونه حملاً وقطة، فهو يصرّ تقريباً على أن يكون كلباً كذلك. وإذا، كما قد يحدث لأي شخص، لم يكن بوسعي رؤية أي مخرج من مشاكلي في العمل وكل ما كانت تنطوي عليه تلك المشاكل، وكنتُ على استعداد لترك الأمور تمضي على عواهنها، وفي هذا المزاج كنتُ مستلقياً على الكرسي الهزاز في غرفتي، والوحش على ركبتيّ، صادف أنني نظرتُ إلى الأسفل ورأيتُ الدموع تنهمر من شاربيه الضخمين. هل كانت تلك دموعي، أم كانت دموع الحيوان؟ هل كانت لدى هذه القطة، جنباً إلى جنب مع روح الحمل، طموحات بشرية؟ أنا لم أرث الكثير من والدي، لكن هذا الإرث رائع للغاية.

يتملك هذا المخلوق قلق كلا الوحشين، قلق القطة وقلق الحمل، بكل تنوعهما. لذلك يشعر بأن جلده مشدود للغاية بالنسبة له. في بعض الأحيان تراه يقفز على الكرسي الهزاز بجانبي، ويضع ساقيه الأماميتين على كتفي، ويدس أنفه في أذني. يبدو الأمر وكأنه يقول شيئاً ما لي، وبالفعل فإنه يحوّل رأسه بعد ذلك ويحدّق في وجهي ليرى

الانطباع الذي أحدثه تواصله هذا. ومن أجل أن أقدّم امتناني له فأنا أتصرف كما لو كنتُ قد فهمته، فأهز رأسي له. ثم يقفز إلى الأرض ويرقص بفرح.

ربما تكون سكين الجزار بمثابة رصاصة الرحمة بالنسبة لهذا الحيوان؛ ولكن طالما أنه إرث فإنني لا الجأ إلى هذا الخيار. لذلك لابد أن ينتظر حتى تخرج روحه طواعية من بدنه، وبرغم أنه يحدّق فيّ أحياناً بنظرة تنم عن فهم بشري، وهو يتحداني أن أفعل ذلك الشيء الذي يفكر فيه كلانا.

هموم ربّ الأسرة

يقول بعضهم بأن كلمة اودرادك هي من أصل سلافوني، ويحاولون تفسيرها على هذا الأساس. بينما يعتقد آخرون مرة أخرى بأنها من أصل ألماني، متأثرة فقط باللغة السلافية. إن عدم اليقين في كلا التفسيرين يسمح للمرء بأن يفترض بإنصاف بأن كليهما غير دقيق، خاصة وأن أياً منهما لا يقدم معنى ذكياً للكلمة.

لا أحد، بطبيعة الحال، سيشغل باله بمثل هذه الدراسات لو لم يكن هناك مخلوق يدعى اودرادك. للوهلة الأولى يبدو وكأنه بكرة مسطحة على شكل نجمة للخيوط، وبالفعل يبدو بأن فيه خيطاً ملتفاً عليه؛ من المؤكد، أن هذه هي أجزاء متقطعة من الخيط، معقودة ومتشابكة معاً، ومن أكثر الأنواع والألوان تنوعاً. لكنها ليست مجرد بكرة، لأن عارضة خشبية صغيرة تخرج من منتصف النجمة، وهناك قضيب صغير آخر مرتبط بتلك العارضة في زاوية قائمة. وعن طريق هذا القضيب الأخير على أحد الجوانب وأحد نقاط النجمة على الجانب الآخر، فإن الشيء برمته يمكن أن يقف منتصباً كما لو كان على ساقين.

يحلو للمرء أن يذهب إلى الاعتقاد بأنه كان لهذا المخلوق شكل واضح نوعاً ما لكنه الآن ليس سوى بقايا متحطمة. ومع ذلك، لا تبدو القضية هكذا؛ على الأقل ليس ثمة دليل على ذلك؛ إذ ليس هناك في أي مكان سطح غير مكتمل أو غير منقطع بحيث يوحي بأي شيء من هذا القبيل. يبدو الأمر برمته بلا معنى تماماً، ولكن بطريقة ما {يبدو} مكتملاً بشكل تام. على أي حال، فإن التدقيق عن كثب يكون أمراً مستحيلاً، لأن اودرادك حاذق الفطنة بشكل غير عادي ولا يمكن أبداً الإمساك به.

إنه يتربص عند المنعطفات في العليّة، والسلّم، والردهات، وقاعة المدخل. وغالباً لا يُرى طيلة أشهر متتالية؛ فنفترض بأنه قد انتقل إلى منازل أخرى؛ لكنه دائماً ما يعود بإخلاص إلى منزلنا مرة أخرى. في كثير من الأوقات عندما تخرج من الباب ويصادف أن يكون مستلقياً مباشرة تحتك مستنداً على أعمدة السلّم فإنك تشعر بميل إلى التحدث إليه. بالطبع، أنت لا تسأله أسئلة صعبة، لأنك تتعامل معه بالأحرى مثل طفل ـ سيما وهو ضئيل للغاية بحيث لا يمكنك إزعاجه. «حسناً، ما هو اسمك؟» تسأله. يجيب، «أودرادك». «وأين تسكن؟» فيقول وهو يضحك، «ليس لدي سكن ثابت»؛ لكنه نوع من الضحك من دون أن يكون وراءه رئتان. فهو يبدو وكأنه حفيف أوراق متساقطة. وتلك هي نهاية المحادثة عادة. وحتى هذه الإجابات ليست دائماً جاهزة؛ وغالباً ما يظل صامتاً لفترة طويلة، متخشباً كمظهره.

أسأل نفسي، بلا طائل، ما الذي قد يحدث له؟ هل من الممكن ان يموت؟ أي شيء يموت يكون لديه هدف ما في الحياة، شيء من النشاط، الذي قد استنفد؛ لكن ذلك لا ينطبق على اودرادك. هل لي أن أفترض، إذن، بأنه سيبقى دائماً يتدحرج على السلّم، وأطراف الخيط تسحل وراءه، تماماً امام أقدام أولادي وأولاد أولادي؟ إنه لا يؤذي أحداً يريد أن يراه؛ لكن فكرة أنه من المرجح أن يبقى على قيد الحياة من بعدي أجدها فكرة مؤلمة تقريباً.

التباس مشترك

إن تجربة مشتركة، تؤدي إلى التباس مشترك. (أ) يجب أن يقوم بالأعمال التجارية الهامة مع (ب) عند (هـ). يذهب إلى (هـ) لإجراء مقابلة تمهيدية، وينجز الرحلة هناك في عشر دقائق، ويتم رحلة العودة في المدة نفسها، وعند العودة يتفاخر لعائلته برحلته هذه. في اليوم التالي يذهب مرة أخرى إلى (هـ)، وهذه المرة لتسوية أعماله التجارية بشكل نهائي. وحيث إن ذلك في الظاهر سوف يتطلب بضع ساعات، فإن (أ) يغادر في وقت مبكر جداً في الصباح. ولكن على الرغم من ذلك، فإن كل الظروف المحيطة، على الأقل في تقدير (أ)، هي بالضبط نفسها في اليوم السابق، وهذه المرة تستغرق منه عشر ساعات للوصول إلى (هـ). عندما يصل إلى هناك منهكاً تماماً في المساء يخبرونه بأن (ب)، المنزعج من غيابه، كان قد غادر قبل نصف ساعة للذهاب إلى قرية (أ)، وهكذا تعاقبا أثناء مرورهما بحيث لم يرَ أحدهما الآخر. وينصحون (أ) بالانتظار. ولكنه في غمرة قلقه بشأن عمله، ينطلق في الحال ويسارع إلى البيت.

هذه المرة يقطع المسافة، من دون إيلاء أي اهتمام خاص لأي شيء، بلحظة على نحو خاص. في البيت يعلم بأن (ب) كان قد وصل في وقت مبكر جداً، مباشرة بعد مغادرة (أ)، وبالفعل كان قد قابل (أ) على عتبة الباب وذكّره بعمله؛ لكن (أ) قد أجابه بأن لا وقت لديه، ويجب أن يذهب في الحال.

وبرغم هذا السلوك غير المفهوم الذي انتهجه (أ)، على أي حال، فإن (ب) كان قد بقي مستمراً في انتظار عودة (أ). صحيح بأنه قد سأل عدة مرات ما إذا كان (أ) لم يعد بعدُ، لكنه كان ما يزال جالساً في غرفة (أ). ولفرحته الغامرة بفرصة رؤية (ب) في الحال وتوضيح كل شيء له، يندفع (أ) إلى الطابق العلوي. وما إن يصل تقريباً إلى القمة، حتى يتعثر، ويلتوي وتر رجله، ويكاد يغمى عليه من الألم، ويصبح غير قادر حتى على إطلاق صرخة، فقط بوسعه أن يأنّ بصوت واهن في الظلام، فإنه يسمع (ب) ـ من المستحيل أن يعرف ما إذا كان على مسافة بعيدة أو أنه بالقرب منه ـ يخطو نازلاً من السلّم في سورة غضب عنيفة ويتلاشى إلى الأبد.

حقيقة سانشو بانتزا

دون أن يُظهر أي تفاخر بالأمر، حقق سانشو بانزا نجاحاً على مرّ السنين، من خلال تغذية نفسه بعدد كبير من رومانسيات الفروسية والمغامرة في ساعات المساء والليل، وبهذا فهو ينأى بنفسه عن شيطانه، الذي دعاه في وقت لاحق دون كيشوت، إذ انطلق هذا الشيطان عندها، بشكل طليق، على أكثر المآثر جنوناً، والتي لم تؤذِ

أحداً، على أي حال، لعدم وجود كائن مقدّر سلفاً، والذي لابد أن يكون سانشو بانزا نفسه. وبوصفه رجلاً حراً، فإن سانشو بانزا من الناحية الفلسفية اتبع دون كيشوت في حملاته الصليبية، ربما من منطلق المسؤولية، واستمدّ منها تسلية كبيرة وثقافة حتى أواخر أيامه.

صمت الحوريات

إن الدليل بأن التدابير غير الكافية، بل الصبيانية حتى قد تفيد في إنقاذ الشخص من الخطر يتبيّن فيما يلي:

من أجل حماية نفسه من الحوريات سدّ يوليسيس أذنيه بالشمع وقيّد نفسه بسارية سفينته. بطبيعة الحال أن أي مسافر بل وكل مسافر قبله يمكن أنه فعل الشيء نفسه، باستثناء أولئك الذين أغوتهم الحوريات حتى ولو من مسافة بعيدة؛ ولكن كان معروفاً لجميع أنحاء العالم بأن مثل هذه الأشياء ليست بذات فائدة على الإطلاق. إذ إن أغنية السيرانات الحوريات يمكن أن تخترق كل شيء، وأن شوق هؤلاء الذين جرت استمالتهم قد كسر روابط أقوى بكثير من السلاسل والصواري. لكن يوليسيس لم يفكر في ذلك، برغم أنه ربما كان قد سمع به. إنه واثق ثقة مطلقة بحفنة من شمع وبسلسلة، وبغبطة بريئة بشأن استراتيجية الصغيرة هذه أبحرَ للالتقاء بالحوريات.

لدى الحوريات الآن سلاح أكثر فتكاً من أغنياتهن، ألا وهو الصمت. وعلى الرغم من أن مثل هذا الشيء لم يحدث أبداً، إلاّ انه ما يزال من الممكن أن نتصور بأن شخصاً ما ربما هرب من غنائهن؛ ولكن لا يمكن أن نتصور بأنه هرب من صمتهن. كما لم تكن هناك قوى أرضية يمكنها أن تقاوم الشعور بتحقيق الإنتصار على هذه الحوريات بفضل قوة المرء، والفرح اللاحق الذي يتغلب على كل شيء أمامه.

وعندما اقترب يوليسيس منهنّ لم تكن المطربات المتمكنات يغنين فعلاً، سواء لأنهن اعتقدن بأنه لا يمكن هزيمة هذا العدو إلاّ عن طريق الصمت، أو لأن مظهر النعيم البادي على وجه يوليسيس، الذي لم يكن يفكر في شيء سوى شمعه وسلاسله، جعلتهن ينسين غناءهن.

لكن يوليسيس، إذا أمكن للمرء أن يعبّر عن ذلك، لم يسمع صمتهن؛ إذ اعتقد بأنهن كنّ يغنين وأنه هو الوحيد الذي لم يسمع غناءهن. للحظة عابرة رأى حناجرهن تصعد وتهبط، وصدورهن يرتفعن، وعيونهن تملؤهن الدموع، وشفاههن نصف مفتوحة، لكنه اعتقد بأن هذه الحركات كانت مرافقة للألحان airs التي غدت غير مسموعة حوله. ولكن سرعان ما تلاشى كل هذا من أمام ناظريه عندما ثبّت بصره على المدى، واختفت الحوريات تماماً من أمامه، وفي اللحظة ذاتها عندما كنّ أقرب إليه لم يعد يعرفهن.

لكنهن ـ الأروع من أي وقت مضى ـ مددْن أعناقهن واستدرن، وجعلن شعرهن الفاتن يرفرف طليقاً في الهواء، وبحرية مددنَ مخالبهنّ على الصخور. لم يعد لديهنّ

أية رغبة للإغواء؛ فكل الذي كنّ يردنه هو الإمساك بقدر ما يستطعن بالإشعاع الذي سقط من عينيّ يوليسيس الكبيرتين.

لو امتلكت الحوريات إدراكاً لكنّ قد أبِدْنَ في تلك اللحظة. لكنهن بقين كما كنّ؛ لذلك فكل الذي حدث هو ان يوليسيس قد لاذ فراراً منهن.

لقد أُضيف أيضاً ملحقاً لما سبق ذكره. إذ يقال بأن يوليسيس كان يفيض مكراً، كان مثل الثعلب، بحيث لا يمكن حتى لإلهة القدر أن تخترق درعه. ربما كان قد لاحظ فعلاً، برغم أن التفاهم الإنساني هنا متعسّر، بأن الحوريات كنّ صامتات، وفسّر ادعاءهن السابق وادعاء الآلهة بأنه مجرد نوع من الحماية.

بروميثيوس

هناك أربعة أساطير بخصوص بروميثيوس:

استناداً إلى الأسطورة الأولى أنه جرى ربطه إلى صخرة في القوقاز لإفشائه أسرار الآلهة إلى البشر، وإن الآلهة أرسلت النسور لتتغذى على كبده، الذي كان يتجدد على الدوام.

ووفقاً إلى الأسطورة الثانية فإن بروميثيوس، الذي يحفّزه ألم المناقير التي تمزق أشلاءه، ضغط نفسه أعمق وأعمق على الصخرة حتى أصبح هو وهي حالة واحدة.

وحسب الأسطورة الثالثة بأن خيانته نُسيت على مرّ آلاف السنين، نسيتها الآلهة، والنسور، ونسيها هو نفسه.

وبالنسبة للأسطورة الرابعة، شعر الجميع بالإرهاق من هذه القضية التي لا معنى لها. أصبحت الآلهة مرهقة، والنسور مرهقة أيضاً، واندمل الجرح على مضض.

بقيتْ هناك كتلة الصخر التي لا يمكن تفسيرها. وحاولت الأسطورة شرح ذلك المتعذر تفسيره. ولأنها تمخّضت من رحم الحقيقة، كان عليها بالمقابل أن تنتهي في ذلك المتعذر تفسيره.

شعار المدينة

في البداية اتسمت جميع الترتيبات لبناء برج بابل بالتنظيم المتقن إلى حد ما؛ وبالفعل ربما كان التنظيم مثالياً للغاية، وجرى إعطاء اهتمام بالغ للمرشدين، والمترجمين الفوريين، ومساكن العمال، وطرق الاتصالات، وكأن هناك قروناً تنتظر المرء للقيام بهذا العمل. في الحقيقة، كان الرأي العام في ذلك الوقت هو أن المرء ببساطة لم يكن بمقدوره البناء ببطء شديد؛ وإن القليل من الإصرار على هذا من شأنه أن يكون كافياً لجعل المرء يتردد في وضع الأسس على الإطلاق. كان الناس يجادلون بهذه الطريقة: إن الشيء الأساسي في العمل كله هو فكرة بناء برج يصل إلى السماء. وبالمقارنة مع هذه الفكرة يكون كل شيء آخر ثانوياً. والفكرة، ما إن تمّ اُقتنصت في ذروتها، لا يمكن أن تنطفئ مرة أخرى؛ إذ طالما هناك أناس على الأرض ستكون هناك أيضاً الرغبة التي لا تقاوم لإكمال البناء.

ومع ذلك، على أي حال، على المرء أن لا يحمل أي قلق بشأن المستقبل؛ بل على العكس من ذلك، فإن المعرفة البشرية آخذة في الازدياد، وقد تقدّم فن البناء وسوف يحقق المزيد من التقدم، وهكذا فإن عملاً يستغرق منّا سنة كاملة ربما يُنجز في نصف المدة بعد مائة عام، ويُنجز على أتمّ وجه أيضاً، وبشكل أكثر دواماً. فلماذا يمارس المرء على نفسه أقصى حدّ من الجهد معتمداً على إمكانياته الحالية؟ سيكون هناك نوع من المنطق عند القيام بذلك لو كان من المحتمل أن يُنجز البرج في جيل واحد. لكن هذا بعيد المنال. ومن الأرجح جداً بأن الجيل القادم بما يحملونه من معرفة متكاملة سيجدون عمل أسلافهم سيئاً، وسيهدمون ما بُني حتى يبدؤون من جديد. مثل هذه الأفكار كانت تشلّ قوى الشعب، ولذلك تجشموا عناءً أقل بشأن بناء البرج منه بشأن بناء مدينة للعمال. إذ إن كل مجموعة أرادت أفضل حيّ لنفسها، مما أدى إلى نشوب النزاعات، التي تطورت إلى صراعات دموية. ولم تنتهِ هذه الصراعات أبداً؛ فبالنسبة للقادة كان هذا دليلاً جديداً على أنه، في غياب الوحدة اللازمة، يجب أن يُبنى البرج ببطء شديد، أو من الأفضل أن يُؤجل حتى إعلان السلام العالمي. لكن الوقت لم ينصرف فقط في الصراع؛ بل كانت المدينة تزدان في فترات الرخاء، وهذا للأسف الشديد أثار حسداً جديداً وصراعاً آخر. وبهذا الأسلوب، مرّ عصر الجيل الأول، لكن أياً من الأجيال التالية لم يُظهر أيّ فرق؛ ماعدا المهارات التقنية فقد زادت ومعها ازدادت فرص الصراع. وإلى هذا لابد من إضافة أن الجيل الثاني أو الثالث كان قد أدرك بالفعل عدم جدوى بناء برج يصل إلى السماء؛ لكن الجميع في ذلك كانوا مهتمين جداً بحيث لم يغادروا المدينة.

إن جميع الأساطير والأغاني التي ولدت في تلك المدينة مليئة بالشوق إلى يوم مبشّر به عندما ستدمّر المدينة بخمس ضربات متتالية من قبضة عملاقة. ولهذا السبب أيضاً فإن شعار المدينة يحتوي على قبضة يد محكمة.

بوسايدون

جلس بوسايدون في مكتبه، وهو يجري الحسابات. إذ إن إدارة كل المياه جعلتْه في عمل لا نهاية له. ولهذا كان بإمكانه أن يمتلك عدداً كبيراً من المساعدين بقدر ما يريد، فقد كان لديه عدد كافٍ تماماً، ولكن لأنه أخذ وظيفته على محمل الجد فقد أصرّ على أن يمرّ على كل الحسابات ثانية بنفسه، ومن ثم لم يقدّم له مساعدوه سوى عون ضئيل. لا يمكن القول بأنه كان يستمتع بالعمل؛ إذ كان يقوم به لأن هذا العمل ببساطة مخصص له؛ في الواقع كان قد تقدم بشكل متكرر لما وصفه بعمل أكثر بهجة، ولكن كلما طُرحت عليه اقتراحات مختلفة تبيّن بأنه لا شيء كان يناسبه بشكل جيد مثل وظيفته الحالية. وغني عن القول، أصبح من الصعب جداً إيجاد وظيفة أخرى له. وبرغم كل شيء، لا يمكن أن يخصص له محيط بعينه ويكون مسؤولاً عنه. وبصرف النظر عن حقيقة أن العمل في هذه الحالة لن يكون أقل، بل أكثر تفاهة، فإن بوسايدون العظيم يمكن أن لا يتبوأ سوى مركز مرموق. وعندما عُرض عليه منصب لا علاقة لها بالمياه، جعلتْه هذه الفكرة ذاتها يشعر بالغثيان، فتقطّع نَفَسه الإلهي وبدأ صدره البرونزي يضيق. في الحقيقة، لم يأخذ أحد مشاكله على محمل الجد؛ إذ عندما يشكو رجل جبار فعلى المرء أن يدعي الاستسلام، بغض

النظر كم تبدو القضية ميؤوساً منها. لم يفكر أحد على الإطلاق بإراحة بوسايدون من منصبه؛ حيث كان مقدراً له أن يكون إله البحار منذ زمن سحيق، وكان ذلك هو ما يجب أن يداوم عليه.

ما أزعجَه أكثر ـ وكان هذا هو السبب الرئيسي للاستياء من عمله ـ هو معرفته بالشائعات التي كانت تدور حوله؛ على سبيل المثال، بأنه كان يبحر باستمرار عبر الأمواج برمحه المثلث. وبدلاً من جلوسه في أعماق المحيط العالمي وهو يقوم بشكل مستمر بإجراء الحسابات، كان يقوم برحلة عرضية إلى جيوبتير لكسر الرتابة، وهي رحلة علاوة على ذلك كان يعود منها دائماً متعكّر المزاج. ونتيجة لذلك لم يكن قد رأى المحيطات، سوى رؤيتها بشكل عابر أثناء صعوده السريع إلى الأولمبوس، ولم يكن قد أبحر فعلاً عبرها. اعتاد أن يقول بأنه كان يؤجل هذا حتى نهاية العالم، وحتى ذلك الحين ربما تأتي هناك لحظة هادئة عندما، تماماً قبل النهاية وبعد اجرائه الحساب الأخير، يكون بإمكانه القيام بجولة صغيرة سريعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

زمالة

نحن خمسة أصدقاء، خرجنا ذات يوم من منزلٍ الواحد تلو الآخر، جاء الأول ووضع نفسه بجانب البوابة، ثم جاء الثاني، أو بالأحرى انزلق من خلال البوابة مثل كرة زئبق صغيرة، ووضع نفسه بالقرب من الأول، ثم جاء الثالث، ثم الرابع، ثم الخامس. وأخيراً وقفنا جميعاً في صف واحد. بدأ الناس يلاحظوننا، وأخذوا يشيرون إلينا ويقولون: هؤلاء الخمسة خرجوا للتو من ذلك المنزل. ومنذ ذلك الحين كنا نعيش معاً؛ ولولا شخص سادس كان يحاول التدخل باستمرار، لكانت حياتنا وادعة. هو لا يؤذينا، لكنه يزعجنا، وهذا يعدّ اذى بما فيه الكفاية؛ لماذا يتطفل وهو غير مرغوب فيه؟ نحن لا نعرفه ولا نريده أن ينضم إلينا. حصل وقت، بالطبع، عندما لم يكن نحن الخمسة يعرف أحدنا الآخر، أيضاً؛ ويمكن القول بأننا ما نزال لا نعرف بعضنا بعضا، ولكن ما هو محتمل ويمكن أن نتغاضى عنه نحن الخمسة ليس محتملاً ولا يمكن التغاضي عنه بالنسبة لهذا الشخص السادس. على أي حال، نحن خمسة ولا نريد أن نكون ستة. ولكن ما هو الهدف من وراء بقائنا معاً بأي حال من الأحوال؟ إن الأمر أيضاً بلا معنى بالنسبة لنا نحن الخمسة، ولكن هنا نحن معاً وسنظل معاً؛ ومع ذلك، لا نريد تشكيل مجموعة جديدة، بسبب خبراتنا المشتركة ليس إلاّ. ولكن كيف يتسنى للمرء أن يوضّح كل هذا إلى الشخص السادس؟ فالتوضيحات الطويلة ستكون بمثابة قبول به في حلقتنا، لذلك نحن نفضّل عدم الشرح وبالتالي عدم قبوله. لا يهم كيف يزمّ شفتيه فإننا نبعده عنا بمرافقنا، ولكن كلما نبعده، يعود ثانية.

في الليل

ضائع lost تماماً في الليل. بالضبط عندما يُخفض المرءُ في بعض الأحيان رأسَه ليفكر، ومن ثم يكون ضائعاً ضياعاً كاملاً في الليل. الناس من كل حدب وصوب نائمون. إن هذا الفعل هو مجرد مسرحية، وخداع ذاتي بريء، إنهم ينامون في المنازل، في أسرّة آمنة، تحت سقف آمن، ممددين أو ملتفين على المفارش، في شراشف، تحت البطانيات. في الواقع كانوا يتجمعون معاً كما كانوا في يوم من الأيام وغابر العهد والزمان في منطقة مهجورة، مخيم في العراء، عدد لا يحصى من الناس، جيش، شعب، تحت سماء باردة على أرض باردة، انهاروا ما إن وقفوا، وجباههم مضغوطة على أذرعتهم، ووجوههم إلى الأرض، ويتنفسون بهدوء. وأنت تراقب، فأنت واحد من المراقبين، تجد الشخص التالي عن طريق التلويح بعصا محترقة من كومة الحطب بجانبك. لماذا تراقب؟ يقال إن على المرء أن يراقب. لابد أن يكون هناك شخص ما.

مشكلة قوانيننا

إن قوانيننا غير معروفة بشكل عام؛ فهي باقية طيّ الكتمان لدى مجموعة صغيرة من النبلاء الذين يحكموننا. نحن مقتنعون بأن هذه القوانين العتيدة تدار بشكل صارم؛ ومع ذلك، فإنه لأمر مؤلم للغاية أن تحكمك قوانين لا تعرفها. أنا هنا لا أفكر

في التناقضات المحتملة التي قد تنشأ في تأويل القوانين، أو في العيوب التي تنطوي عليها عندما يُسمح لعدد قليل وليس الناس أجمع ليكون لهم رأي a say في تأويلها. ربما لا تكون هذه العيوب بذات أهمية كبيرة. فالقوانين موغلة في القدم؛ وتأويلها قد استغرق قروناً من العمل، وقد اكتسب {هذا التأويل} هو نفسه بلا شك منزلة القانون؛ وعلى الرغم من أنه ما يزال هناك هامش محتمل للتأويل، إلاّ أنه أصبح الآن مقيداً جداً. وعلاوة على ذلك، من الواضح أن النبلاء ليس لديهم سبب بحيث يتأثرون في تأويل القوانين حسب مصالح شخصية معادية لنا، لأن القوانين فُصّلت لصالح النبلاء منذ البداية، وهم أنفسهم يقفون فوق القوانين، ويبدو أن ذلك هو السبب في أن يوضع زمام القوانين حصراً بين أيديهم. بالطبع، ثمة حكمة في ذلك ــ مَن عساه يشكّك في حكمة القوانين العتيدة؟ ــ ولكن هناك أيضاً مشقة بالنسبة لنا؛ ربما يكون هذا أمراً لا مفر منه.

ومع ذلك، فإن وجود هذه القوانين بحد ذاته هو على الأغلب مسألة افتراض. ثمة تقليد يفيد بأنها توجد وأنها سرّ موكل أمره إلى النبلاء، لكن هذا لا يعدو ولا يمكن أن يكون أكثر من مجرد تقليد تجاوزه العصر، لأن جوهر الشفرة السرية هو أنه يجب أن يظل لغزاً. بعضٌ منا من بين الناس قد فحص باهتمام أعمال النبلاء منذ الأزمنة الأولى ولديهم سجلات قام بها أجدادنا ــ وهي سجلاتٌ داومنا عليها بشكل واع ــ ويدّعون الاعتراف، وسط عدد لا يحصى من الحقائق، بميول معينة رئيسية تسمح بهذه الصياغة التاريخية أو تلك. ولكن عندما نسعى إلى تكييف أنفسنا إلى حد ما لتتلائم مع الحاضر أو المستقبل حسب هذه النتائج المنظمة بشكل منطقي والمختبرة بدقة، فإن كل شيء يصبح غير مؤكد، ويبدو عملنا مجرد لعبة فكرية، لأن هذه القوانين التي نحاول الكشف عنها ربما تكون غير موجودة على الإطلاق. هناك جماعة صغيرة هم في الواقع يؤيدون هذا الرأي ويحاولون أن يظهروا بأنه، إن وجد أي قانون، لا يمكن أن يكون إلاّ هكذا: القانون هو ما يصنعه النبلاء.

هذه الجماعة ينظرون إلى كل ناحية بعين الأعمال التعسفية التي يقوم بها النبلاء، ويرفضون التقاليد الشعبية، التي وفقاً لهم لا تمتلك سوى بعض المزايا التافهة والعرضية التي لا تعوّض عيوبها الكبيرة، لأنها تعطي الناس أماناً خادعاً، كاذباً، ومفرطاً في الثقة في مواجهة الأحداث القادمة. هذا لا يمكن نيله، لكن الغالبية العظمى من شعبنا مسؤولة عنه وهذا نابع من حقيقة أن التقاليد بعيدة كل البعد عن الكمال ويجب أن تخضع بشكل كامل إلى المسائلة وأن المواد المتاحة، التي تبدو ضخمة، ما تزال شحيحة للغاية، وإن قروناً عدة لابد أن تمر قبل أن تصبح كافية بحق. هذا الرأي، المقلِق بقدر ما يتعلق الأمر في الحاضر، لا يخفّف وطأته إلاّ الاعتقاد بأن الوقت سيحين في نهاية المطاف عندما تصل سوية التقاليد وأبحاثنا فيه إلى خواتيمها، وإذا جاز التعبير يحققان متنفساً، عندما يصبح كل شيء واضحاً، وينتمي القانون إلى الشعب، وسوف يختفي النبلاء. وهذا لا يتحقق في جوّ من روح الكراهية ضد النبلاء؛ لا على الإطلاق، ليس على يد أي أحد. فنحن أكثر ميلاً إلى أن نكره أنفسنا، لأننا لم نظهر بعدُ لأنفسنا بأننا جديرون بأن تُعهد الينا القوانين. وذلك هو السبب الحقيقي الذي يجعل الجماعة الذين يعتقدون بعدم وجود القانون

قليلين جداً ــ برغم أن مذهبهم هو في بعض الأحيان جذاب للغاية، لأنه يعترف بشكل لا لبس فيه بالنبلاء وحقهم في المضي قدماً في الوجود.

في الواقع لا يمكن للمرء أن يعبّر عن المشكلة إلاّ بنوع من التناقض: إن أي جماعة لا يتنصلون فقط عن كل أيمانهم بالقوانين، بل ويتنصلون أيضاً عن النبلاء، سيجدون الشعب كله خلف ذلك القانون؛ مع ذلك لا يمكن أن يأتي إلى الوجود مثل هذه المجموعة، لأنه لا أحد يجرؤ على التنصل من النبلاء. نحن نعيش على حافة شفرة الحلاقة هذه. أحد الكتّاب ذات يوم قام بتلخيص المسألة بهذه الطريقة: إن القانون الوحيد المرئي وغير القابل للشك المفروض علينا هو طبقة النبلاء، فهل يجب علينا نحن بأنفسنا نحرم أنفسنا من هذا القانون الوحيد؟

تجنيد القوات

إن تجنيد القوات، والذي غالباً ما يكون ضرورياً بسبب الحروب الحدودية التي لانهاية لها، يحدث على النحو التالي:

يقتضي النظام بأنه في يوم ما في جزء ما من المدينة على كل السكان ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً من دون استثناء ــ البقاء في منازلهم. عادة في حوالي الظهر يظهر الرجل النبيل الشاب المسؤول عن التجنيد عند مدخل ذلك الجزء من المدينة حيث كانت مفرزة من الجنود، سواء من المشاة والفرسان، تنتظر منذ الفجر. إنه رجل شاب، ممشوق القوام، ليس طويل القامة، ضعيف، يرتدي بلا مبالاة، ذو عينين متعبتين، فيما تعبر محياه باستمرار موجات من القلق مثل رعشات حمى. ومن دون أن ينظر إلى أي شخص، يقوم بعمل علامة بالسوط، وهو أداته الوحيدة، حيث بسببها ينضم إليه العديد من الجنود ويدخل المنزل الأول. ثمة جندي، ممن يعرف شخصياً جميع السكان في هذا الجزء من المدينة، يقرأ قائمة السجناء. وكالعادة، كلهم حاضرون، مصطفّين في الغرفة، وعيونهم مثبتة على الرجل النبيل، كما لو كانوا جنوداً بالفعل. يمكن أن يحدث، على أي حال، بأنه هنا وهناك أن يغيب شخص ما، وهو دائماً ما يكون رجلاً. في هذه الحالة لا أحد يجرؤ على التعلل بأي عذر، ناهيك عن الكذب، فالجميع صامتون، وكل العيون منكّسة، والضغط الناجم عن الأمر الذي قد تحاشاه شخص ما في هذا البيت هو أمر لا يطاق، لكن الوجود الصامت للرجل النبيل يُبقي كل شخص مع ذلك في مكانه. ويقوم الرجل النبيل بعلامة، انها ليست حتى إيماءة nod، لا يمكن قراءتها إلا في عينيه، وهكذا يبدأ جنديان بالبحث عن الرجل المفقود.

وهذا ليس صعباً. فهو لا يخرج أبداً من المنزل، ولا ينوي بالفعل التهرب من الخدمة العسكرية، لكن الخوف فقط هو الذي منعه من الخروج، مع ذلك ليس هذا خوف من الخدمة نفسها ذلك الذي يبقيه بعيداً، بل هو التردد العام من إظهار نفسه، فبالنسبة له يكون الأمر تقريباً عظيماً جداً، عظيماً جداً بشكل مخيف لدرجة أنه لا يمكن أن يظهر من تلقاء نفسه. وهذا هو السبب في انه لا يهرب، هو ببساطة يجنح إلى الاختباء، وعند معرفته بأن الرجل النبيل في المنزل فهو يترك حتى مكان اختبائه ويتسلل إلى باب الغرفة حيث يُلقى القبض عليه على الفور على يد الجنود الذين

يبحثون عنه. ويُحضر أمام الرجل النبيل الذي يمسك بسوط بكلتا يديه ـ إنه ضعيف للغاية بحيث لا يقوى أن يفعل ذلك بيد واحدة ـ ويجلد الرجل. ولأنه لم يُلحق أي ألم كبير، يسقط السوط من يده، آناً بسبب الإرهاق، وآناً بسبب الاشمئزاز، وعندئذ يضطر الرجل المضروب إلى التقاطه وتسليمه إياه. في ذلك الحين فقط قد ينضم إلى الصف مع الآخرين؛ وبالصدفة، من المؤكد تقريباً بأنه لن يُجند. ولكنه يحدث أيضاً، وهذا يتكرر كثيراً، بأن عدداً غفيراً من الأشخاص يظهرون من دون أن يُدرج في القائمة. هناك، على سبيل المثال، تقف فتاة مجهولة، تحدّق في الرجل النبيل؛ إنها من خارج البلدة، من المقاطعات ربما، وقد أغراها التجنيد هنا. ثمة العديد من النساء اللواتي لا يستطعن مقاومة إغراء التجنيد في بلدة أخرى، لأن التجنيد في بلدتك يعني شيئاً مختلفاً تماماً. ومما يثير الغرابة، لا يعدّ من المشين بالنسبة للمرأة أن تستسلم لهذا الإغراء؛ بل على العكس من ذلك، ففي رأي الكثيرين، يكون هذا أمراً يتعين على النساء أن يخضن غماره، وهو دَين يدفعنه لبنات جلدتهن. علاوة على ذلك، أن هذا يأخذ دائماً المسار نفسه. فالفتاة أو الامرأة تعلم بأنه في مكان ما، ربما بعيداً جداً، في بيت الأقارب أو الأصدقاء، سوف يحدث التجنيد؛ إذ تطلب من عائلتها الحصول على إذن للقيام بالرحلة، وتُمنح الموافقة ـ إذ لا يمكن رفض هذا الطلب ـ فترتدي أفضل ما لديها من ملابس، وتصبح أكثر سعادة من المعتاد، وفي الوقت نفسه تبدو هادئة وودودة، بغض النظر عما قد تكون عليه في أوقات أخرى؛ ومع ذلك، على الرغم من كل هذا الهدوء والودّ تكون منيعة، مثل غريبة تماماً في طريقها إلى البيت ولا يمكن أن تفكر في أي شيء آخر غيره. في الأسرة التي سيجري فيها التجنيد تُستقبل استقبالاً مختلفاً تماماً عن الضيف العادي؛ إذ يتباهى بها الجميع، ويدعونها للتجوال في جميع الغرف في المنزل، وتطل من على جميع النوافذ، وإذا ما وضعت يدها على رأس أحدهم فهذا يعني أكثر من بَرَكة أب.

عندما تستعد العائلة للتجنيد فإن الامرأة تُعطى أفضل مكان، وهو بالقرب من الباب حيث يكون لديها فرصة أفضل ليراها الرجل النبيل ويمكنها هي رؤيته على أفضل وجه. يجري الاحتفاء بها بهذه الطريقة، إلى أن يدخل الرجل النبيل؛ بعد ذلك تبدأ في التواري عن الأنظار. إذ ينظر إليها قليلاً كما الآخرين، وحتى عندما تقع عينه على شخص ما، فإن هذا الشخص لا يدرك بأنه يُنظَر إليه. وهذا شيء لم تكن تتوقعه أو بالأحرى تتوقعه بالتأكيد، لأن الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك، ومع ذلك لم يكن توقّع العكس هو الذي دفعها إلى هنا، كان مجرد شيء قد بلغ الآن نهايته بالتأكيد. إنها تشعر بالخزي إلى درجة قد لا تشعر به نساؤنا في أي وقت آخر؛ ولم تدرك إدراكاً تاماً سوى الآن فقط بأنها شقّت طريقها بصعوبة إلى التجنيد الأجنبي، وعندما قرأ الجندي القائمة ولم يكن اسمها موجوداً فيها وتحصل هناك لحظة صمت، فإنها تهرب من الباب منكسرة الخاطر ومرتعدة، وتتلقى إضافة إلى ذلك ضربة في الظهر من قبضة الجندي.

لو كان الشخص غير المدرج اسمه في القائمة رجلاً، فإن رغبته الوحيدة هي تجنيده مع الآخرين على الرغم من أنه لا ينتمي إلى هذا المنزل. ولكن هذا أيضاً خارج

الموضوع تماماً، إذ لم يتم تجنيد دخيل من هذا النوع كما أنه لن يحدث شيء من هذا القبيل في أيما وقت مضى.

الاختبار

أنا خادم، ولكنني لا أعمل. فأنا هيّاب ولا أدفع بنفسي إلى الصدارة، في الحقيقة أنني لا أدفع بنفسي ولو لأكون بمستوى الآخرين، لكن هذا هو مجرد أحد الأسباب لبطالتي، بل حتى من الممكن أنه لا علاقة له ببطالتي، على أي حال إن الشيء الرئيسي هو أنني لا أُدعى للخدمة، بينما قد أُستدعي آخرين مع ذلك لم يحاولوا بالجدية التي حاولتُ فيها، وربما فعلاً لم يشعروا حتى بالرغبة في استدعاؤهم، في حين أنني، على الأقل في بعض الأحيان، قد شعرتُ بالرغبة في ذلك شعوراً قوياً.

لذلك فأنا أستلقي على الفراش في قاعة الخدم، وأحدّق في الأشعة في السقف، وأغطّ في النوم، وأستيقظ، وعلى الفور أغط في النوم مرة أخرى. أحياناً أتمشى حتى الحانة حيث يبيعون البيرة الحامضة، وأحياناً كنت أسكب باشمئزاز، ولكن في أحايين أخرى أشربه. أحب الجلوس هناك لأنني من وراء النافذة الصغيرة المغلقة، ومن دون إمكانية أن يكتشفونني، أستطيع أن أنظر عبر نوافذ بيتنا. لا يرى المرءُ الشيء الكثير هناك، فعلى حد علمي لا تطل على الشارع سوى نوافذ الممرات، ولا حتى تلك الموجودة في الممرات يمكن أن تؤدي إلى شقق أصحاب العمل. لكن من الممكن أيضاً أن أكون مخطئاً؛ إذ إن شخصاً ما، من دون أن أسأله، قال ذلك ذات مرة، والانطباع العام لمقدمة هذا البيت يؤكد هذا. فقط في اوقات نادرة جداً تُفتح النوافذ، وعندما يحصل هذا فإنه يقوم به خادم ربما يتكئ على حاجز الشرفة للنظر إلى أسفل لفترة وجيزة. ويترتب على ذلك بأن هذه هي ممرات حيث لا تشكّل مفاجئة بالنسبة له. في واقع الأمر أنا لم أتعرّف شخصياً على هؤلاء الخدم؛ فأولئك الذين يعملون بشكل دائم في الطابق العلوي ينامون في مكان ما آخر، وليس في غرفتي.

ذات مرة عندما وصلت إلى الحانة، كان ضيف يجلس في موقع المراقبة. لم أجرؤ على النظر إليه عن كثب وكان على وشك أن يستدير في الباب ويغادر. بيد أن الضيف دعاني، وتبيّن بأنه هو أيضاً خادم كنت قد رأيته ذات يوم في مكان ما من قبل، ولكن من دون أن أتحدث معه.

«لماذا تريد أن تهرب؟ اجلس وتناول مشروباً! أنا سأدفع.» لذا جلستُ. وسألني عدة أشياء، لكنني لم أتمكن من الإجابة، بل أنني لم أكن أفهم أسئلته حتى. فقلتُ: «ربما تتأسف الآن لأنك دعوتني، لذلك من الأفضل أن أنصرف»، وكنتُ على وشك النهوض. لكنه مدّ يده على الطاولة وألحّ عليّ بالبقاء. قال، «ابقَ، كان ذلك مجرد اختبار. مَن لا يُجِب عن الأسئلة فقد اجتاز الاختبار».

النسر

كان نسر ينهش في قدميّ. فبعد أن كان قد مزق حذائي وجواربي إرباً إرباً، أخذ الآن ينهش في قدميّ نفسيهما. وكان مراراً وتكراراً يضربهما، ثم دار عدة مرات بشكل

قلق من حولي، بعدها رجع لمواصلة عمله. مرّ سيد بجانبي، ونظر لبرهة من الزمن، ثم سألني لماذا تحملتُ ألم النسر. «أنا عاجز»، قلتُ. «عندما جاء وبدأ بمهاجمتي، حاولتُ بالطبع أن أبعده عني، بل حتى حاولت أن أخنقه، لكن هذه الحيوانات قوية للغاية، وكان على وشك أن يقفز على وجهي، لكنني فضُّلت التضحية بقدميّ. وهما الآن تقريباً ممزقتان قطعاً». قال السيد، «كيف سمحتَ لنفسك بأن تتعذب هكذا! إطلاقة واحدة وينتهي أمر النسر». قلتُ، «حقاً؟. هل ستفعل ذلك؟» قال السيد «بكل سرور، أنا لا أملك سوى العودة إلى البيت وأجلب بندقيتي. هل يمكنك الانتظار نصف ساعة أخرى؟» قلتُ، «لستُ متأكداً من ذلك»، ووقفتُ للحظة وقد ضاق بي الألم. ثم أردفتُ قائلاً: «أرجوك حاول انقاذي بأيما طريقة، من فضلك.» قال السيد، «حسناً، سأعود بالسرعة الممكنة». وأثناء هذا الحوار كان النسر يستمع بهدوء، وجعل عينيه تجولان بيني وبين السيد. أدركتُ الآن بأنه قد فهم كل شيء؛ ففتح جناحيه، ورجع إلى الوراء بعيداً للحصول على قوة دافعة، وبعد ذلك، مثل رامي الرمح، غرز منقاره في فمي، عميقاً في داخل أحشائي. وإذ أقع على ظهري، أحسست بالارتياح عندما شعرتُ به يغرق بشكل لا رجعة فيه في دمي، الذي كان يملأ كل عمق، ويفيض في كل وادٍ.

الربّان

«ألستُ أنا الربان هنا؟» صحتُ. «أنت؟» سأل رجل أسمر، طويل القامة ومرّر يديه على عينيه وكأنه يريد أن يزيل حلماً. كنتُ واقفاً عند الدفة في الليلة الظلماء، بينما كان فانوس واهن يضيء فوق رأسي، والآن كان هذا الرجل قد أتى وحاول أن يدفعني جانباً. ولمّا لم أستسلم، وضع قدمه على صدري وسحقني ببطء بينما كنتُ ما أزال متشبثاً بمحور الدفة، وأنا أديره لكي يهبط. لكن هذا الرجل مسكه، وسحبه إلى مكانه، ودفعني بعيداً. وسرعان ما استجمعتُ شتات قواي، على أي حال، وركضت إلى فتحة البضائع المطلة على أماكن الفوضى، وصرختُ: «أيها الرجال! أيها الرفاق! تعالوا إلى هنا، اسرعوا! لقد أبعدني شخص غريب عن الدفة!» جاءوا على مهل، وهم يتسلقون سلم المركب، متعبين، متمايلين، بجسومهم القوية. «هل أنا الربان؟» سألتُ. أومأوا برؤوسهم، لكن عيونهم كانت متسمرة على الغريب فقط، وتحلّقوا حوله في نصف دائرة، وعندما قال بصوت آمر: «لا تزعجونني!» فإنهم تجمعوا معاً، وأومأوا إليّ، وانسحبوا من سلّم المركب. أي نوع من الناس هؤلاء؟ هل يمتلكون ذرة من التفكير، أم إنهم يسيرون بلا هدف على الأرض؟

الخذروف

اعتاد فيلسوف على التسكع حيثما كان الأطفال يلعبون. وكلما رأى صبياً يحمل خذروفاً، كان ينتظر. بمجرد أن يبدأ الخذروف بالدوران كان الفيلسوف يسعى وراءه ويحاول الإمساك به. لم ينزعج عندما كان الأطفال يحتجون بصخب ويحاولون إبعاده عن لعبتهم؛ وطالما كان بإمكانه الإمساك بالخذروف بينما كان ما يزال يدور، فإنه كان يشعر بالسعادة، ولكن للحظة ليس إلاّ؛ ثم يلقي به على الأرض وينصرف بعيداً. لأنه يعتقد بأن فهم أي تفصيل، مثل خذوف يدور، على سبيل المثال، كان كفيلاً بفهم كل الأشياء. لهذا السبب لم يشغل نفسه بالمشاكل الجسيمة، إذ

بدت له غير ذات جدوى. فبمجرد فهم أصغر التفاصيل، إذن يُفهمْ كل شيء، وهذا هو السبب في أنه شغل نفسه فقط بالخذروف الذي يدور. وكلما أجريت الاستعدادات لدوران الخذروف، أعرب عن أمله في أن ينجح هذه المرة: بمجرد أن بدأ الخذروف في الدوران وكان الفيلسوف يجري خلفه لاهثاً، فإن الأمل يتحول عنده إلى يقين، ولكن عندما حمل تلك القطعة السخيفة من الخشب في يده، أخذ يشعر بالغثيان. فصراخ الأطفال، الذي لم يسمعه من قبل لكنه الآن صكّ أذنيه فجأة، طارده بعيداً، وأخذ يترنح مثل خذروف تحت رحة خيط أخرق.

خرافة صغيرة

قال الفأر، «واحسرتا، العالم يصبح أصغر كل يوم. كان في البداية كبيراً جداً لدرجة أنني كنت خائفاً، وظللتُ أركض وأركض، وكنتُ سعيداً عندما رأيتُ أخيراً جدراناً بعيدة إلى اليمين واليسار، لكن هذه الجدران الطويلة ضاقت بسرعة لدرجة أنني في الحجرة الأخيرة الآن، وهناك في الزاوية يقف الفخ الذي لابد أن أواجهه».

«أنت لا تحتاج سوى إلى تغيير اِتجاهك»، قالت القطة، وأكلتْه.

العودة إلى الوطن

لقد عدتُ، ومررتُ تحت القوس وهأنذا أنظر من حولي. هذه هي باحة أبي القديمة. البِركة في المنتصف. الأدوات القديمة، عديمة الفائدة، مختلطة معاً، وتسدّ الطريق المؤدي إلى سلّم العلّية. والقط يتربص على الدرابزين. ثمة خرقة ممزقة من القماش، كانت في يوم ما ملفوفة حول عصا في لعبة، ترفرف في النسيم. لقد وصلتُ. مَن سيستقبلني؟ مَن ينتظر خلف باب المطبخ؟ الدخان يتصاعد من المدخنة، يجري إعداد القهوة للعشاء. هل تشعر بالانتماء، هل تشعر وكأنك في بيتك؟ لا أعلم، أشعر بالاضطراب. إنه منزل أبي، لكن كل شيء يقف بارداً بجانب الآخر، كما لو أن كل فرد مشغول بشؤونه الخاصة، التي إما نسيتها، أو أنني لم أعرفها. ما هي الفائدة التي يمكنني أن اقدّمها لهم، ماذا أعني لهم، على الرغم من أنني ابن أبي، ذلك المزارع العجوز؟ وأنا لا أجرؤ على طرق باب المطبخ، أنا أستمع فقط من مسافة بعيدة، أنا أستمع فقط من مسافة بعيدة، واقفاً، بطريقة بحيث إنني لا يمكن أن أؤخذ على حين غرة وأنا أتنصّت. وحيث انني أستمع عن بعد، فأنا لم أسمع شيئاً سوى ضربة خافتة تصدر من الساعة التي تعود إلى أيام الطفولة، ولكن ربما أتخيل بأنني أسمعها. أي شيء آخر يجري في المطبخ هو سرّ يعود لأولئك الجالسين هناك، سرّ يحرصون على إبقائه بعيداً عني. وكلما ازداد تردد المرء أمام الباب، أصبح ذلك المرء أكثر غربة. ماذا سيحدث لو فتح أحدهم الباب الآن وسألني سؤالاً؟ ألن أتصرّف أنا بنفسي عندئذ مثل أي فرد يريد الحفاظ على سرّه؟

الأسى الأول

فنان أُرجوحة السيرك العجيب ـ هذا الفن، الذي يُمارَس على مستوى عالٍ في القبب المقوسة لمسارح المنوعات الكبيرة، هو من المسلّم به أحد أصعب الفنون الذي يمكن

للبشرية إنجازه ـ كان قد رتّب حياته بحيث، طالما استمرّ في العمل في المبنى نفسه، لم ينزل قط من أرجوحة السيرك ليلاً أو نهاراً، في البداية كان هذا فقط بدافع الرغبة لحذق مهارته، لكن فيما بعد جرى ذلك لأن العرف كان أقوى منه. إذ إن كل احتياجاته، وهي احتياجات متواضعة للغاية، كانت تُلبى عن طريق نوبات المشرفين الذين كانوا يشاهدون من الأسفل ويُرسِلون إلى الأعلى ويسحبون إلى الأسفل مرة أخرى في حاويات مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض أيّ شيء كان يطلبه. هذه الطريقة في العيش لم تسبب أي إزعاج إلى أناس المسرح، ماعدا أن ذلك، عندما كانت أدوار أخرى على المسرح، وكونه ما يزال معلقاً عالياً، وهو أمر لا يمكن إخفاؤه، {ماعدا ان ذلك} أثبت إلى حد ما بأنه مشتِّت للانتباه، وكذلك حقيقة أنه، برغم بقائه ساكناً جداً في مثل هذه الأوقات، كان يحظى بنظرة طائشة هنا وهناك من الجمهور. مع ذلك تجاهلت الإدارة هذا الآن، لأنه كان فناناً استثنائياً وفريداً. وبالطبع أدركوا بأن هذا النمط من الحياة لم يكن مجرد مزحة، وبأنه بهذه الطريقة فقط استطاع حقاً أن يُبقي نفسه في تمرين مستمر ويظل فنّه في درجة الكمال.

إلى جانب ذلك، كان هذا الأمر صحياً للغاية، وعندما كانت النوافذ الجانبية حول قبة المسرح تُفتحت في المواسم الأكثر دفئاً من العام، وتدخل الشمس والهواء المنعش بشكل لا يقاوم إلى القبة المعتمة، يصبح الوضع أكثر جمالاً. صحيح بأن حياته الاجتماعية محدودة إلى حد ما، فقط في بعض الأحيان كان هناك زميل بهلوان يقوم بتسلّق السلّم إليه، ومن ثم يجلس كلاهما على الأرجوحة، وهما يميلان يساراً ويميناً على الحبال الساندة، ويتجاذبان أطراف الحديث، أو إن عمال البناء الذين يقومون بإصلاح السقف كانوا يتبادلون كلمات قليلة معه من خلال نافذة مفتوحة، أو إن رجل الإطفاء، الذي يفحص إضاءة الطوارئ في الصالة العليا، كان يزوره، الأمر الذي بدا محترماً لكنه لا يمكن أن يدوم. ماعدا ذلك، لم يُزعج عزلته أي شيء؛ أحياناً، ربما، تجد عامل مسرح ضالاً في المسرح الفارغ ذات مساء يحدّق بتمعن في الارتفاع الكبير للسقف، خارج مرمى البصر، حيث كان فنان الأرجوحة، الذي هو غير مدرك بأنهم كانوا ينظرون اليه، يمارس فنه أو يأخذ قسطاً من الراحة.

كان بإمكان فنان الأرجوحة أن يستمر في العيش بسلام هكذا، لولا الرحلات التي لا مفر منها من مكان إلى آخر، التي وجدها مرهقة للغاية. بطبيعة الحال رأى مديره بأن معاناته لم تدم لحظة واحدة أطول مما هو ضروري؛ فبالنسبة للسفر إلى البلدة، كانت تُستخدم سيارات السباق، التي تطوف به، ليلاً إذا كان ذلك ممكناً أو في الساعات الأولى من الصباح، عبر الشوارع الفارغة بسرعة قصوى، لكنها رغم ذلك شديدة البطء قياساً بنفاد صبر فنان الأرجوحة. وبالنسبة للرحلات بواسطة السكك الحديد، كانت مقصورة كاملة تُحجز، حيث بإمكان فنان الأرجوحة، مع هذا الخيار الممكن برغم أنه خيار بائس بالنسبة لطريقة عيشه المعتادة، أن يزجي الوقت على رف الأمتعة؛ وفي البلدة القادمة على دور مسارحها، قبل وصوله بوقت طويل، كانت تنصب الأرجوحة في المسرح وتُفتح جميع الأبواب المؤدية إلى المنصة على مصاريعها، وتبقى الممرات حرة ـ مع ذلك لم يعرف المدير لحظة

سعيدة قط حتى يطأ فنان الأرجوحة بقدميه على سلم الحبال وفي طرفة عين، في نهاية المطاف، يعلّق عالياً على أرجوحته.

على الرغم من أن العديد من الرحلات قد رُتبت بنجاح على يد المدير، إلاّ أن كل رحلة جديدة كانت تحرجه مرة أخرى، لأن الرحلات، بغض النظر عن كل شيء آخر، تؤثر على أعصاب الفنان تأثيراً كبيراً.

ذات مرة عندما كانا يسافران معاً مرة أخرى، وفنان الأرجوحة مستلقٍ على رف الأمتعة يحلم، والمدير يميل إلى الوراء في مقعد النافذة المقابلة يقرأ كتاباً، خاطب فنان الأرجوحة رفيقه بصوت خفيض. فكان المدير كله آذاناً صاغية على الفور. قال فنان الأرجوحة، وهو يعض على شفتيه، إنه لابد أن يكون له دائماً في المستقبل أرجوحتان يؤدي عليهما عروضه بدلاً من واحدة، أرجوحتان إحداهما مقابل الأخرى. وافق المدير مباشرة. لكن فنان الأرجوحة، كما لو أنه أراد أن يُظهر بأن موافقة المدير عُدَّت رفضاً، قال إنه لن يقدّم عروضه مرة أخرى أبداً على أرجوحة واحدة فقط، مهما كانت الظروف.

وبدت هذه الفكرة بالذات التي قد تحدث على الإطلاق تصيبه بالقشعريرة. ومرة أخرى، أكّد المدير، وهو يتلمّس طريقه بحذر، اتفاقه الكامل بأن أرجوحتين أفضل من أرجوحة واحدة، بالإضافة إلى أن ذلك سيكون ميزة للحصول على عارضة bar ثانية، كما يمكن إدخال تنويعات أخرى إلى العروض. ومما زاد الطين بلة انفجر فنان الأرجوحة فجأة في البكاء. ولعميق غمّه، قفز المدير على قدميه وسأل عن ماهية الأمر، بعد ذلك ولعدم حصوله على أية إجابة صعد على المقعد وداعبه، من الخد إلى الخد، حتى إن وجهه ابتلّ بدموع فنان الأرجوحة. ومع ذلك استغرق الأمر الكثير من الاستفسارات وعبارات التحبب حتى تنهّد فنان الأرجوحة: «ثمة عارضة واحدة فقط في يديّ ـ كيف يمكنني الاستمرار في العيش!» وذلك ما جعل الأمر أسهل إلى حد ما بالنسبة للمدير ليطيّب خاطره؛ فوعد بأن يبرق من المحطة القادمة نفسها من أجل نصب أرجوحة ثانية في المدينة الأولى على حلبتها؛ وأنّب نفسه لأنه ترك الفنان يعمل لفترة طويلة جداً على أرجوحة واحدة فقط؛ وشكره وأشاد به بحرارة لكونه شخّص الخطأ في نهاية المطاف ووضعه نصب عينيه. وهكذا نجح في طمأنة فنان الأرجوحة، شيئاً فشيئاً، وكان بإمكانه العودة إلى ركنه. لكنه نفسه كان غير مطمئن، ولهذا أخذ يحدّق سراً بعدم ارتياح عميق في فنان الأرجوحة من فوق كتابه. وبمجرد أن بدأت هذه الأفكار تقض مضجعه، تساءل: هل ستتركه وشأنه؟ ألن تزداد هذه الأفكار عند الإلحاح؟ ألن تهدد وجوده هو بالذات؟ وبالفعل ظنّ المدير بأنه يمكن أن يرى، خلال النوم الهادئ على ما يبدو الذي عقب نوبة الدموع، أول أخاديد الهم محفورة عميقاً على الجبهة الطفولية، الناعمة لفنان الأرجوحة.

الرحيل

أمرتُ بأن يُحضروا لي الحصان من الإسطبلات. لم يفهم الخادم أوامري. لذا ذهبتُ إلى الإسطبلات بنفسي، وأسرجتُ حصاني، وامتطيته. وفي المدى سمعتُ صوت

بوق، وسألت الخادم عما كان يعنيه هذا. لم يعرف شيئاً ولم يكن قد سمع شيئاً. عند البوابة استوقفني وسأل: «إلى أين ذاهب سيدي؟» قلت له، «لا أعرف، فقط إنني أخرج من هنا، فقط أخرج من هنا. أخرج من هنا، لا شيء غير ذلك، إنها الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها الوصول إلى هدفي». فسأل، «إذن أنت تعرف هدفك؟» أجبتُ، «نعم، لقد أخبرتك للتو. فلأخرج من هنا ـ ذلك هو هدفي».

محامون

لم أكن متأكداً على الإطلاق ما إذا كان لدي أي محامين، ولم أتمكن من معرفة أي شيء محدد بخصوص ذلك، كان كل وجه غير وديّ، وبدا معظم الناس الذين جاءوا نحوي والذين ما فتئتُ ألتقيهم في الممرات يشبهون نساء مسنات سمينات. كنّ يرتدين مآزر ضخمة مخططة بالأزرق والأبيض تغطي جسومهنّ بالكامل، وظلنَ يضربن بطونهن ويتأرجحن باضطراب جيئة وذهاباً. بل لم أستطع حتى معرفة ما إذا كنتُ في دار العدالة. فبعض الحقائق كانت تتحدث لصالحها، وأخرى تحدثت ضدها. إن ما ذكّرني بدار العدالة أكثر من كل التفاصيل هو الضوضاء المدوية التي يمكن سماعها باستمرار في المدى؛ إذ لا يستطيع المرء أن يقول من أي اتجاه كانت تأتي، فهي كانت تملأ كل غرفة إلى حدّ أنه على المرء أن يفترض بأن تلك الضوضاء جاءت من كل مكان، أو، ما بدا أكثر احتمالاً، أن المكان الذي صادف أن يكون فيه المرء واقفاً كان المكان نفسه الذي نشأ منه ذلك الدويّ، لكن ربما كان هذا مجرد وهم، لأن الدويّ كان يأتي من مسافة بعيدة. هذه الممرات، الضيقة والمقببة بشكل صارم، والمتحولة في منحنيات تدريجية ذات أبواب عالية، وبسيطة الزخرفة، بدت بأنها منشأة خصيصاً لإضفاء صمت عميق؛ إنها أروقة تليق بمتحف أو بمكتبة. ومع ذلك لو لم تكن هذه دار عدالة، فلماذا كنتُ أبحث فيها عن محام هنا؟ لأنني كنت ابحث عن محام في كل مكان؛ إذن هو مطلوب في كل مكان، لذا لا غرو أن يكونوا هنا أقلّ مما في أي مكان آخر، فبالنسبة إلى المحكمة، يقوم المرء بالاستئناف، وتمرير الأحكام وفقاً للقانون. فلو قيّض للمرء أن يفترض بأن هذا جرى بطريقة غير عادلة أو طائشة، فإن الحياة لا يمكن أن تكون ممكنة؛ لابد للمرء أن يثق في أن المحكمة تسمح لهيبة القانون بأن تفرض سطوتها، لأن هذا هو واجبها الوحيد. وضمن القانون كل ما تجده هو اتهام، ودفاع، وحكم؛ وأي تدخل من جانب الفرد هنا سيكون بمثابة جريمة. إن الأمر مختلف، على أي حال، في حالة الحكم نفسه؛ فهذا يعتمد على التحقيقات التي تجرى هنا وهناك، من الأقارب والأباعد، من الأصدقاء والأعداء، في الحياة الأسرية وفي الحياة العامة، في المدينة والقرية ـ باختصار، في كل مكان. هنا يكون من الضروري جداً أن يكون لديك محامون، محامون كثر، أفضل المحامين قدر المستطاع، الواحد بجانب الآخر، أي جدار حيّ، لأن المحامين بطبيعتهم يصعب ضبطهم؛ اما المدعون، على أي حال، هؤلاء الثعالب الماكرون، أبناء عرس المتملصون، هؤلاء الفئران الصغيرة، فإنهم ينزلقون من أصغر الثغرات، وينطلقون من خلال سيقان المحامين. لذا حذارِ منهم! لهذا أنني هنا، أنني أجمع المحامين.

لكنني لم أجد أياً منهم حتى الآن، فقط تلكم النسوة المسنات مستمرات يذهبن ويغدين؛ ولو لم أكن منشغلاً في بحثي، لخلدتُ إلى النوم. إنني لست في المكان الصحيح ـ للأسف، لا أستطيع التخلص من الشعور بأنني لستُ في المكان الصحيح. يتوجب عليّ أن أكون في مكان يلتقي فيه كل الناس، من مختلف أنحاء البلد، من كل طبقة، وكل مهنة، ومن جميع الأعمار؛ وعليّ أن أحظى بفرصة اختيار، وبشكل متأنٍ، من بين الجموع مَن هو رحيم، ومتمكن، ويرعاني بعينه. ربما يكون أنسب مكان لهذا هو ساحة عرض ضخمة؛ إذ بدلاً عنها أنا أتسكع في هذه الممرات حيث لا يُرى سوى هذه النساء العجائز، ولا حتى العديد منهن، فدائماً الوجوه نفسها، وحتى هؤلاء القلة لن تستطيع الإمساك بهن، على الرغم من بطئهن؛ حيث ينزلقن بعيداً عني، ويطفن مثل سُحب مَطِيرة، ودائماً منهمكات بالكامل بأنشطة مجهولة. لماذا إذن أنا أجري بتهور إلى دارٍ دون قراءة اللافتة على الباب، وأجد نفسي على الفور في هذه الممرات، ويستقر بيَ الحال هنا بمثل هذا العناد الذي لا أستطيع حتى أن أتذكر أنني كنتُ أمام الدار، أو صعدتُ إلى الأعلى! لكنني لا أستطيع العودة، فهذا مضيعة للوقت، وهذا التسليم بأنني كنتُ على المسار الخطأ سيكون لا يطاق بالنسبة لي. ماذا؟ هل أهرع إلى الطابق السفلي في هذه الحياة القصيرة، المسرعة المصحوبة كما هو ديدنها بذلك الدويّ الذي لا يطاق؟ مستحيل. فالوقت المخصص لك قصير جداً لدرجة أنك إذا خسرتَ ثانية واحدة فقد خسرتَ حياتك ككل، لأنه لم يعد هناك متسع من الوقت، المسألة هي دائماً بالضبط بقدر الوقت الذي تخسره. وعليه إذا خرجتَ في نزهة، أستمرْ في ذلك مهما يحدث؛ لا يسعك إلاّ أن تكسب، لن تُعرّض نفسك للخطر، في النهاية قد تقع على منحدر ربما، ولكن لو عدتَ بعد الخطوات الأولى وهبطتَ إلى الطابق السفلي لسقطتَ في الحال ـ وهذا ليس احتمالاً، بل على وجه اليقين. وهكذا إذا لم تجد شيئاً في الممرات قم بفتح الأبواب، وإذا لم تجد شيئاً خلف هذه الأبواب فهناك المزيد من الطوابق، وإذا لم تجد أيٍ شيء هناك في تلك الطوابق، لا تقلق، ما عليك سوى أن تصعد إلى مجموعة أخرى من الطوابق. وطالما أنك لا تتوقف عن الصعود، فإن السلالم لن تنتهي، حيث تحت قدميك الصاعدتين سوف تستمر الدرجات في الصعود إلى الأعلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الزوجان

إن التجارة بشكل عام سيئة للغاية لدرجة أنه في بعض الأحيان، عندما لا يترك لي عملي في المكتب سوى قليل من الوقت، أقوم أنا بنفسي بالتقاط حالة من العينات وأدعو زبائني شخصياً. لقد مرّت فترة طويلة مذ قصدتُ زيارة في وقت ما، من بين آخرين، (ن)، الذي كانت تربطني معه ذات يوم علاقات تجارية مستمرة، انتكست كلية تقريباً، على أي حال، أثناء العام الماضي لسبب ما غير معروف بالنسبة لي. إلى جانب ذلك، لا حاجة لأن تكون هناك دائماً أسباب حقيقية لمثل هذه العراقيل؛ في الوضع الحالي غير المستقر غالباً فإن مجرد شيء تافه، مزاج مثلاً، سوف يحوّل كفة الميزان، وفي الطريقة نفسها فإن مجرد شيء تافه، كلمة مثلاً، يمكن أن تضع الأمور في نصابها الصحيح مرة أخرى. إذن أن تحظى بالقبول لدى (ن)، على أي حال، هو إلى حد ما عمل حساس؛ فهو رجل عجوز، أصبح إلى حد ما واهناً في وقت متأخر جداً، وعلى الرغم من أنه ما يزال يصرّ على الاهتمام بالمسائل التجارية بنفسه، فمن النادر أن يُرى في مكتبه؛ وإذا أردتَ التحدث إليه عليك الذهاب إلى منزله، ويرغب المرء بأن يؤجل زيارة عمل من هذا النوع.

مساء أمس بعد الساعة السادسة دلفتُ مع ذلك إلى منزله؛ لم يكن الوقت حقاً مناسباً لإجراء الزيارات، ولكن زيارتي برغم كل شيء هي زيارة عمل، وليست زيارة اجتماعية، ويمكن أن يُنظر إليها بهذا المنظار. كنتُ محظوظاً، حيث كان (ن) موجوداً في البيت؛ فقد عاد لتوه مع زوجته من نزهة، هكذا أخبرني الخادم، وهو الآن في غرفة نوم ابنه، الذي لم يكن بصحة جيدة وبقي ملازماً لفراشه. طُلِب مني الذهاب إلى هناك؛ ترددتُ في البداية، ولكن الرغبة بعدئذ في إنهاء زيارتي المقيتة في أسرع وقت رجّحت الكفة، وسمحتُ لنفسي بأن يقودونني إليه بما أنا عليه، بمعطفي وقبعتي، مع عيّناتي، عبر غرفة مظلمة توصل إلى غرفة مضاءة بشكل خافت، حيث كانت تجتمع مجموعة صغيرة.

وقعتْ نظرتي الأولى، ربما بشكل غريزي، على زبون معروف جيداً بالنسبة لي، وهو منافسي التجاري من بعض النواحي. لذا كان قد سبقني بزيارته، على ما يبدو. كان يجلس بارتياح بجانب سرير الرجل المريض، تماماً كما لو كان هو الطبيب؛ جلس هناك بكل جرأة بمعطفه الواسع الجميل، الذي كان غير مزرر؛ وربما أيضاً كانت تنتاب الرجل المريض أفكاراً معينة بينما كان مستلقياً هناك حيث توهج خداه بالحمى بشكل خفيف، وهو بين الحين والآخر يحدّق في وجه زائره. لم يعد صغيراً أيضاً، إذ إن ابن (ن)، هو رجل بعمري ذو لحية قصيرة، غير مرتبة بعض الشيء بسبب مرضه. أما العجوز (ن)، فهو رجل طويل القامة، عريض ما بين المنكبين، ولكن لدهشتي أصبح نحيلاً جداً بسبب الداء الزاحف، ومحنيّ الظهر وواهناً، كان ما يزال يرتدي معطف الفرو الذي دخل مرتدياً إياه، وهو يغمغم بشيء لابنه. بالنسبة لزوجته، فهي صغيرة وضعيفة، لكنها نشيطة للغاية، مع ذلك فقط عندما كانت تتحدث إليه ـ نادراً ما كانت تلاحظنا ـ كانت مشغولة في مساعدته على خلع معطفه، الذي، عند الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف الكبير في طولهما، كان أمراً

ينطوي على بعض الصعوبة، ولكن في نهاية المطاف أنجزت تلك المهمة. ربما، فعلاً، كانت الصعوبة الحقيقية تكمن في نفاد صبر (ن)، لأنه بيديه المرتجفتين واصلَ تلمّس الكرسي ذي المسندين، الذي كانت زوجته بعدما خلعت معطفه، دفعته إليه بسرعة إلى الأمام. هي نفسها إذن تناولت معطف الفراء، الذي اختفت تحته تقريباً، وحملته بعيداً.

الآن في نهاية المطاف، كما بدا لي، قد حانت لحظتي، أو بالأحرى لم تحن وربما لن تحين أبداً؛ مع ذلك إذا كنتُ سأجرّب أي شيء فلابد من القيام به في الحال، لأنني شعرتُ بأنه هنا لا يمكن أن تصبح الظروف لإجراء مقابلة عمل إلاّ غير مؤاتية على نحو متزايد؛ كما أن بقائي هنا طوال الوقت، مثلما نوى هذا الزبون على ما يبدو، لم تكن طريقتي: بالإضافة إلى ذلك، لم أكن أريد أن أعيره أدنى اهتمام. لذلك بدأت بدون مراسيم بشرح عملي التجاري، على الرغم من أنني رأيت بأن (ن) كان يودّ في تلك اللحظة أن يتحدّث إلى ابنه. لسوء الحظ لدي عادة عندما كنت أعدّ نفسي ـ وذلك ما يستغرق وقتاً قصيراً جداً، وفي هذه المناسبة استغرق وقتاً أقصر من المعتاد ـ {عادة} تتلخص بالنهوض والمشي بينما أنا أتحدث. وعلى الرغم من وجود ترتيب عالي المستوى في مكتب المرء، لكنه في منزل شخص غريب قد يكون مرهِقاً إلى حد ما. لكنني لم أستطع كبح جماح نفسي، لا سيما وأنني كنت أشعر بحاجة إلى سيجارتي المعتادة. حسناً، كل شخص لديه عاداته السيئة، مع ذلك يمكنني أن أهنئ نفسي على عادتي عندما أفكر بعادات الزبون. لأن ما يقال عن سلوكه، على سبيل المثال، بأنه بين الحين والآخر كان فجأة وبشكل غير متوقع يضع clap قبعته على رأسه؛ ومن ثم كان يحملها على ركبته حتى ذلك الحين، ثم يعمد إلى دفعها ببطء إلى الأعلى والأسفل هناك. صحيح بأنه كان يخلعها مرة أخرى على الفور، كما لو أنه ارتكب حماقة، لكنه كان يضعها على رأسه مع ذلك لثانية أو ثانيتين، وإلى جانب ذلك كان يكرر هذا الأداء مراراً وتكراراً كل بضع دقائق. بالتأكيد لابد أن يُنظر إلى هذا السلوك على أنه سلوك لا يغتفر. لم يزعجني هذا، على أي حال، بل مشيتُ ذهاباً وإياباً، وأنا مستغرق تماماً في مشاريعي الخاصة بي، وتجاهلته؛ لكن هناك أناس ممن تجاهلوا تماماً خدعة القبعة تلك. على أي حال، عندما استنشطتُ غضباً فإنني لم أتجاهل هذه المضايقات فقط، بل تجاهلتُ كل شيء. صحيح أنني أرى كل ما يجري، لكنني لا أدعه يتسرب، إذا جاز التعبير، إلى وعيي حتى أفرغ، أو حتى يُثار اعتراض ما. وهكذا لاحظتُ بشكل جيد، على سبيل المثال، بأن (ن) لم يكن بأي حال من الأحوال في حالة تقبّل؛ وبينما هو يمسك بذراعيّ كرسيه، التفّ حوله بعدم ارتياح، من دون حتى أن ينظر إليّ، بل أخذ يحدّق ببلاهة، وكأنه يبحث عن شيء ما، يبحث في فراغ، وكان وجهه غير بادٍ عليه الانفعال لدرجة أن المرء ربما يعتقد بأنه لم يستوعب أيّ مقطع مما كنتُ أقوله، بل ليس هناك إحساس بوجودي. نعم، إن نزوعه كله، وهو نزوع رجل مريض، هو بحد ذاته مشؤوم بالنسبة لي، لقد استوعبته جيداً؛ مع ذلك واصلتُ الحديث كما لو كان ما يزال لدي بعض الأمل في وضع كل شيء في نصابه الصحيح مرة أخرى عن طريق حديثي هذا، وعن طريق العروض المفيدة التي قدّمتها ـ لقد كنت بنفسي قلقاً من التنازلات التي منحتها، التنازلات التي لم يُسأل عنها حتى. كذلك أعطاني شيئاً من

الارتياح أيضاً إذ ألاحظ أن الزبون، كما شخّصته بنظرة خاطفة، كان قد ترك في نهاية المطاف قبعته بسلام وطوى ذراعيه عبر صدره؛ إذ إن أدائي، الذي كان إلى حدّ ما، لابد لي أن أعترف، موجَّها إليه، بدا قد أعطى ضربة قاسية إلى مخططاته. وفي غمرة الغبطة التي نجمت عن هذه النتيجة فإنني ربما قد أسهبتُ في الحديث لفترة طويلة من الوقت، لو لم يرفع الابن، الذي كنتُ حتى الآن أراه مجرد عامل ثانوي في خططي، {لم يرفع} نفسه فجأة في فراشه ويسحبني عن طريق هزّ قبضته. من الواضح أنه أراد أن يقول شيئاً ما، أن يوضح شيئاً ما، لكنه لم تكن لدية القوة الكافية. في البداية اعتقدتُ بأنه كان شارد الذهن، ولكن عندما حدُّقت عن غير قصد في (ن) العجوز، فإنني فهمتُ الأمر بشكل أفضل.

جلس (ن) بعينين مفتوحتين على وسعهما، شاردتين، منتفختين، بدتا على شفير الانهيار؛ كان يرتجف وكان جسمه منحنياً إلى الأمام وكأن شخصاً ما يحمله إلى الأسفل أو يضربه على الكتفين؛ شفته السفلى، أو بالأحرى الفك السفلي نفسه ذو اللثة البارزة، يتدلى إلى الأسفل بعجز؛ فبدا وجهه كله ليس في محله؛ كان ما يزال يتنفس، ولو بصعوبة. لكنه بعد ذلك، كما لو أنه تحرر، تراجع إلى ظهر كرسيه، وأغمض عينيه، فيما عبرت وجهه علامة تنم عن إجهاد كبير ثم اختفت، وبعدها انتهى كل شيء. قفزتُ نحوه ومسكتُ يده عديمة الحياة، التي كانت باردة جداً لدرجة أن برودتها سرت في أوصالي؛ لا نبض يخفق هناك الآن. وهكذا انتهى كل شيء. مع ذلك، فقد كان رجلاً طاعناً في السن. وسنكون محظوظين لو حظينا حُبينا بمثل هذه الميتة السهلة. لكن كم من الأمور التي ينبغي القيام بها! وماذا على المرء أن يفعل أولاً؟ نظرتُ حولي من اجل المساعدة؛ لكن الابن كان قد سحب أغطية الفراش فوق رأسه، وكان بوسعي أن أسمع نشيجه الجامح. جلس الزبون، البارد كالسمكة، بلا حراكٍ على كرسيه، على بعد خطوتين من (ن)، وكان من الواضح أنه عازم على عدم فعل أي شيء، بانتظار ما سيأتي به القدر؛ لذلك بقيتُ أنا، أنا فقط الذي لابد أن أقوم بشيء ما، وأصعب شيء يمكن أن يُطلب من أي شخص القيام به، هو نقل الأخبار لزوجته بشكل يمكن احتماله، أو بكلمة أخرى، بشكل مبتكر. وكان بوسعي سماع خطواتها الثقيلة المتلهفة في الغرفة المجاورة.

ولأنها ما تزال ترتدي ملابسها الخارجية ــ إذ لم تجد الوقت لتغييرها ــ فقد جلبت قميص نوم كانت قد دفأته أمام النار لزوجها ليلبسه. «لقد نام»، قالت وهي تبتسم وتهز رأسها عندما وجَدَتْنا جالسين بلا حراك. وبكل ثقة الأبرياء أخذتِ اليدَ نفسها التي كنتُ قد حملتها قبل لحظة من قبل بوجل وامتعاض، وقبّلتْها بشكل مازح، وكيف تمكّنا نحن الثلاثة من تحمّل المشهد؟ ــ تحرّك (ن)، وتثاءب بصوت مسموع، سمح لها بأن تُلبسه قميص نومه، حيث تحمّل بمزيج من الانزعاج والسخرية لوم زوجته الرحيم بسبب إرهاق نفسه بكل هذا السير الطويل، والغريب أن ذلك قيل في الرد، لإعطاء بلا شك تفسير مختلف لنومه، وهو شيء ما ينم عن الشعور بالملل. ثم، وحتى لا يصاب بالبرد عند مروره خلال الممر المعرّض للتيارات الهوائية إلى غرفة أخرى، استلقى فترة وجوده في سرير ابنه؛ كان رأسه متدلياً نحو الأسفل بجانب قدميّ ابنه على وسادتين جاءت بهما زوجته على عجل. وبعدما انجلى كل

ذلك لم أجد شيئاً غريباً على نحو خاص في ذلك. ثم طلب صحيفة المساء، وفتحها من دون إيلاء أي انتباه إلى ضيوفه، لكنه لم يقرأها، فقط اخذ نظرة عجلى عليها هنا وهناك، وقدّم العديد من الملاحظات المزعجة للغاية بشأن عروضنا، وهي ملاحظات أظهرت حصافة مذهله، بينما لوّح بيده الحرة بازدراء، وإذ يطقطق بلسانه فإنه أشار إلى أن أساليبنا في العمل قد تركت طعماً سيئاً في فمه. ولم يكفّ الزبون عن إبداء ملاحظة أو ملاحظتين في غير محلهما، فهو بلا شك شعر بطريقته عديمة الإحساس بأن بعض التعويض كان بسببه بعد الذي حدث، لكن طريقته في تأمينه كان أسوأ ما قد اختار. ودُّعتهم في أقرب وقت، وشعرتُ بالامتنان تقريباً للزبون؛ ولو لم يكن هناك لما كان لي هذا القرار بالمغادرة بمثل تلك السرعة.

وفي الرواق قابلتُ السيدة (ن) مرة أخرى. وعند رؤيتي لتلك الشخصية المثيرة للشفقة قلتُ باندفاع بأنها ذكرتني قليلاً بوالدتي. ولأنها بقيت صامتة فإنني أضفت: «مهما يقول الناس، فهي تستطيع أن تصنع الأعاجيب. فالأشياء التي دمرناها يمكنها أن تقوم بها كلها مرة أخرى. لقد فقدتها عندما كنتُ ما أزال طفلا». لقد كنتُ أتحدث ببطء ووضوح متعمدين، لأنني كنتُ أفترض بأن السيدة العجوز كانت ثقيلة السمع. لكن لابد أنها كانت صماء تماماً، لأنها سألتْ من دون كلمات انتقالية: «وكيف ينظر زوجي إليك؟» فمن بضع كلمات متفرقة لاحظتُ، علاوة على ذلك، بأنها خلطت بيني وبين الزبون؛ بودّي أن أظن بأنه لولا ذلك لكانت أكثر انفتاحاً.

ثم نزلتُ على السلّم: كان النزول أكثر تعباً مما كان عليه الصعود، وحتى ذلك لم يكن سهلاً أيضاً. أوه، كثيرة هي الزيارات التي لا تتمخض عن أي شيء، ومع ذلك يجب على المرء الاستمرار.

اتركْه

كان ذلك في وقت مبكر جداً في الصباح، والشوارع نظيفة ومهجورة، وكنتُ في طريقي إلى المحطة. وبينما قارنتُ ساعة البرج مع ساعتي أدركتُ أن الوقت كان متأخراً أكثر مما كنتُ أظن وأن عليّ أن أغذ الخطى؛ وقد جعلتني صدمة هذا الاكتشاف أشعر بعدم اليقين من الطريق، حيث إنني لم أكن على دراية تامة بالمدينة حتى الآن؛ ولحسن الحظ، كان هناك شرطي على مقربة مني، هرعتُ إليه وسألته لاهثاً عن الطريق. ابتسم وقال: «أنت تسألني عن الطريق؟» قلتُ، «نعم»، لأنني لا أستطيع أن أجده بنفسي». فقال وتحوّل بحركة مفاجئة، مثل شخص يريد أن يكون وحيداً مع ضحكته، «اتركه!»

عن الأمثال

يشتكي الكثيرون من أن كلمات الحكماء هي دائماً ما تكون مجرد أمثال ولا فائدة من ورائها في الحياة اليومية، وهي الحياة الوحيدة التي نعيشها. عندما يقول الحكيم: «اذهبْ»، فهو لا يعني بأننا لابد أن نعبر إلى مكان ما حقيقي، إذ يمكننا القيام بهذا على أي حال لو كان العمل يستحق ذلك؛ إنه يعني القيام بعمل رائع ابعد من ذلك، شيء ما غير معروف بالنسبة لنا، شيء لا يستطيع المرء تحديده بدقة أكثر أيضاً، ومن ثم فهو لا يمكن أن يساعدنا هنا على أقل تقدير. إن كل هذه الأمثال تنطلق حقاً

لتقول فقط إن ما هو غير مفهوم يبقى غير مفهوم، ونحن نعرف ذلك بالفعل. لكن الهموم التي لابد لنا من أن نتصارع معها كل يوم، فهذا أمر مختلف.

وفيما يتعلق بهذا الأمر قال رجل ذات مرة: لماذا كل هذا التردد؟ لو تابعتم فقط الأمثال لأصبحتم أنتم أنفسكم الأمثال وبذلك تتخلصون من كل همومكم اليومية.

وقال آخر: أراهن أن ذلك هو مثل أيضاً.

قال الأول: لقد فزتَ.

قال الثاني: ولكن لسوء الحظ فزتُ في الأمثال فقط.

قال الأول: لا، في الواقع: في الأمثال قد خسرتَ.

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

الفهرس..

عن الكتاب.. والكاتب..

مقدمة..

القصص الطوال

تقرير إلى الأكاديمية

بلومفيلد.. الأعزب المسن

تحقيقات كلب

وصف الكفاح

(I)

(II)

(III)

ترتيبات حفلة زواج في الريف

(I)

(II)

الحكم

في مستعمرة العقاب

مدير مدرسة القرية {أو الخلد العملاق}

حارس القبر

طبيب ريفي

الصياد غراخوس

سور الصين العظيم

الرفض

فنان الجوع

امرأة صغيرة

الجحر

جوزفينه المغنية، أو شعب الفئران

القصص القصار

أطفال على طريق ريفي

في الترام

زيارة إلى منجم

المحامي الجديد

الطَرْق على بوابة القصر

زمالة

الزوجان

Notes

[←1]

(1) «لا تقتل»، هي الوصية السادسة من الوصايا العشرة التي وردت في التوراة.